أ.د. أحمد مُحمد الشرقاوي

# حكايات أندلسية

## المجموعة الأولى والثانية

دار البشير

فريق متميزون
E-BOOK

أ.د. أحمد مُحمَد الشرقاوي
فريق
متميزون
E-BOOK
حكايات
أندلسية
دار البشير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

**كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**

**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات: فريق (متميزون)** انضم الى الجروب

انضم الى القناة

# حكايات أندلسية

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرَّحيم

# عن الكتاب..

اشتمل هذا الكتاب على عشرات الحكايات الأندلسية، الممتعة الرائعة، كُتِبَتْ بلغةٍ رصينةٍ، وأسلوبٍ مشوِّقٍ، مضمَّنةً كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية لبلاد الأندلس، فضلا عن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. بدأت فكرة هذا العمل منذ عشرين سنة، عندما قرأتُ نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، فهاج شوقي وزاد شغفي لقراءة كل ما يمتُّ لتراثنا الأندلسي بصلة، فغدوتُ أقرأُ وأنتخب وأصوغُ، حتى تبلورت فكرةُ الكتاب، ولم أكتفِ بنقلِ الحكاية كما كُتبتْ، بل أعيدُ كتابتَها من جديد، بأسلوبٍ مبسَّط، مقتبسا بعض العبارات من النصِّ الأصلي، مع إضافة ما يلزمُ من تعريف بأشخاص وبلدان، ووصف لعصور وبيئات وأماكن ومعالم، حتى اتسمت الحكايات بالتنوع والثراء، والطرافة، وإني في الختام لأرجو أن يجد القارئ فيها المتعة واللذة، كما آمل أن يجد فيها حقلا خصيبا ونهرا فياضا للقيم والأخلاق، والكرامات وعلوّ الهِّمة ومحاسن الآداب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

## ملخص..

اشتمل هذا الكتابُ على أكثر من مائة وثلاثين حكاية ممتعة ومتنوّعة، كتبت بلغةٍ رصينةٍ، وأسلوبٍ مشوِّقٍ، متضمِّنةً كثيرًا من المعلومات التاريخية والجغرافية للديار الأندلسية، فضلًا عن الأحوال السياسية والحياة الاجتماعية لتلك البلاد، جمعها المؤلفُ من مئات المراجع الأندلسية القديمة والحديثة، في شتَّى الفنون.

بدأت فكرةُ هذا العمل منذ عشرين سنة، عندما قرأتُ نفحَ الطيب في غصن أندلس الرطيب للمقري التلمساني، أثناء اشتغالي بعمل موسوعةٍ حولَ حياة العلماء، أجمع فيها حكاياتهم ومآثرَهم ومأثوراتهم ونوادرهم، كنت قد قطعتُ شوطًا كبيرًا في جرْد كتب التراجم والأعلام، حيث لم تجرِ عادة الباحثين لزيارتها إلّا لِمَامًا، لنقل ترجمة، أو تحقيق اسم أو كُنية أو لقب، معَ كثرة ما فيها من فوائد، فقرأتُ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ت 463، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى ت 526، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب، وسيَر أعلام النبلاء للذهبي ت 748، وطبقات الشافعية للسبكي ت 771، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي 795، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر 852، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي 902، والبدر الطالع بمحاسن من بعْد القرن السابع للشوكاني 1350، ثمّ تطورت الفكرة إلى العكوف على المراجع الأندلسية عندما قرأتُ نفح الطيب، فكان مُنطلقي إلى غيره من مراجع أندلسية مثل الإحاطة في أخبار غرناطة، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وغيرها.

ومن ثمّ انصرفتُ عن فكرتي الأولى إلى قراءة كلّ ما يمتُّ لتراثنا الأندلسي بصِلة، أقرأ وأنتخب وأصوغُ، غيرَ مكتفٍ بنقلِ القصَّة كما وردتْ، بل أعيدُ كتابتَها من جديد، بأسلوبٍ مبسَّط، وربما أقتبسُ بعض العبارات من النصِّ الأصلي، ثمّ أعيدُ بناء الحكاية وإتمامَها، بإضافةِ ما يلزمُ من تعريفٍ بأشخاص وبلدان، ووصفٍ لعصور وبيئات وأماكن ومعالم؛ لتخرجَ الحكايةُ في النهاية بصورة نامقةٍ رائقة.

ونثرتُ حكاياتي بدون تقيّد بترتيبٍ تاريخي أو موضوعي، حتى لا يملّ القارئ منه، فالرتابة مدعاةٌ للسآمة، والشاعر يقول:

لا يصلحُ النفسَ إن كانت مصرّفةً

إلّا التنقُّلُ مــن حـــالٍ إلى حال

ومن ثمّ جعلتُها كالحديقة، جمالَها في وحشيّتها وتفنّنها، وتشابك أغصانها، واختلاط أزاهيرها، فضلًا عن تغريد أطيارها بألحانٍ شتى، ليشكّل ذلك كله لوحةً فريدةً، ومنظومةً واحدة. كذلك الحكايات المتناثرة تمثل لنا في مجموعها صورةً عن الحياة الأندلسية، وتسردُ قصة الأندلس، منذُ فتحها حتى سقوط آخر معاقلها، بل مِن بعد السقوط حتى يومنا هذا، فالحكاية الأندلسية لم تنتهِ بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مقدّمة

بسم الله الرحمن الرَّحيم

إنّ حبي الجمَّ للأندلس، وشوقي العارم إلى آثار الأجداد، وشغفي بجمال ذلك الفردوس؛ مما نشأ وترعرعَ بين أضلعي، وأزهر في قلبي، وسافر في دمي، وتمكّن في فؤادي، حتى صرتُ نَهِمًا لقراءة كلّ ما هو أندلسي، وإن اكتشفت لاحقًا مشاركةَ الكثير والكثير ممّن يذوبون مثلي شوقًا إلى هذا الماضي الجميل، ويحنُّون لتلك الذكريات الحُلْوة.

ورغمَ مرور خمسة قرون على سقوط آخر حصون الأندلس ومعاقلها، لكنْ يبقى عشق كلّ ما هو أندلسي حاضرًا في القلوب والوجدان، إلى حدِّ تسمية مدن وقرى وأحياء وشوارع ونوادٍ ومدارس ومساجد، ومطاعم وحدائق وأسواق في أرجاء الدنيا؛ بأسماء أندلسية، قرطبة، أشبيلية، جيان، غرناطة، شاطبة، طليطلة، مالقة، المرية؛ إحياءً لذكرى هذا الفردوس المفقود، وتشبُّهًا بتلك الحواضر، فضلًا عن محاكاة العمارة الأندلسية، والزخارف في بناء القصور والدور والمساجد.

كما انتقلت تلك العاطفة إلى أمريكا الجنوبية حيث هاجر الأسبان- ومنهم أندلسيون «موريسكيون»-، فانتشرت الأسماء الأندلسية في مدن الأرجنتين والبرازيل وبيرو وبوليفيا وفنزويلا وغيرها، وانتقل الطّراز المعماري والزخارف الأندلسية إلى تلك البلاد البعيدة.

على أنّ هذا الشوق قديمٌ قدمَ الأندلس، فقد كان أدباءُ المشارقة شغوفين بكلّ ما هو أندلسي، يتلهّفون على كلّ ما يكتب بالأندلس، وربما يقرؤونه قبلَ أن يصل للقارئ الأندلسي، فإذا اجتمع أدباءُ المشرق مع الأندلسيين كان الحديث أندلسيًّا صرفًا.

لما انصرف الأديبُ الأندلسي أبو الوليد ابن عبَّاد الخطيب من الحج، ونزلَ بمصر؛ اجتمع مع أبي الطيب المتنبي في جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، فدار بينهما حوارٌ أدبيٌّ، وكان من ضمن ما قاله المتنبي لمحاوره: أنشدني لمليح الأندلس، يعني الأديب أحمد ابن عبد ربه، فأنشده: يا لؤلؤًا يسبي العقـــول أنيقا

ورَشًا بتعذيب القلوب رفيقا

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

دُرًّا يعـــودُ من الحيــاءِ عقيقا

وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهِه

أبصرتَ وجهَكَ في سناهُ غريقا

فَلَمَّا أكمل إنشاده استعاده مِنْهُ المتنبي؛ طربًا له، وَقَالَ: يَا ابْن عبد ربه! لقد تَأْتِيك الْعرَاقُ حبوًا!([1]).

وكانت أبياتُ شعراء الأندلس التي تصف جمالها ومحاسنها تطيرُ إلى المشرق فتلهب القلوب شوقًا وغرامًا بتلك الربوع، يسير بها الركبان، فتهتز لها المشاعر والوجدان حنينًا لتلك الفراديس.

ولله درّ ابن خفاجة الأندلسي؛ حيث يقول: إن للجنّـــة بالأنـدلس

مجتلى مرأى وريّا نفسِ

فسنا صبحتِها من شنبٍ

ودُجى ظلمتِها من لَعَسِ

فإذا ما هبّت الريـح صبًا

صحتُ واشوقا إلى الأندلسِ

وقول ابن هانئ:

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظلّ وأشجار وأنهار

وتلك الأبيات التي قالتها حمدة أو حمدونة الأندلسية ثمّ ادّعاها بعض شعراء الشام، فانتحلها لنفسه، وهي من أروع ما قيل في الروضة والمقيل، والبرد والظلال في الحرّ والهجير: وَقَانَا لَفْحَـــةَ الرَّمْضَـــاءِ وَادٍ

سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَميمِ

نَزَلْنَا دَوْحَـــهُ فَحَــنَا عَلَيْنَا

حُنُوَّ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ

وَأَرْشَفَــنَا عَلَى ظَمَــأٍ زُلاَلًا

أَلَـــذَّ مِــنَ الْمُــدَامَة لِلنَّدِيمِ

يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى

فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظيم ([2]) ولعلَّ قصة العقد الفريد أبلغُ دليل على عشقِ المشارقة لكلّ ما هو أندلسيّ وترقُّبهم للمسيرة الأدبية في تلك الروابي الخضراء، حتى قال الأديب ابنُ الربيب في رسالته لأبي المغيرة ابن حزم الأندلسي، يغبطُ أهل الأندلس: «إنّي فكّرت في بلدكم أهل الأندلس، إذ كان قرارةَ كلّ فضل، ومقصدَ كلّ طرفة، ومورد كلّ تحفة، إنْ بارت تجارةٌ أو صناعةٌ فإليكم تُجلَبُ، وإن كسدت بضاعةٌ فعندكم تنفَقُ، مع كثرة علمائه، ووفور أدبائِه، وجلالة ملوكِه، ومحبتهم للعلم وأهله، ورفعهم من رَفَعَهُ أَدَبُه...» وكان مما قاله ابن الربيب: «لو نفثَ ببلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلًا عمن في الدور والقصور، وتلقّوا قوله بالقبول، كما تلقّوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بـ «العقد»، على أنه يَلْحَقُه فيه بعضُ اللوم؛ إذ لم يجعل فضائلَ بلده واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه»([3]).

عندما علم الأديب الوزير الصاحب بن عباد بكتاب ابن عبد ربه العقد الفريد، وكان كتابًا أدبيًّا على غرارِ عيون الأخبار لابن قتيبة الدينَوَريّ؛ قسمه ابنُ عبد ربه على عدّة فنون، وسمّى كلّ باب منه على نظم العقد، كالواسطة والزبرجدة والياقوتة والزمردة، وما أشبه ذلك؛ أرسل الوزيرُ ابن عباد في طلبه، فجاءت إليه نسختُه بأسرع ما يكون، فلمّا وصلته تصفّحها بلهفة ونهمٍ، وتفحّصها بعنايةٍ، لكنها سرعان ما خيَّبت ظنّه؛ إذْ كانت على غير ما توقع، حتى قال: هذه بضاعتُنا ردَّت إلينا! ظننتُ أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتملٌ على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه، فردّه؛ إذ ألفَى كلّ ما فيه مشرقيًّا، باستثناء بعض أخبار ملوك الأندلس وقليل من أشعارها، بينما كان يأملُ أن يجدَ حكايات وطرائف ولطائف أندلسية ([4]).

مِن هنا، كان كتابي «حكايات أندلسية» الذي قمتُ بجمع مادّته من مئات الكتب في شتى الفنون؛ غيرَ قانعٍ بدوْر الناقل الجامع، بل طرتُ كالنحلة الرشيقة أميالًا وأميالًا فوق سطورِ الكتب، أطوِّف بحقول المعارف، وأفتِّش في بساتين الأدب، وأرفرفُ فوق برايا الفكر، وأجتني قطوفَ الحكايات، وأحطُّ على زهورِ الأسفار، فأتنسّم عبقها وشذاها، وأجمعُ رحيقها، حتى جمعتُ واستخلصتُ حكاياتي من مئات الكتب الأندلسية في الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم البلدان والرحلات والروايات والمقالات، بل وكتب التفسير والفقه والأصول والوعظ الأندلسية، فضلًا عن حرصي على قراءة كلّ ما يمتُّ للأندلس بصلة، وما كتبه أندلسيون في شتى أبواب العلم، وما كُتب عن الأندلس، وما كتبه الإسبان بعد سقوط غرناطة آخر معاقل الأندلس، وما كتبه مستشرقون، كما كنتُ شغوفًا بمتابعة الروايات الأندلسية الحديثة، ودراسة المقالات والبحوث.

لم أكتفِ بنقل الحكايات التي بذلتُ وسعي في جمعها، كما هي، بل أعدتُ صوغها من جديد، بأسلوب أدبيٍّ لا تكلُّف فيه، مضيفًا ما تحتاجه من فوائد ومعارف، كما يضيف الطاهي إلى طبخه ما ينتخبه من أفاويه وأبازير،([5]) وما يستحسنه من حلوٍ أو حامضٍ، ليقدِّم في النهاية أطباقًا لذيذةً شهيّةً تسرُّ الناظرين.

على أنّ بعض هذه الحكايات، وإنْ لم تقع على أرض الأندلس، لكنّ أبطالها أندلسيون، وأخرى لم تردْ إلّا في المراجع الأندلسية، أو كان للكاتب الأندلس قصبُ السبق في سردها.

وقد التزمتُ في هذا البحث الدقة والأمانة، كما تحرّيت الصدق والتوثيق، فاستبعدت روايات ملفَّقة، وإن كانت شائعةً ذائعة، وتجنَّبتُ أخطاء بعض الكتّاب وتجنياتهم على الحقيقة إلى حدّ الافتراء على بعض الشخصيات الأندلسية، كذلك تحاشيتُ ذكر الشخصيات المختلقة التي ليس لها ذكر في تاريخنا الأندلسي، ولا في تاريخ الإسبان كشخصية سليمة جعفر، التي ابتدعتها إحدى الكاتبات من وحي خيالها، فكان حرصي على تحرّي الحقيقة، لا أكتب أيّ حكاية ما لم تكن ذات جذور في تراثنا الأندلسي، حتى بذلتُ وقتًا وجهدًا في توثيق الحكايات، وتحقيق أماكنها وزمانها وأشخاصها، وملابساتها، فقد تلتبس أسماءُ الأعلام أو الأماكن، فتحتاج لتحقيق، ونظير ذلك إشكالات كثيرة احتاجت منّي لإمعان نظر، واستغرقت منّي ساعاتٍ وساعات في التحقيق والتدقيق والمقارنات والفروق، لكنّها كانت من أجمل الساعات، وأحلى الأوقات.

أَحاديثُ أَحْلَى في النُّفوسِ مِنَ المنى

وأَلطفُ من مَرِّ النسيمِ إذا سَرَى

لها أحاديثُ من ذكــراك تشغلها

عن الشـــراب وتلهيها عن الزاد

وكلِّي أملٌ أن يخرج القارئ الكريمُ من هذا الكتاب ملمًّا بتاريخ الأندلس، ومعرفة بلدانها وأنهارها وجبالها، وأشجارها وثمارها وأطيارها، وأن يتعرف على حكّامها، وأشهر وزرائها وقضاتها، وعلمائها وأدبائها، وأيام عزِّها وأمجادها، وانتصاراتها، وعهود قوتها ورخائها، ووحدة كلمتها وروائع حضارتها وازدهارها؛ كما يقف على عوامل ضعفها وتناثر عقدها، ويعي أسباب سقوطها وتسلط أعدائها، بعدَ تفرّقها إلى ممالك متناحرة، كما سيشارك أهل الأندلس أفراحهم ومسرّاتهم ومباهجهم، ويندبُ ما ألمّ بهم من مآسٍ ونكبات، تخنِقُ العَبَرَات، وتعجَزُ الكلمات عن وصفِ فظاعتها وهولها.

وحكاياتي التي جمعتها من بطون الكتب متنوّعة في مجالاتها، وزمانها، وأماكنها، وأشخاصها، وقد صنَّفتها حسب الموضوعات، فهناك حكايات أغرب من الخيال، وحكايات حول النساء والجمال، والعشق والهجر والوصال، والورع والتُّقى والعفاف، وحكايات الرحالة الأندلسيين الذين جابوا أقطار الدنيا حتى بلغوا فارس والهند شرقًا، والمجر وبحر قزوين شمال شرق أوروبا، وبلاد النورمانديين بأقصى الشّمال، وحكايات الرحالة غير الأندلسيين حين زاروا الأندلس، وحكايات ومحاورات أدبية، وحكايات في السياسة والحكم، وأخرى دارت بين الأمراء والعلماء، وحكايات حول السنن والمبتدعات، وحكايات تندب الأطلال وأخرى مرثيات، وحكايات في مكارم الأخلاق، وكرامات الأولياء، وحكايات في طلب العلم وآدابه وهمة طالبه، ومكانة العلماء ومآثرهم، ورحلاتهم وكفاحهم، وحكايات السقوط وما أعقبه، وحصار البلدان الأندلسية وخنقها وتجويعها من قبل جيوش النصارى، ووحشيتهم، وما أعقب ذلك من تهجير وتنصير، ونهب وسلب، ثمّ حكايات من سجلّات محاكم التفتيش التي نشطت للتنكيلِ بمن بقي على إسلامه، ومناظرات بين علماء الإسلام وغيرهم، وقعت في بلاد الأندلس. كلّ تلك الحكايات وما أضفته من فوائد تشكّل لنا صورة الأندلس الجميلة، وتسبر أغوارها، وتتوغل في أعماقها، وتبرز أعلامها، وتصف أحوالها.

وأخيرًا: فلكم تمنيتُ وأنا أصوغُ هذا الكتاب أن أزور الأندلس، وأراني محلّقًا فوق أجوائها، ثمّ أهبط على ترابها، وأطوِّف ببلدانها، أسير في دروبها الضيقة، أجتازُ شوارعها العتيقة، وأمشي في الأسواق العامرة، أتنسّم عبقَ التاريخ، وأعاين مسارح الأحداث، وأقتفي آثارها، وأرتادُ أماكنها، وأعاين ما كتبتُه عن ربوعها وقراها وأنهارها وجبالها وسواحلها ومرافئها، وقلاعها وحصونها، وحدائقها البهيجة ومُنْياتها الساحرة، ومنتزهاتها الفسيحة، وددتُ أن أكون هناك أشتمّ عطر الآس والنيلوفر والورد والياسمين، وأحدِّق في عيون النرجس والسوسن، وأبتهج بشقائق النعمان الأحمر، ونوَّار الخيري الأصفر، والبنفسج، ثمّ أقصدُ مساجدها الجامعة سائرًا في شوارعها المرصوفة، باكيًا لحالها، ناعيًا ما اعتراها وشوّه جمالها من لوثةِ الصلبان، ورجس الأوثان، وخنقِ الأذان، بينما تدقُّ النواقيس مجلجلة تصمُّ الآذان، كم تمنيتُ أنْ أذرف الدمع سخينًا وسخيًّا عند معاهدها التي درست معالمُها وذهب تألُّقها، وأجودُ به رويًّا فوق ملاعِبها التي تلاشى حسنها ورونقها، وأجلسُ متأمِّلًا أطلالَها المقفرة، ومرابعَها الموحشة، مردِّدًا قولَ ابنِ خفاجة: عاثت بساحتِك الظِّبا يا دارُ

ومحـــا محاسنُك البِــلى والنارُ

فإذا تردَّد في جنابـــك ناظر

طال اعتبار فيـــك واستعبار

أرضٌ تقاذفت الخطوب بأهلها

وتمخضت بخرابـــها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها

لا أنت أنت ولا الديار ديار

وكم تاقت نفسي أنْ أطير إلى ربوع الأندلس، وأدخل مع الجموع مُنْيَة نصر ومُنْية الرصافة وقصرها، وفحص السرادق، ومُنْية المصحفية، ومرج السدّ، ومرج الخزّ، وغيرها من المُنْيَات والمنتزهات والمروج التي تبهج النفوسَ، وتسرُّ الناظرين، أناجي أطيارَها، وأصغي إلى شجوِ الحسُّون " أبو الحسن" -كما يسميه الأندلسيّون- وأستمع لقصيدة الزرزور وقد باتت الجاريةُ تلقّنهُ أبياتَها، لتفاجئ بها ملك الأندلس في الصباح المشرق، فيهتزَّ طربًا لمديحه، ثمّ يثني عِطْفَهُ لحاشيته؛ يتباهى بسماعِ منطق الطير، مضيفًا ذلك إلى مآثرِ ملكِه، وأبهةِ سلطانه، وطريف مفاخره، لكنّ الفرصةلم تسنح لي، أن أشهد كلّ ذلك، ولعلّها تواتيني قريبًا بإذن الله، فأعيش صفحاتِ هذا الكتاب واقعًا وتصديقًا، كما عشتها خيالًا وتصوُّرًا.

أُسرِّحُ في محاسنها العيونا

وأذْرفُ في معالمها الشّئونا

بلادٌ كيف جال الطرفُ فيها

يرى أثرَ الجدودِ الغابرينا

تكادُ قبورُهم ممَّا حَوَتْه

يقدِّسُها الورى حجرًا وطينا

تَقلَّص ظلُّهم عنها وكانَتْ

أعزَّ بمن حَوَت منهم عَرينَا

ولكم تمنيت أنْ أزور أعجوبة الدنيا ورمانة الفؤاد، وفريدة الزمان، وعروس البلدان غرناطة، لوددت أنْ أجلس على سفحٍ من سفوحها، أراقب سقوط الثلوج على جبل شلير، وأنحدر مع جداول الماء فوق السهول، وأسبح في نهر حدرّوه، وشلير وبيرو، مستمتعًا بصباح غرناطيٍّ باسم، وأدخل المدينة المحاطة بالأسوار من باب إلبيرة، وأعطف على سوق القيسارية، وأستريح قليلًا على الأريكة الخشبية أمام رحبة الْجَامِع الْأَعْظَم، فأرتشف ماءَ الورد

المقطّر، وشراب الرمان الحلو، ثمّ ألتهم فطائر الزيتون مع الجبن الشريشي، وأحلّي بتين مالقة المجفف، ثمّ أمضي إلى حي البيازين، أزور بيت صديق قديم التقيتُ به على صفحات مخطوط أندلسي، وأجرّب ذلك المفتاح القديم لعلّه يفتح بابًا عتيقًا فأناجي جدرانَ البيت الذي خلا من أهله، هنا كان يسكن الأجداد، الذين غادروا منذ قرون خلت، لم يبق بحوزتهم سوى المفتاح دليلًا على حقِّ العودة، ثمّ ماتوا وتركوها للأحفاد، ولا يزال الأمل يراودُهم جيلًا بعد جيل.

أخيرًا وصلتُ لياقوتة الدنيا، قصور الحمراء، دلفتُ من بهو الرياحين إلى بهو الأسود، ثمّ صعدتُ لبرج قمارش لأطلّ من خلاله على منظر ساحة القصر وباحاته، وأطلق البصر إلى المدى البعيد، وتمرّ على خاطري عبارة الأستاذ «تشويكا جويتيا» (Chueca Goitia): «كلّما تأملتَ الحمراء أكثر، كلّما تأكد لديك الشعورُ بأن رغبة المسلمين كانت العيش في جنة»

ثمّ أتنفس الصّعداء عند بهو الرياحين، وجنات العريف، وأقطف ثمار البرتقال، وأستمع لشدو الهَزار مترنِّمًا بأبيات نزار([6]): في طيب جنات العريف ومائـها

في الفل، في الريحـان، في الكبَّاد

الزخرفات أكاد أسـمع نبضـها

والزركشات على السقوف تنادي

قالت هنا الحمراءُ زهوَ جدودنا

فاقـرأ على جدرانهــا أمجادي

لكنْ يا رمانة المدائن، ويا حاضرة الدنيا، إنْ لم أسافر إليك عبر الطائرة، إن لم أحصل على إذن دخول بلدٍ كانت يومًا من بلاد الإسلام، فإنّني من خلال كتابي سأمضي إليك، مسافرًا عبر السطور، محلِّقًا على متن الصفحات، طائرًا فوق رباكِ، كعابر سبيلٍ سأجتاز حاجز الزمان وأطوي المكان، جائلًا من حكاية إلى حكاية، لأثبت للجميع أنْ لا حدودَ أمام خواطر العاشق الولهان، وحالي هنا كحال المعتمد بن عباد عندما حُرم من مملكته ونُزع من سلطانه وغُرّب جنوبًا إلى قفارِ المغرب بعيدًا عن فراديس الأندلس، فنظر ذاتَ يوم لطيرٍ مهاجرٍ يؤوب إلى موطنه في الشمال، لينعم بعد دفء الشتاء بربيع مبهج وصيف معتدل: (بكيتُ إلى سربِ القطا إذ مررن بي

سوارحَ لا سجنٌ يعوقُ ولا كبلُ)

(ولم تكُ واللهُ المعيذُ حسادةً

ولكِن حنينًا أن شكلي لها شكلُ)

وكأنه يعارض قول مجنون ليلى:

بكَيْتُ على سِرْبِ الْقَطا إِذْ مَرَرْنَ بي

فَقُلتُ، ومِثْلي بالبُكـــاء جُديـــرُ

أَسِرْبَ الْقَطا، هلْ مَنْ يُعيرُ جَناحَهُ

لَعلِّي إِلى مـــن قَد هَويتُ أَطِيـــرُ

نعم لا تلمني يا عاذلي، فإنّ حبّ الأندلس ضرب من العشق، ليس مسًّا من الجنون.

وإنْ نسيت فلن أنسى حين أطلُّ من شرفات الحمراء على جنة العريف، وأرى من بعيد أبراجَ كاتدرائية غرناطة التي بُنيت على أنقاض مسجدها الجامع، فأجدني أردِّدُ قصيدة ابن الراوندي، أشهر المراثي الأندلسية، فأردّد مطلعها المشوّق: جَادكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمَى

يا زمـــانَ الوَصْـلِ بالأندلس

لــم يكـــن وصلُك إلّا حُلُمًا

في الكَرَى أو خلسـةَ المختلس

على أيّة حال، فلقد روَّى هذا العملُ ظمئي، وأشبع نهمِي، وغذَّى عاطفتي، حتى كأنّ الزمان يعود بي لقرون خلتْ بها، وطائر الشوق يحلّق بي في سماء الجزيرة الأندلسية، ويحطّ على صعيدها، حتى غدوتُ أعيشُ بين أهلها، أنعم معهم بلذيذِ عيْشها، وأسرِّح ناظري في رياضها ومُنْيَّاتِها، وأمشي الهوينى معتمرًا قلنسوتي على جُبَّتي، أو مرتديًا بُرْنُسِي، وأمضي في دروب قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة وطليطلة، وجيان وسرقسطة، وإلبيرة، أعبر جسر الرصافة، أجتاز مقبرة الربض، وأزور مقبرة قريش، ومقبرة العسال، ومقبرة باب إلبيرة، وجبّانة باب الفخّارين، وباب المحروق، أدخل البستان، أقطف الرمان السفري، من منيات قرطبة، وأجتني البرتقال من باحات مساجدها، وأجمع الزيتون من بادية أشبيلية، وأقطف التين من جِنان مالقة. إنه الفردوس المفقود.

أوْقِدِ النارَ من رســائل سلمى

واسكب الماء فوقها من دموعي

ولقد حوى هذا العملُ كثيرًا من معالم الأندلس وأعلامها، وعرّج على أغلب أحداثها المؤثِّرة، وتضمَّن محاسن الأندلس ومآثر أهلها وأمجادها، وأعطى صورةً للحياة الأندلسية، ووصفًا للمدائن بجمالها وألقها، والقرى والبوادي

بحسنها وبساطتها، والبوادي والبراري بوحشيتها وجمالها الفطري، كما يرسم هذا الكتاب لوحاتٍ للطبيعة الأندلسية الساحرة، الجبال التي تكتسي بالخضرة، وتعتمرُ فوق رؤوسها بعمائمَ ناصعة البياض من الثلوج التي تذوب رويدًا رويدًا، فتنسكب في الجداول وتجري في القنوات بمائها العذب النمير، فيرتوي كلّ حيٍّ من نباتٍ وحيوان وإنسانٍ، والمدن بأنوارها المبهرة، وبيوتها الأنيقة المزهرة، وشوارعها الفسيحة وأرصفتها، وأزقتها الضيقة وسككها النظيفة، التي يحلو السّيرُ فيها، اقتفاء لآثار الأجداد وخُطاهم، والتجوالُ حول أسوارها وحصونها وقلاعها التي تحرسها من أطرافها، والأسواق العامرة بكلّ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وكلّ ما هو معروضٍ فوق البسطات الخشبية، أو في المكاتل والسلال، أو منضود في واجهاتٍ الحوانيت، وعلى أرففها بالداخل، والريف الأندلسي بجماله الساحر وحسنه الآسر، وربيعه الناضر، وعطائه الزاخر.

لقد جمعتُ هذه النفائس لنفسي أولًا، فاستمتعتُ بقراءتها، وابتهجتُ بها؛ بل كنت أقرأ القصة مرات ومرّات، لا أملُّ من قراءتها، فالحديثُ عن الأندلس ذو شجون، وكما قال الشاعر: أسكّان المعاهد من فؤادي

لكم في كلّ جارحة سكونُ

أكرّر فيكم أبدًا حديثي

فيحلو والحديث بكم شجونُ

وأنظمه عقودًا من دموعي

فتنثره المحاجرُ والجفونُ

وأبتكر المعاني فِي هواكم

وفيكم كلّ قافية تهون

وأعتنق النسيم، لأن فِيهِ

شمائل من معاطفكم تبِين

وكم لي فِي محبتكم غرام؟

وكم لي فِي الغرام بكم فتون؟ ([7]) فكتبت حكاياتِ الأندلس مكلَّلة بالدرر واليواقيت ليكتمل المشهد، وكلّما أعطيت الحكاية لأحد من خاصّتي أو طلابي وجدتُ استحسانًا وتحفيزًا؛ بل إنني عمدتُ لإلقاء خطب ومحاضرات بعنوان حكايات أندلسية، وقصدتُ إلى أن أحكيها على طلابي في نهاية كلّ محاضرة،

فكانوا ينتظرونها بشوقٍ وهيام، وكذلك كنتُ أحكيها في مجالسي، فإذا عدتُ لبيتي أبادرُ إليها لأضيف ما خطر من أفكارٍ وتواردَ من معانٍ.

ومن نفحات هذا العمل وبركاته أنّني عشت أوقاتًا طيبة وأمضيت ساعات طوالًا في سيرة علماء الأندلس وكفاحهم في طلب العلم، ورحلاتهم إلى المشرق لاستكمال ما تعلموه على أيدي علماء الأندلس، ومكابدتهم ومعاناتهم الغربة والحرمان وضيق ذات اليد، وشظف العيش، ثمّ عودتهم إلى بلادهم كالطير عند رواحها بطانًا، ينشرون العلم في بلاد الأندلس مما جعلها منارة في سائر العلوم وواحة للأدب.

أوقاتًا ماتعة رائعة أمضيتها أتنسّم عبق ماضي هؤلاء الأفذاذ، وأتتبع مسيرتهم، أتقلّبُ معهم من بلدٍ لبلد، وننتقل من عهدٍ لعهد، نغشى مجالس الملوك، ونختلف إلى حلقات الشيوخ، مترافقين في تلك الرّحلات التي خلّد التاريخ ذكرها، وأبقى على مدى الدهر آثارها.

أرجو في الختام أن يستمتعَ القارئ بهذا الكتاب، ويستفيدَ منه، وأن يكون عملًا خالصًا لوجه الله الكريم، وإسهامًا لمكتبة الأدب الهادف الرشيد.

وإني لأتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من أعانني على كتابة هذا العمل، وأخص بالشكر زوجتي الغالية ، وولدي عبد الرحمن رحمه الله، فقد كان يساندني في كتابة هذا العمل، وأسأل الله أن يحفظ أبنائي جميعًا، وأن ينفع بهم، وجميع أبناء المسلمين.

والله الموفِّق،،

كتبه

أحمد محمد الشرقاوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة الأزهر

والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقًا

ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

مصر المحروسة

ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر 1442هـ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-1-

# الوصيةُ المباركة

تُوُفّيَ رجلٌ صالحٌ من أثرياءِ مُرَّاكش وأعيانها، كان تاجرًا أمينًا صدوقًا، وكان له ولدٌ وسيمٌ بهيُّ الطلعة، طيّبُ القلب، غير أنه من أهل البَطَالَةِ واللهو، ولطالما جاهد الوالدُ في إصلاحه وسعى لتغييره، بلا جدوى، وكم دعَا له في الأصائل والأسحار، دون أن يقطع الأمل يومًا في صلاحه، إلى أن مات الوالدُ المكلوم قبل أن تقرّ عينُه بصلاح هذا الولد.

وبعدَ أيام من الوفاة وتقسيم التركة، خرج الابن عازمًا على تنفيذ الوصية.

كان أبوه- رحمه الله- قد أوصى قبلَ أن يموت بأيامٍ أنْ يأخذ ألف دينارٍ من تركتِه، فيدفعَها للشيخ سيدي أحمد أبي العباس السَّبتي الخزرجي، وهو شيخ مغربي من صُلحاء عصره، عُرف بالحلم والصبر والإحسان حتى بمن يُؤْذِيه، والبرّ والعطف على اليتامى وَالْمَسَاكِين، مع تواضعه.

كان يجلس حَيْثُ أمكنه الْجُلُوس من الْأَسْوَاق والطرقات، ويحضّ النَّاس على الصَّدَقَة، وَيَأْتِي بِمَا جَاءَ فِي فَضلهَا من الْآيَات والْآثَار فتنثال عَلَيْهِ الدراهم والدنانير، فيفرقها على الْمَسَاكِين والأرامل، وينصرف.

قطع الشابُّ من مراكش- في قلب المغرب إلى سبتة بأقصى الشمال- مسافة لا تقل عن 400 ميل، حتى وصلَ بيت سيدي أبي العباس، وسأل عن بيته، ووصل إليه، ووقف على الباب وطرقه برفقٍ، ففتح له الشيخ. سلّم الشابُّ على الشيخ وصافحه، وأمعنَ النظر في وجهه، فوجده جميل الصُّورَة حسنَ الثِّيَاب، عندما أخبره أنه ابن التاجر فلان من مراكش، عانقه الشيخُ، ورحّب به، وسأله عن أبيه، ففاضت الدموع من عينيه، وقال: إنَّ أبي تُوُفِّيَ منذ أيّامٍ، وأوصانِي أن أدفعَ إليك هذهِ الصرة، وبها ألفُ دينارٍ، هي لك.

قال الشابُّ: فبكى الشيخ تأثُّرا بموت أبي، وأخذ يدعو له بالرّحمة والرضوان، وأطال في الدعاء، حتى انشغلنا عن الغرض الذي قدمتُ من أجله.

فأعدتُ عليه القول: إنَّ أبي تُوُفِّيَ وأوصانِي أن أدفعَ إليك هذهِ الألفَ دينارٍ!

قال: يا بني جزاه الله عني خيرًا، قد قبلتُها. فناولتُه صرة الدنانير، فأخذها بين يديه، ثمّ أعادها إليَّ، وقال وهو يبتسم: قد قبلتُها وصرفتُها إليك.

فتعجّبت من صنيعه، وتحيَّرتُ ماذا أفعل؟ وارتبتُ في الأمر، وقلتُ له مستنكرًا: يا سيدي، كيف تردُّ وصيةَ أبي!؟ وما تأمرُنِي أن أفعلَ بها! لقد ترك لي أبي خيرًا كثيرًا.

قال: خُذْهَا. فانصرفتُ من عنده، وعدتُ لمراكش، وأنا مرتابٌ من أمره، مندهشٌ من عجيب صنيعه.

ثمّ قلتُ لنفسي: وماذا علي! أنا أنفقُ مثلَ ذلك على ملذاتي، فأخذتُها في مَحْفَظَةٍ، وعدت إلى مراكش، وخرجتُ ألتمسُ امرأةً حسناء فاتنةً أتلهَّى بها، وأتسلّى عن مصابي، حتى وجدتُ على أحد الجسور امرأةً منتقبةً على دابَّةٍ فارهة، ومعها غلامٌ وضيءٌ في الرابعة عشر، يمسكُ بلجام دابتها، فأشرتُ إلى الغلامِ وغمزتُ له، ففهم مرادي، وغمز لي، فأشرتُ إليه أن يقودها ويتبعني، ومضينا في صمتٍ إلى بُسْتَانٍ لي، ليس ببعيد من مكان لقائهما، فَنَزَلَتِ المرأةُ، فأدخلتُها إلى قُبَّةٍ مفروشةٍ ومبطّنةٍ بالصّوف، كانت في وسط البستانِ، وأخذ الغُلامُ الدَّابَّةَ وتنحَّى عنا، وقال: أَغْلِقِ الباب.، ففعلتُ، ثمّ أقبلتُ وأنا في فرحٍ وسرورٍ بهذا الصّيد السّهل، ودخلتُ إلى القُبَّةِ التي كانت مهيئة لمجالس الأنس، فيها الأرائك والفرشُ والوسائد، تتوسطُها منضدة كبيرة، صُفّت عليها الأكوابُ والكؤوس، وفي أحد الأركان خزانةٌ أنيقةٌ بها كلّ آلات المجالس والمنادمة ، فجلست ألتقطُ أنفاسي على أريكة، وبقيتُ أمنّي نفسي بساعاتٍ هنيّة مع تلك الفتاة، فنظرتُ إليها، وهي لا تزال منتقبة، فأبهرتني ملاحةُ عينيها، ولاح لي ما ينمُّ عن جمالها، وزاد اشتياقي وتهيامي، وطلبت منها أن تسفرَ عن وجهها، وبعد إلحاح أسفرتْ، فإذا هو كالبدر في تمامه، قد اجتمعت الملاحة فيه معَ حسنٍ ورواء ونضارةٍ، كأنها من بنات الملوك، تعجبتُ كيف لغانيةً أن تكون بهذا الحسن والرّواء.

قُلت في نفسي: لا وقت للتفكير، بل هذه ساعةُ راحة البال، وفراغ العقل. نظرت إليها فدقّ قلبي طربًا بهذا الحظ، وقرّت عيني بتلك السّعادة المرتقبة مع هذه الفاتنة اللعوب، التي سأنالُ منها أغلى ما تملكُ بأبخس الأثمان، يا لها من غنيمةٍ باردةٍ وصيدٍ سهلٍ ثمين، لن يكلّفني سوى بضع دراهم أو دنانير! لم أفكّر في عاقبة هذ الأمر، ولَم أشغل قلبي بالحلال والحرام.

حان الوقتُ، فدنوتُ منها أبتغي وصلَها وأجتلي حسنَها، وآملُ أن أحظى بها، ومددتُ يدي نحوها، بشوقٍ عارم، وشغفٍ بالغ، لكنّها انتفضت كالعصفور، وتباعدت كاليمامة البرية، ونفَرت كظبيةٍ وحشية، وانزوتْ في أحد أركان القبة، وأخذت تبكِي وتنتحب، فتكدّر صفوِي، وقلتُ لنفسي: أنتظرُ قليلًا حتى ينتهي بكاؤُها. فانتظرتُ لحظات قليلة كأنها الدّهرُ بطوله، لكنّ بكاءها طال، فأشفقتُ عليها، ورثيتُ لها حتى بكيتُ لبُكَائِهَا، وقلتُ لها: ما شأنُك؟ فقالتْ وهي تكفكف دموعَها بيدٍ ناصعة، وتمسك بمنديل من الحرير بأصابع كأنها البَنَان في لطافتها؛ قالت بصوتٍ ينمُّ عن شِدةٍ وضجر: افعلْ ما دعوتَنِي لأجلِهِ ودعْ عنكَ هذا. وأشاحت عني بوجهها، عادت تنتحبُ بصوتٍ مكتوم، فقلتُ لها

معاتبًا ومداعبًا: إنَّ الشيء الذي دعوتُكِ لأجلِهِ لا يصلَحُ مع البُكَاءِ، بلْ مع الأنْسِ وانشراحِ الصدرِ وزوالِ الانقباضِ ورفعِ الخَجَل!

قالت: لا شأنَ لك بي، هأنذا سأترُكُ البُكَاء، ونرجعُ للأُنسِ على ما تُحِبُّ، وأوَفِّي لك غَرَضَكَ، وأستسلمُ لرغبتك. عجبتُ من فصاحتها ولباقتها، وحزمها وشكيمتها!

قلتُ: لا، حتى أعلمَ سَبَبَ بُكَائِك.

صرختْ فيّ، وقالتْ بتعالٍ وأَنَفةٍ أذهلتني، وعيناها تحدقان في أعلى الحائط الذي أقف أمامه: قلتُ لك هذا أمرٌ لا يعنيك في شيء، فدعِ الفضول، ولا تسألني عنه! حسبك أن تنال ما تريد.

وهنا، زاد شغفي بها، فما أجملها وهي حزينة نافرة، وأجملُ من ذلك وهي غاضبة مقطِّبة، كما زاد فضولي لمعرفة ما وراءها من خطبٍ، حتّى تبدل حالي من طالبٍ لمتعةٍ، وراغبٍ في قضاء وطرٍ، وإرواء شهوةٍ عارمة من فتاةٍ عابرة، ومن متكلِّم باستعلاء وازدراءٍ لها؛ إلى متوسّلٍ أخاطبها بلطفٍ، وتبدلت نظرتي لها، فبعد أن نظرت إليها نظرة ابتذال، صرتُ أنظر بطرفِ عيني لهذا الوجه الوضيء الذي كساهُ الوقار، بل تحولتُ إلى فضوليٍّ مشتاقٍ لمعرفة شأن هذه الفتاة، بعد أن كانت بمثابة عابرة سبيل لي لا يهمني حتّى معرفة اسمها، إذْ بان لي أنها لا يمكنُ أن تكون كما ظننتُها، فتاةً لعوبًا، جوّالةً من بائعاتِ الهوى لمن يدفعُ لها.

فأَلْحَحْتُ عليها في السؤال عن حقيقة أمرها، وفتحتُ الباب، وأتيتُ لها بطبق فاكهةٍ قُطفت للتوِّ من البستان، وإبريق ماءٍ عذبٍ فراتٍ.

مدت يدها، وصبت من الإبريق في الكأس، وشربت، ثم نظرت لطبق الفاكهة، ولم تمد يدًا، لكن بدا من نظرتها انها شعرت بالأمان، رفعت وجهها إلي وقالت: أتعرفُ حاجِبَ الملكِ الذي سَجَنَهُ ؟

قلتُ: نعم، ومَن في هذه البلدة لا يعرفه؟ وقد غضب عليه الملكُ وسَجَنَهُ، وَأَخَذَ أموالَهُ وقطع رواتبه.

قالتْ: فأنا ابنتُه الكبرى، ولم يبقَ له مَن يقف بجانبه في محنته غَيرِي، ومازلتُ أبيعُ ما تَرَكَ أبي من أثاثٍ ومتاع، وَأُنْفِقُهُ عليه وعلى البيت، حتى لم يبقَ بيديّ شيءٌ، فلمّا أعيَتْنِي الحيلةُ ولم يبق لديَّ ما أُنْفِقُه ألجأتُ نفسي لما ترى، فخرجتُ هذا اليوم، ووقفتُ هذا الموقفَ، وأنا بِكْرٌ ما رَأى لِيَ أَحَدٌ وجهًا قطّ.

فأصابني الذهول، وأخذني الرَّوع، وأشفقتُ عليها وغلبتني المروءة، حتى بكيتُ من فرط تأثُّري، واستحييتُ من نفسي، ومنها، على ما كنتُ نويتُه وطمعتُ فيه، وناولتُها الصّرةِ بحالها، وفيها الألفُ دينار، وقلتُ لها: واللهِ لا

قَرُبْتُ مِنْكِ على هذا الوجهِ أبدًا، فأنفِقِي الدنانيرَ على ًوالدِكِ وبيتك إلى أن تنفدَ، وابعثِي لي غلامَك أعْلِمْهُ بمنزلِي، ولازمِي دارَك واستمِرِّي على صيانَتِكِ وعفافك، وإلّا فضحتُكِ، وَتَرَينِي واللهِ لا أزالُ أبيعُ أملاكِي وأنفقُها على والدِكِ حتى أموتَ، أو يفنَى كلّ ما أملِكُه. ثمّ نهضتُ وأصلحتُ من هيأتي، وحمدتُ الله أنْ حفظني من الخنا، واستغفرتُ ربي وتبتُ توبة صادقة، وخرجتُ مسرعًا ألتمسُ الغلامَ، وإذْ بجماعةٍ يطلبونَ الفتاةَ، ويقولون إنّ الملكَ رَضِيَ عن الحاجب، وردَّ عليه ضياعَهُ وأملاكَهُ، وَوَصَلَهُ بعشرةِ آلافِ دينارٍ، فعاد لمنزله فلم يجدِ ابنته، فمكثَ يلتمسُها في كلّ مكان، ولم يعثر عليها.

فَسُقِطَ في يَدِ الغُلامِ الذي كان مع الدابةِ ينتظرُ خروج الفتاة، وظنَّ أنَّ الأمرَ على ما توقّع بينِي وبينها، فبادرتُهُ وقلتُ له: لا عليكَ، فوالله ما كشفتُ لها ثوبًا ولا لمستُ لها يدًا، ولا ظِفرًا، فَتَجَاهَلْ في خبرِها حتى ينصرفوا. ودخلتُ إلى البنتِ، وقلتُ لها: إنَّ الملكَ قد رَضِيَ عن والدِكِ، وردَّ عليه مالَه ووصلَه، فسيرِي إلى دارِكِ. فَرَكِبَتْ دابَّتَهَا وانصرفتْ، فدخلتْ على والدِها، فإذ به غاضبٌ ناقمٌ. فأقبلتْ عليه بلهفة وحنينٍ تحتضنه، فاحتضنها، وقد تبدّل حنقُه إلى حُبٍّ وحنان، وتبادلَا الدموع، وتشاركَا في النحيب، وتطارحَا الهموم، وقال لها: أين كنتِ يا ابنتي؟ وما الذي أخْرَجَكِ عن دارِك؟ فاقتربت منه وهمستْ إليه: على رسلِك يا أبي، أخْرِجْ عني أوّلًا كلّ مَن في الدار. ففعل، فَأَخْبَرَتْهُ ما آلَ إليه أمرُها، وقصّتها مع الشابِّ مِن أَوَّلِها إلى آخِرِها، وَناولته الألف دينارٍ، وقالتْ لهُ: هذا الذي أعطانِي لأنْفِقَ عليكَ، وقد ذكر لي أنّه ابن فلان التاجر، مات أبوه منذ أسبوع.

فقال أبُوها: نعم، أعرف هذا الرجل، لقد كان أمينًا ناصحًا، وكان جوادًا منفِقًا.

فلمّا فتح الصرة، فوجدها مليئةً بالدنانير، قال مندهشًا: هذا واللهِ هو الكِبْرِيتُ الأحمر! رجلٌ في زمان عزَّ فيه الرجال.

ثم بدا وكأنه يفكّر في أمر، وعيناه تنظر في صرة الدنانير التي ما زال يحملها بين كفّيه، وبعد هنيهة، التفت إلى ابنته وقال: واللهِ لو كان أبوه كنَّافًا ينظّف المراحيض، ما أَنِفْتُ أنْ أُزَوِّجَكِ مِنهُ، أَمَا وأبُوه من أشرافِ الناس، وصلحائهم؛ فهنيئًا لك! فوجَّهَ الخادمَ الذي كان معها إلى بيتِ هذا الشابِّ، وقال له: إنَّ سيدِي يدعُوك. قال الشابُّ: فخفتُ أن يوضعَ عندَه الأمرُ على غيرِ وجهِهِ، ويفهمه على غير حقيقته، لكني أقدمتُ إقدامَ مَنْ عَلِمَ براءَةَ نفسِه واثقًا مطمئنًّا، فدخلتُ عليهِ، فقام إليَّ وعانقَنِي، ورحَّب بي ترحيبَ منْ عَرفَ لِي مَقَامِي، وقال: أمَّا الآنَ وأنتَ مِنْ أعيانِ الناس؛ فقد قَرَّتْ بكَ عينِي، وواللهِ لو كانَ أبوكَ كَنَّافًا ما أنِفْتُ لِبِنْتِي أنْ أُزَوِّجَكَ مِنْها.

فما قام مِنَ المجلسِ حتى وجَّهَ إلى العُدُولِ من أصحابه وأشهدَهم على نفسِهِ بأنَّه زوَّجَ ابنَتَهُ فلانةً مِن هذا الشابِّ، وَنَقَدَهَا عنهُ النصف الأولَ من العشرةِ آلافِ دينارٍ، التي وَصَلَهُ بها الملكُ حين عفا عنه، وأجَّلَ لها عنه الشطرَ الثاني، وأهدى لها من الحُلِيِّ الغالي والثمين، ومن الثِّيابِ الفاخر الأنيق، حتَّى أَتَى على أكثرِ أملاكِهِ فأنفقَهَا على ذلك، وزفَّ فتاتَه إلى الفتى النبيل، وبني بها في نفس الليلة، فكانت أسعد الليالي، وتذكر الشابّ فاتحةَ الخير عليه باستجابته وإنفاذِه لوصية أبيه التاجر الصالح، فَحَصَلَ مِنْ موقف الشيخ السَّبتِيِّ- رضي الله عنه- في تلك الألفِ دينارٍ على أضعافٍ مضاعفةٍ من الأموال، وأحسن الظنَّ فيه، واستغفر الله من سوء ظنّه وارتيابه، وذرفت دموعه حنينًا لأبيه، وحزنًا عليه، وندمًا على عقوقه وجفائه، لكنّه عزم على أن يكون ولدًا صالحًا، وعاهد نفسه أن لا يكف عن الدعاء لأبيه، والتصدّق عليه، وصلة رحمه. وَفاز بتلك الفتاة الطاهرة العفيفة الرائعة الحسن بنتِ حاجِبِ الملِكِ، ونال ما تمنّاه في الحلال الطيب، وكان زواجًا مباركًا ميمونًا.

إنّه مَن ترك شيئا لله عوَّضه الله خيرًا منه، فهذا الشابّ بعد أن خلا بالفتاة، وفُتنَ بجمالها البارع، يتركُها ويُحسنُ إليها، فيحظى بها وتُزفُّ إليه ويبني بها بعد سويعات، زوجةً كريمةً في الحلال، وينالُ بالألف آلافًا، وغيرها أضعافًا، بتعفُّفه ومروءتِه وشهامته وغيرته التي تحرّكت في كيانه، نسأل الله تعالى أن يسترَ عوراتنا ويحفظ أعراضنا.

وإنها بركة برِّ الوالدين بعد مماتهما، وبركة إنفاذِ وصيَّتهما، وبركة الوصيةِ قبل الموتِ، وبركة الصالحين، وفضل المروءةِ والشَّهامة، وأن لا يفقد الأبوان الأملَ في صلاح الولد، ولا يتركان بابًا يؤمّل منه صلاحه إلّا ويطرقانه ([8]).

وصيةٌ أخرى

قال الفقيه أبو الوليد الباجي رحمه الله: كان أبي من التجّار، أصلنا من بلدة باجة، قريبةٌ من القيروان، وكان يختلفُ إلى الأندلس، ويجلس إلى فقيهٍ بها يقال له أبو بكر بن شماخ، كان محبًّا له، فكان يقول: تُرى أرى لي ابنًا مثلك؟ فلمّا أكثر من ذلك القول، قال له الفقيه: إنْ أحببتَ ذلك فاسكُنْ قُرْطُبة، والزَمْ أبا بكر القَبْريّ، واخطبْ إليه ابنتَه، فإن زوَّجك بها فعسى أن ترزق مثلي. ففعل ذلك، سكن بقرطبة ولزم ذلك الفقيه وزوَّجه من ابنته، فجاءه أبو الوليد، الفقيه، الذي تولى القضاء في عديد من مدن الأندلس، ورزِق بآخر صارٍ إمامًا للمسجد الكبير بسرقسطة، وثالثٍ كان من الغزاة في سبيل الله، دليلًا ماهرًا، من أعرف الناس ببلاد العدوّ في الغزو، حتى إنه كان يعرفُ الأرض بالليلِ بشمّ التراب. وكانت أمّهم فقيهة، وقد تعلموا منها رحمها الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-2-

# الفارسُ الصغير

# سرُّ القوة ومكمنُ الداء

أيُّها الناسُ، أين المفرُّ؟ والبحرُ من ورائكِم، والعدوُّ أمامَكم، فليس لكم واللهِ إلّا الصدقُ والصبر. نفح الطيب (1/240).

خطبة قصيرة خالدة، قالها طارق بن زياد لمّا نزل سواحل الأندلس، فواجه جيشَ الطاغية لذريق في سبعين ألفَ فارس، يحملُ على العربات المدرّعة الأموالَ والمتاع، وهو على عربةٍ مصفّحةٍ تجرّها الخيول، مُكَلَّلةٍ بالدُّرِّ والياقوتِ والزبرجدِ، يقودُ جيشًا جرّارًا، ومعه الذخائر والنفائس، والنساء والجواري؛ ليلهبنَ حماسَه للمعركة الفاصلة التي هُزم فيها، وفتح المسلمون الأندلس، وملكوا أقطارها وآلَ إليهم ملكها وخيراتها، ودانتْ لهم سهولها وربوعها، مع قوة حصونها ومناعة قلاعها، وكثرة الجنود وقوة العتاد، لكنّ المسلمين تفوّقوا عليهم وهزموهم شرّ هزيمة حتى دانت لهم البلاد، وحار الملوكُ النصارى في سرِّ قوة الفاتحين الجدد من المسلمين، وفكّروا كيف الوصول إلى مكامن الضعف والدّاء، إذ ليست القوةُ بكثرة العَدَدِ أو العُدد؛ وإنما القوةُ بالإيمان والطاعة، وما ينبثقُ عن ذلك من إقدامٍ وشجاعة.

كيف لألف وسبعمائة أن يهزموا جيشا مجهّزًا من سبعين ألف فارسٍ بقيادة القائد المحنّك لذريق ملك الأندلس! ولِمَ العجب؟ ألم يرسل " تدمير" إلى مليكه "لذريق" واصفا جيش المسلمين: إنه قد وَقَعَ بأرضِنَا قومٌ لا ندرِي مِنَ السَّماءِ هُمْ أم من الأرضِ!

لقد استطاع الفاتحون القادمون من الجنوب أن يحرروا بلاد الأندلس من ظلم الحاكم واستبداده، وقهر المستضعفين واستعبادهم، فضلا عن أغلال الجهل والتخلف والجمود..

إنها رسالة الإسلام، خلاصتُها وغايتُها تتجلّى في هذه العبارة التي قالها الربعيّ بن عامر عندما سأله قائد الفرس: ما جاءَ بكم إلى بلادنا؟ قال: «جئنا لنخرج الناسَ من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتِها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وراع النّصارى هذا الزحف الرهيب، وفتَّ من عضدهم تلك الهمم المتوثِّبة، فأرسلوا الجواسيس للنظر في أمر أولئك الغزاة الفاتحين، وتحليل طبائعهم، ومعرفة مصدر قوتهم، والتفتيش عن ثغرة ضعف يمكن أن يؤتَوا من قِبَلها.

مِن هنا تبدأ حكايتنا:

معَ أوّل خيوط الفجر سلك الجاسوسُ طريقه إلى أقرب بلدة من البلدان الأندلسية، أوغل في غابة كثيفةٍ من شجر الأرز والبلوط، تمتدّ بين سهلين، منحدرين نحو وادٍ كبير، نبتت فيه بكثافة شجيراتٌ صغيرة، امتدّت إلى قمة تلٍّ رمليٍّ، وفي الخلف مشهدٌ لجبال خضراء اكتستْ سفوحها العالية بثلوج بيضاء، تذوب رويدًا رويدًا فتنسابُ بانحدار نحو الوادي.

سارَ الجاسوس أميالًا بين أشجار الصنوبر والأرز، والحور والدُّلب الكثيفة، يفسح الطريق بين الأغصان المتشابكة والحشائش العالية بسيفه، مستمتعًا بتلك الأجواء الرائعة، حيث بدأت الصورة بعد طلوع أوّل خيوط النهار كأنها لوحةٌ وظّف فيها اللون الأزرق بدرجاته المتفاوتة، مع الأضواء الخافتة، والظلال الباهتة.

ومعَ شروق الشمس، بدأت اللوحة الزرقاء تتلوّن بألوان الحركة والحياة المبهجة، فرأى الكون ضاحكًا مستبشرًا، والأجواء ربيعيَّةً ساحرة، مرّ بمكان رائع فقرّر أن يتوقف فيه، ليستريح هُنيهةً ويتناول فطوره، نزل عن حصانه، وربطه في غصن شجرةٍ عتيقة، وأخذ يبحث عن مكانٍ ملائمٍ له حتى وجد روضة خضراءَ أنيقة، يجري فيها جدولُ ماء، وتغرد على أدواحها البلابلُ وتزقزق العصافير، وقد أطلت الأعشابُ من بين الصخور البيضاء المشربة بصفرة، وتُوِّجت بأزهار الدفل والخيري الصفراء التي تناثرتْ كدراهم ودنانير على خميلة من السندس الأخضر، مطرّزةٍ بالنوّار الأبيض، الموشى بلون البنفسج والبهار وشقائق النعمان بلونها الأحمر القاني.

جلس الجاسوسُ يستريح، غمس يدَه في جدول ماءٍ رقراق يمرّ بجانبه، أخذ نفسًا عميقًا ملأ أنفه بعبق الرياحين، أصغى بطربٍ ونشوةٍ إلى صوت خريرِ ماء، وصفير بلابل على الأغصان، نظر إلى السّماء وبحركات وإيماءات رسَم الصّليب على وجهه وصدره، وتمتم ببضع كلمات، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا، وملأ صدرَه من هذا الهواء المعطر، وأخرج سفرةَ طعامه؛ فطيرةً محشوةً بحبات من الزيتون الأخضر، معَ قطعة جبن، فالتهمها، ثمّ أخرج قدحًا من جراب فرسِه وغسله وملأه بالماء، وارتوى، واستلقى على ظهره، وغلبه التثاؤبُ والنعاس، فسقط في سبات عميق.

وعلى مقربةٍ من هذا المشهد كانت حكايةٌ أخرى، حكاية الفتى الأندلسي الذي انطلق من بيته مع تباشيرِ الصّباح، يمتطي صهوةَ حصانه الأسود، ويحمل قوسَه وجعبةَ سهامه وسيفه، وقد أودع في السّرج بعضَ الأمتعة، وحمل على عاتقه حقيبةً من جلد الغزال، تتدلى من كتفه الأيمن بسَيرٍ إلى حقوه الأيسَر، كانت السماءُ قد حيّتِ الأرض برذاذٍ، فبدَا كلّ شيء مع شروق الشمس زاهيًا

متأنّقًا، البيوتُ بجدرانها، وأسقفها المكسوة بالقراميد، والأشجار، بأوراقها التي غسلها المطر، وكلّل أغصانها بعقود من النّدى، والشوارع النظيفة، وفي الأفق يتلألأ قوس قزح بألوانه الزاهية.

خرجَ من الأزقّة الضيقة والمرصوفةِ بحجارة سوداء، وعرّج على ساحة البلدة الواسعة، هبط إلى جهة النّهر، واتجه بمحاذاتِه إلى الغابة الكثيفة، عبرَ القنطرة إلى الجانب الآخر من النهر، فاستقبلته رائحةٌ يألفُها؛ بل يعشقُها: إنها مزيجٌ من العشبِ الرّطب والأوراق الجافة، ممتزجة برائحة الطين، مع ريح الخزامى والحبق البري.

مضى الفتى بحذائه الجلديّ الذي يصل قريبًا من نصف ساقه، يطأ أرضَ الغابة ويسمع قرقعة الأعشاب من تحت قدمِه، صباحٌ ربيعيٌّ منعشٌ جميل، رعتْه أشعةُ الشمس الذهبية، تتسلل بين الأغصان. مضى الفارسُ في نشوةٍ وسرور، وعند جدول ماءٍ نزل وربط فرسه إلى شجرة أرزٍ، ثمّ جلسَ على بساطٍ فرشه، وقرّر أن يتناول فطورَه هناك، أخرج رغيفًا مع حبات من الزيتون الأخضر، واغترفَ من الجدول شربةً، ثمّ أسند ظهرَه لشجرة عتيقة، وصعّد بصره في السماء فلمح طائر الإوز يطيرُ غير بعيد، فاستلّ قوسه في الحال وأخرج سهمًا من جعبته ورشقَ به الطائر، لكن هيهات! لقد مرّ قريبًا من جناحه الرّشيق دون أن يصيبه، أخرج الفتى سهمًا آخر، وأخذ يجول في المكان يبحث عن صيدٍ نافر، توقّف قليلًا وأرهف سمعه وحدقَ ببصره، سمع حركةً تحت العشب، ولمح أرنبًا يقضم بعض الجذور، فصوّب نحوَه سهمًا، مرّ من بين أذني الأرنب دون أن يمسّه بأذى! وانطلق الأرنب يعْدو مذعورًا حتى دخل جحره.

جلسَ الفتى حزينًا مُحبطًا، لا على إفلات طرائده، ولكن على فقدانه دقّة التصويب، تخيل نفسه في ميدانِ المعركة ضدّ أعداء الإسلام، وسهامُه تطيش هكذا فلا تصيبُ غرضها!

فتحسّر على عجزه، وطفرتِ الدمعة من عينيه، وسالتْ على خدّه وأخذ ينتحب.

نهض الجاسوسُ من رقدته، نظرَ من حوله، تحسّر على الوقت الذي أضاعه في النوم، وحرمه من هذا المشهدِ الرائع، زاد نورُ الصباح من جمال المكان، لم ينمْ كثيرًا، استغرق في تأملٍ عميق لهذا الفردوس البهيج.

أصغى بحبٍّ إلى إنشادِ الطيور، وحفيف الأوراق، لكنّ اللحن اختلط بأنينٍ، أخذ يتلفت يمنةً ويسرةً يبحثُ عن مصدر هذا الصوت، أرهف سمعه حتى وجدَ فتى مستندًا لجذع شجرة يعتمر قلنسوة حمراء، ويرتدي قميصًا أبيضَ اللون مطرّزًا، يصل إلى نصف ساقيه، وتحته سروالٌ أبيض واسع لا يبلغ كعبيْه، وقد

شدّ على وسطه حزامًا جلديًّا، عقد عليه جعبةَ السهام، وإلى جواره قوسٌ، بينما يثبِّت نظرَه إلى السماء وهو ينتحب بصوت منخفض.

تساءل الرجلُ متعجبًا، لماذا يبكي هذا الفتى؟

ربّما فقدَ عشيقته؟ أو تألم من مرض؟ أو ضلّ الطريق؟

دارتْ كلّ التساؤلات في ذهنه، فحمله فضولُه أن يسأل الصغير:

- ما يبكيك أيها الفتى؟

- دعني وشأني أيها الغريب. (ردّ الفتى بثباتٍ وحزم).

- أستحلفك بالله لماذا تبكي؟ هل ضللت الطريق؟

- أبكي لأنني لم أصبِ الهدفَ من أوّل مرة.

ضحك الجاسوس، وقال: ألهذا السبب!؟ وماذا عليك! أعدِ الكرّة، مازال الوقتُ مبكّرًا.

حدج الفتى الجاسوس بنظرةِ استهجان لمقالته، ثمّ أشاح بوجهِه عنه، وصعّد بصره نحو الشجرة العالية، وقال: وماذا علي! ماذا أقول لربّي، وماذا أفعل إذا واجهتُ عدوّي وأنا لم أحسن التأهب والاستعداد!؟ فما حجتي أمام الله؟! بُهت الجاسوس بهذا الجوابِ الصّاعق الذي فاجأهُ!

طفلٌ يفكر بهذا! طفلٌ يستشعر مسئوليته! فكيف بالكبار! إذا كان هذا هو حالُ الطفل الأندلسي فما بالُ الشباب والكهول والشيوخ! أيُّ أمٍّ ربّته؟ أم أيّ معلّم لقّنه! نعم.. بهذا انتصروا علينا وغلبونا.

تذكّر الجاسوس كلمة أحدِ القادةِ من بني ملته: «كنّا نسمعُ بالعربِ ونخافُهم من جهةِ مطلِع الشمسِ حتى أتَوا من مغرِبها؟ واستولَوا على بلادِ الأندلسِ وعظيمِ ما فيها من العِدَّةِ والعَدَد! مع قلةِ عدَّتِهم وكونِهم لا دروعَ لهم».

اكتفى الجاسوس بما رأى وسمع، وقرّر أن يعود من فورِه إلى دياره، وطلب الاجتماع بالبلاط الملكي.

وفي المساء التقى الجاسوس بالملك، وأخبره بما رآه وسمعه، فاستدعى الملكُ القادة والرؤساء، واحتشدَ الجميع بين يديه للنظر في أمر المسلمين المنتصرين!

قال له أحدُ مستشاريه: ما هذا الخزيُ الباقي في الأعقابِ؟ هل من سبيل للخلاص منه؟

قال الملك: الرأيُ عندي: أن لا تعترضُوهم في صعودهم هذا؛ فإنَّهُمْ في إقبالٍ من أمرِهِمْ، وهم كالسّيلِ يحملُ مَن يصادِرُه، ولهم نِيَّاتٌ تُغْنِي عَن كثرةِ العَدَد، وقلوبٌ تُغْنِي عن حصانةِ الدُّروع.

- وما الحلّ يا مليكنا؟ كيف الخلاص من هؤلاء الظافرين؟! ما الحيلة وقد تمكّنوا منَّا؟!

- أمهلوهم حتّى تمتلئ أيديهم من الغنائِمِ وتُفتَح عليهم الدنيا، ويتخِذُوا المساكنَ والقصور، والمعازف والجواري، ويتنافَسُوا في الرِّيَاسَةِ والسلطان، ويستعينُ بعضُهم ببعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، فحينئذٍ تتمكّنون منهمْ بأيسرِ أمر.

فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأتْ بين القبائل والطوائف، وصار بعضُ المسلمين يستعينُ على بعضٍ بمن يجاورُهُم مِنَ الأعداءِ فتقوى شوكةُ الكفار ويتوغَّلون في البلاد، وتتسع رقعة نفوذهم وتنحسر أرض المسلمين وتتساقط المدائن.

حدثَ ذلك حين انغمس الناسُ في الشهوات، واستغرقوا في الطَّربِ والملذات، وانهمكوا في الخلافات، وتنافسوا على الرّياسة والسلطان، وتشاغلوا بالمكائد والمؤامرات، حتى تمكَّن العِدى بأيسرِ أمر، وصار الأندلسيون كالأيتام على موائد اللئام، وأضحوا كالشياةِ المستسلمةِ بين يدي الجزار.

فمتى وكيف حدث هذا؟!

حين ركنوا إلى الرّاحة والدعة، وانشغل الملوك بمجالس الطرب والخمر والنساء.

حين ناموا ملء جفونهم، وعدوُّهم يسهرُ على الكيد لهم والتأهب لاجتياحهم.

حين غابت عن وعيهم وصية نبيهم-صلى الله عليه وسلم-: «... أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا؛ وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم»([9]).

حين غفلوا عن هدي وسيرة سلفنا الصالح الذين ضحُّوا من أجل رفع كلمة الدين.

حين غفلوا عن حقيقة الدنيا الفانية، وركنوا إلى ملذاتها الفاتنة، ولم يستوعبوا الدرس من الأمم الغابرة، ألم يقلْ نبيُّنا -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا؛ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» ([10]).

إنّ الأمة التي تركن إلى الدّعة والترف واللهو، وهي غالبة قاهرة ليست أهلًا للريادة والقيادة، فما بالُك بأمة تغرقُ في اللهو والدعة والترف وهي لا تدرى إنْ كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها، أم أنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هُزِمُوا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح، والاسترسال بالشهوات».

نعم، يرى المؤرخون: «أنّ الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظلّ ظليلٍ من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدَا التهتُّك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي؛ من أبرز المميزات أيامَ الاضمحلال حيث استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعبًا يهوى إلى هذا الدّرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمدَ رجالُه لحرب أو جهاد».

عندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ، خرج أهلُها للقائِهم بثيابِ الزينة، فكانت وقعةُ بطرنة، التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديدَ إلى الوَغَى ولبستُمُ

حُلَلَ الحريـــــرِ عليكُــم ألْوانا

ما كان أقبحَهُم وأحسنَكم بها

لـــو لـــم يكن ببطرنة ما كانا

بمثل هذا خرجوا من جنة الأندلس!

وبمسارعتهم إلى الملذات، كما قال ابن حمديس الصقلي، في الخمر واللهو:

قُمْ هَاتِهَا مِنْ كَفِّ ذَاتِ الْوِشَاحْ

فَقَدْ نَعَى اللَّيْلَ بَشِيرُ الصَّبَاحْ

بَاكِرْ إِلَى اللَّذَّاتِ وَارْكَبْ لَهَا

سَوَابِقَ اللَّهْـــوِ ذَوَاتِ الْمِرَاحْ

مِنْ قبل أن ترشف شمس الضحا

رِيقَ الْغَوَادِي مِنْ ثُغُورِ الْأَقَاحْ

بمثل هذا خرجوا من الأندلس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -3-

# الرحلةُ الأندلسية إلى مكة المكرمة

في أصيل يومٍ من أواخر فصل الخريف، كانت الشمس تؤذنُ بالمغيب في الجهة المقابلةً للبحر، ها هي الآن تبدو قرصًا ذهبيًّا، يتوارى رويدًا رويدًا خلف تلك القلعة الرابضة فوق التلال التي تكسوها الأعشاب الجافة، وترعاها قطعانُ الماعز، في مشهدٍ أصيليٍّ رائع!.

وعلى المرفأ بضعُ سفنٍ تنقل المسافرين والبضائع من الغرب إلى أقصى الشرق، بينما رستْ علىً الرّصيف سفينة كبيرة، جاءت من ميناء الإسكندرية لنقل الحجاج، تتكون هذه السفينة من ثلاثة أدوار، فوقها برجٌ وصوار، وأشرعة هائلة الحجم، ويظهر في أعلاها قبطانها يُصدر الأوامر ويتابع الاستعدادات للإبحار شرقًا، ومساعدٌ له ينفخ في بوق بيده إيذانًا بقرب الرحيل، وقد بدأ المسافرون في الصّعود إلى متنها بعد أنِ انتهت مهامّ شحن البضائع والمؤون، وكان من آخر المسافرين الشيخُ ابنُ الحرَّار- من صُلحاء أهل المريّة- وقف يودّع أهلَه، ثمّ صعدَ على متن السفينة التي تتأهب لتمخر عباب البحر، أطلّ الشيخ إطلالةَ مودّع على أهله الذين لا يزالون يلوّحون بأيديهم في الأسفل، وأمرَ الربّان برفع المرساة، ونصب الشّراع مراعيًا اتجاه الريح وسرعتها، ومؤذنًا بالرحيل، لتنطلق السّفينة مغادرةً ساحل ألمرية شرقًا إلى الإسكندرية، وعليها الحجيجُ وبعضُ التجار.

رويدًا رويدًا ابتعدتِ السفينة عن الميناء، حتى بدَا من بعيد، وخلفه التلال كطفلٍ في أحضان أمه، منظرٌ خلّاب لمدينةِ ألمرية ببيوتها البيضاء، وتلالها الصفراء، وأبراج قصورها، ومآذنها وقبابها المرتفعة.

ودّع الحاجّ بلدته المرية، ودّع نهرها وساحلها، ترك وراءه بساتينها وحقولها، ومنياتها: منى عبدوس، ومنى غسان، والنجاد، وبركة الصفر، ذرفت العينُ بالدموع وهو يطلُّ من متن المركب على مدينته التي أحبّها وألفها، والبلاد تُحَبُّ على كلّ حال، كما قال الشاعر:

بلادٌ ألفنـــاها على كـــلّ حالة

وقد يؤلف الشيءُ الذي ليس بالحسن

وقد يُسْتَعْذَبُ الوطن الذي لا هوا به

ولا مـــاؤه عـــذب ولكنه وطن

فما بالك بتلك الجنان الأرضية، ما بالك بالمرية التي لها على غيرها من نظرائها من عرائس الأندلس «أظهر مزية، بنهرها الفضي، وبحرها الزبرجدي، وساحلها التبري، وحصاها المُجَزَّع- الذي تعددت ألوانه-، ومنظرها المرصّع، وأسوارها العلية الراسخة، وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة».

إنّها مدينته التي يعشقها، تذكّر الشيخ وهو يودّع مدينته المحبوبة أيام الطفولة وملاعب الصّبا، وساعات الصفا في متنزهات ألمرية، تذكّر الخروج في الصباح الباكر لجمع ثمار التين من البساتين المحاذية لساحل البحر، أحسّ بخفقات قلبه، فها هو منذُ لحظات يودّع الأهلَ لا يدري أيعودُ ويجتمعُ معهم، ويغادر الوطن الذي ألفه وأحبّه، وعشقَ أرضه وسماه، واستعذب ماءه، وتنسّم هواءه، نظر الرجلُ الصّالح والدموعُ تفيض من عينيه إلى مدينته التي تتباعد كلمّا أوغلت السفينة في البحر، بدتْ له رمالُ ساحلها الذهبية وقد شكّلت مع تلالها التي تكسوها أشجارُ الزيتون والرمان؛ لوحةً فريدة، سبحانَ مَن أبدع هذا الجمال! قناديل حمراء ياقوتية تدلّت من الأغصان الخضراء الزبرجدية، وثمار الزيتون عناقيد من الزمرد تتدلى من تلك الأشجار الفضية، وسنابل القمح كسبائك الذهب، كلّ شيء في الحقول الناضرة والبساتين العامرة يشي عن جمالٍ وبهاءٍ وروعة، سبحان من أبدع الجمال وأودعه.

ألقى المسافر نظرة أخيرة مودّعًا ألمرية بكل ما فيها من سحرٍ وجمال، بساتينها الغداقة، جداولها وعيونها الرقراقة، هوائها المعتدل، وسوقها الكبير الذي يحتشد فيه التجار فتسمع صخب الباعة ينادون على بضائعهم بأصوات يختلط بعضها ببعض، وقد راجت فيها تجارة الحرير، فصارت مركزا كبيرا لصناعته وتجارته، حيث تنتشر فيها أشجار التوت، ردَّد لسانه العبارة الشائعة: «ألمرية هنيّة مريّة، بحريّة بريّة».

ونظر إلى المدى البعيد حيث تلتقي ماء البحر الفيروزية، مع القبة الزرقاء اللازوردية، وتصفق الطيور البحرية بجناحيها، ثمّ ترتطم بصفحة الماء وتغوص تنتشل طعامها من الأسماك، بينما يحلق في الأجواء سربٌ من الأوز البري يتجه جنوبًا، سالت عبرة من عينيه، وقد تجاذبه شعوران، مرارة اللوعة على فراق الأهل والخلان والوطن الغالي، وحلاوة الشوق إلى أرض الحجاز، والحنين إلى البلد الحرام، لكن الشوقَ والوجد غالبه، ولم لا وقد سافر ابنُ الحرَّار إلى مكة لأداء فريضة الحج، والأخذ على يد علماء الحرمين.

تهلّلت أساريرُه، وغمرته البهجة والفرحة وراحة البال، وهو يتفكر في الأماكن المقدسة التي سوف تكتحل عينه برؤياها، وستفعم أنفُه من شميم عبيرها وتنسّم شذاها، وستنال قدمه حظًّا من المتعة حين يسير على ترابها، ويمضي في سككها وطرقاتها، أمّا يده فسوف تلمس كسوة الكعبة الحريرية، وتلتزم بابَ الكعبة، وفمُه سينال حظًّا من النعيم بلثْم الحجر الأسود المضمّخ بأطيب

الطيب، أمّا روحه فلا تسلْ عن حالها مع هذه النفحات القدسية، ومقامها في تلك الساحات الموردة، وشهودها تلك العرصات المشهودة.

يا لسعْدي وهناي! اهنئي يا روحي، فكلّ أيامك القادمة أفراح.. أفراح الروح، ومباهج النفس، ونفحات الحرم، أيتها السفينة أسرعي قرّبينا.

مضتْ ساعاتٌ ثلاث، ولم يعدْ بالإمكان أن يرى المسافر من معالم ألمرية سوى القلعة وقد اتشحت بأسوارها العالية المشيّدة من صخور سوداء، تكسوها حجارة بيضاء، ومنارة مسجد المرية الكبير، بقبابه العالية، تلك المناظر آخر العهد بجزيرة الأندلس.

جرتِ السفينة بريحٍ طيبة، حتى وصلت بسلام إلى برّ الإسكندرية، وألقى البحارة المرساة، وهبط الشيخُ ليرى لأوّل مرةٍ تلك المدينة القديمة، ويمكث فيها ليالي، يزور بعض شيوخها، وينهل من علمهم، إلى أن يغادرها مع قافلة برِّية إلى البحر الأحمر ليركب السفينة مجدّدًا إلى ميناء جدة، فيمكث بها ليلة واحدة، ثمّ يركب إلى مكة المكرمة على ظهر الرواحل مع قوافل الحجيج، وفي الطريق إلى مكة يلفتُ نظره تلك الصحاري القاحلة برمالها الصفراء وجبالها الصخرية، فيتذكر بساتين ألمرية وواحاتها الخضراء وبحيرتها اللازوردية، ومتنزه الصّمادحية، بمجالسه المصنوعة للمتنزهين وأسرهم من المرمر، والمنتزهات الأخرى التي تصدحُ فيها الأطيار على أشجار الصنوبر والحور، وتغرد بلابلها على النخيل الباسقة.

تذكّرْ أوقات صباه مع الخلان، في البساتين، يتسلقون أشجار الجوز واللوز، والنزهة مع الأهل في منى عبدوس، ومنى غسان والنجاد، وبركة الصفر، تذكر ربضَ الحوض الذي يقع في الجانب الغربي من المدينة، حيث الديار الأنيقة، والرياض المونقة، والأسواق المزدهرة العامرة، والفنادق الفخمة والحمّامات التي يؤمّها أهلُ البلدة والمسافرون. جاء الليل، وضرب رواقَه في ليلة غاب عنها القمر، بينما النجوم تلمعُ في السماء، في جوٍّ من الصفاء، وشعور بالرهبة، لكنّها لحظاتُ الأنس والقرب من الله جلّ جلاله.

سلكتِ القافلة طريقها إلى المسجد الحرام، وحطّت رحالها أمام ساحة دارة كبيرة أحيطت بفناء واسع، جوّ مكة شديد الحرارة، حرارة الأجواء وحرارة الإيمان، ولهيب الأشواق، وسرعان ما وُزِّع الحجيجُ على غرفهم، وانتقل ابن الحرار لغرفته في الطابق الثالث، فتح النافذة، وألقى أول نظرة من غرفته للحرم، متّع ناظريه بهذا الجمال والجلال، فاضت عيناه، شعور بالرضا يملأ قلبه، ونفحة من الأنس والنعيم تبهج روحه، ورذاذ من السكينة يرطّب فؤاده، وهو يتأمل في صحن الكعبة، وطيورُ الهنا والمُنى، ترفرف في هذا المكان، حيثُ الأمانُ في هذه الرحاب المقدسة، بعد طعامٍ خفيفٍ تناوله الحجاج على

عجلٍ، وقد اغتسلوا وتطهروا استعدادا للدخول على شعائر الحج من طواف وسعي، كان موعد الغرام على أبواب البيت الحرام، لتقر عيون العشاق برؤيا الكعبة، وتبتهج النفوس بلثم الحجر الأسود، ويبلّ ماء زمزم صدى الحجيج ويروي ظمأهم. مكث الوفد في مكة أياما يطوف ويصلِّي ويتصدق ويجالس علماء الحرم، حتى كان يوم التروية، حيث انطلقت الجموع في شوقٍ إلى مِنى...

جزاءُ من يسبُّ العمرينِ! بعد انتهاء أعمال الحج عاش ابن الحرار ليالي وأياما طيبة يتعبّد ويتعلم في المسجد الحرام، وفي بيوت العلماء التي تستقبل ضيوف الرحمن، وحضر حادثة عجيبة، قال الشيخُ الصالح: كنتُ بمكة عند فقيهٍ من أصحابِنا المالكية، فأقبل علينا رجلٌ لا نَعْرِفُهُ، فإذا رِيحُه كأنها القَطْرَانُ لا تُطاقُ، حتى تأذَّينا منه.

فراجعناه في ذلك، فسكت، فعاودنا سؤاله، فقال بعد تمنُّعٍ:

كنتُ رجلًا أبغضُ أبا بكرٍ وعمرَ، وأَسُبُّهُمَا وأُغَالِي في حُبِّ عليٍّ -رضي الله عنه-، ولا أتورّع عن الكذب والافتراء إزراءً لشأن الصاحبين، وإطراءً لآل البيتِ، ظانًّا أنني على الهدى، وكنت لا أستجيبُ لموعظة واعظ، ولا أسلِّم بكلام عالمٍ، مهما كانت حجته، ولا أحفُلُ بما أقرأهُ في القرآن، مما يخالف معتقدي، فكنت ألجأ للتأويل، وإن تعسّفتُ وتكلّفتُ وبالغتُ، وأردِّدُ ما أسمعه، وإن لم أكن على ثقة به، أما الأحاديث فكنتُ أبادرُ بإنكار صحتها حتى إن جاءت في الصحيحين، واتفق عليها الشيخان، البخاري ومسلم، فلبثت على هذه الحال عمرًا مديدًا، أصدُّ عن الحقِّ، وأتنكّرُ لأهله، لا تزيدني الأيام والليالي إلّا تماديًا وصدودا، إلى أن كانت تلك الليلةُ العصيبة، حين أويتُ لفراشي، فرأيتُ في المنامِ أني أسير وقت الهجير في أرضٍ قاحلةٍ جرداء، وقد اشتدّ بي الظمأ، فتلفَّت من حولي أبحث عن ماء لأروي ظَمأي فلم أجد ماء، فجلست آيسًا وقد خارت قواي، أنتظر نهايتي ... فبينما أنا مهمومٌ بأمري إذ أقبل رجلٌ بهيُّ الطلعة علمتُ من هيئته أنه أميرُ المؤمنين عليٌّ -رضي الله عنه- ففرحتُ واستبشرتُ، وقلتُ يا أبا الحسن: اسقني فإنِّي ظمآنُ! فأعرض عني، فقلتُ يا أميرَ المؤمنين، إني من شيعتِك، فاسقِنِي، فأشاح بوجهه.

فتوسَّلت إليه: يا أمير المؤمنين، سأهلك من العطش! فاسقني فإني أحبُّك وأعشقُك!!

فأشار بطرف يده إلى كوزٍ فشربتُ منهُ، ولم يكلِّمْنِي، فانتبهت من نومي على رائحة خبيثة لا تطاق، وإذ بها تنبعث من تحت ثيابي، وأصبحتُ وأنا على هذه الحالةِ، وتفكرتُ في أمري، وصحوتُ من غفلتي، وعلمتُ أن هذه عقوبةٌ من الله لي على تطاولي وسبِّي للصاحبين أبي بكر وعمر، ومغالاتي في آل

البيت، ومعاداتي لأهل الحقِّ، وتشبُّثي بآراء لا يسلم بها العقل، وتذرعي بأحاديث لا تثبت، مع إنكاري لما ثبت، فتبتُ من ساعتي ورجعتُ لربي.وقلتُ في نفسي: هذا جزاءُ من تعدَّى حدود الله، وتطاولَ على وزيرَي رسولِ اللهِ وصاحبيه وصهريه وخليفتيه من بِعْدِهِ، فما التطاولُ عليهما إلّا شقاقٌ ونفاقٌ، وطعنٌ في الدينِ، واتباعٌ لغيرِ سبيلِ المؤمنين.

بكى الرجل بشدة، وقال بحسرةٍ: هذه قصتي يا أخي، لكن الرائحة المنتنة لم تفارقني، والناس ينفرون مني، لم يعد يطيقني أحدٌ، حتى أقرب الناس غلي لا يحتملني، حتى أقرب الناس إلي.. ففررتُ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ تائبًا مما كنتُ عليه، وأُحِبُّ منكم المعاونةَ بالدعاءِ، فرُبَّما يزيلُ اللهُ تعالى عني ما أنا فيه، فقد شبعتُ من حياتِي.

فَدَعَوْنَا له، وقامَ عنَّا باكِيًا، حتى أشفقنا عليه، وتأثّرنا به ([11]).

هنا، تذكّرتُ قول أبي العتاهية:

(أحْسَنَ اللهُ بنا أَنَّ

الخَطَايَا لا تَفُوحُ)

(فإذَا المستورُ مِنَّا

بينَ ثَوْبَيْهِ فضُوحُ)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -4-

# ليلةٌ من ليالي قرطبة

سجى ليلُ قرطبة، وأضاءت مصابيحُها المعلقة على أبواب الدّور والقصور، بينما غلّقت الأبواب وأسدلت الستائر، وخلدَ الناسُ إلى الراحة والسّبات؛ استعدادًا ليومٍ جديد، وعند منتصف الليل عمّ السكون وأغلقت جميع الحوانيت، وأُوصد بابُ هذا الحي الذي شهدَ ذلك الصراع العنيف؛ صراعٌ صامتٌ لكنه محتدِم بين الضيف وربة الدار!

كان فتًى في قرطبة حسنُ الوجه، جميل القَسَمَاتِ، قد تعبَّد وزهد في الدنيا، فزاده الصلاحُ حلاوةً وبهاءً، وما أجمل رواء الشباب ونضارته حين يجتمع مع الملاحة والحُسن، مكتسيًا بنور الطاعة وزينةِ الصلاح.

كان للفتى أخٌ في اللهِ يحبُّه ويألفه، زَارَهُ ذاتَ ليلةٍ وعَزَمَ على المبيتِ عنده، فَعَرَضَتْ لِصَاحِبِ المنزلِ حاجةٌ إلى بعضِ معارفِه، واضطرّ للخروج لها بعيدًا عن الحي، فنَهَضَ لَها عازمًا على أن يعود إلى بيته قبل أن يُطْبِقَ الظلام، بينما بقي الشابُّ في دارِ صاحبه ينتظر أوْبَته، ليس في الدارِ سوى ربَّة البيت، وكانتْ غايةً في الحُسْنِ، آيةً في الجمال، وكان الضيفُ يعرفُها منذ طفولتها، إذ كانت تِرْبًا له في الصِّبَا، كعادة الأطفال في سنّ البراءة يلعبون ويمرحون، قبل أن تحتجبَ الصبيَّةُ عندما تشارفُ البلوغ، وتناهدُ بواكيره.

أطالَ رَبُّ المنزلِ المَقَامَ في قضاء شأنِه الذي خرج له إلى أن مشَى العَسَسُ «الشرطة الليلية»، وأغلقت أبوابُ الحي، ولم يُمْكِنْه الوصولُ إلى منزلِه، فاضطرّ إلى المبيت في مقامه الذي كان فيه.

كانت قرطبة مدينةً واسعة، وزاد اتّساعها وعمرانها بعدَ الفتح حتى وصل عددُ أرباضها واحدًا وعشرين، في كلّ ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، كانت المدينة مُحاطةً بأسوار حصينةٍ ولها أبواب، منها بابُ القنطرة وهو إلى جهة القبلة، ومنه يعبر النّهر على القنطرة، ويعرَف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وباب الحديد وهو بشرقيّها، ويعرف بباب سرقسطة، وباب عامر وهو بين الغرب والجوف منها، قدّامه المقبرة المنسوبة إليه، وباب ابن عبد الجبّار وهو باب طليطلة، وباب الجوز ويُعرف بباب بطليوس، ثمّ باب العطّارين، وهو باب إشبيلية، وغيرها.

أمّا أرباضها، فمنها القبلية بعدوة النهر: ربض شقندة، وربض منية عجب، وأمّا الغربية فتسعة: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقّاقين، وربض مسجد

الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشّفاء، وربض حمّم الإلبيري، وربض مسجد المسرور، وربض مسجد الرّوضة، وربض السّجن القديم، وأمّا الشمالية فثلاثة: ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرّصافة، وأمّا الشرقية فسبعة: ربض شبلار، وربض فرن برّيل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة. ووسطَ هذه الأرباض قصبةُ قرطبة التي تختصّ بالسور دونها، وكانت هذه الأرباض بدون سور، ثمّ سوّرت بعد ذلك.(12).

علمتْ ربَّةُ البيت بفواتِ الوقتِ، وأدركت أنّ أبواب الحي قد غُلِّقت، وأيقنت أنّ زوجَها لن يأتي، ففكّرت في ذلِك الفتى القابع في حجرة الضيافة ينتظر قدومَ صاحبه، ولعب الشيطانُ برأسها، ودارت الذّكريات، حنّت لأيام الصِّبا وتراءت لها ملاعبُ الطفولة، ومسارح اللهو، فاختلست نظرةً من وراء السّتر لهذا الشاب المتكئ في صدر المجلس، فزادها بهاءُ طلعته، وإشراق محيّاه؛ شغفًا به، فأعادت النظرةَ مرّة بعد مرّة، دون أن يشعرَ الضيف، حتى تأجّجت نيرانُ الهوى في قلبها النابض، وتاقتْ نفسُها الأمّارةُ إليه، يشجِّعها غيابُ زوجها، وتلك الخلوة التي أتيحتْ لها من غير تدبير، «وما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلّا كان الشيطان ثالثهما».

قامتِ المرأة إلى خزانة ملابسها، فاختارت أجملَها، وقفت أمامَ مرآتها، بدّلت ثيابَ الخدمة والمهنة، بثيابِ الإغراء والفتنة، تهيَّأت وتزيَّنتْ، تخضبت وتكحّلت، وتمضَّخت بالطيب، ثمّ دخلت عليه، سافرةً عن وجهٍ كالبدر، وحاسرةً عن شعرٍ حريريٍّ فاحمٍ كالليل، متعلِّلةً بتقديم شرابٍ له، وهو متكئٌ، فمالتْ نحوه بقوامٍ أهيف، وتهادتْ كغصن البان، وقدّمت له الشراب، وكلمته بأجملِ الترحاب، وجلست قُبالته، وأطالت في الجلوس، حتى رفعَ بصرَه إليها، والتقت عينُه بعينيها، فرأى ملاحةً ورواءً وحسنًا يفوق آخرَ عهدِه بها، تذكر آخرَ لقاء قبل أن تحتجب عنه عندما فارقت سنّ الطفولة، وأشرفت على السنِّ الذي تتفتّح فيه براعم الأنوثة كما تتفتّح الأزهار من أكمامها، فتخلبُ الأبصار وتسبِي القلوب. قامت المرأةُ مُتيَّمةً، دخلت خدْرها، وسرعان ما عادت في وَلَهٍ بلون جديدٍ وصورةٍ أخرى من صورِ الإغراء، متفنّنة في إبداء مفاتنها بما يعصفُ بالعقول، ظلّت تروح وتغدو، وفي كلّ مرّة تُبدي من الزينة والفتنة ما يلينُ له الحجر، بينما الفتى الذي شغفها حبًّا ساكنٌ، لا يبدي أيّ مشاعرٍ، حتى أفضى بها الأمرُ أن دعتْهُ إلى نفسِها بالتلميح، فجلست قُبالته، وراودته عن نفسه، وأخذت تذكّره بملاعب الصبا، وبراءة الطفولة، وكيف أنها كانت تهيمُ به، بل تعشقه، وأنها تمنّته زوجًا لكنه اشتغلَ بطلب العلم، وتمادتْ في إثارة مشاعره، حتى كاد جلمودُ الصخر يلين، وقَارَبَ صاري قاربُ النجاة أن ينكسر أمام عاصفة الفتنةِ الهوجاء، مستسلمًا لطوفان هذا الإغراء الجارف، وأوشك القلب الساكنُ أن يهتزّ مهتاجًا أمام ثورةِ عاطفة مشبوبة، وفورة شبابٍ

محروم، هبّت عليه فتنةٌ عارمة، تدفعها أنوثةٌ طاغية، سلاحُها جمالٌ يفوق الوصف، جمالٌ يُزري بأيِّ جمال.

سجى ليل تلك المدينة الهادئة، التي يستضيء المسافر بمصابيحها على بعد أميال منها، وخلد الجميع إلى النوم في سبات، وأوصدت أبواب ذلك البيت، وأغلقت النوافذ وأسدلت الستائر، إلا بابُ الفتنة، ونافذة الوجد والهيام، فتى متيم، وامرأة عاشقة، اجتمعا تحت سقف واحد، والحب ثالثهما والشوق نديمهما.

همّت به وهمَّ بها، لولا أنْ ثاب إليه عقلُه، وفكَّر في الله عزّ وجلّ، ونظر في عاقبة الحرام، وشؤم المعصية، ووجد نفسَه في صراع عنيف، مشدودًا بين جاذبيتين:

الأولى: جاذبية الشهوة، وقد تهيأت أسبابها وسنحتْ فرصتها، وسعت إليه دون أن يسعى إليها، فأمامَه امرأةٌ بارعة الجمال، وهي الدّاعية المتصابية، وصاحبة المكان الذي تهيأ لذلك، وليلُ شتاء طويل قد أرخى سدوله، وفي بيتٍ موصد لا ثالثَ لهما فيه. فالأحوالُ كلُّها داعيةٌ، ومواتية.

والثانية: جاذبية الخوف من الله، والنظر في سوء العاقبة، والنّفور من الحرام، ورعاية حق الصديق، فكلّها ناهية.

صار الفتى في حالة يُرثى لها، وفي موقفٍ لا يحسدُ عليه، مبلبل القلب، حائر الفؤاد، يقاوم جاذبيتين:

الأولى جاذبية أرضية: تشدُّه نحو قضاء وطرِه وإرواء غليلته، وإشباع نهمته التي كانت كامنةً ساكنة، فظهرت بفجاجةٍ بعد تلك المثيرات.

والثانية جاذبية علوية، تدْعوه للتسامي عن الدنايا، والتحليق في آفاق الفضيلة، واقتفاء أثر أهل الطهر والعفاف.

صرفَ عقله إلى قصة يوسف- عليه السلام- مع امرأة العزيز التي كانت فائقة الحسن، كيف توفرت كلّ الدواعي وتهيَّأت جميع الأسباب وغلّقت سائر الأبواب، وراودته المرأة، وأقبلت عليه، ونبضاتُ قلبها تدقّ بشدة، لكنه قابل ذلك بالتعفف والصبر، فهو غلامها، وهي سيدته، والبيتُ بيتُها، حيث يتيسر إيقاع الأمرِ المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [يوسف: 23-24]()قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ

مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[يوسف: 32 - 34].

ماذا يفعل الشاب، وسلطانُ الشهوة لا يبرحُ متغلّبًا، وطغيان الهوى لا يزال مهيمنًا! شابٌّ في عنفوان شبابه، مفعم برواءِ العافية، ذاق لذّة الطعام والشراب، لكنه لم يتذوق أبدًا طعم تلك اللذةِ، مما يزيد من توقِه إليها، ولم تنكشف أمامه مفاتن، وها هو الآن في جوف دارٍ مع غيداء تتفنّن في إغواء قلبه، وتوجّه كلّ ملكاتها نحو إغرائه، وتنتظر إشارةً منه لتبدي له ما تواريه الثياب.

تذكّر الفتى صاحبَ الدار، وعهد الصداقة، ووفاء الصحبة، وحرمة البيت، فعاد إليه رشدُه، وثاب إلى الصواب.

لكنه اختلس نظرةً فانطبعتْ في صحيفة قلبه صورة تلك الغادة الممشوقة القوام، وعينيْها الواسعتيْن، فنظرَ إلى المصباح القريب منه، وقارن بين حلاوة تلك اللذة الآنيّةِ الفانية، وبين لهيب النار المحرقة.

لم يملك وهو حائرٌ بين سلطان الشهوة وبرهان الحق، متأرجحًا بين نداء العاطفة ودعوة الحق، مترددًا بين النظر للمرأة الفاتنة، وبين النّظر لسوء العاقبة، إلّا أن يقوم ويضع أصبعه على السراج المشتعل في الغرفة، حتى تفقَّعت أطرافُ أنامله، ثمّ قال: يا نفسُ، ذوقِي هذا، وأين هذا من نار جهنم! فانطفأت لوعةُ الشوق، وخبا لهيب الشوق الذي أُضرم بين جوانحه، وخمدت جذوةُ الشهوة، وسكنَ الفؤاد.

فهالَ المرأةَ ما رأتْ فصدفت عنه، وانقمع ما في قلبها من صبوةٍ واشتياق، لكن جذوة الحب سرعان ما شبَّت، فراودته من جديد، مسلِّطةً هذه المرّة كلَّ طاقتِها، فتوقدت في صدره جمرةُ الحنين، عاودته الشهوةُ مجددًا، وكاد يطاوعها لولا أنه عاد إلى المصباح المشتعل، ووضع أصبعه، ومكث يكابد آلام الحريق، ويطفئ بنار المصباح نارَ شوق أُضرمت في فؤاده.

فيا عجبًا كيف تُخْمَدُ النار بالنار! ويُطفأ الحريقُ بالحريق!

وهكذا قابل الفتى كلّ موجةِ إغراء وعاصفة افتتانٍ بوضع أصابعه في المصباح، فما أسفر الصبحُ إلّا والنار قد أحرقت أطرافَ أناملِه.

وجاء صاحبُ المنزل، ولم يعلم شيئًا عن تلك المعركة الحامية، ولا عن نتيجتها، حيثُ انتصر جندُ الفضيلة، وارتفعت رايةُ العفاف، وتغلَّب التقى، ومُنيَ داعي الإثم بهزيمة منكرة، وأدبرت جحافلُ الظلام، تجرُّ جنودَ الهوى منهزمة، وفرّت فلولَ الرذيلة منكّسة الأعلام.

وحفظ اللهُ المرأة من جموح الهوى، وصان الله عرضَ صاحب البيت، ليسدلَ الستار على ملحمةٍ كبرى خفية، انتصرت فيها الفضيلةُ على الرذيلة، وينطوي سرُّ تلك المرأة، وكأنّ شيئًا لم يقع.

كأن لم أُجالسه ولم أُمس ليلة

أراه ولم نصبح ونحن جميع

روى هذه الحكايةَ الفقيه الأديب ابنُ حزم، وقال معقِّبًا: «أفتظنُّ بلغَ هذا من نفسِه هذا المبلغَ إلّا لفرطِ شهوةٍ قد كَلَبَتْ عليه، أوَ تَرَى أنّ الله تعالى يضيِّعُ له هذا المقامَ؟ كلَّا، إنه لأكرمُ من ذلك وأعلم». قال: ولقد حدثتني امرأةٌ أثق بها أنها عَلِقَها فتى مثلُها في الحسن وعَلِقَتْه، وشاع القولُ عليهما، فاجتمعَا يومًا خاليين، فقال: هلمِّي نحققْ ما يقالُ فينا! فقالت: لا والله، لا كان هذا أبدًا، وأنا أقرأ قولَ الله (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)[الزخرف: 67]، قالت: فما مضى غيرُ قليل حتى اجتمعا في الحلال».

كما حكى راوي القصتيْن عن نفسه تلك الحكاية في العفّة: قال ابنُ حزم رحمه الله: «ولقد ضمني المبيتُ ليلةً في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي مشهورة بالصلاح والخير والحزم، ومعها جاريةٌ من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمّتها معي النشأةُ في الصبا، ثمّ غبتُ عنها أعوامًا كثيرة، وكنتُ تركتها حين أعصرت، ووجدتها قد جرى على وجهها ماءُ الشباب ففاض وانساب، وتفجّرت عليها ينابيع الملاحة، فترددت وتحيرت، وأزهرت وأينعت، وطلعت في سماء وجهها نجومُ الحسن فأشرقت وتوقّدت، وانبعث في خدّيها أزاهير الجمال فتمّت واعتمّت، فأتت كما أقول:

خريدةٌ صاغها الرحمنُ من نور

جلَّت ملاحتُها عن كلّ تقدير

وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها صورةٌ تُعْجِزُ الوُصّاف، وقد طبق وصف شبابها قرطبة، فبتُّ عندها ثلاثَ ليال متوالية، ولم تُحْجَبْ عني على جاري العادة في ذلك العصر؛ فلعمري لقد كاد قلبي يصْبو ويثوبُ إليه مرفوض الهوى، ويعاوده منسيُّ الغزل. ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفًا على لُبِّي أن يزدهيه الاستحسانُ، ولقد كانت هي وجميعُ أهلها ممّن لا تتعدى الأطماعُ إليهن، ولكنّ الشيطانَ غيرُ مأمونِ الغوائل، وفي ذلك أقول:

لا تُتْبِعِ النفس الهوى

ودع التعرُّض للمحن

إبليس حيٌّ لم يمت

والعينُ بابٌ للفتن

وأقول:

وقائـــــل لي: هـــذا

ظـــنٌّ يزيـــدُك غيًّا

فقلتُ: دع عنك لومي

أليس إبليسُ حيًّا ([12]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -5-

# تصبُو إلى مَيّ

المدينة البيضاء، ذاتُ البيوت الأنيقة التي تزيّنت شرفاتها ونوافذها بالورود والأزهار، وأطلّت فوقَ جدرانها الياسمين بوجْهها الأبيض وخدودِها الأرجوانية. مدينة من أكبر بلاد الأندلس وأطيبها بقعة، «وأحسنها بنيانًا وأكثرها ثمارًا وأغزرها مياهًا»، فيها يصبّ نهر إبروه، بمجراه الواسع، ويمتدُّ فوقه جسرٌ عظيم، يصلُ المدينة بالحقول والبساتين التي تحيط بها.

وضعَ أساسَ جامعها الكبير على ضفة النهر تابعيٌّ جليل، شاهد صحابةَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ هو حنش بن عبد الله الصنعاني، وقد مات- رحمه الله- بها ودُفن فيها.

مدينة قيلَ في وصفها: «... ناهيك من مدينة بيضاء، أحدقَتْ بها من بساتينها زمردةٌ خضراء، والتفَّت عليها أنهارُها الأربعة، فأضحتْ بها رياضها مرصَّعة مجزَّعة. ولا نعلم في الأندلس يحدّق بها أربعة أنهار سواها، وكأنّ كلّ جهة تغايرتْ على إتحافها، فأهدت إليها نَهْرًا يَلْثُمُ من أعطافها. وأشهرها نهر جِلَّق، وشرب موسى بن نُصير فاتح الأندلس من ماء نهر جلَّق، فاستعذبه، وحكم أنه لم يشربْ بالأندلس ماء أعذب منه، وشبَّه ما عليه من البساتين بغُوطة دمشق».

في أحدِ أحياء سرقسطة الجميلة، في بيت عزٍّ وشرف، يمتدّ نسبه إلى الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، سكنت أسرةٌ محبّة للعلم والعلماء، ولد لها محمد بن ميمون الْحُسَيْنِي، وفي أحضانها نشأ وترعرع في ظلّ هذه المدينة الرائقة بالأجواء المبهجة، والحدائق الباسقة، والأنهار الجارية، والوديان المخضرة المخملية، والأشجار الظليلة.

بدأ حياته في طلب العلم؛ فحفظَ القرآن، وجلس في حلقات العلم، لكنّ شيئًا ما شغله عن العلم وألْهاه وأثقلَه عن المضيّ في طريق الأمجاد، وأقعده عن سبيل الآباء والأجداد.

يقول أبو عبد الله: كانت لي في صبْوتي غادةٌ حسناء، اشتراها أبي وأهْداها لي، وفي ليلةٍ لا أنساها، ليلة قمريةٍ زُفَّت إليَّ، في جوٍّ من البهجة، حيث نُصبت الموائد، وقُدّمت الولائم، وضربت الدفوف، وازدانَ بيتُنا الكبير بالمصابيح الملونة التي زادته ضياءً وسنا، ثمّ بنيتُ بها في جناحٍ مُخصّصٍ لي من دارنا الرحيبة، يحتوي على ردهةٍ واسعة وغرفة كبيرة، يتوسّطها سريرٌ نحاسيٌّ مطلي بماء الذهب، قد نُسِجَ شبّاكُه بأبدع النقوش، وفُرشت عليه

بطائنُ ناعمة من الحرير، بديعة الألوان مطرّزة برسوم الورود والأطيار، وعلى منضدةٍ وضعت مزهريّات، نُسّقت فيها الورود، وفي الصباح أشرقتِ الشمس على أجمل نهار، وسرتْ أشعّتها الذهبية من النافذة المطلّة على حديقة المنزل حيث يمكننا رؤية أشجار السّرْو العالية قريبة من أسوار البيت، وفي أحد أركان الحديقة تقف شجرة الزيتون العتيقة شامخةً مثقلة بحمْلها، بينما توسّطت عريشةُ العنب دهليزَ البيت، بظلالها وقطوفها الحمراء والسوداء التي تدلت كالقناديل، ومن الباب الرئيسي حتى الدرج المفضي إلى بهو الاستقبال رُصفت الأرضية برخام أبيض، بينما الماء ينضحُ من النافورة، المبطّنة بالزليج القاشاني، وفي قاعها فسيفساء بألوان البحر، والسماء بين الزُّرقة والخضرة.

وثمة حديقة خلفيّة تتوسّطها شجرة جوزٍ عتيقة، يجلس أهلُ البيت في ظلّها في الأصائل، يستمتعون بظلّها الظليل، وبها حقلٌ صغير لإنتاج الخضروات قريبٌ من المطبخ، وفي الركن القصي بيوتٌ للحمام وحظائر الدجاج والغنم.

وتمرُّ الأيام والليالي فلا تزيدني إلّا هيامًا وشغفًا، وتعلُّقًا وغرامًا بتلك الدميةُ الرائعة، حتى كنت أضيّع جلّ وقتي في مخدعِها. في الأصيل نجلسُ في الحديقة الخلفية نلهو ونمرح كطفلين، ثمّ نخلد في المساء إلى الراحة والدَّعة، وننعم بالفرح والحبور، وفي الصّباح نرقب الطيور أو نطاردها في أعشاشها، ونصغي لألحان البلابل على الأيْك، ونحن راقدين على الخميلة الخضراء التي نسجتها الطبيعة من العُشْبِ، في روضة بيتنا الكبير، ومع كلّ صباحٍ تتفتّح عيني على محيّاها، أطيل تأمّل فتاتي الرائعة، فأراها كلّ صباح عندما تستيقظ، وقد تفتحت أزهار أنوثتها، وتبدَّت مفاتنها، وأشرق محيَّاها، فإذا قامت كأنها فراشة جميلة تغْدو وتروحُ، تميلُ كالعودِ، وتميسُ كالغصن، في بديع حُللها، تخطرُ كالطيف متألقة في نفائس حليّها، وعبقِ أنفاسِها، تضحك ببراءة الطفولة ضحكة جميلة، تفترُّ عن مباسمها، حتى سلبت فؤادي، وخلبت روحي، وصارت شغلي الشاغل، لا سيّما وأنا في مُقتبل شبابي وعنفوان صباي، فلا أزدادُ بوصالها إلّا تعطُّشًا وهيامًا، ولا تزيدها الأيامُ إلّا حسنًا وطراوة، ونُضجًا ورواءً.

كان أبي- رحمه الله- يراقبُ ذلك، فيشفقُ علي، ويتحسَّرُ لما يفوتني من الطلب، ومن تأخري عن أقراني، بعد أنْ كنت نجيبًا لا يسبقني أحدٌ، حتى صار يعذلُني، وكان يظنُّ أنني بعد بضعة شهور سأعتادها وأملُّ منها ويعتريني الفتورُ، فأعزفُ عنها، وأنصرفُ إلى الطلب، لكنْ بدا الأمرُ على خلاف ظنّه؛ فالأيام لا تزيدني إلّا صبوةً.

صرتُ أتثاقل عن دروسي، وأجلس شاردًا بين يدي شيوخي، فإذا عدتُ لم أنشغل بالمذاكرة، بل صارتْ هي شغلي الشاغل، أجالسها في الأصائل،

وأسامرها في الأماسي، كما كثر غيابي عن حضور مجالس العلم بسبب تأخري في النوم، فكان أبي يكثر اللومَ والعتاب، ويعرِّضُ لي ببيعِها؛ لأنها كانت تشغَلُنِي عن الطَّلَب، وتشوّش الفكر، عزّ على أبي ما أنا فيه من خمولٍ وتكاسُل، وأحزنه تقاعسي عن طريق العلمِ والمجد، بهيامي ودنفي بتلك الصبيّة الحسناء، لكن عذله ما زادنِي إلّا ولَعًا وإغراءً بها، ولسانُ حالي:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء...

ولبثتُ على هذا الحال، لا أستطيع أن أفطمَ نفسي عن تلك السوسنة العبقة، وأيّ قوة.. أو أيّ طاقة تدفعني إلى هجر ريحانتي، وفراق طفلتي، وجفاء بهجة روحي، أليست المباهجُ كلها والمسرّات في مؤانستها وملاطفتها؟ سيَّما في واحةِ بيتنا الهادئ الهانئ، الذي توفّرت فيه جميع أسباب العيش، ووسائل السعادة!

لكنْ إلى متى وأنا في ذلك الخدر اللذيذ؟ محبوسًا عن المعالي، قعيدًا عن ركبِ المجد، مُخلّفًا عن سالكيه، إلى متى أظلُّ غائبًا عن معاهد العلم وحلقات الدرس، مؤثرًا لذةً حاضرةً وشهوةً منقضية!

قرأتُ ذات ليلةٍ حكايةَ عبد الرحمنِ الداخِلِ صقرِ قريشٍ: لما دَخَلَ الأندلسَ قُدِّمَ إليه الخمرُ ليشربَ، فقال: إنني محتاجٌ لما يزيدُ في عقلِي لا لما ينقُصُه. فَعَرَفَ الناسُ مِنْ ذلك قدرَهُ، ولما أُهْدِيَتْ إليه جاريةٌ حسناءُ، قال بعد أن نَظَرَ إليها: إنّ هذه الجاريةَ من القلبِ والعينِ بمكانٍ، فإن أنَا انشغلتُ عنها بِهِمَّتِي فيما أطلُبُه ظلمتُها، وإن لهوتُ بها عن مهِمَّتي ظلمتُ مهمَّتي؛ فلا حاجةَ لي بها الآن. وردَّها على صاحِبِها، فقالوا: إنّ الأميرَ ذُو هِمَّة.([13])

فتساءلتُ متأسّفًا على حالي: ألستُ أنا أيضًا ذا همة! ولكن أين راحت همتي؟! لماذا تغيّر حالي وفترتْ همّتي منذ أن وطأت تلك الجارية بقدميها عتبةَ بيتنا، وزُفّت إلي، وسلبت أنس روحي ولذة عقلي وأنا في مجالس العلماء، أو في غرفتي منكبًّا على مذاكرة دروسي، على منضدتي، ألتهم- على ضوء مصباح الزيت- ما كتبته في دفاتري من حصيلة يومي، أو أنسخ بخطي الجميل!

لكنّني لم أمتلك بعدُ همةً تحفّزني إلى العودةِ لمجالس العلماء، فمازال سلطانها هو الأقوى! ومازلتُ مشفقًا عليها من الحزنِ والألم، فلقد كانت هائمةً بحبي.

لبثتُ على هذا الحال حتى رأيتُ ذاتَ ليلة في المنامِ كأنّ رجلًا وضيئًا، يشعُّ وجهه نورًا، يأتيني في زيِّ أهلِ المشرقِ، كلّ ثيابِهِ بيضٌ، وكان يُلقَى في نفسِي أنه سبط النبي -صلى الله عليه وسلم- الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وكان ينشدني:

(تصبو إلى ميٍّ، وميٌّ لا تَنِي

تزهُو ببلواكَ التي لا تنقَضِي)

(وفخارُك القومُ الأُلى ما منهمُ

إلّا إمـــــامٌ أو وصـيٌّ أو نبي)

(فاثن عنانَك للهدَى عن ذي الهوى

وخفِ الإلهَ عليكَ وَيْحَكَ وارعَوِ)

فانتبهتُ فَزِعًا مفكِّرًا فيما رأيتُه، مَن هي ميٌّ التي يلومني بتصابيها! وحارَ فكري في ذلك، حتى أيقظتُ جاريتي التي باتتْ نائمة بجواري، فقامت تفركُ عينيها، وتتثاءبُ في كسلٍ، فنبّهتها وسألتُها: هل كان لك اسمٌ قبلَ هذا الاسمِ الذي أعرفُه؟ فقالت مندهشةً: ألهذا توقظني من لذيذِ نومي وتخطفني من جنة أحلامي!

وكانت عذبةَ اللسان، فصيحة الكلام، تتخيّر الألفاظ البديعة، وتنمّ عن عقل وأدبٍ، زاد من حبي لها وولهي بها، مع ضحكاتها العذبة، وصوتها النديّ.

ثمّ عاودتُها، هل كان لك اسمٌ قبل هذا الاسم؟ وأنا أتأمّل في حسنها كعادتي حين تستيقظ، فيظهر في وجهها حمرةُ الورد المتوجّس، وفي عينيها فتورُ النرجس، هل كان لك اسم قبل ذلك؟

حدجتني بنظرةٍ تنمُّ عن غيظٍ، ثمّ جال بصرها في أركان الغرفة حتى ثبتت عينيْها في سقفها المصنوع من خشب الأرز.

ثمّ قالت بصوت فيه بحّة شجية: نعم، سيدي!

نعم، كان اسمي في السابق مي.

وهنا علمتُ صدق رؤياي، وأنها رسالةٌ من الله لي، وموعظةٌ وعظَنِي بها اللهُ- عزّ وجلّ- وبشْرى، فكان لزامًا عليّ أن أُضحي بسعادتي معها وهنائي بقربها ولذّة وصالها، واتخذت قرارًا حاسمًا وهو الاستسلامُ لرغبة أبي في بيعها، ولكمْ تألمتُ وتألمتْ من مرارة الفراق، وبكت، ولكن لا حيلة لي بغير ذاك الفطام القاسي، ولا مفرّ من الهجر، حيث لا صبرَ لي عليها، ولن تنجح أنصاف الحلول، فلقد استحوذتْ على خاطري وملكتْ فؤادي.

فكان لزامًا أن أتحرّر من أسْر هواها.

وكان فراقًا مرًّا، ووداعًا حارًّا، بعد أيامٍ حُلوةٍ وليالٍ حِسان.

ومرّت الأيامُ وبدأتُ أقبلُ على طلب العلم من جديد بعد أنْ صفا فكري، واجتمع شعث قلبي، وعادتْ لي همتي العالية، حتى أدركتُ ما فاتني ولحقتُ بأقراني، بل سبقتُ.

وصار محدِّثنا عالمًا فقيهًا، أديبًا نحويًّا.

له دروسه في الفقه واللغة، وقد حكى هذه القصة بمجلسه في مسجد الجزارين بسرقسطة.

إنّ حلاوة طلب العلم، ولذّة تعليمه، أحلى من كلّ حلاوة، وألذُّ من كلّ صبوة.

ويرحم اللهُ الشافعي حيث يقول:

سَهَري لِتَنقيحِ العُلومِ أَلَذُّ لي

مِن وَصلِ غانِيَةٍ وَطيبِ عِناقِ

وَصَريرُ أَقلامي عَلى صَفَحاتِها

أَحلى مِنَ الدَوكـــاءِ وَالعُشّاقِ

وَأَلَذُّ مِن نَقـــرِ الفَتاةِ لِدَفِّـها

نَقري لِأُلقي الرَملَ عَن أَوراقي([14])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -6-

# خلوة
# وسلوى العاشقين

كانت قرطبة حاضرةَ الدنيا، وعاصمةَ العواصم، إذ كانت من السّعة بمكان، فقد ضمّت أكثر من عشرين حيًّا كان يطلق عليها الرّبض، كلّ ربضٍ من تلك الأرباض مستقلّ بدوره وأسواقه وحوانيته، وحماماته ومنتزهاته ومساجده، أحصى أحدُ المؤرخين دورَ قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر؛ فوجدها 213.77 دارًا، وبلغ عدد الحوانيت80.455 حانوتًا في أنحاء قرطبة.

ومن سوق قرطبة الكبير، بدأت حكايتنا.

يقول شاعرُ الأندلس يوسف بن هارون الرمادي: خرجتُ من صلاة الجمعة من الجامع الكبير مع الحشود الهائلة، كان الجوُّ معتدلًا مما حفزني على التّجوال في أحياء قرطبة العتيقة، مررتُ بالسوق، أصواتُ الباعة يروّجون لبضاعتهم بأهازيجهم المطرِبة، والنساء يحملن السلال الممتلئة بالأسماك الطّازجة، التي صيدت صباحًا من نهر الوادي الكبير، والفاكهة والخضروات على المناضد معروضة بألوانها المختلفة وتنوّعها العجيب، بينما ينبعث دخانُ شواءٍ متصاعد من شرائح اللحمِ المتبّل، والناس يتزاحمونَ على المطاعم لشراء جِفَانِ الكسكس وأطباقِ البقية، وغيرها من الأكلات التي يعشقُها القرطبيون.

وعلى بُعد خطوات لن تستطيعَ أن تقاوم رائحة الخبز الأندلسي، بينما الباعة المتجولون يبيعون الفستقَ واللوز المملّح والجوز المحمص، وعن اليمين دربٌ ضيق يُفضي إلى ساحة مربّعة تتوسطها نافورةُ ماء قريبة من حوانيت العطارين، حيث تكدّست البضائع القادمة من الهند والسند والصين، من أصناف البخور والعطور والأعشاب والتوابل، وجوز الهند، والفواكه والورد والأزهار المجففة.

إقبالٌ كبيرٌ من النساء على البهارات والأعشاب والزيوت والتوابل، لكنّ لفت ناظري جاريةٌ تتجوّل في السوق، ترتدي العباءة الأندلسية، وتخفي جزءًا من وجهها فيما تظهر العينان، ويشرق الجبين، فتبدو كغيامةٍ زرقاء حول بدرٍ ساطع، أخذتْ بمجامع قلبي بما بدَا لي من حسنها الرائع وجمالها البارع، فأخذت أرقبها حتى خرجت من سوق العطارين، فتبعتُها دون أن تشعر، حتى بلغت نهرَ قرطبة، ثمّ اجتازت القنطرة إلى الجانب الآخر من نهر الوادي الكبير، تلك القنطرة التي يبلغ طولها مسافة ثمانمائة ذراع، تقوم على أعمدة ضخمة، تربطها سبعة عشر قوسًا، ارتفاعها من ممشاها حتى سطح الماء

ثلاثون ذراعًا، وفي أسفلها طواحينُ الماء التي تتصل بالأرحاء المخصصة لطحن القمح.

بذلك فاقت قناطرَ الدنيا حسنًا وإتقانًا، بل هي من أعاجيب الدنيا حتى سميت بقنطرة الدهر.

بناها والي الأندلس «السّمح بن مالك الخولاني» في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، الذي كانت له أيادٍ بيضاء، وبصمات واضحة على الأندلس، ليس فقط في الإنشاء والعمارة، بل في كلّ جوانب الحياة، وكذلك في نشر العلم.

قال المقري:

بأربــع فاقـت الأمصارَ قرطبةُ

وهُنَّ قنطرةُ الوادي وجامعهـا

هاتان ثنتان، والزهـــراء ثالثـة

والعلم أكبر شيء وهو رابعهـا

وعندما أعاد بناءها هشام بن عبد الرحمن، فقال لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلّا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه. فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها، فلم يمرّ عليها أبدًا، بارًّا بقسمه.

سارتِ الفتاة نحو الموضع المعروف بالربض، حتى توقّفت عند رياض بني مروان، المبنية على قبورهم في مقبرة الربض، ثمّ التفتت بجيدٍ كالغزال، لتراني خلفها، فأسرعت الخُطى، وأنا وراءها، ثمّ التفتت ثانيةً وقالت بصوتٍ صارمٍ: ما لك تمشي ورائي؟ لماذا تتبعني؟

قلتُ: يا سيدتي، لقد فتنتُ بجمالك؛ حتى أصابَ عقلي الذّهول فتبعتك كأنني مسحورٌ.

فقالت بتهكُّمٍ: وماذا تريدُ مني أيها العاشق الولهان؟

قلت: لقد بهرني حسنُك، وأودّ أن أعرف من أنتِ؟

قالت: وما شأنك أنت؟

قال: إنني راغبٌ في الحلال، ومعاذ الله أن أفكر في غير ذلك.

- ومن قال لك إنني أوافق على الزواجِ من مثلِك؟

- وماذا يعيبني آنستي!

- «دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فلا مطمعَ لك فيَّ ألبتة ولا إلى ما ترغبه سبيل».

- إذن.. أقنع بالنظر.

- ذلك مُباح لك.

- يا سيدتي، أحرّة أم مملوكة؟

- بل مملوكة.

- ما اسمك ؟

- اسمي اسمي .... خلوة.

- ولمن أنت؟

نظرتْ إلي غاضبة، وقالت بحنق: علمك والله بما في السماء من نجوم أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحال.

فقلت لها: يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟

قالت: حيث رأيتني اليومَ في مثل تلك الساعة من كلّ جمعة. إما أن تنهضَ أنت أو أنهضُ أنا!

فقلت لها: انهضي في حفظ الله.

فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنني اتّباعها؛ لأنها كانت تلتفتُ نحوها لترى هل أسايرها أم لا.

فلمّا تجاوزت باب القنطرة حاولتُ أن أتبعها، فلم أقعْ لها على سكة ولا أثر.

ثمّ كانت الجمعة التالية التي مرّت عليَّ كأنها عامٌّ، نهضتُ من فراشي باكرًا في صباح ربيعيٍّ، اغتسلتُ ولبست أجملَ ثياب، وتعطّرت بأطيب عطر لديَّ، وتناولت فطورًا سريعًا من الخبز المحمص والزّيت، ثمّ توجّهت لجامع قرطبة فصليتُ وانصرفت إلى سوقِ العطّارين حيث تجتمع النساء، فلم أعثرْ عليها، فانطلقتُ نحو القنطرة، وقلبي يكاد يطير، فوجدتها تعبرُ إلى المقبرة، فأسرعت نحوها، ولحقت بها، وقد وقفت تتأمّل طاقة نرجسة قد تفتحت في وسط حوض مغروس بالرياحين، وفي كفّها عودُ ريحان مزهر تشمّه. قلت لها بعد أنْ ألقيت التحية وأجابتني: أتحبين النرجس؟

قالت: نعم.

أخشى أن تتأثري بطبعه؟

قالت مستغربةً: ماذا تعني؟

قلت النرجس ينسب إليه مَن يحب التعالي والترفع عن الآخرين، فيقال عنه نرجسيٌّ.

قالت: حتى ولو كان جميلًا أليس من حقّه أن يزهو بجماله؟

قلت: حتى ولو كان مثلك فائق الحسن والجمال.

تضرّج خداها خجلًا، وقالت: إذًا، من حقّي أن أزهو بجمالي.

ثمّ حدجتني بطرفِ بصرها، وقالت: وماذا تعمل؟ في التجارة أم في الفلاحة؟

قلتُ: لا هذا ولا ذاك.

فتمتمتْ في نفسها، وابتعدت خطواتٍ، وقالت: شابٌّ عاطلٌ، ويطمع في الزواج!

ثم حادثتُها، فرأيتُ أدباً بارعاً، فأخذتْ بمجامعِ قلبي، وزادَ هيامِي بها حفظُها للشعر.

فقلت لها: سألتك بالله أحرّة أم أمة؟

فقالت: بل أمة.

قلت: ما اسمك بالله؟ قالت: قلت لك اسمي خلوة. أراك نسيت!

- اسم بديع، ومَن سيدك؟

فأبتْ أن تجيب.. وأرادت أن تنصرف، فأنشدتُ: صدَّ عني فليس يعلم أني

كنت في كربة ففرج عني

وتجنَّى علي من غير ذنب

فتجنى على كثير التجني

فأقبلت عليَّ، وقالت: هذا شعرك أنت؟

قلت: نعم. قالت: يا محتال، يا لكذبك! إنّه من نظم يوسف بن هارون الرمادي؛ الملقب بمقدّم الشعراء! أراك تنتحلُه!

فضحكتُ.

قالت: وما المضحك في ذلك؟

قلتُ: هذا الشّعر من نظمي أنا!

قالت: إذا أنت يوسف بن هارون.

قلت: أنا يوسف وهذا شعري.

فاتسعت حدقتاها، وهي لا تكاد تصدق أن الذي أمامها هو شاعر الأندلس الذي سارت بقصائده الركبان، وتغنّى به الصغار والكبار، صاحب الشعر الرصين، الذي يتسم بحسن الحبك وروعة السبك، شاعر ماهر في تنضيد الألفاظ ورصف المعاني، أنت ذلك الشاعر!!!

- وماذا تعرفي عن يوسف بن هارون؟

أجابت كأنها تقرأ من صحيفة: أعرف أنّه شاعرٌ «رَائِق الأُسْلُوبِ، مَلِيح الدِّيبَاجَة، حَسَن الْوَشْي، شَائِق اللَّفْظ، رَشِيق الْمَعْنَى، دَقِيق الْمَبْنَى، دَقِيق الْفِكْرِ، لَطِيف التَّخَيُّل، مَطْبُوع النَّادِرَةِ، نَبِيه الأغْرَاض، شَرِيف الْمَعَانِي، وَاضِح الْمَنْهَجِ، لَيْسَ فِي شِعْرِه تَكَلُّف، وَلا تَعَسُّف، وَلا قَلَق، وَلا ارْتِبَاك، وَلا تَعْقِيد، وَلا غُمُوض، وَلا الْتِبَاس، وَلَا تَقْصِير، وَلَيْسَ فِيهِ حَشْو، وَلا سَفْسَاف...».

- يا لكِ من ناقدة بصيرة! وأديبةٍ ماهرة!

تضرّج وجهها خجلا، وافترّ مبسمُها عن درٍّ نظيم، وطفقتْ تعتذر عمّا بدا من جفائها، وأقبلت بعد صدودٍ.

قال هارون: فأخذنا نتحدّث في الأشعار، ونصغي لصوت الأطيار، ونتنسّم عبق الرياض، ونمتع ناظرينا بجمال الربيع الأندلسي، وأقول شعرًا من محفوظاتي أو من نظمي في كلّ ما تقع عليه عيني من الزهور: البهار والريحان وشقائق النعمان، والسوسن الوسنان، والبنفسج، والورد؛ وهي منبهرة، منسجمة، ثمّ قلتُ متغزِّلًا: بدرٌ بدا يحمل شمسًا بدت

فحدُّها في الحسن من حده

فانصرفتْ بوجهها، تنظرُ للطيور التي تغرّد فوق الأشجار. ثمّ حدثتها عن كتابي الذي جمعته في الأطيار نظمًا، أعرِّف فيه بالطيور.. فنال إعجابَها.

مالتِ الشمسُ نحو الغروب، واحمرَّ قرصُها، فانصرفتْ مسرعةً دون أن تستأذن، فانطلقتُ أعْدو خلفها، أقفو أثرها، حتى أدركتُها قبل أن تعبرَ القنطرة، فالتفتتْ نحوي، كما يلتفتُ الغزالُ وقالت: إمّا أن تتأخر، وإمّا أن تتقدم، فلستُ والله أخطو خطوة وأنت معي. فقلت لها: أهذا آخرُ العهد بك؟ قالت: لا. فقلت لها: فمتى اللقاء؟ قالت: يوم الجمعة القادمة هنا في هذا الوقت. قلت لها: فمَن سيدُك؟

قالت: لن أخبرك الآن.

- فما ثمنك إن باعك مَن أنت له؟

قالت: ثلاثمائة دينار.

قلت: سأتدبّر الأمر. وموعدنا في هذا المكان يا خلوتي!

فأسرعت نحو القنطرة، ولم يمكنني اتّباعها لأنها كانت تلتفتُ نحوي؛ لترى هل أسايرها أم لا.

فلمّا تجاوزتْ بابَ القنطرة أسرعتُ أقفو أثرها، فلم أقعْ لها على سكة، إذ اختفت في زحام النساء بالسوق.

فرجعتُ إلى نفسي حائرًا: ثلاثمائة دينار! مِن أين لي بها! وجاءت الفكرة بعد السّكرة، ولكن كما قيل: ... ومن يخطب الحسناء لم يُغْلِهِ المهر.

فخرجتُ جمعةً أخرى فوجدتها عندَ القنطرة فسلمتُ عليها، فردّت عليّ ونظرها في الأرض، لم ترفع بصرَها إلي! فزادَ كلفي بها، ووعدتُها بأنْ أجمع ثمنها وأشتريها من سيّدها وأعتقها وأتزوجها، وودعتُها إلى لقاء في الجمعة التي تليها، ومعي المالُ، وافترقنا وأنا لا أشكُّ في عودتها. فنظرت إليّ مودعةً بثغرٍ مبتسمٍ يفترُّ عن دُررٍ، فقلتُ في ذلك: ولـــم أرَ أحلى من تبسّم أعيــن

غداة النوى عن لؤلؤ كان كامنا

وعدتُ إلى البيت، وتعشيتُ، وجلستُ أفكر: كيف أجمع هذا المبلغ الكبير! وأنا لا تجارة لي ولا صنعة؟ لا أحسن إلّا الشعر! فخطرتْ لي فكرة رائعة، قصيدة شعر أنظمها لأحد الأمراء، وأشكو له أمري فيمنحني المال! فمَن يكون هذا الأمير؟

فرحلتُ إلى عبد الرحمن التجيبي؛ حاكم سرقسطة «المدينة البيضاء»، ومدحته بقصيدة ميمية، طبقت شهرتُها الآفاق، قلتُ فيها: قفوا تشهدوا بثي وإنكار لائمي

على بكائي في الديار الطواسم

وذكرتُ فيها خلوة، التي ملأ حبُّها شغافَ قلبي، وأسهر ليلي، وأقضّ مضاجعي، فقلتُ: خلا ناظري من نومةٍ بعد خلوة

متى كان مني النوم ضربة لازم

وما لي لا أبوح بحبي وأنا القائلُ:

بُحت بحبي ولو غرامي

يكــون في جلمدٍ لباحا

لم يستطع حمل ما يُلاقي

فشــقَّ أثوابــه وناحا

فوصلني بثلاث مائة دينار ذهبًا ثمنَ محبوبتي، سوى ما زودني من نفقة الطريق، فعدتُ مسرعًا، والسعادةُ تزفُّني إلى قرطبة، وأجنحةُ الشوق تطير بي، ومكثت أترقبُ يومَ الجمعة بفارغ الصبر، حتى جاءَ، فصلّيت الجمعة في الجامع الكبير، وانطلقتُ نحو القنطرة، لم يسبقني إليها أحد، فأخذت أرتقب وصولَها فلم تصل، حتى أذّنت مساجد قرطبة لصلاة العصر، وانتظرتُ طويلًا حتى آذنت الشمسُ بالغروب، فلمّا غربت عدتُ لبيتي حزينًا، وانتظرتُ على أحرّ من الجمر للجمعة التالية، فلم تأتِ، فلزمتُ الرياض جُمَعًا لا أرى لها أثرًا، وقد انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري، وقلتُ في ذلك منفِّسًا: عيني جنت في فؤادي لوعةَ الفكر

فأرسل الدمع مقتصًّا من البصر

فكيف تبصر الدمع منتصفًا

منها بإغراقها في دمعها الدُّررِ

لم ألقها قبل إبصاري فأعرفها

وآخر العهد منها ساعة النظر

«فو الله لقد لازمتُ بابَ العطارين، قريبًا من قصر البستان، تارة أرقب قدومها من جهة الباب، وتارة أتوقّعها من جهة الربض، ومكثت على ذلك من ذلك الوقت إلى الآن، فما وقعتُ لها على خبر، ولا أدري أسماءٌ لحَسَتْها أم أرضٌ بلعتْها، وإنّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر».

وبلغَ بي الأسى واللوعة مبلغًا سرتُ أهيمُ على وجهي، وأجولُ بأنحاء قرطبة بلا بغيةٍ ولا هدف، وأفتِّش عنها في الأسواق، بقلبٍ ملتاع، وأسألُ عنها كلّ مَن ألقاه حتى الحمائم: أحمامة فـــوق الأراكـة تنثني

بحيــــاة مـــن أبكاك ما أبكاك

أمّا أنا فبكيتُ من حرق الهوى

وفراق من أهوى، أأنت كذاك

أمّا الليل، فما أطولَ ليل العاشقين، لقد زاد شوقي وغرامي، وأسهرني الوجدُ، فصرتُ أجلسُ وحيدًا أشْكو بثّي وحزني لنجوم السماء، كلّما طلع نجمٌ أبثُّه شجوني، وأذرفُ له دموعي، ولكن من يواسيني ويسليني!

وتمرّ الليالي والأيام ثقالًا فلا تزيد فؤادي إلّا لوعةً واحتراقًا، ولا نفسي إلّا تعطّشًا واشتياقا، وأنى لقلبي أن يشفى من تباريح هذا الدّاء العضال إلّا بمسرّة اللُّقا ولذة الوصال.

عيني جنتْ في فؤادي لوعةَ الفكرِ

فأرسل الدمعَ مقتصًّا من البصر

فكيف تبصر الدمع منتصفًا

منها بإغراقها في دمعها الدررِ

لم ألقها قبل إبصاري فأعرفها

وآخر العهد منها ساعة النظرِ

إلى أن كان ذات يوم دعاني في ظهيرته رجلٌ من إخواني فدخلت إلى داره، وأجلسني في صدر مجلسه، ووضعَ أمامي صحفةً من الفاكهة وأطباقًا من النُّقل، ثمّ قام لبعض شأنه، فأخذت أتناول من النُّقل، وأنا أتأمّل في جمال هذا المجلس؛ السجّاد الفارسي، والستائر الحريرية التي يتّسق لونها مع لون المجلس، والمناضد التي وضعتْ عليها المزهريات، ورائحة الورود المنبعثة منها، ذكّرني هذا الجو الرائع بمحبوبتي التي سلبتني فؤادي، ولم أعرفْ لها سبيلًا، تُرى أين هي الآن؟ وهل لها عذرُها في هذا الغياب؟ هل يجود عليّ الزمان لوصلها؟ هل تكتحل عيني برؤياها؟ وبينما أنا شاردُ الفكر، وعيني مثبّتة على ستارة حمراء، فلم أشعر إلّا بالستارة قد رفعتْ عن فتاةٍ رائعة الجمال، نظرت في هذا الوجه الملائكي الذي لاح، وإذا أنا وجهًا لوجه أمامها؛ إنها خلوة، نعم.. هي بوجهها الفتّان! وعيونها التي تسبي العقول والوجدان، لكنها في خدْرها أجمل، فقد برزت بثوبٍ حريريٍّ، ووشاح على رأسها زادها حسنًا.

- خلوة؟

- نعم.

- لقد بحثت عنك كثيرًا!

لم يبدُ عليها انفعال، ولم تردّ جوابًا.

- لقد أحضرت ثمنَ حريتك، فلماذا لم تعودي إلى الرياض حيث تواعدنا؟

سكتت.

- هل أنت مملوكة لصديقي؟

- لا والله، ولكني أخته.

- أخته! هذا يعني أنك حرّةٌ، ولستِ أمة!

- أجل.

تسارعتْ دقات قلبي، بل جفَّ حلقي من الصدمة، وقلت وقد بدأ الغضب يتملكني: وكذبتِ علي قبلَ ذلك! وقد استحلفتك، فحلفتِ كاذبة أنك جاريةٌ مملوكة! وها قد جمعتُ ثمن حريتك! وبقيتُ جُمَعًا أنتظرُك عند مقبرة بني أمية! أكنتِ تخدعينني؟

ضحكتْ باستخفاف. فقلتُ لها غاضبا:

هل يعقلُ أن يخرج الكذبُ من هذا الفم العذب! هذا الوجه القمري وجهٌ كذابٌ!

بدتْ لي شيطانة كذوب، تتوارى خلف هذا الوجه الملائكي!

ضحكت ضحكة كشيطانة، انفجرت في القهقهة كغانية، وقالت: فقط كنت مازحةً ؟ لم أقصد الإساءة إليك!

قلتُ لها معاتبًا: وهل هناك أسوء من الكذب، هل في الكون أقبح منه ؟ حتى ولو خرج من أفواه الحسناوات الفاتنات!

قالت بلا مبالاة: حسبك! كيف تجسر على إهانتي في بيتي! وأسدلت الستار، وسمعت خطواتها مسرعةً داخل مخدعها. نعم أسدلت الستار على تلك الخاتمة، فكانت نهاية قصتي المؤلمة.

أسدلت الستار وكأنّ الله تعالى محا حبّها من قلبي، وأقبل صاحبُ الدار، فقمت من فوري، معتذرًا لصاحبي بأنَّ عارضًا طرقني، وانصرفت، وأنا أفكر بعقلي الذي عاد لي وكأنه تحرّر من أسرٍ، نعم كان أسيرَ الهوى والغرام، ودخلت البيت وخلوتُ بنفسي، ومكثت أسترجع كلّ ما قالته، وبعد أيامٍ شفيتُ من حبِّها شفاء تامًّا، حتى كأنني لم أعرفها ([15]).

فما قيمة الجمال والحسن إذا كان يكسو نفوسًا عارية من النبل والفضيلة!

جمال ظاهر معَ قبح باطن؛ كوجه قميء اختفى خلف قناعٍ زائف فاتن!

جمالٌ تعرّت صاحبتُه من أخلاقٍ تكتنفُه وتُعليه، كبستانٍ أينعت ثماره وفاحت أزهاره، وهو بلا سياج يحميه.

جمال معَ قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس، أو كطاقة نرجس على قبر معذَّب!

إنّ قبح النفوس يأبى إلّا أن يطلّ على وجوه أصحابها، فيشوّه جمالها، وهكذا كان آخر عهدي بمن عشقتها، رأيت جمالها بتلك الصورةِ المشوّهة، تبدّى حسنُها بهذه البشاعة! لتكون هذه نهايةُ قصة حبٍّ لم تكتملْ، قصةِ حبٍّ من طَرَفٍ واحدٍ، قصة حبٍّ لحبيبٍ مخادع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -7-

# الفاتنة

في أيام صباي أَلِفتُ جاريةً نشأت في دارنا صغيرةً، ثمّ انتقلت إلى قريبةٍ لنا، فلما بلغتِ السادسة عشرة أضحت آيةً في الحسن والجمال تفوق الوصف والخيال، كما بلغت الغايةَ في كمال العقل والأدب، مع عفافها وخفرها ودماثة خلقها، ما زادها حسنًا على حسن، «وكانت عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، قليلة الكلام، غضيضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، شديدة الوقار، سريعة النفور.. تزدان في المنع والبخل، ما لا يزدان غيرُها بالسّماحة والبذل، موقوفة على الجدّ في أمرها، غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسن العود إحسانًا بارعًا، فجنحتُ إليها، وأحببتُها حبًّا مفرطًا شديدًا، وسعيتُ بأبلغ السعي عامين كاملين أن تجيبني بكلمةٍ واحدة، أو أسمع مِن فِيها لفظة، غير ما يقعُ في الحديث الظاهر إلى كلّ سامع، فما حظيتُ من ذلك بشيء».

الحبّ الضّائع

إلى أن كان ذات يوم عُقِد في بيتنا حفلٌ كبيرٌ لأضيافٍ كرام، فاجتمع نساء العائلة وبناتهنّ وجواريهن في بهو الدّار الفسيح، وأمضينَ سحابة النّهار في فرح وحبور، بين أحاديث وضحك وطعامٍ وشرابٍ ومرح، وبعدَ أن نصبت لهنّ الموائد في بهوٍ فسيح، تناولن الغداء، ثمّ تنقلن إلى قصبةٍ كانت في دارنا مشرفةً على البستان، حيث منظرُ ورائحة الورد والريحان والأشجار والثمار، والنافورة تنضح بالماء، وحولها الفلّ والنيلوفر والنرجس والريحان والورد والبهار في انسجامٍ وتآلف، والنساء يستمتعن بالأحاديث الممتعة، وهنّ يشاهدن المنظر الرائع حيث قرطبة ورياضها وقصورها ودورها، ونهرها وجسْرها، قال ابنُ حزم «وكانت تلك المقصورة؛ فصرنَ ينظرن من خلال الشراجيب وأنا أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أنسًا بقربها متعرّضًا للدنوِّ منها، فما هو إلّا أن تراني في جوارها حتى تترك ذلك البابَ وتقصد غيرَه في حياءٍ وخفرٍ، فأتعمَّد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه، فتعود إلى مثلِ ذلك الفعل من التحوُّل إلى غيره بلطفٍ؛ وكانت قد علمتْ كَلَفِي بها، ولم يشعر أحدٌ من النّساء بما نحن فيه، وكنَّ منشغلاتٍ بالانتقال من بابٍ إلى بابٍ للفرجة والاطلاع من بعض النواحي على جهات لا يُطَّلع من غيرها عليها، ثمَّ نزلن إلى البستان فرغبت الفتيات بل والعجائز إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمرتْها فأخذتْ العودَ وسوَّته بخجلٍ، لا عهد لي بمثلِه، جعلتْه في حضنِها كالصغير، وإن الشيء يتضاعف حسنُه في عين مستحسنه، ثمّ أخذتْ تضرب

على أوتاره بأنامل تكادُ تنعقدُ من لطافتها! ويشعُّ النور منها، واندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف، التي يقول فيها: إني طربتُ إلى شمسٍ إذا غربتْ

كانت مغاربُها جوفَ المقاصير

شمسٌ ممثلةٌ في خَلْق جارية

كأن أعطافَها طي الطوامير

ليست من الإنس إلّا في مناسبة

ولا من الجن إلّا في التصاوير

فالوجه جوهرة، والجسم عبهرة

والريح عنبرة، والكلّ من نور

كأنها حين تخطو في مجاسدها

تخطو على البيض أو حد القوارير» ([16]) فلعمْري لكأنّ الريشة التي تضرب بها العود تعزفُ على أوتار قلبي، وأنا أنعمُ بمنظرها وأرقب لطافة أناملها، وجمال معصمها المزدانِ بأسورةٍ من ذهب، مرصّعة بفصوص من الزمرد والياقوت، وفي بنصرها خاتم ذهبي، بينما أطرب لعزفها وغنائها، وكأنها إنما تحكي عن كمال أوصافها، ونبيل خصالها، وروعة حسنها.

اكتشفت أنا العاشق المُتيّم المضنى أني أهيمُ بإنسانة لا تلقي لي بالًا، ولا تمنّ علي بنظرة، ولا تعطف بكلمة، نعم إنها لا تبادلني هذا الشعور، فليس لي مكان في قلبها، وإن كان فارغًا كما استنتجت.

استمرَّ الحفلُ للمساء، وبعد العَشاء انصرف الضيوف في غبطةٍ وسرور وامتنان.

انفضّت الجموع، وأطفئت الأنوارُ المبهرة، وغلّقت أبواب القصر، وصعدت إلى غرفتي، وخلوت بنفسي أسترجع لقطاتٍ من مشاهد هذا اليوم الحافل، طال بي السهرُ ليلتي هذه وأنا أسترجع كلّ ما دار في النهار، وتتمثل لي صورتها في مخيلتي وهي تخطر في خفّة وخفر، أو وهي جالسة كالأميرة ترنو إليها عيون النساء، والعود بين يديها تلامسه بأناملها وتداعبه وتحنو عليه كما تحدب الأمّ على صغيرها وتناغيه، ثمّ وهي تنعطفُ تتقي نظراتي، وتنثني بعيدًا كغزال رشيق يؤوبُ في لطفٍ إلى كناسه، أو مهاةٍ تتوارى عن عيون الصياد، مختفية في قلب السرب.

ما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه، وهذا أقصى ما وصلتُ إليه من التمكُّن من رؤيتها، وسماع صوتها، وغنائها؛ فكأنها الظبية في كُنَّاسها، لا تُرى إلّا خِلسةً، أو

الهلال لا يطلع إلّا يومًا في الشهر، وفي ذلك أقول مسلَيًا نفسي، معزِّيًا لها: لا تلمْها على النِّفار ومنع الـ

وصْل ما ذاكم لها بنكير

هل يكون الهلال غيرَ بعيد

أو يكون الغزال غير نفور

وأقول:

منعنتَ جمالَ وجهك مقلتيا

ولفظُك قد ضننتَ به عليا

أراك نذرتَ للرحمن صومًا

فلستِ تكلِّمين اليــوم حيًّا

وقد غنيتِ للعباس شعرًا

هنيـئًا ذا لعبـــاسٍ هنيّا

فلو يلقاكِ عباسٌ لأضحى

لفـــوزٍ قاليًا وبكــم شجيّا

كان عهد المنصور بن أبي عامر، مستقرًّا مزدهرًا، وإنِ استبدّ بالأمر وانتزع الحكم من الأمويين، بحجابته للخليفة الصغير هشام بن الحكم، وجعله معزولًا في قصره، لا يملك من الأمر شيئًا، بينما مقاليدُ الحكم كلها بيد المنصور، بعد تخلُّصه من كلّ منافسيه، كالوزير المحنَّك جعفر المصحفي، والقائد الشّجاع غالب، لكنه على أية حال كان عهدَ استقرار، كانت الأندلس فيه مملكة قويّة فتية، آمنة مطمئنة، هانئة رغيدة، مرهوبة الجانب، يخطب ودَّها الأعداء، وكان المنصور متحرِّيًا للعدل، يقِظًا متبصِّرًا للأمور، تولّى بعده ولدُه عبد الملك المظفر، فسارَ في الناس سيرة حسنة، وإن لم يكن في سطوة أبيه، لكنّه نال محبة الناس، وحكم ستة أعوام شهدتِ استقرارًا، إلى أنْ مات- رحمه الله- سنة 399هـ، وكان أبي وزيرًا لدولته كما كان مِن وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، مدبّرًا لدولتيهما.

ومرّت الأيام وصورتُها لا تفارق مخيلتي، وحبُّها يتغلغل في قلبي حتى أحسستُ أنّي بحاجة إلى مَن أبوح له بسرِّي، وأشكو إليه صبابتي، لكنْ من أين أجد هذا الصديق الكتوم! فآثرت أن أحتفظ بسرِّي بين جوانحي، وأفرغ همي في دروسي وكتبي، وأرتقب ما تسفر عنه الأيام، من وصالٍ يشفي

غليلي، ويروي اشتياقي، أو أحداثٍ ومفاجآتٍ تلهيني، وتنسيني، أو تراكمات السنين، فالزمان كفيلٌ بمداواتي، إلى أن يخبو ذلك الحبُّ.

وإن كنت ربما جلست أمام معلمي شاردَ اللب موزَّع الخاطر، مشوَّش الفكر، وكذلك عندما أخلو بكتبي ودفاتري، لأستذكر دروسي كان عقلي مشوّشًا، لكنني كنت أقاوم تلك العلة التي أصابتني، وأجاهد نفسي، وأفرّغُ فكري وأصرفُ زمام عقلي للعلم، وأجعل من الأدب لذتي وأنسي وراحتي.

وتولى عبد الرحمن الملقب بشنجول، حفيد الملك الصليبي شانجه، وأمُّهُ تزوج منها المنصور، وكانت بارعةَ الجمال، وافرة العقل، بذلها له ملوك النصارى في الشمال إرضاءً له، لينصرف بجيشه الذي لا طاقة لهم به، حين عسكر لهم، وجثم على صدورهم.

فكان تولّي شنجول طامةً كبرى إذ كان متهتكًا مستهترًا، يقضي معظمَ وقته في القصف واللهو، مما أثار نقمة الناس عليه، ومما زاد الأمر سوءًا قيامُه بعزل الخليفة الأموي، وتنصيب نفسه مكانه، مما أثار حفيظة الشعب الأندلسي، فقتله الثوار، وبدأت القلاقل، وشاع التمرُّد، وكثرت الأطماع، وأُضرمت نيران التعصُّب بين العرب والبربر، فضلًا عن دخول الصقالبة في الصراع، ودارت رحى المعارك الطّاحنة التي أحرقت ودمَّرت ما بُني في سنين من البيوت والقصور والأسوار، وكانت نكبات لم يسلم من شرِّها أحد.

وتنازع الناسُ على الخلافة فلم تجتمع كلمة، هذا يتولى، وذاك يعزل، والآخر يقتل، فتن متلاحقة، وأيامٌ متثاقلة، ومصائب كان لبيتنا حظٌّ أوفر من عواقبها، أشدّ ما يكون من النكبات بسبب تلك الثورات والحروب والقلاقل، حيثُ خُرِّبت الزاهرة التي بناها المنصور، وأنفق في تشييدها نفائس ما في خزائنه التي كانت زاخرةً، خرّبها الملقب بالمهدي، ونهب من ورائها خمسة آلاف ألف دينار، ووصل النّهب إلى خلع الأبواب، ونهب كلّ نفيس، وانتزع المهدي الأمرَ من شنجول وقتله، وكانت بداية النّهاية للأندلس، حيث استعان شنجول بأخواله النصارى، لكنه قُتل شرّ قتلة.

وانتقل أبي- رحمه الله- من دورنا الحديثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي ببلاط مغيث، تلك الضيعة الواسعة في غرب النهر الكبير، فرجعنا إلى قصرنا الذي كنّا نسكنه قبل الانتقال لمدينة الزاهرة، وذلك في اليوم الثالث من قيام الملقب بالمهدي بالخلافة، محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وانتقلت أنا مع الأسرة، وذلك في جمادى الآخرة سنة 399، أمّا الفتاة التي أحببتُها فإنّ أهلها لم يبرحوا مكانهم لأمور أوجبتْ ذلك.

فتناءت الديار، فضلًا عمّا في قلبها من تجافٍ ونفار.

وكانت مدّةُ ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل سبعة عشر شهرًا، من جملتها ستة أشهر لم يكن له سلطانٌ على قرطبة، ثمّ شُغِلْنا بعد قيام هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، بمساعدة جند البربر؛بالنّكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتُحنّا بالاعتقال، والرقابة المشدّدة، والإغرام الفادح والاستتار، واستعرتِ الفتنةُ مجدّدًا في قرطبة وأنحائها، واشتدّ لهيبها، وعمّت الناس جميعًا، وإن خصَّتنا بنوائب ومحن، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله، ونحن في هذه الأحوال المضطربة، والمحن المدلهمَّة، كانت وفاته بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتَا من ذي القعدة عام 402هـ، واتصلت بنا تلك الحال السيئة بعده، ونحن في صبرٍ وثبات مع ما مضى من سرور وصفاء، ولم يكن حالنا كما قال القائل: أشدّ الغمَّ عندي في سرور

ترقب عنه صاحبه ارتحالا

بل كما قال أبي رحمه الله:

إذا شئت أن تحيا غنيًا فلا تكن

على حالة إلّا رضيــت بدونها

لكنّ جمرة الحبّ لا تزال تتوقدُ في قلبي، الذي لا يفتأ يتذكرُها، مع ما نمرُّ به من محنٍ متتابعةٍ، فلا الأيام المتعاقبة تنسيني، ولا المحن المدلهمة تلهيني، بل كانت نفسي دائمًا تصبو لها وتتوق لرؤياها، إلى أن كان ذات يومٍ، في وقت الظهيرة، وعندنا جنازة لبعض أهلنا، فرأيتُها.. وقد ارتفعت الواعيةُ «النادبة»، لم أصدّق عينيّ، أحقًّا هي!

نعم هي، أراها قائمةً في المأتم، وسطَ النساء في جملة البواكي والنادبات، متشحةً بالسواد، كأنها البدرُ في لفيف الظلام، والدموع تسيلُ من محاجرَ كالجُمان، فتنحدرُ على خدودٍ ملتهبةٍ ومتوهجةٍ كالجمر.

أين منها قول كُثَيِّر في محبوبته عزّة:

وَعَنْ نَجْلاءَ تَدْمَعُ فِي بياضٍ

إِذا دَمَعَتْ وتَنظُرُ فِي سوادِ ([17]).

ولا أبالغ إن تمثلتُ بقول الشاعر:

أمطرت لؤلؤًا من نرجس فسقت وردًا

وعضّــت على العنـــاب بالبـرَدِ

لم يمنعني جلالُ الموقف ورهبتُه من اختلاس نظرةٍ، دون أن تشعر بي، سوّل لي الأمرُ أن كلّ مَن حولي منشغلٌ بالمُصابِ، فأطلقتُ بصري أُملّي عينيَّ من

هذا الجمال، حتى انتبهتْ لي فحدجتني ببصرها، وقطّبت بجبينها، كأنها تنكرُ عليَّ، واحمرّ وجهها كأنني أدميتُه بسهام عينيّ، ثمّ أشاحت عني، واستدارت، ومضت بعيدًا تتوارى بين النساء.

فلعمْري لقد أثارت وجدًا دفينًا، وحرّكت شوقًا ساكنًا، وذكّرتني عهدًا قديمًا، وحبًّا تليدًا، ودهرًا ماضيًا، وزمانًا عافيًا، وشهورًا خوالي، وأخبارًا توالي، ودهورًا قد ولّت، وأيامًا قد ذهبت، وآثارًا قد اندثرت، وصفحاتٍ قد طُويَت، فجددتْ أحزاني، وهيجتْ بلابلي، «على أني كنت في ذلك النهار مرزءًا مصابًا من وجوه، وما كنت نسيتُ، ولكن زاد الشجى وتوقَّدت اللوعة، وتجدد الحزن وتضاعف الأسى، واستجلب الوجد ما كان منه كامنًا، فلبَّاه مجيبًا، فأنشدتُ أندبُ حالي: يبكي لميت مات وهو مكرم

ولَلْحيُّ أولى بالدموع الذوارف

فيا عجبًا من آسفٍ لامرئ ثَوى

وما هو للمقتولِ ظلمًا بآسف

ثمّ ضرب الدهر ضرباته وأُجلينا عن منازلنا، وتغلّب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة، وغابتْ عن بصري بعد تلك الواقعة التي رأيتها فيها ستة أعوام وأكثر، إلى أن دخلتُ قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة، وقد تغيّر الكثير، فنزلتُ على قريبة لي، فرأيتُها هنالك، وما كدتُ أن أميِّزها حتى قيل لي هذه فلانة»، وقد أضناها الهمّ، وأنحلها الحزنُ، وهدَّها تقلبُ الزمان، فتلاشت محاسنُها وذوى عودُها وذهبتْ نضارتها، وراحت تلك البهجة، وغاض ذلك الماء، وجفّ ذلك الرّواء، بعد أن كانت صفحةُ وجهها مرآة مصقولة، وذبل ذلك النوَّار الذي كان البصر يقصدُه منبهرًا ويرتاد فيه متحيِّرًا، ويهيم فيه متخيِّرًا، ثمّ ينصرف عنه محرومًا، حتى تلك القامة الممتشقة، التي كانت أشبه بغصن البان، بدتْ حدباء في انحناءٍ وتقوُّس، وظهرت آثار السهاد والأسى، هالاتٌ زرقاء قاتمة حول جفنيها، وسحاباتٌ داكنة أمام عينيها، وقد تغضّن جبينُها، فما الذي بقي من حسنها وجمالها؟

لم يبق إلّا البعض المنبئ عن الكل، والأثرُ الذي ينبيك عن خبر، لقد تبدّل حالها، وذبُل جمالها، وتلاشى حسنها، معَ ما بدا من قلة اهتمامِها بنفسها، وانعدام أسباب النضارة والرواء التي كانت غُذِيَتْ بها أيام دولتنا وامتداد ظلّنا؛ ولتبذُّلها في الخروج فيما لا بدّ لها منه مما كانت تصان عنه قبل ذلك، وتترفَّعُ عنه؛ فقد ولّى زمانُ الصفا والهنا، والراحة والدعة، وحلت ليالي الأسى والضنى، وتفرّق الخدمُ والحشمُ.

وإنّما النساء رياحين، متى لم يتعاهدها البستاني ذَبُلَتْ أوراقُها وجفّت أعوادُها، وبناء متى لم يعمّر تهدَّم؛ ولذلك قال مَن قال: «إنّ حسن الرجال أصدق صدقًا وأثبت أصلًا وأعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيّرت أشد التغيير، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكنّ».

نظرت إلى تغيّر وجهها، مندهشًا، لكنّي هذه المرة لم آسَ عليها، ولم يرتجف قلبي ويصبُ إليها.

كما أنها حين نظرت لي نظرةً لم أرَ أثرًا لتغيير مشاعرها على وجهها، إذ لم تبشَّ لرؤياي، ولم تبتسم لمحيَّاي، بل بدتْ كصخرة جلمود، أو كنهرٍ من جليد، لم يتدفّق يومًا، أو كغصن يابسٍ، لم يتمايل للنّسيم، أو كأرضٍ مجدبةٍ لم تهتزّ يومًا بالحياة، ولم تبتسم لِقَطْرِ السماء.

هذا الذي لم يتغيّر منها! ومن ثمّ لم يهزّني هذا المشهدُ الأسيف، ولم يرقَّ فؤادي لتغيُّر حالها!

ولماذا أشفقُ عليها وأرثى لها؛ وهي في أيام العزِّ ونضرة النعيم ورواء الشباب وغضارة العيش، ما جادتْ عليّ ولو بلفتةٍ أو كلمة، ولم تعرْني اهتمامًا تدخل به السرور على فؤادي المكلوم!

نعم أحببتُها، لكنّ الحبَّ كان من طرفٍ واحد، أنا مَن عانى ألم الجوى وحرقة الوجد والكَلَف، وإني لو نلتُ منها أقلَّ وصلٍ، وأنستْ لي بعض الأنس؛ لجُننتُ طربًا أو لَمُتُّ فرحًا حين لقِيتُها! ولكن هذا النِّفار الذي صبّرني وسلاني، ولا ألامُ على ذلك؛ إذْ لم تقع ذكرى توجب الوفاء، ولا عهدٌ يقتضي المحافظة، ولا سَلَفَ ذمام، ولا فرط تصادقٌ يلام المرءُ على تضييعه ونسيانه.

عزفتُ عنها الآن فلطالما عزفتْ عني! وتنحَّى بصري عن مشهدها غير آسفٍ؛ فلطالما أشاحت بوجهها عني، وانصرف فؤادي، ولا أنكرُ أن حالها الذي صارت إليه زادني فيها زُهدًا، وطار حبُّها من قلبي وتلاشى كالسراب..

وطفقتُ أرددُ هذا البيت:

كانت جهنم في الحشا من حبَّكم

فلقد أراهـــا نــار إبراهيمَ

لقد خبا حبُّها من فؤادي، وأُبطل سحرُ فتنتها، ورحلَ بقسوته وطغيانه، وتلاشى ثمّ اختفى بعد أن كان يسري في عروقي، ويجري في دمي، ولم يَعدْ لذكرها ذلك التأثيرُ على نبضات قلبي وخفقات جوانحي.

لقد شفيتُ، وتحررتُ، بل لقد انتصر العقلُ على العاطفة، وانطوت صفحة ذلك الحب الضائع. ([18]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-8-

# عودة الروح

كان لرجل أندلسيّ جاريةٌ حسناء يحبُّها حبًّا جمًّا، وتحبُّه كذلك، لكنه اضطُرّ لبيعها؛ لفاقة أصابته، فاشْتراها تاجرٌ طيبُ القلب، وأخذها، وودَّعها صاحبُها الأول، ولم يظنّ أن قلبه سيتعلق بها هذا التعلق، وأنّ نفسه ستتبعها هكذا؛ حتى كادت روحُه تزهق من شدة الوجد والجوى، فأتى إلى الذي ابتاعها منه- وكان أيضًا قد عشق جمالها وشغف بها حبًّا- فطَلَبَ مالكُها الأول منه الرجوع في البيعة، لكنه تأبّى وامتنع، فحكَّمه في ماله أجمع، وفي نفسه، فأبى عليه، فتشفع بأهل البلد، فلم يقبلْ شفاعة أحد منهم، فكاد عقله يذهب، ورأى أنْ يلجأ إلى الملك، فتعرّض له وهو في موكبه بالطريق وصاح بقوة، فسمعه الملك وأمرَ باستدعائه وإدخاله، والملك قاعدٌ في عليّة له مشرفة عالية، فوصل إليه، فلمّا مثُلَ بين يديه أخبره بقصّته واسترحمه وتضرّع إليه، فرقَّ له الملك، فأمر بإحضار الرجل المشتري فحضر، فقال له: هذا رجلٌ غريب، وهو كما تراه، وأنا شفيعه إليك، فأبى، وقال: أنا أشد حبًّا لها منه، وأخشى إن صرفتُها إليه أنْ أستغيث بك غدًا وأنا في أسوأ من حالته، فعرض عليه الملك ومَن حواليه مِن أموالهم، فأبى واعتذر بمحبته لها، فلمّا طال المجلس، ولم يروا منه ألبتة جنوحًا إلى الإسعاف، قال للأندلسي: يا هذا، ليسَ بوسعي أكثرَ مما ترى، وقد جهدتُ لك بأقصى ما يمكنني، لكنّه كما ترى يعتذرُ بأنه فيها أحبُّ منك، وأنّه يخشى على نفسه مثل ما تخشى، فاصبرْ لما قضى الله عليك.

فقال الأندلسي: فما لي بيدِك حيلة. قال له: وهل ها هنا غير الرغبة والبذل ما أستطيع لك أكثر.

فلمّا يئس الأندلسي منها جمعَ يديه ورجليه، وألقى بنفسه من أعلى العلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ، فابتدر الغلمان من أسفل، فقضي أنه لم يتأذّ في ذلك الوقوع كبير أذى، فصُعِدَ به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال: أيها الملك، لا سبيل إلى الحياة بعدها. ثمّ همَّ أن يرمي نفسه ثانية، فمُنِعَ من ذلك.

فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجهُ الحكم في هذه المسألة. ثمّ التفت إلى المشتري فقال: يا هذا، إنّك ذكرتَ أنك أشدُّ عشقًا لها منه، وتخافُ أن تصير في مثل حاله، فقال: نعم يا سيدي، قال: فإن صاحبك هذا أبدى برهانَ محبته وأدلى بحجّة عشقه، وقذف بنفسه يريد الموت؛ لولا أنّ الله- عزّ وجل- وقاه، فقمْ أمامنا وبرهنْ لنا عن حبك، وألقِ بنفسك من أعلى هذه الشُّرفة كما فعل

صاحبك، فإن متَّ فبأجلك، وإن عشتَ كنتَ أولى بالجارية، إذ هي في يدك ويمضي صاحبُك عنك، وإن أبيتَ نزعتُ الجاريةَ منك رغمًا ودفعتها إليه. وقد قيل:

لا يعرف الشوقَ إلّا مَن يكابدُه

ولا الصبابة إلّا مَن يقاسيها

إذ ادّعى المرءُ ما ليس فيه

يكشف الامتحان عما يدعيه

فتمنّع ثمّ قال: أحاول يا سيدي. فلمّا قرب من الباب ونظر إلى أسفل، رجع القهقَرَى، فقال له الملك: هو والله ما قلتُ، لن أتراجع عن حكمي. فهمَّ المشتري ثانيةً، ثمّ نكل وتراجع.

فلمّا لم يُقْدِم، ولم يبرهن، قال له الملك: لا تتلاعب بنا، يا غلمان، خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض. فلمّا رأى العزيمة قال: أيها الملك، قد طابت نفسي بردِّ الجارية. فقال له: جزاك الله خيرًا. فاشتراها منه ودفعها إلى مالكها الأول، وانصرفَا سعيدين([19]).

# -9-

# بحرفٍ واحدٍ يُزِيلُ مُنْكَرًا

حكى الإمامُ الزاهد محمدُ بن علي ابنُ قطرال الأندلسيُّ، قال: كنتُ أسيرُ في سكك المدينةِ المنورة على ساكِنِها الصّلاةُ والسلامُ، أترسَّمُ خطى الحبيب، وأتنسّمُ عبق سيرته العطرة، وأتوسَّم مواقف الصحابة وبطولاتهم وأمجادهم العظام، هنا عاش الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومن هنا مرّ، وهنا كانت السقيفة، سقيفة بني ساعدة التي تمت فيها البيعة لأبي بكر الصديق، وهذا هو السوق الذي خطَّه نبينا، وبينما أنا سابحٌ في تأملاتي إذْ أقبلَ رجلٌ بفحمةٍ في يدِهِ، فكتب على جدارٍ أبيض هُناكَ:

(من كان يعلمُ أن اللهَ خالقُه ... فلا يُحِبَّ أبا بكرٍ ولا عمر)

فعلمتُ أنه رافضيٌّ حاقدٌ، يكره كعادة الرافضة أبا بكر وعمر -رضي الله عنهم-، كراهية لا مسوّغ لها إلّا اتباع الشيطان والتعصُّب الأعمى، والانسياق البغيض إلى أئمة الضلال من الرافضة، الذين يزعمون- كاذبين- محبةَ آل البيت، بينما يبغضون صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، رضي الله عنهم أجمعين.

يزعمون محبة آل البيت لكنهم يفرقون بينهم في المحبة بين إفراط بالغ كمحبتهم للحسين-رضي الله عنه-، أو تفريط شديد كموقفهم من الحسن- رضي الله عنه- حيث لا يكادون يذكرونه بفضل، وكذلك تجاهلهم لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهنّ ركنُ بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل وغضهم من شأنهن، خصوصًا عائشة وأم سلمة وحفصة - صلى الله عليه وسلم-. والله تعالى يقول (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)[الأحزاب: 32 - 34].

أليس هذا دليلًا قطعيًّا على أنّ أمهات المؤمنين أعمدةُ بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد نادى الله عليهن بآل البيت؟ ألم يقلِ الله تعالى في أول السورة الكريمة (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)[الأحزاب: 6].

مِن بعيد، مكثت أراقبُ هذا الرافضي دون أن يشعر بي، ألقى الفحمة بعد أن كتب، ونفض يده، ثمّ مضى فخورًا بما صنع، وانصرفَ راضيًا بما اكتسب، يختالُ مزهوًّا بنفسه التي امتلأت حقدًا لا مبرّرَ له على العمرينِ صاحبي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. غضبتُ لذلك غضبًا شديدًا، وتساءلت في نفسي: كيف يدْعو هذا الرافضيُّ إلى بغض الصاحبين، كأنه يزعم أنّ هذا من لبِّ الإيمان! كيف زيّن له الشيطان أن يدعو لبدعته وضلالته في المدينة المنورة؛ مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام!، لا يزال كلّ شبرٍ فيها يشهدُ لهم بأمجادهم ومآثرهم، وجميل آثارهم، فكمْ بذلوا من تضحياتٍ في سبيل نصرة الدين وحماية بيضتِه، حتى انتشر الإسلام وعمّ الأرجاء بجهادهم وفتوحاتهم.

ألهذا الحدِّ يبغضون صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وينتقصون من قدرهم! بأيِّ منطقٍ يفكرون! وبأيِّ حجةٍ يبررون! يا له من أمر عجيب! ثمّ يسكن عدوُّ الصحابة في مدينتهم! كيف يطيب له مقام في مدينة يُعادِي مَن تحت ثراها! يعادي مَن شيّدها وبناها، يبغضُ من دافع عنها وحماها.

الحمدُ لله أننا في الأندلس لا مكان عندنا لرافضي حاقد!

وكما قيل في فضائل الأندلس «إنّه لم يذكر قط أحدٌ على منابرها من السلف إلّا بخير».

ولكنْ ما لي أقف هكذا مكتوفَ الأيدي أمام هذا العمل المشين في طيبة الطيبة! وهنا.. فكّرتُ ماذا أصنع؟ هل أمحو ما كتبه، أم أطمس عليه، أم أمضي إلى حال سبيلي؟ وكأني لم أرَ شيئًا!

فقد تعلمت أنّ إزالة المنكراتِ وإخماد المبتدعات مسئوليةُ كلّ مسلمٍ، ولكني رأيت الأمر يحتاج لشيء من الحكمةِ والرويّة، وفكرت هنيهةً، فأُلقي عليَّ من الفِطْنَةِ وحُسْنِ البَدِيهَةِ ما لم أعهدْ مثلَه من نفسِي قبلُ، فالتقطتُ الفحمة، وقمتُ إلى الجدار، وجعلتُ مكانَ (يُحِبّ): (يسُبّ)، أبدلت الحاء بالسين:

(من كان يعلمُ أن اللهَ خالقُه ... فلا يُسَبّ أبا بكرٍ ولا عمر)

ورجعتُ إلى مجلسِي منشرحًا مطمئنًّا، فجاء الرافضي فوجدَه كما أصلحتُه، فجعلَ يلتفتُ يمينًا وشِمالًا، والشّرر يتطايرُ من عينيه كأنه يطلُبُ مَنْ صَنَعَ ذلك؛ ليفتك به، لكنه لم يلتفت إليِّ ولم يتَّهِمْنِي، فلمّا أعياهُ الأمرُ انصَرَفَ حائرًا، ومضى حانقًا يكتم غيظه.

بحرفٍ واحدٍ أزلتُ مُنْكَرًا! فالحمدُ لله على هدايته وتوفيقه، ونعوذ بالله من الهوى والضلالة([20]).

## -10-

# جزاءُ المبتدِع

في ليلةٍ من ليالي بغداد، كانت تلك المناظرة الفريدة، التي حكاها الفقيهُ أبو مالك بنُ مروان بنُ مالك القرطبي، عن شيخه أبي بكر الأبْهَريِّ المالكي شيخ الْفُقَهَاء بِبَغْدَاد في العقد الثاني من مطلع القرن الرابع الهجري تقريبًا، قال: اجتمعنا مع جماعةٍ من أهلِ العلمِ والصلاح، وقد تَنَاظَرَ رجلٌ من أهلِ السُّنَّةِ مع رجلٍ ينتحل مذهبَ المعتزِلة، وكان هذا المذهب في ذروة انتشاره، وقد انطلَى ببريقه الخادع على بعض المنتسبين للعلم والأدب، سيّما وهو يرفع شعار العقل، ويعلي من شأنه، فَكانت تلك المناظرة، وطَالَ بينهما الكلامُ، حتى أقبل المساءُ، دون أن يظهر أحدُهما على صاحبه.

المعتزلي يؤوِّل النصوص ويحمِّلها ما لا تحتمل، متكلِّفًا في فهمها، وإن سمع حديثًا يخالف مذهبه أنكره، ولم يسلّم به، ويردُّ كلّ ما يراه مخالفًا للعقل!

حتى طال الجدالُ بدون طائلٍ، فقال السُّنِّيُّ: هذا مجلسٌ انقضَى على غيرِ فُلْحٍ، وأفضى إلى غير نتيجة، وقد حَضَرَنَا قومٌ صالحون، فلْنُخْلِصِ الدعاءَ للمُحِقِّ منا، بأنْ يثبِّتَ اللهُ تعالى القرآنَ في صدرِهِ، ويُنْسِيَهُ المُبْطِلَ، فَدَعَونَا جميعًا.

وانصرفنا، فلقيني المعتزِليُّ بعد ذلك بمدةٍ يسيرة حزينًا كاسفَ البال، وأقرَّ لي أسِفًا أنه نسِيَ القرآنَ، حتى كأنَّه لم يحفظه قط ([21]).

فأدركتُ أنّ الجزاء من جنسِ العملِ، فهذا الذي أعرضَ عن ذكرِ اللهِ، وقدَّم الهَوَى على الحقِّ، ليس أهلًا لحمل كتابِ الله تعالى، بعد أن ترك الاحتكامَ إليهِ، والتمسكَ به، إلى التشبُّث بحبال مذهبٍ ضالٍّ، والتعصُّب لقومٍ زاغوا عن الحق، ونكبوا عن سواء الصراط، وانتصروا للعقل فقدّموه على الكتاب والسنة، وابتدعوا منهجًا يخالف ما كان عليه سلفُ الأمة.

نسيَ القرآن مَن يحمل الآيات ما لا تحتمل فيصرفها عن ظاهرها المراد إلى تأويلات لا مسوّغ لها، ولا مبرّر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -11-

# العشقُ الممنوع
# سوءُ الخاتمة

كنت أختلفُ في النحوِ إلى أبي عبد الله محمد بن خطاب النحويِّ في جماعةٍ، وكان معنا فتى وسيم يُدعى أسلمَ بنَ سعيدٍ، وكان من أجملِ مَن رأته العيون حُسنًا وتألُّقًا، وتجمُّلًا وتأنُّقًا.

وكان ممن يحضرُ معنا الدرسَ الأديب البارع أحمدُ بنُ كليبٍ، رأى أسلم ذات مرةٍ فأُولِع بجماله، وتمادى في النظر له حتى أدمنَ النظر، وهام بحُسنه، واشتدَّ كَلَفُهُ، وفَارَقَ صَبْرَهُ، وهتك سترَه، وفضح سرّه، وأمسى وأصبح يتغزَّلُ في محاسنه، وهو أديبٌ متفنِّن، وشاعر مُفلِق، يُصَرِّفُ فيهِ القولَ مُتَسَتِّرًا بذلك بالتلميح والكناية، مع ظُرفٍ ودُعابة.

ذاتَ مرّة كتب ابن كليب إلى أستاذه محمد بن خطاب شعرًا يتغزّل فيه بأسلم، بحجة أن يراجعه الأستاذ من ناحية اللغة، فعرضه ابنُ خطّاب على أسلم، فقال: هذا ملحون. وكان ابن كليب قد أسقط التنوين من لفظة في بيت من الشعر.

قال: فكتب ابنُ خطاب بذلك إلى ابن كليب، فكتب ابن كليب مسرعًا:

ألحِقْ لي التنوينَ في مطمعٍ

فإنني أُنسيتُ إلحاقَهُ

لا سيَّما إذ كان في وصلِ من

كدَّر لي في الحبِّ أخلاقَه

وأهداهُ مرّةً نسخةً أنيقةً من كتاب «الفصيح» لثعلب، بتجليدٍ فاخر، وخطٍّ مليحٍ، وكتب له عليه:

هذا كتاب الفصيحِ بكل لفظ مليحِ

وهبتُه لك طوعًا كما وهبتك روحي

ثمّ تمادى ابن كليب في ذلك، إلى أن فَشَتْ أشعارُه الصريحةُ فيه، وجرتْ على الألسنةِ وافتضح أمرُه، وتُنُوشِدَتْ تلك الأشعار في المحافِل؛ فهذا أحد الأعراس المقامة في بعضِ الشوارعِ بقرطبة، والزامرُ قاعدٌ في وسطِ الحفلِ، معتمرًا قُلُنسُوَةً موشّاة بخيوط الحرير، وعليه ثوبُ خَزٍّ، وفَرَسُهُ

المطهّمةُ تتبخترُ بالحِليةِ المُحَلّاة يمسكُهُا غلامُه، وهو يُزَمِّرُ في البوقِ، بقولِ أحمدِ بنِ كُلَيبِ فِي أسلم:

أَسْـــلَمَـــنِي في هـــــوا

هُ أسلـــمُ هـــــذا الرَّشَا

غــــزالٌ لـــــهُ مقلــــةٌ

يصيبُ بِهَـــــا مَـــن يَشَا

وشَــــى بينَنَا حاســـــدٌ

سيُسْـــأَلُ عمَّـــــا وشى

ولـــــو شـــــاء أن يرتشي

على الوصل روحي ارتشى

كان هذا الزامر لمهارته وحذقِه يُزَمِّرُ في قصور الملك، فكان ببراعته الفائقة ينشد بمزماره الأبيات، يستنطقه بها، حتى يفهمَ الحضور وهم أهل أدبٍ وذوقٍ، وخلفه مُغَنٍّ حسنُ الصوتِ يسايرُه فيها، بأروع ما يكون من الترديد؛ فانبهر الناس وطربوا، وذاع أمرُ الأبيات وشاع، وبلغ السهول والبقاع، وأصبح غرامُ ابن كليب بالفتى أسلم حديث أهل الهوى، حتى ضاق الأمر بالفتى، فانقطع عن جميع مجالس الطلب، ولزم بيته، واكتفى بالجلوس على بابه آخر النهار وقت الأصيل خجلًا، فكان الشاعر المتيّم أحمد بن كليب لا شغلَ له إلّا المرور على باب دار أسلم سائرًا، ومقبلًا نهاره كلّه ليحظى بنظرةٍ إلى ذلك الوجهِ الصبيح، حتى ضجرَ أسلم وتبرّم، فانقطع عن الجلوس على بابه نهارًا، لكن إذا صلى المغربَ وأقبل الغسق، واختلط الظلام؛ خرج من بيته مستروِحًا، وجلس هنيهةً على باب داره، كمن يخرج من زنزانةٍ إلى فناء السجن، مع رحابة بيته، لكنه حرم من مخالطة الناس، والأنس بحديثهم. فعيل صبرُ أحمد بن كليب، حتى تحيَّل في بعض الليالي ولَبس جبةً من جِباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وبالأخرى سلةً فيها بيض، وتحيَّن جلوسَ أسلم عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدَّم إليه وسلم عليه بلهجة البدويِّ، وقبَّل يديه، وقال يأمرُ مولاي بأخذ هذا، فقال له أسلم: ومن أنت؟ فقال: صاحبُك في الضيعة الفلانية، وقد كانت أسماء ضياعه معروفة، وأصحابه فيها معلومين، فأمر أسلم بأخذ ذلك منه، ثمّ جعل أسلم يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام وتأمَّله فعرفه، فاستشاط غضبًا، وأُسْقِطَ في يدِ أحمد بن كليب، وتلعثم لسانُه ووقف حائرًا، فقال له الفتى زاجرًا ومعاتبًا: يا أخي! وهنا بلغتَ بنفسك.. آه.. أ..، وإلى ها هنا تبعتني، مُحتالًا بهذا الزيّ! أمَا كفاك انقطاعي عن مجالس طلب العلم والأدب، وامتناعي عن الخروج جملة، وِعن

القعود على بابي نهارًا بسببك؟ حتى قطعت عليّ جميع ما لي فيه أنسٌ وراحة، فقد صرتُ من مطاردتِكَ لي وملاحقتك في سجنٍ! خذ حاجتك وانصرف.

فلم يَحِر العاشقُ المتبولُ جوابًا، بل نكّس رأسه في الأرض!

وأقسمَ أسلم: والله لا فارقتُ بعدَ هذه الليلة قعرَ منزلي، ولا قعدتُ ليلًا ولا نهارًا على عتبةِ بابي. ثمّ نهض مغضبًا، ودخل باب داره، وأوصده بشدة.

وانصرف أحمدُ بن كليب خائبًا حزينًا، تاركًا وراءه قلبه وعقله، وقفص دجاجاته وسلة بيضه، وراح يجرّ ثوبه البدوي المستعار، كئيبًا حزينًا كاسف البال.

قال محمد بن الحسن: وعلمنا بتلك القصة، فضحكنا كثيرًا، وقلنا للعاشق الولهان مازحين متندِّرين: يا ابن كليب، خسرت دجاجاتك وبيضك! فقال مبتذلًا: هات كلّ ليلة قبلة يده، وأخسر أضعاف ذلك. فضحكنا وضحك، وعجبنا من حاله، كيف سقط في تلك الفتنة؟ ورضي بتلك المهانة؟ واستسلم لذلك الهوى؟

فلمّا طال غيابُ أسلم ملازمًا قعر بيته، ويئس ابنُ كليب من رؤيته ألبتة؛ برّح به الوجدُ، وأضناه السُّهد، وأنهكته العلة، وأقعده المرض، وجفاه المرقد.

فعادَه أصحابه، وترحّموا لحاله، وذهب لعيادته شيخه أبو عبد الله محمد بن خطاب، قال: دخلتُ عليه فوجدتُه بأسوأ حال، فقلت له: ولم لا تتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأمّا الأطباء فلا حيلة لهم فيّ ألبتة، فقلت له: وما دواؤك؟ فقال: نظرةٌ من أسلم، فلو سعيتَ في أن يزورني لأعظم اللهُ أجرك بذلك، وكان هو والله أيضًا يؤجر.

قال: فرحمتُه وتقطّعت نفسي له، ونهضت إلى أسلم، فاستأذنت عليه، فأذن لي وتلقاني بترحابٍ، فقلت له: لي حاجة، قال: وما هي؟ قلت: قد علمتُ ما جمعك مع أحمد بن كليب من طلب العلم عندي!

فقاطع شيخه وقال بحنقٍ: تعلمُ يا أستاذ أنّه برّح بي، وشهّر باسمي، وأخجلني وآذاني، حتى حُبستُ في بيتي! وأصبح اسمي تلوكه ألسنة الغوغاء والدهماء ويتغنى به أهل الزمر والغناء!

فقلت له: كلّ ذلك يُغتفرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرجلُ يموتُ، فتفضَّل عليه بعيادتِه.

فقال: واللهِ ما أقدر على ذلك، فلا تكلِّفني هذا فإني لا أحتمله.

فقلت له: لا بدّ، فليس عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادة مريض!

قال: ولم أزلْ به حتى أجاب. فقلت: فقم الآن. فقال لي: لستُ واللهِ أفعل، ولكن غدًا. فقلت له: ولا خلْف؟ قال: نعم.

فانصرفتُ إلى أحمد بن كليب، وأخبرته بموعده بعد تأبِّيه، فَسُرَّ بذلك، وارتاحتْ نفسُه، قال: فلما كان الغدُ بكَّرتُ إلى أسلم وقلت له: الوعد؟: فتضرَّج وجهه خجلًا، وسكت، فأعدتُ عليه الطلب، فَوَجِمَ، وقال: والله يا شيخي أنت تحملني على أمرٍ صعبٍ حرِج، وما أدرى كيف أطيق ذلك؟

قال: فقلتُ له: لا بدّ من أن تفي بوعدك لي. قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجلًا، قال: فلما أتينا حيَّ أحمد بن كليب، وكان يسكنُ في آخر دربٍ طويل، وتوسّطنا الدرب، وقف واحمرَّ وخَجِلَ، وقال لي: الساعة واللهِ أموتُ، وما أستطيع أن أنقلَ قدمي، ولا أن أعرض هذا على نفسي، أنت يا شيخي تحملني على أمرٍ كريه! سأرجع إلى بيتي.

فقلت: لا تفعل، أبعدَ أن بلغت المنزل تنصرف! قال: لا سبيل والله إلى ذلك ألبتة. ورجع مسرعًا فأتبعته، وأخذت بردائه، فتمادى وتمزّق الرداء، وبقيت قطعة منه في يدي لسرعته وإمساكي له، ومضى ولم أدركه، ولاذَ بالفرار من هذا الموقف المخجل.

فرجعتُ ودخلت إلى أحمد بن كليب، وقد كان غلامه دخل عليه إذ رآنا من أولِ الدرب مبشِّرًا، فلمّا رآني تغيَّر وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة، فغاب عن وعيه واختلط، وجعل يتكلم بكلام لا يعقلُ منه أكثر من الترجُّع، فاستشنعت الحال، وجعلت أترجّع وقمتُ، فثاب إليه ذهنُه، وقال لي: أبا عبد الله! قلت: نعم. قال: اسمع مني واحفظ عني، ثمّ أنشأ يقول:

أسلَمَ يا راحـــــةَ العليل

رِفقًا عـلى الهائــمِ النحيلِ

وصلُك أشهى إلى فؤادي

من رحمة الخالق الجليل

قال: فقلت له: اتقّ الله يا أحمد! ما هذه العظيمة!؟

فقال لي: قد كان. فخرجتُ عنه غاضبًا منزعجًا، فو الله ما توسّطتُ الدرب حتى سمعت الصراخ عليه، وقد مات، ويا أسفي! فارق الدنيا على أسوأ خاتمة، وأخبث حال.

وكانت هذه الكلمات آخرَ أنفاسه.

فلبئس ما قدّمت له نفسه، بإدامته للنظر، نظر المتيم، إلى ذلك المحرم، وتماديه في المحذور، وميله لعشق محظور، واستعذابه المهانة. هذا قتيل الحبِّ، لا دية ولا قود.

لم تنتهِ تلك المأساة بعد، فهذا مشهدٌ عجيب وفصل جديد من فصوله، هذا قبرُ ابن كليبٍ يجلسُ الفتى أسلم، والشمسُ تؤذن بالغروب، بينما السماء تنهمرُ، والماءُ يجري في السكك الخالية، ويسقي هذه المقبرة الموحشة، والفتى قائمٌ على قبر قتيل عشقِه، وضحية غرامه، يذرف الدمع، ويدعو بالمغفرة.

يمرُّ الراوي على هذا المشهد العجيب، فيقف متسائلًا: أتراه وفي هذا الوقتُ يزورُه بعد مماته؟ كيف وقد أحجم عن زيارته في حياته؟ ([22]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -12-

# أغربُ الأماني

رحل الفتى الألمعيُّ من مدينة طُرُّش بالجزيرة الخضراء إلى قرطبة، رحل فقيرًا من المال، عاطلًا من الجاه، لكنْ بين جنبيه نفسٌ وثَّابةٌ للمعالي توَّاقةٌ للمجد، طامحةٌ إلى الرئاسة، وقد ظهرت علامات النّجابة عليه منذ صغره، فطلب العلم والأدب، وسمع الحديث وتميّز في ذلك، وكانت له همَّة يحدِّث بها نفسه ويمنِّيها بإدراك معالي الأمور ويُفرطُ في ذلك حتى كان يحدِّث من يثقُ به بما يقع له من ذلك، ففي ليلة من الليالي الأندلسية، وقد نزل ضيفًا على صديقٍ له، يحكي المضيفُ فيقول: كان محمد بن أبي عامر نازلًا عندي في حجرةٍ فوق بيتي فدخلتُ عليه في بعض الليالي في آخر الليل فوجدتُه قاعدًا على الحال التي تركته عليها أولَ الليل، فقلت: له ما أراك نمت الليلة؟!

قال: لا.

قلت: فما أسهرك؟

قال: فكرة عجيبة!

قلت: في ماذا كنت تفكر؟

قال: فكرت إذا أفضى إليّ الأمر، ومات محمد بن بشير القاضي؛ بمن أستبدله؟

- ومَن الذي يقوم مقامه، وهو فريد زمانه، لقد رأيتُه وهو متصدر مجلس القضاء، في رداء معصفر، وشعره طويلٌ مفرق؛ لكنه حين يتكلم تكسوه مهابةٌ، ولا ينطق إلّا بالعدل.

- أتذكر قصة تولِّيه القضاء؟

- كيف تمّ له ذلك؟

- بعد وفاة القاضي المصعب بن عمران، استشار الأمير الحكم من يثق بهم فيمن يتولى القضاء، فأجمعوا على اختيارِ محمد بن بشير كاتب القاضي، وكان معروفًا بالتعفف والورع، فضلًا عن علمه ودرايته، «يقول الفقيه ابن عتاب: كنّا نجتمع مع شيوخ الإفتاء عند قاضي الجماعة ابن بشر، فتُطْرَحُ مسألةٌ يختلف فيها القاضي مع الشيوخ، فيناظرهم ويستظهر عليهم بالروايات والكتب حتى ينصرفوا وهو يقولون بقوله» ([23]).

وجّه الأمير الحكم إليه من يستدعيه للقصر، فخرج من بيته حائرًا خائفًا أن يكون الأمير قد اختاره للقضاء، وعدل في بعض طريقه إلى صديقٍ له عابد، فنزل عليه، وتحدث معه في هذا الشأن، فقال له صديقه: ما أرى بعث إليك إلّا للقضاء. فقد مات قاضي قرطبة. فقال له ابن بشير: فإذا قبلتُها فما ترى، فانصح لي وأشرْ علي. قال له العابد: أسألك عن ثلاثة أشياء فاصدقني فيها. كيف حبُّك لأكل الطيب، ولباس اللين، وركوب الفاره؟ فقال ابن بشير: والله ما أبالي ما رددتُ به جوعي، وسترتُ به عورتي، وحملتُ به رجلي، فقال هذه واحدة. فكيف حبُّك للوجوه الحسان وشبهِ هذا من الشهوات. فقال ابن بشير: هذه حالة والله ما استشرفت نفسي إليها قط، ولا خطرت ببالي. قال: هذه ثانية. كيف حبك للمدح والثناء وكراهتك للعزل، وحبّ الولاية؟ قال: والله ما أبالي في الحق مَن مدحني أو ذمني، وما أُسَرُّ بالولاية ولا أستوحشُ للعزل. فقال له: اقبلِ القضاء، ولا بأس عليك.

- لكنه سرعان ما عُزل من القضاء؟

نعم، ما لبث إلّا يسيرًا حتى حدثت حادثة أظهر ابن بشير صلابته في الحقِّ، فكانت سببًا لعزله. فانصرف لبلده مرتاح البال، كما تمنى. فما لبث إلّا يسيرًا حتى أتى له رسولٌ من قبل الأمير، فتوجّه إلى قرطبة، وعدل في بعض الطريق إلى صديقه الزاهد، فاجتمع معه، وقال له: قد أرسل لي الأمير، وما أظنّه إلّا سيردّني إلى القضاء ثانية، فما ترى؟ فقال له صديقه: إن كنت تعلم أنك تنفّذ الحق على القريب والبعيد، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فلست أرى لك أن تحرم الناس خيرك، وإن كنت تخاف أن لا تعدل فتركُ الولاية أفضل لك. قال ابن بشير: أما الحقّ فلست أبالي على ما أمررته، إذا ظهرَ لي. فقال له: لست أرى أن تمنع الناس خيرك. فوردَ إلى قرطبة وولي القضاء ثانية.

قال ابن أبي عامر: فجُلْتُ الأندلس كلَّها بخاطري فلم أجد إلّا رجلًا واحدًا.

قلت: لعلّه محمد بن السليم؟

قال (مبتسمًا): هو والله، هو، لشدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك!

نعم، إنّه جديرٌ بذلك، لقد عرفته ورعًا أبيًّا، لا يخشى في الحق لومة لائم.

ولّاه الحكم المستنصر بالله القضاء بعد وفاة الفقيه منذر بن سعيد، وعهد له بوصية، يحثُّه فيها على تحري الحق والعدل.

وذاتَ ليلة مقمرة، جلس ابن أبي عامر يومًا مع ثلاثةٍ من أصحابه من طلبة العلم، ودار بينهم هذا الحديث:

قال محمد بن أبي عامر لأصحابه: ليخترْ كلّ واحد منكم خطةً أولَيه إياها إذا أُفِضي إلي الأمر، وصارت كلمة الأندلس لي.

فمنهم مَن جاراه، ومنهم مَن سخِر به وتهكَّم عليه؛ إذ كيف يتحقق له ذلك والحكمُ في أيدي الأمويين من أحفاد عبد الرحمن الناصر، صقر قريش، تتوارثه ذريته، منذ أن دخل بلاد الأندلس وتقلّد ملكَها.

قال أحدهم متمنيًا: توليني قضاء مالقة وما يتبعها، فإنه يعجبني هذا التين اللذيذ الذي يجيء منها! فإنه حُلوٌ شهيٌّ، أحلى من الشهد.

وقال الآخر طامحًا أو مازحًا: توليني حسبة السوق فإني أحبّ الأسواق والبضائع.

أمّا الثالث، فلم يتمالك نفسه من الضحك، وقال ساخرًا ومتهكِّمًا: إذا أفضي إليك الأمر فأمُر يا مولاي أن يطاف بي شوارع قرطبة كلّها على حمار ووجهي إلى الذيل، وأنا مطليّ بالعسل ليجتمع عليَّ الذباب والنحل!

فضحك الجميعُ، وافترقوا على هذا. ومرّت الأيام، وتحققت أمنيته، حين استأثر بالرياسة وانفرد بالكلمة، ودانت له الأندلس، وتمّ له ذلك حيث قدم إلى قرطبة شابًّا، وأتمّ دراسته في جامع قرطبة ودرس الأدب، وقرأ الحديث والفقه، وفتح دكانًا عند باب قصر الخليفة ليكتب للناس الطلبات والشّكاوى، وسرعان ما استهوى الناس بذكائه ومهارته ولباقته، وبلغ خبره الأميرة (صبح) زوجة الحكم المستنصر، وأمّ ابنه (هشام)، وأحبُّ نسائه إليه، فأعجبت به، وتمكن من الوصول إلى جنابها، فعهدتْ إليه بالنظر في أمورها، ووكلته بإدارة ضياعها الخاصّة، فأظهر كفاءة أعجبتْ بها، وتوسطت عندَ زوجها الخليفة فولّاه أمانة دار السكة (ضرب النقد)، وبعد ذلك ولّاه القضاء على إحدى المدن الأندلسية، ثمّ رقّاه وولّاه الشرطة والإشراف على أموال الزكاة والمواريث، ثمّ جعله وكيلًا لولده هشام ولي عهده، وكلّما تولى أمرًا زاد نفوذُه وتمكُّنه، ونجح في استغلال كلّ منصبٍ لصالحه، باستمالة القلوب إليه، أو الكيد لمناوئيه.

واحتالَ للأميرة صبح، وتصنّع حتى دخل قلبها، بالتّحف والطُّرف، فالذهب والفضة بين يديه، حيث كان مسئولًا عن صك الدنانير والدراهم الأندلسية. صنع لها ذاتَ مرة قصرًا من فضة، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حبّها بذلك، وقامت بأمره عندَ سيدها الحكم، وحدّث الحكم خواصّه بذلك، وقال: إنّ هذا الفتى قد خلب عقول حُرمِنا بما يتحفهن به.

ومن أخبار تصنّعه وتزلّفه ما حكاه محمد بن أفلح؛ غلام الحكم، وخادمه المخلص، قال: دُفعتُ إلى ما لا أطيقه مِن نفقة في عرس ابنة لي، ولم يبقَ

معي سوى لجام محلّى([24])، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته بدارِ الضرب حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له، فابتهج بما سمعه مني، وأعطاني من تلك الدراهم وزنَ الجام بحديده وسيوره، فملأ حجري، وكنت غير مصدّق بما جرى لعظمه، وعملت العرس، وفضلت لي فضلة كثيرة، وأحبه قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبي عامر الذروة.

وهكذا كان محمد بن أبي عامر، يستعبد قلوب الناس بالجود بما لا يملك على مَن لا يستحق.

ولما ماتَ الحكم المستنصر كان ابنُه هشام صغيرًا، وخيف الاضطراب، فضمن ابن أبي عامر لأم هشام سكونَ البلاد واستقرارَ الملك لابنها.. وأخذ يصانع هذا، ويتودّد إلى ذاك، ويكيد لغيره ممن كان لهم بأسٌ ونفوذٌ حتى استفحل أمره، وقلّم مخالب خصومه، وأضعف منافسيه، ليصل في النهاية إلى تحقيق طموحه في الاستيلاء على الحكم، بذكائه ودهائه، وتفنّنه في التخلص من منافسيه وخصومه، بِحِيَلٍ شتَّى، تنمُّ عن مكرٍ ودهاء، وقسوةٍ وغدرٍ، حتى آل الأمرُ إليه، واستبدّ به أيّما استبداد.

هنالك! تذكر المنصور ذلك اليوم الذي اجتمع فيه مع أصحابه الثلاث، واستدعاهم، لما أفضى الأمر إليه كما تمنى عازمًا أن يبلغ كلّ واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب! ذكَّرهم بتلك الليلة التي سهروا فيها، وكانوا بين هازئ وهازل وآمل، فقد حان الوقت لتحقيق أمانيهم.

أمّا الأول: فكان أسعدهم حظًّا حيث ولّاه القضاء على مالقة وما حولها، حيث تينها الحُلو اللذيذ.

وأمّا الثاني: فقد ولّاه الحسبة على الأسواق كما تمنى.

وأمّا أشقاهم: فقد حقّق له أمنيته، فجاء به وجرّده من ثيابه إلّا ما يستر عورته، ثمّ أمر بحمله على حمار، يُطاف به في الأسواق، ويُدهَن بالعسل ويلسعه النحل، وهو يبكي ويصرخ ويعضُّ أصابع النّدم على ما أصابه من هوانٍ وحرمان([25]).

ودانتْ للمنصور أقطارُ الأندلس كلها، وتحقّق الأمن والاستقرار في ربوعها، لعظم هيبته وشدة حزمه، ويقظته، وقسوته على من يناوئه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# -13-
# عاقبة الظُّلم
# بعدَ أربعين سنة..

لما تمكَّن المنصورُ بنُ أبي عامر من حكمِ بلاد الأندلس؛ أمر بسَجْنِ الوزير جعفر المُصحَفِيِّ([26])في سِجن المُطْبَق بمدينة الزهراء نكايةً به، فقد كان غريمًا له، منافسًا، وكم دارت بينهما من مكائد ودسائس، منذ بزغ نجمُ ابن أبي عامر وقويت شوكته، وتمكّن، بينما أفل نجم المصحفي، وتلاشت قوته، فكلاهما كان طامحًا للسلطان توّاقًا للرئاسة منذ أيام الحَكَم، وقد احتدم التنافس بعد وفاته.

وكان جعفر وزيرًا للمستنصر، ثمّ للحَكم، فنالَ ما نال من الدنيا والجاه العريض، والنفوذ الواسع، فبلغ به الغرور والعُجب أنْ أزرى بغيرِه، وسخر ممن دونه، ولم يكن لابن أبي عامرٍ حظٌّ من دنيا جعفرٍ، ومن ثمّ لم يحمل له في قلبه ودًّا، بل نافسه على الجاه والرياسة، وإن تملَّقه وتزلّف له بادئ أمره، حتى كانت الدولةُ له.

وعندما استقرّت الأمور للمنصور سوَّلت له نفسُه أن يتخلّص من غريمه، ويزيحه عن طريقه الذي رسمه لنفسه الطامحة للملك، وأصدرَ الحكم بسجن الوزير المصحفي، ووصله الأمرُ، فاستسلم له وودَّع أهلَه وودَّعُوه بالبكاء والنحيبِ، وداعَ الفُرْقَةِ والمغيب، على أمل اللقاء، فقال لهم آسفًا بصوت متهدّج والدّموع تشرق في عينيه: لستُم ترونَنِي بعدها حيًّا؛ فقد أتى وقتُ إجابةِ الدعوةِ، وما كنت أرتقبُه منذ أربعين سنة!

قالوا: وأيُّ دعوةٍ أجيبت، وحلَّ وقتُها؟

قال: ذاك أني أشْرِكْتُ في سَجْنِ رجلٍ مظلومٍ في عهد الملك الناصر، ولم أسمع لشفاعة أحدٍ فيه، كنتُ أعلَمُ أنه بريء، ولكني كنت ممالئًا للسلطان، موافقًا له، أجاريه في كلّ الأحوال، ولا أبالي بما شاركتُه من ظلمٍ، وكيف أجرؤ على مخالفتِهِ! حتى طال سجنُه ونسيتُ أمرَه، وما أطلقتُه إلّا برؤيَا مفزعةٍ رأيتُها ذات ليلة؛ بأنْ قيل لي فيها أطلقْ فلانًا؛ فقد أجيبتْ فيك دعوتُه.

فقمتُ من نومي فزِعًا، وأطلقتُه، وأحضرتُه، وسألتُه عن دعوتِه عليَّ؟

فقال: دعوتُ على كلّ مَن شاركَ في أمرِي أن يُمِيتَه اللهُ في أضيقِ السجون. فقلتُ: إنها قد أجيبت؛ فإني كنتُ ممن شارك في أمرِه، وندمتُ ولكنْ حين لا ينفعُ الندم.

وصدق مَن قال:

أَتَهْزَأُ بِالدُّعَـــاءِ وَتَزْدَرِيــهِ

وَمَا تَدْرِي بِما صَنَعَ الدُّعَاءُ

سِهَامُ اللَّيلِ لا تُخْطِئ وَلَكِنْ

لها أمـــــدٌ وللأمدِ انقضاءُ

دُعا المظلوم ليــس له مردٌّ

ولا حُجُبٌ تقيــه ولا سماءُ

وانتقل الوزير أبو جعفر من نور القصور وأبهائها إلى ظلمة السجون وأقبيتِها، صار سجينًا مُكبَّلًا، بعد أن كان حُرًّا طليقًا، يتقلب في الوزارات، حتى صعد نجمُه فتولى حكم جزيرة ميورقة في عهد الناصر.

حاول المسكينُ استجداء المنصور بن أبي عامرٍ واستعطافه، فكَتَبَ له متوسّلًا ومعتذرًا بهذه الأبيات: هبنِي أسأتُ فأين العفوُ والكرمُ ؟

إذ قادنِي نحوَك الإذعانُ والنّدمُ

يا خيـــرَ من مُدَّت الأيـدِي إليه

أما ترثَى لشيخٍ نعاهُ عندَك القلمُ

بالغتَ في السُّخْطِ فاصفحْ صفحَ مقتدرٍ

إن الملوكَ إذا مــــا اسْتُرحمُوا رحموا

فأجابه المنصورُ بما يقطع أمله:

يا جاهلًا بعدما زلَّت بك القدمُ

تبغي التكـرُّمَ لمَّا فاتك الكرمُ

ندمتَ إذ لم تعُد مني بطائلةٍ

وقلَّما ينفعُ الإذعــانُ والندمُ

نفسي إذا غضبت ليستْ براجعةٍ

ولو تشفَّع فيك العُربُ والعجمُ

هنا، أدرك أنه لن يخرج من محنته، وبقي آيسًا في سجن المُطبَق، يُعاني الحبس والوحدة، ويكابد الهمّ والوحشة، ويقاسي البرودة والرطوبة، ويعاشر

السفلة والمجرمين، حتى مات كمدًا، نعوذُ بالله تعالى من دعوة المظلوم.

و«كان جعفر بن عثمان في محنته أخور الناس، أخنعهم للذل، وأحرصهم على حياة؛ انتهى به الاستجداء لمحمد بن أبي عامر، والطمع في الحياة؛ أنْ كتب إليه يعرض نفسه عليه ليستعمله في تأديب ابنيه عبد الله وعبد الملك؛ فلقد كان معلمًا مؤدبًا، قبل أن يصبح كاتبًا فوزيرًا، فقال ابن أبي عامر: أرادَ أن يستجهلني ويسقطني عند الناس، وقد عهدوا مني وقوفي بالأمس ببابه مؤمّلًا؛ ثمّ يرونه اليوم بدهليزي معلمًا».

وصدق مَن قال:

رُبَّ قومٍ قد غدَوا في نعمة

زمنًا والدهر ريَّانٌ غدِق

سَكَتَ الدَّهرُ زمانًا عنهُمُ

ثمّ أبكاهُمْ دَمًا حينَ نَطَق

«وقد أودعه المنصور سجنَ المطبق، والشجون تسرع إليه وتسبق، معزيًا لنفسه، ومجتزيًا في يومه بإسعاد أمسه؛ فقال: أجَارِي الزمـــانَ على حالِهِ

مُجَــــاراةَ نَفسِـي لأنفْاسِهَا

إذَا نفَسٌ صـاعِـــدٌ شَفَّهَا

توَارَتْ بـــــه بَينَ حُرَّاسِها

وإنْ عَكَفَــتْ نَكْبَةٌ لِلزَّمانِ

عَكَفتُ بِصَدرِي على رَأسِهَا

ويئس السجين من عفو المنصور، فاستسلم لقضاء الله فيه.

ومن بديع ما حفظ له في نكبته، قوله- رحمه الله- يستريح من كربته: صَبَرْتُ عَلَى الأيَّـــامِ لَمّا تَوَلتِ

وألزَمتُ نَفْسِي صَبرَهَا فَاستَمَرَّتِ

فَيَا عَجَبًا للقَلبِ كيفَ اصطِبَارُهُ

وللنفِسِ بَعدَ العِزِّ كيفَ استَذَلَّتِ

وما النَّفسُ إلّا حَيثُ يَجعَلُها الفَتَى

فَإن طَمِعَت تَاقَت وإلّا تَسَلَّتِ

وَكَانَت عَلَى الأيَّامِ نَفسِي عَزيزَةً

فَلمَّا رَأتْ صَبرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ

وَقُلتُ لَهَا يا نَفسُ مُوتي كَرِيمةً

فَقدْ كَانَتِ الدُّنيَا لَنَا ثمّ وَلتِ ([27]) ويموت السجين فيكون موته عبرة كما كانت حياته، قال محمد بن إسماعيل، كاتب المنصور: سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، وحضور جنازته وإنزاله في لحده؛ فنظرت إليه ولا أثر للنعمة والرواء فيه، وليس عليه شيء يواريه غير كساء رثٍّ لبعض البوابين، ستره به. فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل؛ فغسّله- والله- على لوح باب اقتلع من ناحية دار مهجورة، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار؛ وخرجنا بنعشه إلى قبره، وما معنا إلّا إمام المسجد المستدعى للصلاة، وما تجاسر أحد على النظر إليه. ثمّ قال: وإن لي في شأنه لخبرًا ما سمع بمثله طالب وعظ، ولا وقع في مسمع، ولا تصور لِلَحْظ؛ وقفت له في طريقه، وكان أيام نهيه وأمره لا يخرج إلّا في موكب عظيم، حاولت جاهدًا أن أناوله شكوى، فوالله ما تمكنتُ من الدنو منه بحيلة؛ لتقاطر موكبه، وكثرة من حفَّ به.. وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق، ينظرون إليه ويسلّمون عليه، فتزاحموا لبَدًا، وسدّوا كلّ منفذ إليه، حتى ناولتُ مظلمتي بعض كتَّابه الذين نصبهم على جناحَي موكبِه لأخذ الشكاوى؛ فانصرفتُ، وفي نفسي غُصَّةٌ وألمٌ من ضعفي وهواني، معَ ما شاهدته من مخايل العظمة ومواكب الأبهة، فلم تطلِ المدة حتى غضب عليه المنصور، واعتقله، وأذاقه الهوان، حتى أنه كان ينقله معه في الغزوات ذليلًا مُنهَكًا، واتفق أن نزلنا بجليقية أقصى شمال الأندلس في إحدى الغزوات، وكانت خيمتي إلى جانب خبائه في ليلةٍ باردة نهى فيها المنصور عن إشعال النيران ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف له خبره؛ فرأيت- والله- ابنه عثمان يسفُّ دقيقًا قد خلطه بماء يقيم به أوده، ويمسك به رمقه، وسمعته يقول: تأمْلتُ صَرْفَ الحادِثاتِ فلَم أزَلْ

أراها تُوافي عِندَ مَقدمِها الحُرَّا

فلله أيَّـــامٌ مَضَتْ لسبيلها

فإنِّيَ لا أنسَى لها أبدًا ذِكرَا

تجَافَت بها عَنَّا الحوادِثُ بُرهَةً

وأبدَتْ لنا منها الطلاقةَ والبشْرَا

ليَالِيَ لَم يَدرِ الزَّمانُ مَكانَنَا

وَلا نَظَرتْ منَّا حَوَادِثُهُ الشَّزرَا

وَمَا هّذِهِ الأيَّامُ إلّا سَحَائبٌ

عَلَى كلّ أرضٍ تُمطرُ الخَيْرَ والشَّرَّا

وتمرُّ الأيام وتنصرم الأعوام، مع ما يصحبها من تغير الأزمان وتبدل الأحوال، وانطواء النوائب والأحداث، ويذهب المنصورُ، وتنطوي صفحتُه، وتتعاقب الملوك، ويمر حفيدٌ له بالمنية التي لا تزال تنسب لجده، منية المصحفية، فيقف الحفيد ويستعبر، ويتذكر أيام جده الخوالي، وكيف ساءت خاتمته، فيقول منشدًا: قف قليلًا بالمصحفية واندب

واسألنها عن جعفــر وسطاه

جعفر مثل جعفر حكم الدهـر

ولكم حــذر الردى فصممناه

أيها القارئ الكريم، لا بدّ وأنك تأسّفت معي على هذا المصير المشئوم: فهل بلغك نبأ جعفر الآخر؟

حين غضب الرشيد على جعفر بن يحيى البرمكي ونكَّل به وصادر أمواله وألقى به في ظلام السجون، بعد عيشة هنيَّةٍ في أروقة القصور وأبهاء الدّورِ، وسد عليه الأبواب بعد أن كانت مفتحةً فلا غلق ولا حجاب، وطُرح في السجن يعاني ألم الحبس وقسوة السجان، حتى أن ولده من شدة البرد القارص في أقبية السجون؛ كان يضع الماءَ البارد على بطنه في شدّة البرد ليدفئه قليلًا بحرارة جوفه حتى يستعمله أبوه للوضوء، فقال له ولدُه وهُم في السجن والقيود: يا أبتِ، بعد الأمرِ والنهيِ والنعمةِ صرنا إلى هذا الحال!

فقال: «يا بُنَيَّ: لعلها دعوةُ مظلومٍ سَرَتَ بليلٍ، ونحنُ عنها غافلون، ولم يغفلِ اللهُ عنها»([28]).

ومِن عجيب الموافقات أن المبتلى جعفران: جعفر المصحفي وجعفر البرمكي. وعند الله تجتمع الخصوم...(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)[إبراهيم: 42]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# من غرائبِ علوُّ الهِمَّةِ في الطَّلَب ([29])

كنّا نختلفُ إلى أبي عليٍّ البغداديِّ- رحمه الله- وقتَ إملائِه النوادرَ بجامعِ الزهراءِ في قرطبة، ونحنُ في فصلِ الربيع، فبينَا أنا ذاتَ يومٍ أسيرُ في طريقِي لحضور الدرس، وقد لبستُ أبهى حُللي وتجمَّلتُ، ومضيتُ منتعشًا بنسائم الصبحِ، مفعمًا بعبقِ زهور النارنج، ألتفتُ عن اليمين وعن الشمال، حيث شقائق النعمان، فوق الروابي المخضرة يزيّن العشب الأخضر، وروائح الشيح والخزامى تعطر الأرجاء، وألوان البهار والنوّارُ والبنفسج تستنطق مَن يراها بالتسبيح، والبلابل تغني لأعراس الحقول، حيث أعوادُ القمح تتمايلُ مثقلةً بحملها مبشِّرةً بمحصول وفير، وجداول الماء الرقراق تتخللُ الحقول، ولسان الطبيعة يردد: صباحٌ أندلسيٌّ جميل، ثمّ مررتُ وأنا أحمل دفتري في زهوٍ بجانب بستانٍ تفوح منه رائحة الورود، وحول البستان سور أبيض قد غطّته الياسمين فبدت بواكيرُ زهورها بلونٍ أبيض ناصع، بدا مع خضرة الأوراق كأبدع النقوش، جمالٌ ونقاءٌ، وكرمٌ وسخاءٌ؛ لا يمرُّ أحدٌ بجوارها إلّا وتنفحه بعطر شذاها، وما أطيب هذا العطر حين تنفحك به الياسمينة برضاها، ويمكنك يا عزيزي أن تجرِّب الفرق حين تمرُّ بسلامٍ بجوار شجرة الياسمين فتهديك من أريجها عن طيب نفسٍ وبين أن تقطف نوارها، وتشمها! حتى النبات له مشاعرُه.

ومضيتُ مبتهجًا أمعنُ النظرَ وأقدحُ زناد الفِكَر في تلك المباهج الربيعية، أرنو لتلك الخمائل السندسية، والألوان المتناسقة، وأتنسّمُ الروائحَ الذكية المتناغمة، وأُصغي لأصوات البلابل، المتداخلة مع نعيب الغربان، وخرير الماء، وزقزقة العصافير في نَغَمٍ متَّحدٍ منسجمٍ، بينما أنا مستغرقٌ في تلك اللذة الحاضرة، إذ أخذتْنِي سحابةٌ بحملِها، فكأنما أفرغته فوق رأسي، دون أن أجد السبيلَ لأتقي البلل، حيث لا ظلّ يحميني، ولا شُرفة بيتٍ تقيني، فهرولتُ ممسكًا بمجمع ثيابي المبتلة بشمالي، متأبّطًا دفتري، وما إن ولجتُ من باب السور المحيط بالجامع حتى التقطتُ أنفاسي، ومشيتُ على رصيفٍ مبلط بالزليج، حتى وصلتُ إلى باحة المسجد المرصوفة بالفسيفساء، فغسلت ثيابي في بركة ماء متصلة بأنابيب إلى جدولٍ منهمرٍ من سفح الجبل، ودلفت إلى المسجد حيث مجلسِ أبي علي رحمهُ اللهُ، فأقبلتُ على استحياء، بينما الشيخ على كرسيّه نحو عمودٍ من أعمدة مسجد الزهراء، وحوله أعلامُ أهلِ قرطبةَ وطلابُها، هالني فخامة المجلس وراعني أبَّهته، حتى كدتُ أذوب خجلًا من ثيابي المبتلة ونظرات الطلاب لي، فلمّا رآني المعلم أمرني بالدُّنُوِّ منه، فأقبلتُ منكَّس الرأسِ خافض الطرف، فقال لي أبو علي ملاطفًا: مهلًا يا أبا

نصر، لا تأسفْ على ما عَرَضَ لك؛ فهذا شيءٌ يضمحلّ عنكَ بسرعةٍ، بثيابٍ غيرِها تبدِّلُها.

فأطرقتُ برأسي، أتمتمُ بالشكر لمعلِّمي ومؤدِّبي.

فقال لي مسلِّيًا: تدري يا فتى، لقد عَرَضَ لي ما هو أشدُّ من ذلك!

- حقًّا يا معلمي؟ (أجبتُ بصوتٍ ضعيف).

- نعم يا بني. عرض لي ما أبقَى بجسمِي نُدُوبًا تدخلُ معي القبرَ فلا تمحوها الأيام!

فآنستُ بكلامه وانشرح صدري لتلطُّفه، وزاد شوقي لمعرفة قصة ندوبه التي آلمتني.

ثمّ قال لنَا: كنتُ أختلفُ أيام طلبي للعلم على ابنِ مجاهدٍ رَحِمَهُ اللهُ، فأدلجتُ إليه لأتقربَ منهُ بالتبكير، حتى أحظى بغَرفةٍ من بحر علمه قبل أن يسبقني إليه سابق، وأصطبح من باكورة فوائده قبل أن يبادرني أحد.

وكنت أسكنُ في بغداد بدربٍ ليس له إلّا مخرجٌ واحدٌ، فلما انتهيتُ إلى بوابة الدربِ التي سأخرجُ منها ألفيتُها مُغْلَقةً، وعسُرَ عليَّ فتحُها، وتذكرتُ أنها لن تفتح إلّا قبيل أذان الفجر، حاولت البحث عن مخرج، فلم أجد مخرجًا سواه، فقلتُ: سبحان الله! أُبَكِّرُ هذا البُكُورَ، ولا أتمكَّن من الظَّفر بشيخي، فأُسبقُ إليه!

لكني لم أستسلم للأمر، فبحثت ثانيةً عن مخرجٍ هنا وهناك، حتى وقعت عيني على سَرَبٍ مظلمٍ بجانبِ دارٍ، فنظرت فإذْ بآخرِه بصيص نور، فاقتحمتُه آملًا أن أجد منفذًا للخروج من الدرب، فلما توسطتُّه ضاقَ بِي، فلم أَقْدِرْ عَلَى الخُرُوجِ ولا على النهوض، فوقفت حائرًا لا أستطيع مضيًّا، ولا أقدر على الرّجوعَ، وتفكرتُ ماذا أصنعُ في هذا المأزق؟ هل أصيحُ حتى يشعر بي أحدٌ فيجرني من قدميّ؟ ومَن يسمعني وأنا محشورٌ في هذا النفق؟ لا مناص، ولا محيص، سوى أن أنقذَ نفسي بنفسي.

وهنا، استدعيتُ قوتي واستجمعتُ عزمي، واندفعتُ كالسهمِ المارق أقتحمُ السربَ أشدَّ اقتحامٍ، حتى نَفَذْتُ بعد أن تخرَّقَتْ ثيابْي ومشَّط السَّرَبُ في لحمِي، فقطّعه حتى بانَ العظمُ، وسال الدمُ، وتلطخ القميصُ، فجلستُ أبكي من الألم، وحمدتُ اللهَ أن منَّ عليَّ بالخُروجِ، فوافيتُ مجلسَ الشيخِ على هذه الحالِ بثيابٍ ممزقةٍ ملطخة، وظهرٍ مهترئ اللحم بادي العظم، مع هذا كنتُ راضيًا بتبكيري، سعيدًا بحظوتي من الشيخ، ونيل مرادي، فأينَ أنتَ يا هارونُ مِمَّا عَرَضَ لي!؟

كان لهذا الموقف النبيل أثرٌ كبير على نفس الفتى طالب العلم، فما ألطف الشيخ وما أكرمه! وما أحرصه على الطلبِ وهو شابٌّ يافعٌ، حرصه على التعليم والتأديب وهو شيخ وقورٌ بين طلابه، زاد هذا الموقف من نهم الطلاب وحرصهم على المزيد من العلم. وصدق من قال

ذريني أنــــل مـــا لا يُنالُ من العُلا

فصعبُ العلا في الصعبِ والسهلُ في السهلِ

تريــدين لقيــانَ المعــالي رخيصةً

ولا بد دون الشهدِ من إبرِ النَّحل ([30])

وأنشد الشيخ:

دببتَ للمجدِ والساعونَ قد بلغوا

جَهْدَ النُّفوسِ وألقَوا دونَه الأُزُرَا

وكابَدُوا المجدَ حتى مَلَّ أكثرُهُم

وعانقَ المجدَ مَن وافَى ومن صَبَرا

لا تَحْسَبِ المجدَ تَمْرًا أنتَ آكِلُهُ

لن تبلُغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا (([31])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

## -15-

# علمٌ وإكرامٌ
# ودفءٌ وطعامٌ

حلّ الشتاءُ، وتساقطت الثلوجُ على الحقول المزروعة بالقمح، واكتستِ التّلال والأشجار باللون الأبيض، كما بدتِ الأسطح المبطنة بالقراميد الأحمر بيضاء، وغابت الشمسُ خلف الغيوم، فلا ترى العين إلاّ اللون الأبيض والألوان القاتمة، الأسود والرصاصي والأزرق الداكن.

وخلتِ الشوارع من المارة، وتصاعدت الأبخرة من المداخن، تنمُّ عمّا بداخل البيوت من حركةٍ ونشاط، وطعام ودفء.

أمسى الناسُ في بيات شتويٍّ، وكأنّ بيوتَهم المغلقة الدافئة جحور الأرانب البرية أو السناجب التي تقتات على ما تدَّخره، أو تخرج لالتقاط طعامها من أقرب حقل.

منظرٌ مألوفٌ في كلّ شتاء، بيوت القرية بلوْن البياض، بينما تنبعث الأبخرة من مداخنها بلون الرصاص.

لكنَّ بيتًا واحدًا في هذه المدينة الهادئة يشعُّ منه النور، وينبعث الدفء، ولا يتوقف عن حركة دؤوب، تلحظُ ذلك من خلال مداخن البيت التي لا تتوقف، إنه بيت الفقيه ابن كوثر الأنصاري، وقد اعتاد نقلَ درسه إلى بيته الواسع إذا اشتدّ البرد؛ إذ كانت دروس العلم في المساجد طوال العام، ولم تكن هناك بالأندلس مدارسُ علمية منتشرة كتلك التي كانت في مصر والشام والحجاز والعراق وفارس والهند.

ومدينة طليطلة مدينةٌ عتيقة، ترقدُ على جبلٍ مرتفع، مما يجعلها على موعد مع البرد القارس والثلوج في فصل الشتاء، لكنّ طلاب العلم من أهلها ومن مدن الأندلس الأخرى لا يتوقفون عن الطلب، ولا يتعلّلون بالأعذار، كيف وقد قيل:

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف

ويبسُ الخريف وبردُ الشتا

ويلهيك حسنُ زمان الربيع

فأخذُك للعلم قل لي متى!

«وكان ابن كوثر من أهل طليطلة، فقيهًا متفنِّنًا، كريمَ النفس، أخذ عن جماعةٍ من علماء بلده، ورحل إلى قرطبة وتعلَّم على شيوخها، ورجع بلده بالإجازات، وتصدَّر للتدريس والإفتاء».

حكى عنه أحدُ تلاميذه- عبد الله بن سعيد بن أبي عون- كنّا نجتمع في بيته، ومنا من قَدِمَ من جهة المشرق طلبًا للعلم، وكنت آتي إليه من بطاح «قلعة رباح»- وهي مدينة من أعمال طليطلة، بينها وبين قرطبة، يمرّ بها نهر آن أعظم أنهار الأندلس، وتشرف عليها من بعيد جبال البرانس- وكنّا أكثر من أربعين تلميذًا، فكنّا ندخل في داره في شهر نوفمبر، وديسمبر، ويناير، [تشرين الثاني وكانون الأول والثاني]، حيث الشتاء القارص، فنجتمع في مجلس قد فُرِشَ بالبسط من الصوف مبطنات، والحيطان مبطّنةٌ باللبود من الوبر والصوف الفاخر، وقد اشتهرت به بلاد الأندلس، ووسائد الصوف مبثوثة، حتى الألوان تبعث الدفء، وفي وسط المجلس كانون في طوله قامة الإنسان ممتلئًا فحمًا ينعم بدفئه كلّ من في المجلس، فإذا فرغ الشيخُ من الدرس، أمسكنا جميعًا، وقُدِّمَت الموائد عليها صحافٌ من ثرائد وفوقها لحوم الخراف، مع أطباقٍ من المقبِّلات والإدام، وأخرى من زيت الزيتون وغيره، ويقدم بعد ذلك لونٌ من الحلوى، وأيامًا أخرى تُقدمُ لنا ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد والعسل، فنأكل تلك الثرائد، لا نقوم إلّا وقد شبعنا وروينا من العلم النافع، ومن ذلك الطعام الطيب، فكنا ننطلق قربَ الظهر مع قِصَرِ نهار الشتاء، ولا نتعشَّى حتى نصبح إلى ذلك الطعام طوالَ الثلاثة الأشهر، فكان ذلك منه كرمًا وجودًا وشرفًا لم يسبقه أحدٌ من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة، والحمد لله على سابغ نعمه.

أيها السائح في ربوع الأندلس، إذا مررتَ بطليطلة يومًا شاتيًا، وتجولت في طرقاتها، ونظرت إلى بيوتها العتيقة، فتذكر أنّ بيت عزٍّ وكرم، بيت مجدٍ وسؤدد، بيت علم وفضل، بيت عالمٍ ينتمي للأنصار نسبًا وكرمًا وعطاءً وإيثارًا، كان من بين تلك البيوتات، ينبعث منه الدفء، ويتلى فيه آيات الله والحكمة.

فقد كان كرم الفقيه يُضرب به المثل حتى في بلاد المشرق، حيث ذاع صيته وطار ذكرُه(32).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

## -16-

# يُعطي الجوزَ مَن لا أسنان له!

حكى الأديبُ الحضرمي، قال: أقمتُ أيّامًا بقرطبة، ولازمتُ سوقَ كُتُبِهَا مدةً، وكان عامرًا ذاخرًا بالكتب التي تملأ أرفف الدكاكين وتفيض، فمع كثرة النسَّاخ الذين ينسخون الكتب بأجمل الخطوط وأجود الأوراق والأحبار، فضلًا عن تجليدها الفاخر، بجلد الغزال، وغيره، كانت الكتب تأتي من ربوع الأندلس، فتجد سوقًا رائجةً، فقرطبة أكثر بلاد الأندلس كتبًا، فهي عاصمة العلم ومدينة العلماء، وأهلها أشدُّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من مظاهر الوجاهة والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها من نفائس الكتب وذخائرها؛ ليس إلّا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي بخط فلان قد حصّله وظفر به، من باب المفاخرة والتباهي، والتشرُّف بالعلم والانتساب له، ولو بهذه الوسيلة.

لدرجة أنه جرتْ مناظرةٌ بين الفقيه أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه: ... إذا مات عالمٌ بإشبيلية فأريدَ بيعُ كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطربٌ بقرطبة فأريد بيعُ تركتِه حملت إلى إشبيلية.

وكان للملوك عناية بالكتب، فهذا الأميرُ الحكمُ «يبعث إلى أبى الفرج الأصبهاني القرشي المرواني ألف دينار ذهبًا، ويخاطبه بودٍّ يلتمسُ منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني، لم يكتف بذلك المال الذي بذله، بل خاطبه متوسّلًا بقرابته؛ إذ كان من ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقّحة، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحدٌ منهم، وكان للحكم ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجّههم إلى الآفاق للتنقيب عن نفائس الكتب وشرائها.

وكان له وراقون في بغداد وغيرها، فضلًا عن الورّاقين في الأندلس([33]).

نعود للحضرمي، حيث لا يزال يطوف في سوق الكتاب بقرطبة كلّ يوم، يقول: «وأنا على يقين بأنني سأعثر على كتابي المنشود، وكنت أترقّب فيها وقوعَ ذاك الكتاب؛ حيث كان لي بطلبه ولعٌ واعتناءٌ إلى أن وقع لي أخيرًا، بعد بحثٍ مُضن، فوجدته بخطّ جيد وتجليد مليح، ففرحتُ به أشدَّ الفرح، بيدَ أنه عُرض في مزادٍ لمن يدفع أكثر، فطلبتُه بغالي الثمن، لكن كان هناك من يزايدُ علي، ويُنافسني في طلبه، فجعلتُ أزيد في ثمنِهِ، فيرجعُ إليَّ المنادي بالزيادةِ

عليّ، إلى أن بلغ المنافسُ فوق حدِّه وطاقتي، حتى عجزتُ عن مزايدته، فالتفتُّ إليه أتفحَّصُه، فإذ بشخصٍ عليه لباسُ رياسةٍ فدنوتُ منه، وقلتُ له أعزَّ اللهُ سيدَنا الفقيهَ: إن كان لك غرضٌ في هذا الكتابِ تركتُه لَكَ، فقد بلغتْ به الزيادةُ بينَنَا فَوقَ حَدِّه؟ قال: فقال لي باقتضاب: لستُ بفقيهٍ، ولا أدري ما فيه.

قلت: وكيف تحرص على شرائه هذا الحرص؟!

قال: لا شيء، ولكني أقمتُ خِزانَةَ كتبٍ أنيقةٍ، ونصبتُها في صدر المجلس الفسيح، في صحن داري التي شيدتها، وزخرفتُها وجمَّلتُها لأتباهى بها بين أعيانِ البلدِ، وبقيَ في الخزانة موضعٌ يسعُ هذا الكتابَ، فلمّا رأيتُه حَسَنَ الخطِّ جيدَ التجليدِ استحسنتُه، وأعجبني لونه الأخضر الذي ينسجم مع ألوان الكتب في مكتبتي، التي صنعها أمهرُ النّجارين من خشب الأبنوس، ورصّعوها بالأصداف، فكيف أبالي بما أزيدُ فيه!

والحمد لله على ما أنعَمَ بِهِ مِنَ الرِّزْقِ فَهُوَ كثير.

قال الحضرِمِيُّ: فَأَحْرَجَنِي وحمَلَنِي على أن قلتُ لهُ: نعم لا يكونُ الرزقُ كثيرًا إلّا عندَ مِثْلِكَ!

يُعطي الجوزَ من لا عندَه أسنانٌ!

وأنا الذي أعلمُ ما في هذا الكتابِ وأطلبُ الانتفاعَ به، يكونُ الرزقُ عندي قليلًا!

وتَحُولُ قلةُ ما بيدِي بيني وبينه! فسبحان الله، جلّت حكمتُه، ولله في خلقه شئون.

ومضيتُ حزينًا على فقداني الكتاب، بعد أنْ طال بحثي عنه لأيام([34]).

## -17-

# سوق الكتب بقرطبة

كان عبدُ الله يعيش مع أهله في قرية من قرى بطليوس حيث يمرُّ نهر آنة، فيسقي الحقول والبساتين، ويشرب الناسُ من مائه العذب، وكانت بطليوس مشهورة بالغلّات والتجارات والكروم والعمارات والأسواق والخانات والمساجد الحسنة والحمّامات.

وكان أبوه من أغنياء القرية، له حقول وبساتين وتجارة رائجة، بيدَ أنّ الفتى المترَف خاملُ الذكر، قاصرُ الهمّة، فأراد أبوه أن يختبره، ويشحذ همّته، فأعطاه مبلغًا من المال، وطلب منه أن يتاجر فيه، وكان بارًّا بأبيه، مطيعًا له وملازمًا، فرحل من قريته الصغيرة، وسافر إلى قرطبة، فنزل بسوقها المكتظّ بالناس والبضائع، واحتار الفتى من أين يبدأ؟

فأخذ يطوف في السوق ليصلَ لمبتغاه، مرّ بسوق العطارين، فرأى ما لم تره عيناه من قبل من أنواع الأعشاب والبهارات والعطور والورود والرياحين المجففة، ثمّ عرّج على سوق الذهب فشاهد في الواجهات الزجاجية من الحلي والأساور ما يخلبُ الأبصار ببريقه وجمال صنعته، كما مرّ بسوق الفواكه ليرى ما لذّ وطاب مما لم ترَ عينه، وعندما طاف بسوق الأواني، وسوق التحف والخزف، وقف مبهورًا بما يراه، وها هو الآن في سوق الكتب، يرى إقبالًا كبيرًا على شراء الكتب، وينبهر بهذه الأكداس من الكتب، فيتناول بيده كتابًا، يتفحّصُ غلافه الأنيق، ثمّ يفتحه فيعجبه ورقه الفاخر، وخطّه البديع، وأحبارُه الناطقة.

ويطول مقامُه في سوق الكتب، فينتقل من الزخارف إلى المكتوب، ومن الشكل إلى المضمون، ويمضي الوقتُ دون أن يشعر وهو يقرأ، حتى يقرر صاحبُنا أن يبدأ تجارتَه في الكتب، لكن كيف ولا خبرة له فيها، حسنًا.. ليبدأ ويجرّب فيكتسب الخبرة.

يقف الفتى أمامَ حلقة ومزادٍ على مكتبةٍ لأديبٍ رحل عن الحياة تباع بجملتها، والناس تزايد في سعْرها، فدخل في تلك المنافسة واشتراها، ثمّ دعا حمَّالًا وذهب ببضاعته إلى الفندق حيث يقيم، وأمر بإنزال الكتب بغرفته، ثمّ أسرع لتناول غدائه في مطعم الفندق، وبعد أن أكل ما لذَّ وطاب، دخل غرفته، وأغلق بابه، وجلس يجردُ بضاعته، وكان يحسن القراءة، لكنه لم يكن من طلاب العلم، فأخذ يتناول كتابًا كتابًا، فكلّما أعجبه كتاب قرّر أن يحتفظ به لنفسه، وبدأ في قراءة الكتب التي آثرها لنفسه، واشتغل بذلك حتى نسي مهمتَه التي جاء لها، وهي التجارة، وبدأ يستشيرُ بعض طلاب العلم الذين

يلتقي بهم في جامع قرطبة أو في السوق في مسائل لم يفهمها، فلمّا كثرت تساؤلاته نصحوه بملازمة مجالس الفقهاء والأدباء.

يقول رحمه الله: كان سببُ طِلْبَتي للعلم أن والدي كان رجلًا من أهل القرى، وكان له ثروة، فسلَّم إليّ مالًا لأدخل به إلى الحاضرة للتجارة، فدخلت إلى قرطبة، فاتفق أني اجتزت في السوق فوجدت حلقة تباع فيها الكتب، فوقفت عليها، واستحسنت الكتب، وشريت منها بمقدار مائتي دينار للتجارة، ثمّ نزلتُ بمنزلٍ، فلمّا خلوتُ بها جعلتُ أفتقدها وأقول: هذا جيد لا ينبغي أن يباع، وهذا جيد، إلى أنِ اخترت لنفسي أكثرها، ثمّ جعلت أطالعها فلا أفهم معانيها، فيضيق صدري. فسألت بعض الطلبة، وقلت له: أيّ العلوم أنفق؟ فقال: الناس في الأدب أرغب منهم في غيره. قلت له: وأيّ الكتب أشهر من كتب الأدب؟

فقال: كتاب العين. فشرعتُ فيه على شيخ هناك. فلم تمض لي شهور حتى حفظتُه، ثمّ حفظتُ كتابًا في النحو. ولذّ لي العلم، فلم تمضِ إلّا مدة قليلة حتى صرتُ ممن يشارُ إليه. فاشتقتُ إلى أهلي بعد أن أنفقتُ جميع ما كان معي، فخرجتُ إليهم واجتمعت بوالدي، فسألني عن الحال، وتعجبَ أنني جئتُ خاوي الوفاض، فسألني أين البضائعُ؟ وأين الأرباح؟ لقد منحتُك يا بُني مبلغًا لا يستهان به؛ لتبدأ به تجارتك! فأخبرته بقصتي، فلم ينكره عليّ بل سرَّه ذلك، وقال: يا ولدي، هذه نعمةٌ من الله في حقِّك حيث ألهمك بالعلم، وأمدّني بشيء آخر من المال. ورجعتُ إلى المدينة، وطلبتُ المشايخ حتى بلغتُ إلى ما ترون، من اجتماع الناس علي، واقتباسهم مني. وكان حسن التعليم جيّد التفهيم، ثقة، ضابطًا، ألّف كتبًا نافعة ممتعة، وشرح عدّة كتب». لا يتكلّم في علمٍ إلّا أفاد وأجاد.

مِن شعره:

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته

وأوصـــالُه تحت التراب رميمُ

وذو الجهل ميْتٌ وهو ماشٍ على الثَّرى

يُظَنُّ من الأحيــاء وهو عديمُ

وكان يقول: المتأدب أحوج إلى تأديب نفسه وخُلُقِه منه إلى تأديبِ لسانه.

ومِن نثره: إنّك تجد في العامّة الذين لم ينظروا في شيء من الأدب من هو حسن اللقاء، جميل المعاملة، حلو الشمائل، مكرمٌ لجليسه، وتجدُ في ذوي

الأدب من أفنى دهرَه في القراءة والنَّظر، وهو مع ذلك قبيح اللقاء سيءُ المعاملة، جافي الشمائل، غليظُ الطبع ([35]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -18-

# إنقاذ موقف

بعث الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع سفراءه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد وصلت السفارة الأندلس، كما وافق ذلك وصول سفراء ملوك الفرنجة، في شهر صفر سنة 338هـ، فتأهّب الخليفة لاستقبال الوفود، وأمر أن يستقبلوا أعظم استقبال وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم خاصَّته لخدمة أسبابِ الطريق، فلمّا صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج إلى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبئة، فتلقَّوهم قائدًا بعد قائدٍ، واكتمل التكريمُ بعد ذلك، بأن أخرج إليهم عظماءَ الدولة، وأنزلوا بقصور ولي العهد بمنية نصر، ورُتِّب لهم من الحُجَّاب والخدم والحشم ما يناسب مقامَهم السامي، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فجلس في بهو المجلس الزاهر، وعن يمينه ولي العهد الحكم، ثمّ سائر أبنائه، وحضر الوزراءُ على مراتبهم واصطفوا يمينًا وشمالًا، ووقف الحجَّاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم من الفقهاء والأدباء، وقد بُسط صحنُ الدار بأفخم الفرش وأثمنها، وظُلّلت أبواب الدار وحناياها بستائر الحرير، وعُلّقت الأعلام والبيارق.

ثمّ وصل رسلُ ملك الروم حائرين مما رأوْه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية، الذي كتب بماء الذهب وأودع داخل أسطوانةٍ ذهبيةٍ، ملفوفًا في قطعة من الحرير، وعليه الختم الملكي، وكان عبدُ الرحمن الناصر، قد رتّب مع ولده الحكم أن يقومَ الخُطَبَاءُ والشُّعَرَاءُ بين يديهِ، لذكرِ جلالةِ مقعدِهِ، ووصفِ ما تهيَّأ له من توطيدِ الخلافةِ، وقوة بأسِهِ ونجدتِهِ، وحفز ابنَه الأميرَ الحكم وليّ عهدِهِ بإعدادِ من يقومُ لذلكَ مِنَ الخُطَبَاءِ، ويقدِّمُهُ أمامَ إنشادِ الشُّعراءِ، فأمر الحكم صاحبه الفقيه محمد ابن عبد البرّ بالتأهّب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يدَّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره، وحضر المجلس السلطاني، فلمّا قام يحاول التكلمَ بما رأى هالَه وبهرَه هولُ المقام وأبهةُ الخلافة، فتلعثم لسانُه ولم يهتدِ إلى لفظة، بل غُشي عليه وسقط إلى الأرض، بدون حراكٍ، فتقدَّم الحكمُ إلى الأديب أبي عليٍّ القالي البغدادِيِّ ضيفِ الخليفةِ، وأميرِ الكلامِ وبحرِ اللغةِ وفقيهها، أن يقومَ خطيبًا لهذا الحفل، قائلًا له: «قمْ فارقع هذا الوهى»، وكان الحكم شغوفًا بأبي علي يؤهّله لكلّ مهمٍّ في بابه، ويقدّمه لكلّ مكرُمةٍ، فنهض وارتقى درجتين، وقام وَحَمَدَ اللهَ وأثنَى عليه وصلّى على نبيِّه محمدٍ، فلمّا نظر إل تلك الجموع، وأبصر من مقامه تلك الحشود، ونظر إلى الملك تحوطُه الحاشية والجنود، وبين يديه

الوفود وعاين الحفل؛ لم تحملّه رجْلاه، ولا ساعدَه لسانُه، فدارتْ به الأرض، وانقطعَ وبُهِتَ، وَوَقَفَ ساكنًا مُشتتًا حائرًا، وساد الوجومُ الحفل، فلمّا رأى ذلك الفقيهُ منذرٌ بنُ سعيدٍ- وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء- هبَّ قائمًا وعلا بدرجةٍ من مرقاةِ أبي علي، ووصلَ افتتاحَهُ بكلامٍ عجيبٍ، بهَرَ العُقُولَ جَزَالَةً ومَلأ الأسماع جلالة، ثمّ ذكر مرتجلًا ما يليق بهذا المقام من روائع الكلام، وفيه قال: «أمّا بعدَ حمْد الله، والثناء عليه، والتَّعْدَاد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيِّه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكلّ مقام مقالًا، وليس بعد الحقّ إلّا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم...»، إلى آخر خطبته العصماء التي ارتجلها متحدِّثًا عن نعمة الأمن والعز، والفتوحات والنصر، فأنقذ الموقف وأبهر رسول قيصر، حتى قال مُعجبًا: هذا كبيرُ القوم! وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه وسرعة بديهته، وكان الناصر أشدَّهم تعجُّبًا منه، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يعرفُه فسأله عنه، فقال له هذا منذر بن سعيد البلوطي الفقيه فقال: والله لقد أحسن ما شاء الله، ولئن أخرني الله بعد لأرفعنَّ من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه.

فولَّاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثمّ تُوُفي محمد بن عيسى القاضي، فولَّاه قضاء الجماعة بقرطبة، وأقرَّه على الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء([36]).

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

## -19-

# مواعظُ الملوك

# بين القاضي والملك

على بُعد ثلاثة أميال من غرب قرطبة باتّجاه الشمال خطَّط الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء على أقدام جبل العروس وسهوله الممتدة، واستمرّ إنشاء الزهراء سنوات طويلة، جعلت قصور الخلافة في قمة عاليةٍ، وتحتها قصور الوزراء والقادة، ثمّ بيوت الجنود والعمال، يتخلل ذلك الحدائق الغنّاء المترامية، والتي تمتدّ حول المدينة الجديدة، فتحيط بها من كلّ اتجاه، وحول المدينة الملكية سورٌ حصين بأبراجه البالغة ثلاثمائة وستين برجًا، واتخَذَ الخليفة عبد الرحمن الناصر لسطحِ القُبَّةِ الصُّغْرَى التي كانت مائلةً على الصرحِ الزجاجي المشهورِ بقصرِ الزهراءِ قراميدَ من ذهبٍ وفِضَّةٍ، أنفق عليها مالًا طائلًا، وجَعَلَ سقفَهاَ بأبهى الألوان ما بين أصفر ذهبي وأبيض ناصع، وأحمرٍ قانٍ، فكانت أنوارُه المبهرة تأخذُ بالأبصار.

وجعلَ فيها إِثْرَ تمامها لأهلِ مملكتِه مشهدًا، فجمع قرابتَه وحاشيتَه من الوزراءِ وأهلِ الخدمةِ، وجلس متّكئًا على سرير الملك في البهْو الفخم الذي يتوسَّط تلك الأبهاء المذهبة داخل الصرح الممرّد، وقال في زهوٍ متفاخرًا بما صَنَعَهُ وشيّده من القصور والدور، ومشيرًا بيُمناه إلى هذا الصرح العظيم، وما يتّصلُ به من البدائِع الفَتَّانَةِ، والألوان الباهرة، والستائر خلف النوافذ تزيد المنظر جمالًا: هل رأيتُم قبلِي أو سمعتُم مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِي هذا أو قَدَرَ عليه؟

فجَعَلَ الْحَاضِرُونَ يُثْنُونَ على ذلك البناءِ ويمدحونه. قال أحدهم: لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين، وإنك لأوحدٌ في شأنِكَ كلِّه! لا سَبَقَكَ في مبتدعاتِك هذهِ ملكٌ رأيناهُ، ولا انتهَى إلينا خبرُه، فَأَبْهَجَهُ قولهُم، وأطربه إطراؤهم، وزاد فرحُه بما صنع وزيرُه عبيدُ الله بنُ إِدْرِيس، حيث أنشد له مادحًا:

سيشهد مَا شيّدت أَنَّك لم تكن

مضيِّعًا وَقد مكَّنت للدّين وَالدُّنْيَا

فبالجامع الْمَعْمُور للْعلم والتُّقى

وبالزهرة الزهراء للْمُلك والعليا

أُعجِبَ الملكُ بالبيتين، وأمر بجائزة سنية للشاعر الذي لامس بشعره شغاف قلبه.

وبينما هو كذلك مسرورًا ضاحِكًا مُعجبًا بما صنع، يتلقى التهاني من أهل بيته وحاشيته؛ إذْ دَخَلَ عليه القاضِي منذرُ بنُ سعيدٍ واجمًا ناكسَ الرأسِ، فلمّا أخَذَ مجلسَهُ، قال له الملك كالذي قال لوزرائِهِ مِنْ ذِكْرِ السَّقْفِ واقتدارِه على إبداعِه وتفنُّنه في زخرفته، وَالْقَاضِي سَاكِتٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ وقال: ما تقول أنت يَا أَبَا الْحَكَمِ؟ وأشاح بيمناه إلى أعلى.

فأقبلتْ دُمُوعُ القاضي تنحدرُ على لحيَتِهِ، وقال له: والله يا أميرَ المؤمنين، ما ظننتُ أنّ الشيطانَ أخزاه اللهُ يبلغُ منكَ هذا المبلغ! ولا أن تمكّنَه من قيادِك هذا التمكينَ؛ مع ما أتاك اللهُ وفضَّلك على العالمين، حتى يُنْزِلَكَ منازلَ الكافرين!

فاقشعرَّ عبد الرحمن من قولِهِ، وأربد وجهُه، وقال مُتجهِّما: أيُّها القاضي: اُنْظُرْ ما تقول! وكيف أنزلني منازلهم؟

قال الفقيه: نعم. أليس اللهُ تبارك وتعالى يقول(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ-وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ - وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)[الزخرف: 33، 35].

فَوَجِمَ الخليفةُ عبدُ الرحمن ونَكَّسَ رأسَهُ مليًّا، ودموعُه تجرِي على لحيتِهِ خُشُوعًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ونَدَمًا، ثمّ أقبلَ على منذرٍ، وقال له: جزاك اللهُ تعالى يا قاضي خيرًا عنّا وعن المسلمين والدين، وكَثَّر في الناس أمثالَك؛ فالذي قلتَ واللهِ الحقُّ، وقامَ من مجلسِهِ ذلك وهو يستغفرُ اللهَ تعالى، وَأَمَرَ بنقضِ سقفِ القُبَّةِ، وَأَعَادَ قَراميدَهَا من الآجُرّ.

وهكذا تكون الصلةُ بين العالم والحاكم، صلةٌ مبنيَّةٌ على الصدق والمصارحة والتذكير والمناصحة، والامتثال للحقِّ والإذعانِ له، ولو كان مرًّا على النفوس، ثقيلًا على القلوب، فهو الدواءُ الناجع والحلُّ العاجل. استغرق البناء أربعين عامًا، وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنّه قدر النفقة فيها في كلّ عام بثلاث مائة ألف دينار، فكم بقيت عامرة؟ لم يمضِ عليها أكثر من مائة عام، حتى حلّ الخراب، وأمست أوكارًا للغربان والبوم، ومسرحًا لنعيقها ونئيمِها، أطلالا دارسة بعد أن كانت قصورًا منيفة ومنازل عامرة، وحدائق غناء.

ففي أيام حفيده المستكفي: استؤصلت بقية قصوره بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، واقتلع الغوغاء نحاس الأبواب ورصاص الأقنية، ونهبوا غير ذلك من الأثاث والأمتعة والآلات.. فطوي بخرابها بساطُ الدنيا، وتغيّر حسنُها، إذ كانت جنة الأرض،... والله يسلط جنوده على مَن يشاء، له العزة والجبروت» ([37]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-20-

# يحكم على الطير

قَدِمَ إلى بلاد الأندلس بعضُ التجار من المشرق، ومعه كيسٌ فيه ياقوتٌ نفيسٌ، هو رأسُ ماله وبضاعته التي جاء على أمل أن يبيعها في أسواق الأندلس الرائجة الغنيَّة، ويشتري بجزء من ثمنها بضاعة يعود بها إلى بلاده، قطع تلك المسافات الشاسعة وفارق الأهل والوطن، ليبيع تلك الجواهر الثمينة، وبينما الرجلُ يجول في الرياض الأندلسية المونقة، وينعم بأجواء ربيعها الساحرة الدافئة، ويمعن النظر في أنهارها وجداولها ومروجها، تلك الأجواء التي تغنَّى الشاعر بوصفها منشدًا: (يا حسنَ أندلسٍ وما جمعتْ لَنَا

فيها من الأوطــارِ والأوطانِ) (تلك الجزيرةُ لستُ أنسَى حسنَها

بتعاقُبِ الأحيــانِ والأزمانِ) (نسجَ الربيعُ نباتَها من سندسٍ

موشيـــةٍ ببدائـــعِ الألوانِ) (يا حسنَها والطلُّ ينثرُ فوقها

دررًا خلالَ الوردِ والريحان) (وسواعدُ الأنهار قد مدَّت إلى

ندمــائِها بشقائِـــقِ النُّعمان) (وتجاوبت فيها شوادِي طيرِها

والتفَّت الأغصانُ بالأغصانِ) (ما زرتُها إلّا وحيَّاني بهـــــا

حدقُ البَهَار وأنمُلُ السوسان) (من بعدها ما أعجبتني بلدةٌ

مـع مــا حللتُ به من البلدان) نفح الطيب 1 / 228

أحسّ التاجر العاشق للأندلس بأن البلابل فوق أغصان الزيتون، واليمام والعصافير التي تغدو وتروح بين أعشاشها وحقول القمح؛ تغني للربيع وتبتهج للمحصول الوفير في الحقول والبيادر، والسناجب الرمادية تعدو برشاقةٍ فوق جذوع أشجار الكستناء، تجمع الثمر وتنقله لبيوتها في تجاويف الأشجار حيث تطوّع نقار الخشب في حفرها بمهارةٍ تفوق مهارات النجار، وبمنقاره الذي هو أحدُّ من جميع الآلات، وبعد أن سكنها في فصل الربيع تركها لغيره دون مقابلٍ، إنه التكافل في هذا العالم العجيب، والتعاون بين المخلوقات، جال التاجر ببصره في المدى البعيد، حيث التقاء زرقة السماء مع أغصان الزيتون الرمادية في نسقٍ بديع، ثمّ عاد ببصره إلى الكثبان الرملية الصفراء وقد اكتست ببساط من الخميلة الخضراء، نقشت فيها الزهور أبدع التصاميم، بما يعجز عنه أبرع النساجين، تجرَّد ليسبح في غدير يتوارى خلف الأشجار والكثيب الرملي، تاركًا كيسَ اليواقيت على ثيابِهِ وهو يراقبُه عن كثبٍ، فكلّ ما

حوله يبعث السرور، النسيم والأطيار، والمناظر الخلابة، والهواء المنعش:
حبّذا أندلسٌ مـــــن بلـــدٍ

لم تـزل تنتج لي كلّ سرور

طائرٌ شـــادٍ، وظلٌّ وارفٌ

ومياهٌ سائحـــاتٌ وقصور

لكنْ حدث ما لم يخطر له ببال، سرقة أعجب من الخيال، حدأةٌ تنقضُّ على الكيس كالسهم وتخطفه بمنقارها، وتطيرُ به بعيدًا بعيدًا، ظنًّا منها أنه قطعة لحم حمراء، يا له من غباءٍ! متى تكتشف أنه كيس من قماش، وقد طارت مسرعةً بفريستها، وسرعان ما انطلق الرجل بعدما أفاق من ذهوله، يعدو خلفها متتبعًا لأثرها، لكنها توغّلت في البساتين، وغابت عن الأنظار بين أغصانها الكثيفة، فرجع متحيِّرًا حزينًا على ما أصابه من فقد جواهره النفيسة وضياع رأس ماله، ولبس رداءه، وعاد خاوي الوفاض إلى محلِّه الذي نزل فيه بائسًا نادمًا، وشكا ذلك إلى بعض من يأنسُ به، فقالوا له: اذهب وصفْ حالك، وبلّغ شكواك لابن أبي عامر حاكم الأندلس.

فذهب إلى المنصور الحاجب حاكم الأندلس، واستأذن في الدخول، وبلغ مجلسه، وأخبره عن قصته، وتلطَّف في وصف ذلك بين يديه.

فقال المنصور: لا عليك يفرّج الله تعالى كربَك، ننظر إن شاء الله تعالى في شأنك.

وعاد الرجلُ ولا أمل له في عودة كيسِ الجوهر، أما المنصور فإنه أخذ الأمر على محملِ الجد كعادته، وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين القريبة من النهر، ويستجوبهم، ويسأل خُدَّامَها ونواطيرَها، وعيونه المبثوثة في تلك البقعة عمن ظهر عليه تبديلُ حالٍ أو ثراء مفاجئ، حتى أُخِبَر أن شخصًا حمَّالًا ينقلُ السّماد من الحظائر للحقول، اشترى حمارًا وسِرجًا ، وثوبًا جديدًا، حتى ظهر عليه من السّعةِ ما لم يكن قبل ذلك، فأمر بإحضاره في الحال، فلمّا وقعت عينُه عليه، قال له مباغتًا: أحضر الكيس الأحمر! فبُهتَ الحمَّال، وتملَّك الرعبُ قلبَه، وقال للمنصور بتلعثمٍ: دعني آتي به من منزلي يا سيدي، فوكَّل به مَن يصحبه، حتى أتى به، وفتح المنصورُ الكيس، وجبر من بيت المال ما أخذه الحمال، ودفعه إلى صاحبه، فقال التاجر بامتنان، وهو لا يملك نفسه من الفرح والسرور: والله لأحدّثن في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها. وخرج الرجلُ ضاحكًا مستبشرًا.

أمّا الحمّال فقد التفت إليه ابنُ أبي عامر، وقال موبِّخًا: لو أتيتَنا به لأغنيناكَ! لكن تخرج كفافًا لا عقابًا ولا ثوابًا. وأطلق سراحه، فعاد بخيبة الأمل([38]).

# -21-

# أندلسيّ في بلاد فارس
# مثلُك يقرأُ في المصحف؟
# جلاءُ العينين ببركة القرآن

على بُعد ستة أميال من مدينة ألمرية، كانت بلدة بجانة، على نهر جارٍ يمرّ بها فيتفرع لرافدين، يسقي حقولها وبساتينها. وعلى بُعد ثلاثة أميال من جهة الشرق يطلُّ جبلٌ شامخٌ اشتُهر بمعادنه النادرة، ومنه تتفجرُ عينُ ماء عجيبةُ الشأن ليس لها نظير في الأندلس في طيبِ مائها وعذوبته وصفائه، قال عنها لسانُ الدين الخطيب في رحلته المسمّاة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف: «النهر السيّال، والغصن الميَّاد الميال، والأفياء والظلال، المسك ما فُتّ في جنباته، والسندس ما حاكته يد جناته، نعمة واسعة، وماجدة جامعة أزرت بالغوطتين زيتونُه وأعنابُه... والريحُ تلوي أعطافَ غصونِ البانِ على أرداف الكثبان...».

في هذه الأجواء الرائعة، نشأ عبد الرحمن؛ المعروف بابن الخراز، وطلب العلم منذ نعومة أظفاره ثمّ بدأ رحلته العلمية، فانتقل من الأندلس لبلاد المغرب إلى مصر ثمّ إلى الحجاز، ثمّ دخل العراق ومنها لبلاد فارس، ثمّ عاد إلى بلدته، وكان يعمل في صناعة الثياب من الحرير والقطن والكتان والصوف، ويبيعها بين قرطبة وبجانة وألمرية، كان من ذلك معاشه.

يحكي- رحمه الله- حكايةً عجيبةً في رحلته الطويلة التي جاب فيها العالم الإسلامي طلبًا للعلم، يقولُ: لما وصلتُ إلى مدينةِ مَرْوٍ مِنْ مَدَائِنِ فارس، سمعتُ الجامعَ الصحيحَ على أحد علمائها، ثمّ سمعنا عن شيخٍ بها يَرْوِي الحديثَ، فأتيناهُ لنرويَ عنه أيضًا، وكان اسمُه عليَّ بنَ محمدٍ الترابِيّ، فوجدناه يقرأُ في المصحفِ، فتعجّبنا من أمره، إذ جرتِ العادةُ عند أصحابِ الحديثِ أنّ من لا يستظهرُ القرآنَ عن ظهرِ قلبٍ فهو ناقصٌ، وكان الرجُلُ إمامًا في الحديث، فقلنا له متسائلين: مثلُكَ يقرأُ في المصحف؟

فقال: ليس في أصحابِ الحديثِ أحفظُ مني للقرآنِ، وذلك أني أُصَلِّي بِهِ التراويح في كلّ عامٍ، وأنا إمامُ قومِي، ولكن لما كَبُرَ سِنِّي ضَعُفَ بَصَرِي ثمّ ذهب، فتركتُ القراءَةَ في المصحفِ، وكان ابنُ أخِي يقودُنِي إِلى المسجِدِ أُصَلِّي بالناسِ الفريضةَ، فنمتُ ذاتَ ليلة، فرأيت النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- فقال لي: يا عليٌّ، لِمَ تركتَ القراءةَ في المصحف؟ فقلتُ يا رسولَ اللهِ:

ذَهَبَ بَصَرِي. فقالَ لي: ارجِعْ إِلَى القِرَاءَةِ في المصحفِ، يردَّ اللهُ عليك بصرَك.

فقمتُ فتوضأتُ وصلَّيتُ، وكانت ليلةً طويلةً باردةً من ليالِي الشِّتَاءِ، فَغَلَبَتْنِي عَينَيَّ، فرأيتُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فقال لي: يا علي، اقرأ في المصحفِ يردَّ اللهُ عليك بصرَك.

ففكرتُ في قولِ النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مَن رآني في النوم فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي)، فلما أصبحتُ غدوتُ إلى المسجِدِ، وابنُ أخِي يقودُنِي، وأنا لا أرى شيئًا، فصليتُ بقومِي الفريضةَ، ثمّ انصرفتُ إلى منزلي، فقلتُ لهم: أعطُوني المصحفَ، فقال لي أهلي: وما تريدُ من المصحفِ؟!

قلتُ لهم: أنظُرُ فيهِ. فتعجبوا من كلامِي وناولوني المصحف، فأخذتُه وفتحتُهُ، وأخذتُ في القراءةِ ظاهرًا، وأنا أقلِّب المصحفَ، ورقةً ورقةً، ونورُ بصري يعود لي شيئًا فشيئًا، فما طَلَعَ النهارُ إلّا وأنا أقرأُ في المصحفِ، وأرى حروفَه أجمعَ، ثمّ تماديتُ في القراءةِ إلى الظُّهر، فلم يأتِ الظهرُ إلّا وأنا أرى كما كنتُ أَرَى، فَهَذَا شَأْنِي ولله الحمد([39]).

وصدق اللهِ تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)[الإسراء: 82]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-22-

# موعظةٌ بليغةٌ لفقيه

رحلَ في طلب العلم، وجالس العلماء، وتعلم وأجاد، لكنه عكف على الملذات، وآثر الراحة والخمول، واستعاض بمجالس اللهو والمرح عن مجالس العلم، فأصبح وأمسى يميل إلى الراحات، وكان له بستانٌ كبيرٌ، غرس فيه أشجار الزيتون، وعرائش العنب، وأصناف الفواكه، وأحواض الورود والأزاهير، فكان يخلو كثيرًا في بستانه مع أصحابه، فلا يأذن لأحد سواهم، يستمتع بالهواء العليل، وينعم بشمّ الورود والرياحين، ويبهتج بمنظر الأزهار الزاهية، والثمار الدانية، ويشرب من نبع ماءٍ باردٍ في الصيف، فإذا كان في الشتاء عكفوا في قباء في البستان، مجهَّز لذلك الغرض، فيه الدفء والطعام والشراب، يتسامرون، ويتبارون في الأشعار والأمثال، ويتجاذبون الحكايات النادرة والطُّرف والأحاجي.

قضى عالمُنا عمرًا في اللهو والملذات.

كان أجدر به أنْ ينفع بعلمه طلابه، وأن يفتح لهم بابه، أو يعقد دروسًا في المسجد كما يفعل غيرُه من العلماء! لكنّه آثر الراحة والدّعة، والفراغ والبطالة، فحرمَ طلّاب العلم من علمه الذي بذل في تعلّمه وقته وماله.

وذات أصيلٍ، بينما هو في البستان بين أصدقائه في لهوٍ ومرح، والشمس تؤذن بالغروب، وقد توارى قرصُها الأحمر خلف الأشجار العالية والنخيل الباسقة، في منظرٍ يأخذُ بالأبصار، والحديثُ يحلو في هذا الوقت ويروق، إذْ رأى رجلًا يتخلّلُ الشجر، ويقتربُ منه، فغضب، وقال لخلّانه: من أذن لهذا؟ ألم آمر بغلق الباب!

فأقبل الرجل ووقفَ أمامه، وقال: ما ترى في رجلٍ ثبت عليه الحقُّ فزعم أنّ له مدافعة تدفعه عنه؟

فقال: ينظره الحاكم بقدر ما يرى.

قال السائل: قد ضربَ له الحاكمُ أجلًا فلم يأت بمنفعة، ولا أقلع عن الخصومة والمدافعة؟

قال: يقضي عليه.

قال: فإن الحاكم رفق به، وأمهله أكثر من خمسين سنة!

فأطرق الفقيه لحظةً، وتحدّر العرقُ على وجهه، بينما انسلّ السائل.

فلمّا أفاق من فكرته، تلفّت حوله فلم يجدِ السائل، فأمر باقتفائه، فلم يجدوا له أثرًا، فاستدعى البواب، وسأله، فقال: ما دخل عليكم أحدٌ ، ولا خرج من عندكم أحد!

فبُهت العالم، وارتعدت فرائصُه، وعلم أنّه واعظٌ من الله له، فقال لأصحابه: انصرفوا.

فما كان يُرى بعدَ ذلك إلّا في مجلسٍ، يُعَلِّمُ الناسَ([40]).

يا غافلًا وله في الدهرِ موعظةٌ

إن كنت في سِنَةٍ فالدَّهرُ يقظانُ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-23-

# أندلسي في بلاد الهند

# الطبيب الهندي

# لو كان بخيلًا على صحته

سافر العالم المحدّثُ أبو بكر ابن الأحمر من الأندلس إلى بلاد المشرق طلبًا للعلاج من قرحة أصابته، بعد أنْ طاف بلاد الأندلس فلم يجدْ عند أطبائها مداويًا، حتى عظُم عليه أمرُها، واشتدَّ مع الوقتِ ألمها.

وقيل له: ربما زادتْ وتضاعفت فأودت بك إلى الهلاك؛ فأسرعِ الخروجَ إلى المشرق، ونصحه بعضُ الأطباء أن يتوجّه للهند، فرحل إلى هناك ومعه مالٌ كثيرٌ، وكابد في رحلته العلاجية، تارةً يمتطي ظهورَ الإبل، وأخرى يركب متونَ السفن، فيقطع الصحاري والقفار، ويجتاز الجبال والبحار، ويخوض الغابات والمستنقعات، حتى وصل أخيرا بلدة الطبيب بعد رحلةٍ طويلة مضنية، واكترى طابقًا في منزل أنيق محاطٍ بأسوار خشبية، غُرست فيه الورود وأصناف الرياحين، إلى جانب الأشجار الظليلة المثمرة، وبعد أن استراح من رحلته الشاقة سأل عن الطبيب الذي وُصف له، حتى وجد من دلّه على بيته في حيٍّ قديم، فوجد منزله بسيطًا لكنه أنيقٌ، فاستأذن، فلمّا دخل وجدَ رجلًا ملقى على فرَاشه، جلِدًا على عَظْم، فَسلَّم عَلَيْهِ، فَأحْسن الرَّد وَأظْهر الْبشرَ وَسَأَلَهُ عَن حَاله وَمن أَي الْبِلَاد هُوَ؟ وَمَا الَّذِي جَاءَ بِهِ؟ فَأخْبرهُ خَبره، وَأنه إِنَّمَا جَاءَ يلْتَمس معالجة دائه.

لكنّه شعر بالحسرة والندم، وقال في نفسه: أهذا الذي قطعتُ إِلَيْهِ المفاوز الْبَعِيدَة وَركبتُ إِلَيْهِ البحارَ الخطرةَ، وخضتُ اللجج الهائلة حَتَّى وصلت إِلَيْهِ!؟

سأله الطبيب عن رحلته، وقال له: كم مَعَك من المَال؟ وَمَا جِئْت بِهِ من البضاعة؟

فقال في نفسه: الرجل عجوزٌ قعيدٌ، وهو مع ذلك يطمعُ في مالي!

لكنّه مضطّرًا أخْبرهُ بصدق.

فَقَالَ لَهُ العجوزُ: آخذُ مِنْك نصف مَا مَعَك، وأعالجك حَتَّى تستريح.

فَأجَابَهُ إِلَى ذَلِك، وَدفع إِلَيْهِ نصف مَا عِنْده فعالجه بأعشابٍ وأغذيةٍ، حتى برأ بإذن الله من تلك القُرح، ولاطفه حَتَّى ذهب عَنهُ الْأَلَم وَجَمِيع مَا كَانَ بِوَجْهِهِ

وَلم يبْق بِهِ شَيْء إلّا أن مَوضِع الدَّاء بَقِي أسود دون ألمٍ يجده فِيهِ.

فَقَالَ لَهُ الطبيب: لقد بَرِئَ داؤك وَذَهَبت علّتُك، وَقد اسْتَوْجَبتُ مَا أَخَذتُه مِنْك، فانصرف في حفظ الله.

فَقَالَ لَهُ: أَيهَا الْفَاضِل، أَو مَا ترى الْموضع قد بَقِي أسود مُخَالفا لَونه لوني وَكَيف يكون هَذَا الْبُرْء؟ وَكَيف تكون هَذِه الصِّحَّة وَكَيف تستوجب مَا أَخَذته مني ؟

فَقَالَ لَهُ: لم نشترط على نقاء اللَّوْن وَبَيَاض الْبشرَة، وَإِنَّمَا شارطتنا على ذهَاب الْأَلَم وحسم الدَّاء، وَلست أنظر لَك فِيمَا تريده من إِزَالَة هَذَا السوَاد إلّا بِأَن تدفع إِلَيّ النّصْف الثَّانِي من مَالك.

فَقَالَ لَهُ: أَيهَا الْفَاضِل، أَنا رجل غَرِيبٌ بعيدُ الدَّار ناءٍ عَن الْأَهْل، وَإِذا دفعتُ لَك النّصْف الثَّانِي بقيت منقطعا عَن أَهلِي ووطني، فَقِيرًا بِأَرْض غربَة عَالَة على من لَا يعرفنِي.

فَقَالَ لَه: لَا بُد لَك من أَن تُعْطِينِي مَا قلتُ لَك، وَإِلَّا لم أنظر لَك فِي شَيْء مِمَّا تُرِيدُ.

فَلَمَّا رأى الرجل أَنه لَا يجِيبه إِلَى معالجته وَالنَّظَر فِي أمره حَتَّى يُعْطِيهِ مَا سَأَل؛ أَجَابَهُ إِلَى مَا أَرَادَ وَوعده بأن يدفع إِلَيْهِ النّصْف الثَّانِي فعالجه حَتَّى ذهب عَنهُ سوَاده.

ولما نقِه دعا الطبيبَ إلى منزله، وأخرج إليه جميع ماله، وقال له: دونك المقاسمة المشروطة، فخذ مالي. فقال له الطبيب الهندي: أليست نفسُك تطيب بذلك؟ قال: بلى والله!

قال: فو الله لا أرزأك شيئًا من مالك، ولكنْ آخذ هذا الشيء. وأشار لشيء استحسنه من آلات بيته، وقال له: إنما جربتُك بقولي، وأردتُ أن أعرف قيمةَ نفسك عندك، ولو كنتَ أبيتَ ما كنتُ داويتُك إلّا بجميعِ مالك، ولو لم تداوها لهلكتْ، فإنها قد كانت قاربت الخطر.

ثمّ سأله:

مَا نحلتكم الَّتِي تنتحلون؟ وَمَا شريعتكم الَّتِي بهَا تتشرعون؟

فَقَالَ لَهُ: نَحن مُسلمُونَ.

فَقَالَ: وَمَا مُسلمُونَ؟ فَقَالَ: نَحن أمة مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم.

قَالَ: وَمَا مُحَمَّد؟

قَالَ: رجل من الْعَرَب، ثمّ من قُرَيْش؛ بَعثه الله تَعَالَى إِلَيْنَا رَسُولًا، وَاخْتَارَهُ صفيًّا أمينًا، فَبلّغ الرسَالَة وَأدّى الْأَمَانَة، وَذكر لنا أَن بَين أَيْدِينَا يَوْمًا يُبْعَث فِيهِ الْأَمْوَات، ويجازي فِيهِ بالسيئات والحسنات.

فَقَالَ لَه: وَكَيف أنتم فِي اتِّبَاعه؟ قَالَ: إِنَّا لنسلك فِي غير هَدْيه، ونترك كثيرًا من أمره.

قَالَ: وَالله يَا هَذَا مَا أَقُول بِمَا تَقولُونَ، وَمَا ردني كَمَا ترى جلدَة على عظم إلّا الفكرة فِي الْمَوْت خَاصَّة وَفِيمَا هُوَ، فَكيف لَو قلتُ بِمَا تَقولُونَ مِمَّا بعد الْمَوْت من الْحساب وَالْعِقَاب وَالْجَزَاء وَالثَّوَاب! مَا رَأَيْت أقلَّ عقولًا مِنْكُم. ثمّ انْصَرف. فحمدتُ الله- عزّ وجلّ- على نعمة العافية، وانصرفتُ. واشتغلتُ في رحلة رجوعي الطويلة بطلب العلم في شتى الأقطار، وروايات الكتب عن العلماء، فحصل لي علمٌ جمٌّ، وبورك لي فيه، وعدتُ لبلادي سالمًا غانمًا معافى، بعد تلك الرحلة الطويلة، وما حفّها من مشاهد وذكرياتٍ ([41]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -24-

# زامرٌ يختبر أهل اللغة

حكى الأديبُ أبو عبد الله الفهري، قال: دعاني يومًا رجلٌ من إخواني إلى حضور عرسٍ له في أيام الشّبيبة والطلب، فحضرتُ مع جماعةٍ من أهل الأدب، وحضر جماعة من المغنين وأهل الطبل والزمر، وفيهم ابنُ مقيم الزامر، وكان طيبَ المجلس، صاحبَ نوادر، فلمّا اطمأن المجلس وعمَّ السرورُ وساد الأنس، ورفرفت أعلام الفَرَحِ تُبهج النفس، وطاب المجلسُ بالمهنّين، وقدمت صواني الثرائد وعليها لحم الضأن، مع أرغفةٍ وزيتٍ وإدامٍ، وأطباق من التين وحبِّ الرُّمان مُحلى بالعسل، وجلسنا نتسامرُ، فطابَ السّمر؛ مال ابنُ مقيم الزمَّارُ إلينا وأقبلَ علينا، فخاطبنا بلسانٍ حُلوٍ وكلامٍ معسول: يا معشر أهل الإعراب واللغة والآداب، ويا أصحاب أبي علي القالي البغدادي، أريد أن أسألكم عن مسألة حتى أرى مقدارَ علمكم، وسعة جمعكم!

فقلنا له وقد غرّنا كلامُه وأصابنا شيءٌ من العُجْبِ والزهو: هاتِ بالله! قلْ وأعد يا طيب الخبر.

فقال: أيها الأدباء، بماذا تسمّى الدويبة السوداء، التي تكون في الباقلاء، عند أهل اللغة العلماء؟

فرجعنا إلى أنفسنا نفكّر، فوالله ما عرفنا ما نقول فيها، ولا مرّت بأذننا قط، وبُهِتْنَا، ثمّ قلنا له: ما نعرف.

فقال: سبحان الله ما هذا؟ وأنتم الضّابطون للناس لغتهم بزعمكم؟!

فقلنا له: أفدنا ما عندك. فقال: نعم، هذه تسمى البيقران.

قال الفهري: فتصوّرتْ والله في ذهني. وقلت: فيعلان من بقر يبقر، يوشك أن يكون هذا، وعددتُها فائدة، ودوّنتُها في رقٍّ كان معي، فالعلم صيد، والكتابة قيد، ويا لها من فائدة اقتنصتها، هي أشهى من الطعام والشراب والمنادمة!

ونهض الزامرُ عنَّا منتشيًا بما حقَّقه من نصرٍ وغلبة، ولم يخطر ببالي أن الزمَّار يخدعنا ويستخف بعقولنا!

فبينا نحن بعدَ مدّة عند أبي علي القالي، وكنت ملازمًا له، إذ سألنا عن هذه المسألة بعينها فأسرعتُ الإجابة ثقة بما جرى، وفرحًا بما لديّ، فقلت: تسمّى البيقران، فقال: مِن أين تقول هذا؟ فأخبرته بالمشهد الذي جرى فيها، والحال في استفادتها، فبُهتَ وقال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، رجعتَ تأخذُ اللّغة من

أهل الزمر! أهل الأدب يخضعون للزمّارين والطبالين! زمار يستحوذ على عقولكم!

لقد ساءني مكانك، وجعل يؤنبني، ثمّ قال: هي الدفنس، والدنفس.

قال الفهري يطيّب الحكاية: فتركتُ روايتي عن ابن مقيم، لروايتي عن أبي علي.

وأيقنت أنّ العلم لا يُؤخذ إلّا من بابه

وهل يأخذ الأدب من بوق زمَّار[42].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# موكبُ الأُدباء

# لِكُلِّ عالمٍ زَلَّة

وَفَدَ أبو عليٍّ القاليُّ- صاحبُ الأمالِي- على الأندلس قادمًا من بغداد، أيامَ الخليفة عبدِ الرحمنِ الناصرِ، الذي استدعاه ليعلّم أولاده وينشر أدبَه في ربوع الأندلس، وكانت الأندلسِ تستقطب الأدباء وغيرهم، فَلمّا جاز البحر سار حتى دنا من قرطبة أمَرَ الحَكَمُ- وليّ العهد- بإرسال وفدٍ يقدم في موكبٍ مع أبي عليٍّ إلى قرطبة من وُجُوهِ وأعيانِ رعيَّتِهِ، انتخَبَهُم من كرام الناس وخيرتهم من الوجهاء والأدباء تكرِمَةً لأبي عليٍّ، فَاستقبلوه بحفاوة بالغة، وساروا معهُ نحوَ قُرْطُبَة في موكِبٍ فخمٍ نبيل، يتذاكرونَ الأدبَ في طريقِهِم ويتناشدونَ الأشعارَ، وهم بين المروج والأنهار، والحدائق والأطيار، وعلى مدِّ البصر تراءت قصور قرطبة المنيفة وأبراجها العالية، وقبابها المذهبة، والرّكبُ في متعةٍ وسرور لا يوصَف، يتنزهون في حدائق الأدب وبين تلك الرياض المونقة، والحقول الناضرة، والسهول الممتدة، والتلال والجبال البعيدة التي تغطي قممها الثلوج البيضاء، وتكسوها الخضرة، فتبدو كعروس منتقبة بخمارها الأبيض تتبختر على رداء سندسي أخضر، والركب ماضون نحو قرطبة، مبتهجون بطرائف الأشعار، وبديع الحكايات والأخبار، وغريب الألغاز والأحاجي، ونوادر الطُّرف، إلى أن تَحَاوَرُوا وهم سائرونَ أدبَ عبدِالملكِ بنِ مَرَوَانِ ومساءلتهِ جلساءَهُ، عن أفضلِ المنادِيلِ، وإنشاده بيتَ عَبْدَةَ بنِ الطبيبِ، وفيه:

أَعْرَافُهُنَّ لأيْدِينا مَنَاديلُ

وكان الذاكرُ للحكايةِ ضيفَ الشرفِ الشيخَ أبا عليٍّ القاليِّ، فأنشدَ الكلمةَ في البيتِ: أَعْرَافُهُا، فأنكَرَهَا الأديب ابنُ رِفَاعَةِ الإلبيرِيِّ، وكان من أهلِ الأدبِ واللغةِ الذين خرجوا للاحتفال والاستقبال، وكان في خُلُقِهِ حَرَجٌ وغلظة، فاستعادَ أبا عليٍّ البيتَ مُتَثَبِّتًا مرَّتينِ، في كلتيهمَا أنشَدَهُ: أَعْرَافُهُا، فَلَوَى ابنُ رِفَاعَةَ عَنَانَ فرسه منصرفًا، وقالَ مَعَ هَذَا يُوفَدُ على أميرِ المؤمنينَ، وتُتَجَشَّمُ الرحلةُ لتعظيمِهِ، وهو لا يقيمُ وزنَ بيتٍ مشهورٍ بينَ الناسِ لا تَغْلَطُ الصُّبيَانُ فيهِ! واللهِ لا تَبِعْتُهُ خُطْوَةً! ([43]).

قل لمن يدعي في العلمِ معرفةً

عرفتَ شيئًا وغابتْ عنكَ أشياءُ

وانصرفَ عَنِ الجماعةِ، فأمرهُ قائد الموكبِ الأميري أن لا يفعلَ، فلم يجدْ فيه حيلةً.

فَكَتَبَ القائد إلى الحَكَمِ يُعَرِّفُه ويصفُ لَهُ مَا جَرَى لابنِ رفاعةٍ ويشكُو له سوء أدبه مع أديب المشرق، ويحرّضُه على معاقبته، لكنّ العجيب أن ولي العهد سُرّ بالأمر، وانشرح صدره بهذه المعركة الأدبية، فأجابَ على قائد الموكب الأدبي في زهوٍ على ظهرِ كتابِهِ: الحمدُ للهِ الذي جعلَ في باديةٍ مِن بَوَادِينَا مَنْ يُخَطِّئُ وافدَ أهلِ العِراقِ إلينا، وابنُ رِفَاعَةَ أولَى بالرِّضَا عنه مِن السَّخَطِ، فَدَعْهُ لشأنِهِ، وَأَقْدِمْهُ بالرَّجُلِ غيرَ مُنتقِصٍ مِنْ تَكْرِمَتِهِ، فسوفَ يُعْلِيهِ الاختبارُ، إن شاءَ اللهُ أو يحطُّهُ.([44]).

وشاء اللهُ أن يرفعه علمُه ويسمو به أدبُه، إذْ صار لأبي علي مكانته بين أهل العلم والأدب، وترك أثره الواضح على الأدب الأندلسي، وانتفع الناسُ بمجالسه وكتبه([45]).

وصدق ربُّنا- جلّ وعلا- إذ يقول ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: 76].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -26-

# زِرياب، وقصة المجدِ الزائف

كانت بغدادُ حاضرة العالم، وعاصمة العلوم والآداب أبّان الحقبة الأولى من الخلافة العباسية، شهدت قصورها ودورها من ألوان التّرف والرفاهية ما لم يشهدْه آنذاك مكانٌ آخر في العالم، وكان الاهتمام بالظُّرف والملابس والعطر والحُليّ والأطعمة والزينات أبلغ ما يكون، بل تحول من عادات وتجارب ومهارات وخبرات إلى علومٍ وفنون، حيث دُوّنت المصنَّفات في صنوف الأطعمة، وفنون الزخارف، والألحان والمعازف، والزهور والبساتين، حتى لبس الخواتم أُلِّف فيه.

وكانت مجالسُ الخلفاء تستقطب الأدباءَ والفنانين، الذين ينالون الحظوة عند الخليفة، ويشاركونه أسماره وشرابه، ويجلسون على موائده العامرة بأطايب الطعام والشراب، ويطارحونه النوادر والأحاجي، والحكايات.

في تلك الأجواء، عاش إبراهيم الموصلي عمرَه في منادمة الخلفاء فكان من المقربين، وبلغ به السعد أن نفحَه الخليفة مائةً وخمسين ألف دينار، في ليلة أنس وطرب وفي لحظة نشوة وسرور، فقد كان بارعًا في العزف، مبدعًا في الألحان، حاذقًا في الغناء، أديبًا متذوِّقًا، حصيفًا فصيحًا، سريع البديهة، حسن الجواب، ذكيًّا ألمعيًّا، بل كان موسوعةً أدبية متنقلة، يحفظ الأشعار والأمثال والحكم والنوادر، ويحسن استدعاءها من ذاكرته وتوظيفها فيدخل البهجة والسرور والأنس على الخليفة، بل كان يبتدع الحكايات، وينمقُها بالأشعار والألحان العجيبة، فكان واسع الخيال، ومن ثمّ فقد أصاب هذا المُغَنِّي ثراء فاحشًا، ونال جاهًا عريضًا.

فوق هذا كان يشتري القيان الحسان فيعلّمهن الأدب والظرف والطرب، ثمّ يبيعهن بأغلى الأثمان، حتى حُكِيَ أنه باع جاريةً بمائة ألف دينار، وكان الأغنياء والوجهاء من محبي الغناء يرسلون له الجواري الصغار ليعلمهنّ الأدب والغناء، فلم يكن عجيبًا يوم مات أن قدَّر ولدُه إسحاقُ ثروتَه التي خلَّفها بأربع وعشرين ألف ألف درهم!

في هذه الأجواء اللاهية، والتي يحفّز فيها المغنون، فينالون من الجوائز السنية ما لم ينله غيرهم، ويتصدرون مجالس الخلفاء، ويديرون أسمارهم، نشأ زرياب في بلاط الحكم ونال حريته، وكافح من أجل أن يتعلم، وكابد من أجل أن يتمرس على العزف والغناء، فكان تلميذًا نجيبًا في مدرسة أستاذه الذي كان يضنُّ بعلمه، حتى لا ينافسه فيه أحد، فلسفته في ذلك كما قال الشاعر:

أعَلَمُهُ الرِّمَايَةَ كلّ يَوْمٍ

فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وكم علّمتُهُ نظم القوافي

فلمّا قالَ قافيةً هجاني

نعم كان ضنينًا، لوْلا نباهة زرياب وحرصه على أن يسترقَ السمع ويختلس النظر ويقتنص الفكر حتى فاقَ في النهاية أستاذيه، إبراهيم وولده إسحاق.

كحال بعضِ أصحاب المهن، الخياط أو النجار، يحتفظ بسرِّ مهنته، حتى من فتيانه الذين يساعدونه، حتى لا ينافسوه يومًا، أو يتخلوا عنه، وينصرفوا، وهذا ضربٌ من الأنانية والأثرة، فتجد الخياط عندما يفصِّل ثوبًا، يتوارى عن صبيانه، حتى لا يفطنوا كيف يقطع الثياب، فذلك سر المهنة، الذي يضمن بقاءهم في خدمته وتحت سيطرته أعوامًا مديدة.

فاقَ زرياب أستاذه إبراهيم وولده إسحاق الذي لم يكن ملحِّنًا فذًّا ومغنيًّا عبقريًّا فحسب، بل كان يتّسم بالأدب والظرف اللائق بمجالس الملوك، ويتمتع بثقافة واسعة وحصيلة هائلة من النوادر والحكايات والحكم والأحاجي التي يلقيها في المجلس الذي يحلُّ ضيفا عليه كلّ مساء ومعه الجواري الحسان يغنين بألحانه، فيطرب الخليفة ويبتهج، ويُغدق من خزائن المسلمين على هذا البطَّال، وأمثاله ممّن لا يقدم فائدة للمجتمع، بل الغناء ملهاةٌ ومفسدةٌ، وأيُّ مفسدة!

لم يكن إسحاق مغنيًا وملحِّنًا فحسب، بل كان أديبًا واسعَ الثقافة، فلقد أنفقَ أبوه في تعليمه عشرات الألوف، فتعلم اللغة والأدب والغناء، بل تعلّم القرآن والحديث.

رغم هذا فاق زرياب أستاذَه إسحاق، وبزّه. فكانت له مواهب أخرى عجيبة لم تكن لأساتذته، كما أنه لم يكن صورة لهم ونسخة مكرّرة منهم، بل استفاد من غيرهم، فتعلم من «منصور زلزل» أسطورة اللحن والغناء وصاحب مقام المنصورية، تشرّب منه، وساعد زرياب على تألقه وتفرُّده أنه عاش هذا العصر الذهبي للغناء، فنهلَ من إبراهيم بن المهدي الذي كان موهوبًا ماهرًا في التلحين والعزف والغناء، وهو من إخوة الخليفة هارون الرشيد، استفاد منه زرياب أيّما استفادة.

وحدث ذاتَ يوم أن طلب الخليفة من إسحاق أن يأتي له بشيء جديد، فقد أصابه الملل والرتابة، فهل من صوتٍ جديد! فأشار عليه بزرياب! فقال الخليفة: مَن زرياب؟ قال: إنه غلامٌ لك، مازلتُ أعلمه حتى أتقن الصنعة.

قال الخليفة: وما الجديد؟

قال: سيعجبك يا مولاي، إن له نزعات حسنة، ونغمات رائقة، وهو من تلاميذي!

قال الرشيد متشوِّقا: هذا ما نبغي؛ فأحضره لي في الغد.

وفي الليلة التالية، قدّمه إسحاق الموصلي للخليفة الذي أصابه الملل والسآمة، ورغب في التنوع والتغيير، فجاء النديم بتلميذه النجيب، وليته ما جاء به؛ لقد سحب البساط من تحت قدميه، وشغل مكانه في قلب الخليفة.

فكانت تلك الواقعة التي يحدّث بها زرياب، والتي كانت سببًا في إبعاده ليس عن قصر الخلافة فحسب؛ بل عن بغداد مدينة الحضارة والجمال، بل ومن الشرق رمز السحر والخيال والأصالة إلى أقاصي الغرب، حيث بزغ نجمُه في أقصى الغرب وتألق في تلك الأمسية الصافية من أماسي قصور بغداد.

أدخله إسحاق على الخليفة فأعجبَ بسرعة بديهته وحضور جوابه، وزرابة لسانه، ولباقته في الجواب بأحسن منطق، وأوجز خطاب، سأله عن معرفته بالغناء، هل تحسن منه شيئًا؟

فقال: نعم، أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه، مما لا يحْسُنُ إلّا عندك، ولا يدَّخَرُ إلّا لك، فإنْ أذنتَ غنيتُك ما لم تسمعه أذنٌ قبلك. فأمر الخليفةُ بإحضار عود أستاذه إسحاق، فلمّا أدني إليه أحجمَ عن تناوله، فنظر إليه الخليفةُ متعجّبًا، وحدثته نفسه أنّ من أمامه لا يحسنُ ضرب العود! لكنْ زرياب لم يدعه لظنونه، بل قال له: لي عودٌ نحتُّه بيدي وأرهفتُه بإحكامي، ولا أرتضي غيره.

قال الخليفة هازئًا: ومن أين نأتيك بعودك أيها الفتى؟

قال يا سيدي: هو بالباب، فليأذن لي أميرُ المؤمنين في استدعائه. فأمر بإدخاله إليه، فلمّا تأمله الرشيد وكان شبيهًا بالعود الذي دفعه، قال له: ما منعك أن تستعمل عودَ أستاذك؟ فقال: إن كان مولاي يرغبُ في غناء أستاذي غنَّيته بعوده، وإن كان يرغبُ في غنائي فلا بدّ لي من عودي.

وهنا، احمرّ وجهُ إسحاق الموصلي، وبُهت مما رأى وسمع، وأُسقط في يده، وأسرّ في نفسه: لا عاش مَن ينافسني على أذن الخليفة!

قال الخليفة لزرياب وهو يحدّق في عوده يتفحصه: ما أراهما إلّا واحدًا!

فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدّي النظر غير ذلك، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومِن جنس خشبه فهو أخفُّ وزنًا؛ إذ يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها أناثة ورخاوة، وبُمُّها

ومثلثها ([46]) اتخذتهما من مصران شبل أسد، فلها في الترنم والصّفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها. فاستبرع الرشيد وصفَه، وأمره بالغناء، فجسّ عوده، وتأهّب، ثمّ اندفع فغناه:

يا أيّها الملكُ الميمونُ طائرُه

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتمّ النوبة، وطار الرشيد طربًا، وقال لإسحاق: والله لوْلا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك مِن أنك لم تسمعْه قبل؛ لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذْه إليك واعتنِ بشأنه، حتى أفرغ له، فإنّ لي فيه نظرًا. فسُقِطَ في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب صبره، فخلا بزرياب، وقال: يا علي، إنّ الحسد أقدم الأدواء وأدواها، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة، لا حيلة في حسمها وقد مكرتَ بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك، وقصدتُ منفعتَك، فإذا أنا قد أتيتُ نفسي من مأمنِها بإدنائك، وعن قليل تسقطُ منزلتي، وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنّك ولدي، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمتُ شيئًا على أن أُذْهب نفسك، يكون في ذلك ما كان، فتخيَّر في ثنتين لا بدّ لك منهما؛ إمّا أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبرًا بعد الأيمان الموثقة، وأُنهِضُكَ لذلك بما أردتَ من مال وغيره، وإمّا أنْ تقيم على كرهي ورغمي مستهدفًا إلي، فخذِ الآن حذرك مني، فلستُ والله أُبقي عليك، ولا أدع اغتيالك باذلًا في ذلك بدني ومالي، فاقض قضاءك.

فخرج زرياب لوقته، وعلم جِدّه على ما قال، وقدرته على ذلك، فاختار الفرار، فأعانه إسحاق على ذلك سريعًا، فرحل عنه، ومضى هائمًا يبغي مغرب الشمس، ومعه أهل بيته، واستراح قلب إسحاق منه.

وتذكّر الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسًا فيه، فأمر إسحاق بحضوره، فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين، ذاك غلام مجنون يزعم أن الجنّ تكلّمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعدله، وما هو إلّا أن أبطأتْ عليه جائزةُ أمير المؤمنين حتى رحل مغاضبًا ذاهبًا على وجهه مستخفيًا عني، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لممٌ يغشاه، فيهتاج ويفزع من رآه. فسكن الرشيد إلى قول إسحاق، وقال مُتأسِّفًا: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير.

ومضى زرياب إلى المغرب فنُسي بالمشرق خبرُه، إذْ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ونزعتْ إليه نفسه، وسمت به همته، فأَمَّ أمير الأندلس الحكم، وخاطبه وذكر له نزاعه إليه واختياره إيّاه، وأعلمه

بمكانه من الصناعة التي ينتحلها، وسأله الإذنَ في الوصول إليه، فسُرَّ الحكم بكتابه، وأظهر له من الرغبة فيه والتطلّع إليه وإجمال الموعد ما تمناه، فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركبَ البحر إلى الأندلس، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم، فهمّ بالرجوع إلى العدوة، وليته رجع «المغرب» فكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم إليه، فثنّاه عن ذلك ورغّبه في قصد القائم مقام الحكم، وهو عبد الرحمن ولده، وكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلّعه إليه والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عمّاله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصيّا من أكابر خصيانه أن يتلقّاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلًا، وأنزله في دارٍ من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيامٍ استدعاه، وكتب له في كلّ شهر بمائتي دينار راتبًا، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه- وكانوا أربعة: عبد الرحمن، وجعفر، وعبيد الله، ويحيى- عشرون دينارًا لكلّ واحد منهم كلّ شهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكلّ عيد ألف دينار، ولكلّ مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له من الطعام العام ما يشبع أهل بيته ودوابه، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار. فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلمَ أنْ قد أرضاه وملك نفسه؛ استدعاه، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه، فما هو إلّا أن سمعه فاستهوله واطّرح كلّ غناء سواه، وأحبه حبًّا شديدًا، وقدّمه على جميع المغنين، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام، وأدنى منزلته وبسط أمله، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فحرّك منه بحرًا زاخر، فأعجب الأمير به وراقه ما أورده، وحضر وقت الطعام فسرّه بالأكل معه هو وأكابر ولده، ثمّ أمر كاتبه بأن يعقد له صكًّا بما ذكرناه آنفًا، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبّه فتح له بابًا خاصًّا يستدعيه منه متى أراده.

وذاتَ يوم يطرب عبد الرحمن الأوسط لغنائه، ويعجب بظرفه، فيأمر له بجائزة سنية، ثَلَاثَة آلَاف دِينَار، فينطلق زرياب إلى بيته، وينقلب إلى أهله مسرورًا ويخرج الجائزة السنية أكبر جائزة في حياته، فيبتهج أهل بيته ويحيطون به، فينثرها عَلَيْهِم، وهُم يلتقطون الدنانير في سرور وحبور وطرب.

وتنتشر تلك القصة، فيستغلّها بعض الناس لإفساد ما بينه وبين الأمير، فيكتب إِلَيْهِ بِأَن زرياب لم يعظم فِي عَيْنَيْهِ ذَلِك المَال، وأنّه نثره على البساط، وقسمه فِي سَاعَة وَاحِدَة، وكأنه يزدري عطاء الخليفة.

فردّ الخليفة على ذلك الساعي، قائلًا: لقد نبّهت على شيء كُنَّا نحتاج التَّنْبِيه عَلَيْهِ، وَقد رَأينَا أنه لم يفعل ذَلِك إلّا ليحبّبنا لأهل دَاره ويغمرهم بنعمنا، وَقد

شكرناه، وأمرنا لَهُ بِمثل المَال الْمُتَقَدّم ليمسكه لنَفسِه، فَإِن كَانَ عنْدك فِي حَقه مضرَّة أُخْرَى فارفعها إِلَيْنَا.

ولما شاع أنّ السُّلْطَان الْمَذْكُور غنّى زرياب بَين يَدَيْهِ بشعرٍ أطربه فَأَعْطَاهُ ألف دِينَار ذهبيٍّ.. وعلم أَبُو مَرْوَان عبد الْملك بن حبيب السّلمِيّ الإلبيري فَقِيه الأندلس الَّذِي يضْرب بِهِ الْمثل في العلم، حيث رحل سنواتٍ لطلب العلم، ثمّ حجّ وَعَاد إِلَى الأندلس بعلمٍ جمٍّ وَجلّ قدره عِنْد سُلْطَان الأندلس عبد الرَّحْمَن الْأَوْسَط، وَعرض عَلَيْهِ قَضَاء الْقُضَاة فَامْتنعَ.

لما علم بذلك الفقيه أنشد:

ملاكُ أَمْرِي وَالذي أَرْتَجِي

هَيِّنٌ عَلَى الرَّحْمنِ فِي قُدْرَتِهْ

أَلْفٌ مِنَ الشُّقْرِ وَأَقْلِلْ بِهَا

لِعَالِـــمٍ أَرْبَـــى عَلَى بغيته

يَأْخُذهَا زرياب فِي دفْعَة

وصنعي أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهْ

وهكذا تحصدُ تلك النجوم الآفلة أضعافَ أضعاف ما يحصِّله أهل العلم، وغيرهم.

وذاتَ مرّة، يرفض أمين الخزانة موسى بن حدير تنفيذَ أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط بصرف مبلغ ثلاثين ألف دينار للمغنّي زرياب، فيردُّ على صاحب الرسائل الذي حمل الأمر «نحن وإن كنَّا خُزَّان الأمير أبقاه الله، فنحن خُزَّان المسلمين، نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم، ولا والله ما ينفذ هذا، ولا منَّا مَن يرضى أن يرى هذا في صحيفته غدًا، أن نأخذ ثلاثين ألفًا من أموال المسلمين وندفعها إلى مغنٍّ في صوت غناه، يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك مما عنده».

ولم يكنْ زرياب صاحبَ تأثيرٍ على الأمير الأندلسي وحاشيته فحسب، بل امتدّ تأثيره في حياة الأندلسيّين عامة، وأهل قرطبة خاصّة، ليس فقط في اللحن والغناء، وإدخاله وترًا خامسًا للعود فحسب، إنما كان في مجالات عديدة في ألوان الطعام، ونظام الموائد، واستعمال الأكواب والأطباق الخزفية، وحتى في الملابس وما يصلح منها لكلّ فصل من الفصول، هذا اللون وهذه الخامة صالحة للصيف، وهذا للشتاء، الحرير والصوف والكتان، بل جعل ملابس للربيع وأخرى للخريف، وحتى تصفيف الشعر، وباختصار كلّ ما يدخل فيما

يسميه الناس الآن فن (الإتيكيت والموضة أو الأناقة)، حتى قالوا عنه: كأنّه نقل بغداد بكلّ ما فيها إلى الأندلس.

علّمهم الشرب في الأواني الزجاجية، وكذلك اهتمّ بسفرة الطعام وغيّر طريقة تقديمهم للمأكولات حتى يقال إنّه نصحهم بالبدء بتناول الحساء "الشوربة» أولًا، ثمّ الدخول إلى الأطباق الأكثر تعقيدًا مثل اللحوم، والختام بالفواكه والفطائر المحلاة بالعسل والمحشوة باللوز، وأقبل الناس عليه مفتونين به، مولعين بفنونه.

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مبتدعاته وتقاليعه في المجتمع؛ أن شاع في المجتمع الأندلسي حبّ الترف والتأنق، والأخذ بمتع الحياة، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء وهو طريق اللهو والمجون، ولا شكّ أن ذيوع شهرة زرياب وعمق تأثيره في المجتمع عجّل بالنهاية، حيث الميل إلى الراحة والدّعة، واللهو والطرب، مما أفسد القلوب، وأعطب الهمم، وأقعد عن المعالي، وإن كان من حسناته أنه أدخل على الأندلس طرقًا جيدة في طهي الطعام واستعمال البهارات، كما أرشدهم إلى طرقٍ جيدة في التعطر، وكان له تأثيره في طريقة تقديم الطعام، واستعمال المفارش من الجلود أو من القطن والكتان، بدلًا من وضع الطعام على المائدة الخشبية، وطرائق أخرى مفيدة. فغلبت مساوئه محاسنَه، وطغت مفاسدُه، فكان بلا شكّ من معاول الهدم وعوامل الانهيار، فإن النفس إذا تعلقت بالغناء، وعشقت السهر وعكفت على الملذات وخلدت إلى الراحة والدّعة، فقل على الدّنيا السلام، وصدق الله تعالى إذ يقول (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)[الإسراء: 16]

بلغَ زرياب في الأندلس منزلة ملأت قلب رفاق مهنته حسدًا وإزراء لما هم فيه، حتى الذين فرّ منهم بالمشرق ليخلو الجوُّ لهم، يحكي أحدهم فيقول: كنت مع المأمون لما قدم الشام، فدخلنا دمشق، وجعلنا نطوف فيها على قصور بني أمية، فدخلنا قصرًا مفروشًا بالرخام الأخضر، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقي بستانًا، وفي القصر من الأطيار ما يغني صوته عن العود والمزمار، فاستحسن المأمون ما رأى، وعزم على الأنس والطرب، فدعا بالطعام فأكلنا وشربنا، ثمّ قال لي: غنّ بأطيب صوت وأطربه، فلم يمرّ على خاطري غير هذا الصوت:

لو كــان حولي بنو أميّة لم

ينطق رجال أراهم نطقوا

فنظر إلي مغضبًا، وقال: عليك لعنة الله وعلى بني أمية. فعلمت أني قد أخطأت، فجعلت أعتذر من هفوتي، وقلت: يا أمير المؤمنين، أتلومني أنْ أذكر

موالي بني أمية، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس، يركب في أكثر من مائة مملوك، وفي ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع، وإني عندكم أموت جوعًا!

ورويَتْ بغير هذا الوجه، ونصّها: وركب المأمون يومًا من دمشق يريد جبل الثلج، فمرّ ببركة عظيمة من برك بني أمية، وعلى جانبها أربع سروات، وكان الماء يدخل سيحًا، فاستحسن المأمون الموضع، ودعا بالطعام والشراب، وذكر بني أمية، فوضع منهم وتنقَّصهم، فأخذ علويه العود واندفع يغني:

أرى أسرتي في كلّ يومٍ وليلةٍ

يروح بهم داعي المنون ويغتدي

أولئك قومٌ بعد عزّ وثروة

تفانوا فإلا أذرف العين أكمد

فضرب المأمون بكأسه الأرض، وقال لعلويه: يا ابن الفاعلة، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلّا هذا الوقت! فقال: مولاكم زرياب عند موالي بالأندلس يركب في مائة غلام، وأنا عندكم بهذه الحالة! فغضب عليه نحو شهر، ثمّ رضي عنه([47]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -27-

# يهوديٌّ وفيّ

شهدت قُرْطُبَةُ ازدهارًا علميًّا في عهد الحكم بن عبد الرحمن الداخل، حتى كان فيها أَرْبَعَةُ آلاَفِ مقلّس؛ أي فقيه. وكان للفقهاء قلنسوة، وزِيٌّ يعرفون به، فازدانت قرطبة بتلك الكواكب النيّرة، وتألّقت، وكان من بين هؤلاء الفقهاء: طَالُوْت بن عَبْدِ الجَبَّارِ، جليلَ القدر بينهم، وصل لتلك المكانة العلمية بعد أن رحل لطلب العلم في ربوع الأندلس، ثمّ في الحجاز وغيرها، فغدا إلى المدينة وسمع من إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، وتفقّه على أصحابه، وكان قويًّا في دينه، شديد الغيرة، وكان من أشدّ المحرضين على خلع الأمير الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، حتى ثار العُلَمَاءُ على الحَكَمِ، وهَمُّواَ بِخَلْعِه لما ظهر من مجاهرته بالفسوق، وفساده، «فعَزَّ عَلَيْهِمُ انْتِهَاكُ الحَكَمِ لِلْحُرُمَاتِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ غَيْرُ عَدْلٍ، وَتَكَثُوْهُ فِي نُفُوْسِ العَوَامِّ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ لاَ يَحِلُّ المُكْثُ وَلاَ الصَّبْرُ عَلَى هَذِهِ السِّيْرَةِ الذَّمِيْمَةِ، وَعَوَّلُوا عَلَى تَقْدِيْمِ أَحَدِ أَهْلِ الشُّوْرَى بِقُرْطُبَةَ، وَهُوَ ابن أخيه أَبُو الشَّمَاسِ، لِمَا عَرَفُوا مِنْ صَلاَحِهِ، واستقامته، فَقَصَدُوْهُ، وَعَرَّفُوهُ بِالأَمْرِ، فَأَبْدَى المَيْلَ إِلَيْهِم وَالبُشْرَى بِهِم، وأسرَّ في نفسه أمرًا آخر. فَقَالَ لَهُم: أَنْتُمْ أَضْيَافِيَ اللَّيْلَةَ، فَإِنَّ اللَّيْلَ أَسْتَرُ، وَنَامُوا، وَقَامَ هُوَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ، فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِهِم، فَاغْتَاظَ لِذَلِكَ، وَقَالَ: جِئْتَ لِسَفْكِ دَمِي أَوْ دِمَائِهِم، وَهُمْ أَعْلاَمٌ، فَمِنْ أَيْنَ نَتَوَصَّلُ إِلَى مَا ذَكَرْتَ؟ فَقَالَ: أَرْسِلْ مَعِيَ مَنْ تَثِقُ بِهِ لِيَتَحَقَّقَ. فَوَجَّهَ مَنْ أَحَبَّ، فَأَدْخَلَهُم أَحْمَدُ فِي بَيْتِهِ تَحْتَ سِتْرٍ، وَدَخَلَ اللَّيْلُ، وَجَاءَ القَوْمُ، فَقَالَ: خَبِّرُوْنِي مَنْ مَعَكُم؟ فَقَالُوا: فُلاَنٌ الفَقِيْهُ، وَفُلاَنٌ الوَزِيْرُ، وَعَدُّوا كِبَاراً، وَالكَاتِبُ يَكْتُبُ حَتَّى امْتَلأَ الرَّقُّ، فَمَدَّ أَحَدُهُم يَدَهُ وَرَاءَ السِّتْرِ، فَرَأَى القَوْمَ، فَقَامَ وَقَامُوا، وَقَالُوا: فَعَلْتَهَا يَا عَدُوَّ اللهِ، فَمَنْ فَرَّ لِحِيْنِهِ، نَجَا، وَمَنْ لاَ، قُبِضَ عَلَيْهِ. ونكّل الحكمُ بهم، فقتَلَ منهم مَن قَتَلَ وفرَّ من فرَّ، وهاجر من هاجر، فكانت نكبةٌ عظيمةٌ، نَزَلَ مِنْهُم أُلُوْفٌ بِطُلَيْطِلَةَ، وَخَلْقٌ فِي الثُّغُوْرِ، وَجَازَ آخَرُوْنَ البَحْرَ، وَنَزَلُوا بِلاَدَ البَرْبَرِ، وَثَبَتَ جَمْعٌ بِفَاسَ، وَابْتَنَوْا عَلَى سَاحِلِهَا مَدِيْنَةً غَلَبَ عَلَى اسْمِهَا مَدِيْنَةُ الأَنْدَلُسِ، وَسَارَ جَمعٌ منهم زهاء خمسة عشر ألفًا، فَنزلوا الإِسْكَنْدَرِيَّة، وأمر الحكم بتغريب مَن بقي منهم، فكان ممن أمرَ بتغريبه الفقيه طالوت،شقَّ عليه الانتقالُ ومفارقةُ الوطن، ورأى الاختفاء إلى أن تتغيّر الأحوال، واستخفَى طالوتُ خوفًا على نفسِهِ عند جارٍ له يهوديٍّ، وَثِقَ بِهِ، فتقبَّلَهُ اليهوديُّ أحسنَ قَبُولٍ، حتى ظنَّ فتيانُهُ أنه أهلُ اليهوديِّ، ومكث عنده بأفضلِ حالٍ حولًا كاملًا، يكرمُه أبلغ الكرامة، ويعظِّمه أشد التعظيم ويحفظه، حتى خمدت الثَّائرةُ، وكانت بينه وبين أبي البسَّام الوزيرِ صلةٌ ومودةٌ قديمةٌ، فَعزم على أن يقصدَه ليأخذَ له الأمان.

فاستدعى اليهوديَّ وشكرَه على إحسانه إليه، وقال: له قد عزمتُ غدًا على الخروج والسير إلى دار فلان الكاتب لأنّه قرأ عليَّ، ولي عليه حقُّ التعليم، وقد بلغني أنّ له جاهًا عند هذا الرجل، فعساهُ يشفع لي عنده فيؤمِّنني ويدَعني في بلدي! فأظفر بحريتي، وأنعم براحة البال.

فساءَ اليهودِيُّ تحوَّلَهُ عنهُ، ونصَحَهُ على البقاء سلامةً له، قائلًا: يا مولاي لا تفعل فما آمنهم عليك! وجعل يحلفُ له بكلِّ يمين يعتقدُه أنه لو أقام عنده بقيةَ عُمُره ما أضجرَه ذلك ولا ثقُل عليه، لكنه أصرَّ وأبى إلّا الخروج، فخلّى بينه وبين ذلك، فخرج.

وقَصَدَ الوزيرَ الكاتبَ خِفْيَةً بين العِشَائَيِن، حتى أتى داره بغلسٍ، والظلام قد اختلط، دون أن يستوقفه أحدٌ أو يشعر به أحدٌ، فاستأذن عليه فأذن له، فلمّا دخل عليه رحَّب به وأدنى مجلسه، وأتحفه، وسأله أين كان متخفِّيًا في هذه المدة؟ فقصَّ عليه قصّته مع اليهودي وأخبره بخبره، وأظهرَ الفرحَ والقَبُولَ والانبساط، وصوَّب رأيَهُ في انتقالِهِ إليه، وأحسَّ الفقيهُ طالوتُ بالأمان، فقال: له اشفع لي عند هذا الرجل حتى يؤمنّني في نفسي، ويمنّ علي بتركي في بلدي! فقد كبُر سِنِّي ووهن العظمُ مني. فوعده الشفاعةَ لهُ، وبادرَ بالركوبِ في وقتِهِ، وقد وَكَّلَ به من يتولى أمره.

فَلمّا دخل على الأمير، قَالَ له بخبثٍ: مَا رَأْيُ الأَمِيْرِ فِي كَبْشٍ سَمِيْنٍ عاكف عَلَى مِذْوَدِهِ منذ سنةٍ يلذُّ مطعمُه؟

فَقَالَ الحَكَمُ: لَحْمٌ ثَقِيْلٌ! مَا الخَبَر؟

قال: هذا طالوتُ؛ رأسُ المنافقين عندي، قد أَظْفَرَكَ اللهُ به، ووشى إليه كلّ ما سمع من طالوت.

قال: قمْ فعجِّل به. وَوَثَبَ فَجَلَسَ على كُرْسِيٍّ ببابِ مجلِسِهِ، يفرك يديه، ويعضُّ على شفتيه، يتوقَّدُ غَيظًا عليه، وينتظرُه بفارغ الصبر، بينما يفكر في كلّ وسيلة للتنكيل به والانتقام منه.

فلم يلبثْ أن أُدخلَ طالوتُ عليه، فَجَعَلَ يؤنِّبُه ويعاتبُه، ويقول: أَخْبِرْنِي لَوْ أَنَّ أَبَاكَ أَوِ ابْنَكَ مَلَكَ هَذِهِ الدَّارَ، أَكُنْتَ فِيْهَا فِي الإِكرَامِ وَالبِرِّ تزيدُ عَلَى مَا كُنْتُ أَفْعَلُ مَعَك؟

أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا؟ أَلَمْ أَمْشِ فِي جَنَازَةِ امْرَأَتِكَ، وَرَجَعتُ مَعَكَ إِلَى دَارِك؟

ما حملك على ما قابلتَ به إحساني؟ ولم ترضَ منِّي إلّا بخَلعِ سلطانِي؟ وسعيتَ لسفكِ دمِي، واستباحةِ حرمتي!

فَقَالَ الفَقِيْهُ فِي نَفْسِه: لاَ أجِدُ لي في هذا المقامِ أنْفعَ مِنَ الصِّدْقِ. فَقَالَ للأمير: إِنِّيْ كُنْتُ أُبغِضُكَ للهِ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ مَا صَنَعْتَ مَعِيَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِنِّيْ لَمُعْتَرِفٌ بِذَلِكَ أَصْلَحَكَ الله.

فسُرِّيَ عن الأميرِ وَسَكَنَ غيظُه، وامتلأ قلبُه رقة.

فقال: والله لقد أحضرتك، وما في الدنيا عذاب إلّا وقد عرضتُه، أختارُ بعضَه لك، وقد حيل بيني وبينك، فأنا أُعْلِمُك أنّ الذي أبغضتني له صرفَني عنك، فانصرف في أمانِ اللهِ تعالى، وانصرفْ حيث شئتَ، وارفع إليَّ حاجتَك، فلم تعدِمْ فيَّ بِرًّا، فيا ليت الذي كان لم يكن.

فقال له طالوتُ: صدقتَ، فلو لم يكن كان خيرًا لك، ولا مردَّ لأمر الله.

فعفا عنه وقدّمه وقرّبه. أمّا الوزيرُ الخائن الغادر، فقد سأل الحكمُ طالوتًا بعد أن أمَّنه في ذلك المجلس، كيف ظفر بك صاحبُك الوزيرُ؟

قال: أَنَا أَظْفَرْتُهُ بِنَفْسِي، وَقَصَدْتُهُ عن ثقةٍ، لوصلةٍ بيني وبينه، ليشفعَ لي عندك، فكان منه ما رأيتَ! فقال له: فأين كان مثواكَ قبْل؟

قال: كنتُ مستخفيًا في بيت يهودي.

فاغتاظ الحكمُ، ونظر للوزيرِ بحنقٍ وغلظةٍ، وصرخ قائلًا: سوءةً لك! أيها الغادر.

رجل من أعداء الملة حفظ لهذا الشيخ محلَّه في الدين والعلم، فخاطر بنفسه ليحميه، وغدرت أنت! وهو مِن خيار أهل ملّتك.

وأردتَ أن تزيدنا فيما نحنُ قائمون عليه، في سوء الانتقام.. وسفك الدماء!

لا أرانا الله في القيامة وجهه، إنْ رأينا لك وجهًا.

أخرج عني قبَّحك الله، ولا أرى وجهك.

وعزله عن وزارته، وطرده من منصبه، وكتب عهدًا أنْ لا يخدمه أبدًا، وقطع أرزاقَه جزاء غدره وخفره للذمة، وتنكُّره للجميل، وخيانته لمعلِّمه.

وعفا الحكمُ عن الفقيه طالوت، بينما انقلب حقدُه إلى الوزير الغادر الواشي.

وطُويتْ في بيت الوزارة مراتبُه، فسقط آخرَ الدهر، وذهب عقبُه، ومازالوا في ارتكاس وخمول جزاءَ خيانته.

فرؤي أبو البسّام بعد ذلك في فاقة وذل، حتى قيل: استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت.

أمّا اليهوديُّ المحسنُ فقد كافأه الأميرُ، وزاد في إحسانه، حين سمع عن مروءته وشهامته، فلما رأى اليهودي ذلك، أسلم وحسُن إسلامه، فقاده ما قدّمه من إحسانٍ إلى الدخول في جنّة الإيمان.

وصدق ابن حزم: «أوَّلُ من يزهدُ في الغادِرِ من غَدَرَ له الغَادرُ، وأولُ من يمقُتُ شاهدَ الزُّورِ من شَهِدَ له به، وأوَّلُ من تهونُ الزانيةُ في عينِه الذي يزني بها»([48]).

## -28-

# انظر لمن هو أسوءُ حالًا

في قرطبة عاش عبد الرحمن بن مروان الأنصاري زاهدًا صوّام النهار، قوَّامَ الليلِ، وكان أثناء رحلته لطلب العلم راضيًا بالقليلِ من الحلال، ورُبَّمَا اقتاتَ بما يرمِيهِ الناسُ من أطراف البقلِ، وما أشبه ذلك، ولا ينحطُّ إلى مسألةِ أحد.

قال رحمه الله: كنتُ بمصر أطلب العلم، وشهدت صلاة عيد الفطر مع الناس، فانصرفوا مع أهليهم مسرورين بما أعدُّوه لهذا اليوم من المباهج والأطايب والمسرّات، وانصرفتُ وحدي إلى غير وجهة، فقلتُ أسيرُ على ضفة النيل، أمتِّع ناظري بجماله، فجلست على صخرة عالية، أنظر له وهو يجري بلونه الفيروزي، والمراكب بشراعها البيضاء تغدو وتروح، وعلى جانبيه تمتدُّ الحقول الناضرات إلى المدى البعيد، وعلى شطئانه سطور النخيل الباسقات، وغابات الموز تغطي تلك الجزر النيلية، وبساطة القرى المشرفة على النيل، ببيوتها الطينية المتواضعة، وليس ببعيد عنها دور الأثرياء العالية الواسعة، منظرٌ خلابٌ ذكّرني بأجواء العيد المبهجة في قرطبة عروس الأندلس، والصلاة في جامعها الكبير، واحتشاد الناس بألوان العيد الزاهية في المتنزهات التي من أجملها منية الرصافة التي غرس فيها عبد الرحمن الداخل شجرة الرمان الشامية، والتي عرفت فيما بعد بالرمان السفري، ومنية الجنة، وغيرها من الرياض المونقة التي يؤمُّها الناس في الربيع والأعياد، فضلًا عن الاستمتاع بمنظر واديها الكبير، والسفن تجري فيه، وغابات الزيتون التي تمتدُّ إلى المدى البعيد، وحدائقها وملاعبها، وخلف هذا المشهد قصور الملك، بقبابها المذهَّبة، وأبراجها العالية. ذرفت عيني، عندما تذكرتُ أيام الصبا، وملاعب الطفولة، مع أترابي، قبل أن أرحل إلى القيروان، وآتي إلى مصر.

ولله درُّ الشاعر:

وأذكر أيامَ الحمى ثمّ أنثني

على كبدِي من خشيةٍ أن تقطَّعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتُها

عَن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

فليست عشيّاتُ الحمى برواجع

إليك ولكن خلّ عينيك تدمعا ([49]) وأنا اليوم وحدي ليس معي ما أفطر عليه إلّا حبات من التّرْمُس بقيت في جيبي، فأشرفتُ على الشّط، وأخرجتُ صُرةً بها

حباتُ الترمس الأصفر، الذي اعتاد المصريون أكله في العيد بعد نقعه في الماء مرّات عديدة، لتذهب ملوحته، ثمّ تخليله بالملح، وربّما أضافوا عند أكله الشطة والليمون، وجعلت آكله وأرمي بقشره إلى مكانٍ منخفض تحتي، وأنا أتأمّل في الماء الجاري وأسلي فؤادي بمنظر المراكب الجارية، وقد رفرفت على صواريها الأعلام والبيارق بألوان الزينة، تحملُ الصغار والكبار، والرجال والنساء في نزهاتٍ نيلية، فكّرتُ في حالي، حنَّ قلبي لأهلي الذين تركتُهم في الأندلس، وقلتُ في نفسي: تُرى إن كان اليوم بمصر في هذا العيد أسوأ حالًا مني؟

الناس في بهجةٍ وسرور، يتهادون زُرافات في أجمل الثياب، ينعمون بأكل ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، ويتزاورون في فرحٍ وحبور، والفتيات يغنين، والأطفال في مرح ولهْو، وأنا ها هنا أجلسُ وحيدًا غريبًا، لا أجد ما أفطر عليه إلّا حباتٍ من الترمس!

ولما اشتدّ حرُّ الشمس نهضتُ ونفضتُ ما في حجري من قشر الترمس، ورفعتُ رأسي نحو الشاطئ الآخر من النيل قصورًا ودورًا عامرة بالبهجة والمسرَّات، ثمّ وقع نظري نحو الشاطئ الذي ينحدرُ من تحتي، فأبصرتُ العجب، رجلٌ يلتقطُ قشرَ حباتِ الترمس الذي أطرحُهُ ويأكلُهُ هانئًا مبتسمًا بثيابه الرثّة وحالته المُزرية، فعلمتُ أنه تنبيهٌ من اللهِ عز وجل، وشَكَرْتُهُ جلّ وعلا.

وحضر في ذهني روايةٌ فيها وصيةُ النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي ذر -رضي الله عنه- « ... انْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ وَلا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرِي نِعْمَةَ اللَّهِ عِنْدَكَ »([50]).

وصدق مَن قال:([51]) مَنْ شَاءَ عَيْشًا هَنِيئًا يَسْتَفِيدُ بِهِ

فِي دِينِهِ ثمّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالَا

فَلْيَنْظُرَنَّ إلَى مَـــنْ فَوْقَهُ أَدَبًا

وَلْيَنْظُرَنَّ إلَى مَنْ دُونَهُ مَالَا(2) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -92-

# حجلة

# كرامة عالم مجاهد

كنتُ في إحدى الغَزَوَاتِ شمال الأندلس، ثمّ قفلنا مِنْ بَلَدِ العَدُوِّ ومَعِي رفيقٌ لِي، سائرينِ على الأقدام نحو الجنوب في طريق عودتنا، تهفو أرواحُنا لبلادِ الإسلامِ، التي تبعد عنا عشرة أميال.

تخلَّفنا عن العسكر الذي سبقنا بأميالٍ، ونحن نغُذُّ السير أملًا في اللحاق بهم.

قرّرنا أن نشقّ طريقنا في غابة كثيفة حذرًا من قطاع الطرق الذين ينصبون كمائنهم على الطريق المعبد، الذي يسلكه في العادة المسافرون والغُزاة، واختصارًا للوقت.

كان الطريق وعرًا موحِشًا، تارة نصعد جبالًا مرتفعة، وتارة ننحدر نحو سهول وأودية تغطيها أشجار الصنوبر والبلوط والأرز والدُّلب، وغيرها.

مضى النهارُ وأقبل الليل، ونحن نسرع بلا توقف، لا نستطيع أن نبيت في هذه الأرجاء غير الآمنة، خيّم الظلام، وضرب رواقه، وجلسنا لنلتقط أنفاسنا ونستريح قليلًا بجوار صخرةٍ كبيرة، ناولني صاحبي شطيرة خبزٍ جافّ، وقدحًا من الماء، أخذت قضمة منها مع جرعة ماء تساعد في ازدرادها، مضى الوقتُ، أخذنا قسطًا من النوم، وانتبهتُ. عيناي تدوران في المكان، وروحي تسبحُ في الأفق البعيد، كانت السماءُ حالكة الظلام، وسرعان ما غاب القمر، وبدت النجوم المتناثرة أكثر تألُّقًا، حتى استحالت السماءُ إلى خميلة سوداء مرصعةٍ بالزمرُّد والماس والياقوت، راقني هذا المنظر الساحر حتى تمنّيت أن أبيت في هذا المكان المرتفع أرصد النجوم وأمْعن النظر في هذا الجمال الأخّاذ، لولا ما خالجني من روْعة تلك الكتل الحالكة السوداء، وصوت تساقط أوراق الشجر اليابسة، وحفيف الأشجار التي تغازل رياح الشمال أغصانها فتهتزُّ كالأراجيح. وقعقعة أوراق الشجر وأعواده اليابسة، مع حركة بعض القوارض التي تنشط بالليل، بحثًا عن الطعام، ومطاردة السنانير لها، أو انقضاض البوم عليها. هبّ صاحبي قائمًا، وأخذ بيدي ومضينا نشقّ طريقنا بين أشجار السرو التي تعرقل مسيرنا بأغصانها المتشابكة، وعلى مقربةٍ تظهر لنا الأشجار كأنها أشباحٌ زاحفةٌ نحونا، ومما زاد الأجواء رهبةً نئيم البوم فوق أغصان الأشجار غير بعيدٍ منّا، وصوت عواء الذئاب يتردد صداه من ناحية الجبال، منسجمًا مع صوت ضفادع ساهرة على حفرة ماء، يتجاوب نقيقها مع صرير جنادب كأنهم فريق زمِرٍ جمعهم عرسٌ.

وعلى مرمى حجرٍ انتصبت أشَجار العوسج والعليق متحفزةً كمن ينتظر لحظة الانقضاض. كلّ شيء في الظلام يبدو مخيفًا.

ومن وراء هذا المشهد المهيب تتراءى الجبالُ معتمة حالكة، يلفُّها الظلام كأرملةٍ تتشح بالسواد، تتوارى في صمتٍ خلف ستارٍ أسود في حجرتها المظلمة، لكنّها ترقبنا عن كثبٍ، ترى أيُّ عيون وحشية تراقبنا الآن؟ وأيّ خطر يحدّق بنا، قررنا النهوض والمضيّ، لا ندري من أين نؤتى؟ ومشينا بلا توقف، لكن الذي بثّ السكينة في قلوبنا تلاوتنا للقرآن، أمّا الدعاءُ فملاذُنا الآمن وسلاحنا المضَّاء، بينما الذكرُ نديمُنا الذي لا يفارقنا، وقنديلنا الذي يضيء لنا حنادس الظلام.

أبصر صاحبي عن يمينه ثمرات توتٍ بريّ تلمع بلونها الأحمر والأسود، شجيرات متجاورة، قام بجني ثمراتٍ ناضجة، وناولني فتذوقتُها، وأكلتُها جميعًا، كانت حُلوة لذيذة.

وأخيرًا لاحت أنوار الفجر، لنرى الكون بلون أزرق قاتم، يتفتح رويدًا رويدًا.

فتوقّفنا إلى جانب واحةٍ صغيرة، يسري فيها جدولُ ماء عذب رقراق، فتوضأنا وارتوينا وصلينا، ثمّ تابعنا المسير، وقد لاح نورُ الصباح، وارتفعت راياتُه، منتصرةً على جيوش الظلام، ودياجير العتمة، وأُسدل الستار على مشهد الليل الرهيب، وانسحبت طيورُ الليل، وحشراته المزعجة تستكنُّ إلى أوكارها وتلوذُ بجحورها، واستيقظت العصافير لتبدأ يومَها الجديد، وبدأت البلابلُ في التغريد، وتسابقت السناجبُ على الأغصان في بهجة وحبور، صباح مشرقٍ وضاء، وصور ومشاهد مبهجة، وسماء زرقاء صافية، تُحلّقُ فيها طيورُ السنونو في أسرابٍ مهاجرة نحو الجنوب، بينما يسبحُ سربٌ كبيرٌ من الإوز الأبيض المهاجر على رأسه أوزة بنيّةُ الجناحين لها عنقٌ رماديّ طويلٌ يزينه طوقٌ ذهبي، تقود سربها نحو الجنوب، هربًا من شتاء الشمال القارص. نظرت لسرب الأوز وغبطته على تلك الأجنحة الخفّاقة التي تقله في جوّ السماء مئات الأميال، وتخيلت لو كنا نملك مثل تلك الأجنحة لطرنا بها إلى غرناطة من فورِنا، وحلقنا فوق الحمراء، نطوف فوق مآذنها العالية ونحوم حول قبابها الجميلة، وتخفق أجنحتنا فوق الأبراج العالية، وترفرف فوق الأسوار العتيقة، وتحوم حول أسواق القيسارية، ثمّ نهبط بسلام فوق أسطح منازلنا، بحيي البيازين، ومن السلم الخشبي إلى صحن الدار حيث الزوجة والأبناء في الانتظار.

ألم يقلْ مجنون ليلى:

بكيْتُ على سِرْبِ الْقَطا إِذْ مَرَرْنَ بي

فَقُلتُ، ومِثْلي بالبُكـــــاء جُديرُ

أَسِرْبَ الْقَطا، هلْ مَنْ يُعيرُ جَناحَهُ

لَعلِّي إِلى مــن قَـــد هَويتُ أَطِيرُ

قطع حبلَ أفكاري صوتُ نقّار الخشب يضرب بمنقاره غصن شجرة صنوبر عتيقة كأنه المطرقة، فهل يدرك أنه بهذا العمل الفذّ يقدم خدمة جليلة للسناجب الرمادية، حيث تتخذ من تلك الحفر بيوتًا لها ومخازن لمئونة الشتاء، بينما يغني الزرزور مبتهجًا بنور الصباح، ويبني العصفور الدوري عشه بأعواد القشّ التي يجلبها من حقول القمح المحصود، داعبتني نسائم الصبح العليل بعبقٍ شذيٍّ ينبعث من روائح ورق أشجار الحور، مع نكهات الأعشاب الرطبة، الممزوجة بعبير زهور برية، ورائحة أوراق الصنوبر المنتشرة فوق الزعتر والفِطر المنتشر على جذوع الأشجار، والرياحين البرية المتناغمة مع العشب النديّ، كلّ هذا المزيج، كأن يد عطّارٍ حاذقٍ صاغته طيبًا ينفح نسيم الصبح بعبقٍ شذيٍّ يفغم أنوفنا فينعشنا، بل وينسينا عناء الليل ورهبته، لولا ما أدركَني من الضعفِ والإعْيَاءِ لشاركت تلك الأطيار شدوها الجميل في عرسها البهيج، فما زلت أذكر ما حفظته في صغري من موشحات الطبيعة وأهازيج الطفولة.

مشهدٌ رائع، وجوٌّ منعشٌ، وصباحٌ جميلٌ استدعى من الذاكرة تلك الأبيات التي كنا نحفظها صغارًا: فشدوتُ:

(طَابَتْ بِطِيبِ لَثَاتِكَ الأقداحُ

وَزَهَتْ بِحُمْرَةِ وَجْهِكَ التُّفَاحُ) (وإذا الربيعُ تنسَّمتْ أرواحُهُ

نمَّتْ بِعَرْفِ نَسِيمِكَ الأرواحُ)

(إن للجَنَّـــــــةِ بالأندَلُـــسِ

مُجْتَلَى عَيـــنٍ وريَّـــا نَفَسِ)

(فَسَنَا صُبْحَتِها مـــِن شَنَـبٍ

ودُجَـــى ليلتِهـــا من لَعَسِ)

(فإذا مــــا هبَّت الريــــحُ صِبا

صِحْتُ واشوقِي إِلى الأندلسِ)

ابتسم صاحبي، وأخذ ينكتُ الأرض بعود صغير، ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال:لا بدّ أنّ الفقيه أبا بكر بن القوطية عاش هذه اللحظات حين نظم: (ضحِكَ الثَّرَى وبدا لك استبشارُه

فاخضرَّ شاربُه وطرَّ عِذَارُه)

(ورَنَتْ حدائقُهُ وزرَّر نبتُهُ

وتعطَّــرتْ أنـوارُهُ وثمارُه)

(وتعممت صُلَعُ الرُّبَى بنَبَاتِهِ

وتَرَنَّمَتْ مِنْ عُجْمَةٍ أَطْيَارُهُ) واصلنا المسير يزفّنا المرح بالطبيعة الخلابة والأنفاس العطرة، ويحملنا الشوق للوطن والأهل، حيث نقترب من الديار رويدًا رويدًا، بعد أميال قطعناها في اتجاه الجنوب، لكن قدماي تثاقلت، وخُطاي تقاربت، وأنا أتحامل على نفسي تارة وعلى صاحبي أخرى، حتى خارت قواي فسقطتُ على الأرضِ، فاقد الوعي.

فانكبّ عليّ رفيقِي يعانقني ويبكي، ثمّ سكب قطرات من الماء البارد على وجهي، فلم تنجح في إنعاشي، فذهب وأحضر طاقة من زهور الخزامى قرّبها لأنفي أشمّها فأنعشتني قليلًا، فترجّاني أن أنهَضْ حتى نلحق بعسكرِنا، قائلًا: إنَّ هذا موضعٌ مَخُوفٌ، ولا نأمَنُ مَا يَلْحَقُنَا فيهِ مِنْ شُذَّاذِ عَسْكَرِ العدوّ وسُفَهَائِهِمْ، أو من ملاحقة النصارى لنا.

فقد كانت عصابات مرتزقة منهم تكمن خلفَ الأشجار تترصد غفلة العائدين فرادى من الغزو، فتنهبهم وتقتلهم.

لقد كان الشيخ ذا مكانةٍ وفضل، وكان خطيبًا بجامِعِ غِرْنَاطَة، مع ذلك آثر الخروج للغزو علي قَدَمَيهِ ابتغاءَ الأجرِ، وشارك مع هذا في غزواتٍ كثيرة، «وكان كريمَ الطِّبَاعِ سَرِيَّ الهِمَّةِ، في غايةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ، والتزام سَنَنِ الصالحين والجَرْيِ عَلَى مَنَاهِجِهِمْ والاقتِفَاءِ بسبيلِهم، والإكبابِ على ما يَعْنِيهِ مِنْ تدريسِ العلمِ ونشرِهِ، قليلًا المُخَالَطَةِ للناسِ». كما كان رحمه الله «من جِلَّةِ المقرئين المجوِّدِين، ذا حظٍّ وافرٍ من روايةِ الحديثِ، زاهدًا فاضلًا خيِّرًا، مشهورًا بإجابةِ الدَّعَوَاتِ».

- انهض يا شيخنا، لا وقت للتواني. قال صاحبي بينما يحاول أن يساندني بكلتا يديه.

- لا أقدرُ علَى ذلكَ بِوَجْهٍ. (قلتُ بصوتٍ خافت).

- ليتني أستطيع أن أحملك! فكيف الخلاصُ؟ (قالها بصرخةِ ألم).

- لو أكلتُ شيئًا من لحمٍ أتقوّى به! فإن جسدي مُنهكٌ وقُواي واهنة.

- أَوَ موضعُ لحمٍ هذا! ومن أين يوجد؟ هكذا أجاب رفيقي متعجِّبًا.

- لعلّ اللهَ ييسِّرُهُ لنا. (خرجتْ منِ فمي بثقة).

فَجَعَلَ صَاحِبِي يلتفتُ يمينًا وشِمَالًا، مترقِّبًا؛ مخافةَ أن يلحقنَا قطاع الطريق أو فلول الأعداء، وكان بالقربِ منّا صخرةٌ عظيمة، نظر إليها صاحِبي، لعله يجد غذاءً نتقوّى به، جال ببصره هنا وهناك، ثمّ حدجَ صخرة عظيمة بنظرة ثاقبةٍ، فوقع بصرُه على شيءٍ نابضٍ يضطرب، فَنَهَضَ إليه مسرعًا، فإذا هو حَجلَةٌ سمينة تحاول الخلاص من فَخٍّ قديم نصبه أحدُ الصيادين، وقد نَشِبَتْ في خيوطه، غرّتها حَبّات من القمح منثورة حول الفخِّ، فوقعت الحجلةُ فيه ولم تستطع التخَلّصَ منهُ، فَقَبَضَ عليها صاحِبِي بسهولةٍ، وخلّصها من الخيوط التي التفت حول رجليها، ثمّ أخرج مُدْيَتَه وشحذها في صخرةٍ، وذبح الحجلة مسميًا ومكبّرًا، ثمّ نتف ريشها، وأخرجَ زِنَادًا كانتْ بجيبه وَقَدَحَ بها نَارًا، وجَمَعَ شيئًا من الحَطَبِ فأذكاها، وَشَوَى تِلْكَ الحَجْلَةَ، وقرَّبَهَا إِليَّ مع شيء من البقل الأخضر، اقتطفها من جانبِ ربوةٍ قريبة، وكسرة خبزٍ يابسة بقيت معنا، فأطعمني هذا الشواء اللذيذ، فلما شبعتُ قوِيَتْ نفسْي، فقمتُ بخفّةٍ ونشاط، ومَشَينا مسرعين حتى لحقنا بالعسكرِ، وسرْنا معهم حتى وصلنا مدينتنا، وانقلبنا إلى أهلينا بسلام([52]).

# همسات في أذن طالب العلم

إلى مُرسِيَة رحل أَبُو بَكْرٍ الْكَاتِبُ الْجَلِيلُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْمُرْخِيِّ([53]) «أحَدُ رِجَالِ الْكَمَالِ بِالأَنْدَلُسِ عِلْمًا وَأَدَبًا وَشَرَفًا وَمَنْصِبًا»، وأخذ عن الفقيه المحدث أبي علي الصدفي، ([54]) وهو من مشاهير حفاظ الحديث في الأندلس، وأطولهم رحلةً في طلب الحديث، وكان من أكمل الناس بِالأَنْدَلُسِ عِلْمًا وَأَدَبًا وَشَرَفًا وَمَنْزِلًا.

له قصة مؤثرة مع شيخه رحمهما الله، قال: تعشّيتُ ذات ليلةٍ عند أحدِ أصدقائي الأثرياء من أهل مُرسِيَة، فخشيتُ التُّخْمَةَ لكثرة ما تناولت من ألوان الطعام، فقلتُ في نفسِي: غدًا أصوم. ثمّ نهضتُ إلى القراءةِ؛ يعني على الفقيه الأديب المحدِّث أبي عليٍّ الصدفي.

وقلتُ للشيخِ تعشَّينَا الليلةَ عند فلانٍ، فامتلأ بطني بأطايب الطعام ولذيذ الشراب، وأخشَى على نفسي من التُّخْمَةَ، فعزمتُ على أن أصومَ غدًا. فتغيّر وجهُهُ وعلاهُ الوجومُ، وقال: يا محمد، هلّا قلتَ لا آكلُ غدًا شَيئًا حتى يخِفَّ بطني؟ تَمُنُّ على اللهِ بمداواةِ تُخْمَتِك!

قد كان بعضُ من صحبتُ بمكة شرَّفها اللهُ من الأشياخِ من أهلِ الفضلِ له في داره أحواض، فكانت أهلُه لقلةِ الماء بمكةَ إذا وضعت له وضوءَه توخَّت وضعه على الحوض، رجا أن يسيلَ ماءُ وضوئِه في الحوض، فكان يأخذ الماء فيتوضأ في موضع آخر، وكان يقولُ أكرهُ أن أخلطَ مع وضوئِي عملًا آخرَ.

وغرض الشيخ من هذه القصة تجريد النية لله تعالى، وتخليص العمل من كلّ نيةٍ مغايرة.

وذات ليلة تأخَّر محمد بن عبد الملك عن موعده مع شيخه، واضطُرَّ أبو علي لسؤاله عن إبطائِهِ، وكان قد فرَّغَ له ما بين العِشَاءينِ زيادةً إلى حِصَّته في النهار، فقال: كنتُ صايمًا، وأفطرتُ، ولأجلِ ذلك تأخَّرت. فتمعَّرَ وجهُهُ غضبًا، وقال: اقرأ. ولم يوجّه له لومًا.

ثمّ قال لي بعد أيامٍ: يا محمد، في نفسِي شيءٌ إن قلتُهُ كنتُ جافيًا، وإن سكتُّ عنهُ كنتُ غاشًّا، وأهونُ الأشياءِ عندي أن أكون جافيًا لا غاشًّا!

قلتُ: هات ما عندك يا شيخي.

قال: أخبرتَنِي منذُ ليالٍ أنَّكَ تأخرتَ لعشائك من أجلِ صومِكَ، وأنا منذُ أيامٍ قد ترتَّبَ عليَّ صوم- وإنما ورَّى الشيخُ بذلك لأنه كان يصومُ أكثرَ الدهر- فمذْ

صرتَ تقرأ بين العشاءينِ لا أفْطِرُ إلّا بعد انصرافِي من العَتَمَةِ من أجلِ قراءتِك، وأنت لم تتركْ إفطارَكَ ليلةً واحدة! يعني لحظِّ نفسِك.

وقد قلتُها لك واسترحت.

فأطرقتُ مليًّا، وأدركت أنّ الشيخ يريد ترغيبي في العلمِ وحضِّي عليهِ، وقبلَ هذا يرشدني بالتزام الأدبِ في الطلب، والصبر.

فأخجلني كلامُ شيخي، وبادرت بالاعتذار له ([55]).

-31-

# خيبة أمل

كان أحمدُ بن عبد الملِك في بداية العقد الثالث من عمره عندما خرج من بلده بَلَّس من أعمال لُورقة في رحلة لطلب العلم، وكان قد بدأ الطلب بقريته الصغيرة، فحفظ القرآن وبعض المتون، وحضر مجالس الفقه والأدب، ثم بمدينته الخصيبة لورقة، وهي من أكرم بقاع الأندلس وأكثرها خيراً سيَّما الفواكه، فإن بها من أصناف الفواكه ما لا يوجد في غيرها.

كانت مرسية أولى المحطات في سفره وترحاله، سنة 513هـ، فأخذ عن علمائها الفقه والحديث، ولازم علماءها مدة سنتين، ثمّ غادر إلى وجهته الثانية قرطبة، قبلة العلم والعلماء وعاصمة الأندلس الكبرى، فقرأ على علمائها، ومنهم أبو الوليد بن رشد وغيره، ولم ينصرف عنها إلّا بعد أن نال حظًّا وافرًا من العلم، وجنوبًا اتجه إلى مالقة تلك المدينة العريقة الرابضة على ساحل البحر المتوسط، الزاخرة بالعلماء، فأخذ القراءات السبع، ولم يكن في عزمه أن يطيل المكث فيها، ولكن كما حكى عن نفسه، قال: «فلمّا وصلت مالقة قيل لي: تترك الفقيه أبا علي منصور بن الخير بمالقة وتنصرف! فقصدتُه، وجمعتُ عليه كتاب الله العزيز بالقراءات السبع».

ثمّ عزم على العودة إلى قريته بلّس، فأرسل إلى أصدقائه وأقاربه يعْلِمهم بموعد وصوله؛ ليستقبلوه بعد عودته من رحلته العلمية، التي نهل فيها من علوم الشريعة واللغة، ودرس الفقه والحديث والقراءات والتفسير واللغة، وحصل على الإجازات العالية.

كان الناس يعظِّمون أهل العلم، وكذلك الحكامُ كانوا يقدمونهم، ويصدِّرونهم للقضاء والإفتاء والتدريس ومجالس الوعظ.

ومن ثمّ فقد مَنَّى صاحبُنا نفسه باستقبال حافل، وحفاوة بالغة، فترقّب بفارغ الصبر وصوله لبلده، وتخيّل جموع المستقبلين قد خرجوا لاستقباله على مشارف قريته، بعد أن أحرز هذا النجاح والقبول عند أهل العلم وجاء بالإجازات والأسانيد، فتوقّع أن يخرج لاستقباله أهلُ القرية عن بكرة أبيهم، فتقرُّ برؤياهم عينُه، ويهشُّ فؤادُه، ناهيك عن شوقه العارم وحنينه التوّاق لربوع قريته، وساحتها وسككها، وسوقها، وحقولها، وملاعب صباه، وبيته الجميل الذي وُلد فيه وتربّى، وكلما اقترب من البلدة كلّما هاجت الأشواق، وصدق من قال:

وأقربُ ما يكونُ الشوقُ يومًا

إذا دنتِ الخيـــامُ من الخيـــامِ

وعند وصوله مشارف البلدة واجتيازه من الباب الكبير، كانت خيبة الأمل في انتظاره، بينما لا أحد في استقباله.

وهنا وقف صاحبُنا مبهوتًا مبهورًا، وقد ضاق صدره، وتغشّت عينيه سحابةٌ قاتمةٌ من الحزن والغضب!

أهكذا بلغ الحال! أم أنّ أهل العلم لم تعد لهم تلك المكانة السامقة! أين تقدير الناس وتبجيلهم للعلماء؟ هل تغيَّر الزمان خلال تلك الأعوام القليلة التي قضيتُها بعيدًا عن قريتي؟

غضب الشيخُ غضبًا عارمًا؛ كيف لم يقدّر الناس ما بذله في سبيل العلم؟ كيف لم يحتفوا بقدومه بعد أن قطع مئات الأميال في رحلته العلمية التي جاب فيها ربوع الأندلس؟ كيف لم يقدروا سهره ومكابدته في الطلب والمذاكرة؟ أبلغ ما بلغ ليتجاهله الناس ولا يبالون بقدومه؟ وها هو ذا عائدٌ يحمل لهم من نفائس العلم ودقائقه!

وصل إلى بيته مُحبطًا، فعمَّت أطيافٌ من الفرح والسرور الأرجاء، واحتفت به أسرتُه الصغيرة في ليلةٍ سعيدةٍ هانئة، وعندما أوى لفراشه خلا بنفسه، وأعاد شريط يومه، وكيف شعر بخيبة الأمل، وأصابه الذهول، لكنه سرعان ما رجع لصوابه، وأدرك خطأه.

ولنتركه يعبّر بنفسه عن خلجات مشاعره، قال رحمه الله: «فلمّا وصلت لم ألق أحدًا، ولا رأيت من الناس ما عهدت، فكان لي في ذلك موعظة، ورجعت إلى نفسي، فقلت: يا أحمد، فكأنك إنما رحلتَ في طلب العلم، وسهرتَ الليالي ليعظّمك الناس؛ لقد خبتَ وضلَّ سعيُك!

وهنا استحضر في الحال ما تعلّمه من شيوخه في دروسِه الأولى من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

قال رحمه الله: «فعكفتُ على ما ينفعني، ولزمتُ بيتي، ولم أتعرّض لعَرَضٍ دنيويٍّ، وسلكتُ سُبُلَ الزُّهاد؛ لعلّ الله أن يجعلني منهم».

وبعد وقتٍ وجيزٍ فارق الشيخُ الديار وركب البحر حاجًّا لبيت الله الحرام، وطالبًا للمزيد من العلم، فتنقل كالنحلة من الإسكندرية إلى الحجاز، ومرَّ بالشام، ودخل بيت المقدس يتعلّم ويعلّمُ، ثمّ عاد لبلده فتصدر للإقراء والتدريس والإفتاء، وسلك طريقة الزهاد والعباد.

وعمّر طويلًا، حتى جاوز التسعين في العلم والعبادة والزهد.

قال أبو جعفر بن يحيى بن عَمِيرة: ساكَنْتُه أيامًا فما رأيتُه من الليالي إلّا قائمًا ولا من النهار إلّا صائمًا. قال: وقال لي: كنتُ قبلَ أن أرحَلَ أرى الناسَ يُعظِّمونَ العلمَ وأهلَه، فلمّا قدِمتُ من رحلتي لم أرَ ما عَهِدتُ وأبصَرتُ أمري. وأقبلَ على العمل وترَكَ التصنّعَ ونَبذَ الدُّنيا إلى أن توفِّي سنةَ سبع وسبعينَ وخمس مئة، وقد ناهَزَ المائة.

وهكذا: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ يَأْبَى عَلَيْهِ الْعِلْمُ حَتَّى يُصَيِّرَهُ إِلَى اللَّهِ ([56]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-32-

# قصرُ التأديب

# الوَحْشَةُ

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط شابًّا مشاكسًا، سيئ العشرة، خبيثَ النفس، رديء الخلق، مفرِط القلق، سريع الضجر، دائم التململ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة، يعيرهم أذنيه، فينزعج من كلّ ما يقال في جانبه، وينالُ من كلّ من يبلغه أذاه، مكثر التشكّي والتحريض على من لا يقدر عليه، لوالده الأمير عبد الرحمن، حتى لا تراه إلّا حانقا مغتاظًا، منقبضًا، قاطبًا عبوسًا، فطال ذلك على والده الأمير، وعجز عن علاج تلك العلة المستوطنة في ولده، ولم يفلح في طرد تلك الوساوس والهواجس التي تحاصره، ودحر تلك الظنون والأوهام التي تستبد به.

فأوعز إلى أحد حاشيته ممن يأتمنهم، أن يقوم إلى جبل في أطراف قرطبة، ويبني في حضنه صرحًا، يشرف على المدينة، ليسكن فيه ابنه المنذر، وأوصاه بالاجتهاد في تشييده والتفنن في عمارته، مع الإسراع في بنائه، ففرغ منه في أقربِ وقت، وعاد إليه، فقال له: أعلم المنذر أني أمرته بالانتقال إليه، ولا تترك أحدًا من أصحابه ولا أصحاب غيره يزوره، ولا يتكلم معه ألبتة، فإذا ضجر من ذلك، واشتكى، وسألك عنه؛ فقل له: هكذا أمر أبوك.

فتولى الرجلُ ذلك على ما أُمِر به، ثمّ دُعي الأمير الشابّ للانتقال إلى الصرح الجديد، ولما وصل المنذر إلى ذلك المكان، وأشرف على صرحه من بعيدٍ أعجبه منظره، وراقه موقعه، التلال الخضراء من خلفه والمروج والغابات تحيط به، حتى تحسبه دُرةً على خميلة خضراء.

وحين دخله أعجبَ بروعته وأبهته، ففرح أيّما فرح، وتذكر أنه ليس ببعيد عن ندمائه وخلانه، وأشرف بنفسه على إعداد مجلسٍ يشرفُ على الوادي الكبير، حيث ينحدر الماء من الجبل المُطلّ على مدينة قرطبة، ويرى الجالسُ بوضوح القنطرة التي تربط بين ضفتي النهر الكبير، ويشاهد مئات العابرين من المشاة والعربات التي تجرّها الخيل والبغال والحمير، وحين صعد للعلّية كان بإمكانه أن يرى من بعيد المراكبَ المتجهة نحو إشبيلية. وجاء المساءُ، وجلس في الشرفة آخر ساعات الأصيل، يترقبُ وصولَ ندمائه الذين بعث في طلبهم برسائل معطرةٍ بالشوق والترحاب، وطال الانتظار، فمكث تارةً ينظر إلى الطريق، وأخرى يصعّدُ نظره نحو الجسر، وثالثة يتأمل في منظر الغروب، أو ينصت لخرير الماء الذي ينحدر من الجبل نحو الوادي، أو يمتع ناظريه بمنية

النصر المطلة على ضفاف الوادي الكبير بقرطبة، ثمّ ينتقل بعينيه إلى منية الجنة، وهي منية فسيحة تتوسطها مبان أنيقة عالية، فإذا شعر بالملل دخل إلى المجلس فتناول حبةً من التين، أو عنقودًا من العنب الأسود، أو ارتشف من الكأس المترعة بعصير التفاح البارد.

مرّت ساعاتٌ دون أن يصل أحدٌ، بدأ يشعر بضيق في صدره، وغلبه الإحساس بالوحشة والانقباض، حين أدرك أن القصر منقطع عن البنيان، تحيطه أسوارٌ عاليةٌ، وبقي وحده حتى انتصف الليل يتأمّل في أنوار قرطبة، وأضواء القصور الملكية المبهرة، ثمّ نهض إلى فراشه قبل غياب القمر، حيث غلبه النوم، وفي الليلة الثانية، والتي تليها انتظر رفقاءه الذين لم يصلوا، وفي الليلة الرابعة أدرك أنه بمعزل عنهم، بل هو محروم من ندمائه وخلانه، فقال لمن وكّله أبوه بتعهُّده آمرًا له، حين دخل إليه: أودُّ أن يصلني غلماني وأصحابي الليلة أتأنَّس بهم، فقال له الثقة: إن والدك الأمير أمر أن لا يصلك أحد، وأن تبقى وحدَك لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشاية.

فعلم أنّ الأمير قصد محنته بذلك وتأديبه، فاستدعى دواةً وقرطاسًا، وكتب إلى أبيه: إني قد توحشت في هذا الموضع توحشًا ما عليه من مزيد، وعدمت فيه مَن كنتُ آنسُ إليه، وأصبحت مسلوبَ العز، فقيدَ الأمر والنهي، فإن كان ذلك عقابًا لذنبٍ كبير ارتكبته وعلمَه مولاي ولم أعلمه فإني صابرٌ على تأديبه، ضارعٌ إليه في عفوه وصفحه: وإنّ أميـــر المؤمنين وفعله

لكالدهر، لا لومٌ لما فعل الدهر

فلمّا وقف الأمير على رقعته، وعلم أنّ الأدب بلغ به حقه، استدعاه، فقال له حازمًا: وصلتْ رقعتك. تشكو ما أصابك من وحشة الانفراد في ذلك الموضع، وترغب أن تأنس بحاشيتك وأصحابك، وإن كان لك ذنبٌ يترتب عليه أن تطول سكناكِ في ذلك المكان، وما فعلتُ ذلك عقابًا لك، وإنما رأيناك تكثر الضجر والتشكّي من القال والقيل، فأردنا راحتَك بأن نحجبَ عنك سماع كلام مَن يرفع لك وينمُّ، حتى تستريح منهم.

فقال لأبيه مستعطفًا: سماع ما كنت أضجرُ منه أخفُّ عليّ من التوحُّد والوحشة والتخلي مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي.

فقال له مشفقًا: فإذ قد عرفتَ وتأدّبتَ فارجع إلى ما اعتدتَه، ووطّن نفسك على أن تسمع كأنك لم تسمع، وترى كأنك لم تر، وقد قيل: إذا كنتَ في كلّ الأمور مُعاتبًا

صَدِيقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ

فَعِشْ واحدًا أو صِلْ أخاكَ فَإِنّهُ

مُقَارِفُ ذنبٍ مَـــرّةً ومُجانِبُهْ

إذا أنتَ لم تشرَبْ مِرَارًا على القَذَى

ظَمِئْتَ وأيُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وقيل:

إذا أنتَ لــم تغفــرْ ذنوبًا كثيرةً

تريبُكَ لم يسلمْ لكَ الدَّهرَ صاحبُ

ومنْ لا يُغمِّضْ عينهُ عن صديقهِ

وعن بعضِ ما فيهِ يمُتْ وهو عاتبُ

ثمّ أقبل عليه أبوه وقال له، بصوتٍ ينمُّ عن ودٍّ وحنانٍ: اعلمْ يا بني أنك أقرب الناس إليَّ وأحبُّهم فيَّ، ومعَ هذا فما يخلو صدرُك في وقت من الأوقات عن إنكارٍ عليَّ، وسخطٍ لما أفعلُه في جانبك أو جانب غيرك، مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني، لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بستر بعضها عن بعض فيما يجول فيها، وإنك لذو همّة ومطمح، ومن يكن هكذا يصبر ويغضِ ويحتمل، ويبدل بالعقاب الثواب، ويصيّر الأعداء من قبيل الأصحاب، ويصبرَ من الشخص على ما يسوء، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسرُّ، ولقد يخفُّ عليَّ اليوم من قاسيت من فعله وقوله، ما لو قطعتهم عضوًا عضوًا لما ارتكبوه مني ما شفيتُ فيهم غيظي، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال، لا سيّما عند الاقتدار أولى، ونظرت إلى جميع مَن حولي ممن يحسنُ ويسيء؛ فوجدتُ القلوب متقاربة بعضها من بعض، ونظرتُ إلى المسيء يعود محسنًا، والمحسنُ يعود مسيئًا، وصرتُ أندمُ على مَن سبق له مني عقاب، ولا أندمُ على مَن سبق له مني ثواب، فالزم يا بنيَّ معالي الأمور، وإنّ جماعها في التغاضي، ومن لا يتغاضى لا يسلم له صاحب، ولا يقرب منه جانب، ولا ينال ما تترقى إليه همّته، ولا يظفر بأمله، ولا يجد معينًا حين يحتاج إليه.

فقبَّل المنذرُ يدَه وانصرف، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده حتى تخلّق بالخلق الجميل، وبلغ ما أوصاه به أبوه، ورفع قدره ([57]).

-33-

# بابُ الفرج

على ساحل البحر الأبيض، من جهة الجنوب، إطلالةٌ رائعةٌ ورائقة لبلدة مالقة، تلك المدينة المتأنّقة المتألّقة، بشواطئها التي تعجّ بمراكب الصيد، تغدو وتروح، لتجلب الرزق الوفير، وكانت مشهورة بتخزين السمك الكبير «الحيتان» مملّحًا، في صناديق لهذا الغرض، ومن هنا جاءت تسميتها مالقة، أي المملّحة، كما سميت من قديم الزمان، مع اشتهارها بالتين، والرمان، واللوز، وغير ذلك من الفواكه، التي تباع فيها بأرخص الأثمان لوفرتها، مع طيبها وحلاوتها.

وكان أبو عبد الله محمد بن خليفة الأنصاري فقيهًا محدِّثًا، تولى قضاء مالقة وما حولها، فسار في أحكامه بأجمل سيرة من العدل والفضل والنزاهة، بلغ من ورعه وزهده، أنه حفر لنفسه قبرًا بإزاء مجلس قضائه، ليكون له فيه معتبرًا، فينظر إليه كلّ حين.

يُحكى أنّه عزم على تأليف شرح لكتاب الموطأ، الذي صنّفه الإمام مالك بن أنس، وهو المرجع الأساسيّ في المذهب المالكي الذي ساد بلاد الأندلس، فضلًا عن كونه موسوعةً في الحديث والآثار، لكنْ أنى ذلك للقاضي وهو دائمُ الانشغال بالقضاء والفتيا والتدريس، فكيف يجد وقتًا لهذا العمل الذي يحتاج لدأبٍ وفراغٍ وجُهد، وقد استفرغ عمله في القضاء وقته وجهده وتفكيره، فهل يعزف عن فكرته؟

كلّا، بل شرع فيها، رغم أنّ البداية كانت بطيئة، إذ كان يقتنص من أوقات الفراغ، ويقترض من ساعات الراحةِ، في شرح هذا السفر العظيم، وساعده تضلعه في الفقه وفي اللغة، فهو القاضي الفقيه اللغوي الأديب ، صاحب أشعار رصينة، فكان مؤهّلًا لهذا العمل العظيم.

مِن شعره:

ومن عجـــبٍ أني أهيـمُ بحبِّه

وأوليه إعراضًا وفي القلب يرتعُ

كــذي رمــد في مقلتيه يزيده

سنا الشمس (ضرًّا) وهو بالشمس مولع.

دعا القاضي ربّه بصدقٍ وخشوع، أن يوفقه لإتمام هذا العمل، وإكمال هذا المسير.

حتى كانت تلك الرؤيا العجيبة، التي رآها لمرّات عديدة، فكان لها أعظم الأثر.

قال: كنت عند ابتدائي تأليفه تأخذني غفوةٌ، فأرى كأني أخرج من أسوار المدينة إلى البحر على باب يسمّى باب الفرج، وهو باب الحلاقين، فأقترب من البحر، أسمع هدير أمواجه، وصخب نوارسه، وأسرِّح ناظريَّ إلى المدْى البعيد، حيث تلتقي زرقة البحر مع زرقة السماء، وإذ بحيتان كثيرة تُلْقَى أمامي من البحر فتملأ الفضاء من حولي، وأخرى تدفعها الأمواج على الشاطئ فتتكدَّسُ بين يدي، فأفرح بها فرحًا عظيمًا؛ فكنت أقومُ على الفور بتعبئتها في صندوق خشبيٍّ، أفرشُ لها من عشب البحر وطحالبه، ثمّ أنثر الملح بين كلّ طبقة، وكنت أتساءل كيف أقوم بهذا العمل الشاق وحدي، وهو بحاجة إلى أولي بأسٍ من الرجال! فأقول: ألا رجل يعينني على تعبئة ذلك!

فكان يبدو لي رجل فيقول: ارفع رأسك! هذا رسولُ الله قادمٌ إليك، على البحر من جهة القبلة، فسعيتُ إليه، ألقاه وأسلِّم عليه، فلما فرغتُ من السلام، قال لي يا محمد! أنا أعينك على تعبئة هذه الحيتان في ذلك الصندوق، هيّا بنا. فكان يسوِّي بيديه الكريمتين وطاءها، ثمّ أجمعُ إليه وأقرب بين يديه من تلك الحيتان، وهو يسوِّيها ويجعل ملحَها صفًّا على صفٍّ، حتى بلغ سبعة صفوف، ثمّ ضمَّ عليها غطاءها، وأحكم قفلَ الصندوق، ثمّ قال لي هذا مرادك منها قد تم.

ثمّ استيقظت وفهمت مغزى هذه الرؤيا الصالحة، بما حفزني على المضيِّ قدمًا في التأليف.

فلعمري لقد كان هذا التأليفُ أسهل عليَّ من كلّ أمر حاولته، جعله اللهُ خالصًا لوجهه. فالصّفوف السبع نفس عدد أسفار مسوّدة الكتاب حين خططتُ له، وقد تمّ كذلك في سبعة أسفار، وكنت قد ابتدأته أول سنة ثمان وسبعين، وأكملته سنة تسع وسبعين، في سنةٍ واحدة. ([58]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -34-

# عدالةُ القضاء الأندلسي

قصّة غريبة جرتْ بقرطبة في أيام المنصور ابن أبي عامر، رجل يعرف بقاسم بن محمد الشبليشي شُهِدَ عليه بالزندقة، فحبسه الحاجب المنصور مدةً مع جماعة من الأدباء من أعيان قرطبة، كانوا معروفين بالانهماك في القصف والشراب والمجون، وكان ينادي عليهم في كلّ جمعة، يوقفون في أثر الصلاة بباب الجامع الأعظم، من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدِّها؟

فثبت على قاسم الشبليشي عند القاضي سجلٌّ بشهادات الشهود بأنواع منكرة، تتضمن الزندقة والكفر، فعُقِدَ مجلسٌ عظيمٌ، واستفتي الفقهاء فيه فأوجبوا قتله.

فأُشْخِصَ قاسمٌ من حبسه، إلى ساحةٍ قريبةٍ من القصر، ليضرب بالسيف، وحضر أبوهُ يجرُّ أذيال الخيبة والحسرة، وقد اكترى حمّالين ليحملوا نعشه، ومعه ولدان له، قد احمرت أعينهم من البكاء والنحيبُ، فبعد لحظات سيودع أبوهم الحياة، وتفارق الروح الجسد، مشهدٌ قاتم.

ووصل السياف المعروف بابن الحبشي، ودفعت له أسياف من القصر فجعل يروزها- يختبر أيُها أمضى وأحدُّ- ويلمس شفارها، وأبو المحكوم وابناه ينظرون إليه، وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا أن لا يجدوا سبيلًا لخلاص فقيدهم.

وجرت مناقشةٌ بين الفقهاء حول مصير المسكين، تُرى هل ستغيِّر شيئًا!؟

قال أحدهم: ماذا تقول يا أبا عمرو؟

أبو عمرو الإشبيلي الفقيه النحوي الأديب حضر على مضض، وأجاب استدعاء القاضي له على كرهٍ منه، إذ كان يأبى الحضور، لولا إصرار القاضي.

كرّر السؤال: ماذا تقول يا أبا عمرو؟

أقول: يا هؤلاء، إن الدماء لا تسفك إلّا بالحق الواضح دون الشُّبه، كما قيل ادرئوا الحدود بالشبهات! إذ كيف تسفك دماء بدون حجة قاطعة؟ فالأصل في الدماء التحريم، كما يقول الفقهاء.

ثمّ ألم يقل نبينا -صلى الله عليه وسلم-: « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا أَحَدُ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ، الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»؟ ([59]).

يا قوم! احسبوا ابن الشبليشي فرُّوجًا، بماذا تذبحوه؟

فقال القاضي ابن السريّ: بما ثبت عندي وأمعنتُ النظر فيه.

فقال الفقيه: أوقفني عليه. فأوقفه عليه، فقال: أخبرني بمن تقتله من هؤلاء الشهود؟ فقال: بهذا وهذا،... حتى عدّ خمسة. فقال الفقيه: فبجميعهم تقتله؟ قال: نعم.

قال: فلو شهد منهم اثنان خاصّة أكنت تقتُله؟ قال: لا، إنما قوّى بعضُهم بعضًا، وزكّى أكثرهم عندي. فالتفت الفقيه إلى الفقهاء المشاورين، فقال: يا هؤلاء، بالدعائم تقتل المسلمون عندكم وتسفك دماؤهم، فلست أرى قتله ولا أشير به!

قال القاضي ابن السري: لكني أرى قبول شهادتهم لكثرة عددهم، وبذلك يقوي بعضها بعضًا.

قال أبو عمرو: كيف وليس فيهم عدلان؟

قال ابن السري: لكن يُنظر لكثرتهم.

قال أبو عمرو: هذا حدٌّ من الحدود لا بدّ فيها بشهادة العدول! وإلّا فيُدرأُ الحد!

فرجع الفقهاء إلى قول أبي عمرو، ولم يردُّوا عليه شيئًا بعدما كانوا قد أفتوا بقتله منذ ستة أشهر، وانفضّ الجمع، وأُغمدَ السيف، فذهب البشير إلى ابن أبي عامر فأخبره بالمجلس، فقال ابن أبي عامر: مضيتُم تقتلون ابن الشبليشي، فدفنتم القاضي، قد استشهدنا للدين ولا قاتل لمؤجل، فحُبِسَ أيامًا ثمّ أُطْلِق.

فكان ابن ذكوان الفقيه يقول للقاضي في مثل هذا قال القائل: إذا سئلت بماذا عرفت الله تعالى؟ قال: بنقضه عزائمي.

يعني أنه عزم على قتل هذا الذي أظهر الزندقة، ثمّ لم يمض حكمُه، ومضى حُكم الله في إطلاق سراح ابن الشبليشي ([60]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -35-

# حِلْمٌ أَمْ عِلْم

كان ابن زُهر الأشبيلي وزيرًا للمنصورِ يعقوبَ أميرِ دولةِ الموَحِّدِينَ بمراكش، وكان من أهلِ بيتٍ أندلسي، كُلُّهُمْ علماءُ رؤساءُ حكماءُ وزراءُ، نالوا المراتبَ وتقدَّمُوا عند الملوك ونالوا ثقتَهم، ونُفِّذَتْ أوامرُهم، وكان قد تَرَكَ أهلَه في الأندلسِ، فكان يترددُ عليهم بين الفينةِ والفينةِ، كلما سَنَحَتْ له فُرْصَة، ورُبَّما غاب عنهم فطَالَ غيابُه، فكان يَتَحَرَّقُ شوقًا لهم، وكان لهُ طفلٌ صغيرٌ تَرَكَهُ بإشبيلية، كان دائمًا في غايةِ الشوق له، والإشفاق عليه، والحنين لداره ومرابعه، أنشد فيه ذاتَ يومٍ حين غلبه الشوق، واستبدَّ به الوجدُ، وهو بمراكش: (ولي واحـــدٌ مثلُ فَرْخِ القَطَا

صغيــرٌ تَخَلَّـــفَ قلبِي لَدَيهِ) (نَأَتْ عنهُ دارِي فَيَا وَحْشَتِي

لِذاكَ الشُّخَيصِ وذاك الوُجَيهِ)

(تَشـَوَّقَنِــي وَتَشَـــوَّقْتُـــهُ

فَيبكِــي عَلَــيَّ وَأَبْكِي عَلَيهِ) (لَقَدْ تَعِبَ الشَّوقُ مَا بَينَنَا

فَمِـــنـــهُ إِلَيَّ ومِنِّـــي إِلَيهِ) قال ابن زُهر هذهِ الأبياتِ، وَسَمِعَهَا يعقوبُ المنصورُ أميرُ دولةِ الموَحِّدِينَ، فتأثّر بها أبلغَ الأثر، فأرْسَلَ المهندسين إلى إشبيلية دون عِلْمٍ مِن ابنِ زُهْرٍ، وَأَمَرَهُمْ أنْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِبِيُوتِ ابنِ زُهْرٍ وَحَارَتِهِ، ويرسموا كلّ شيء فيها فلا يتركوا صغيرة ولا كبيرة من المعالم، ثمَّ يبنُوا مثلَها بحضْرَةِ مرَّاكش، ففَعَلُوا ما أمَرَهُم به في أقربِ مُدَّةٍ، وَفَرَشَهَا بِمِثْلِ فَرْشِهِ، وَجَعَلَ فيها مثلَ أثاثه وآلاتِهِ، ثمّ أَمَرَ بنقلِ عيالِ ابنِ زُهْرٍ وأولادِهِ وحَشَمِهِ وأغراضهِ إلى تلك الدارِ، ثمّ احتالَ عليه حتى جاء إلى ذلك الموضعَ، فرآهُ أشبهَ شيءٍ بِبُيُوتِهِ وحارتِه، حتى الزهور والياسمين، فاحتارَ لذلك وظنَّ أنه نائِمٌ، وأن ذلك أضغاثُ أحلامٍ، فقيل له: أهكذا بيتك؟ قال كأنه هو!

قيل: ادخلِ البيتَ الذي يُشبِهُ بيتَك.

فدخله، فإذا ولدُهُ الذي يتشوقُ إليه، يلعبُ في فناء البيتِ، فَحَصُلَ له من السرورِ والابتهاجِ ما لا مزيدَ عليهِ، ولا يُعَبَّرُ عنه، ورأى زوجته وسائر أبنائه وبناته ففرح أعظم الفرح باجتماع شمل الأسرة في هذه الدار، وذلك الحي الذي شيَّده الأمير مطابقًا تمامًا لحيِّه ودوره، ليدخل السرور والبهجة على وزيره، ويجمع شمله بأهله ([61]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# حكاية ابن غطّوس

إنّ أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيّون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها.

نقلا عن رسائل ابن حزم

وكان مما تميزت به بلاد الأندلس، تلك الثروة الهائلة من الكتب والمصاحف، بسبب كثرة النساخين، ورواج أسواق الكتب، وحرص الأمراء والوجهاء وطلاب العلم والموسرين على اقتنائها، وإرسال من يجمعها من سائر حواضر الإسلام، بل كان لهم نساخون في تلك الحواضر، ويكفي أن نعلم أنه كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة، كلهنّ يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟

وكان من أشهر الخطّاطين في بلاد الأندلس ابن غَطّوس البَلَنْسيّ: عاش منقطعًا إلى كتابة المصاحف، مع براعةٍ في خطِّها وصدارةٍ في جَوْدة ضبطها، أقسم أن لا ينسخ سوى المصاحف؛ تقرُّبًا إلى الله، وتنزيهًا لتنزيله أن يخلِطَه بسواه، فبرّ بيمينه، رغم ما تعرّض له من إغراءات لينسخ غير القرآن، وبلغ عددُ ما نَسَخَ من المصاحف ألفَ نسخة، انتشرت في أقطار الأندلس وخارج حدودها.

دأب- رحمه الله- على هذا العملِ المبرورِ عمُرَه، وتنافسَ الناسُ على طبقاتهم- الملوكُ فمَن دونَهم- في اقتناء المصاحف التي يخطُّها، كان قد وَرِثَ هذه المهنة الشريفة عن أبيه، وتعلَّم أيضًا على أخيه الأكبر، وكانوا كلُّهم آيةً من آيات الله في إتقان هذه الصَّنعة المباركة»، لكنه فاق أباه وأخاه، حتى شهد له القاصي والداني([62]).

وكَانَ لَهُ بَيتٌ فِيهِ آلَات النّسخ والرقوق والأحبار والأقلام، وسائر الأدوات، لَا يدْخلهُ أحدٌ من أَهله، فكان يدْخُلَهُ ويخلو بِنَفسِهِ، وكان يتفنّن في استخدام الألوان والأحبار، وَرُبمَا وضع الْمسك فِي الدواة، ويجعلُ لكل ضبط لونًا من الألوان، لَا يخلُّ بِهِ، فاللازورد للشدَّات والسكون، واللك وهو صبغٌ أحمرٌ للضمّات وللفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات الْمَكْسُورَة، والأصفر للهمزات الْمَفْتُوحَة، لَا يحيدُ عن ذَلِك، حتى بلغت جودةُ عمله وإتقانه، مع جمال الخطِّ والألوان والتحبير، أنه كَانَ لَا يُهدي مصحفه إلّا بمائتي دِينَار.

ومما يدلُّ على أمانتِه وضبطه، ما حُكي عنه: أنه جَاءَ إِلَيْهِ رجُلٌ من بلد بعيد، مَسَافَةِ عشرة أيامٍ أَو أَكثرِ من ذَلِك، وَأخذ مِنْهُ مُصحفًا، وَلما كَانَ بعد مُدَّة

تذكر أنه وضع نقطًا أو ضبطًا على بعض الْحُرُوف فِي غير مَوْضِعه، فسَافر إِلَى تِلْكَ الْبَلَد، وأتى إِلَى ذَلِك الرجل، وَطلب الْمُصحف مِنْهُ، فَتوهّم أَنه رَجَعَ فِي البيع، وقَالَ: ماذا تريد! لقد قبضت الثّمن مني وتفاصلنا!

فَقَال: لا بدّ أَن أرَاهُ.

فَلَمَّا أَتَى بِهِ إِلَيْهِ محَا ذَلِك الْغَلَط، وَأَصْلحهُ وَأَعَادَهُ إِلَى صَاحبه، وَرجع إِلَى بَلَده.

ومن العجيب أنه كان مشهورًا بالغفلة في أمور حياته، لكنه في هذه المهنة كان محقّقًا مدقِّقًا، ضابطًا، وتلك آية من آيات الله، وبرهان على حفظ الله لكتابه([63]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# مُنْيَةُ الصّمادحية

بنى المعتصم بن صمادح أميرُ ألمرية مُنيةً واسعةً عجيبةً، على أطراف المدينة، استجمع فيها كلّ طاقته وبذل أموال خزانته، كان قد اختطّها مع أمهر المهندسين والبنائين، فكانت تحفةً فريدة، ودرّةً بهيةً، زادت من جمال ألمرية، إلى جانب المنيَّات الأخرى كمنية عبدوس، ومنى غسَّان، والنجاد، وبركة الصفر، يمر بها جميعًا نهر ألمرية الكبير ببريقه الفضيِّ، بينما تضرب أمواجُ البحر الأخضر كأنها الزبرجد، بساحلها الذهبي، وأسوارها الْعَالِيَة الراسخة وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة، مع ما تميزت به من اعْتِدَال الْهَوَاء وَحسن مزاج أهلهَا وصفاء أذهانهم، وَطيب أَخْلَاقهم ولطف معشرهم.

وكان ميناء ألمرية يعجُّ دائما بمراكب التجَّار من الإسكندرية والشام، ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالًا، فلقد ازدهرت هناك صناعات أثواب الحرير والفُرُشِ والستائر، وصناعات آلات النحاس والحديد، وغيرها ([64]).

خرج ابن صمادح يومًا بين حاشيته وخاصّته، يتنزه بالمنية، فابتهج بمناظرها، وسُرّ بروائعها، بعد تمام بنائها وكمال زخرفتها، وتوقَّف عند ساقيةٍ تنضحُ بالماء الزُّلال، فجلسَ على أريكةٍ خشبيةٍ، وطلب كأسًا من الماء، وأخذ يتأملُ وهو يرتشفُه تلك الجداول المترعة، فرأى صفاء قيعانها، مع ما تحفُّ الجداول من النباتات المزهرة، وكان قد جلب لهذه المنية حين أنشأها من الأشجار والنباتات والأزهار، ما لم تعهده البلاد، حتى غرس في بساتينها أشجارَ الموز وقصبَ السكر وأصنافًا لم تعهدها الأندلس من أشجار الفواكه، ما جعلها جنانًا وارفة الظلال، يانعةَ الثمار طيبةَ النسيم، وزاد في روعتها ورونقها تلك البحيرة اللازوردية الواسعة تتوسط مروجًا خضراء، وعلى جنباتها أقيمت مجالس من المرمر، يستريح بها المتنزهون، ويتناولون طعامهم في بهجة وسرور.

تذكر وهو يسرح النظر في أشجارها، ويصغي لتغريد طيورها وبلابلها حين عزم على اختيار اسم لها، فجمع خاصّته وحاشيته ووقع الاختيار على الصمادحية، وفتح أبوابها لأهل مملكته، يمرحون في منتزهاتها، ويشمون ورودها ورياحينها، ويقطفون من ثمارها، ويرتع أطفالهم في رياضها وملاعبها، ويصعدون إلى ربوتها العالية، فيشاهدون السفن التي تدخل وتخرج من مرسى ألمرية بأشرعتها البيضاء، وهي بين ذهاب وإياب، وتفريغ وشحن، تحمل الحرير والفُرُش والأواني النحاسية، والفواكه المجففة وزيت الزيتون النقي، والأخشاب، وتجلب في عودتها السكر والتمر والبقول والأرز، والعطور والتوابل والأبازير.

كما يمتعون أنظارهم برؤية البحر بمياهه الزرقاء، ومنظر غروب الشمس، ومنارة الميناء، ويمتعون الأنظار بالقصور الملكية وأبراجها العالية.

وبينما كان يسير بين ممرات الحديقة تحت ظلال الأشجار، وقد أطلق العنان لخياله، إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مختومة بالشمع تسبح فوق ماء جدولٍ قادم من بعيد، فأمر من يأتيه به، فلمّا أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة، ففتحها، ووجد فيها مكتوبًا بلهجةٍ صارمة: إذا وقفت أيّها الغاصب على هذه الورقة؛ فاذكر قول الله تعالى  إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب  . لا إله إلّا الله، أنت ملك قد وسَّع الله تعالى عليك، ومكّن لك في الأرض، ويحملك الحرص على ما يفنى أن تضم إلى جنّتك الواسعة العظيمة قطعة أرضٍ لأيتامٍ ضعافٍ! حرّمتَ بها حلالها، وخبَّثت طيبَها! ولأن تحجَّبت عني بسلطانكَ، واقتدرت عليّ بعظم شأنك؛ فسنجتمع غدًا بين يدي مَن لا يحجَب عن حق، ولا تضيع عنده شكوى.

فلمّا أتمّ قراءتها اهتز قلبه، ودمعت عيناه، وهو يرتعد إشفاقًا من خشية الله، حتى خافوا عليه، وقال: عليّ بالمشتغلين ببناء الصمادحية، فأحضروهم، فاستفسر منهم عمّا زعم صاحب الرسالة، فلم يسعهم إلّا تصديقُه، فزجرهم ولامهم، فاعتذروا بأنهم اضطروا لأخذها، لأنّ نقصها من الصمادحية يعيبها في عين الناظر، فاستشاط غضبًا، وقال: والله إنّ عيبَها في عين الخالق أقبحُ من عيبها في عين المخلوق، ثمّ أمر بأن تصرف عليه، وتعاد كما كانت، واحتمل تشويهها لمنيته وقصوره.

ولقد مرّ بعضُ أعيان ألمرية وأخيارها مع جماعة على هذا المكان الذي أخرجت منه جنّة الأيتام، فقال أحدهم: والله لقد شوهت هذه القطعة هذا المنظر العجيب.

فقال له الأمير: اسكت، فوالله إنّ هذه القطعة طرازُ هذا المنظر وفخرُه.

وكان المعتصم إذا نظر إليها قال: أشعرتم أنّ هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية؟

ثمّ إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتّى باعوها عن رضًا بما اشتهوا من الثمن، وذلك بعد مدة طويلة، فاستقام بها بناء الصمادحية، وشاع في الناس هذا الموقف النبيل، فأحبوا أميرهم ([65]).

## -38-

# الأنفاسُ الأخيرة

سجى الليل، وعمّ السكونُ إلّا من صوت موج البحر الهادر يلطمُ بشدةٍ تلك الصخور المتراكمة على الساحل، غير بعيدٍ من القصر.

وضرب الظلامُ رُواقه مخيِّمًا فوق سماء الأندلس، وهب نسيمٌ باردٌ مُشبعٌ بنكهة البحر، فسارعت الجارية لإغلاق النوافذ المطلة على منية الصمادحية، وأرخت الستائر الحريرية إلّا نافذة ينبعث منها ضوءٌ شاحبٌ أصفر، إنها غرفة الملك الراقد في فراش المرض، أو لنقُل الأمير، ورغم الحراسة المشددة، إلّا أن شيئًا تسلل من جهة البحر، غير عابئ بتلك التحصينات، سرى بلطفٍ وخفاء.

ويحمل النسيمُ رسالةً أخرى من البحر، مرّت في طريقها بأجواء منية الصمادحية فأهدتها من عبق زهورها، وعطر ريحانها، نفحةً للقصر.

لكنّ رائحة الموت تتسلل بقوة، فتنسحبُ رائحة الزهور، وما أدراك ما رائحة الموت؟ إنها أجواء ساعة الاحتضار، وما يتخلَّلُها من السكون الذي يسبق العاصفة!

على فراشه الحريري الوثير يتمدد أمير ألمرية، وحوله ثلةٌ من جواريه الحسان، وجماعةٌ ممن يسعون في خدمته من الغِلمان.

أخذ الأمير يجيل ببصره في أنحاء الغرفة، إلى أن استقرّ محدِّقًا في الثريا الذهبية التي تدلَّت بمصابيحها الأربعة مسرجة بزيت الزيتون النقي، تشفّ عن ضوء أصفر هادئ، يبعث شيئا من الأنس والبهجة في الغرفة الحزينة، فلطالما شهدت من مباهج وأفراح وليالٍ ملاحٍ، وكم سامر في ليالي الشتاء الدافئة من فاتناتٍ حسان، لقد عاش حياته في سلام وموادعة، وأخلد إلى الراحة والدعة، واقتصر على قصور يبنيها، أو حسناء يقتنيها، أو مجالس الأدباء التي كان يأنس بها بل ويدمنها، وربما جالس الفقهاء وسمع حوارهم وغرائب المسائل.

زفر زفرةً تنمُّ عن ألمٍ وحسرة، ثمّ شغل باله بتذكر ما قيل في مدحه والثناء عليه: «ملك أقام سوقَ المعارف على ساقها، وأبدع في انتظامها واتساقها، وأوضح رسمها، وأنبت في جبينِ أوانِه وسْمَهَا، ولم تخلُ أيامُه من مناظرة، ولا عمرتْ إلّا بمذاكرة ومحاضرة».

ذكرياتٌ حلوةٌ مضتْ، تذكّر عندما دخل ألمرية أديبٌ بائسٌ فقير، عليه أسمالٌ لا تقتضيها الآداب، ولا يرتضيها إلّا الانتحاب والانتداب، والناس قد لبسوا

البياض، وتصرفوا من خضرتهم في مثل قطع الرياض، والنحلي في هيئة مزرية، قد أنهكه التعب، وبرّح به الجوع، فكتب إليه: أَيَا مَنْ لا يُضَافُ إِلَيْهِ ثَانٍ

وَمَنْ وَرِثَ العُلَى بَابًا فَبَابَا

أَيَجْمُلُ أَنْ تَكُونَ سَوَادَ عَيْنِي

وَأُبْصِرَ دُونَ مَا أَبْغِي حِجَابَا

وَيَمْشِي النَّاسُ كُلُّهُمْ حَمَامًا

وَأَمْشِي بَيْنَهُمْ وَحْدِي غُرَابَا

فأكرمه وأعطاه، وبعث إليه من البياض ملابسه، وجعله ممن يغشى مجالسه، وقال له مرحّبًا: وَرَدْتَ وَلِلَّيْلِ البَهِيمِ مَطَارِفٌ

عَلَيْكَ وَعِنْدِي لِلْصَبَاحِ بُرُودُ

وَأَنْتَ لَدَيْنَا مَا بَقِيتَ مُقَرَّبٌ

وَعَيْشُكَ سَلْسَالُ الجَمَامِ بُرُودُ

فكانت مساجلةً شعريةً مازالت تدور على الألسنة، تسجل صفحة من صفحات المآثر.

قامت جاريةٌ إلى الستائر الحمراء فأرختها، أحسّ بانقباضٍ، وخامره شعورٌ بأنها أسدلت على المشهد الأخير في حياته، تحوّل نظره إلى الباب الذي أُوصِد للتوِّ فتسمّرت عيناه، وبات يتوقّع وصول قادمٍ لا تمنعُه الحصون المنيعة ولا البروج المشيدة، إنه ملك الموت، فقد أيقن بدنوّ أجله، وكأن مسافرًا بلا رجعةٍ جالسًا بين أهله ينتظر مرورَ القافلة أمام داره ويترقّب نداء الحادي عليه.. هيّا يا فلان، الرحيل الرحيل.

نظر بحسرةٍ ممزوجةٍ بإشفاق إلى تلك الوجوه الحسان التي أحاطته، إحداهنَّ وضعت يدها على خدّها الذي يتوهج كالجمر، وقد انحدرتْ منه قطرةٌ كحبّة لؤلؤ، وأخرى تتنهّدُ كهديل حمامةٍ ودّعت إلفَها، وثالثة تمسح بيدِها الحانية على جبينِ الملك، فينعشُه ذلك العطر الذي يشمُّه بين أناملها، فيزفر زفرة تنمّ عن حسرةٍ وألم على فواتِ تلك المباهج، ويلتفتُ عن يمينه فإذ بغايةِ المنى محظيَّته المحببة لقلبه، وفي يدِها إبريقُ ماءٍ مقطّر، فتسكبُ له في كأسٍ، وتدنيه من فمه، فتقترب أنفاسها العاطرة من نفسه، وينظر لعينيها الواسعتين، ويقرأ فيهما تلك الذكرى الحُلوة التي لا يمكن نسيانها حتى في هذه اللحظات.. حين رأى تاجر الجواري أنها لا تصلح إلّا للملوك، فقد جمعت بين الجمال والبهاء، والأدب والظُّرف، فلا مكان لها إلّا في قصر ملك المرية،

فلمّا أدخلوها إلى قصر المعتصم، ومثلت بَين يَدَيْهِ، وعليها أجمل الثياب وأحلى حُلِي؛ تأمّل في محاسنها فأولع بمفاتنها، فتباسط معها، وسألها: ما اسمك؟

قالت: غاية المنى.

فأعجبه اسمها الجميل، وأراد أن يختبر ظرفها وأدبها، فقال لها أجيزي: ســـل هـوى غَايَة المنى

من كسا جسمي الضنى

فقالت:

وَأرَانـِي مـــدلَّها

سَيَقُولُ الْهوى أَنا

فطرب لذلك أيّما طرب، وفرح بها أعظم الفرح، وضمّها إلى حريمه، فأضحت من أحبّ نسائه إليه.

ذكرياتٌ حلوة، تمرُّ بخاطره، وقد باتت أنفاسه المتبقية معدودة، فها هو يودّع مملكته الجميلة، التي تربّع على عرشها إحدى وأربعين سنة، وكأنها ياحسرتاه عشية أو ضحاها، بل ويودع ملكه الذي نزع منه قبلَ انتزاع روحه بلحظاتٍ، المرض يحاصره من قريب، بينما المدينة محاصرة من قبل جيش المرابطين، الذين عبروا البحرَ من بلاد المغرب ودخلوا الأندلس لحماية أهلها من شرّ العدوّ المتربص بهم، ومن شرور الفرقة والتشرذم، ومن شَرَه وطمع ملوك الطوائف وتنازعهم.

لحظات عصيبة تمرّ كأنها الدهر، وقد دخل عليه مَن لا يمنعهم حرسٌ ولا يحجبهم حاجبٌ، وها هو الآن ينازع الموت في غرفته، لكنه حتى في هذه اللحظات التي تعالج فيها الروحُ وتودِّع الجسد، لا ينعمُ بالهدوء والسلام، ففي خارج الغرفة حركة وضجيج، مما كدّر عليه هذه اللحظات التي تحتاج لصفاء، فالبلدة محاصرة، والمعارك دائرة، وصهيل الخيل، وصليل السيوف، وصرخات الجنود تصل لغرفته، فيزداد عناؤه، وتشتدّ محنته، ويقول: لا إله إلّا الله، نُغِّصَ علينا كلّ شيء حتى الموت، لقد جاء الموتُ، وتسلّل الأعداء، فدمعت عينُ حظيَّةٍ له، قالت: فلا أنس طرفًا إليَّ رفعه، وإنشاده بصوت لا أكاد أسمعه: تَرَفَّقْ بِدَمْعِكَ لا تَفْنِهِ

فَبَيْنَ يَدَيْكَ بُكَاءٌ طَوِيلْ

ثمّ دعا في اللحظات الأخيرة ولدَه المقرّب منه، وقال له يا بني: هذا هو الملك، وهذه نهايته حسرة وندم وحساب طويل، يا بني جرّد نفسك من

مطامح الدنيا، وعش خامل الذكر، وتوارى عن الناس تسلم، ويصفو لك العيش.

ثمّ أدركه الموت، فمات بسلام.

وامتثل الابنُ لوصية أبيه، بعد أنْ فارق هذه الدنيا الفانية، ففارق الملكَ وركب البحر، حاملًا معه ما تيسّر له حملُه، كما أوصاه أبوه، وعاش خامل الذكر، مغتربًا. ([66]).

وصدق ربّنا- جلّ وعلا- إذ يقول (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [الحديد: ٢٠].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# -39-

# نِعْم المعلِّم

في حياة طالبِ العلم مواقفُ لا تنسى مع معلِّمه، سيَّما إذا كان المعلمُ حريصًا على طلابه، رفيقًا بهم، غيورًا على العلم، ينقل لطلابه حبّ العلم والشغف به، ويتعّهدهم بالموعظة والتذكرة، فلا ينسى طالبُ العلم تلك الهمسات الصادقة، وتلك المواقف النبيلة من فضلاء أساتذته، الذين علّموه وربّوه.

حكى الفقيه أبو محمد هارون بنُ عاتٍ، أنه رحلَ من شاطبة إلى مرسية في طلب العلم على فقيهها وعالمها الفقيه أبي جعفر الخُشني، وكان له موقفٌ مع شيخه، صار ومضةً كاشفةً ونقطةً فاصلة في حياته العلمية، قال: كنتُ أيامَ دَرْسي في مُرسية على الفقيه أبي جعفر الخُشني، قد نزَلَ عليّ بعضُ مَعارفي من أهل شاطِبة، فشَغَلَني واجبُ الضيافة وإكرامُ الضيف، عن مطالعةِ درسي ومذاكرته، جلسنا بعد العَشاء وتسامرنا حتى مضى هزيعٌ من الليل، ولم نستسلم للنوم إلّا في وقتٍ متأخرٍ، فلما أصبحتُ صليتُ، وقدّمت الطعام لضيفي، ثمّ انصرفتُ على عُجالةٍ لدرسي شيخي دون أن أتمكّن من النظر في دفتري.

أدركتُ الشيخ قبلَ أن يبدأ الدرس، وقد جلس على كرسيٍّ، وأمامه جزءٌ من المدوَّنة، وهي الموسوعة في الفقه المالكي، كان معلّمنا من أبرع وأمهر مَن درَّس «المُدوَّنة»، وكان- رحمه الله- يتوقّد ذكاءً، معَ جودة قريحة، وبراعة استنباط، ودقّة ملاحظة، فإذا تكلم استفاض وتبحَّر، فإذا نظرتُ إلى وجهه وهو مستغرقٌ في الدرس، وجدتُ نُبلًا وبِشرًا، فقد كان أصيلًا وجيهًا، كَرِيم الْمَحْتِد، طَيِّب الأَعْرَاقِ، كاملَ المروءةِ مشهورَ الوفاء، أبيَّ النَّفْس سَرِيَّ الهِمّة، جميل الطَّبع، رَصِينَ العقل، جَزْلَ الرأي ، فكنا نحبُّه ونهابُه، ونتعلم مِن علمه كما نتعلم من سمته.

بدأ الشّيخ- كعادته- يطرح المسائل علينا في الدرس السابق، يُلقيها من حِفظِه، قصّر جميع الطّلبةِ في إيرادِ الجوابِ عنها، حتى انتهَى بصرُه إليَّ، وحدّق فيّ دون أن يتكلم، وبانتظار الواثق بردّ الجواب، أصغى إلي مطمئنًّا لذلك، لا يعتريه شكٌّ في أنني سأهتدي للجواب الصحيح، وأنطقه بلسان فصيح، لكنّ أمله خاب، إذ لم آتِه بالجواب، فاكفهرّ وجهُه، وألقَى الكتاب من يدِه، وقام مُغضَبًا، وانصرف عنّا إلى بيته، دون أن ينبس بشفة.

وتفرّقنا بخيبة أملٍ، وحسرةٍ على ما فاتنا، لم يساورنا شكّ أنه فعل ذلك حرصًا علينا، واتجهتُ نحو منزلي، وكان لزامًا أن أجتاز في طريقي بداره، وحانت منّي التفاتةٌ نحو بابها، فإذ به جالسٌ في دِهْليز دارِه، وهو الممرُّ الذي يربط

بين البوابة مفضيًا إلى صحنِ الدار، فلمحني ونادى علي، ودعاني، فمشيتُ إليه على استحياءٍ، ووقفت إزاءه منكسًرا، فأنّبني واشتَدَّ عليَّ في القولِ، وقال: جئتَ من شاطبة لمرسية، تركْتَ وطنك وأهلك ودارك، وأتيْتَ لطلبِ العلم هنا، ثمّ تُفرِّطُ وتقصّر؟ فاعتذَرْتُ له بضَيْفي الذي باتَ عندي، فقال منكرًا وموبّخًا: ما ينبغي لطالبِ العلم أن يَبِيتَ عندَه أحد، ولا أن يَبِيتَ عندَ أحد، ولا ينزِلَ عليه ضَيْف، ولا يشتغلَ بأحدٍ من مَعارفه، ولا يَصرِفَه شيءٌ عمّا هو بسبيله. فشكرتُه ونَفَعني نُصحُه، وما وقَعْتُ بعدُ في مثلِها.

ولازمته سبعَ سنين، حضرتُ شرح المدوّنة عدّة مرات، ونفعني الله بعلمه، ثمّ عدت إلى بلدي، واشتغلتُ بالإفتاء والتدريس، وتوليت قضاء شاطبة([67]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# ليلةُ أنسٍ في قصر طليطلة

حلّ المساء على طليلطة، وأوى الطيرُ إلى أعشاشه الدافئة، ولاذتِ الوحوش بالجحور والأوكار، وأضاء القمر سماء طليطلة. وبعدَ غياب القمر، بدتِ النجوم المتناثرة في السماء قطعًا من الزمرد الأخضر والماس الأصفر، على بساطٍ قاتمٍ أزرق، ومن حديقة الورد داخل القصر الملكيِّ هبَّ نسيمٌ عليلٌ، محمّلًا بشذًى الياسمين، بينما بدتِ القبة التي تتوسط حديقة القصر كأنها صرح ممرد من قوارير، بعد أن أوقدت الشّموع الصفراء، وأُسرجت المصابيح النحاسية، وبدا المأمون ملك طليطلة في وسط البحيرة متكئًا على وسائد ناعمة لينة، مبثوثةٍ على بساطٍ فخم لا يمسه الماء، فوق الزجاج البلوري كأنّ البساط يطفو على صفحة البحيرة، بينما احتشد المغنون، وطفقوا يعزفون على أوتار القلوب، يبتكرون من أطرب الألحان ما يسلب الألباب، يتوسطهم مغني الملك وقد احتضن عوده، كما تحتضن الأمّ وليدها، وعلى رأسه يعتمرُ قلنسوة سوداء من الديباج، تتسقُ مع ثوبه الأخضر المصنوع من الحرير، والمنسوج بخيوطٍ دقيقةٍ من الذهب، كان المأمون قد أهداه له يوم أن أطربه وأشجاه في مجلس الأنس الذي عقده للخواصّ يوم سابع حفيده يحيى، ذاك الاحتفال الأسطوري، الذي لا يُنسى.

طربَ المأمون، وهو يسمع مغنّيه الأثير، وأخذ يصفّقُ ويدندن، على وفور حلمه: باكـــر لبكـــر الدِّنان إنَّ

هداء العروس في السحر

واشرب عقارًا تخال حمرتَها

تحرقُ أيدي السقاةِ بالشرر

فإن يحيى أحيـــا بدولتـــه

ما قد محـــاهُ تصرفُ القدر

ملكٌ هو الدهــر في عزمته

يطلع فينــا بطلعـــة القمر

طاح ابن ذي النون طربًا، ونظر إلى السقف الزجاجي في إباءٍ وشمم، وأمر لوقته بخلعة وجائزةٍ على المغني، كساهُ ثوبًا حريريًّا، ووصله بمائتي دينار ذهبًا.

مما ألهب حماسَ المغني، فأنشد مادحًا للملك، واصفًا قصره المشيد: قصرٌ يقصّر عن مداه الفرقدُ

عذبت مصادرُه وطاب الموردُ

نَشَرَ الصباحُ عليه ثوبَ مكارمٍ

فعليه ألويةُ السعــادة تعقدُ

وكأنّما المأمــونُ في أرجائِه

بــدرُ تمــامٍ قابلــته أسعد

لم يكن هذه المرة مبالغًا، فقد أنفق الملك على هذا القصر أموالًا طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبّة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب.

قصرٌ رائعٌ يسر الناظرين له من الداخل أو الخارج من قريب أو من بعيد، لو كنت على ضفة نهر التاجو ونظرتَ إليه، ستجد بناء حصينًا شامخًا يربو عن الأرض بمئات الأمتار، وتظهر لك أبراجُه العالية وأسواره المرتفعة تعانق السماء، وتستطيع أن ترى وأنت على ضفة النهر بعض بناياته الجميلة، وتلوح لناظريك أشجار السرو والزيتون التي تطلُّ من هذا القصر الملكي.

فإذا حالفك الحظُّ وجلست ساعة أصيلٍ في شرفة القصر، أو متعت ناظريك بإطلالةٍ صباحيةٍ من البرج العالي على ضفة نهر تاجو؛ ستراه على مدِّ البصر كيف يتلوى وهو في مسيرته الطويلة نحو الشرق، حيث يصبّ ما تبقى منه في نهاية رحلته في بحر الظلمات «المحيط الأطلسي» قريبًا من لشبونة عاصمة البرتغال حاليًا.

ومن الجهة الأخرى، منظرٌ خلّابٌ حيث تنحدر البيوت من أعلى الجبل إلى ضفة النهر الذي يلتفّ حول طليطلة، فيحدب عليها وينعطفُ معها، مشكّلًا حاجزًا طبيعيًّا، فضلًا عن التلة العالية التي تربض المدينة فوق سفحها، منظرٌ ما أجمله وأبهاه!

أمّا الصورةُ الأجملُ فإنها منظرُ الناعورة التي ترتفعُ تسعين ذراعًا، فتحمل الماء من أسفل النهر لتصبَّه من دلائها في جدول يجري سلسلًا إلى شوارع طليلطلة النظيفة، فيسقي بيوتها، ويروي حدائقها الجميلة، بأشجارها المثمرة التين والزيتون والرمان والعنب، والورد والريحان والياسمين الذي يتسلق الجدران المطلية بالبياض، ومنظر أبوابها الأنيقة، ونوافذها المزدانة بالزهور، لقد فاقت هذه الناعورة نواعير حماة.

وكان مما يطرب الملك ولا يملّ من سماعه، سيّما حين يجلس في هذا المكان الساحر الذي يؤثره على غيره أن يسمع في صفة البحيرة والقبة اللازوردية التي تغطي مجلسه، بينما يرى الماء يسيل فوقها: شمسيّة الأنساب بدريّة

يحار في تشبيهها الخاطر

كأنّما المأمون بدر الدّجى

وهي عليه الفلك الدائر

يا لروعة الوصف! ويا لجمال الموصوف!

حين يجلس الملك والماء من حوله، وفوقه قبة بلورية، يصل لها الماء في أنابيب دقيقة ثمّ ينساب على زجاجها الأصفر كأنه سبائك الذهب، وفق هندسة عجيبة، أنفق المأمون في تصميمها وتشييدها من خزائن الذهب والفضة الكثير والكثير، حتى صار ذلك المجلس أعجوبة من أعاجيب الزمان.

وبينما المأمون متكئٌ في نشوةٍ وسرور، وحوله الخدمُ والحشمُ، والجواري الحسانُ، يطربُ في حبور بأعذب الألحان، ويحتسي في تلذّذ كؤوس الخمر، ويتناول في بهجةٍ أنواع النُّقل، ويقضم أطايب الفاكهة تارةً، ويشمّ عبق الورود والرياحين تارةً أخرى، وينتشق بخور العنبر والعود، مصغيًا بكلّ جوارحه للألحان والأغاني، ممتِّعًا ناظريه بالجواري الحسان، غناءٌ وخمرٌ، ولهوٌ ومرحٌ، وغفلةٌ وسُكرٌ، بينما هو كذلك عاكفًا على الملذات، متكئًا، بين يديه صحاف الفاكهة وأكواب الشراب، وحوله الكواعب الأتراب: إذ سمع منشدًا ينشد: أتبني بناء الخالدين، وإنما

بقاؤك فيها، لو علمتَ، قليل

لقد كان في ظلِّ الأراك كفاية

لمن كلّ يوم يعتريه رحيل

فوقع الكلام على قلبه كالسهام، وارتاع مما سمع، وغُصَّ حلقُه بما يطعمُه، فأمر بفضِّ مجلس الأنس والسماع، ونهض إلى غرفته، بعد أن تكدَّر بعد صفوٍ، واستوحش بعد أنسٍ، واغتمّ بعد هناء وسرور، ثمّ لم يلبث بعد هذا إلّا يسيرًا حتى فارق الحياة، مودِّعا ملذاتها، ومشيِّعا مسرَّاتها، وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه من مباهجها.

وقد قيل:

النّـــاسُ في غَفَلاتِهـــِمْ

ورَحَـــى المنيّــةِ تَطّحَنُ

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ

ترقَّب عنه صاحبُه زوالا

يا ويحه ذاك المنادي! لقد نغّص عليه حاله، فانقبض قلبه، وضاق صدره، وانطلق لسانُه فقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أظنّ أنّ الأجل قد قرب»، فلم يلبث بعدها غير شهر حتى توفّي، ولم ينعم بعدَها في الجلوس تحت تلك القبّة البلُّورية ([68]).

## -41-

# كيف سقطت طليطلة؟

# انفراط العقد

كانت بداية سقوط مدائن الأندلس حينما انفرطَ عقدُ الخلافة فيها، وانقسمت إلى ممالك متفرقة، وتناحرَ ملوك الطوائف فيما بينهم، واستبدّت بهم المطامع والأحقاد، حتى استعانوا بجيرانهم النصارى على بني ملّتهم، فزادوهم رهقًا، وقويتْ شوكة أعداء الإسلام، واتّسع نطاق حكمهم يومًا بعد يوم على حساب نقصان أطراف الممالك المتناحرة، التي آثرت موالاة أعداء الإسلام، وتقديم التنازلات لهم على التّصالح مع الجيران، وعكف كثيرٌ من الحكام على اللّهو والطرب والخلاعة، فقرّبوا الشعراء والمغنين، وأبْعدوا الفقهاء والواعظين، وانشغلوا ببناء القصور والدور، والمبالغة في تزيين مجالس الأنس والطرب، والتفنّن في الملاهي والملاعب، على حساب الإهمال في حفظ الثغور وبناء الأسوار والحصون، وتعبيد الطرق، وشقِّ الأنهار، وغرس الأشجار، ورعاية الجند، وفي مقابل رفع الضرائب والمكوس على عامّة الشعب للإنفاق الباذخ على الملذات، والتبذير في النفقات، والإسراف في الولائم، وتقديم الهدايا والإتاوات لملوك النصارى الذين استفحل أمرُهم واستغلظ عودُهم.

قال أحدُ المؤرخين بعد وصفه لجزيرة الأندلس: «ولم تزلْ هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أنْ طما بمترفيها سيلُ العناد والنفاق، فامتاز كلّ رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلًا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كلّ منهم يشنّ الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوٍّ في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبقَ في أيديهم منها إلّا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كلّ عام على الكبير والصغير مقرّرة، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وقدرًا في سابق علم الله مقدورًا».

وليَ طليطلة المأمونُ يحيى بن إسماعيل بن ذي النون الهواري؛ خلفًا لأبيه، سنة 435، فامتدت أيامه خمسًا وعشرين سنة، عاكفًا على اللذات والخلاعة، متخذًا بطانة السوء، مستعملًا للسفلة على أمور البلاد، ومصادرًا لأموال الرعية، ومهادنًا للعدو، فكان مطمعًا لهم.

وذات يومٍ أراد أن يستعين بالفرنج على ما حوله من المدائن والحصون لينتزعها ممن هي بيده. فكتب إلى ملكٍ من ملوك الفرنج- كان قريبًا منه

وبينهما مودةٌ ومراسلة- يقال له شنشكند، وقال له «اخرج إليَّ في مائة من فرسانك فإنّني في مكان كذا لأجتمع بك في أمرٍ لك فيه راحة» فخرج إليه شنشكند في ستة آلاف فارس، وخرج ابنُ ذي النون في مائتي فارس من عسكر طليطلة.

وكمّن الفرنجيُّ أصحابه خلف جبل بالقرب من الموضع، وقال لهم: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فاخرجوا إلينا بأجمعكم، فلمّا فعلوا ذلك ورآهم المأمون سُقِط في يده، وحيل بينه وبين عقله، فقال له شنشكند: يا يحيى، وحقِّ الإنجيل ما كنت أظنُّك إلّا عاقلًا، وإذا بك أَحْمَقُ خلق الله، خرجتَ إليَّ في هذا العدد القليل، وَسَلَّمْتَ إليَّ مُهْجَتَكَ بغير عهدٍ وَلاَ عَقد كان بيني وبينك قبل خروجك! ولا دين يجمعنا وقد أمكنني الله منك! فَلاَ نَجوتَ مِنِّي حَتَّى تُعطيَنِي مَا أطلب.

قال له: اطلب واقتصد.

قال: أطلبُ الحصن الفلاني والحصن الفلاني- وسمَّى حصونًا من حصون المسلمين بين طليطلة وبينه- وتجعل لي عليك مآلًا في كلّ سنة. فأجابه يحيى إلى ما طلب، وسلَّم إليه الحصون، ورجع إلى طليطلة شرَّ رجوع. وتواتر الخُذلانُ عليه إلى أنْ مات في سنة ستين وأربعمائة، وصارت ولايته إلى ابنه القادر يحيى، فمكث بطليطلة إلى أن ملكها الفرنج.

«ولم تزلِ النصارى تطوى حصونه حصنًا بعد حصن حتى استولوا على طليطلة في سنة ثمانٍ وسبعين بعد أن حاصرها ألفونس سبع سنين وملكها، واتّخذها دار ملكٍ، وغيَّر جامعها كنيسة، وردَّ المسلمين إلى مسجدٍ غيره وعوَّضهم مالًا، وقال: هذه كنيسةٌ كانت لنا فردّها الله علينا. وغادر القادر بالله إلى بلنسية غير مأسوفٍ عليه».

كان من أعجَبِ ما جرَى من النوادِرِ الدالةِ على الهزيمة والخذلانِ، وما يتبعه من شؤمٍ وبلاء؛ أنّ الحِنطَةَ كانت تقيمُ عندهم مخزونةً خمسين سنة لا تتغير ولا يؤثرُ فيها طولُ المدة بما يمنع من أكلها، فلمّا كانت السنةُ التي استولى عليها العدوُّ فيها لم ترفعِ الغلةُ من الأندُر حتى أسرع فيها الفساد، فعلم الناسُ أنّ ذلك بمشيئةِ الله تعالى لأمرٍ أرادَه من شُمُولِ البلوى وعمومِ الضَرَّاءِ فاستولى العدوُّ على طليطلة، وأنزل مَن بها على حُكمه، وخرج ابنُ ذي النون منها على أقبح صورة وأفظع سيرة، ورآه الناس، وبيده إسطرلاب يأخذ به وقتًا يرحَلُ فيه، إذ كان مولعًا بالتنجيم، فاغتاظ منه المسلمون وضحِك عليه الكافرون.

وخرج ابنُ ذي النون خائبًا مما تمنّاه، شرقًا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تودّ لو لم تطلع نجمًا إلّا كدرته عليه

حتفًا مبيدًا، ولم تنشئ عارضًا إلّا مطرته عذابًا فيه شديدًا. واستقرّ بمحلة أذفنوش مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب([69]).

# -42-

# اللقاءُ الأخير

هناك في مسجد طليطلة، قبل أن تشرق الشمس، جلس الشيخ محمد بن عيسى المغامي مستندًا إلى السارية المرمرية القريبة من المحراب، يستمع منصتًا في هدوء ووقار لقراءة أحد تلاميذه، كان الشيخ عالمًا متمكّنا من وجوه القراءات، يفدُ إليه الطلاب من جميع أنحاء طليطلة وسائر أرجاء الأندلس، كان يحلّق في آفاق رحيبة، وهو يتذوق حلاوة القرآن بصوتِ تلميذه الشجي، يسليه عن ذلك المصاب العظيم، ويسري فؤاده المكلوم بذلك الجرح الغائر، سقوط طلطيلة في أيدي النصارى.

لكنّه القرآن ربيع القلوب ونور الأبصار وجلاءُ الأحزان ومبدّد الهموم والغموم.

وبينما هو في رياض القرآن متبتلًا ومعلّمًا، إذ سمع صوت خيلٍ وجلبةٍ خارج المسجد، أصغى أذنه فلاحظ أنّ الضجيج يعلو رويدًا رويدًا، ثمّ كانت الصاعقة؛ عسكر الطاغية أذفونش الذين سقطت في أيديهم طليطلة يقتحمون المسجد، ويطأون على البسط بنعالهم بدون مراعاة لحرمة المسجد، فقد جاءوا بأمر الطاغية الحاقد لتحويله إلى كنيسة، وطمس كلّ معلَم من معالم الإسلام، وأزمعوا على محو الزخارف الهندسية المستوحاة من الطبيعة، والكتابات العربية التي تزين الجدران بآيات القرآن، لأمهر الخُطّاط وبأبدع الألوان، جاءوا بخيلهم ورجلهم يجرُّون عربات ضخمة محملة بالتماثيل والستائر التي نقشتْ عليها الصلبان، حيث أمر الطاغية بتعليق الصلبان في كلّ زواية وركن، ولصق الرسوم التي تظهر فيها صور العذراء وهي تحمل المسيح، وتعليق صورة زيتية كبيرة الحجم للمسيح وهو على خشبة الصليب، وعلى رأسه تاج من الشوك، وذراعه مشدودان، وقد سمرت يداه التي تسيل منها الدّماء على الخشبة، بينما وجهه شاحب يوحي بالمعاناة، وعيناه تحدقان في استكانةٍ يغمرهما الحزن.

هل يعقل أن يكون الربُّ بهذه الصورة التي تثير الشفقة والأسى! تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

جاءوا بخيلهم ورجلهم يحملون كلّ هذه اللوحات وقطع الفسيفساء وصلبان خشبية وأخرى نحاسية مذهّبة، وتماثيل وأيقونات من النحاس والمرمر، وأخرى مصنوعة من الجص الأبيض، حشدوا كلّ هذه الأشياء بغرض أن يحوّلوا المسجد إلى كنيسة، آملين الانتهاء من هذا العمل قبل غروب الشمس، ليأتي أذفونش ومعه زوجته وحاشيته في المساء ويحتفلون على أضواء الشموع بانتزاع طليطلة من أيدي المسلمين، ويبتهجون ويشربون نخب انتصار

الصليب، بينما الشيخ المغامي يواصل إقراء أحد طلابه، وقلبه يذوب غمًّا وحسرة ويتقطع كمدًا، على ربوع طليطلة وحصونها، التي سقطت صريعةً في أيدي النصارى الأسبان، ويعتصر قلبه ألمًا على المسجد الكبير.

لكنّ هذا الحزن والأسى لم يمنع الصليبيين من تنفيذ خطتهم المشئومة، فقاموا على عجلٍ بطيّ السجاجيد المبسوطة، حتى وصلوا لتلك السجادة التي يجلس عليها الشيخ، أتراهم- قبّح الله صنيعهم- يطوون بذلك صفحات مآثر المسلمين في طليلطة! كلّا والله، بل ستظلّ زاخرةً على مدى الزمان.

أشارَ الجنود والعمال إلى الشيخ الجالس على البساط بأن عجّل، لم يبق سوى البساط الذي تجلس عليه بدون مبالاة، لم يستجبِ الشيخ، وواصل الطالب القراءة متحديًا تلك القوة الغاشمة، التي تريد أن تحول بينه وبين آخر تلاميذه في مسجد طليطلة، صرخ قائدهم في الشيخ: كفى.. كفى، قم، انهض من هنا. مضى الشيخ دون أن يعيره اهتمامًا، وأشار لتلميذه في ثباتٍ أن واصل القراءة حتى تختم، متحديًا بذلك جند الطاغية، فأذعن التلميذ لشيخه ومضي في قراءته بصوتٍ عذبٍ حزينٍ، حتى انتهى من قراءته والجنودُ متحفزون، وقائدهم قد استشاطَ غضبه، ثمّ قام الشيخ في سكينة ووقار وصلى ركعتين، مودعًا بدموع حارّةٍ مسجد طليطلة، مستدعيًا تلك الذكريات الجميلة التي أمضاها في رحابه معلمًا وإمامًا. «فما جَسَرَ أحدٌ منهم على إزعاجِ الشيخِ ولا معارضتِهِ، وعصمَهُ اللهُ تعالى منهم إلى أن أكملَ القراءةَ، وسَجَدَ سجدةً ورَفَعَ رأسَهُ، وبَكَى على الجامِعِ بُكاءً شديدًا، وخرج ولم يعْرِضْ أحدٌ له بمكروهٍ».

وما إن خرج الشيخ حتى علتْ أصوات المعاول والفؤوس، تهدم وتطمس كلّ معلَم، حتى النوافذ الزجاجية المشرّعة، والأبواب الكثيرة أغلقوا معظمها لسدّ منافذ الضوء وتعتيم المكان، وشرعوا في بناء حوض التعميد، وغرفة الاعتراف، ونصب مقاعد خشبية صفين عن اليمين واليسار للمصلين، فلم تغربْ شمس ذلك اليوم المشهود حتى تحول المسجد لكنيسة، حتى القبة التي كان يعلوها الهلال النحاسي انتزعوه جاعلين مكانه صليبًا نحاسيًّا ضخمًا، ولم تسلم منهم أبواب المسجد المصنوعة من خشب الصاج، ومنبره المتخذ من الأبنوس المطعّم بالأصداف، إذ شوهوا مناظرها بهمجية.

خرج الشيخ ويدُه بيد تلميذه، والدموع تسيل من المحاجر، والتفت ليلقي نظرة إلى المسجد الكبير، نظرة وداع، نظرة حسرة وألم، بينما علا الجنودُ فوق سفح القبة الكبيرة لتنكيس الهلال، وتثبيت الصّليب النحاسي، وتعليق الأجراس. وكم من مسجد جعلوه ديرًا على محرابه نُصِبَ الصليب.

ومن بعيد تبدّت ناعورة طليطلة، وهي تسكب دموعها، من قواديسها العظام في الجدول الذي يسري على القنطرة، ويشقّ طريقه إلى البلدة، يشاطر كلّ بيت أحزانه.

بينما تراءت أشجارُ الزيتون على سفح الجبل بلونٍ أخضر معتمٍ، كأرملة متشحة بالسواد، وقد انحنت عناقيدُ الزيتون الأسود، تعلن حدادًا على ربوع طليلطلة. ثمّ أبرقت السماء وأرعدت، كأنها تعلن عن غضبها وتتوعّد الغاصبين، وجرى الماء فوق أخاديد الأرض، كأنها مرثية حزن على مسجد طليطلة المغتصب، وانهمرت في شوارع طليطلة وأزقتها تغسل ذلك العار.

«وخرج ابنُ ذي النون خائبًا مما تمناه، شرقًا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تودّ لو لم تطلع نجمًا إلّا كدرته عليه حتفًا مبيدًا، ولم تنشئ عارضًا إلّا مطرته عذابًا فيه شديدًا. واستقرّ بمحلة أذفنوش مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب».

وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، منذرًا ومحذرًا: يا أهل أندلس حثوا مطيكم

فما المقام بها إلّا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولًا من الوسط

ونحن بين عدوّ لا يفارقنا

كيف الحياة مع الحيات في سفط

ويروى صدر البيت الثالث هكذا: ومن جاور الشر لا يأمن بوائقه

كيف الحياة مع الحيات في سفط

وتروى الأبيات هكذا:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلّا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه، وأرى

سلك الجزيرة منثورًا من الوسط

مَن جاور الشرّ لا يأمن عواقبه

لقد مهّد سقوط طليطلة التي كانت حصينة منيعة، سقوط باقي ممالك الأندلس التي سرعان ما استولى عليه الفرنجة. نعم لقد كان سقوطها مغنمًا عظيمًا للنصارى، وخسارة هائلة للمسلمين، إذ أنها تقع في قلب شبه جزيرة أيبريا، فضلًا عن تضاريسها المنيعة.. لتصير طليطلة- فيما بعد- جسرًا لنقل العلوم التجريبية التي تميز بها المسلمون للغرب، بعد حركة ترجمةٍ واسعة للكتب العربية في العلوم الطبيعية، ومن هنا نهضت أوروبا، وأفاقت بعد سبات طويل، واستنارت بعد عصور مظلمة ([70]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# كلمة السر- رحلة البحث عن الكنز

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) [الصف: 6]

«فإذا جاء روحُ الحق ذاك، فهو يعلمكم جميع الحق، لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلّم بكلّ ما يسمع، و يخبركم بما يأتي، و هو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم». يوحنا: 33، 35.

في جزيرةِ ميورقة أعظم جزر البليار وواسطة عقدها، تلك الجزر الواقعة في البحر المتوسط شرق الأندلس، ثلاث أخوات متجاورات، ومتشابهات في الحسن والجمال؛ ميورقة الأخت الكبرى التي تتوسط منورقة ويابسة، إذا قال الأندلسيون: الجزيرة، فإنهم يعنونها، فتحها المسلمون سنة 290هـ، إلى أن تغلّب عليها العدوّ الصليبي بجيوش غاشمة مدفوعة بالأحقاد والأطماع، فخربوها تخريبًا، بعد طول مقاومة من أهلها وملاحم بطوليةٍ في الصمود والشجاعة، كان ذلك سنة 508 هـ، ثمّ لاذ العدو بالفرار حاملًا معه الغنائم والذخائر النفيسة، ودخلها المرابطون، فالموحدون، وبعض الأمراء الذين انفردوا بحكمها، حتى سقطت في النهاية بأيدي الصليبيين، بعد طول الحصار والقتل والسبي، فكان استيلاؤهم على الجزيرة في عام 627هـ.

وُلدَ إنسيلم في بيتٍ أنيقٍ جميل على مقربةٍ من المرسَى، تحيطه أشجار التين والزيتون، التي يمرُّ بها نهرٌ متدفقٌ من الجبال، كان والده تاجرًا ميسورًا، وإذْ كان باكورة الأبناء فقد فرح بقدومه أعظم الفرح، واستبشر، ونذره للكنيسة. فنشأ الطفل في أحضانِ تلك الجزيرة المعروفة بطيب التربة، واعتدال الهواء، لا يرى قاطنُها شيئًا من الهوام المؤذية، ولا تساكنها الضواري من ذئب أو سَبُع أو حية أو عقرب، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره([71]).

وقد أجاد الشعراءُ في وصف جمال ميورقة الأخّاذ، وحسنها البديع ، فقال شاعر:

بلـد أعارتـه الحمامة طوقها

وكساه حلة ريشه الطاووس

وكأنما تلـك الميــاه مدامة

وكأن ساحات الديار كؤوس

وصفها الرسامُ والكاتب القطلوني «روسينول»؛ أي براتس، تلك الجزيرة، فقال: «إنها أرض النيلوفر الذي يبعث أريجه الغامض السحر والخدر في أعماق النفس مما يغري بالاستسلام لأحلام وردية، رجالها ونساؤها يعيشون في ربيعٍ دائم وحيوية متدفقة، وكأنهم لا يكبرون أبدًا».

ما إنْ بلغ إنسيلم ستّ سنوات حتى أسلمه أبوه إلى كتاب لمعلم من القسيسين، فقرأ عليه الإنجيل حتى حفظ أكثرَ من شطره في مدّة سنتين، وهذا أمرٌ نادرُ الحدوث، ثمّ أخذ الطفل في تعلم لغة الإنجيل ودرسَ المنطق في ستّ سنين، ثمّ ارتحل الفتى من بلده ميورقة جهةَ الشمال الغربي إلى مدينة لاردة؛ وهي مدينة جميلة عامرة في قطلونيا. كانت تتبع سرقسطة في العهد الإسلامي فلما سقطت في أيدي النّصارى الأسبان صارت مدينة العلم عندهم، فضلًا عن اشتهارها بالزراعة والتجارة، إذ يشقُّها وادٍ كبيرٌ يهبط من جبلٍ يتوسطُ الجزيرة، فيسقي الحقول والبساتين، وهي مشهورةٌ بزراعة الكتان ونسجه، وبها كثير من المتاجر، وعن حسنها ورخائها قال أحد الرحالة: ورأيت التبر مختلطًا برملها، فعجبت كيف لا يجمعه الناس! إلّا أنه صحّ عند جميع أهل ذلك القطر أن النفقة في تحصيله لا تفي بقدر فائدته؛ فلذلك تُرِك. ورأيت الفلاحين بها يقسمون الخوخة على أربعة أفلاق ويضعونها في الشمس، ومن العجيب قيامُهم بتجفيف القرع والجزر؛ فإذا أرادوا أكله في الشتاء نقعوه في الماء وطبخوه كأنه طري في أوانه.

وبهذه المدينة الجميلة مدرسةٌ لاهوتية عظيمة يجتمع طلبة العلم من النصارى، وينتهون إلى ألف رجل أو ألف وخمسمائة رجل، ولا يحكم بينهم إلّا القسّ الذي يقرءون عليه، وأكثر غلات أوطانها الزعفران، ينبتُ في البراري كالحشائش، ويحصد، فيباع بأغلى الأثمان.

يقول إنسيلم: قرأت في هذه المدرسة علمَ الطبيعيات والفلك مدة ست سنين، ثمّ تصدرت فيها أقرئ الإنجيل، وألقِّنُه ملازمًا لذلك مدة أربع سنين.

ثمّ ارتحلت إلى مدينة بلونية، وهي مدينة كبيرة جدًّا، وأنيقة، بنيانها بالآجر الأحمر الجيد، لكل معلم من أهل صناعة الآجر طابع يخصّه، وعليهم أمينٌ يراقب جودة الطين وصلاحيته، فإذا انفلج أو تفرك منه شيء غرمَ الذي صنعه قيمته وعوقبَ بالضرب؛ لذا كانت البنايات متينة ورصينة، والشوارع جميلة مستقيمة، والميدان الرئيسي رحبٌ فسيح.

وهذه مدينة عِلم عند جميع أهل ذلك القطر، ويجتمع بها كلّ عام من الآفاق أكثر من ألفي رجل يطلبون العلم، ولهم زيٌّ يلبسونه؛ وهو «الملف»، ومهما يكنْ طالب العلم منهم سلطانًا أو ابن سلطان فإنّه لا يلبس إلّا ذلك؛ ليمتاز به الطلبة من غيرهم. ولا يحكم فيهم إلّا القسيس الذي يقرؤون عليه. فسكنت

بها، وبها كنيسة لقسيس كبير السنّ والقدر عندهم اسمه «نيقولا مارتيل»، وكانت منزلته فيهم بالعلم والدين والزهد رفيعة جدًّا انفرد بها في زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فكانت الأسئلة في دينهم تردُ عليه من الآفاق من جهة الملوك وغيرهم وبصحبة الأسئلة من الهدايا الثمينة ما هو الغاية في بابه، ويرغبون بالتبرُّك به وبقبوله لهداياهم من روائع التحف ونفائس الجواهر ونوادر الطُّرف، وبهيِّ الحلل والخمائل من الصوف والحرير والكتان، فضلًا عن أجودِ الطِّيب، والتماثيل والأيقونات والشّمعدانات من المرمر والعاج والأبنوس، وثريّات من الذهب الخالص، والبللور الذي يضارع الماس، يرسلونها ويتشرّفون بقبوله لها، فقرأت على هذا القسيس علم «اللاهوت» أصول دين النصرانية وأحكامه، ولم أزلْ أتقرَّب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفه، حتى صيّرني من أخصِّ خواصه، وبلغتُ في خدمتي له وتقرُّبي إلى أنْ دفع لي مفاتيح سكنه وخزائن مأكله ومشربه، وبقي جميع ذلك كلّه رهن يدي، لم يستثنِ من ذلك سوى مفتاح بيتٍ صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، خمَّنتُ أنه بيتُ خزائن أمواله ومستودع نفائس التحف التي كانت تهدَى إليه من الملوك والأمراء، والملكات والأميرات وغيرهم من الوجهاء والأعيان والأثرياء.

لازمتُ أستاذي على ما ذكرتُ من القراءة عليه والخدمة له عشرَ سنواتٍ ثمّ أصابه مرض ذات يومٍ، فتخلّف عن حضور مجلس قراءته، وانتظره أهلُ المجلس وهم يتذاكرون في مسائل من العلم إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام «إنه يأتي من بعدي نبي اسمه البارقليط»، وفي بعض النسخ «فإذا جاء روح الحق ذاك، فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكلّ ما يسمع، و يخبركم بما يأتي، وهو يمجّدني لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم». يوحنا: 33، 35.

قال: فتباحثنا في تعيين هذا «البارقليط»، مَن هو؟ وقال كلّ واحد منهم بحسب علمه وفهمه، فعظُم بينهم في ذلك مقالهم، وكثر جدالهم، ثمّ انصرفنا من غير تحصيل فائدة في تلك المسألة.

فأتيت مسكنَ الحبر صاحب الدّرس المذكور، لأطمئنّ عليه، وأخبره بما حدث، فبادرني بالسؤال، قال يا بني: ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتي عنكم؟

فأخبرته باختلافِ القوم في اسم المقصود من البشارة، وأنّ فلانًا قد أجاب بكذا، وفلانًا بكذا، وسردتُ له أجوبتهم.

فقال لي: وبماذا أجبت؟ فقلت: بجواب القاضي فلان في تفسير الإنجيل.

فقال لي: لقد اقتربت، وفلان أخطأ، وكاد فلان يُقارب الصواب، ولكن الحقّ خلاف هذا كله!

فقلت مندهشًا: وما الصواب يا سيدي؟؟!

فسكت.

فعاودت سؤالي: يا سيدي، ما الصواب!؟

فنظر إليَّ نظرة عطفٍ وإشفاق، ثمّ صرف بصرَه إلى ركن الغرفة، وصمت قليلًا، ثمّ سار خطواتٍ، ثمّ التفت صوبي، واتجه ببصره إليّ وأقبل نحوي، ووضع يديه على كتفيّ، وقال: يا بنيّ، إن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلّا العلماءُ الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلّا القليل.

فزاد ولعي وشوقي لمعرفة هذا الاسم؛ فارتميت على يديه أقبِّلهما، وقلت له: يا سيدي قد علمتَ أنني ارتحلتُ إليك من بلد بعيد، ولي في خدمتك عشرُ سنين حصَّلت عنك فيها جملة من العلوم لا أحصيها، فلعلّ من جميل إحسانكم أن تمُنُّوا على تلميذكم بمعرفة هذا الاسم الشريف!

فجلس القسّ على مقعده الوثير، وأطرق مليًّا مسندًا رأسه براحتيه، وأخذت عيناه تذرفان، وقال: يا ولدي، والله إنك لتعزُّ عليَّ كثيرًا من أجل خدمتك لي وانقطاعك إليّ، وإنّ في معرفة هذا الاسم الشريف لفائدةً عظيمةً، لكن أخاف عليك أن تُظْهِرَ ذلك.

قلتُ: وماذا لو أظهرتُ؟ وهل يجوزُ كتمانُ العلم؟ هل نتعلم لنعلِّم أم لنكتم يا معلّمي؟

قال: إنْ علمت بهذا الاسم وأظهرت، فلسوف يقتلك النّصارى في الحين!

فزادني كلامه تعطُّشًا لمعرفة الجواب، فقلت له: يا سيدي أقسمُ لك بالله العظيم، وحقّ الإنجيل، ومَن جاء به؛ لا أتكلم بشيء مما تُسِرُّ به إليَّ إلّا عن أمرك.

فقال لي: أتذكر يا ولدي حين سألتك في أوّل قدومك إليَّ عن بلدك وهل هو قريب من المسلمين؟ وهل يحاورونكم أو تحاورونهم؟ لأختبر ما عندك من المنافرة والبغضاء للإسلام.

- نعم يا سيدي، أذكر ذلك.

- فاعلمْ يا ولدي أنّ البارقليط هو اسم من أسماء نبيهم محمد، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان النبي دانيال عليه السلام، وأخبر أنه سينزل

هذا الكتاب عليه، وأنّ دينه دين الحق، وملّته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل.

«وَفِي أَيَّامِ هؤُلاَءِ الْمُلُوكِ، يُقِيمُ إِلهُ السَّمَاوَاتِ مَمْلَكَةً لَنْ تَنْقَرِضَ أَبَدًا، وَمَلِكُهَا لاَ يُتْرَكُ لِشَعْبٍ آخَرَ، وَتَسْحَقُ وَتُفْنِي كلّ هذِهِ الْمَمَالِكِ، وَهِيَ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ». سفر دنيال 2/44

فانقبض صدري! واهتز قلبي! وارتجف فؤادي، وكاد يُغمى عليّ من هول الصدمة.

قلتُ متلعثمًا: يا سيدي، أعدْ علي ما تقول؛ فإني لا أكاد أصدق!

فأعاد مقولته بصوتٍ منخفضٍ.

فقلت وأنا أرتجفُ: فما تقول في دين هؤلاء النصارى؟

فقال لي هامسًا: يا ولدي، لو أنّ النصارى أقاموا على دين عيسى الأول، لكانوا على دين الله لأنّ عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله.

ثمّ اعتدل في جلسته، ونظر إلى الحائط أمامه، حيث عُلقت صورة لمريم وهي تحمل المسيح رضيعًا: وأنا على دين عيسى الأول، أؤمن بأنّه رسول من عند الله، وأؤمن ببشريته، وبشارته بخاتم الأنبياء.

فقلت والعَبرة تخنقني: يا سيدي، وكيف الخلاص من هذا الأمر؟

فاقترب مني وهمس في أذني: يا ولدي، بالدخول في دين الإسلام.

فقلت له هامسًا: وهل ينجو الداخل فيه؟ فقال لي: نعم يا بني ينجو في الدنيا والآخرة.

فزاد ذلك من تعجُّبي ودهشتي، وانتفضتُ وأخذتُ أذرعُ الغرفةَ الأنيقة جيئةً وذهابًا، وقلتُ له مشفقًا عليه: يا سيدي، إنّ العاقل لا يختار لنفسه إلّا أفضل ما يعلم؛ فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك منه؟

فقال لي بصوت يفيض بالأسى: يا ولدي، إنّ الله لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك من فضل دين الإسلام وشرف دين الإسلام إلّا بعد أن كبر سني ووهنَ عظمي، ولا عذر لنا فيه بل حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنِّك لتركتُ كلّ شيء ودخلت في الحق، ولكنْ حبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة، كما قال إنجيلنا، ثمّ إنّك ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والقدر والعز والشّرف، وكثرة عَرَض الدنيا، ولو أني ظهر عليَّ شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلني العامة في أسرع وقت.

وبينما تفيضُ عيناه بالدمع حزنًا، أخذ يتحسّس بيديه المرتجفتين عنقه الذي انقسمَ لعشرات التجاعيد، وهبطتِ اليدان نحو نحْره، وكأنه يتأكد أنّ رأسه لم تفارق جسده بعد!

رفعتُ بصري نحو خزانة الكتب الأنيقة، والتي انعكس على زجاجها ضوءُ المصباحِ الذي وضع على منضدةٍ من خشب الأبنوس، وإلى جانبه تمثالٌ صغير للعذراء مصنوعٌ من العاج، وآخر من الفضة، ومسبحةٌ من الكهرمان الأصفر، ونسخة من الإنجيل مغلَّفة بجلد الغزال، رسم عليها الصليب بماء الذهب.

- إذًا، لماذا لا تفكر في الهرب والخلاص يا سيدي؟!

غاص الحبر في مقعده الوثير، وأسند ظهره الذي أحناه الدهر، ونظر إليّ بعينيه الغائرتين، وقال بصوت واهن: هبْ يا بني أني فررتُ، ونجوت منهم، وخلصت إلى المسلمين، فماذا أقول لهم؟ وماذا سيقولون عني؟

أقول: إني جئتكم مسلمًا! فيقولون لي- بغير مبالاة-: قد نفعتَ نفسك بالدخول في دين الحق؛ فلا تمنّ علينا في دين خلَّصت به نفسك من عذاب الله.

فأبقى بينهم شيخًا كبيرًا فقيرًا، ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم، ولا يفقهون قولي، ولا يعرفون حقّي، فيهلكني الجوع ويضنيني الحرمان، وأموت بينهم غريب الوجه واليد واللسان! وأنا والحمد لله على دين عيسى، وما جاء به من بشاراتٍ، يعلم الله ذلك مني.

أُسقط في يدي، وبدأت الأفكار تتداعى في رأسي، والخواطر تتوارد، وشعرتُ كأن عصابة سوداء رُفعت عن عيني، فأصبحت أبصر بعد أن كنت أعمى؛ وقيودًا تتحطم، كانت تكبّل قدميٍّ ويديّ، فأنطلق حرًّا كطائر خرجَ من قفص، أو سجينٍ أُفرج عنه، سجينٌ أنا في أوهامي وتصوّراتي! حقًّا كنت سجينًا فتحررت.

وتداعت الأفكار، وتواردت أطيافُ الذكريات، وكأنه دولابُ ماء يدورُ على حافة نهرٍ ليصب في حقلٍ، ولا أدري كيف تذكّرتُ في هذه اللحظة تلك الحيل التي كانت تمارس بالكنيسة ليخدع بها البسطاء فكانت تنطلي عليهم، ومنها وضع الماء في أحواض وادّعاء أنه لا يتغير لأنه طاهر مقدس، بينما كان يُضاف إليه في ظلمة الليل من الملح وبعض الزيوت ما يمنعه من التعفُّن، فيظنّ العوام والدّهماء أنها معجزة كنسية، فيسلمون لعقائد الكنيسة بقلوبهم.

ويظنّ مَن يفعل ذلك أنه يخدم الرب!

وتذكّرت حين كنت أحتفل مع النصارى وأقدّم لهم الفطيرة والخمر، وأقول على لسان المسيح مخاطبًا الجموع: كلوا، هذا لحمي، واشربوا من دمي. ثمّ أسجد للفطيِرة التي تجسد المسيح! أين كان عقلي حينئذ!

وحين كنت أنصِّب نفسي لاعترافات المخطئين لأغفرَ لهم باسم الرب، فمن أعطاني هذه السلطة الكهنوتية التي لا يملكها مخلوق! بل هي من شأن الخالق وحده.

وحين أقبل سربٌ من الراهبات وسجدن أمام كاردينال!

ألم تكن تحيّرني تلك التناقضات بين نصوص الإنجيل؟

ألم أكن أتلعثمُ وأُبهتُ إن حاورني أحدُ تلاميذي في العقيدة، معَ ما بلغته من علم شهد لي به القاصي والداني، فحياتي كلُّها وهبتُها للمسيح منذ نعومة أظفاري، حتى شبابي الذي ضحّيتُ به، وحرمتُ نفسي من متع الحياة ومباهجها من أجل النعيم الأبدي، وأنا من درس بتبحُّر الفلسفة ومنطق أرسطو وعلم المناظرات والجدل؟

كم مرّة وقفت حائرًا لا أجد جوابًا لما يطرحه العوامُّ البسطاء من تساؤلات؟

كم مرّة كانت تستوقفني آيات التوحيد في الأناجيل، والتي تقرر حقيقة عيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله! أين غاب عقلي! حقًّا لقد أبصرت الآن، ما عميتُ عنه بقصد أو بغير قصد.

كنتُ أعمى فأبصرت.

فيمَ تفكّر يا بني؟ (بصوتٍ حنون قطع الحبرُ عليَّ حديث نفسي، وسألني).

وكأنه يستشفُّ مني ما سأصل إليه، تُرى ماذا يدورُ في رأس معلمي؟ هل سيفرح ببقائي على حالي، وملازمتي له؟ أم سيفرحُ بنيلي حريتي ووصولي إلى الحقيقة! نظر إليه بعينين حائرتين.

- لقد آن الأوان يا سيدي.

- ماذا تعني يا إنسيلم؟

- أتأذن لي في الرحيل إلى بلاد المسلمين؟ لا بدّ أن أدخل في دينهم، لقد حسمتُ أمري.

بكى السيد نيقولا، وضمَّني إلى صدره الواهن في حنان أبويٍّ، ورَبَتَ على كتفي، وقبَّل جبيني، ونظر إليّ بعينٍ تفيض من الدمع، وقال وابتسامةٌ تشرق في وجهه: إن كنت عاقلًا طالبًا للنجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدنيا والآخرة. ثمّ التفت عن يمينه وشماله، وتسمّرت عيناه الذابلتان نحو النافذة، وقال بصوتٍ واهنٍ متهدج: ولكنْ حذاري يا ولدي، هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن، فاكتمه لغايةِ جهدك؛ وإنْ ظهر عليك منه شيء لقتلك العامّةُ لحينك قبل أن تصل ليد حاكمنا، ولا أقدر على نفعك، ولا ينفعك أن تنقل ذلك عني، فإني

أجحده وقولي مصدَّق عليك، وقولك غيرُ مصدَّق عليَّ، وأنا بريء من دمِك إن فُهتَ بشيء من هذا.

فقلت: يا سيدي، أعوذ بالله من سريان الوهم لهذا.

وعاهدته بما أرضاه وطمأنه، وعزمتُ على الرحيل إلى بلاد المسلمين، لأدخل في الدين الحقّ. ثمّ أخذت في أسباب الرحلة وودّعته، فدعا لي بخير وزوّدني بخمسين دينارًا ذهبية، وعانقني بحرارة، وعيناه تذرفُ الدموع.

وركبت البحر منصرفًا إلى بلادي مدينة ميورقة، فأقمتُ بها ستة أشهر، لم أحدث فيها شيئًا، ثمّ سافرت منها إلى جزيرة صقلية، فأقمت بها خمسة أشهر، وأنا أنتظر مركبًا يتوجه إلى أرض المسلمين.

فحضر مركب مسافر إلى تونس، فسافرت فيه من صقلية، فأقلعنا وقت مغيب الشفق، فوردنا مرسى تونس في اليوم التالي قرب الزوال.

فلمّا نزلت تونس وسمع بي الذين بها من أحبار النصارى أتوا بمركوب، وحملوني معهم إلى ديارهم، وفي صحبتهم بعض التجار الحاضرين أيضًا بتونس.

فأقمت مكرَّمًا عندهم على أرغد عيشٍ أربعة أشهر، كلّ ذلك وأنا أكتمُ سرِّي، وأتلمّسُ أحوال البلدة، دون أن أعرفَ ماذا سأصنع.

وبعدَ ذلك، سألتهم هل بدار السلطنة أحد يحفظ لسان النصارى، يجيدُ لغتنا؟

وكان السلطان إذ ذاك أبا العباس أحمد رحمه الله، فذكروا لي أنّ بدار السلطنة المذكورة رجلًا فاضلًا من أكبر خدّامه اسمه يوسف الطبيب وهو من خواصِّه، ففرحتُ بذلك فرحًا شديدًا، وسألت عن مسكن هذا الرجل الطبيب فدلوني عليه.

ذهبتُ له وحدي، وطرقتُ بابه فاستقبلني ورحّب بي، فأفضيتُ له بسرّي، وذكرت له حالي وسبب قدومي للدخول في الإسلام، فَسُرّ بذلك سرورًا عظيمًا، وتمنّى بأن يكون تمام هذا الخير على يديه.

ثمّ ركب فرسه في الحال واحتملني معه لدار السلطان فدخل عليه وأخبره بحديثي، واستأذنه علي فأذن لي، فمثلتُ بين يديه فكان أوّل ما سألني عن عمري؟ وكنت قد بلغت الخامسة والثلاثين.

ثمّ سألني كذلك عمّا قرأتُ من العلوم فأخبرتُه.

فتهلّلت أساريره بِشرًا وغبطة، وتبسم ضاحكًا، وقال: قدمت قدوم خيرٍ، فأسلم على بركة الله تعالى.

فقلت للترجمان وهو الطبيب المذكور: قلْ لمولانا السلطان إنه لا يخرج أحد من دينه إلّا ويكثِرُ أهلُه القول فيه والطعن عليه، فأرغب من إحسانكم أن تبعثوا إلى الذين بحضرتكم من تجار النصارى وأخيارهم وتسألوهم عني وتسمع ما يقولون في جنابي وحينئذ أسلم إن شاء الله. فقال لي بواسطة الترجمان: أنت طلبت كما طلب عبد الله بن سلام من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثمّ أسلم. ([72])

تذكر الحاكمُ تلك القصة، ففطن لما فطن له إنسيلم، فأرسل إلى خيار النصارى وبعض تجارهم وأدخل إنسيلم في حجرة قريبة من مجلسه، فلمّا دخل النصارى عليه، قال لهم: ما تقولون في هذا القسيس الجديد الذي قدم إلى بلادنا؟

قال أعيانهم: يا مولانا، هذا عالم كبير في ديننا؟ وقال مشايخهم: ما رأينا أعلى منه درجة في العلم والدين في ديننا.

فقال لهم: وما تقولون فيه إذا أسلم؟

فقالوا: نعوذ بالله من ذلك، هو ما يفعل هذا أبدًا.

قال إنسيلم: فلمّا سمع ما عند النصارى بعث إليَّ فحضرتُ بين يديه وتشهدتُ بشهادتي الحق بمحضرِ النصارى فنُكِسُوا على رؤوسهم، واكفهرّت وجوههم، وقالوا: ما حمله على هذا إلّا حبّ التزويج، فإنّ القسيس عندنا لا يتزوّج، ثمّ خرجوا مكروبين محزونين.

فرتّب لي السلطان- رحمه الله- ربع دينار في كلّ يوم، وأنزلني بدارٍ طيبة، وزوّجني بنت الحاج محمد الصفّار من أعيان البلدة وصلحائها، وكانت فتاةً صالحةً ديِّنةً، فلما عزمتُ على البناء بها أعطاني مائة دينار ذهبًا وكسوة جيدة كاملة فابتنيتُ بها، ووجدتُ فيها ما تقرُّ به العين، وتبتهج، وعوّضني اللهُ عمَّا فقدتُ، وولد لي منها ولدٌ سميته محمدًا على وجه التبرك باسم نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وبعدَ خمسة أشهر من إسلامي قدّمني السلطان لقيادة البحر بالديوان، وكان قصده بذلك أن أحفظ اللسان العربي فيه لكثرة ما يتكرر عليه من الترجمة بين النصارى والمسلمين. فحفظت جميع اللسان في مقدار عام، وحضرت لسفن الغزاة القادمين من جنوب إيطاليا وفرنسا، وكنت أترجم للسلطان بما يردُ من كتبهم، ثمّ كبتهم الله تعالى وردهم وتفرقوا خائبين. وارتحلت مع السلطان إلى حصار قابس وهي مدينة بين طرابلس الغرب وصفاقس، وكنت على خزائنه على حصار قفصة مدينة جنوب وسط تونس، وفيه ابتداء مرضه الذي مات فيه ثالث شعبان سنة 796هـ. ثمّ تولى الخلافة بعده ولده مولانا

أمير المؤمنين وناصر الدين أبو فارس عبد العزيز، فجدد لي جميع أوامر والده بمرتباتي ومنافعي كلها ثمّ زادني في الوظائف والرتب.

وعاش أبو عبد الله الترجمان، في كنف هذا السلطان الذي نشر العدل وبسط الرحمة في ربوع تونس، وكان سخيًّا في الخير والبر، وعاشت الرعية في زمانه في أمن وأمان، ورغد عيش.

وألف أبو عبد الله- رحمه الله- كتابًا سنة 823هـ، في الرد على النصارى، وإثبات نبوة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، خلّد ذكره، وروى فيه قصة إسلامه، وهو «تحفةُ الأريب في الرد على أهل الصليب»، والذي ترجم للفرنسية ونشرته مجلة تاريخ الأديان، بباريس سنة 1885م، قبل أن يطبع بالعربية، وحاول النصارى استعادة أبي عبد الله إليهم وردّه لملّتهم، فباءت محاولتهم بالخيبة والإخفاق ([73]).

## -44-

# حكاية أندلسية مُبكية

زرت مدريد الأسبوع الماضي، وقد بلغني أنّ مكتبتها الوطنية المركزية قد رفعت الحظر عن عدد كبير من المخطوطات الأندلسية الإسلامية القديمة بعد ترميمها والتي يزيد عمر بعضها على عشرة قرون، وصلت مبنى المكتبة الوطنية، الإسكوريال، على بعد حوالي 45 كم (28 ميل) شمال غرب العاصمة الإسبانية مدريد. وهو صرح أوروبي عظيم من القرن السابع عشر يتربع على مساحة ١٢٠ألف متر مربع بطوابق سبعة وبهو فسيح، يتوسط البناء حديقة جميلة أنيقة، تعود بك إلى "مجرى الجليد " الاسم الذي أطلقه الفاتحون الأوائل على "مدريد" لما أسسوها، حيث لم تكن قبل ذلك شيئا مذكورا.

يعود فضل بناء الإسكوريال إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا، وتتألف مجموعة مباني الإسكوريال من القصر الملكي، والدير، والكنيسة، والمعهد الديني، والمتحف، وعدد من الأبنية الصغيرة، وتعدّ من أهم الصروح الملكية في أوروبا لضخامتها ومحتوياتها الفنية ومكتبتها الشهيرة التي تشتهر بمقتنياتها من العديد من الكتب والمخطوطات القديمة.

حتى قيل عنها «ثامن عجائب الأرض السبع». إذ تزخر أيضًا بالأدوات العلمية والخرائط واللوحات الفنية.

الكتب تملأ الأرفف الخشبية، من الجدران إلى الأسقف التي تزيّنها رسوم الفنان الإيطالي بليغرينو تيبالدي بجداريات تصوّر الفنون السبعة الحرة؛ علم البلاغة، الجدل، الموسيقى، القواعد، الحساب، الهندسة الرياضية، وعلم الفلك.

«ضمن محتويات الإسكوريال توجد مجموعة أخرى كبيرة نادرة من المجلدات، منها: الكامل في اللغة للمبرد، والاقتضاب في شرح أدب الكُتَّاب للأديب ابن السيد البطليوسي، القانون في الطب لابن سينا، منافع الأعضاء لجالينوس، وغيرها الكثير.»

انطلقت إلى قسم المخطوط العربي لأطّلع على هذه الثروة الإنسانية الغالية عشرات الآلاف من أمّهات الكتب في الفقه والحديث والتفسير والتصوف والسِّير والتاريخ والطبّ والصيدلة وعلم الفلك، وكذا أخبار البلدان والهندسة والحساب.

يحظى جناحُ المخطوطات بعناية خاصة، ولا يؤذن لدخوله إلّا ببطاقة باحث تمنح بعد ملف يقدَّم.

فهرسة المخطوطات العربية مجموعة في مجلدات كبيرة باللغة الإسبانية، وعناوين المخطوطات بالعربية واللغة «الألخميادو» وهي لغة إسبانية بحرف عربي استعملها الموريسكيون في القرن الأخير للوجود الإسلامي بإسبانيا في ظلّ الاضطهاد الديني الذي عايشوه. كنز عظيم من المعرفة بلغة الضاد يتربّع حبيس الجدران، في تلك الديار لا يعرف مَن حوله من الأسبان، ولا يعرف عنه الأسبان شيئًا.

يجلس الباحث ليختارَ من مجلد الفهارس ما يريد من مخطوط؛ إن كان في القائمة المرخصة للاطّلاع، ويكتب اسمه على بطاقة طلبٍ صغيرة، واستمارة كبيرة يكتب فيها رقم بطاقته واسمه واسم المخطوط وكاتبه، تسجّل هذه الطلبات في آلة راقمة حديثة، ترسل الطلب لقاعات الحفظ الخاصة بالمخطوطات؛ وما هي إلّا دقائق وتأتي السيدةُ المكلفة بإحضار المخطوط الأصلي في عربة خاصّة ملفوفًا بعناية في قماش أبيض جميل.

أزيح عنه اللثامُ في رفقٍ كعروسٍ يكشف زوجُها اللثام عن وجهها القمري، ألمسه بيدي، أتذكر عصر أسلافنا في ربوع الأندلس، هذا المخطوط كم لمسَتْه من أيادٍ، وتأمّلته من عيونٍ، يفوح بعبق التاريخ ويتضوّع بعبير الماضي السحيق.

للباحث الحقّ في طلب ثلاث مخطوطات للاطلاع عليها في اليوم الواحد.

طلبت ثلاثةً، منها: مخطوط كتاب جامع القوى للأغذية (في علم التطبيب والصيدلة) لابن بيطار المالقي، ومخطوط كتاب بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي ت 599هـ.

تجلس في المكان المحدّد لك، ولا يسمح بتصوير أو حمل أية آلة إلكترونية أو قلم، عدا قلم الرصاص وورق أبيض يسلم لك في قسم المخطوط، وكاميرات المكتبة تحيط بك من كلّ جانب، وأعوان أمن المكتبة يتفقدونك بابتسامة عميقة هادئة تشعرك بمعيتهم دائمًا.

رحلتُ في حضرة هذه المخطوطات الجميلة قرونًا طويلة استنشق عبق العلماء، وأستلهم روح حضارتنا، خطّ المخطوط خطٌّ أندلسي مغاربي كتب بالصمغ الأندلسي العتيق على ورق الكاغد الذي أتقنه أهل شاطبة البلنسية قبل عشرات القرون.

استغربت صاحبة قسم المخطوط من نهمي وكثرت طلباتي.

فسألتني: ماذا يعني عندكم بالعربي Alssada ؟

وماذا تعني Noboa?

وماذا تعني Alìa Alaouiine ?

قلت السّادة هم الأشراف من بيت رسول الله، ونبوّة من نبي وهي علامة الأنبياء، أمّا عليّة مؤنث عليّ؛ اسم علم، والعلويّون هم سلالته من الأشراف.

أخرجت السيدة بطاقتها القومية واسم عائلتها السادة:Alsaada!

وولدت في مدينة Alía في طليطلة، وقالت عائلتنا تسمى Noboa بيت النبوة. فاضت عيناها وهي تسمع تفسيري لهويتها، طلبت منّي مصحفًا مترجمًا أرسلته لها بعد عودتي لبرشلونة خرجت بهدوء من المكتبة الوطنية مودِّعًا تراثنا الدفين إلى شوارع مدريد الصاخبة المكتظة وأنا سارح في تفسير السلجمي ودعابة ابن البيطار وروائع روايات ابن يحي الضبي حول ديار الأندلس.. التي لم يصبح لها ولا لعلمها ملتمس. ([74])

وحكى العلامة المحدّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (رحمه الله) وقد جاب كثيرًا من البلدان، قال: «عندما كنا في قرطبة جاءنا رجلان من الأسبان غير مسلمين، يحملان معهما أوراقًا فاطلعنا عليها، فإذا في الورقة الأولى نسب أحدهما إلى قبيلة جهينة، والأخرى فيها نسب الآخر إلى بني تميم»([75]).

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حكاية روز الأسبانية

في أصيل يومٍ من أيام الصيف عام 1914م، وعلى محطة مدينة طنطا، والناس وقوفٌ ينتظرون القطار القادم من الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة، وهم بين مودِّع ومودَّعٍ وحاملٍ أمتعته ومتأهبٍ لركوب القطار، وفي وسط هذا الزحام كانت هذه القصة التي يذوب لها القلب، حكاها الأستاذ عبد الله بن عفيفي الباجوري رحمه الله؛ قال: كنت واقفًا أترقَّب القطار، والكلُّ مشغول في الدقائق المتبقية على قدومه من الإسكندرية، بين توديع وإشفاق وترقُّب وانتظار، وتهامُس ومناجاة، وكنت في شُغُلٍ بصديق يجاذبني أطرافَ حديثٍ شيِّقٍ ممتع. وفي تلك اللحظات، راع الناسَ صراخٌ ومدافعةٌ، فالتفت الجميعُ فإذ بفتاة تبدو في السابعة عشرة من عمرها، يسوقها شرطيّ عتيدٍ شديد، ومعه ساعٍ من سعاة إحدى السفارات، ومن خلفهم عجوز أوروبي تجاوز السبعين يمشي يجرُّ قدميه، وقد تقوّس ظهره، وهو مهمومٌ مهزول، والفتاة تدافع الرجلين بكلّ قوتها، بينما يمسكونها بغلظة، حتى أقبل القطار مزمجرًا وتوقّف على الرصيف، فتدافع الناس للركوب، وكاد كلّ ينسى بذلك الموقفِ موقفَهُ، ثمّ أُصعدت الفتاةُ وصعد الركابُ، وكان مِن حُسن الحظِّ أن اتخذتُ أنا وصاحبي مكانًا قريبًا من مقعدها، مما منحني الفرصة لتفحُّصها عن قرب. كانت الفتاة نحيلة القوام، فارعة الطول، وسيمة الملامح، ترتدي ثيابًا سوداء، جمعت بين الأناقة والحشمة، فلا يظهر سوى وجهها الوضيء الذي يبدو كالبدر، حوله غيمةٌ من الحزنِ وغُلالةٌ من الكآبةِ، يخالط بياضها شيء من الصفرة، لعلها مما تكابده وتقاسيه، وقد زادني هذا شغفًا لمعرفة خبرها، فسألتُ العجوزَ الأوروبيَّ الذي تبدو قريبة الشبه منه في طوله ونحافته وبياض بشرته، لوْلا ذلك الشيب الذي كسَا رأسه ولحيته، وذلك الظهر الذي تقوّس وانحنى، وذلك الوهن الذي بدا عليه.

سألتُه وروحي توّاقة لمعرفة نبئها.. ما خطبُ هاتيك الفتاة!

فقال وقد أشرقَهُ ([76]) الدمعُ ، وقطع صوتَه الأسى: «إنّني يا سيدي رجل أسباني نصراني، وهذه الفتاة ابنتي، كانت بارّةً بي، مطيعةً، تتعهّدني أنا وإخوتها الصغار، بالرعاية والحنان، بما عزّانا عن فراق أمِّها التي ماتت منذ أعوام، فكانت ابنتي عزاءنا وسلوتنا، ولكن عرض لها منذ حين ما لم أتوقعه، صحوتُ ذات صباحٍ على انقلابٍ في البيت، إذ سمعتُ صوتَها تترنَّم في خشوع، ظننتُها في البداية ترتِّل من الإنجيل أو تنشد مزمورًا من المزامير، لكنني انتبهت لما تقولُ ونظرت إليها فإذ بها تصلي صلاة المسلمين، ومنذ ذلك اليوم احتجزتْ ثيابَها، لتتولّى أمر غسلِها بعيدًا عن ثيابنا، وأرسلت خمارها

الأبيض على صفحة وجهها وصدرها، ثمّ أخذت تمضي وقتها في صلاة، ونهارها في صيام، وكانت تدعى روز فأبتْ إلّا أن تنادَى بفاطمة، وما لبثت حتى تبعتها أختُها الصغرى، فصارت أشبهَ بها من الزّهرة بالزهرة! أو الفراشة بالفراشة، ففزعتُ من هول ذلك، وانطلقتُ إلى أحد الأساقفة في أقرب كنيسة نتبعها، أرجوه أن يعالج الأمر، وأتوسّلُ إليه أن يواجه الفتاة بما لا أقوى أنا على مواجهته، فمعرفتي محدودة، فأخذ يحاورها فتفحمه، ويسألها فتجيبه، ويجادلها فتبهتُه، حتى سلم الراية، وأيقن بأنه لنْ يفلح بحال في زعزعة الفتاة عن موقفها، وبدت عليه علامات اليأس والحيرة والارتباك، حيث أخفق في إقناعها وإرجاعها أمام تشبُّثها بعقيدتها، وعزَّت على الرجل خيبته، وتحرك فيه تعصبُه، فكتب إلى معتمدِ الدولة الأسبانية بأمر الأسرة الخارجة على دينها، وهنالك آمر المعتمدُ حكومةَ مصرَ، فقبضت على ابنتي، وساقتها كما ترى، وأجمعوا على أن يلقوا بها في غيابة دير من الأديرة، حتى تعود إلى دينهم، أو تبقى في الدير مهانةً ذليلة مكدودة في تنظيف الحظائر، ورعي الخنازير أو تربية الدجاج أو الزراعة.

هذه حكايتنا، بل مأساتنا!

وهنا، انتابتني مشاعر متباينة، عندما سمعت حكايتها من لسان أبيها، فلا أدري هل أفرح بإسلام هذه الفتاة وتمسّكها بدين الإسلام، أم أحزن على سوء حالها وظلام المصير الذي يرتقبها! أم أغضب من خفر ذمّة هذه الفتاة والتآمر عليها من قبل السفارات!

قلتُ لأبيها: وهل يُرضيك أن تساق ابنتُك كما تساقُ المجرماتُ الآثماتُ على غير إثم أو جريمة؟

فزفرَ الرجل زفرةً كاد يتصدّع منها قلبه وتتفرّق ضلوعه، ثمّ قال: أمَا وقد خدعتُ ودُهمتُ، فما عساني أفعل؟ وقد خرج الأمر من يدي؟ ليتني أخفيت أمرها، فلم أذهب بها للكنيسة! وتركت الأمر شأنًا عائليًّا داخل البيت، ولكن ماذا سأصنع الآن! كيف سأتحمل فراقها، وماذا سأقول لإخوتها الصغار الذين سيفتقدونها بشدة!

على إثر ذلك انثنيتُ إلى الفتاة، وهي تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تنوء عن حمله الجبال، فقلت أضمّد جراحها، وأجبر قلبها: ما بالك يا فاطمة؟ فرفعت بصرها الخفيض إلى ونظرت وابتسمت ابتسامةً هادئة، وكأنها أنستْ بي إذ ناديتها باسمها الذي تحبُّ سماعه، فأجابتني متنهِّدةً بصوت يتعثّر منه الأسى والضنى: نعم يا عمي. قلت: كيف دخلتِ يا بنيتي الإسلام؟ قالت: كان لنا جيرة طيبون لديهم فتياتٌ في سني، أغدو إليهن وأروح، وكنت أصادفهم وهم جالسون يتحدثون فكنت أسمعهم وأشاركهم في أحاديثهم، وربما أستمع

إليهم وهم يتحادثون في أمر دينهم، فأعجبني كلامُهم، وكنتُ إذا خلوتُ بنفسي أقارنهم بما أنا عليه، فأدرك الفرق الشاسع، بين هذا الدين الحنيف دين الفطرة والبساطة والوضوح، وبين دين النصارى الذي يُلقّن في الكنائس وأتعلمه في مدارس الإرساليات مع ما فيه من غموض وتعقيدٍ وتناقضات، حتى أمسيتُ في حيرة من أمري، وترَدُّدٍ، مع جلاء الحق أمام عينيّ، وكنت أنادي وأناجي كثيرًا بضراعة: ربّاه، دلّني على طريقك وثبتني عليه.

حتى إذا أخذني النوم ذاتَ ليلة بعد سهاد طويل، مضى في التفكير، رأيت النبي محمدًا -صلى الله عليه وسلم- من بعيدٍ في هالة من نور يخطف سناها الأبصار، يناديني وهو يلوّح بيده.. اقتربي يا فاطمة. فلم تكد تتمّ كلامها حتى أخذتها رِعدةٌ فهوت على مقعدها، سمع مَن حولنا كلامها فغشيهم من الحزن ما غشيهم، وأبصرت بشيخٍ فطلبت منه أن يؤذِّنَ في أذُنِهَا، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى أشهد أنّ محمدًا رسول الله أفاقت، وانتفضت كعصفورةٍ أصابها البلل، وتنفسَّت الصُّعداء، وأخذت في البكاء، وعاودتها سيرتها الأولى، ولسان حالها يقول:

أموتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثمّ أَحْيَا

فَكَمْ أَحْيَا بِذِكْرِكَ أَوْ أَمُوتُ

فَأَحْيَا بِالمُنَى وَأَمُوتُ شَوْقًا

فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ

فلمّا أفاقت، أخذت ترتعد وترتجف، قلت لها: لا تخافي ولا تجزعي. قالت: إنه سيؤمر بي إلى الدير، وأنا لا أخاف من السياط، أو الحبس، أو العمل الشاق، وإنما أخاف أن يحال بيني وبين الصلاة.

قلت لها: يا فاطمة، ألا أدلّك على خير من هذا؟! قالت: أجل. قلت: إنّ الإيمان في القلب، فما عليك أن لو أقررت أمام المعتمد «السفير» بدينك القديم حتى لا يؤمَر بك إلى الدير. هنالك نظرت إليَّ نظرةً غاضبةً، ثمّ قالت: إنني إن أطعتُ نفسي فلنْ يطاوعني لساني. وانحدرت الدموع على خديها، وسرعان ما وصل القطار إلى محطة مصر، ونزل الجميع وازدحم بهم الرصيف، وحيل بيني وبين الفتاة، وانقطع خبرها، وطويت صفحتها بين غياهب ذلك الدير ([77]). رحمك الله يا فاطمة، ورحم الله كلّ مَن سلك هذا الدرب، وَثَبَتْ عليه، مع فقدِ النصير.

ماذا حدث لك يا فاطمة؟ لا ندري والله!

لقد أسدلت الستار على تلك المأساة، ولم تكتمل القصة بعد، ولكني على يقين بأن الإيمان ملأ قلبها وغمر فؤادها، واليقين آنسَ وحدتها.. أمّا والدها المسكين فلا بدّ أنه قد ودّعها على باب الدير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -46-

# تلك الساعة

# دعوةُ الفقيه

جاءت أمٌّ مكلومةٌ إلى الفقيه بقيّ بن مخلد، تسأله العون في إطلاق سراح ولدها من قبضة الروم، كان الفقيه ورعًا فاضلًا زاهدًا مجابَ الدعوة، فتح الله عليه في العلم والعبادة، وكافح في طلب العلم، فرحلَ إلى الأقطار وكابد الأسفار، وتحمل الحرّ والبرد والجوع والعطش والسهر في سبيل طلب العلم، فكان مجموعُ من أخذ عنه 284 عالمًا، حتى لقبوه بالمكنسة؛ لكثرة من رحل إليه وأخذ من علمه، بلغ به العناء في رحلته لطلب العلم أنه ربما اضطرّ إلى أن يقتات من بقايا ورق الكرنب الذي يُطْرحُ في السوق دون أن يسأل الناسَ، أو يطرق أبوابهم، كما ألمح بذلك ([78]).

يحكي هذه القصة أحدُ تلاميذه المقربين، يقول: أقبلت المرأة على مجلسه، واقتربت على استحياء من الشيخ، وقالت بصوت خفيض لكنّه مسموع، ونظرُها مصوّبٌ إلى فراغ الحلقة:

يا إمام، إنّ ابني قد أسرَه الروم، ولا أقدر على فكاكه بمالٍ، ليس لي إلّا دار صغيرة، ولا أقدر على بيعها، فلو أشرتَ إلى من يَفديه بشيء! فإنه ليس لي ليل ولا نهار، ولا نومٌ ولا قرار، وفلذة كبدي وريحانة فؤادي في قبضة الأعداء، وأخشى أنهم- قاتلهم الله- يستخدمونه في أشقّ الأعمال، ويسومونه سوء العذاب. ثمّ انخرطت في نحيب.

فقال الفقيه: نعم يا أختاه، انصرفي حتى أنظرَ في أمره إن شاء الله.

وأطرق الشيخ برأسه إلى الأرض، وحرّك شفتيه بكلام لم نسمعه، لكن فهمنا أنه يدعو لولدها. ورجونا أن يُستجاب دعاؤه.

وبعدَ أيام معدودات، جاءت المرأة ومعها ابنُها، وأخذت تدعو للشيخ وهي تقول: قد رجع ولدي سالمًا، وله حديثٌ يحدِّثُك به.

ففرحَ الشيخُ بقدومه، وأوقف الدرس، وأنصتَ له ليعرف حكايته..

قال الشاب: كنتُ يا سيدي مع جماعة من الأسرى في قبضة بعض ملوك الروم، وكان له خادمٌ يستخدمُنا كلّ يوم، يُخرجنا في البكور من السجن إلى الصحراء للخدمة بالأعمال الشاقَّة المضنية، نكسِّر الصخور والأحجار، ونحملها على العربات التي تجرُّها الخيلُ والبغال، أو نصلح الأرض، بتسويتها، وإزالة

الحشائش والنباتات الضارة، وحرثها تمهيدًا للزرع، وأقدامنا مثقلة بالسلاسل، ثمّ يردّنا بعد غروب الشمس إلى محبسنا، وقيودُنا علينا، كأننا قطيعٌ من الإبل.

بينما يقدمون لنا- قاتلهم الله- القليلَ من الطعام، الذي لا يكفي لطفلٍ صغير، فنزدرده من شدة الجوع، ليس استطابةً له، لكن لا بديلَ لنا غيره، فمن يعافَه منّا ينحلُ ويذبل وربما يمرض ويموت.

وذات يوم بينما نحن عائدون من الصحراء مع حراسنا الأشداء، وقد بلغ بنا التعب والإرهاق مبلغًا، إذْ بالقيد ينفتح من رجلي ويسقط على الأرض، فلمّا رآني الذي كان موكّلًا بي من الحُرَّاس نهض إليَّ وصاح معنِّفا: كسرتَ القيد أيها البربريُّ الهمجيُّ!. وضربني بسوطه.

فقلت: لا، لم أكسره، إلّا أنه سقط من رجلي.

- بل كسرتَه.

- قلتُ لك لم أكسره!

فتحيّر وأحضر صاحبَه وأحضر الحدّاد، وقيّدوني من جديد، فما مشيتُ سوى خطوات حتى سقط القيدُ ثانيةً من رجلي، فنظروا إليَّ في ذهول! وخافوا مني هذه المرة، وتحيّروا في أمري! فدعوا رهبانَهم، وسألوهم، فتباحثوا في أمري، وحدَّقوا فيَّ، ثمّ قالوا لي: ألك والدة؟ قلت: نعم.

قالوا: قد وافق دعاؤها الإجابةَ، ولا حيلة لنا في ذلك!

إنَّ من أطلقه الله، لا يمكن لأحدٍ تقييده مهما كان سلطانُه.

فأطلقوني وزوّدوني، وأصحبوني آمنًا إلى حدود بلادنا، فأكملتُ المسيرَ حتى عدتُ بحمد الله سالمًا مُعافى.

ووصف الشابُّ ذلك اليوم وتلك الساعة، التي انكسر فيها القيدُ، فوافق الوقت الذي جاءت أمُّه لمجلس الشيخ، وشكت إليه، ودعا لها شيخُنا المباركُ تلك الدعوات التي لاحظناه وهو يتمتم بها ([79]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -47-

# والثالثة الشهادة

على بُعد عشرين ميلًا من قرطبة، وعلى ربوة عالية تكسوها خميلةٌ خضراء، كان سليمان بن هشام المقرئ، المعروف بابن الغماز؛ مستلقيًا، يئنُّ من جرح بالغٍ شجّ وجهه، والدم يسيل منه، مع استسلامٍ لمن يقوم بإسعافه، ووقفِ نزيفه، وإن بدت المحاولات يائسة.

أدرك الجريحُ أن أنفاسه في الدنيا باتت معدودة، فاستحضر شريط حياته، منذ أن كان طفلًا صغيرًا، يحمل دفاتره وقلمَه، ويذهب إلى الكُتّاب الملحق بالمسجد الكبير، يحفظ كتاب اللهِ على يدِ معلِّمه، يترقب أهلُه له مستقبلًا زاهرًا، ثمّ يوم أن صار شيخًا حافظًا متقِنًا لكتاب الله، فصيحًا ضابطًا، يفدُ إليه الطلابُ من أنحاء الأندلس، وهو في المسجد الكبير بقرطبة، يترسَّل في قراءته بصوته العذب الذي يؤثِر القلوب، ويهزُّ الوجدان، حتى قال عنه أحدُ من لقيه وأخذ عنه: «كان أحفظ من لقيت بالقراءات، وأكثرهم ملازمة للإقراء بالليل والنهار، وكان أطيبَ مَن لقيتُ صوتًا بالقرآن».

وقال عنه الإمام المقرئ أبو عمرو الداني- وهو من تلاميذه-: «كان ذا ضبطٍ وحفظ للحروف، وحسن اللفظ بالقرآن».

ولكن ما الذي جاء به إلى هنا؟ وما ذنبه أن يجرَّ إلى تلك الفتنة العمياء بين الذين يتقاتلون على الملك!

وما حيلته وهوَ إمامُ جامع قرطبة، لذا أخرجه سليمان المتغلِّب على قرطبة معه للإمامة.

ومما سكّن فؤاده أنَّ أعداء الإسلام من النصارى الأسبان كانوا يقاتلون في صفِّ الخصوم الذين استعان بهم المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار على قتال غريمه سليمان، إذ كان كلا الفريقين يتصارعان على الحكم.

وتدور رحى الذكريات، ويتذكر الشيخ الجريح أيام التعب والنصب، كما تذكر أيام السعد والهنا، تذكر زوجته وأبناءه الذين تركهم في منزله بقرطبة، وها هو يفارق الحياة دون أن يودِّعهم، تذكر رحلة الحج ومشاهدها، نهر الذكريات يتدفق أمامه سريعًا، نظر إلى السماء فوجد القمر يشرفُ على الغروب، بينما النجوم ساهرةٌ، تتلألأ كحبّات زمرد ترصّع ثوبًا حريريًّا أسود، كأنها ترقبُه، التفت لرفيقه الذي لم يفارقه، حكى له بصوت خافتٍ متهدّج: أتدري يا صديقي عندما خرجت من الأندلس حاجًّا لبيت الله الحرام.. كنتُ فقيرًا، أعاني من الحرمان والعوز، فلمّا دخلتُ الحرم، في ساعة الهجير، وطفتُ بالبيت، ثمّ

نزلت إلى بئر زمزم، وقد اشتد ظمأي، فاستحضرت وصية نبينا صلى الله عليه وسلم (ماء زمزم لما شرب له).

فجلست بجانب الحوض القريب من البئر، وبيدي كوزٌ أتناول منه الماء البارد، كان الجوُّ حارًّا، شربتُ وشربتُ حتى ارتويت، ثمّ دعوتُ الله فأخلصتُ، وقلت: اللهم إني مصدقٌ ما أدَّاه رسولك الأمين في بركة شراب زمزم من أنه (لما شرب له)؛ فقد شربت، اللهم بنيّة الدعاء واثقًا باستجابتك. وإني أسألك غنى فقري في دعة، وأن أكون من أهل القرآن وصفوة القراء، ثمّ الشهادة في سبيلك، والزلفي بها لديك.

ودخلت الحرم ذات مرة فطفتُ ثمّ تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله الشهادة، ثمّ سُقِط في يدي، وفكّرت في هول القتل وآلامه فندمت، وهممت أن أرجع في طلب الشهادة، فأستقيل الله ذلك، لكني استحييت.

وسلَّيتُ نفسي وثبت فؤادي، وهيجت بلابل أشواقي لتلك الأمنية بما ورد في فضائل الشهداء.

فذكرت نفسي ومنّيتُ روحي بفضائل الشهداء وثواب الشهادة، حتى سكن فؤادي، واطمأن قلبي. ثمّ عدتُ إلى الأندلس، واستأنفت الإقراء والإمامة.

فلم يمضِ إلّا اليسير حتى تعرفتُ الاستجابة في الثنتين، وإني لمنتظر الثالثة.

أمّا القرآن فما أحسب أنّ بأرضي أعلم به مني، وأمّا الغنى فقد نلت منه حاجتي، إذ عرفني سليمان بن الحكم المستعين، عندما استولى على قرطبة، فأجلسني إمام الإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وأصبت ثراء عريضًا ورفعة، «ورجوت ألّا يحرمني الله الثالثة- الشهادة في سبيله- مع خوفي ورهبتي منها». فخرجتُ مع سليمان بن الحكم، إمامًا للصلاة.

واشتدّ عليه الوجعُ، فكان يكثر من الذكر، ثمّ طفق يردّد حديث رسول الله: «لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله- واللهُ أعلمُ بمن يُكْلَمُ في سبيله- إلّا جاء يوم القيامة وجرحُهُ يثعُبُ دمًا، اللونُ لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك»، كَأَنَّهُ يخفّف عن نفسه، ويطلب الثبات، حتى سمعت حشرجة صدره بطلوع الروح، ثمّ انقطع صوتُه رَحِمَهُ اللهُ.

في هذه المعارك الطاحنة، قتل عشراتُ الآلاف من القرطبيين وغيرهم، وذهب فيها من الخيار، وأئمة المساجد، والمؤذنين خلقٌ عظيم، وقويت شوكة أعداء الله من النصارى.

وَوُورِي الشيخُ في ثيابه مِنْ غَيْر غُسل، وَبكت عليه قُرْطُبَة التي لم تر مثله فِي سعَة الرِّوَايَةِ، وَحفظِ الحَدِيْثِ، وَمَعْرِفَةِ الرِّجَال، وَالافتنَانِ فِي العلوم وَالأَدب

البَارع ([80]).

# جزيرة القراصنة ومائةُ ختمة للنجاة

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

[ النحل: ٨٩]

كان أبو الأصْبَغ عيسى الغافقي حافظًا لكتاب الله تعالى، حسن الصوت بتلاوته، يؤم الناس في صلاة التراويح بجامع قرطبة الكبير، وكان جميلَ الخط، كتب مصاحف كثيرة، كما كان عالمًا بالمواريث، يقضي بين الناس بأمانة وإنصاف.

من أحد مرافئ الأندلسي ركب الشيخُ البحر متجهًا إلى شاطئ الإسكندرية في طريقه إلى حج بيت الله الحرام، إلى جانب طلب العلم ومدارسته، كعادة الأندلسيين.

نترك الشيخ يحكي عن رحلته:

أبحرت السفينةُ من شواطئ الأندلس بأمانٍ، ومرّت أيامٌ وليالٍ، وقطعنا أميالًا، وكلنا شوقٌ لبيت الله الحرام، إلى أنْ ظهرت سفينة قراصنة، فطاردت سفينتنا حتى تمكّنت من اللحاق بها، والدوران حولها، للبحث عن أسهل طريقة لاقتحامها، ثمّ قام القراصنة برمي الخطاطيف وشبكها في حبال سفينتنا وصواريها، ثمّ شد الحبال، لتلتصق السفينتان، ومن ثمّ بدأوا بمعركة من جانب واحد، إذ كانوا متأهّبين لذلك بسيوفهم وسهامهم، فعجزنا عن ردِّ المعتدين، واستشهد بعضٌ منا دفاعًا واستبسالًا، وسرعان ما استولوا على سفينتنا، وقاموا بجرِّها إلى جزيرةٍ خاضعة لهم، ثمّ انتهبوا كلّ ما عليها من المؤن والبضائع، واقتادوا حجاجَ بيت الله الحرام ومعهم مَن بقي حيًّا من طاقم السفينة وباقي ركابها من التجار وطلبة العلم؛ إلى بيت مهجورٍ، تمهيدًا لبيعهم في أسواق النخاسة.

كان البيتُ معدًّا لمثل ذلك، إذ هو بمكان معزولٍ، وله أبواب موصدة بأقفال، وعلى نوافذه الضيقة قضبان من الحديد، ثمّ أخرجونا بعد أيامٍ لنعمل في حقولهم وبناء بيوتهم، مطمئنّين أنه لا مناص لنا ولا خلاص، فالجزيرة في ذاتها سجن، لا سبيل إلى الهروب منها إلّا بسفينة، وأيُّ سفينة تصل إلى هذا المكان غير سفن القراصنة، أو مراكب الصيد الخاضعة لنفوذهم!

طالَ مكثُنا في تلك الجزيرة المعزولة، حتى فقد كثيرٌ من رفاقي الأمل في العودة إلى ديارهم. دبَّ اليأس إلى قلوبهم، ومات الأملُ في نفوسهم، حتى

صار حالُ رفاقي كذلك الرجل اليائس، الذي تحطمت سفينته، فتعلّق بلوح خشبي وقذفته الأمواج إلى شاطئ جزيرة معزولة، فنظر ذات يوم إلى غراب أسود، وحوله بركةٌ من القار الفاحم، فقال متشائمًا:

إذا شاب الغراب بلغتُ أهلي

وصــار القارُ كاللبن الحليب

فسمع منشدًا يقول:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه

يكــون وراءه فـــرجٌ قريب

قال الشيخ عيسى: كنتُ متفائلًا طوال الوقت، مشتغلًا بقراءة القرآن، وإقرائه لبعض أصحاب السفينة، وكنت أكثر الدعاء أن يفرّج الله عنا، وينجينا من هذا الكرب، وقد بلغ اليأس بكثير من أصحابي مبلغه. وتمضي الأيام ويتضاءل معها أملُ رفاقي في النجاة.

ثمّ إني هُديت لفكرة، لماذا لا أتوسّل بعمل صالح ينجّينا من هذا البلاء العظيم؟ فكرت في الأمر، ثمّ قررتُ أن أتوسل بحفظي وتلاوتي للقرآن! وأيّ عمل أعظم من ختم القرآن! هنا قطعت العهد مع الله تعالى على إنقاذي من الأسر بمائة ختمة أختمها من القرآن العزيز.

مائة ختمة يحتاج الأمرُ على الأقلّ لثلاثمائة يوم، لو كان سيختم كلّ ثلاثة ليال!

بينما أنا في نهاري أعملُ وأكدحُ، كان تحدّيًا صعبًا، احتاج مني لسهرٍ واجتهاد.

وكنت كلّما ختمت ختمة أنهضُ إلى حائطٍ أبيض فأخطّ فيه خطًّا دقيقًا بفحمة سوداء، فبينا أنا ذات يومٍ في السوق، أتمُّ ختمة، وكانت تمام الختمات المائة- دون أن أنتبه لذلك- رأيتُ طائرًا جميلًا كان محبوسًا في قفص نحاسي، وقد انفتح له باب القفص، فخرج منه ونفض جناحيه ونشرهما ثمّ طار في الأجواء، وهو يغرّدُ بصوتٍ يعربُ عن بهجةٍ وسرور.

فوقع بخاطري أنّ ذلك إعلامٌ من الله- عزّ وجلّ- لي، فقمت مسرعًا إلى ذلك الجدار، ونظرت في تلك الخطوط، فعددتُها فألفيتُها مائة خط، ففرحتُ كثيرًا، وأخبرتُ من معي من الأسرى، بأن ساعة الفرج قد حلَّت، وخرجتُ موقنًا بالنجاة في الليلة التالية، ومعي رفاقي إلى شاطئ البحر، بعضهم كان يستبعدُ الأمر، ولكن أغلبهم تعلق بهذا الأمل، وكما قيل الغريق يتعلق بقشة.

وصلنا جميعًا الشاطئ، وكانت مفاجأةٌ في انتظارنا؛ وجدنا زورقًا، فتسللنا إليه جميعُنا، وأبحر بسلام، ونجّانا الله، ووصلنا إلى بلادنا سالمين، وعدنا إلى ديارنا

وأهلينا، بعد أن فقدوا الأمل في عودتنا فكانت الأفراحُ والليالي الملاح.

والحمدُ لله رب العالمين. إنّه القرآن، سفينة النجاة والعصمة، وحبل الله المتين([81]).

عاش الشيخ المبارك عمرًا مديدًا، حتى بلغ الرابعة والسبعين من عمره المبارك، يُقرئ القرآنَ لسنوات طوال، حتى أتَى يومًا إلى مِصطَبةِ إقرائه وأخَذ يَتنفَّلُ، فلمّا رفَعَ رأسَه من سجودِه، وأراد النهوضَ إلى القيام عَثَرَ في ثوبِه، فسقَطَ إلى الأرض ميِّتًا، ليُختَمَ له في مكانه الذي سيشهدُ له، وفي وقته حيث كان بين صلاة وتلاوة وإقراء، رحمه الله، وأحسن الله خاتمتنا ([82]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -49-

# عودٌ إلى الله

رفض بعضُ المترفين ما كان فيه من اللهو والاشتغال بالملذات فجأةً على غير تدريج، فسئل عن السبب، لماذا تركت ما كنتَ فيه من الإقبال على المتع والملذات، واشتغلت بالعبادة وعمل الخير؟

فقال: كانت لي جارية لا تزيدني الأيام إلّا غرامًا، ولا النظر إلى محاسنها إلّا هيامًا، جلستُ معها يومًا، وأخذتُ أتأمّلُ في ملاحة عينيها، وجبينها الأغر، وشعرِها الفاحم، فلفت نظري شعرتان قد شابتا، فأخبرتها، فارتاعت، وقالت: أرني. فأريتها، فقالت (جاءَ الحقُّ وَزَقَ الباطل) ثمّ نظرت إليَّ منقبضةً، وقالت: اعلمْ أنه لو لم تفترض عليَّ طاعتُك لما أويتُ إليك؛ فدعْ لي ليلي أو نهاري لأتزودَ فيه لآخرتي، فما أرى أجلي إلّا قد دنا، وقد جاءني نذير الشيب، فقلتُ: لا ولا كرامة.

فغضبتْ وقالت: أتحولُ بيني وبين ربي وقد آذنَني بلقائه؟ اللّهم بدِّل حبَّه لي بغضًا. قال: فبتُّ وما شيء أحبُّ إليّ من بعدها عني. وعرضتُها للبيع فأتاني من أعطاني فيها ما أريد، فلما عزمتُ على البيع بكتْ، فقلتُ: أنتِ أردتِ هذا. فقالت: والله ما اخترتُ عليك شيئًا من الدنيا! هل لك إلى ما هو خيرٌ لك من ثمني؟ قلت: وما هو؟ قالت: تعتقني لله عزّ وجل، فإني أحبُّك. فقلتُ: قد فعلت.

فقالت: أمضى الله صفقتك، وبلغك أضعاف أملك، وتزهدتْ؛ فبغَّضتْ إليَّ الدنيا ونعيمها ([83]).

# -50-

# يومُ الطِّين!

نهضت الملكة من فراشها، ونظرت من نافذة مقصورتها العالية إلى الأفق البعيد حيث قرص الشمس، الذي بدأ يرتفع خلف أشجار الغابة البعيدة، بلون برتقالي، وليؤذن بصباح جديد.

وهناك في غرفةٍ عالية من غرف القصر، كانت الأميراتُ الصغيرات مستغرقاتٍ في النوم، فقد أمضين جزءًا من الليل في المسامرة، فليالي الشتاء الدافئة، وهتان المطر، ورذاذه على النوافذ؛ يحفز على السهر والاستمتاع من داخل الغرف الملكية الدافئة.

ها هي الآن روميكا قدْ نهضت من فراشها الدافئ الوثير، وسرعان ما اجتمعت حولها الوصيفات، يساعدنها ويخدمنها، ويلقين تحية الصباح عليها، نظرت في فتورٍ إلى المدفأة القائمة في ركن الغرفة تنبعث منها رائحة أخشاب العود والصندل، فتعطِّر الأرجاء ببخورها الفواح بينما تبعث الدفء في المكان.

وانتقلت بعد أنِ اغتسلت وتطيّبت إلى شرفتها، حيث صُفت الأطباق والصّحاف على مائدة الفطور، صباحٌ مشرقٌ، ومائدةٌ قد انتصبَ عليها ما لذّ وطاب من الطعام، وصباح معطَّر برائحة النسيم العليل يزفُّ بشائر ربيع إشبيليا، وينمُّ عن زهور البرتقال والنارنج، نظرت بعيون الشاعرة إلى أسوار شرفتها حيث بدأت بشائر زهور الياسمين تتكون في أكمامها، إحياء جديد وتكاثر يتمُّ في الأغصان الخضراء التي توسّدت الأسوار البيضاء، أطلت على ساحة القصر تتوسطها بركة وحولها سياج من الريحان، جلست الأميرة على المائدة ومدّت يديها للطعام الشهيِّ، بينما ترنو عيونها إلى تلك التلال الخضراء البعيدة، التي يمرّ خلالها النهر الكبير، وعلى حافتيه انتشرت دواليب الماء تحمله في قنوات وجداول للحقول، وعدد من طواحين الماء، ومراكب تغدو وتروح بين أشبيلة وقرطبة، مرورًا بالقرى والمدائن، تحمل الخيرات والبضائع، وتقلّ المسافرين.

جالتِ الأميرة ببصرها بعيدًا نحو جبل الشرف الذي يراه الناظر من إشبيلية كالتاج الأبيض على مفرق العروس الحسناء بردائها السندسي، فقد اكتست تربته الخصيبة باللون الأخضر الفضي، لون أغصان الزيتون المورقة والمتشابكة، بينما تبدت من الجهة القبلية لإشبيلية جنات المصلى بحقولها المزروعة بقصب السكر وعرائش الأعناب، والرمان السفري، وأحراش التين، وأشجار المشمش واللوز، وعلى المدى البعيد، رأت سهولاً مترامية تنحدر من الجبل، اكتست باللون الأصفر لون القمح بسنابله الذهبية المثقلة،

وقد هبَّ الفلاحون لموسم الحصاد، يجمعون العيدان في أكوام كبيرة، وحقول قد تمّ حصادها، وقد اجتمعت فيها العصافير والحمام البري تلتقط ما تناثر من القمح أثناء الحصاد، قبل أن تزرع بالقطن، وعلى استحياء هبطت يمامات بلونها البني وطوقها الرصاصي وأخريات ذات لون رمادي، ليشاركن في بقايا تلك المائدة الحافلة، وحقول أخرى تنتظرُ دورَها في الحصاد، وقد سطعت أشعة الشمس على سنابلها فاستحالت سبائك منسوجة من ذهب.

ومن بعيد يظهر الطريق المعبَّد الذي يربط إشبيلية بالقرى المتناثرة حولها بالتواءاته، وقد تزاحمت عليه العربات التي تجرها البغال والحمير محمّلة بالقادمين من القرى المجاورة ومعهم بضائعهم، وقد ظهرت عربات أخرى تجرها الخيول أو البغال عليها ما يشبه الهودج، تصعد تارة وتهبط تارة أخرى، عبر الجادة التي تشق السهول والتلال، وعرباتٌ فاخرة، بنوافذها الزجاجية، تحمل كبار المسافرين فيجدون فيها الراحة والمتعة.

أخذت الروميكاء تتأمل القنطرة التي يعبر عليها القرويون جسر النهر، قادمين رجالًا أو ركبانًا على عربات تجرّها الخيول والبغال، من القرى والبوادي البعيدة، ولشدّ ما أعجبها منظر القرويات بجلابيبهن، وهنّ يخضن في وحلٍ لا مناص من عبوره إلى سوق إشبيلية، وعلى رؤوسهن القِرب المليئة باللبن، وأيديهن ممسكةٌ بأوعية الجبن والزبد، وأخريات يحملن على رؤوسهن صُرّة خضار أو سلّة بيضٍ أو قفص دجاج، وقد رفعن أذيال ثيابهن، يخضن في الطين، لقد خلبها هذا المنظر، وهي في مقعدها الوثير الذي ظهر لها في إطارٍ يجمع منظر السماء الزرقاء من خلال أعمدة الرخام المتصلة بشرفة قصرها المنيف، والتي تتصل بأقواس من نفائس الخشب المزخرف والمُطعّم بالأصداف، والأحجار، فكأنها أمامَ لوحة رائعة، لم يقطع تأملها إلّا صوت المعتمد ابن عباد يحييها قبل أن يتخذ مكانه على المائدة العامرة ليشاركها طعام الفطور، أخذ يتأملها بإعجابٍ وافتتان، فقد كانت عنده المدللةُ المحظيَّة، الآمرة الناهية، وجلسَا يتناولان فطائر الزبد والعسل، وشطائر الزيتون والزعتر مع الحساء.

قالتْ الزوجة الأثيرة المحظية لزوجها: أشتهِي يا مليكي أن أفعل أنا وجواريّ مثلَ هؤلاءِ النسوةِ، نخوض في وحلٍ ونحن نحمل القِربَ على رؤوسنا. فضحك المعتمدُ لهذا المطلب الغريب من زوجته الأثيرة التي أحبّها من أول نظرةٍ، منذ رآها في نزهةٍ له وهو يتريّضُ ويتبارى مع صديقه وصفيِّه الوزير الشاعر ابن عمار على متن قاربٍ بنهر الوادي الكبير، قريبًا من مرج الفضة أحد متنزهات إشبيلية، حين نظر المعتمد إلى صفحة الماء، وقد هبّت الريح فجعلت متموّجًا..

فقال: صنع الريح من الماء زرد ...

ونظر لصديقه ونديمه ابن عمار، يستنطقه كي يكمل البيت بسرعة بديهته، وذكاء وشاعرية قريحته، لكنه تحيّر، ووقف مشدوهًا، وإذ بصوتٍ كهديل الحمام، ينطق بتمام البيت!

أيّ درع لقتال قد جمد

فالتفت إلى مصدر هذا الصّوت الرخيم، فإذْ بفتاة بارعة الحسن تأخذ بالبصر وتسلب الفؤاد، بينما تغسل ثيابًا على شاطئ النهر، فقال لها هائمًا:

- مَن أنت؟

قالت: أنا الروميكية؟

- أفتاة أم متزوجة؟

ضحكت الروميكية في دلالٍ، وهي تلمح في الأمير نظرة الإعجاب بجمالها وحسنها، وقالت: بل جارية لرميك بن حجاج!

فقال: من الآن أنت لي. واشتراها من سيدها باذلًا أغلى الأثمان، ثمّ أعتقها وتزوجها بل تسمى لفرط حبّه لها بالمعتمد، فالتقى الشّطران في بيت واحد، كما التقى الشاعران تحت سقف واحد في قصر إشبيلية، حيث زفّت له الروميكا عروسًا، في ليلة من أسعد ليالي إشبيلية.

قال في نهاية قصيدة من ستة أبيات، يبدأ كلّ بيت بحرف من حروف اسمها:

دسست اسْمك الحلو فِي طيّه

وألّفت فِيك حــُرُوف اعْتِمَاد

«فكان المعتمد كثيرًا ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، وإنما كانت مليحة الوجه، فصيحة اللسان، حلوة النادرة، كثيرة الفكاهة، لها في كلّ ذلك نوادر محكية».

تذكّر ابن عباد قصة عشقه للرميكاء، وكيف صارت له، ينعم بجمالها ودلالها، ويطرب من شعرها وظرفها.

قالت الأميرة الحسناء: أين جال خاطرُك أيها الملك؟

نظر إليها مبتسمًا، وسرعان ما أمر بجلب العنبَرِ والمسكِ في ساحة القصرِ، وخلطها بالكافورِ والعودِ والزعفران، وعجنها بماءِ الوردِ والحِنَّاء، ونثر الورود الحمراء والصفراء في هذا الخليط، وجعلَ لها قِرَبًا من فاخر الجلود، وحِبالًا ليِّنة، وخرجتْ الأميرة مع بناتها الصغار وجواريهنّ، للخوض في ذلك الطين الأذفر، والمسك والحناء والعنبر، وهنّ يحملن القرب ويخطرنَ في أزياء أنيقة

كأردية نساء الريف يمرحن في بهجةٍ غامرةٍ وطرب، وهنَّ في سعادةٍ غامرةٍ وفرحةٍ ظاهرة، ومتعةٍ نادرة.

فكان يومًا مشهودًا، أنفق عليه ابن عباد ببذخ من الخزانة آلاف الدنانير، ليدخل السرور والإسعاد على زوجته الأثيرة بهذا الحفل العبثي،([84]) والجواري يغنين بالأهازيج.

وفي غمرة السرور والحبور، وليكتمل هذا المشهد، أقبل أبو الحسن المهرج الفكيك الذي وفد من بغداد، وصار مهرجَ القصر؛ إذ كان حلوَ الجواب، مليح التندُّر، يضحك من حضر، ولا يضحك هو إذا ندر، وكان قصيرًا دميمًا، بهيئة مضحكة، أخذ يتواثب، ويتدحرج، بلبسه الغريب وألوانه المبهجة، ويصيح ويقهقه، وعلى رأسه طرطور أخضر يهزّه، وحول الطرطور عمّة صفراء مذهبة، تارة يقفز على البساط بين يدي المعتمد بن عباد، وتارة يترنم، قائلًا:

وأنت سليمان في ملكه

وبين يديك أنا الهدهد

فكان يومًا لا ينسى!

ولم تنته مطالبُ الأميرة الحسناء الأثيرة المدللة.

ذاتَ يوم تشتهي الرميكاء منظرَ الثلج على الشجر والنوافذ، كما رأته من نوافذ قصرها في قرطبة حين زارتها يكسو أغصان الشجر العارية ، فلماذا لا ترى مثله في قصرها بإشبيلية؟

راقها المشهد، وجلست حزينةً، فسألها أميرها الشاعر: ما بكِ؟

فقالت: أشتاق إلى منظر الثلج.

فقال: سترينه من نافذة هذا القصر.

وفكّر المعتمد كيف يلبي لها هذا المطلب؟ حتى اهتدى لغرس أشجار اللوز على منحدرات الجبل الذي يتراءى لها من نوافذ غرفتها بالقصر، ليزهر في الربيع زهورًا بيضاء تكسو الشجر، فيبدو لها نوّار اللوز من النافذة كندف الثلج المتساقط.

وتمرُّ أيام الهنا، وتنطوي صفحات السرور، وينقلب الدهرُ على المعتمد ابن عباد فيخُلعُ عن ملكه وينتزع من قصوره، ويحبَس في سجن أغمات هناك في قلب صحراء المغرب، فلا تفارقه زوجته الرّوميكا، ولا تتخلى عنه طرفة عين، بل تظلّ صابرة وفية، وتضرب أروع المثل في الوفاء، كما كانت امرأة أيوب- عليه السلام- لأيوب في بلائه.

إلّا أن اعتماد ذاتَ يوم كانت تتكلّمُ مع المعتمد، فَجَرَى بينهما ما يجرِي بينَ الزوجينِ من خلاف، فقالتْ له متضجّرةً: واللهِ ما رأيتُ منك خيرًا قطّ!

فقال لها: ولا يوم الطين؟!

تذكيرًا لها بهذا اليومِ الذي بدَّد فيه من الأموالِ ما لا يعلمُهُ إلّا اللهُ تعالى، فاستحيتْ واعتذرتْ، وطاب خاطرها حين تذكّرت كيف كان يتفانى في إرضائها ويسارع لتلبية شواذّ رغباتها ([85]).

وذاتَ يومٍ يمرّ بخاطر المعتمد ذكرى يومِ الطين، هذا اليوم المشرق البهيج في ساحةِ قصره الكبير بإشبيلية، بينما هو الآن في ظلمة أقبية السجون بأغمات الكئيبة تلك البلدة النائية المقفرة، بعد أن غدر به يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وسلبه ملكَه، ونقله من قصره في ربوع إشبيلية إلى سجن أغمات بقلب الصّحراء المقفرة، ويأتي يوم العيد؛ وما أقساه على المبتلين! فتدخلُ عليه بناته يعودونه ويهنئونه بالعيد، وهنّ في أطمار باليات بحالة يرثى لها، فبكى حزنًا وإشفاقًا وتحسُّرًا واحتراقًا.

وقد زادَ من ألمه حين عرف أنّ إحداهنّ غزلت غزلًا بالأجرة لزوجة صاحبِ الشرطة الذي كان في خدمةِ أبيها لما كان في سلطانه، ونظرَ المعتمد إلى بنيّاته فرآهنّ أقمارًا كاسفات، في أطمارهنّ الرثة وحالهنّ السيئة، فأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

يطأن في الطين والأقدام حافية

كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا

ويذكر المعتمد بن عباد حرارةَ أجواء أغمات، ولهيب صيفها مع ضيق السجن، بينما زوجته صابرة راضية، فيتذكر ذاتَ مرّة في يوم صائفٍ شديد الحر، حين خلا في قصره بإشبيلية مع زوجته الرميكية في مجلس أنس، وقد بسطتْ لهم الفرش والوسائد، والمتكآت تحت شجرة ظليلة، وقدّم الخدم الفاكهة والشرابَ البارد، ومع ذلك كانت متأففةً من شدّة الحر، فقالت للمعتمد بدلالها: أشتهي غيمًا ومطرًا، فأمر بمجامر العنبر والعود، حتى انعقدَ الدخان كالضباب، ثمّ أمر برشّ أعلى صحن المجلس برذاذ من ماء الورد، فهبّت نسمات باردة، وكان يومًا لطيفًا بهيجًا.

حتى أنها ذاتَ يوم غضبت منه، فقالت له مغتاظة حانقة: ما رأيت معك يومَ سرور قط!

فقال لها: ولا يوم المطر!؟

فأطرقت في وجومٍ، ولم تعرْ جوابًا ([86]).

- أتذكرين هذا الموقف يا مهجة قلبي؟

- نعم سيدي، وهل أنسى فضلك وإكرامك؟ وهل أنسى إسعادك لي؟ وتفنّنك في إرضاء رغباتي كأنّني طفلة مدللة!

ضحك المعتمد، وقال: وهل تذكرين يوم الفيل؟

- نعم أذكره، فيل من فضّة على شاطئ البركة يقذف الماء، حين جلست على تلك البركة، والماء يجري من ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، بل أذكر تلك الأبيات التي أنشدها الشعراء المجتمعون: عبد الجليل بن وهبون المرسي، والوزير أبو بكر بن الملح، وغيرهما، ثمّ أنشدته تلك الأبيات.

لقد كانت زينةً له في الرخاء، وهي الآن عُدّتُه وأنيسُه في البلاء.

واشتدّت وطأة المحنة على اعتماد الرميكية زوجة المعتمد، ولم تقوَ طويلًا على مغالبة المحنة؛ فتُوفيت قبلَ زوجها بأيام، ودُفنت بأغمات على مقربةٍ من سجن زوجها.

«توفّيت روميكا بأغمات قبلَ المعتمد سيدها، لم ترقأ لها عبرة، ولا فارقتها حسرة، حتى قضت أسفًا، وهلكت حزنًا» ([87]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# -51-

# الفارسُ الأخير
# موسى بن أبي الغسّان
# وخريفُ غرناطة الأخير

«... طرقَت الفتنة الدهياءُ ذلك القطرَ الذي ليس له في الحسنِ مثالٌ، ونَسَلَ الخطبُ إليهِ من كلّ حَدَبٍ وانثَالَ، وكُلُّ ذلك من اختلافِ رؤسائِهِ وكُبَرَائِهِ وأُمَرَائِهِ ووُزَرَائه، والنصارى يضربون بينهم بالخداعِ والمكرِ والكيدِ، ويضربون عَمْرًا منهم بزيدٍ، حتى تمكّنُوا من أخذِ البلادِ والاستيلاءِ على الطارفِ والتِّلادِ، قال الوزير أبو يحيى بن عاصم- رحمه الله تعالى- في كتابه (جنة الرضى في التسليم): «ومَن استقرأ التواريخ وأخبار الملوك علمَ أنّ النصارى دمَّرهم اللهُ تعالى لم يدركوا في المسلمين ثارًا، ولم يخرِّبوا من الجزيرةِ منازلَ وديارًا، ولم يستولوا عليها إلّا بعد تمكينِهم لأسبابِ الخلاف، واجتهادِهم في وقوعِ الافتراقِ بين المسلمين والاختلاف، وتضريبِهم بالمكرِ والخديعةِ بين ملوكِ الجزيرة، وتحريشِهم بالكيدِ والخَلابةِ بين حُماتها في الفتنِ المهلكةِ...» نفح الطيب - (6 / 269)، [طارف: المال النفيس المكتسب، والتلاد، الموروث].

لنبدأ الحديثَ عن سقوط غرناطة بذلك الحدث المروّع، الذي اهتزت له غرناطة، وكان من أوائل النّكباتِ والنُّذر، فضلًا عمّا سبقه من أحداث فيها معتبر.

ذاتَ نهارٍ عندما كان الأمير أبو الحسن علي بن سعد يستعرض جيوشَه، خارج أسوار قرطبة في مكان هُيّئ لذلك، وكان هذا اليوم آخرَ أيام عرض العسكر، فاحتشد الناس من غرناطة والقرى المجاورة لها من رجال وَنسَاء وأطفال وغلمان وشيوخ وكهول، لشهود هذا الحفل، والتنزُّه، والاستمتاع بالأجواء الرائعة، وبينما الناسُ في فرح وسرور ولهوٍ وحبور، والأمير في زهو وغرور، إِذ بسحابة عَظِيمَة تظهر في السَّمَاء، ومع ما صاحبها من رعد وبرق، أفرغت الماء كأنه أفواه القرب، وانهمر الْمَطَر حَتَّى صَار كالأنهار الْعَظِيمَة، وَجَاءَت السُّيُول من كلّ نَاحيَة وَعظم أمرهَا، وعاين النَّاس الْهَلَاك، وَاحْتمل السَّيْل الطّرق وَمَا حولهَا، وَانْقطع النَّاس وَحَال السَّيْل بَينهم وَبَينه، فَكَانَ لَا يُسْمَعُ إلّا الرعودُ، وعصفُ الرياح، وبكاءُ الصّبيان، وصراخ النساء، وضجيج الرِّجَال بِالدُّعَاءِ إِلَى الله تَعَالَى، والابتهالُ إِلَى أَن ارْتَفع الْمَطَر، وجرى الوادي بالسيل العَرِم الذي دمّر وجرف كلّ ما في طريقه، حتى أَشْجَار الدردار والجوز واللوز

وَغير ذَلِك من الْأَشْجَار الْعِظَام الثَّابِتَة فِي الأرْض، تقلّعت من أصولها، وانجرفت مع السيل الذي اقتحم الْبَلَد وَاحْتمل مَا على ضفتيه من الدّور والحوانيت والمساجد والفنادق، وَدخل الْأَسْوَاق وَهدم الْبناء المشيد. وَلم يبْق من القناطير إلّا الأقواس وَذهب بِكُل مَا كَانَ عَلَيْهَا من الْبُنيان، ثمّ جَاءَ السَّيْل بِتِلْكَ الْأَشْجَار الْعِظَام الَّتِي اقتلعت فتراكمت فِي الْبَلَد فِي آخر قنطرة مِنْهُ فَسدّتْ مجاري الْوَادي فتراكم السَّيْل وَالشَّجر فِي قلب الْبَلَد وعاين الأهالي الْهَلَاك وَدخل الماءُ حوانيت سوق القيسارية، وَوصل إِلَى رحبة الْجَامِع الْأَعْظَم وَإِلَى سوق الصاغة والحدادين وَغير ذَلِك من الْأَسْوَاق والدور، ولطف الله تَعَالَى بعباده فنفض السَّيْل بِقُوَّة تراكمه بالقنطرة والسور، وَخرج ذَلِك كُله خَارج الْبَلَد، وَكَانَ هَذَا الْيَوْم من أعظم الْأَيَّام، شَاهد فِيهِ كلّ من رَآهُ قدرَة الْقَادِر القهار الملك العلام.

يا إلهي ما أحلمَك على عبادك، وما أشدّ بأسَك على مَن تمادى في عصيانك، وغرّه حلمُك!

«ومنذ وَقت هَذَا السَّيْل الْعَظِيم بَدَأَ مُلْكُ الْأَمِير أبي الْحسن فِي التقهقر والانتكاس والانتقاص، وَذَلِكَ أَنه اشْتغل باللذات وانهمك فِي الشَّهَوَات، وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات، وضيع الْجند وَأسْقط كثيرًا من نجدة الفرسان وَثقّل المغارم فِي الْبلدَان وَأكثر الضرائب والمكوس على الحقول والأَسْوَاق، وشحَّ بالعطاء، إِلَى غير ذَلِك من الْأُمُور الَّتِي لَا يثبت مَعهَا الْمُلك».

ومما عجَّل بسقوط غرناطة، وزيرها الذي كان يتظاهر بالصلاح، بينما هو مفسدٌ وخائنٌ، يحيك الفتن ويكيد للأمير وينقم على الرعية ويتعسَّف مع الناس، فيجبي منهم الأموال قهرًا وظلمًا.

وعندما أوصد الأميرُ أبوابَ قصره عاكفًا على الملذات، وقد أهمل الجند والعسكر، وترك الغزو، والمدن تتساقط حوله في أيدي الأعداء، وهو لا يبالي، ولا يتحرك لنصرة إخوانه؛ استغلّ الأعداءُ ذلك، فتسللوا بجيوشهم، واقتحموا الحصون، وضيَّقوا الخناق يوما بعد يوم على أهل غرناطة وما حولها.

وكانت معارك وصولات بين الفريقين، كانت الحرب فيها سجالًا، لكن العدوَّ كان يتغلغل، وعسكره يقوى، وخطرُه يستفحل، وصاحب غدر الوزير وسوء مشورته وخبث تصرفه، تخاذل الأمير وتواكله على هذا الوزير الخائن، فضلًا عن تلك الفتنة التي اشتعلت داخل قصر الحمراء، بسبب الغيرة بين عائشة الحرة وثريا الرومية، وانتقلت إلى الأبناء.

كما سارع في السقوط تلك الفتنة التي أضرمتْ بين السكان، وتحوَّلت إلى معارك طاحنة استمرت شهورًا، مع ضعفِ الحاكم وتخاذله عن وأدِ الفتنة، كان العدوُّ يسكب فيها الزيت على النار، وكان من آثار ذلك «تعصّب أهل البيازين

على أهل غرناطة. وَوقوع الْحَرْب والقتال بَينهم، حتى أضحَوا يقتلُ بَعضهم بَعْضًا، وينهب بَعضهم مَال الآخر. ثمّ إِن الْعَدو- دمّره الله- أمدّ أَمِير البيازين بِالرِّجَالِ والأنفاط والبارود والقمح والعلف والبهائم وَالذَّهَب وَالْفِضَّة وَغير ذَلِك؛ لِيَشُدّ بِهِ عضد الْفِتْنَة وَيُقَوِّي الشَّرّ، وَلم تزل الْحَرْب مُتَّصِلَة بَين الْفَرِيقَيْن».

في حين كانت حواضرُ الإسلام تتساقط أمامَ أعداء المسلمين، مالقة وبسطة وبلش وغيرهما، ودائرة السّوءِ تضيق على غرناطة. ([88])

وجاء الخريفُ على غير ما جرتْ عادته لأهل غرناطة، فهو فصلُ بهجة وسرور وغبطة وحبور، يخرجون فيه للمنتزهات والغابات، والحقول، والبساتين، حيث تنضج المحاصيل والثمار، وتتساقط أوراقُ الشجر في الغابات، فتصبح الأرض مكسوة ببساط من الورق الأخضر والأصفر والأحمر، مما يضفي جمالًا وروعةً، بينما ينعمُ الفلاحون بالحصاد الوفير، فحقول القمح بسنابله الذهبية ما بين قائم وحصيد، وحدائق الزيتون المترامية في السهول والوديان حول غرناطة تشهد اجتماع العائلات لجنْيها، فيتمُّ جمعُ الزيتون، وفرزه، ومن ثمّ إدخاله على المعاصر لاستخلاص الزيت، وفي ذات الوقت تشهد العائلات موسمَ جمع ما تبقى على الشجر من الرمان، وغلي حباته في قدور كبيرة لاستخلاص دبس الرّمان الذي يضاف للطعام، فيُكسبه مذاقًا ونكهة، ويستخلص منه الشراب اللذيذ. إنّ موسم الخريف حافلٌ بالأعمال في الحقول والبساتين، بل وفي الغابات حيث قطع الأخشاب، وحمله على البغال والحمير للمنازل استعدادًا لفصل الشتاء.

أمّا هذا الخريف فلم يشهدْ سوى الحصار الذي لم ينج منه سوى الطير، حيث رحلت جنوبًا، تلتمس الدفء والحبَّ والأمان، أمّا أهل غرناطة فمحاصرون من كلّ الجهات، بل قام العدوُّ الغاشمُ بإضرام النار في حقول القمح، وأشجار الزيتون، ليقطع المؤنة وينشر اليأس في القلوب.

حصارٌ خانق، وطرقٌ عنيفٌ لأسوار غرناطة بالمنجنيق، وكرات اللهب الحارقة، ومحاولات مستميتة لاقتحام غرناطة من قبَل الفرسان الذين حشدهم الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا من أصقاع أوروبا باسم الصليب، ففي روما أعلنَ البابا النفير، فلبى نداءَه الفرسان من النبلاء والصعاليك والمرتزقة.

وفي البهْو الكبير من قصر الحمراء، اجتمع أبو عبد الله الصغير بوزيره وحاشيته من القضاة والقادة والأعيان؛ للنظر في رسالة الطاغية فرديناند.

قال أبو عبد الله الصغير: ماذا ترون أيها السادة؟ أشيروا علي، الأمرُ إليكم فانظروا ماذا تأمرون!

ابتدرَ الكلام وزيره الحضرمي يوسف بن كماشة فقال: يا مولاي! علينا أن نعجَل إجابة العدو للصلح قبل مجيء فصل الشتاء، فالوقت يداهمنا، وأعدادهم تزيد، وستزداد على مطلع الربيع القادم، حيث الأمداد من فرسان وصعاليك أوروبا.

استأذن أحدُ التّجار الأثرياء للكلام، فطفق يهوِّل من الأمر ويبثّ الرعب بكلامه الداعي إلى الخنوع والاستسلام.

أمّن تاجرٌ آخر على كلامه، قائلًا: لقد أحكموا الحصار، وأرهقونا، وأحرقوا حقولنا، ونهبوا المواشي، والمحاصيل، وقد نفد الطعام، وتعطلت الأسواق، وأصبحت الصوامع خاوية، ولم يعد لدينا من المخزون ما يكفي لأسبوع!

وعزّز رأيهم ثالثٌ فقال: لا قبَل لنا ولا طاقة لفكّ هذا الحصار المطبِق، فأعدادهم في تزايد، كما لا صارخ لنا ولا مغيث، لا مِن بعيد ولا من قريب، فقد سقطت كلّ الممالك في أيديهم قاتلهم الله!

وجِم أبو عبد الله وهو ينصتُ إلى هذه الأصوات المثبطة، وعلتْ وجهه غيامة من الكآبة والحزن، والتفتَ إلى الحاضرين من الشباب، كأنه يريد أن يسمع جوابهم.

قال أحد الفرسان الشجعان: الرأي عندي أن تفتحوا لنا أبوابَ غرناطة ونخرج إليهم، فإمّا النصر وإمّا الشهادة، فإنها والله ميتةٌ واحدة، فإمّا حياة عزٍّ وكرامة، وإمّا الموت في سبيل الله.

وبصعوبةٍ بالغة قام أحد الجالسين قريبًا من السلطان، وكان أحمر الوجه، مترهّل البدن، تبدو علامات الثّراء على حلّته الأنيقة، فأشاح بيده اليسرى بخاتمٍ يلمعُ في بنصره، ومسح باليد اليمنى على جبينه بمنديلٍ حريري، وقال بصوتٍ غليظٍ: جلالة الملك، أيها السادة، اسمحوا لي.. إنّ الحرب لا تأتي بخير، وهذه فرصة ذهبية أمامنا، لا طاقة لنا اليوم بملك قشتالة وجنوده، وها هو يعرض علينا الصلح، ونحن أحوجُ إليه! فقد أكل الحصارُ الأخضر واليابس، وحصد كثيرًا من أرواح البشر بل والحيوانات، كثيرًا من الثكالى والأرامل واليتامى!

انظروا حولكم.. أينَ قرطبة وجيان ومالقة وإشبيلية وغيرها؟ كلها سقطت! ونهبت ثرواتها، وتحولت مساجدها إلى كنائس، ومحاريبها إلى مذابح، ومآذنها إلى أبراج، ونواقيس.

انظروا إلى أهل مالقة! كيف «ضيق عَلَيْهِم الْعَدو وحاصر الْمَدِينَة بسور من تُرَاب وسور من خشب وخندق، وَمنع عَلَيْهِم الدَّاخِل وَالْخَارِج فِي الْبر وَالْبَحْر وَشدد عَلَيْهِم فِي الْحصار والقتال وهم مَعَ ذَلِك صَابِرُونَ محتسبون يُقَاتلُون

أشدّ الْقِتَال وَلَا يظهرون جزعًا وَلَا هلعًا وَلَا يطمعون الْعَدو فِي شَيْء مِمَّا يرومه مِنْهُم حَتَّى نفد مَا عِنْدهم من الْأَطْعِمَة والزاد وأكلوا مَا كَانَ عِنْدهم من الْمَوَاشِي من خيل وبغال وحمير وكلاب وجلود حتى ورق الشّجر وَغير ذَلِك من الْأَشْيَاء الَّتِي يُمكن أن نستسيغهَا حَتَّى فني ذَلِك كُله وَأثر فيهم الْجُوع أثرا عَظِيما، وَمَات كثير من نجدة رِجَالهمْ الَّذين كَانُوا يواصلون الْحَرْب والقتال، فَحِينَئِذٍ أذعنوا وطلبوا الْأمان، فاحتال عَلَيْهِم الْعَدو حَتَّى دخل الْبَلَد بمكر ومكيدة وأسرهم كلهم وسبى نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادهمْ واحتوى على جَمِيع أَمْوَالهم وفرقهم على أهل دَخلته وقواده وَكَانَ مصابهم مصابًا عَظِيمًا تحزن لَهُ الْقُلُوب وتذهل لَهُ النُّفُوس وتذوب وتبكي مصابهم الْعُيُون بالدماء؛ فَإِنَّا لله وَإِنَّا لَهُ رَاجِعُون» ([89]).

وكذلك أهلُ بسطة الذين حاصرهم العدوّ بخيله ورجله، فدافعوا دفاعًا مستميتًا، واستبسل أنجاد الفرسان، ثمّ نفدت ذخائرهم وفرغت مخازنُ القمح، فاضطروا للاستسلام، فهل نصمد نحن أمام هذا السيل الهادر! إنّ من الحكمة أن نقبل بالصلح، وكما قيل: تقتضيك الشجاعة أن تجبن ساعة! سيّما وأميرُ قشتالة قد انضمّ تحت لوائه كلّ أمراء أوروبا وفرسانها.

تدخّل أحد التجار، فقال: اسمعوني يا قومي، إذا دخل فصل الشتاء وتساقطت الثلوج على جبل شلير وهو الطَّرِيق الوحيد للبشرات، حيث نجلب من هناك «الْقَمْح وَالشعِير والذرة وَالزَّيْت وَالزَّبِيب وَغير ذَلِك من المؤن والسلع، سنموت من الجوع»([90])، سيّما وقد منعنا الحصار من الخروج إلى حقولنا وبساتيننا، بل أحرقوا محاصيلنا؛ فلا حيلة لنا سوى الاستسلام!

وهنا، صرخ شابٌّ متحمِّس: بل الشجاعة أن نصمدَ أمامهم، والعار كلّ العار في التسليم والوهن، العارُ أن نفتح أبواب مدينتنا لأولئك الصعاليك الذين أعماهم التعصُّب، وساقهم الحقد، وأتى بهم الطمع.

وتقدّم أحد أعيان قرطبة وهو من أصحاب الحقول والبساتين وعلى وجهه يرتسم الحزن لفقدانه جزءًا كبيرًا من ثروته في هذا الحصار المشئوم، قال بصوت مهزومٍ: لقد حرقوا الحقول ودمروا عرائش الأعناب، وخرّبوا حظائر البقر والغنم؛ فماذا ننتظر! هل ننتظر تدميرهم لغرناطة، ومن ثمّ دخولهم بعد خرابها! أم نسلم الراية، ونحفظ مدينتنا من دكّ المدافع، وكرات اللهب! اعتبروا يا قوم بمالقة التي أصرّت على المقاومة، فكان ما كان من خراب ودمار، ثمّ في النهاية استسلموا!

ردّ أحد الشيوخ العقلاء: نعم استسلموا، ولكن ماذا فعل بهم الطاغية؟ لقد خان العهد وخفر الذمة، واستحلّ الأموال، ونزع الأطفال من أحضان الأمهات، وأرسل بهم قربانًا للبابا في روما لينصِّرهم! فالعدوّ لا عهد له ولا ذمّة، ألم

ينقض من نفسه الهدنة التي كانت بيننا! إنها النوايا المبيّتة والحقد الدفين الذي ظهر وبان!

أمّنَ شيخٌ آخرٌ على هذا الكلام فقال: نعم! لوْلا تلك المقاومة الباسلة في تلك البلاد التي سقطت في يدِ العدوّ لوصل إلينا منذ سنتين، فإنه لم يدخل بلدة مسلمة إلّا بعد حصارٍ دام شهورًا، تكبّد خلالها خسارة هائلة في الأرواح والآلات.

هبّ القائدُ الشابُّ موسى بن أبي غسان واقفًا، وقال: يا سادتي، لا استسلام لعدوٍّ غادرٍ، لا يحفظ عهدًا ولا ذمة، ألم يقل ربّنا، وقوله الحق (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) [محمد: ٣٥]

«ثمّ استرسل في الكلام، فقال: لا بدّ أن يعلم ملك النصارى أن العربي قد وُلد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها غالية، أمّا أنا فخيرٌ لي قبر تحت أنقاض غرناطة، في المكان الذي أموت مدافعًا عنه، مِن أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين».

«إنّ الموت أقلّ ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها وتدنيس مساجدنا، وأمامنا الجور الفاحش والسياط والأغلال والأنطاع والمحارق، وهذا ما سوف تراه تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أمّا أنا فوالله لن أراه».

امتعض فريق المتخاذلين، وارتدّوا على أعقابهم، وانهزم منطق الجبن والتخاذل أمام صوت الشجاعة والحزم.

وانتصر صوتُ الفرسان البواسل، وأخذوا زمام المبادرة، وفتحت لهم أبواب غرناطة، فانطلقوا كالإعصار، يشقُّون صفوف العدو، ويكبدونهم خسائر في الأرواح، لكن الكثرة تغلب الشجاعة كما هو معلوم، فقد امتصّ العدو تلك الضربة المباغتة، وتقاطر على الفرسان، فتمكن من حصار بعضهم، لكنّهم قاتلوا ببسالة حتى الموت، لم يستسلموا.

ولجأ موسى بمن بقي من الفدائيين ناحية الأبواب والعدو من ورائهم، فدخل الأبطالُ بسلام، وأوصدوا وراءهم الأبواب، وقد فقد موسى كثيرًا من أنجاد فرسانه.

وظلّ الطاغية فرديناند يرسل إلى أبي عبد الله عن طريق وزيره الخئون ابن كماشة الحضرمي، ويغريه بحمايةِ روحه وأرواح أسرته، وحماية ممتلكاته على أن يسلم حتى قبل التعيس بالتسليم.

وكان هذا الاجتماع الحزين، في بهو الأسود.. الجميع في صمت حزين، بين واضع يده على خده، أو مَن يجلس مخفيًا رأسه بين رجليه، وبين باكٍ حزين.

وحده أبو عبد الله كان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، أمّا الوزير ابن كمَاشة فبيدِه عودٌ ينكت به في السجادة التي يجلس عليها، بينما الفارس موسى الغساني مطرقٌ في صمت.

دخلت الأميرة عائشة الحرّة البهو الفسيح، مشت بخطوات متثاقلة حتى بلغت مجلس القوم، لم يحفل أحدٌ بقدومها، نظرت إلى ولدها، رأتِ الدموع في عينيه، فقالت له بنبرة حزينةٍ كلمات رصينة:

ابكِ مثل النساء ملكًا لم تحافظْ عليه كالرجال! لكمْ نصحتُك فلم تسمع لي!

قال أبو عبد الله: إنه قضاءُ الله وقدره، أن أعيش تعيسًا، فما حيلتي يا أمّاه! إنه سوء طالعي.

- كلّا، إنه سوء تدبيرك أنت، هذا ما جنته يداك! لقد ركنت إلى الراحة والدعة، وانشغلت باللهو والنّساء، ونمت ملء عينيك، وحولك عدوّ لا ينام! وسالمت الأعداء وعاديت الأقرباء، وأدنيت أرباب الغشّ والخيانة، وأقصيت أهلَ النصح والأمانة! وأهملت جيشك، وأنفقت الأموال على الملذات والشّهوات! وشغلت الشعبَ باللهو والطرب والزينة والألوان! فماذا كنت تنتظر! هذا ما قدّمته يداك.. هذا ما قدمته يداك!

ردّ الوزير: اتركي يا مولاتي العتاب، فلا وقت للّوم! ولنفكر في المخرج، الوقت يمضي، فكّروا في النساء والأطفال.

ارتفع صوتُ النحيب المكتوم في الصدور، ربّاه! نجِّنا من هذا الكابوس الذي جثم على الصدور.

قطع موسى ذلك الضجيج بصوتٍ جَهْوريٍّ أرغم الجميعَ على السكوت والإصغاء، فقال: «اتركوا العويلَ للنساء والأطفال، فنحن رجالٌ لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء. وإني لأرى روحَ الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة؛ ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة، ذلك هو موت مجيد، فلنمتْ دفاعًا عن حرياتنا، وانتقامًا لمصائب غرناطة، وسوف تحتضن أمُّنا الغبراء أبناءها من أغلال المستعبد وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبرٍ يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماءً تغطيه، وحاشا لله أن يقال: إنّ أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها».

نظر موسى إلى ردّ فعل الحاضرين، تفحَّص وجوههم لم يلقَ فيها إلّا الخنوع والاستسلام، نظر إلى أبي عبد الله، حدَّق في وجهه، التقت العينان، انكسرت عينُ عبد الله وارتدّت خاسئةً حسيرة.

قال وبصرُه مصوّبٌ إلى أسفل: الله أكبر لا إله إلّا الله، لا رادّ لقضاء الله، كتب علينا حظًّنا من التّعاسة والشقاء!

تجاوبتِ القاعة مع هذا الصوت المستسلم، فردّ الجميع: لا إله إلّا الله، لا رادّ لقضاء الله.

سرّح موسى طرفه في تلك الوجوه، ثمّ رفع بصره، فقرأ مكتوبًا بخطّ جميل على لوحة رخامية منقوشة في صدر المجلس «لا غالب إلّا الله»، فأحسّ ببردٍ وسلام، ثمّ سرت في جسده حرارةٌ زادته حماسةً وإقدامًا، فصرخ في القوم، قائلًا: «لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أنّ النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم. إنّ الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك بناتنا ونسائنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصُّب الوحشي، وأمامنا السجون والمحارق. هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقلّ تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف. أمّا أنا، فوالله لن أراه». ثمّ غادر المجلس، واخترق بهوَ الأسود، وألقى نظرة أخيرة على برج قمارش، ثمّ انعطف نحو جنة العريف فلم يمتِّع بصره هذه المرّة بمنظر الماء المتدفق من النافورة، ولم يأخذ نفسًا عميقًا كالعادة ليملأ صدره من شذى الرياحين، بل شقَّ طريقه إلى أحد أبواب القصر الجانبية مغادرًا، وعلى صخرة عالية أطلَّ إطلالةً أخيرةً على المدينة الحزينة.

نظرَ إلى بيوتها البيضاء، يلفّها الظلام، ومن خلفها مشهد جبل شلير بقممه الثلجية، التي تذوبُ تدريجيًّا، وتنحدر بشدّة في جداول تصبُّ في نهر حدرّوه، زاد قلبه حسرةً على مدينته الغنية بالخيرات، غرناطة، كيف تسقطُ الرمانة في يد أعداء الله؛ فينتهبوا خيراتها، ويغتصبوا حقولها ودورَها، ويدنِّسوا مساجدها!

أتسلم هذه البلد الطيبة لأعداء الله!؟

وصل إلى بيته، سلّم على أبيه وأمه، ثمّ دخل الإسطبل، وجهّز حصانه الأسود، ولبس درعه، وتقنّع بالبيضة التي لا يفلُّها الحديد، وغادر غرناطة من باب إلبيرة، ثمّ اقترب من معسكر العدو، فسمع صوتَ المعازف والغناء، دنا أكثر، فعلم أنّ القوم في حالة سكر وعربدة، وقد لعبت الخمر في رؤوسهم، وجمعوا لهم الجواري والبغايا، ليبتهجوا بنصرهم، ويكافئوا على صمودِهم وصبرِهم.

بحصانه الأدهم انطلق فارسُنا كالإعصار، يحصُدُ بسيفه البتَّار كلّ ما في طريقه من رؤوسٍ، حتى جرت الدماءُ وعمَّت الفوضى، وأخيرًا أفاق العدوّ لتلك القارعة، وانتبه لتلك المباغتة التي أفسدت الفرحة وخلطت الضحكات بالآهات، ومزجت الخمور الحمراء بالدماء القانية، وتحوَّل العرسُ إلى مأتمٍ، واستحال اللحن إلى نحيبٍ وعويل.

انطلق الفارس وخلفَه طابورٌ من الفرسان، أخذ يعدُو بأقصى سرعته حتى اقترب من النهر، وترصَّد للفرسان الذين لاحقوه، فلمّا اقتربوا منه صوَّب سهامه نحو صدورهم، ثمّ اشتبك مع مَن تبقى حيًّا فقتلَ معظمهم لوْلا أنّ كتيبةً أقبلت، وخلفها كتيبة أخرى تحاصر المكان، فكانت ملحمة من أعظم الملاحم؛ أسدٌ هصور أمامَ قطيع من الذئاب، وعصابة من الضباع، يضرب الرؤوس، ويبتر الأيادي، حتى أثخن فيهم، واختلطت الآهات، وفارسُنا يزلزل القلوب بصوت التكبير، فترتعد فرائصهم، ويفرّون من أمامه فيلاحقهم بسيفه الذي أوغلَ في دمائهم، لولا أنهم نجحوا في عقر فرسه، فترجّل فارسنا الشجاع مثخَنًا بالجراح، وواصل القتال، لكنْ ثقل الحديد بطّأ من حركاته، وأعاق مناوراته وصولاته، وهو مع ذلك صامدٌ، إلى أنْ حوصر من كلّ جانبٍ، وأصيب إصابةً بالغة، ونزفت دماؤه الطاهرة، وأدرك أنها المنية، واهتاج قلبُه لطلب الشهادة، أسمى أمنية، وحنَّ فؤادُه لعطر الجنان، فأخذ يقاتلُ ببسالةٍ لا نظير لها حتى أصابه العجزُ وتثاقلت قدماه وبرد السيفُ في يده، بينما المطرُ يتساقطُ بغزارة، وفي النهاية أخرج فارسُنا خِنجره يضرب به في كلّ اتجاه، مخترقًا ذلك الحصارَ المحكمَ، وسمع مَن يقول لا تقتلوه، نريده حيًّا، فوثب وثبة كالفهد على سور نهر حدرُّة، ثمّ ألقى بنفسه في الماء الجاري، لكن ثقل الحديد الذي كان يلبسه غاص به إلى الأعماق، فلم يُعرف له أثرٌ، لتُسدلَ الستارُ على هذه الملحمة البطولية، التي شهد بها الأعداء، يقول المؤرخ الإسباني القس أنطونيو أجابيدا ملقيًا الضوء على مصير موسى بن أبي الغسان: إنّ سرية من الفرسان النصارى تبلغ الخمسة عشر، التقت ذلك المساء على ضفة نهر شنيل بفارس مسلمٍ مدجّج بالسلاح، من رأسه إلى قدمه، لابسًا خوذته شاهرًا رمحه، وكان جواده غارقًا مثله في سَرجٍ من الصلب. فلمّا رأوه مقبلًا عليهم، طلبوا إليه أن يقف، وأن يعرِّف بنفسه، فلم يجب الفارس المسلم، ولكنه وثب عليهم، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سَرجه فألقاه إلى الأرض، ثمّ انقضَّ على الباقين يثخن فيهم طعانًا، وكانت ضرباته ثائرةً قاتلة، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح، ولم يُرِد إلّا أن يُقْتَل، وأن يسيل الدم، كأنما يقاتل للانتقام فقط، يتوقُ إلى أن يُقتل دون أن يعيش لينعم بظفره.

وهكذا لبثَ يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم، غير أنّه أصيب في النهاية بجرح خطير، ثمّ سقط جوادُه من تحته بطعنة نجلاء، فسقط إلى الأرض، وجثا على ركبتيه واستلَّ خِنجره، وأخذ يناضلُ عن نفسه. فلمّا رأى أنّ قواه قد نضبت، ولم يردْ أن يقع أسيرًا في يد خصومه ارتدّ إلى الوراء بوثبة أخيرة كالنّمر، ملقيًا بنفسه إلى مياه النهر، محاولًا السباحة إلى الجهة الأخرى، لكن سلاحه الثقيل الذي لم يتمكن من نزعه غاص به إلى الأعماق.

وفي الصباح، عرف الجميع أنّ هذا الفارس الملثم هو موسى بن أبي الغسّان، من خلال جواده المقتول.

أنا لـــن أُقِـــــرَّ وثيقـة

فرضت وأخضـع للعدا

ما كان عذري إن جبنتُ

وخفتُ أسبــابَ الردى

والموتُ حقٌّ في الرقاب

طـــال أم قَصُـرَ المدى

إني رسمــتُ نهـــــايتي

بيــــديَّ لـــــن أترددا

كنــتُ الحســـامَ لأمتي

واليـــوم للوطنِ الفدا

كتب موسى بدمائه الزكية آخرَ السّطور في ذلك السجل الأندلسي الخالد.

بدأت الأندلس بموسى، وانتهت بموسى!

بدأ ذكر الأندلس مرتبطًا بموسى بن نصير فاتحها، وفارسها الأول، وانطوت صفحتها الأخيرة على ذكرى موسى الغساني؛ آخر فرسانها.

بدأت ببطولة، واختتمت ببطولة.

وبين البطولتين صفحاتٌ مضيئة، وذكريات حلوة، ومآثر آباء وأجداد، ومفاخر وأمجاد.

كان موسى بن نصير شمعةً صامدة تقاوم الرياح العاتية، حتى انطفأت قبل طلوع الصباح!

وكان موسى الغساني الصيحةَ الأخيرة من صيحات العزِّ والإباء.

مات فارسُنا واقفًا على قدميه،لم يذلَّ أو يركع لعدو، استطاع أن يفسد على الأعداء الغادرين فرحتَهم، ويكدِّر صفوَ سرورهم، ويجرِّعهم من كأس المرارة علقمًا، بينما كانوا يرتشفون نخب النصر.

حفظَ لنا التاريخ عبارته الشهيرة:

«ليعلم ملكُ النصارى أنّ العربي قد ولدَ للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها غالية، أمّا أنا فخيرٌ لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت مدافعًا عنه من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين».

يا لها من مفاجأة، من ذلك الذي انقضَّ علينا كإعصارٍ فيه نار، وهبط علينا كصاعقة من السماء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -52-

# محاكمُ التفتيش

(إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)

[الكهف: ٢٠]

عندما سيطر الملكان الكاثوليكيّان فرديناند وإيزابيلا على الأندلس، وبدأ تهجير المسلمين إلى بلاد المغرب وتجريدهم من ممتلكاتهم، قاموا بطرد مئات الألوف من مدنهم وقراهم وأراضيهم، وفرضوا ضرائب باهظة على مَن بقي في أرضه مع اقتطاع أجزاء منها لصالح الملكين، في الوقت الذي بدأت فيه حملة التنصير القسري، وبدأت معها محاكمُ التفتيش لمراقبة وحماية التنصير، وضمان ولاء المتنصِّرين الجدد للكنيسة، وتخلِّيهم عن جميع معتقداتهم وشعائرهم وعاداتهم، تلك الأداة الرهيبة التي استغلها الملكان في توطيد حكمهما وتوحيد مملكتهما تحت شعار دين واحد، وانطلاقًا من فكرة «إنّ الدين للدولة هو بمثابة الدم للإنسان، لذا يتحتم أن يكون الدم نقيًّا، لضمان بقاء الدولة».

كان المسلمون يمارسون شعائرَ دينهم في سرِّيَّةٍ، فكان بعضهم يغلق داره على أهله يوم الأحد، حتى يظنّ النصارى أنهم ذهبوا لإحدى الكنائس، وكانوا يُضطَّرون لتعميد أطفالهم على يد القسيس في الكنيسة فإذا عادوا لبيوتهم طهّروهم بالماء، وكانوا يعقدون النكاح في الكنيسة على يد القس ثمّ يعقدونه فيما بينهم وفقَ شريعة الإسلام، وكانوا يصلّون في الأقبية حتى لا يشعر بهم أحد، ويخفون سرَّهم عن صغارهم حتى لا ينمّوا عليهم، إذْ كانت الكنيسة تنتزعهم صغارًا لتربِّيهم على طقوسها، وتحرِّضهم على آبائهم، والويل لمن لا يخضع لسلطة الكهنوت.

سنهبطُ الآن ثلاثينَ درجة تحت الأرض، حيث تقع المحكمة منفصلة عن العالم الخارجي كأنها القبر، يفضي إليها ممرّ حلزوني، كذلك الممرّ الذي يصعد عليه الجنود في القلاع الرومانية القديمة.

نحن الآن في داخل قاعة المحكمة، جلس الأسقف رئيس القضاء «المفتش» على المنصة العالية، التي يطلق عليها عرش الدينونة، لقد منحوا أنفسهم سلطة إلهية! واتخذهم الناس أربابًا من دون الله، بينما جلس مِن حوله باقي القضاة على مقاعد أقلّ ارتفاعًا، وعن يمين المنصة مقعدُ المدّعي الذي يوجّه الاتهامات، وعن يساره كاتب الضبط، وعيونهم جميعًا تحدّق بقسوة في المتهم الذي رُبِطَ بإحكام في سلاسل غليظة متصلة بعمود حجري يتوسّط

تلك الغرفة الرطبة التي جمعت بين الثلج والنار، لهيب التعذيب، معَ الرطوبة والبرد الزمهرير، وقد بدا في ركن من هذا المشهد فتحة السرداب المتصلة بممر ضيق ومظلم، يفضي إلى قبوٍ موصدٍ يعجزُ الهواء عن الوصول إليه، ولا يقتحمه الضوءُ إلّا ومضة ساعة الشروق فحسب، من كوّة صغيرة عالية عليها ثلاثة قضبان حديدية، رغم أن رأس إنسان بالغ لا تستطيع الخروج منها، لذا فقد وُضعت ثلاثُ شمعات ينبعث منها ضوء أصفر يزيد المشهد رهبة، لا أدري لماذا يتكرر العدد ثلاثة كثيرًا، ربما ليتماشى مع عقيدة الثالوث، أو الأقانيم الثلاثة، حسب اعتقاد النصارى.

بينما الجدران مطلية باللون الرصاصي القاتم، مع أرضية من خشب مهترئ بفعل الرطوبة وتسرب الأمطار أحيانًا. أمّا السقف فلا تستطيع أن تراه من الظلام، لكنك سترى حبالًا متدليةً منه، تنتهي بأنشوطة، وكلاليب متصلة بعوارض حديدية، تستخدم لتكبيل الضحية أو تعليقها كالذبيحة.

يحمل الأسقف صليبًا في يده الملطخة بدماء الأبرياء، يلوِّح به، ويستخدمه في تسديد الإشارات إلى المتهم، فيضطرب الضحية ويخفق قلبه رهبة، كأن القذائف ستخرج منه.

يقبع الضحايا فرادى في زنازين ضيقة جدًّا، أبوابها الحديدية تطلُّ على ممرّ ضيق يفضي إلى بابٍ حديديٍّ يتّصل بغرفة التعذيب بآلاتها الجهنمية، وقد ألحق بها غرفة للتحقيق تتكون من منضدة وثلاثة كراسي جلدية، بينما يقف الضحية للمساءلة.

«إنّ من المستحيل أن يتخيلَ إنسان تلك المشاهد الرهيبة المروعة من داخل تلك الأقبية المعتمة التي يقضي بها أولئك التعساء دهورًا مديدة حتى ينتهي بهم الأمر إلى القبر، وفي حالات نادرة يخرجون منها بعد تشويه جسديٍّ ونفسي، وكانت جدران الزنازين مطليةً بالشحوم لمنع السجين من مجرد التفكير في تسلقها، فضلًا عن رائحة العفن والرطوبة القارسة، وضيق الأنفاس، والقذارة وانتشار الأوبئة في تلك السجون السرية التي تقبع غالبًا تحت كنائس يصلي فيها القساوسة للسلام، ويتشدَّقون بالرحمة والتسامح، وينشدون: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام، أي وحشية تلك!؟ كلّا، إننا نظلم الوحوش التي لم تمارس يومًا القسوة على بني جلدتها ولم يصبها وباءُ السَّاديَّة المقيتة، هل سمعنا أن حيوانًا يعذّب حيوانًا، فضلًا عن التفنن في التعذيب وابتكار أدواته وصناعة آلاته الرهيبة.

ومن العجيب أنّ محكمة التفتيش كانت تعيِّن طبيبًا مهمّته السعي إلى إفاقة المتهم وإنعاشه أثناء التحقيق معه، لمواصلة استجوابه، والعمل على إبقائه

حيا تحت وطأة التعذيب لانتزاع الاعترافات منه، أليس من اللائق أن ننزع عن هذا المجرم لقب ملاك الرحمة، ونطلق عليه شيطان القسوة!

إنها محاكم التفتيش الكنسية التي نُصبتْ للانتقام من المسلمين الأبرياء، وقسرهم على التنصُّر وإجبارهم على ممارسة شعائر النصارى، والتخلي عن كلّ شعائر الإسلام، تحت شعار تطهير الدم.

ممرّ ضيق توقَد فيه الشموع كأنه القبر، وعن اليمين والشمال الزنازين الضيقة، لا فرش فيها، سوى قطعة مستطيلة من الخشب عليها أسمال من الخيش ينام عليها السجين، ولا متاع سوى إناءين من الفخار، أحدُهما لطعامه، والآخر لفضلاته، وربما إناءٌ واحدٌ يؤدّي الغرضين! بينما يجبر السجين على ارتداء ثوب رسمَ عليه الصليب بلون أحمر قانٍ.

حتى النصارى لم يسلموا من تلك المحاكم الهزلية؛ فهذا عالمٌ أسباني بترت أطرافه بتهمة إنكاره لتجسُّد المسيح وصلبه، تلك العقيدة النصرانية المخالفة لما جاء به نبي الله عيسى عليه السلام، بينما دفنت زوجته في حائط من حوائط الكنيسة لأنها لم تبلّغ عنه.

أمّا ذلك السجان الذي رقّ قلبه يومًا فسمح لأمٍّ محكوم عليها بالإعدام بتهمة الهرطقة أن ترى ابنتيها، فتح لهما الباب الذي يفصل بين الزنزاتين، لتودّع الأمّ البنتين في منظر مؤثر، فخاف المسكين أن تعترف الفتاتان أمام الكاهن، فبادر واعترف، فكانت عقوبته أن يطاف به وهو عارٍ من الثياب مكبّل بأسواق إشبيلية وطرقاتها، وحكموا عليه بالسجن عشر سنوات، أمّا الأم المكلومة فقد جلدوها.

وهذا سجين قُدِّمَ للمحاكمة وقد أصابه السلّ فأخذ في السعال فنهروه عن ذلك، لكنه عاود السعال فضربوه بوحشية ليكفّ عن السعال حتى مات. لقد انتشرت المحاكم في أرجاء الأندلس في قرطبة وطليطلة وبلنسية وقشتالة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة ومُرسِيَة ومالقة ومجريط وغيرها من أقطار الأندلس؛ بعد أن استلبها النصارى، ووصلت العقوبة إلى الحرق، حتى جثث الموتي لم تسلم من حقدهم، فكانوا يحكمونَ على الأموات وينبشون قبورهم، ثمّ يحرقون الرفات، في مشهد وحشيٍّ لا يوصف!

وكانت لهذه المحاكم سلطةٌ مستقلة لا تخضع للملك، أو للوزير، بل إنّ رئيسها المعروف بالمفتش العام الذي يتمّ اختياره من كبار الأساقفة، من المعروفين بالتعصُّب الشديد والتمسُّك الصارم والالتزام الحرفي بتعاليم الكنيسة؛ وهو صاحب القرار، والنفوذ، لا رقابة عليه ولا تدخل في شئون تلك المحاكم.

بينما يتمتّع هذا الجلاد الأكبر بحياة البذخ والرفاهية فيسكن القصور، ويرفل في حلل من الحرير، ويتنقل في مواكبَ فخمة راكبًا عربة أنيقة تجرّها الجياد المطهمة، وحوله كوكبة من الفرسان ببزاتهم وشاراتهم، بما يضفي الروعة والهيبة على هذا المشهد.

أمّا حراسه فلهم امتيازات كبيرة في السكن والأجور وغيرها. كلّ ذلك من المنح والامتيازات الملكية والبابوية، فضلًا عن الأموال المكدسة والعقارات التي تصادرها محاكم التفتيش من أيِّ متهم؛ مسلمًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًّا.. دونما رقيب ولا حسيب!

بدأتْ إجراءات المحاكمة بإلقاء الأسقف موعظة دينية حثّ فيها المتهمين على الاعتراف بجرائم اتهموا بها، وإنْ لم يرتكبوها، وتمنح لهم مهلة ثلاثين يومًا أو أربعين، فإذ لم يعترفوا عن اختيار فإنّ آلة التعذيب الجهنمية لهم بالمرصاد، وهي كفيلة بأن تنطق الحجر؛ فالموت بأي حال أرحم.

في عام 1480، كانت محاكماتٌ لليهود المتنصرين قسرًا، بتهمة ادّعاء الإيمان بالمسيحية، وبأدنى شبهة، فهذا اليهودي لبس ثيابًا نظيفة يوم السبت، وتلك المرأة طهت طعامها من ليلة السبت وفق الشريعة اليهودية، وهذا الرجل استراحَ من عمله يوم السبت، وهذا الفتى امتنع عن أكل لحم الخنزير، تلك تهمٌ تصل عقوبتُها إلى الإعدام بحجة الهرطقة.

كان للتعذيب مدرستان: هناك مَن يرى استخدام جميع أنواع البطش والقهر والتعذيب بشرط أن لا يسيل دمٌ لأنه لا يجوز إسالة دماء، فتفتقت الأذهان عن أبشع ألوان التعذيب؛ بينما كان هناك مَن يبيح إراقة الدماء أثناءَ التعذيب لإجبار الضحايا على الاعتراف وإن أفضى الأمر إلى استنزافهم لآخر قطرة، وموتهم تحتَ رهن التعذيب، فالمحقّق الذي يفعل ذلك له الحقّ في طلب براءة الذمة في الحال من المفتش العام الذي يمنحه الغفران على جريمة القتل.

فإذا انتقلنا إلى قاعة التعذيب فستجد آلاتٍ وأدوات عجيبة ابتكرها الإنسانُ الوحشي للتعذيب، فهناك تابوتٌ حديدي مقوّس يوضع فيه الضحية فلا يخرج إلّا جثة هامدة متقوسة الظهر حدباء، وهناك رافعة خشبية متّصلة بحبل يدلى ببَكَرة من سقف الغرفة، يعلق فيه الضحية وتربط في رجله كرة ثقيلة تجذبه للأسفل، بينما هو معلق، فيزيد هذا في محنته وتتفكك أوصاله، وآلةٌ أُخرَى للتعذيبِ على شكلِ تابوتٍ داخله سكاكينُ حادَّةٌ مثبتتة،كانوا يلقونَ الشابَّ المعذَّبَ في هذا التابوتِ، ثمّ يطبقونَ بابَهُ بسكاكِينِهِ، فإذا أُغْلِقَ مَزَّقَ جِسْمَ المعذَّبِ، وقطَّعَهُ إِرَبًا.

وفي ركنٍ من أركان الغرفة يقف ثلاثةُ رهبان أمام آلةٍ تشبه الساقية رُبِطَ فيها الضحيةُ من يديه وقدميه لتدور به وهو مقوّس بدون هوادة، وعلى منضدة

متسخة كماشة لنزع أظافر الضحية، ومقراض صدئ لقطع أجزاءٍ من جسده، وذلك ضحية يُضربُ بسوط ينتهي بأطراف جلدية بها خرزات من رصاص، تمزّق ظهر الضحية.. ومِن أساليب التعذيب الشيطاني نفخ بطن الضحية بصبِّ الماءِ في فمه عن طريق قمعٍ حديدي، إلى أن يمتلئ بطنُه فيعترف أو ينفجر بطنه، ويموت تحت إشرافِ الطبيب الذي يحرص على إبقائه حيًّا ليعترف، وأحيانًا يُحفرُ جدارٌ، ويوضع فيه المتهم حيًّا ويبنى عليه ليموت فيه ببطء، بينما تربط المرأة وهي نصفُ عارية في قبر ميت وتترك هكذا لتموت من الفزع أو تصاب بالجنون، ناهيك عن الكيّ بالنار للمواضع الأشدّ إيلامًا في البدن، ووضع الضحية على الخازوق.

ضربَ الحاجب بمطرقةٍ خشبية على المنضدة، مؤذنًا ببدء محاكمة، لنتابع تلك المحاكمة:

وقفتِ المتهمة، مكبّلة بالحديد في قدميها، ويداها مقيدتان بسلسلة تنتهي بطوق حديدي يلتف حول عنقها، وعليها ثوبٌ أصفر، وقبعة مخروطية الشكل، ينسدل منها شعرها الأسود الفاحمُ، متهدّلًا على ظهرها، ومغطّيًا جزءًا من وجهها الذي تبدو عليه علاماتُ الأسى والحزن، وبصرها مثبّت على السجادة الحمراء المفروشة تحت أقدام هيئة المحكمة، حيث يجلس القاضي رئيس المحكمة والمفتش العام، واثنان من الرهبان، وقد أوقفوها أمامَ طاولة عالية وُضِعتْ عليها نسخة من الإنجيل.

قال الأسقف المقنّع بقناع أسود مخيف: ما اسمك؟

- إيزابيلا جارسيا.

- اسمك السابق؟

- فاطمة عبد الملك.

- ضعي يدك على الكتاب المقدس وقولي: «أقسم بالله وبالمسيح وبالإنجيل الذي ألمسه بيدي، على أنْ أقول الحقيقة، ليباركني الربّ إذا ما قلت الحقيقة، وليعاقبني إذا حنثت باليمين».

التفت القاضي إلى المدّعي العام عن يمينه، والذي تقنّع أيضًا بقناع أسود لم يظهر سوى عينيه، وفتحتي الأنف: ما تهمتها؟

قال المدعي: الهرطقة.

مال القاضي للكاتب عن يساره: اكتبْ كلّ ما تسمعه.

- هل تؤمنين بالمسيح يسوع المخلص، الذي صلب لفداء البشرية من خطيئة آدم؟

نظرت المسكينة في ذهولٍ وحيرة، فهي لا تفهم هذا الكلام ولا تعيه! لقد أُجْبِرتْ على دخول الكنيسة وسماع الموعظة أيامَ الآحاد، لكنّ شيئًالم يعلق في ذهنها من تلك العقائد الكنسية الغامضة.

قلت لك: هل تؤمنين بالمسيح يسوع المخلص، الذي صلب لفداء البشرية من خطيئة آدم؟

- أنا مؤمنة بأنّ عيسى نبي الله وكلمته وروح منه.

صرخ المحقق: أجيبي عن سؤالي: هل تؤمنين بالرب يسوع المخلص، الذي صلب لفداء البشرية من خطيئة آدم؟

لم تجد المسكينة بدًّا من أن تطأطئ برأسها علامة الإيجاب.

- إذا كنت مسيحية حقًّا، فلماذا فعلت ما يخالف إيمانك بيسوع المخلص؟

- وما الذي فعلتُهُ يا سيدي؟

- ما الذي فعلتيه! أمامك فرصة للاعتراف، وإلّا فالويل لك!

ارتجفت المرأة الهزيلة، فهي تعرف ماذا ينتظرها من أدوات التعذيب الرهيب.

- وبماذا أعترف يا سيدي؟ ما تهمتي؟ أنا امرأة كثيرة النسيان، ذكرني كي أعترف. ماذا جنيت؟

- أنت متهمة بأنهم ينادون عليك باسمك العربي؛ دون أن تعترضي على ذلك!

ألقى القاضي التهمة بتهكّم، وهو يحدق في عيني فاطمة، ينظر ردّ فعلها هل هي مخلصة للمسيح أم لا تزال على إيمانها بدين الإسلام.

وفاطمة في حيرة، تشعر أنها في حلم مزعج..

- وأنك امتنعت عن أكل لحم الخنزير الذي قُدِّمَ في حفل كنسي؟

- أنا لا أشتهيه يا سيدي.

- لا أنت كاذبة، خبيثة، مازلتِ ترينه محرّمًا خبيثًا كما في دينكم! أليس كذلك؟ ولماذا رفضت الأكل على خوان؟ كما أنك متّهمة بسكب ماء بصابون كثير فجرَ يوم الجمعة، تمّ الإبلاغ عنك من قبَل عيوننا المبثوثة في كلّ مكان!

- وهل هذه جريمة؟

- نعم، إنها جريمة في حق المسيحية، استخدام الماء بكثرة، وليلة الجمعة يعني الاغتسال والنظافة، ألم تتعلمي في الكنيسة أنّ المسيحي الصالح لا يكثر من الاستحمام، وأنّ المسلمين وحدهم هم الذين يغتسلون؟ بقيت

واحدة؛ أنّك تتخضبين بالحناء، هذا يعني حنينك لأيام العرب، وأنّ هذه العادات الرجعية لا تزال تجري في دمك! وفي يوم الأحد الماضي مررت على تمثال العذراء أمّ الإله يسوع ولم تقفي أمامَها وتطلبي شفاعتها.

قهقه القاضي بصوتٍ كنقيق الضفدع، وقال بمكرٍ: إنّ عيوننا في كلّ مكان ترصد كلّ شيء.

أطرقت المرأةُ رأسها، ولم تنبس بشفة.

- وفي يوم الثلاثاء، سمعك رجالنا وأنتِ تتشاجرين مع بائع أسباني وتقولين له: أنا أندلسية وأبي وأمّي كانا أندلسيين وسأموت أندلسية!

- نعم قلت ذلك لأنّه شتمني، وقال لي أنتِ كلبة أندلسية، فكان هذا ردّي.

نظر القاضي عن يمينه وشماله، وقال: هذا يكفي في إدانتها، والحكم عليك بالإعدام حرقًا.

صرخ في الجنود: يتمّ حبسها بزنزانة حتى تنفيذ الحكم.

وفي ليلة التنفيذ دخل الراهب، وأُلقي موعظة، وطلب منها أن تتوب من الهرطقة، لعلها تنعم بالملكوت، ثمّ انصرف دون أن تنطق بكلمة.

وفي الصباح أخرجوها ضمنَ عدد من المسجونين، رجالًا ونساء، شيوخًا وشبانًا، وألبسوهم ملابس غريبة رسمتْ عليها صلبان وصورٌ لتنين وأفاعي، ثمّ وضعوا على رؤسهم أقنعة سوداء مخروطية الشكل، واقتادوهم وهُم مكبلون، وطافوا بهم أرجاء إشبيلية، والجماهير محتشدة في الشوارع، حتى وصل بهم ميدان فسيح قريب من الكاتدرائية التي كانت مسجدًا، وغير بعيدٍ من القصر الملكي نُصِبت المحرقة لهذه المناسبة، وقدّموهم وسكبوا الزيت والقطران على ثيابهم، لا أدري لماذا رسموا الصلبان عليها، وعند مكان المحرقة كانت مائدة ضخمة صُفَّ عليها ما لذّ وطاب من الطعام والفواكه، فدعوا إليها المحكوم عليهم بالحرق، ليظهروا بمظهر الرحمة أمامَ الحشود، فأقبل بعضهم يأكل في نهم؛ إذ كانت المحاكم تقدّم لهم قليلًا من الطعام الذي لا يشبع طفلًا صغيرًا، فضلًا عن رداءته، بينما صام البعض عن هذا الطعام، أو تناول اليسير.

والغرض من هذه الموائد المنصوبة أنْ يوهموا العوام أنهم متسامحون مع هؤلاء الهراطقة، أسخياء عليهم.

كان الملك فرديناند وكثيرٌ من أفراد الأسرة الحاكمة في الصفوف الأولى لهذه الحفلة الكنسية، وحولهم الحشود والجنود، وقد اتخذ رئيسُ ديوان محاكم التفتيش لنفسه منصة عالية، وحوله حاشيته أيضًا، وقام راهبٌ جَهْوري الصوت لتلاوة حكم الإعدام على الحاضرين، مع دعوتهم للتوبة والرجوع فلم يتراجع

أحد، وكان نصّ حكم الإعدام: «إنّ هؤلاء الكفرة قد استحقّوا الإعدام رجالًا ونساء، لأنهم استخفّوا بالأحكام المقدسة وتحالفوا مع الشيطان وحقّروا الكنيسة، وأصبحوا كالغصن الذي لا يثمر؛ فوجب اجتثاثهم وإحراقهم، فمن ليس معنا فهو علينا، والمسيح يقول: الشجرة التي لا تثمر يجب قطعُها ولعنها.

ثمّ أضرمت النار وارتفعت ألسنة اللهب وألقي هؤلاء الأبرياء فيها، وارتفع صوتُ راهب جهوري مترنّمًا: المجدُ لله في العالي، وعلى الأرض السلام، وللناس المحبة. بينما النار تصهر في الجلود.

وهنا، التفت رئيس محاكم التفتيش إلى الملك وقال له: أقسمُ لك يا جلالة الملك أن محكمتنا تسيرُ وفق تعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية، وتعمل ليلَ نهار على تطهير هذه البلاد من الزّندقة والهرطقة، ليبارك ربكم مملكتكم، ودمتم راعيًا للكنيسة.

بينما يترنّم راهب بأنشودة ارْحمني يا ربّ كما شاءت رحمتك، ويردّدها فريق الإنشاد الكنسي، والنار تضطرم في أجساد الأبرياء.

وفي طليطلة، تمّت محاكمة خوان البرغشي في محكمة التفتيش، لأنّه دعا لوليمة وأطعم أهله وأصدقاءه أكلة الكسكي، وردّدوا الأغاني الأندلسية، وتكلّم العربية في بيته، وكانوا يتنادون بأسمائهم العربية التي بُدِّلتْ إلى أسماء نصرانية!

وفي بلنسية، تمت محاكمة دوبلت دميان، وهذا اسمه بعدَ تعميده قسرًا في الكنيسة، حوكم لأنّه كان يجتمع في بيته ليلة الجمعة رجال ونساء، فيقرأون القرآن وينشدون الموشحات العربية.

أمّا خوان دي سبوتشي، فقد كانت جريمته الاغتسالَ من ينبوع ماء بارد بعد أن قام بتقطيع بعض الأخشاب من الغابة، فاتهمه المحقّق الفاسد كريستوبال دي سالازار بأنه لا يزال مسلمًا، وتحت التعذيب القاسي اعترف المسكين بأنه بالفعل لا يزال مسلمًا.

أمّا فرنسيسكو القرطبي، فلقد اقتيد إلى ديوان التفتيش لأنه رفض دعوةَ جيرانه للغداء في نهار رمضان! وكان الغرض من الدعوة الخبيثة معرفة إذا كان صائمًا أم لا!

وأرادت امرأةٌ نصرانية أن تكيد لجارتها المتنصِّرة إيزابلا جاردا فدعتْها للغداء في رمضان، فأكلت المرأة حتى لا تكشف أمرها أمام تلك الجارة الماكرة!

فقالت لها جارتها: هل أعجبك لحم الخنزير؟

فامتعضتْ إيزابيلا، وقالت: هل أنت متأكدة أنه لحم خنزير؟ قالت: أجل.

فقامت إيزابيلا متقزّزة، ووضعت يدها في فمها، واستقاءت ما أكلته.

وهنا، ذهبت الجارة الآثمة لتبلّغ عن جارتها المسكينة، وتتمّ محاكمتها بتهمة الإسلام، لأنها لا تعتاد أكل لحم الخنزير.

وهذا شابٌّ من أريولة متنصّر يحاكم بتهمة قراءة القرآن والأدعية على المرضى أثناء علاجهم بالعقاقير والأعشاب. وإليك أيها القارئ العزيز محاكمته كما في سجلّات ديوان التفتيش بمُرسية:

- أنت متّهم بالعودة إلى الإسلام؟

- كيف يا سيدي؟ أنا متنصر، وأذهب للكنيسة أيام الآحاد!

- لا، أنت ساحر ومشعوذ! تعالج بالسحر والشعوذة!

- يا سيدي أنا أعالج بالأدوية والأعشاب.

- لكنك شوهدت تتمتم بتعاويذ؟

- نعم، كنت أقرأ القرآن على المريض؟

- إذًا أنت مسلم؟

- يا سيدي، المرضى يعتقدون بأنّ القرآن شفاء، وأنا أفعل ما يساعدهم على الشفاء بحسب اعتقادهم، فالاعتقاد يذهب الأمراض، وبعض المرض وهمٌ وهاجس.

- والكتاب العربي الذي وجد في حوزتك؟

- إنه كتاب في الطب.

- ألم تعلم أن الكتب العربية محظورة؟ لماذا لم تسلمه للكنيسة؟

- إنه كتاب طبي، وليس بكتاب فقهٍ أو عقيدة!

- أنت ساحر، أنت متحالف مع الشيطان!

- لا يا سيدي، أنا طبيب أعالج بالطب.

- اذهبوا به إلى غرفة التعذيب حتى يعترف.

وتحت التعذيب الرهيبِ اعترف بما اتهموه به، فحُكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة، ثمّ النّفي على ظهر سفينة من السفن التي تجوب البحار.

وهاك أوامرُ مسبقة للقبض على أيّ إنسان، بقرارات جاهزة، هذا نصّ تلك القرارات المعدة سلفًا من رئيس محاكم التفتيش إلى رئيس محكمة .....

إنّنا نمنحكم السلطة والصلاحيات للتحري عن كافة الأشخاص، مهما كانت صفتهم، رجالًا أو نساء، أحياء أو أمواتًا، حاضرين أو غائبين، وفي المدن كلها، ولكم الامتيازات والصلاحيات كافّة.

خمينيز

دفعتِ الصلاحيات المطلقة التي منحها الملوكُ الأسبان لرؤساء محاكم التفتيش إلى اتخاذ قرارات همجية، تتعلّق بالتراث الإنساني حيث أضرموا النيران في عشرات الآلاف من المخطوطات العربية، التي تعد تراثًا متراكمًا لقرون عديدة.جمع المصاحف البديعة المزخرفة ونفائس الكتب العربية وإحراقها، وقد أحرقوا كثيرًا من المكتبات العامة والخاصة، في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة ، لبترِ صلةِ الأندلسيين بلغتهم، وقطع صلتهم بدينهم، مما حرم الإنسانية من هذا النور ([91]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# التّفتيش على دواوين التفتيش

حكى الكولونيل الفرنسي «ليموتسكي» عن دواوينِ التفتيشِ تلك الوصمة في تاريخ الأسبان، يقولُ: «عندما دخلنا أسبانيا سنة 1809م قُمنا بحملة تفتيشٍ لأحدِ الأديرةِ التي سمعنا أن فيها محاكم تفتيشٍ، وكان الإمبراطور نابليون قدَّ أصدر مرسومًا قبلها بسنةٍ فيه إلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أُهمل العمل به لسوء الأحوال والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.

صمم الرهبان الأسبان على قتل وتعذيب كلّ جنديٍّ فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين، حتى يضطروا إلى الجلاء من البلاد، فيخلو لهم الجو.

يقول الكولونيل: وبينما كنت أسير في إحدى الليالي المقمرة أجتاز شارعًا يقلُّ المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين ملثمين يهجمان عليّ، فدافعت عن حياتي دفاع المستميت، وحالفني الحظ بقدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتجول في المدينة، وهي فرقة من الفرسان الخيالة تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما إن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب.

وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعت إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ، فانزعج لذلك الأمر، وقال الآن تأكد لي أن من يقتل جنودنا كلّ ليلة إنما هم أولئك الأشرار، نظر إلى سقف الغرفة وقال بحدّة ضاربًا بقبضة يده على المنضدة التي أمامه: لا بدّ من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع وهاجم الدير الذي يضم هذا الديوان الجهنمي واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة.. ».

وفي تمام الساعة الرابعة صباحًا، استيقظ جنودنا الذين كانوا متأهبين لأمر لم يعرفوه، وركبنا سياراتنا، وخرجنا من مدريد وسرنا لمسافة 5 أميال حتى وصلنا إلى بناء ضخم يشبه القلاع، يحاط بأسوار عالية حصينة، وحوله حرس بزيّ خاص، هو زي جنود محاكم التفتيش، اقتربت بسيارتي من المدخل الرئيسي وتوقفت قبالة الباب الخشبي المصفَّح بالحديد، ترجّلتُ نحو الباب وناديت على الحراس، فتح أحدهم كوّة صغيرة في الباب، فطلبت منه فتح الباب، فنحن جند الإمبراطور نابليون، ونريد التفتيش على الدير، فالتفت يشاور من وراءه، ووقفنا ننتظر الجواب، فجاء الرفض، ولم يكن لنا بدٌّ من اقتحام الباب، فانهال الرصاص علينا من جهة الدير، لكننا واجِهنا الموقف

بثبات، وتمكنَّا من الاقتحام، بعد معركة لم تستغرق وقتًا طويلًا، وبواسطة المدافع فتحنا ثغرة في السور الحصين وتمكن الجنود من اقتحامها، والتقدم صوب المبنى العتيق.

وكنت أنا ومجموعة من الضباط في مقدمة من دخل الدير، ودلفنا إلى باب المبنى، واستطعنا الولوج من الدهليز بعد مناوشات يسيرة، وحين اجتزنا ردهات المبنى ظهر لنا الرهبان يستقبلوننا في الممر باشِّين مرحبين ومُحيين لنا، وكأن معركةً لم تحدث، بل قام الماكرون بتوبيخ حرسهم، ولومهم: كيف تقاومون جيش الإمبراطور نابليون؟ ألا تعرفون أن الفرنسيين أصدقاؤنا؟ بل وإخواننا في الدين والمذهب الكاثوليكي، وأنصارنا؟ أليس البابا رئيسنا جميعًا؟ أيها الحمقى!

لم تنطلِ تلك الحيلة وذلك التظاهر بالموادعة والمسالمة عليَّ، بل أمرت في الحال بالقبض على أولئك المجرمين الأوغاد، الذين يتسترون خلف مسوح الرهبان، والإمساك بحراسهم لتقديمهم لمحاكمة عسكرية عاجلة بتهمة الخيانة.

وانطلقنا نبحث عن غرف التعذيب والتحقيق وقاعة المحاكمات، هنا وهناك فلم نعثر على شيء! فسُقط في أيدينا، وأصابنا الذهول! لكننا على يقين بوجود ما تقشعر منه الأبدان، وما تنخلع لهوله الأفئدة، ولكن أين... أين؟

أخذنا نبحث في كلّ مكان، ففتَّحنا جميع الغرف، قاعة كبيرة للصلوات وغرف لتخزين الحبوب والأغذية، وأخرى لحفظ الأثاث، ورابعة ممتلئة بالسجاجيد والثريات التي لم تستعمل بعد، وغرفة كبيرة بها مائدة كبيرة للطعام بها مائدة مستطيلة، من أجود الأخشاب، قوائمها منحوتة ومزخرفة، وعليها سفرة مطرزة الحواشي، من الحرير الأحمر، ومن الخلف خزانة عظيمة، رُصّت بها آنية وصحاف وأطباق من الفضة والخزف، وأكواب وأباريق من البللور، وغير ذلك من أدوات الطعام، وبجوار غرفة الطعام مطبخ كبير به قدور كبيرة وأدوات الطبخ، لإعداد الطعام للمئات، وإلى اليسار غرفة أخرى بها أثاث فخم، من خشب الأبنوس المطعم بالعاج والأصداف، وثريات نحاسية وأخرى فضية، وشمعدان كبير على طاولة مستديرة، فوق مفرش حريري، به شمع أصفر وأحمر يضيء، ويفوح بعبقٍ جميل، وكراسي جلدية أنيقة، ومكتب بيضاوي كبير وكرسي خشبي دوار، مكسوّ بالجلد الطبيعي، خلفه مكتبة، من خشب الزان، رُصت فيها كتب بتجليد فخم، ونسخ من الكتاب المقدس موضوعة على طاولات مرتفعة، وفي الأرضية سجاد أحمر، والجدران مبطنة بألواح من خشب البلوط، وبأركان الغرفة تماثيل وأيقونات منتصبة ، بينما تراءى السقف الخشبي كتحفة فنية، في زخرفته ونقشه، ورسومه وألوانه، كأننا في متحف للفن، وليس في دير للتقشف والزهد! كلّ هذه الفخامة داخل

الدير الذي يدعو رهبانه لحياة الزهاد والبسطاء، ويحرضون على ترك ملذات الدنيا!

قطع تأملي صراخ أحد الرهبان بصوتٍ غليظ: اخرجوا من هنا! لقد دنستم ديرنا! اخرجوا؛ لقد انتهكتم حرمة الدير، واندفعتم نحو شائعات مغرضة!

والآن ظهرتْ لكم الحقيقة، إننا أبرياء من كلّ تهمة، سوف نقاضيكم على هذه الجريمة النكراء.

صرْنا نسابق الزمان، نفتِّش في كلّ مكان، وكادت جهودُنَا تضيعُ سُدَى، ونحنُ نحاولُ العثورَ على قاعاتِ التعذيبِ، لقد فَحَصْنَا الديرَ وممرَّاتِهِ وأقبيتَهُ كُلَّهَا، وفتشنا في كلّ شبرٍ، فلم نعثرْ على شيء يدلُّ على وجودِ ديوانٍ للتفتيشِ، فعزمنَا على الخُرُوجِ من الديرِ يائسينَ، كان الرهبانُ هنا وهناك أثناء التفتيشِ يُقْسِمُونَ ويُؤَكِّدُونَ أن ما شاعَ عن ديرِهم من تعذيب ليس إلّا تُهَمًا باطلةً، وطَفِقَ زعيمُهم يؤكدُ لنا براءَته وبراءةَ أتباعِهِ، بصوتٍ خافِتٍ، وَهُوَ خاشعُ الرأسِ، توشكُ عيناهُ أن تسِحَّ بالدموعِ، فأعطيتُ الأوامرَ للجُنُودِ بالاستعدادِ لمغادرةِ الدِّيرِ، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلًا: أيسمحُ لي الكولونيل أن أخبرَه أن مهمَّتَنَا لم تنتهِ حتى الآن!

قلتُ له: فتَّشْنَا الدِّيرَ كُلَّهُ، ولم نكتشفْ شيئًا مُرِيبًا. فماذا تريدُ أيها اللفتنانت؟!

قال: إنني أرغبُ أن أفحصَ أرضيةَ هذهِ الغُرَف؛ فإنَّ قلبِي يُحَدِّثُنِي بأنَّ السِّرَّ تحتَها.

وضرب الأرضية بحذائه المتين، فأحدثت صوتًا كالطبل!

عندَ ذلك، نَظَرَ الرُّهبانُ إلينا نظراتٍ قلقةٍ، فأذنتُ للضابطِ بالبحثِ، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاد الفاخرَ عن الأرضيات الخشبية، ثمّ أمرهم أن يصبُّوا الماءَ بكثرةٍ في أرضِ كلّ غرفةٍ على حِدَة، بينما يصبُّ الرهبان لعناتهم علينا، وينقدح الشرر من عيونهم.

أخذنا نرقُبُ الماء، فإذا بالأرضِ قد ابتلعتْهُ في إحدى الغرف؛ فصفَّقَ الضابطُ «دي ليل» من شِدَّةِ فَرَحِهِ، وقال: ها هو البابُ! انظروا! فنظرنا؛ فإذْ بالبابِ قد انكشفَ، وكان قطعةً من أرضِ الغرفةِ، يُفتَحُ بطريقةٍ ماكرة، بواسطةِ حَلَقَةٍ صغيرة، وُضِعَتْ إلى جانبِ رِجْلِ مكتبِ رئيسِ الديرِ، بحيث لا يلحظها أحد بسهولة.

اصفرَّت وجوهُ الرُّهبانِ، وعلَتْهَا الغَبَرَةُ، بينما الجنودُ يُكَسِّرُونَ الباب بقحوفِ البنادِقِ، وفُتِحَ البابُ، فَظَهَرَ لَنَا سُلَّمٌ يؤدِّي إلى باطِنِ الأرضِ، فأسرعتُ إلى شمعةٍ كبيرةٍ، يزيدُ طولُها على متر، كانت تضيءُ أمامَ صُورَةِ أحدِ رؤساءِ محاكِمِ التفتيشِ السابقين، ولما هَمَمْتُ بالنُّزُول، وَضَعَ راهبٌ يسوعيٌّ يدَهُ

عَلَى كَتِفِي مُتَلَطَفًا، وقال لي: أيُّها القائد، لا تحملْ هذه الشمعةَ بيدِك الملوثةِ بدمِ القِتَالِ، إنها شمعةٌ مُقَدَّسَة.

نظرتُ له من أسفل إلى أعلى باحتقار، وقلتُ له: يا هذا، إنه لا يليقُ بيدِي أن تتنجَّسَ بلمسِ شمعتِكُم الملطَّخَةَ بدمِ الأبرياءِ، وَسَنَرَى مَنِ المُدنّس فينَا بالخطيَّة، وَمَنِ القَاتِلُ السَّفَّاكُ للدماء!

وهبطتُ بسرعة على دَرَجِ السُّلَّمِ، يتبعُنِي عددٌ كبيرٌ من الضُّبَّاطِ والجنودِ، شاهرينَ سُيُوفَهُم حتى وصلنَا إلى آخِرِ الدَّرَجِ، فإذا نحنُ في غرفةٍ كبيرةٍ مُرْعِبَةٍ، وهي عندهم قاعةُ المحكمةِ، في وَسَطِهَا عمودٌ من الرُّخَامِ، بِهِ حَلَقَةٌ حديديةٌ ضخمةٌ، ربطتْ بها سلاسلُ من أجلِ تقييدِ المتهمينَ.

وأمام هذا العمودِ كانت المصطبةُ التي يجلسُ عليها رئيسُ ديوانِ التفتيشِ والتي يطلق عليها عرش الدينونة، والمنصة التي كان يجلس عليها باقي القضاةُ والكتبة لمحاكمةِ الأبرياءِ، ثمّ تَوَجَّهْنَا إلى غُرَفِ التعذيبِ وتمزيقِ الأجسامِ البشريةِ التي امتدتْ على مسافاتٍ كبيرةٍ تحتَ الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفزُّ نفسِي، ويدعُوني إلى القشعريرة والتقزُّزِ طِوَالَ حياتِي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجمِ جسمِ الإنسانِ، بعضُها عمودِيٌّ وبعضُها أُفُقِيٌّ، فيبقَى سجينُ الغُرَفِ العمودِيَّةِ واقفًا على رِجْلَيهِ مُدَّةَ سِجْنِهِ حتى يموت، ويبقَى سجينُ الغُرَفِ الأُفُقِيَّةِ مُمَدَّدًا بها حتى الموت، وتبقَى الجُثَثُ في السجنِ الضيقِ حتى تبلَى، ويتساقطُ اللحمُ عن العَظْمِ، ولتصريفِ الروائِحِ الكريهةِ المنبعِثَةِ مِنْ جُثَثِ الموتَى، فَتَحُوا نافذةً صغيرةً إلى الفضاءِ الخارجِيِّ، داخل أسوار الدير.

فتحنا غرفةً أخرى فوجدنا ألوانًا وصنوفًا من أبشع التعذيب الوحشي الذي لا يتخيله عقل! وجدنا توابيتَ بقدر حجم الجسم، وبها مسامير حادّة كالأنياب يوضع فيها الضحية فتطبِق عليها كأنما أُلقي بين فكّي تمساح جائع ينهش في عظمه بأشرس ما يكون، يا إلهي! ما هذه الوحشية!

ومضينا في ممرّ ضيق يُفضي إلى بهو واسع، فوجدنا فيه صنوفًا وآلاتٍ أخرى للتعذيب، منها بقرة مجوّفة لها خوارٌ، لها باب يفتح ويغلق كباب الأفران، يُقحمُ الضحية ويدفعُ في الداخل حتى يكون في تجويفها، مربوطٌ رأسُه بين ركبتيه، ويداه مشدودتان إلى قدميه، وقد أضرم فيها نار فلا تزال تُحمى به حتى يفارق الحياة!

تمتم الكولونيل قائلًا: ألهذا الحد! يا لها من وحشية مجنونة! وساديَّة بشعةٍ يتعامل الإنسان مع من يخالفه في الدين أو في المذهب باسم المسيح الذي جاء بالخلاص للبشرية، يسوع حامل الآلام!

يا حامل الآلام عن هذا الورى

كثرت عليك باسمك الآلام

ورأينا جثثًا ممزّقة ومعلقة من عراقيبها في حبل متدلٍّ من السقوف العالية! يا لهول المنظر!

ثمّ انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثمّ عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا حتى يُهشِّم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثمّ عثرنا على صندوقٍ في حجم رأس الإنسان، يوضع فيه المعذّبُ بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقبٌ تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كلّ دقيقة نقطة، وقد جُنّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب.

ونساء معلقات على صليب خشبي، وتلك عجوز معلقة كيوم ولدتها أمها، وقد تهدل شعرها الأبيض يغطي وجهها، وأخرى مكبّلة ومربوطة في لوح خشبي، وقد انتفخ بطنها، ورأسها مثبتة بالحديد، يجرعونها الماء الحار، في قُمْع حديدي يصب في حلقها، وهي لا تطيق ذلك.

وقد عَثَرْنَا في هذهِ الغُرَفِ على هياكلَ بشريةٍ، مازالتْ في أغلالِها!

كان السجناءُ رجالًا ونساءً، تتراوحُ أعمارُهم بين الرابعةِ عشرةَ والسبعينَ، وقد استطعْنَا إنقاذَ عددٍ من السجناءِ الأحياءِ، وتحطيمَ أغلالِهم، وبعضهُم في الرَّمَقِ الأخيرِ، وآخرون أصابهم الجُنُونُ من كثرةِ ما صَبُّوا فوقَ رؤسهم مِن العَذَابِ، كان السجناءُ جميعًا عرَايَا، حتى اضطُرَّ جنودُنا إلى أن يخلَعُوا أرْدِيَتَهُم ويستُرُوا بها بعضَ السُّجَنَاء.

أخرجْنَا السُّجَنَاءَ إلى النُّورِ تدريجيًّا حتى لا تذهبَ أبصارُهم، بعضهم كان يبكي فَرِحًا، ويضحكون كالمجانين في ذات الوقت، وينكبُّون يقبِّلون الجنودِ الذين أنقذُوهم من العذابِ الرَّهيب، وأعادُوهم إلى الحياةِ، كان مشهدًا يبكِي الصُّخور.

كما عَثَرنَا على آلة مقلاع تُغْرَزُ في لسانِ المعذَّبِ، ثمّ تُشَدُّ ليخرجَ اللسانُ مَعَهَا، ليقصَّ قطعةً قطعة، وكلاليبَ تُغْرَسُ في أثداءِ النِّسَاءِ وتسحَبُ بعنفٍ حتى تتقطَّع.

وَعَثَرْنَا على سياطٍ تنتهي بكرات صغيرة من الحديد، يُضرَبُ بها المعذَّبونَ، عُرَاةً حتى تَتَنَاثَرَ لحومُهم وتنكشفُ عظامُهم.

وصل الخبر إلى مدريد، فهبّ الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس طائفة اليسوعيين، ووضعوه في آلة تكسير العظام، فدُقت عظامه دقًّا وسحقتها سحقًا، وأمسكوا كاتم سرّه وزفّوه إلى السيدة الجميلة، أطبقوا عليه الأبواب، لتخلو به تلك الآلة الرهيبة، تحتضنه وتعتصره، تمزقه شرّ ممزق، ثمّ أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك. ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا، ثمّ أخذ العامة والغوغاء ينهبون ما بالدير من تحفٍ وأثاث وفُرُشٍ وآلات ([92]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# -54-

# أغربُ جائزة أدبية

فرّ الشاعرُ محمد بن حبوس من بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس. فما الذي اضطره لذلك؟

لقد كان شاعرًا مفلقًا، لا يشقُّ له غبار، بديع النظم، سريع البديهة، بل كان الشاعر الأثير صاحب الحظوة عندَ أمراء المرابطين، حتى نالَ ثروة طائلة من الجوائز والعطاءات، لولا ما بلغ الأمير من حماقاتٍ نُسبت إليه، وسقطات أسخطته عليه، فقرّر أن يعاقبه، لكن صاحبنا هرب منه إلى بلاد الأندلس، ودخلها مستخفيًا، ينتقل من بلدٍ لبلد مخافة الطلب، حتى نفدَ المال من يده بعد أسابيعٍ قلائل، فبحثَ عن وسيلة لكسب العيش، وأين له الوسيلة وهو لا يجيدُ إلّا نَظم الشعر، ولا يحسن سواه، تلك آلته التي يكتسبُ بها، كالفأس للفلاح والمغزل للنساج، والمطرقة للحداد، والقَدُوم للنجار! والقوس للصياد، وسلاحه الذي يحمله أينما مضى، كما يحمل الفارس سيفه. بحث جاهدًا عمن يمدحه، فالشعر بضاعتُه وحرفتُه.

يحكي لنا الشاعرُ حكايته التي كتبها بيدِه، وحفظها ابنه عبد الله، ونشرها بين الأدباء، يقول الشاعر:

دخلت مدينة شِلْب وهي من كبريات مدن الأندلس، مشهورة بالأدب، فكم أخرجت من شعراء وشاعرات، حتى قال عنها ابن بسام في كتابه الذخيرة: «ومِن ذلك الأفق طلعت نجوم الكلام، فأضاءت البلاد، ونشأت غيوم النثار والنظام، فطبقت الهضاب والوهاد» ([93]).

ولكنْ ماذا سأصنع في بلدٍ ينشد الشعرَ فيه الصغيرُ، فضلًا عن الكبير! والنساء قبل الرجال!

وليس لي من بضاعة إلّا الشعر! وهل سأطعم أبنائي الأبيات والقصائد؟

فمكثتُ أبحث عن وسيلةٍ أتكسّب بها قوت يومي، وعن مأوى لي، حتى مرّ عليّ منذ دخلتها ثلاثة أيام لم أطعمْ فيها شيئًا، فسألت عمّن يقصد إليه فيها، فدلّني بعض أهلها على رجل يعرف بابن المِلح، وكان أديبًا بارعًا، شاعرًا محسنًا كاتبًا بليغًا، له أشعارٌ رائقة في الوصف وفي المدح وتولى الوزارة، لكنه آثرَ الانزواء، وكان ذا ثراء، سخيًّا على الشعراء، عطوفًا بهم.

قال ابن حبوس: ذهبتُ إلى السوق، وعمدتُ إلى بعض الوراقين فسألته قرطاسًا ودواة، فأعطاني، فأحضرت ريشةً طويلةً وغمستُها في الدواة وكتبت

في القرطاس بخطَ جميلٍ أبياتًا أمتدحه بها، مدحت كرمَه ونبله وحسن أدبه وتذوقه وحسّه المرهف، وقصدت داره، واجتزت الباب، ودلفت مع البواب للداخل، فإذا هو في الدهليز- مدخل بيته الذي يصل الباب بصحن الدار- فسلّمت عليه، فرحّب بي وردّ علي أحسن رد، وتلقّاني أحسن لقاء، وقال: أحسبك غريبًا!

قلت: نعم.

فقال لي: من أيّ طبقات الناس أنت؟

فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء، ثمّ أنشدتُه الأبيات التي نظمتُها في مدحه، فوقعت منه أحسن موقع، فأدخلني إلى منزله وقدّم إلي الطعام، وجعل يحدثني، فما رأيت أحسن محاضرة منه، فلما آن الانصراف خرج ثمّ عادَ ومعه عبدان يحملان صندوقًا حتى وضعه بين يدي، ففتحه وأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية– عملة ذهبية في ذلك الوقت- فدفعها إلي، وقال: هذه لك! ثمّ دفع إلي صرّة فيها أربعون مثقالًا من الذهب، وقال: هذه من عندي.

فتعجّبت من كلامه، وأُشْكِلَ علي جدًّا، وسألته: مِن أين كانت هذه لي؟

فقال لي: سأحدثك، إني أوقفتُ أرضًا من جملة مالي للشعراء، غلّتها في كلّ سنة مائة دينار ومنذ سبعِ سنين لم يأتني أحدٌ لتوالي الفتن التي دهمت البلاد، وتفرّق الشعراء، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك، وأمّا هذه فمن حرّ مالي؛ يعني الأربعين دينارًا.

فدخلت عليه جائعًا فقيرًا، وخرجت عنه شبعان غنيًّا ([94]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# عليكَ أحالني الذكرُ الجميل

حُكِيَ أنّ حافظ الأندلس، إمام الأدباء، أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الصنهاجي الحجاري، كان سبب اتصاله بعبد الملك بن سعيد؛ جدّ علي بن موسى ملك المغرب، أنّه وفد عليه في قلعته بغرناطة، فلمّا وقف على بابه وهو بزيِّ بَدَاوةٍ، متعمِّدًا أن يلفتَ الأنظار، ازدرَاهُ البوابُون، واستخف به القاعدون ببابه، فقال لهم: استأذِنوا لي على القائد. فضحكوا به، وقالوا له: ما كان وَجَدَ القائدُ من يدخُلُ عليه في هذهِ الساعةِ إلّا أنت! فمدَّ يدَهُ إلى دواةٍ في حزامِهِ وقرطاس، فكتب بباب القائد الأعلى- مازالَ آهلًا بأهلِ الفضيلةِ- رجلٌ وفد عليه من شلب منبت الشعراء، بقصيدةٍ مطلعُها: (عليك أحالني الذكر الجميل) فإنْ رأى سيدي أن يحجب مَن بلدُه شلب، ومَن قصيدُهُ هذا فهو أعلمُ بما يأتي ويذر، ولا عُتْبَ على القَدَر، ورغب إلى أحد غلمانِه ولاطفه، فأوصل الورقةَ، فلمّا وَقَفَ عليها القائدُ قال: مِن شلب؛ وهذا مطلع قصيدته، ما لهذا إلّا شأن! ولعله الوزيرُ ابنُ عمَّار، عجِّلوا بالإذنِ له، فأذنوا له ودخل وبقي واقفًا لم يسلم ولا كلَّم أحدًا، فاستثقله الحاضرون، واستبردوا مقصدَه، ونسبوه للجهل وسوء الأدب، فقال له أحدُهم: ما لك لا تسلّم على القائد، وتدخل مداخل الأدباء والشعراء؟!

فقال: حتى أُخْجِلَ جميعَكم قدرَ ما أخجلتموني على الباب مع أقوامٍ أنذال، وأعلم أيضًا من هو الكثيرُ الفُضُولُ من أصحابِ القائِدِ أعزَّه الله تعالى، فأتَّقيه إن قُدِّرَ لي خدمتُه. فقال له عبدُ الملك مبتسمًا: أتأخذُنَا بما فعل السفهاءُ منّا؟ قال: لا والله، بل أغفرُ لك ذنوبَ الدهرِ أجمعَ، وإنما هي أسبابٌ نقصِدُهَا لنحاورَ بها مثلَكَ أعزَّك اللهُ تعالى، ويتمكنَ التأنيسُ وينحلَّ قيدُ الهَيبَة. ثمّ أنشد من رأسِه ولا ورقةَ في يدِه: عَلَيْكَ أَحَالَنِي الذِّكْرُ الجَّمِيلُ

فَجِئْتُ ومِنْ ثَنَائِكَ لي دَلِيلُ

أَتَيْتُ ولَمْ أُقَدِّمْ مِنْ رَسُولٍ

لأَنَّ القَلْبَ كانَ هُوَ الرَّسُولُ

أَجِلْ طَرْفًا لَدَيَّ فإِنَّ عِنْدِي

مِنَ الآدَابِ ما يَحْوِي الخَلِيلُ

عليك أحالني الذكر الجميل

فصحَّ العزمُ واقتُضِي الرحيل

وودعتُ الحبيبَ بغير صبر

ولم أسمعْ لما قال العذول

ولم أشكُ الهجيرَ وقد دعاني

إلى أرجائك الظلُ الظليلُّ

وهي طويلة، فأكرمه وقرَّبه وأنزله منزلًا حسنًا، وبوَّأه مكانة تليقُ بأدبه ومروءته، وكانت فرصة سانحة للتأليف، فكتب كتابه: المسهب في غرايب المغرب ([95]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -56-

# بل على السُّنَّة أموت

في حيٍّ عتيق من أحياء قرطبة، احتشدَ الناسُ أمام بيتٍ من بيوت العلم والصلاح، في انتظار الفراغ من غسلِ شيخٍ صالح، لينطلقوا بالجنازة إلى الجامع الكبير، كان المتوفّى أبا حفص عمر بن نابل؛ فقيهًا ورعًا، كُفَّ بصرُه في آخرِ عُمُرِهِ، فكان صابرًا محتسبًا، حتى وافته المنية في ذي القعدة سنة 401هـ، عَهِدَ- رحمه الله- في حياته إلى حفيدِه أن يُدْرِجَهُ في كفنٍ بدون قطنٍ؛ إذ لم يثبت دليلٌ على ذلك وإنّما استحسنها بعض الفقهاء، وكان- رحمه الله- محبًّا للسنة، كارهًا للبدع، لكنّ الحفيد أغفل وصية جدّه، خشية أنْ يخالف العادةَ التي درج الناسُ عليها، فأحضر القطنَ مع الأكفانِ، مجاراةً للناس، فلمّا سوَّاها الغاسلُ فوق المِشْجَبِ الذي تُعلّق عليه الثياب، ووضع القطنَ فوقه ليبخِّره، طارت شرارةٌ من المِجْمَرِ إلى القُطْنِ فأحرقتْهُ، وطُرِحَ من فوق المِشْجَبِ والنارُ قد أشعلتهُ، ولم ينلِ الكفنَ شيءٌ من النار، فَطِنَ الحفيدُ لما رأى من كرامةٍ، وندمَ على ما فعل، وخرج للناس وكشف لهم عن ذلك، واعترفَ أمامهم بما عزمه وشرع فيه من تخطّي وصية جدِّه الفقيه، فعجبوا منه. ورأَوْهَا آيةً أُنْفِذَ بها عهدُ الشيخ الصالح، وكرامةً أظهرها الله له، فكفَّنُوهُ بدون قطنٍ، وتحدَّثَ الناسُ زمانًا بشأنِهِ، رحمه الله ([96]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-57-

# أندلسي في الفيوم
# القرطبي والبيت المهجور

سافر الإمامُ القرطبي بصحبة الإمام شهاب الدين القرافي إلى الفيوم، كلاهما كان شيخَ عصره في تخصّصه؛ القرطبي في التفسير والوعظ، والقرافي في الفقه والأصول والملل، القرطبي يسكن في منية الخصيب، والقرافي بالقاهرة. فلمّا وصلا هناك، بحثَا عن مكانٍ ينزلان فيه، فلم يتيسر لهما منزلٌ، إلّا بيتٌ قديمٌ مهجور، لكنه كبيرٌ، سيَّما وقد عُرِض عليهما بأجرٍ زهيد، وعلى الفور وافق الشيخان على استئجاره، فلمّا وقفَا على بابه الخشبي العتيق، وأخذَا بمساعدة الغلمان الذين كانوا في خدمتهم، في إنزال الأمتعة من فوق ظهور الجمال لنقلها للمسكن الجديد، قال لهما قائلٌ: يا مولانا، بالله لا تدخلاه! فإنه معمورٌ بالجانّ، لا يدخله أحد ويخرج منه حيًّا، من هول ما تراه عيناه!

حدجَ الشيخ شهاب الدين ذلك الناصحَ الأمين، بنظرةٍ تنمُّ عن عدم اكتراثٍ، والتفت للغلمان، وقال لهم: ادخلوا ودعونا من هذا!

ثمّ إنّ الشيخين توجّهَا إلى جامع البلد للاغتسال، وصلاة الضحى إلى أن يفرش الغلمان المكان، ثمّ عادَا فلمّا استقرّا بالمكان، وأغلقا نوافذ الغرفة، وبابها، ليستريحا، قبل صلاة الظهر، وبينما هما راقدان في الحجرة المظلمة، إذْ بمصراع الباب يفتحُ قليلًا بصوتٍ نبّه الإمام القرافي وأزعجه، استرق النظر جهة الباب، فوجد بصيصًا من نور، نظر لأسفل الباب فوجدَ ما أفزعه، رأسُ كبشٍ بقرنين كبيرين، تطلُّ عليه، وتحدّقُ فيه، فامتقع لونُ القرافي وخارت قواه، وانحبس لسانه، و تسمّرت عيناه نحو الباب الذي فُتِحَ، وخرج منه رأسُ الكبش، لا ينقطع عن الصياح، ذاب القرافي خوفًا، وتذكر من حذّره من دخول هذا البيت المهجور، لكنه استخفّ بكلامه، بينما المكان كما قيل معمورٌ بالجان، وهذه أول مشاهدِ الرعب في وقت الضّحى، فكيف بالليل؟! يا للهول! جنيٌّ يتشكل في صورة كبش، ما جاء به إلى هذا المكان المهجور؟

التفتَ خلفه بحذر، فرأى القرطبي الذي انتبه من نومه، فأخذ القرافي يتقهقر للوراء مقتربًا من صاحبه راجيًا فيه الملاذ، ونظر إليه متوسّلًا، وقد حُبس لسانه من الرّوع، وبكلّ ثباتٍ قام القرطبي نحو الباب، واقترب من التيس، ووضع يدَه على رأسه الأبيض، ممسكًا بقرنيه الكبيرين، وجعل يتعوّذ ويبسمل ويقرأ (ءالله أذِنَ لكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفتَرُون)، والتيسُ لا يتحرك من مكانه، ولم

ّ

يزل كذلك حتى فُتح الباب، ودخل الغلام ومعه حبلٌ وسِكَين، وقال: يا سيدي، لماذا تقف هكذا ممسكا برأس الخروف؟

قال الشيخ غاضبًا: كيف دخل إلى هنا؟

قال الغلام: لقد اشتريته من السوق ليكون طعامَنا، فلمّا جئتُ به إلى هنا تركتُه في صحن الدار، ريثما أشتري الفاكهة والخضار.

وجاء إليه فأخرجه وأضجعَه على جنبه، والقرطبي يضحكُ من هذا الموقف! بينما القرافي يستشيطُ غضبًا من ذلك الذي اعتراه من خوفٍ، فقال له معاتبًا بعد أن أُطلق لسانه وذهبَ عنه الروع: ما حملك على هذا؟!

فقال: لما توجّهتما للمسجد رأيت الخروف مع واحدٍ من التجار يعرضه للبيع، فاسترخصته واشتريته لنذبحه ونأكله، وأودعته في صحن البيت، وأوثقت قدمَه بأحد ذراعيه، لكنه انفلت، حتى وقف على باب غرفتكم!

فقال القرافي حانقًا ومعاتبًا: يا أخي، إلّا أخبرتنا! إلّا قلتَ لنا! لقد طارت عقولُنا!

وسرعان ما قام الغلامُ بذبح الكبش المخيف، وسلخه وإعداده، وطهيه في التنور الذي أضرمه بالحطب، وأنضج الخبز فيه، وجعله فُتاتًا في قصعة كبيرة، وصبّ عليه المرق الساخن، ثمّ قدّمه، فتحلّق الجميع حول مائدة الغداء، لكنَّ النظر لرأس الخروف المشوية، راقدةً على الصحفة الواسعة، تتوسَّدُ الثريد، وكأنها تحدق في الإمام القرافي ثانية؛ كان مثيرًا للضحك والتندّرِ على هذا الرعب الذي عاشه الإمام القرافي ([97]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# إرادةُ الله

جلس الحاجب المنصور ذاتَ يوم في مجلس حكمِه بقرطبة، ينظر في القضايا والشكاوى، ويجيب عن مطالب الرعية، فرُفِعَت إليه رسالةُ استعطاف من أمٍّ مكلومة، تلتمس إطلاقَ سراح ولدِها الذي كان في بلاط المنصور، فحبسَه لجُرم صغير استعظمه منه، وكان غاضبًا حَنِقًا عليه، وقد عُرف المنصور بالقسوة، فلمّا قرأها اشتدَّ غضبُه، وقال: ذكرتْني واللهِ به. وأخذ القلم يوقّع، وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يطلق. وناولَ الرقعة إلى وزيره الكاتب أبي عمر ابن حزم، فأخذ الوزير القلم وتناول رقعة وجعل يكتب بمقتضى التوقيع إلى صاحب الشُّرطة لينفِّذ الأمر.

فقال له ابن أبي عامر: ما هذا الذي تكتب؟

قال: أكتب بإطلاق فلان. فاغتاظ، وضرب على الطاولة بمجمع يدِه، وقال حانقًا: تأمرُ بإطلاقه! مَن أمر بهذا؟

فناوله الوزيرُ التوقيع.

فلمّا رآه قال: وَهِمْتُ، واللهِ ليصلبنَّ. ثمّ خطّ على ما كتب، وأراد أن يكتب: يُصلب، فكتب: يُطلق.

قال: فأخذ الرقعة، فلمّا رأى التوقيع تمادى على ما بدأ به من الأمر بإطلاقه، ونظر إليه المنصور، فقال: ما تكتب؟

قال: بإطلاق الرجل. فغضب غضبًا أشدَّ من الأول، وقال بهياجٍ وحِنقٍ: مَن أمر بهذا؟

فناوله الرقعة، فرأى خطّه، فخطَّ على ما كتب، وأراد أن يكتب: يصلب، فكتب: يطلق، فأخذ الكتاب فنظر ما وقع به، ثمّ تمادى فيما كان بدأ به، فقال له: ماذا تكتب؟

فقال: بإطلاق الرجل. وهذا الخط ثالثًا بذلك، فلمّا رآه أصابه الذُّهول، ومكث بُرهةً وهو يُحدّقُ في الورقة، ثمّ سكن فؤادُه، وذهبَ عنه غضبُه، وقال مبتسمًا: نعم، يُطلق على رغمي، فمَن أراد الله إطلاقَه لا أقدر أنا على منعه([98]).

سيكونُ الذي قُضي

سخط العبدُ أم رضي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# -59-

# جريمة الاستحمام

يقول المؤرخ الفرنسي دريبار: نحن الأوروبيون مدينون للمسلمين بالحصول على أسباب الرفاه في حياتنا العامة، فالمسلمون علّمونا كيف نحافظ على نظافة أجسادنا. إنهم كانوا عكس الأوروبيين الذين لا يغيّرون ثيابهم إلّا بعد أن تتسخ وتفوح منها روائح كريهة. فقد بدأنا نقلّدهم في خلع ثيابنا وغسلها. كان المسلمون يلبسون الملابس النظيفة الزاهية حتى إن بعضهم كان يزينها بالأحجار الكريمة، وعرف عن قرطبة أنها كانت تزخرُ بحمّاماتها الثلاثمائة، في حين كانت كنائس أوروبا تنظر إلى الاستحمام كخطيئة.

وعندما تمكّن النصارى من الأندلس، كان من ضمن ما قاموا به من تخريب هدم الحمامات التي كانت منتشرة في قرطبة، كمظهرٍ من مظاهر المدنية والحضارة، وعلامة على حرص الناس على نظافة أبدانهم، وجمال مظهرهم، وحكايتنا مسرحُها في أقبية مظلمة تحت الدير، حيث تقبعُ محكمة التّفتيش الرهيبة، بينما يتغنى القساوسة بالسلام في الأعلى.

نحتاجُ إلى أنْ نهبط عشرين درجة تحت الأرض، على درج حجري حلزوني، لندلف للقاعة من خلال بابٍ ضيق، كأننا ندخل قبرًا!

في جوٍّ من الرهبةِ أعلن الحاجبُ عن رقم القضية، واسم المتهمة التي جاء دورها:

ماريا دي مندوسة.. أخرجوها من زنزانتها إلى قاعة المحكمة!

قضية تجلّلت بالخزي والعار لأولئك الرهبان الذين أعماهم التعصُّب.

ها هي مثبتة في محاضر محاكم التفتيش.

يجلس القاضي على المنصة الخشبية، وأمامه شمعدان به ثلاثُ شمعات تضيء المكان المعتم، إضاءة خافتة.

وفي القفص الحديدي، وقفت المرأة مكبلةً، ملطخةَ الثيابِ ببقع الدم، ضوء خافت ينعكس على الجدار، فيظهر القضاة وعلى رؤوسهم أقنعة تضيق من أعلى تشبه قبعات السحرة بشكلها المخروطي، فتبدو ظلالهم على الجدار القاتم كأشباحٍ مخيفة، ما يزيد من رهبة المكان، بينما يسطعُ وجهُ المرأة ببياضِه الشاحب، وهي تتأمّل يديها المكبلتين!

بصوت غليظٍ سأل القاضي: ما اسمك يا امرأة؟

أجابت بصوت ينمُّ عن ضعفٍ وإعياء: اسمي ماريا دي مندوسة.

يقهقه القاضي بصوتٍ مخيف، ثمّ يقول بطريقة سمجة: حقًّا هذا هو اسمك؟

- نعم يا سيدي، هذا اسمي الذي اكتسبته من ديني الجديد!

ينظر إليها شزرًا، وقد غيّر نبرة كلامه، منطلقا بلا إنذارٍ كالرعد القاصف: لقد شوهدت وأنت تستحمّين وتمشّطين شعرك في قعر بيتك! فغر فاهُ الواسعَ لتظهر أسنانُه بلونها الأسود القبيح.

تصرخ المرأة بقوةٍ وقد احمرّ ذلك الوجه الشاحبُ من شدة الخجل، ثمّ تقول: مَن هذا الوغد الذي تلصّص علي، وأنا لم أكشف خماري خارجَ بيتي! يا له من حقيرٍ!

يتردّد في أركان القاعة حقير.. حقير، كأن الحيطان تصبّ لعناتها على هذا الشاهد الأثيم. حقير.. حقير، لا يزال صدى الصوت يترددُ، متجاوبًا ومتعاطفًا مع تلك المرأة المظلومة.

صاح مَن على يمين القاضي بصوتٍ غليظ: كيف تتجرئين على هذا القول يا امرأة! ويحك أتسبّين مسيحيًّا صالحًا؟

- وهل كان المسيح هاتكًا للحرمات؟ أتنسب هذا الفضولي المتلصّص بوقاحته للسيد المسيح ابن مريم العذراء!

يمتقعُ وجهُ القاضي، ويبتلع ريقَه بصعوبة، بينما لم يُحِر جوابًا، فينادي غاضبًا: هل الشاهد موجود؟

يمشي الشاهد نحو القاضي مشية ذليلٍ مهين، يتقدمُ بوجهٍ مقنّع، ويقول بصوتٍ يدل على بلاهة: نعم سيدي القاضي، يا إلهي! أنا هنا، لقد رأيتُها بحق الإنجيل!

القاضي (وهو ينظر لتلك المرأة، ثمّ يلتفت للشاهد): ماذا رأيتَ بحقِّ السماء!

ينظرُ الحاضرون بعضهم لبعض، ويضحكُون.

المرأة المكبّلة تحاول بشدّة نزع أغلالها، لكن قوتها لا تسعفها، فتقول بحنقٍ وغيظ: قبّح الله وجهك يا قاضي السوء، أهذه محكمة أم ملهاة!

يصرخ القاضي في وجهها، ويضرب على الطاولة بكلتا يديه: اخرسي أيتها الحمقاء، الويل لك! سأعاقبك أشد العقاب.

يتقدّم الشاهد خُطوةً نحو المنصة، ثمّ ينحني أمام القاضي، ثمّ يقول: سيدي في يوم لا أستطيع أن أنساه قبل شهرٍ من عيد الفصح، في هذا اليومِ يا

سيدي القاضي رأيتُ ماريا تحمل إبريق ماء من البستان، وتنسلّ به، وهي تتلفتُّ وراءها كاللصِّ، حتى دخلت دارها، فخمّنتُ أنها ستستحمُّ به؛ لأنها نصرانية جديدةٌ مدجّنة، وساورني شكّ في أنها لا تزال على إسلامها القديم، لأنني لاحظتُ أنّها ترتدي الملابس النظيفة في أيام الجمعة، الذي يعتبره المسلمون عيدًا، فقررت أن أتبعها إلى بيتها دون أن تشعر، لأنني مسيحي مخلص، أغارُ على ديني، فتسللتُ إلى بيتها بعد أن دخلت، ولأنّه محظورٌ عليهم إغلاق أبوابهم في أيّ وقت من ليل أو نهار، فقد دلفتُ من الباب الخارجي إلى دهليز مظلم قادني إلى فناءٍ واسع، فتلفتُّ حولي لأجد حديقةً مثمرة، وشجيرات وردٍ، تحيط بنافورة ماء داخل فسقية.

قاطعه القاضي صارخًا: اختصر أيها الأحمق؟ ما الفائدة من سرد تلك التفاصيل وكأننا سنشتري هذا البيت!

ضحك مَن في المحكمة من الحراس والقضاة، نظرت إليهم المرأة باشمئزاز، بينما استطرد الشاهد قائلًا: ثمّ تسلّلتُ يا سيدي إلى داخل البهو، وأصغيتُ جيدًا، لأنني مسيحي مخلص، أغارُ على ديني.. (وضرب الشاهد على صدره بيده)، فسمعتُ صوت ماءٍ مصبوب، فتقدمتُ ببطء نحو باب غرفةٍ موصدٍ، من حُسن الحظ يا سيدي؛ بل قل بركة القديسين لم يكن المفتاح في الباب الموصد، فتمكّنت من ...

صرخت المرأة مقاطعة له: صهٍ أيها الحقير!

ضجّت المحكمة الهزلية بالضّحك كأنها مسرحية هزلية.

- وكيف رأيتَها أيها المسيحي المخلص؟

- رأيتُها يا سيدي «كيوم ولدتها أمها،...

صرخت المرأة بشدّة: حسبُك! حسبك أيها الفاسق، كفاك تماجُنًا.

وانفجرت في البكاء، وهي تقول: ليتني متُّ قبل هذا، ليت أمّي لم تلدني قبل أن أسمع هذه السخافات، لو شعرت بك أيها الفاجر المتلصّص لنشبت أظافري في نحرك، ثمّ استللتُ خنجري وطعنتُك في قلبك الأسود، حتى تسافر إلى الجحيم أيها الوغد!

ارتجف الشاهدُ الحقير وقال للقاضي متوسّلًا: سجّل أيها القاضي هذا التهديد! إن لي زوجةً وعيالًا، وأخذ يولول كالنساء.

- صه أيها الجبان الرعديد! أتخاف من امرأة مكبلة بالحديد؟

قالت المرأة المكلومة للمحكمة: ألا تخجلُون من أنفسكم! وأنتَ أيها الشاهد الخسيس، أليس لك زوجة وبنات! أترضى أن يتلصّص أحد على أهل بيتك؟ أو

يدخل عليهم بدون إذن!

ضحك الشاهد ضحكةً سمجة تدلّ على بلادة، وقال: ومَن قال لك أيتها المرأة إن زوجتي يمسُّ جسدَها الماء؟ إنها تكره الاستحمام حتى في الصيف القائظ، وكذلك بناتي! لكنكم أيها المخادعون مازلتم على ضلالكم القديم! تتظاهرون بالمسيحية، ومازلتم مسلمين! مسلمين! مسلمين! (قالها وهو يصرخ بها، وينفث عن حقدٍ دفين).

القاضي: ما قولك يا ماريا؟ هل لديك جواب؟

تتنهّد ماريا بحرقة، وتقول وهي تعيش في هذه اللحظة أسوأ كابوس في حياتها: هل الاستحمام في دينكم حرام؟ ألا تخجلون من أنفسكم؟ تحاكمونني على أن اغتسلت؟ ولا تلتفون إلى انتهاك حرمة بيتي وجسدي؟

القاضي: إذًا، تعترفين بجريمتك.

قال أحدُ الرهبان: العجب أنكم أيها الأندلسيون تحبون النظافة، تعتنون بنظافة بيوتكم وملابسكم وفرشكم، وقد سمعت أن «الواحد منكم، يؤثر شراءَ الصابون على شراء الطعام، فيطوي من الجوع، كي لا يظهر بثيابٍ تشمئز منها العين»! أليس هذا صحيحًا أيتها المجرمة؟

- لستُ مجرمة، المجرمُ مَن تسلل لبيتي بدون إذنٍ، وتلصّص علي بدون حقٍّ؟ أليس للبيوت حرمتها؟

- هذا يعني أنك تعترفين بجريمتك النكراء! مازلت على دين محمدٍ يا مارية! حقًّا؟!

قال راهب آخر: مَن تكونين أنت! إنّ جلالة الملكة إيزابيلا لم تستحم في حياتها إلى مرتين، مرّة عند تعميدها، ومرّة عند زفافها لجلالة الملك فرديناند! فمَن تكونين أنت! أتعترفين الآن بإرادتك أم أتركك لآلاتنا الجبارة تنتزع الاعتراف من أحشاء قلبك!؟

أدركت مارية أنّها ميتةٌ لا محالة، فهي أمام قانون جائرٍ، ومحكمةٍ ظالمةٍ، يقف وراءها حقدٌ أسودٌ، ودونها غرفُ التعذيب الجهنمي، فلماذا تترك جسدَها الناحل لتلك الوحوش البشرية تنهشه بأظافرها، أو تقرضه بأسنة الآلات وتروسِها الفتّاكة، أو تعلّق كما تعلقُ الذبيحة، أو غير ذلك من وسائل التعذيب!. فكّرت مليًّا، ثمّ قررت أن تختصر الطريق، وتقترب من النهاية، فلتمت مرّة واحدة خيرٌ لها من أن تموت عشرات المرات، فالشجاع يموت موتة واحدة، بينما يموت الجبان كلّ لحظة.

قالت بشجاعةٍ وثباتٍ: نعم.. يا عبّاد الصلبان! أنا مسلمة، عشت مسلمة وسأموت مسلمة، نعم يا عبّاد الصليب! اغتسلتُ لأنّني طاهرةٌ أيها الأقذار! ألا تخجلون من روائحكم الكريهة!

- كفى أيتها الموريسكسية السليطة! اسكتي يا كافرة.

- صه أنتَ أيها القذر! أنا مؤمنة، أؤمن بالله الواحد الأحد، وبالنبي محمد كما آمنت بالمسيح، وأعتزّ باسمي عائشة، كما أحبّ مريم الصديقة، أمّا أنتم فلا يحقُّ لكم أن تتكلموا باسم المسيح؛ فهو بريء منكم، ومما أنتم عليه من هرطقة وفجور. أمّا السيدة مريم- ونظرت لصورة زيتية بألوانٍ قاتمة، معلقة على الجدار- فأنتم أجهلُ الناس بها وأبعدُ الناس عن إيمانها! إذا كانت صورة السيدة مريم بهذا السّتر والاحتشام، فلماذا ترضون بهتك سترِ امرأة! أيُّ دين هذا الذي يستبيح النظرَ لجسد امرأةٍ، وهي مطمئنةٌ في قعر دارها، متسترةٌ بجدران بيتِها! يا له من تناقضٍ عجيب.

صاح كبيرُ الرهبان والذي لا يُرى إلّا ظله الأسود، حيثُ يتقنّعُ بالظلام، وعلى رأسه ما يشبه طرطور، لا يبدو منه إلّا ثقوبٌ بحجم جفون العينين، وفتحتي الأنف والفم: الويل لها.. الويل.. أسمعتم هذه المجنونة! ههه، إنها تعطينا محاضرة في اللاهوت!

ثمّ صرخ صرخةً مرعبة: أخرجوها من هنا، أسكتوها، أوقفوها! إنها كالحية التي أغوت آدم، إنها حواء التي ناولته من الشجرة فأكل، إنها خطرٌ يهددُ إيماننا بالمسيح مخلّصنا! أخرسوا تلك الشيطانة، املئوا فمَها السليط بالقطن، أو كمِّموها قبل أن تفسد إيمان جنودِنا المخلصين أمام أعينِنا! هذا الكلام خطرٌ على العقيدة المسيحية، خطر.. خطر...

ونظر إلى الحراس الذين وقفوا مشدوهين، مذهولين مما سمعوه.

هنا صرخ القاضي: حكمت المحكمةُ بموت ماريا دي مندوسة حرقًا، على أن يشهد جميع أهل البلدة طقوسَ حرقها، في ساحة الكاتدرائية، ومَن يتخلف عن الحضور يعاقب بغرامة مالية، ثلاث قطع ذهبية، لتكون عبرةً لكلِّ منافقٍ مخادع، على أن تزفَّ في شوارع البلدة، قبل الحرق، والدعوة عامّة لجميع راهبات الدير، والقساوسة والشمامسة. ولا يؤذن لها بالكلام حتى لا تفسد إيمان الجماهير.

رُفعت الجلسة ([99]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

## -60-

# مِن الظلمات إلى النور

## سرّ الغرفة المغلقة

## -1-

لم تكن حياتي سعيدةً كما يعيشها أقراني؛ ثمّة أسئلة محيِّرة تدور في ذهني، أذهب في الصباح إلى الكنيسة، أتعلّمُ الدينَ واللغة القشتالية والحساب والجغرافيا، فأسمع وأرى كثيرًا من التناقضات بما لا يتّسع له عقلي المحدود، ولا تقبلها طفولتي البريئة، ولا ينسجم مع فطرتي الغضة، فإذا خرجت مِن الكنيسة عانيتُ من مضايقات الأطفال في طريقي للمنزل، ومضايقتهم لي بدون سبب، فإذا عدت للبيت لم أجد السعادة والهناء؛ فأمّي دائمًا مشغولة إمّا بأعبائها المنزلية التي لا تنتهي، فإذا فرغتْ جلستْ تستريح على مقعدٍ خشبيٍّ حزينةً مكتئبةً، وأبي عندما يعود مكدودًا من عمله في المساء، يجلسُ في صمتٍ، وأرى في وجهه سحابةً من الحزن والهمِّ لا أدري لها سببًا، فإذا حدثنا فباقتضابٍ شديد، يسأل عن أحوالنا، وكيف مضى يومُنا، إلى أن نتناول العشاء فيمضي إلى غرفة مغلقة، وربما دخلت إليه أمّي، وقد لاحظت أن الكلام بينهما قليلٌ جدًّا!

وكنت إذا ما استذكرت دروسي في المساء، ورفعت صوتي بتلاوة الإنجيل، أو ترنمت بالمزامير، تجهَّم أبي واضطربَ وتململ وأشاح بوجهه، وحدجتني أمّي ببصرها، وهي على مقعدها القريب من المدفأة، وبيدها الخيط والمغزل، وربما تحركت شفتاها بكلام غير مفهوم.

أمّا أختي، فرغم رقتها وعطفها، لا يبدو في محياها أيُّ ارتياح لما أفعله، لا أعرف لذلك سببًا!

ثمّ رابني في الأمر أنّ أمّي تختفي في اليوم عدّة مرات، فأبحث عنها في كلّ غرفة وأناديها فلا تجيبني، أصعد إلى الغرفة العِلِّيّة، أو أهبطُ الدرج إلى القبو، الذي يستخدم كمستودعٍ، ومكان رطبٍ للتخزين، فلا أعثر لها على أثر، حتى أراها خارجة من الغرفة المغلقة، غرفة الأسرار– كما سميتُها- وقد راقبتُ الأمر عن كثب، فلاحظت أنّ هذه الأوقات هي ساعة الظهيرة وبداية وقت الأصيل وعند غروب الشمس، وبعد غياب الشفق الأحمر، وربما استيقظت ليلًا ظمآن، أو خائفًا، فلا أجدها بجواري! نعم.. غرفة الأسرار، هكذا سميتها لما لاحظت من تسلل أبي وأمي إليها، ومكثهم فيها، ثمّ خروجهم، كانت مبغضًا

لهذه الغرفة، تارة ينتابني شعورٌ بالرهبة والروع، كأنها غرفة مسكونة، وتارة أشعرُ بسكينة حين أقترب منها، وتارة أشعر بشغف وفضول لمعرفة ما فيها.

تمضي الأيام، وأنا أتقدّم في دراستي، وكلما حققتُ نجاحًا في دروس اللغة القشتالية أو حفظت نصوصًا من الكتاب المقدس، أو حصلت على هدية من المعلم، وطرتُ بها إلى البيت فرحًا، لأدخل السرور على أمي الحزينة؛ فلا تشاركني الفرحة، وربما بكت! يا لها من حيرة لا يدرك طفلٌ مثلي سببها.

بدأتِ الشكوك تتجاذبني، والهواجس تؤرّقُني!! ألست ابنًا لهما؟

نسيتُ أن أخبرك- أيها القارئ لحكايتي- عن ذلك الأزيز الذي كنت أسمعه إذا أصغيتُ بأذني نحوَ باب الغرفة المحرّمة، صوتٌ يشبه دويَّ النحل، وتارة صوت بكاء ونحيب كهديل الحمام! ولغة غير مفهومة.

أسئلة مريبة تلحُّ علي: ما سرّ تلك الغرفة التي أراها دائمًا مغلقة، لماذا يحرمُ عليَّ دخولها! ولماذا يتسلّل لها أبي، وكذلك أمّي! حتى أختي التي تكبرني، بدأت تعرفُ طريقها، وتنال حظها من الاختفاء فيها؟ ما الذي يخفونه عني داخل هذه الغرفة! لماذا يعاملونني هكذا؟ هل لأني صغير! حقًّا.. ذنبي أنني طفل صغير! نعم أنا صغير... يا إلهي ارحمني من تلك الحيرة.

بدأت أشعر أنني غريب، واستبدَّ بي هذا الشعور، مع أن أمّي كثيرًا ما تحتضنني وتقبلني وتبكي وتنتحبُ عند فراقي لها، وكذلك أبي كان قلبه يفيض بالرحمة والإشفاق.

وكم مرّة رمقتُ أبي وهو ينظر لي شذرًا يتمتم بكلمات لا أفهمها، فإذا لاحظ انتباهي له صرف بصرَه، وأغلق فمَه، لا أدري ما الذي يُخفيه عني! كم مرّة نظر إلي وكأنه يريد أن يحدثني بأمر، لكنّه يتراجع عن ذلك، بما أثار شجوني، وتركني حائرًا، وربما أشاح بوجهه وأدار ظهره.

ربّاه، ماذا يحدث في بيتي! أكادُ من كثرة الخواطر أجنّ! عقلي الصغير لا يحتمل يا إلهي.

ثمّ كانت مفاجأة مذهلة عندما خرجتُ ذات مساءٍ للعب في فناءِ الدار مع بعض أترابي، لكنني تضوّرتُ جوعًا، فهرولتُ للبيت كي أتناول كسرةَ خبز، أو حبة فاكهةٍ، ودفعتُ الباب الذي لم يكنْ موصدًا، فكانت الصدمة؛ وجدتُ أبي وأمّي جالسين في البهو، يتكلمان بلغة لا أفهمها، فلمّا انتبها لقدومي، نظر كلّ واحد منهما للآخر في ارتباكٍ، ثمّ التفتا إلي كأنهما قد ارتكبا خطأً!

وهنا، انتابني شعورٌ بأنني أمسكتُ بأوّل الخيوط لكشف هذه الأسرار!

في الآونة الأخيرة، كانت أمّي الحنون كلّ صباح إذا خرجتُ إلى المدرسة الملحقة بالكنيسة، تودّعني بدموعها الحارة، وتحضنني، ثمّ تتركني لأذهب ثمّ تسرع إلي فتعود لاحتضاني بشدة، ثمّ تودعني، تكرر ذلك مراتٍ كأنني مسافرٌ، ثمّ تراقبني وهي على باب دارنا أو من النافذة بعينيها الحانية حتى أغيب عن مرآها، ثمّ تترقّب ساعة حضوري عندما تسمع الأجراس، فإذا عدتُ استقبلتني بلهفة واشتياق وعانقتني.

فلا أزال أشعر بسخونة دمعِها على خدي، لماذا تخافين عليَّ! أهكذا كلّ الأمهات في حنان أمّي ورقَّتها، يحبون أبناءهم بجنون!

فإذا عدتُ في العشيِّ من مدرستي، استقبلتني بلهفة، الأمرُ الذي جعلني حائرًا مذهولًا، شاردًا عما حولي، ولا أسمع صوتَ أجراس المدرسة، حتى يغضب المعلم فيأتيني ويفركُ أذني بشدة، أو يضربني بعصاه.

أمّا القسُّ فكان يعاملني بجفاءٍ ليس كما يعامل غيري، مع تفوقي وهدوئي، وامتثالي لأوامره! رغم جمال صوتي عندما أترنّم بالإنجيل وأنشد من المزامير.

غربة في البيت، وغربة في المدرسة، وغربة في الكنيسة.

وكيف أنسى حينَ اكتشفت أمّي أنها حاملٌ، فانفجرت بالبكاء، وفي المساء عندما عاد أبي استقبلتُه بالخبر، ظننت أنه سيفرح، كنّا بحاجة لفرحة، لكنه استقبل الخبر بذهولٍ، وبقي صامتًا لم ينبسْ بشفة، ثمّ اقترب من أمّي واحتضنها وأخذ يعزِّيها، نعم يعزيها بهذا الخبر الذي يستقبله الناس بالفرحة والبهجة والتهاني!

ومرّت الشهور، وكلّما اقترب موعدُ الوضع زاد اكتئاب أمّي واشتد حزنها! واعتراها شحوب وضعف.

فلمّا كان اليوم المرتقب، وحلّت ساعةُ المخاض بالآلام والزفرات التي هزت قلبي الصغير، ثمّ وضعت أمّي أخًا لي، وكنتُ قريبًا منها، فرحتُ فرحةً غامرةً، وانطلقتُ أسابق الريح إلى دكان أبي أبشِّره، فقابل الخبرَ على غير ما توقعتُ، بحالةٍ من الذهول، ورأيتُ في وجهه سحابةً من الكآبة، ثمّ طفرت دمعةٌ من عينه فسالت على خدِّه، لكنه احتضنني بشدة وأمطرني بالقبلات، حتى ابتلّ وجهي بدموعه، ثمّ أرسلني، فعدتُ للمنزل حائرًا متثاقلًا.

وعند الباب وقفت عربةٌ سوداء كئيبة يجرّها حصان، إنني أعرفها، إنها عربة القس، وها هو ينزلُ منها، رحّبتُ به، وفطنتُ أنه جاء لتعميدِ أخي الصغير، طلب الدخول على أمي، فأدخلتُه، بعد أن أعلمتُها، فامتقع لونُها حين أبصرته.

فلمّا اقترب من فراشها، قرأتُ في وجهها عدمَ الراحة من هذا الزائر، ثمّ مد يديه وتناول الطفل، وعينا أمّي مثبتةٌ في الحائط المقابل لها، لا ترفع بصرها إلى القس الذي بدأ مراسم التعميد، غمس أخي في الماء البارد ثلاثَ مرات، وهو يصرخ، قرأ عليه آيات من الإنجيل رسم شارة الصليب على وجهه، والتفت إلى مَن في الغرفة كأنه ينتظر الاستجابة والامتثال لما يقوم به من مراسم كهنوتية، فلم يجد إلّا ذهولًا من الحاضرات، صرخ فيهن، فقمنَ في الحال برسم شارة الصليب على جباههنّ وصدورهن، مع تمتمة غير مفهومة، وما إنْ غادر القس المنزل، حتى سارعت أختي بغلقِ الباب خلفه، ثمّ أسرعت إلى الحوض الرخامي وغسلت بالماء الدافئ أخي.

لم أجد تفسيرًا لما رأيتُ!

وفي السادسة من عمري، حدث ما لم يخطر لي ببال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -2-

دخل أبي ذاتَ ليلة البيت، لفت نظري ابتسامته التي ارتسمت على محياه، قدمت أمي العشاء، جلسنا على الخوان، دار حديثٌ هادئٌ بينهما، بينما انشغلتُ بالطعام، نظرتُ في وجه أبي فوجدته مشرقًا وضّاءً، أنهى العشاء ثمّ نهض لغرفته السرية، لكنه هذه المرة دعاني للدخول معه، فكادَ قلبي يطير من الفرحة، واختلطت مشاعر الرغبة لاكتشاف هذا المجهول برهبةٍ لا أعرف سببها، لكنّ مشاعر الفرح غلبتني، فلطالما تشوّقت لمعرفة ما بداخل تلك الغرفة من أسرار، دخلنا وأحكمَ أبي إغلاقَ الباب برتاجٍ خشبيٍّ، وضع السراج على منضدةٍ خشبيةٍ، لحظات من الصمت مرّت ببطء، ليس في الغرفة سوانا، رفعت بصري ونظرت لوجه أبي، وقد انعكس النورُ على وجهه الناصع، هاأنذا في تلك الغرفة التي لم يكن يسمح لي بدخولها، تلفتُّ حولي بدافع الفضول فرأيتُها خاليةً، ليس فيها شيء مما كنت أتوقّع رؤيته من العجائب، جال بصري يمنة ويسرة في أرجاء الغرفة، أبحثُ عن خزانة الأسرار التي كنتُ أتخيّلُها، أو الصندوق العتيق، فلم أعثر على أيِّ شيء، ولم أبصر سوى بساطٍ عتيق، وكتابٍ قديمٍ موضوعٍ على رفٍّ خشبيٍّ، وسيفٍ معلق له مقبضٌ نحاسيٌّ، موشّى برسومٍ جميلة، وكتابات بخطٍّ لا أعرفه، لكن كنت أراه منحوتًا على بعض أبواب المدينة الخشبية، أو محفورًا على بعض شواهد القبور التي كنت أمر بها في طريقي بين المدرسة والبيت.

ولوحة رخامية في الجدار مكتوبٌ فيها بذلك الخط.

أجلسني أبي- رحمه الله- على البساط، ولبث صامتًا ينظر إليّ نظرات غريبة، فاجتمعت عليَّ رهبة المكان، ورهبة الصمت، ورهبة الانقطاع عن العالم.

نظر إليَّ أبي وأخذ يديَّ بين يديه بحنوٍّ وعطف، وقال لي بصوتٍ خافت: يا بنيّ، حان الوقت! إنّك الآن في السادسة من عمرك.. وإني سأطلعك على السرّ الذي طالما كتمْتُه عنك.. فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك، وتحبسه عن أقرب الناس لك؟

- ولماذا يا أبي أحتفظُ بهذا السر؟ ما الخطورة في ذلك؟

- إنّك إن أفصحتَ عن هذا السرِّ أو ألمحتَ له؛ ستعرّض أباك للعذاب الشديد من زبانية ديوان التفتيش.

ارتعدت فرائصي حين سمعتُ اسم ديوان التفتيش.. ومَن الذي لا يسمع عن محاكم التفتيش، حيث مواكب الزفاف إلى ساحة الحرق، والأحكام التي كانت تتلى على مسمع الناس في مجامعهم وأسواقهم، وكذلك في الكنيسة أيام الآحاد، حيث الحكم بالقتل والتغريم ومصادرة المال لكلّ مَن تثبت هرطقته. أو تسوّل له نفسه مخالفة تعاليم الإنجيل!

قال لي أبي: أجبني يا بني، ما لي أراك شاردًا!

- نعم يا أبي.

- احفظ عني ما سأقوله لك، ولا تخبر به أحدًا حتى أقرب الناس إليك؛ أمّك، أختك، عمّك!

فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرفّ وقال: أتعرف هذا الكتاب يا بنيّ! فقمت إليه ولمسته بيدي وحملته، وشعرت برهبةٍ وجلال عظيم، فتحت أوّل صفحاته، فلفت نظري خطه الجميل.

- يا بني، هذا كتاب الله.

- الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع الرب!

نظر إليّ بحدّة وقال: كلا، هذا هو القرآن الذي أنزله الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، على أفضل مخلوقاته، وسيد أنبيائه، نبيه محمد بن عبد الله.. النبي العربي صلى الله عليه وسلم.

هذا آخرُ الكتب المنزلة، ومسك ختامها، جاء مصدّقًا بها، مشتملًا على ما فيها من الإيمان الصحيح، والفضائل والوصايا والحكم.

- هل يشبه إنجيل يوحنا ومتى؟

- لا يا بني ، لكنه يشبه الإنجيل الحقيقي.

فنظرت إليه، وقلت مندهشًا:

- والإنجيل الذي أتعلمه، أليس هو الإنجيلُ الحقيقي!؟

- مهلًا يا بنيّ، الإنجيل الذي تقرؤه ليس هو الإنجيل الأصلي الذي نزل على نبي الله عيسى عليه السلام، بل هو منسوب إلى بعض تلاميذ الحواريين كتبوه بأيديهم!

- ولماذا لا يعلمونا في المدرسة والكنيسة الإنجيل الحقيقي؟

- لأنه لا وجودَ له الآن!

- لا وجود له الآن!

- نعم يا بني.

- فكيف نعبد الله إذًا؟ وأين الإنجيل الحق؟

- القرآن يا بنيّ، هذا الكتاب الذي بين يديك، أنزله الله على النبي العربي، وجعله رسالة للعالمين وهو يغنينا عن الإنجيل المفقود.

القرآن! كتاب الله! نزل على النبيِّ العربي! أخذت أقلبُه بين يديَّ، وأُقلِّبُ صفحاتِه، وأتأمّل جمال خطِّه، كم أتمنى أن أقرأه! وكم أرجو أن أحسن فهمه، لأقف على معانيه يا أبتاه! ولكن كيف يا أبي أتعلم لغته؟

ابتسم والدي، ونظر إلي بحنانٍ واحتضنني وقبلني بين عينيِّ، وانفجر بالبكاء، حتى ابتلت ثيابي بدموعه المنهمرة، ثم قال أبشر سأعلمك يا بني، سأعلمك كيف تتكلم العربية؟ وكيف تفهم القرآن رسالة الله الخاتمة.

- وكيف أبصرت الحقيقة يا أبي؟

- تعلّمتُها من آبائي وأجدادي.

- هذا يعني أنهم.. أنهم ...

- مسلمون. نعم يا بني، أجدادنا الأوائل جاءوا من جزيرة العرب واليمن والشام، ومعهم البربر، وحملوا راية الإسلام لبلاد الأندلس، عندما فتحوها نشروا العدل والتسامح في ربوعها، وشيّدوا المساجد والبيوت والمدن والجسور والقلاع والأسوار، حفروا القنوات واستصلحوا الأراضي، وغرسوا البساتين، فكانت الأندلس جنةً أرضية، في ازدهارها ورخائها وتحضُّرها ونهضتها، إلى أن تربّص بها الأعداء واستغلّوا ما حل بالأمراء من فرقة وتمزّق، فأداروا علينا الدوائر، وأضرموا الفتن وحاكوا المؤامرات، حتى انقسمت

مملكتنا الأندلسية إلى دويلات صغيرة وممالك متناحرة، سرعان ما تصارعَ حكامُها، وقاتل بعضهم بعضًا فأنهكوا قواهم، واستنفدوا طاقتهم واستنزف العدو ثرواتهم بحجة حمايتهم! حتى سحب في النهاية البساط من تحت أرجلهم، بعدما خططوا لذلك فاستقدموا الفرسان والصعاليك من أرجاء أوروبا، ودارت رحى المعارك التي كانت تنتهي بانتصاراتهم واتساع رقعة مملكتهم، حتى سقوط مدينة غرناطة آخر معاقلنا، ثمّ سرعان ما أجبرونا على الدخول في دينهم وترك ديننا الحنيف ملة أبي الأنبياء إبراهيم، ودعوة نبي الله موسى وبشارة نبي الله عيسى.

لم أملك لساني من الدهشة والعجب، والفخر في نفس الوقت، وصحت به بصوتي الطفولي: ماذا..؟ نحن..؟ العرب المسلمين..؟

قال: نعم يا بني.

- لكن اسمي يا أبي.. وكذلك اسمك الذي ينادونك به!

- أنت اسمك الحقيقي يا بني ليس خوسيه!

- ماذا يا أبي! فما اسمي إذًا؟

- أنت محمد عبد الرفيع يا خوسيه! آهٍ أعني يا محمد، من الآن فصاعدًا سأناديك بهذا الاسم.

- محمد، محمد.. يا له من اسمٍ عذبٍ جميل!

طفرتْ دمعةٌ من عيني انحدرت إلى خدي، كم كانت بهجتي وسروري باسمي القديم، الذي لم أعرفه سوى الآن، والذي أخفاه أبي، وأمي، رغم أنه اسمي منذ ولادتي! لكنني التمست لهم العذر. نحن العرب جئنا من بلاد الشام واليمن ومصر والحجاز ونجد مع إخواننا البربر فاتحين ظافرين، بنينا حضارة، وأوقدنا مشاعل النور والهدى. بقدر فرحتي بانتسابي إلى هؤلاء الأبطال المغاوير، الفاتحين الشجعان، كان فرحي بأنني لا أنتمي لهؤلاء النصارى المتعصبين.. هكذا يا أبتِ دخل أجدادنا الأوائل هذه البلاد مخلصين لديننا، مفعمين بحب الخير!

- نعم يا بني، وما تراه الآن من الكنائس تدقّ الأجراس وتعلق عليها الصلبان، كانت بالأمس القريب مساجد يُذكر فيها اسم الله، وينادى على مآذنها للصلاة، ويقف العلماء على منابرها، حتى سلّم آخر ملوك غرناطة المفاتيح للنصارى، بعد أن حاصروها أشد الحصار ودكُّوا الأسوار ورموا البيوت بالمنجنيق، وحرقوا المحاصيل في الحقول، ثمّ في النهاية دخلوها، ولكنهم سرعان ما حوّلوا المساجد التي كان يُذكرُ فيها الله ويُرفعُ فيها اسمه إلى كنائس وجعلوا من محاريبها ما يسمونه المذبح والهيكل، وطمسوا الآيات التي كانت منقوشة فِي

الجدران وجعلوا مكانها رسومًا جدارية، وتماثيل وصلبان لما يزعمون أنها للمسيح ومريم العذراء! كما نصبوا النواقيس على المنارات التي كانت تصدح بالأذان. أكرهونا ويا للأسى على ترك ديننا، وانتزعوا منا أطفالنا كما ترى لتربيتهم على دينهم. أجبرونا على دخول الكنائس أيام الآحاد، وحضور القداس، وسماع الموعظة، ونحن كارهون مُرغمون، لا نملك إلّا أن نطأطئ رؤوسنا نتظاهر بالتسليم، ونتمتم لنشعرهم بأننا نشاركهم الترانيم.

تحرك دمُ آبائي وأجدادي في عروقي، فقلت بحماسةٍ: وتركتم هؤلاء يفعلون ما يشاؤون؟

- كلّا يا بني. فلقد قاومنا كثيرًا وأشعلنا الثورات، وحاربناهم، لكنهم كانوا ينتصرون علينا في نهاية الأمر بكثرة عددهم وعتادهم وخيلهم وفرسانهم ومددهم، مع قلتنا وقلة عتادنا! وفقداننا النصير! سنوات طوالٌ يا بني، ونحن صابرون على هذا العذاب الذي لا تحتمله جلاميد الصخر، ننتظر فرج الله، لا نيأس لأن اليأس لا مكان له في ديننا.

تبسّم والدي ابتسامة وضيئة، وقال وقد أخذ بيدي: هذا هو السرُّ الذي أخفيتُه عنك يا بني فاكْتمه، فاعذرني لأنني تركتُك حائرًا منذ وعيتَ، متحيّنًا الوقت المناسب لحمل هذا السرّ، واليوم أفضيه إليك حتى أتمكن من تعليمك لغة قومنا وشعائر ديننا، فإياك أن تفشي سرّنا، فجنود محاكم التفتيش لهم عيون وآذان، في كلّ مكان.

فانشرح صدري، وسكنَ قلبي، ونظرت لأبي مبتسمًا واحتضنته، وقد أُجهشت بالبكاء، إنها دموعُ الفرح والسرور لمعرفتي بذلك السرّ الجميل، وذلك اللغز الحائر.

ثمّ كان درسنا الأوّل تعلم الفاتحة والوضوء والصلاة مع حروف الهجاء، على لوح أملس من خشب الجوز، يقول رحمه الله: «... أطلعني الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدي رحمة الله عليه، وأنا ابنُ ستة أعوام وأقلّ، مع أني كنت إذ ذاك أروح لمكتب النصارى لأقرأ دينهم، ثمّ أرجع إلى بيتي، فيعلّمني والدي دين الإسلام، فكنت أتعلم فيهما معًا، وسني حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام، فأخذ والدي لوحًا من عود الجوز كأني أنظر الآن إليه، فكتب لي أبي حروف الهجاء وهو يسألني عن حروف النصارى حرفًا حرفًا تدريبًا وتقريبًا، فإذا سميت له حرفًا أعجميًّا يكتب لي ما يقابله أو يقاربه باللسان العربي، حتى استوفى جميع حروف الهجاء، وأوصاني أن أكتمَ ذلك حتى عن والدتي وعمي وعمتي وأختي، فإنّ عاقبة هذا الأمر القتلُ ومصادرة الأموال، ومازال يعلمني النطق بها وطريقة كتابتها، حتى أتقنت ذلك وبرعت فيه.

عندما فرغنا من الدرس الأول، وخلدت إلى فراشي، بقيت ساهرًا، لا يغمض لي جفن، من الفرحة والسرور، فكم كانت سعادتي لا توصَف! فلقد عرفت الجواب عن تساؤلاتٍ لطالما حيَّرتني، وشكوك وهواجس استبدَّت بي وأعيتني! فضلًا عن راحتي لهذا الدين السمح، وشعوري في تلك الليلة أنني ولدتُ من جديد، وسعادتي التي وجدتُها في الصلاة وتعلُّم القرآن، وما وجدتُ فيه من أجوبة عن أسئلتي الحائرة، فلطالما كان القسيس يزجرني عندما أسأله، ويتهرب من الجواب.

حفظتُ الفاتحة، وقل هو الله أحد. عرفتُ التوحيد، والإخلاص لله الحق. وتذوقتُ حلاوة الإيمان الذي تجاوبَ منسجمًا مع فطرتي النقية.

عرفت القصةَ الحقيقية لمريم، ونبي الله عيسى عليه السلام.

زادَ حبي للسيدة مريم، والسيد المسيح، بل انقلب إلى حبٍّ حقيقيٍّ.

كنت أتشوّق لتلك اللحظات التي يصحبني فيها أبي لمخدعنا، نصلي ونتعلم.

أصبحتُ أسيرُ في شوارع مُرسِيَة تلك المدينة الجميلة، وكلي فخرٌ وتيه بما أراه من بنايات شيَّدها أجدادي! أنظرُ إلى المساجد التي تحوّلت لكنائس، أتأمل القصور الأنيقة والأبراج المشيدة ترتفعُ بطرازها العربي.

لشدّما كان زهوي واعتزازي بحضارة آبائي وأجدادي، وحنيني لأمجادهم ومآثرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -3-

كان خوف أبي من أن أزلّ فأفشي السرّ لا يفارقه أبدًا.

فكان يمتحنني فيدسُّ أمي إليَّ فتسألني: ماذا يعلّمك أبوك؟ أخبرني؟ ماذا تفعلان في تلك الغرفة المظلمة! أجبني. فأقول: لا شيء. فتبتسم وتقول: إنّ عندي نبأ ما يفعله أبوك، فلا تكتمه عني.

فأقول: لا شيء يا أمّي، لا شيء، إنه لا يعلمني قط.

وكذلك كان يفعل عمّي وأنا أنكر أشدّ الإنكار، ثمّ أروح إلى مكتب النصارى وآتي إلى الدار، فيعلمني إلى أن مضت مدّة، فأرسل إليَّ من إخوانه في الله وخاصة أصدقائه ليسألني، فلم أقر لأحد قط بشيء، حتى أتقنتُ العربية، وفهمت القرآن، وعرفت قواعد الدين، فعرّفني بأخٍ له في الله، نجتمع ثلاثتنا سرًّا على العبادة وتلاوة القرآن.

كنت أشكو له ضيقَ صدري من مشاهدة الثالوث في المدرسة والكنيسة فكان رحمه الله تعالى يلقنني حينئذٍ ما يناسب أن أقوله عند رؤيتي للأصنام، يقول لي: «إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت الأصنام، فاقرأ في نفسك سرًّا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)[الحج: 73] وسورة (قُل يَأيُها الكَافِرونَ), (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا- بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)[النساء: 157، 158] ، وغير ذلك من الآيات الكريمة». فلمّا تحقّق والدي، رحمه الله تعالى، أني أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب، فضلًا عن الأجانب، أمرني أن أتكلّم بإفشائه لوالدتي وعمِّي وبعض أصحابه المقربين، وكانوا يأتون إلى بيتنا، متسللين في جنح الظلام، فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع، وتقدم أمي لهم الثريد، وعليه لحم الضأن، مع الإدام، زيت الزيتون، ثمّ إذا فرغوا ينسلّون فرادى من البيت لئلّا يشعر باجتماعهم أحدٌ، فالعيون في كلّ مكان، والويل لمن يُكتشَفُ بقاؤه على دين الإسلام.

رأى أبي حزمي مع صغرِ سني وتحمُّسي لدين الحقِّ ففرح كثيرًا، وعرّفني بأصدقائه وأحبائه وإخوانه في دين الإسلام، فاجتمعت بهم واحدًا واحدًا، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان، إلى غرناطة وإلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس الجميلة، أعادها الله تعالى للإسلام، ما أجمل الرابطة الإيمانية التي توحدنا وتضمُّنا! وما أحلى الحب في الله الذي يعمُّنا ويغمرُنا، والتآخي والتزاور بالله.. ولله! والاجتماع على القرآن والسنة. ثمّ اشتدت بعدَ ذلك قسوة ديوان التفتيش، وزادوا في تنكيلهم، فلم يكنْ يمضي يوم إلّا ونرى فيه مصلوبًا، أو مُحرّقًا بالنار حيًّا، أو معذّبًا أشدّ صنوف العذاب.

واستمرّ ذلك مدة طويلة، فقال لي أبي ذات يوم: يا بني، إني أحسُّ كأن أجلي قد دنا، وإني لأهوى الشّهادة في سبيل الله، ولم يبق لي مأرب في الدنيا، وقد حمَّلتك الأمانة الكبرى، فإذا أصابني أمر فأطِعْ عمّك هذا ولا تخالفْه في شيء. ومضت أيامٌ قلائل، وكانت ليلة لا تنسى، عندما جاء عمّي هذا يدعوني أن أذهب معه، فقد يسّر الله لنا سبيل الذهاب إلى المغرب بلد المسلمين، قلت له: وأبي وأمي؟ فجذبني من يدي، وقال لي: ألم يأمرك أبوك بطاعتي؟ فمضيتُ معه، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة، ورأى حزني، قال لي: اصبر يا بُنيّ، فالصبرُ على فراق الدنيا، أهونُ من الصبر على فراق وخسران الآخرة. (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ

اللَّهَ أعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15)) [الزمر: ١١ - ١٥ ].

خلُص الغلام إلى برّ المغرب، واستقرّ في تونس الخضراء، حيث يجاهرُ بدينه، دون خوف.

أتدرون مَن هو؟ إنّه الفقيه المصنّف سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي، نفع الله به وبتصانيفه.

وبهذا انتهت فصولُ هذه المأساة التي تفضح عصبة السوء وقطاع الطرق المتشحين بأردية الرهبان.

كادت هذه القصة المؤثرة تطوَى وتندثر، لوْلا أنّ صاحبها الإمام الفقيه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المرسي الشريف الحسني، نزيل تونس سنة 1013هـ؛ عانى في مقامه بتونس من لمزِ وغمزِ بعض الجهلة والمتعصبين وتشكيكٍ في نواياهم، فذكر هذه القصة في ذيل كتاب له يسمّى "الأنوار النبوية في آباء خير البرية" في ذكر نسب سيد أهل الأرض والسماوات، مع تعريفات ببعض رجال هذا النسب الشريف. وتوفي رحمه الله عام 1052هـ. أمّا مَن بقي بالأندلس فقد صمدوا صمودًا أعيا النصارى، بل ونجح كبارهم في مراسلة السلطان العثماني لِيَنْصُرَهم، فدارت بينهم وبينه مراسلات سرية، ثمّ إن كبار القساوسة اجتمعوا مع الملك الصليبي واعترفوا بفشلهم في التنصير القسري، ذلك أن المسلمين مصرّون على دينهم، وأن محاكم التفتيش مع حديدها ونيرانها وسياطها وجلاديها وجبروتها لم تغيِّر من عقيدتهم، واعترف عدو الله الملك الصليبي بأنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم، وأنهم متمسكون كلهم به، رغم أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين، ثمّ وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم علامات المسلمين وأماراتهم، وأمر بإخراجهم من الأندلس بعد الفشل الذريع في تنصيرهم القسري، فخرجوا سنة 1013هـ، بلغ عدد من خرج مئات الألوف، فكانت هذه الواقعة منقبةً عظيمةً وملحمةً عجيبة للإسلام في الأندلس.

كان سببُ إيراده لتلك القصة في هذا الكتاب، ما رآه من غمز بعض أهل تونس للمهاجرين من بلاد الأندلس، وسخريتهم من لهجتهم التي يتكلمون بها، بل وقدحهم في إيمانهم، والتشكيك في عقيدتهم، وإلقاء اللوم عليهم، وتحميلهم ذنب سقوط الأندلس، فكتب هذه القصة العجيبة التي تدل على مآثر أهل الأندلس وصمودهم وصبرهم ([100]).

وقد قيل:

وإذا أرادَ اللهُ نشْـــرَ فضيلةٍ

طُوِيَت أتاحَ لها لِسانَ حسودِ

"صدق والله وأحسن! كم من فضيلة لو لم تستَتِرْها المحاسد لم تبرحْ في الصدور كامنة، ومنقبةٍ لو لم تُزْعِجْها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة! لكنها برزتْ فتناولتْها ألسنُ الحسَّد تجلوها، وهي تظن أنها تمحوها، وتشهَرُها وهي تحاول أن تستُرَها".

الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره (ص: 2)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## -61-

# الهجرةُ إلى الجنوب

# رحلة أحمد الحجري، الشهير بـ «أفوقاي»

في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول عام 897 هـ، الموافق للثاني من يناير 1492م، قام أبو عبد الله محمد الصغير ملكُ غرناطة بتسليم مفاتيحها إلى الطاغية فرديناند وزوجته إيزابيلا، بعد حصار خانق دامَ تسعة أشهر، اضطُرَّ فيها المسلمون إلى أكل لحم الخيل وأوراق الشجر، وغيرها، وأكلوا ما تعافه النّفس في ذلك الحصار، الذي صاحبه رميٌ بالمدافع والمنجنيق لكرات اللهب والزيت المغلي والنفط، مما ألجأ حاكم غرناطة على قبول الصلح والتسليم.

وظنّ الرهبان أن المسلمين سيتخلون عن دينهم تدريجيًّا مع مرور الوقت، فبدأت حملات التنصير بالإغراء والمساومات أولًا، لكنها لم تحقق نجاحًا يذكرْ، فكان لجوء النصارى إلى فرض التنصير القسري بعد مرور سبع سنوات على معاهدة التسليم التي ضمنت للمسلمين حرية ممارسة شعائر دينهم، وشنَّ الرهبان حربًا على الإسلام، وعلى لغة القرآن، وقاموا بإحراق آلاف المخطوطات، وتحريم الحديث باللغة العربية والكتابة بها، وحظر حمل أو اقتناء أيِّ كتاب عربي، ومن خالف عوقب بالإحراق بعد التعذيب الجسدي الرهيب على أيدي فرق محاكم التفتيش، وفرقة "الحراقون" كما كان يُطلق عليهم، مما ألجأ المسلمين المتمسكين بدينهم إلى تعليم أطفالهم سرًّا في بيوتهم داخل الغرف المغلقة، وفي الأقبية؛ لتوريث الدين ونقله إلى الأبناء الذين فرض عليهم تعلُّم الإنجيل، والصلاة في الكنيسة أيام الآحاد، وفي الأعياد، فكانت حياة مزدوجة محفوفة بالمخاطر، حياة التنصُّر في الظاهر، وحياة إسلامية خفيّة بين جدران البيوت.

وكان من بين الذين منَّ اللهُ عليهم بتعلم العربية والتفقُّه في الدين، فتى نشأ وترعرع على دين الإسلام في قرية نائية، ثمّ انتقل إلى غرناطة، وكان متفقهًا في الدين، متقنًا للعربية التي تعلمها في السرِّ على يد والديه، وبعض المعلِّمين في قريته وما حولها.

كان الكلام بالعربية محرّمًا في معظم بلاد الأندلس، لكن الرهبان استثنوا بعض المتقنين لها لحاجتهم إليهم في ترجمة الكتب والرسائل، سيّما واللغة العربية لا تزال لغة العلوم، ومنها ترجمت مئات الكتب إلى اللغات الأوروبية، كتب الطب والفلك والرياضيات، والهندسة والزراعة والصيدلة والبيطرة والجغرافيا، والتاريخ والأدب، وعلى تراثنا المترجم نهضت أوروبا، التي عاشت

عصورها المظلمة، بينما المسلمون في رقيٍّ وتحضر وازدهار في كافة حواضر الإسلام، سيَّما في بلاد الأندلس قرطبة وإشبيلية وغيرهما.

ذات يوم، يشهد الفتى أحمد الحجري حلقة علمية لترجمة مخطوط قديم كتب بالعربية، ينسب لأحد المسيحيين الأوائل، اهتمّ الرهبان بترجمته من العربية إلى اللغة الإسبانية، فتوقف المترجمون عند بعض الكلمات العربية غير المفهومة، وكان الكاتب يعتمد على الإلغاز، لما أودعه في كتابه من أسرارٍ، تنتظر مَن يفكّ طلاسمها، ليقفَ على الحقائق، فصوّب الحجري بعض الأخطاء، ووضح بعض الكلمات الغامضة، وفكّ بعض الألغاز، مما لفت نظر كبير الرهبان، فضمَّه في الحال لفريق الترجمة، بل صار المترجم الأول بعد وقتٍ قصيرٍ، مع حداثة سنِّه.

ولما سأله القسيس أين تعلمت العربية، كان من الفطانة والحذر في جوابه، فلم يكشف سرّه، وقال له القسّ: إن الحبرَ الكبير قد أمر أن تمضي معي إلى حضرته.

قال أحمد: فقلت في نفسي.. كيف الخلاص والنصارى تقتل وتحرق كلّ مَن يجدون عنده كتابًا عربيًّا، ويعرفون أنّه يقرأ بالعربية؟ فماذا أصنع؟ وكيف أخلُص منهم! سيّما وأنا شابٌّ، سيسألني كيف تعلمت العربية؟ ومَن الذي صرّح لك بتعلمها؟ ومن علّمك؟ بخلاف المترجمين الكبار، فإنهم يُعذرون بكونهم تعلّموها من زمنٍ بعيدٍ قبل الحظر، فليسوا موضع اتهامٍ؛ إذ يستعذرون بأنهم تعلموا القراءة العربية في صغرهم، بقرب عهد الإسلام، فماذا أقول أنا إذا سألني هذا القس: مَن علمني؟. فمضيت طول الطريق أفكر، وأثبِّت قلبي بالذكر والدعاء.

حتى دخلنا إلى حضرته، فأقبلَ علينا وقال لي: ذكر لي القسيس أنّك تحسن القراءة العربية؟ فقلت: لستُ من الضالعين فيها.

قال: أين تعلمت؟

قلت: اعلم أيّها السيد أنّني أندلسي من «الحجر الأحمر»، وكلامنا فيها بالعربية، ثمّ تعلمت نقرًا بالعجمية، ثمّ مشيت إلى مجريط «مدريد» بلد السلطان، فوجدت فيها رجلًا طبيبًا أندلسيًّا من بلاد بلنسية، اسمه فلان، وعلّمني نقرًا بالعربية، فكان أمرًا يسيرًا سهلًا لكوني عربيًّا في الأصل.

قال: وأين معلمك الطبيب؟ قلت: مات- رحمه الله قبل هذا العهد بنحو السنتين أو ثلاثة.

والذي حملني على هذه الكذبة، أن لا أكشف سرّ تعلمي للعربية، أمّا ادعائي بأن طبيبًا بلنسيًّا علّمني؛ فلأنّ أهل بلنسية لم يكن محظور عليهم تعلّم

العربية، ما لم يستغلوها في قراءة كتب الشريعة، بينما كان الحديثُ بالعربية محرّمًا على سائر أهل بلاد الأندلس، فلجأتُ للكذب لأنجو من شرِّهم، وكنتُ قرأتُ للإمام أبي حامد الغزالي في كتاب الإحياء: إن جاز عليك إنسانٌ من أهل الخير، ثمّ جاء في طلبه رجل ظالم سائلًا عنه ليضرّه فقل له: مشى من تلك النّاحيّة بعكس سيره، لينجو المطلوبُ من ظلم طالبِه، وأن الكذب في مثل هنا جائز، بل مندوب إليه مع أنّ الإرشاد واجب ([101]).

وكان بنو قومي يتهرَّبون مني، ويقولون إنه يتكلم العربية، لا بدّ وأن يأخذه الحرَّاقون ليحرقوه يومًا، فيتنصَّلون مني، ويتهرَّبون، فإذا وجدتُهم في مكان ووقفتُ أكلمهم انْسلوا واحدًا تلو الآخر، فلما فتح الله عليَّ، وصارت لي منزلة بين القوم، ورخصةٌ للكلام بالعربية، قصدتُهم وبيدي الكتبُ العربية، ليروا ما أنا فيه من نعمة الله وفضله، إذ أبدل الله خوفي أمنًا، وصبري وثباتي عزة وكرامة.

ولما أردتُ القدوم إلى مدينة إشبيلية لأسافر إلى بلاد المغرب، ذهبتُ إلى القسيس وقلتُ له: إني عزمتُ على القدوم إلى بلدي، وإنّ أبي كتب لي أن أحضر إليه، وطاعة الوالدين واجبة! قال لي: في بعض المسائل هي واجبة، وفي بعضها لا تجب.

قلتُ: لا بدّ لي من القدوم. فأذعن لي وأعطاني مكافأة على عملي معه، وانطلقتُ إلى إشبيلية، وهدفي أن أهاجر لبلاد الإسلام فرارًا بديني، كما أوصاني أبي رحمه الله.

وفي ذلك الوقت، كانت الحواضر المغربية التي تطل على البحر المتوسط من ناحية الأندلس، يسيطرُ النصارى على سواحلها، فضلًا عن قبضتهم الشديدة على الجنوب الأندلسي، الأمر الذي جعل فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام مغامرةً محفوفةً بالمخاطر، وبلغ النصارى في تلك الأطراف من الحرص والبحث في شأنِ كلّ مَن يردُ عليهم من الغرباء، وإحكام الرقابة عليهم؛ لئلّا يذهبَ أحدٌ، أو يجوزُ عليهم إلى بلاد المسلمين؛ فكان الرحيل إلى بلاد المسلمين من الصعوبة بمكان، بل كان مخاطرة بالنفس، حتى باتت الأندلس سجنًا للمسلمين محاطًا بسياج لا يستطيع أحدٌ الفكاكَ منه. وكانت المرافئ كلها تحت مراقبة النصارى الأسبان، ومَن استطاع ركوب البحر لا يأمن على نفسه، فربما أضحى صيدًا سهلًا للقراصنة التي تسلبه الأموال، وتسبي النساء والأطفال.

ومن العجيب أنّ بعض المهاجرين سلك الطريق العكسي شمالًا عبر جبال البرانس بطرقها الوعرة، ودروبها الصعبة، ومرتفعاتها ومنحدراتها الخطيرة،

ليركب من مرسيليا أو أراغون إلى الشواطئ المغربية، وربما يخلص إلى الدولة العثمانية، في رحلة محفوفة بالأخطار والمعاناة.

لذا لم يكنْ أمام الموركسي أحمد الحجري «أفوقاي» إلّا أن يضع خُطة للهرب، وهكذا قادته هذه الخطة إلى أن يتجه من غرناطة شرقًا إلى إشبيلية غربًا، ومنها اتجه إلى ميناء «سانتا ماريا» على السواحل البرتغالية، خلافًا للطريق المألوف من غرناطة إلى مالقة أو بلنسية أو غيرها من الموانئ القريبة، التي كان يسهل على السلطات الإسبانية أن تعتقل فيها من تشكّ فيه من المورسكيين.

قال الحجري: «وهمّني الأمر كثيرا في كيفية الخروج من بينهم، وركبت البحر في بلد يسمى «شنت مريا» شنتمرية puerto de Santa Maria ميناء في غرب الأندلس، وكان لي صاحب من بلدي من أهل الخير والدين، ومشى معي مهاجرًا إلى الله وبلاد الإسلام مهيئًا نفسه لهذه الرحلة.

وأهل السفينة لم يساورهم الشكُّ فينا، بل أيقنوا بأننا منهم، فنحن نتكلم بلغتهم، ونلبس كما يلبسون، ونتظاهر بالمسيحية، ونمارس العادات والتقاليد التي يمارسونها.

فقطعنا البحر في يومين ونزلنا في الشواطئ المغربية، على بلد يسمى بالبريجة، «الجديدة» هو للنصارى وليس بينه وبين مدينة مراكش إلّا نحو الثلاثة أيام سيرًا على الأقدام، وكان الأسبان والبرتغاليون قد احتلّوا أجزاء من أطراف المغرب، ليتحكموا في تلك السواحل، ويمنعوا هجرة الأندلسيين، كما يمنعوا أي محاولة مغربية لاستعادة الأندلس.

تأمّل صاحبُنا في بنيان سورها، فتعجّب من التحصين المنيع، حيث كان أساسه على حجر صلد، وسقفه ثلاثة عشر ذراعًا، ولا يبالي بكور المدافع من إتقانه وغلظه، حتى شاهدت ثلاثة من الفرسان بخيلهم يركضون على السور متجاورين، لا يخافون الوقوع منه!

ولما أن دخلنا سألَنا القبطان: ما سببُ قدومكم؟ قلتُ له: وقع لنا شيء من التغيير مع أناس ببلاد الأندلس، وجئنا إلى حرمتكم. قال: مرحبًا بكم.

قلتُ: أيُّها القبطان، أحبُّ منك أن تأذن لنا في رجوعنا إلى بلادنا متى أردنا ذلك. قال: أذنت لكما.

وكان غرضي في كلام القبطان وتلويحي بعودتنا للأندلس، أن لا نثير الشكّ فيه، فيفطن أننا جئنا فرارًا إلى بلاد المسلمين، ونزلنا عندهم، وأصبحنا نجاريهم، ونذهب للكنيسة في أيام الآحاد، واشتريت حصانًا من أجود الخيل،

وصرت من فرسانهم، وكنت أرغب في شراء آخر لصاحبي، لكن لم يتيسر ذلك.

بدأنا التفكير في خطة الهرب؛ كانت البريجة في طرف اليابسة، تُطلُّ على البحر من الجانبين، لا يخرج أحدٌ من البلد حتى تتقدم الفرسان، ويقتسمون مواقعهم، ويجوزون من البحر إلى البحر، ومن الجانب الآخر بساتين، وليس لأحد من النصارى أن يجوز الحد الذي تكون فيه الفرسان، ولما رأيت ذلك قلنا نخرج من البريجة ونجلس بين البساتين، ونستخفي فيها إلى الليل، ثمّ ننطلق إلى مدينة أزمُّور- بلدة للمسلمين- على ثلاثة فراسخ من البريجة، على ساحل المحيط، متاخمة لمصبّ نهر أم الربيع ([102]).

وقلت لصاحبي: إذا قدّر الله علينا أن ينتبه لنا النصارى؛ فليدَّعِ واحدٌ منا أنّ الجن أصابه بمسٍّ، ويجرح فمَه مخرجًا منه شيئًا من الدم، ويتخبَّط في الأرض؛ لعلنا ننجو- إن شاء الله- بتلك الحيلة.

فخرجنا نتنزه بين البساتين واختفينا هناك، ثمّ إنّ صاحبي مشى إلى بستان قريب من الموضع الذي كنا فيه، وبقي هنالك إلى قبيل غروب الشمس، وأنا في أشدّ الحيرة والقلق عليه، وبدأ الفرسان في نوبتهم الليلية، فتوافدوا من البلدة لحراسة الحدود، ثمّ أخيرًا جاء صاحبي، فقلت له بحرْدٍ وغَيظ: ما السبب الذي أقعدك إلى هذه الساعة؟

قال: كنت أتكلّم مع صاحب بستان، أنتظرُ انصرافه، حتى عزم على الخروج منه، فجئتُ من عنده.

فبينما كنت أفكّر ماذا نصنع، إذ سمعت حارسَ البوابة ينفخ في مزمارٍ له، ينادي الناس قبل سدّ الباب، فاشتغلت بقراءة سورة (يس) و(الزمر).

والحارس يواصل الزمر، فقلت لصاحبي: هذا الزّمر من أجلنا لا بدّ أنهم يبحثون عنا!

قال لي- وقد بدا القلق على وجهه-: اعمل حيلة المصروع لأنهم قادمون إلينا! هيّا بسرعة.

فقلت له: لا أعمل ذلك. (بسبب ما كان في نفسي من الغيظ والحنق عليه). فقال: أنا أعمل. قلت: افعل، وأنا أتكلّم عنك معهم.

فأخرجَ شيئًا من الدم من فمه الذي جرحه بمُديةٍ، ورمى بنفسه في الأرض يتمرّغ فيها، فخرجت إلى جهة الرجال وأنا أشير إليهم أن يأتوا إليَّ، فلمّا وصلوا نظروا إلينا بدهشة وارتياب، وقالوا: ما السبب في جلوسكما إلى هذه الساعة؛ والبوّاب ينادي عليكما، أما تخافا من المسلمين أن يأخذوكم أسارى؟

قلت في نفسي: هذا ما نسعى إليه!

ثمّ قلت لهم: بعثت صاحبي يشتري خيارًا من المزرعة، ولما تأخَّر جئتُ في طلبه حتى وجدته في هذه الحالة، ما استطعت حمله وحدي لأنّه يضطرب كما ترون في الأرض، أشكر الربَّ أنكم وصلتم لي هنا قبل فوات الأوان، على أية حال.. ساعدوني في إنقاذه، يا إخوتي.

فأقبلوا عليه، ورأوه وهو يضطربُ بيديه ورجليه، والدمُ يلطِّخ وجهه وعنقه، قالوا: هذا يموت.

وكان من بينهم صاحبُ البستان الذي كان معه صاحبي يتحدثان، ووصل الخبر للقبطان بأمرنا، وشكّوا فينا، وقالوا: إنّنا هاربون إلى المسلمين، وأمر أن ينظروا هل الحصان في الدار؟ قالوا: هو فيه وحوائجهم أيضًا، فقال القبطان: لو كان بنيّتهما الهرب لم يتركَا الحصان، لكن هذا أمرٌ عارضٌ نزل بهما، واجتمعوا بحضرة القبطان، فقال الرجال الذين كانوا عندنا: إن هذا يموت، واتفقوا أن ينطلق واحدٌ منهم ينادي القسّ ليثبته ويعترف له بذنوبه، كي يموت مغفورًا له ويمضي إلى الجنة، وأنا أضحكُ في نفسي من انطلاء الحيلة عليهم، مع تظاهري بالحزن على صاحبي.

فمشى واحد، وأعلم القبطان بالأمر، فجاء القسيس وهو على بعدٍ منه يثبته، قلت للقسيس: أظن أنه مصروعٌ من الجن، فاقرأ عليه أوّل ما ذكر يوحنا من الإنجيل ليذهب عنه الجن، فقرأ عليه من الإنجيل، وذهب الجنّ والشيطان، وظهرت للقراءة البركة والبرهان، واشتهرت على الألسنة كرامة القسيس، وضحكَ منه الجن مع إبليس، وبرأ المريضُ في الحين، وأخذه اثنان منهم كلّ واحد من تحت إبطه، وسار معهم حتى صعدَ لمكان مرتفع، ثمّ انحدروا فطرح صاحبي نفسَه على واحد منهما عند هبوطه المنحدر حتى كاد يوقعه.

ودخلنا البلدة وجميعُ الناس مع القبطان، وحكوا له كلّ ما طرأ، وأن المريض بَرِأ بعد أن كان يموت ببركة ما قرأ عليه القسيس، ومشينا إلى الدار، وجاء من أكابرهم من ينصحونني أن لا نتركه يركب الحصان، ولا يطلع على السور لئلّا يصرعه الجانُّ، ثمّ جاء طبيبهم، وكانت له مهن كثيرة وحِرَفٌ غير الطب، كان يصقل السكاكين، ويثقف الرماح، وأظنه يحلق الرؤوس والأذقان، ويعمل بيطارًا للخيل، يعالجها ويحضر ولادتها، رحم الله أيامَ الحضارة والرقي في أندلسنا السليبة، حاضرة الدنيا.. ومنارة العلم ([103]).

قال الحكيم الحلاق: ما هذا الذي أصابه؟ فحكينا له، وبقي متحيِّرًا ماذا يأمرنا به من العمل للعليل؟ وأطرق يفكّر، ثمّ قال بلهجةٍ في تعالٍ: اجعلوا عليه ثيابًا وأغطية كثيرة لعله يعرق فيبرأ. فشكرته على حكمته، ووضعنا كلّ ما في

الغرفة عليه، فلمّا أن ذهبوا جميعًا، ولم يسمع المريض صوت أحد، أخرج رأسَه من تحت الأغطية، وقال: سيدي، كيف حالنا؟

قلت له وأنا أضحكُ: غطِّ رأسك ما عندنا إلّا الخير، إن شاء الله، وذهب النوم عنا في الليلة كلها، ويوم آخر تبين لنا أنّ الله تعالى لطف بنا، وبقي المريض سالمًا، ونحن ندبِّر كيف العمل لنخلص ونخرج من بين الكفار.

قلنا: لو كان واحد منّا فحسب لأمكن الهروب، لكن أمر الاثنين صعبٌ!

وكانت على المرفأ سفينةٌ عازمةٌ على الرجوع إلى بلاد الأندلس، فقلنا نُجْرِي القرعة؛ مَن يرجع منّا في السفينة؟ فرميناها وجاءت عليّ، وصار الناسُ يتكلمون عنّا، يقولون: إنهما يريدان الهرب إلى بلاد المسلمين.

فذهبت إلى القبطان، وقلت له: أحبّ أن أرجع إلى بلاد الأندلس في هذه السفينة، وإن أحببتَ أن أحملَ لك شيئًا معي إلى هناك حملتُه، أو أردتَ شيئًا من بلاد الأندلس أحضرتُه لك، لقد طاب مقامي هنا، لذا سأسافر لقضاء بعض شئوني، ثمّ أعود قريبًا.

قال: وصاحبك يمشي معك؟

قلت له: أراد القعودَ هنا، فأرجو أن ينال رعايتك ويحظى بعطفك.

فخرجت عشية وجهّزت ما يحتاج من الطعام في السفر، فوجدت بقرب باب من الأبواب قاربًا صغيرًا، فقلتُ: اركب، فأعطيته الطعام والحوايج، وقلت له: إذا خرج التاجر الذي كان يمشي من البريجة نركب القاربَ الصغير ليبلغنا إلى السفينة الكبيرة، فجلسنا هنالك ندعو الله تعالى أن يتعطل التاجر حتى ينسدَّ الباب، ثمّ قالوا لصاحبي: ادخلْ عند سدّ الباب، قلت لهم: دعوه معي حتى يخرج التاجر، قالوا: نعم، يقعد، فأظلمَ الليل إلى أن صلينا العشاء الآخرة، ثمّ دعونا الله أن يرشدنا ويسترنا من أعدائنا.

قلنا: هذا وقتُ الخير فلنذهب- إن شاء الله- إلى أَزَمُّور، قلت لصاحبي: ما ظهر لك أن نصنع في ذهابنا. قال: كيف ما ظهرَ لك؟ قلت له: يا صاحبي، الطريق القريبُ هو من هنا إلى أَزَمُّور. قلت: ومِن الممكن أنا إذا شرعنا في الطريق ربما يخرج التاجرُ الذي هو يبحرُ في السفينة، وإذا طلبونا لم يجدونا، ومن ثمّ يتبعوننا كما هي من عادتهم ويدركوننا بالخيل.

قال: فما العمل؟

قلت: هذا طريق أزمُّور على حاشية البحر؟ قال: نعم. قلت: نمشي على حاشية البحر اليمنى إلى غد- إنْ شاء الله تعالى- حتى نصل أزمُّور على بركة الله.

فمشينا، وبعد ساعة أو أقلّ سمعنا صوت البنادق، فأخذنا في الذكر والدعاء وتلاوة سورة يس، ومشينا الليل كلّه في بلادٍ سمعنا أنها كثيرة السباع إلى انبلاج الفجر، لا نعبأ بزئير أو نباح أو عويل، فأطلقوا المدفع الكبير وهي علامةٌ عندهم على حدثٍ عظيم وقع، وإشارة إلى أنّ هناك مَن هرب إلى ناحية المسلمين، فعلمنا أنهم خرجوا في طلبنا، فأخذنا نبحثُ عن مغارة أو كهف أو حفرة نختبئ بها، فلم نجدْ سوى شجيرات كثيفة، تتوسّطها شجرة هائلة، فحمدنا الله ودخلنا في وسط الشجرة التي كانت مجوّفة من الداخل كأنها كوخ، على أنْ نمكث فيها حتى يتوقّف الطلبُ، فنواصل مسيرنا إلى أزمور أقرب بلاد المسلمين، وبدأ صوتُ المدافع ينخفض حين دخلنا في قلب الشجرة، واستسلمنا للنوم على زخّات البارود المتتابعة. وبعد برهةٍ من الزمن، سمعنا دبيبَ أقدام قريبة من الشجرة، وأصواتًا عالية حول الشجرة، حتى بلغتْ قلوبنا الحناجر، وتوقفت أنفاسنا مخافة أن يسمعوها، ثمّ بدأتْ أصواتهم تتلاشى، وأدركنا أنهم يبتعدون عنّا، ولا ندري لذلك سببًا، وما ندري لعلهم يئسوا منّا، وولّوا خائبين.

علمنا فيما بعدُ سببَ رجوعهم؛ أنّ قائد أزمّور لما سمع صوت المدفع الكبير عند الصبح علم أن أحدًا من النصارى هرب من عندهم، فأمر في الحين المسئولَ عن فكاكِ الأسرى أن يمشي إلى البريجة ليتكلم مع القبطان في شأن أسيرٍ كان عنده، ثمّ يأتي بالخبر، فلمّا مشى التقى بالنصارى وهم يبحثون عن الهاربين، وسأله ترجمان القبطان عن نصرانييْن هربا، هل رآهما؟ قال له: نعم، هما عندنا من الصباح الباكر. فلمّا بلغ الخبر للقبطان وهو مع جنده، حزن حزنًا شديدًا وغشيت وجهه سحابة من الغمّ، واحمرّ وجهه من الغيظ، فكان يقبض بيده شعر لحيته الحمراء، وينتفها نتفًا عنيفًا، ويرمي الشعر في الأرض، وكان تصرفًا موفّقًا من قبل مبعوث حاكم أزمور، جعلهم ييأسون ويرجعون قانطين، ويولّون خائبين.

أمّا نحن، فقد جلسنا بين الأشجار إلى الليل، وكان الحرّ شديدًا، حتى كاد العطشُ يقتلنا، فواصلنا السير، نجري ونلهث من التعب والعطش ونتلفت يمنةً ويسرةً لعلنا نجد أثرًا لماء، بينما لا نستطيع التوقف مخافة العدو الذي يطاردنا، ولبثنا سائرين، نستغفر الله ونتضرع إليه، حتى وجدنا عينًا من ماء عذبٍ تنضح،لم أجد في حياتي ماء في عذوبته وحلاوته، ففرحنا وشربنا حتى ارتوينا وتقوّينا، واسترحنا إلى أن لاحت تباشير الصباح، وكنا قد قطعنا شوطًا طويلًا في الليل قبل عثورنا على عين الماء، وصلّينا الصبح، وعلمنا لاحقًا ممن ارتاد هذا الطريق، أن هذا المكان لا توجد فيه عيون ماء، وإنما أجراها الله كرامةً لنا ورحمة بنا، فالماء هناك لا وجود له إلّا في أعماق بعيدة تحتاج لحفر آبار عميقة؛ فلك الحمد ربنا على لطفك.

وبعد أن تنعّمنا بالماء وتوضّأنا وتبرّدنا وصلينا الصبح، مشينا في طلب بلدة أزمُّور، وبسبب الغيوم، لم نر الشمس- ولله الحمد- حتى كانت في وسط السماء، ثمّ سرنا نطلب الماء فلا نجدُ إلّا آبارًا عميقة ويابسة، ثمّ استظللنا بشجرة كبيرة بعد العصر، وقد بلغ بنا التعبُ مبلغَه، وسمعنا هدير أمواج البحر، فعدونا إليه، لعلنا نجد ماء فلم نجد شيئًا في حاشية البحر للشرب، ثمّ مشينا منهكين على طريقٍ كنت أظن أنه يبلّغنا أزمور، لكننا اكتشفنا بعد انتصاف الليل أننا نعود للبريجة ثانيةً، يا الله! نعودُ لبلد العدو الذي هربنا منها، نعودُ بعد كلّ هذا! رحماك يا إلهي!

ولما ظهرت بساتينُها رجعنا للتوِّ من حيث أتينا، وتركناها من ورائنا، حتى غابت عن أنظارنا، وجاء المساء ونحن نغذُّ السير، ثمّ صعدنا جبلًا عاليًا، حتى وصلنا لسفحه، وانحدرنا إلى الجهة الأخرى، قبيل طلوع الشمس، فرأينا سهولًا تنحدرُ إلى وديانٍ فسيحةٍ، فهبطنا ومشينا قليلًا، ورأينا الفلاحين يحصدون القمح، ففرحنا فرحًا عظيمًا، وهرولنا إليهم، فلما اقتربنا منهم، خافوا منا وجاءوا إلينا بأسلحتهم وخيلهم، فلما وصلوا إلينا، قلنا لهم: نحن مسلمون، نحن مسلمون، فأمسكوا عنا، وفرحوا بنا فرحًا عظيمًا، وفرحنا بهم أعظم الفرح، وبعد مصافحة وعناقٍ، أعطونا من الماء والخبز والطعام الذي كان معهم قبل أن يصحبونا إلى بيوتهم ويذبحوا لنا، ويطعموننا اللحم والحساء والثريد، فكان أول ما دخل في أجوافنا من يوم الجمعة قبل الزوال إلى يوم الاثنين عند الضحى، ثلاثة أيام لم نقتات إلّا على البقل وأوراق الشجر وبعض الثمرات البرية في تلك الأجمات المقفرة. ثمّ دخلوا بنا إلى أزمّور، وأكرمونا، وأقبل علينا قائدُها، فتهلل برؤيتنا ورحَّب بنا، وتباحثنا كثيرًا في أمور المسلمين بالأندلس، ثمّ قال لي: أتكتب بالعربية في هذه الورقة؟ قلت له: ما أكتب؟ قال: الذي تحب، فكتبت ما ألهمني الله تعالى، وشكرته على قضاء الحاجة وخلاصنا من الكفار، ودعوت بالخير له على ما قدمه لنا وإحسانه إلينا، فتناول الورقة، وأظن أنه بعثها للسلطان مولاي أحمد- رحمه الله-، فكتب له يأمره أن يقدُم لحضرته في عيد الأضحى، وأن يحملنا معه.

فلمّا أن بلغنا في دَكَّالَةَ- وهي من مدن البربر- إلى سوق كبير، أمرَ القائد غلامه أن يركب معي إلى السوق، فلمّا أن دخلنا فيه جاء المسلمون يسألون الغلام عني، قال لهم، هو مسلم، فجاءوني من كلّ جانب، وهم يقولون لي: شهِّد.. شهِّد. وأنا ساكت، حتى ألحوا عليّ وأكثروا في ذلك، قلت: أشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

قالوا: والله إنه يقولها خيرًا منّا. ثمّ مشوا وأتوني بتمرٍ وغير ذلك مما كانوا يبيعونه، وجاء بعضهم بدراهم من فضة، فقلت لهم: لا أطلب منكم شيئًا من ذلك. لكنهم أكرموني، وأتحفوني، واحتفوا بي وبصاحبي أعظم احتفاء.

فلمّا ولّينا عند القايد قال لي: ما ظهر لك؟ قلت: الحمد لله إذْ لم نر إلّا إخوة لنا متحابين، جمعنا هذا الدّين المتين لأن في بلاد النصارى لم نرَ فيها في الأسواق إلّا أعداء لنا يمنعونا من الشهادتين جهرًا، بينا المسلمون يحرضونني عليها، وفرحوا جميعًا حين سمعوا مني ذلك. وقد شبّهتُ ما أصابنا من خوف النصارى وما رأينا من التعب في الطريق إلى أهوال يوم القيامة، ووصولنا إلى المسلمين؛ بالدخول في الجنة، وما يسبقها من صعابٍ، نسأل الله العظيم أن لا يحرمنا منها وجميع المسلمين أجمعين.

ولما أدخلوني على السلطان السعدي بمراكش وطلبوا مني أن أتكلّم بين يديه ألقيت خطبة فرح بها فرحًا عظيمًا، وقال متعجِّبًا: كيف يكون ببلاد الأندلس مَن يقول بالعربية مثل هذا الكلام؟ إنه كلام الفقهاء!

وفرح بنا كذلك إخوانُنا الأندلسيون الذين سبقونا، ورأينا العافية والرخاء في تلك البلاد، ومنّ الله عليّ بالزوجة الصالحة والذرية الطيبة، وعوّضني عن فقد الأهل، وعملتُ بالديوان الملكي كاتبًا ومترجمًا للسلطان.

وبعدَ سنوات، دخلتُ بلادَ الأندلس سفيرًا، وأوغلتُ في شمال أوروبا، وزرت باريس وبوردو وأمستردام، وغيرها من مدن أوروبية يستقبلني الملوك والأمراء، حيث أوفدني السلطان إلى هناك. فسبحان مغيِّر الأحوال؛ بالأمس خرجت متخفيًّا، واليوم أدخل أقطارها في وضح النهار، وأكون في ضيافة ملوك أوروبا، وأجلسُ على موائد الأمراء والقضاة والوجهاء، وتدور بيني وبين النصارى حوارات في الأديان، بحريةٍ تامّة، فأدحض الشبهَ وأقيمُ الحجج، وأنا في أمانٍ ([104]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# أسيرتان في باريس

عندما أصدر الملكُ فيليب الثالث ملكُ أسبانيا مرسومًا بطرد المسلمين المتبقين في بلاد الأندلس، خوفًا من زيادة عددهم، مع فشل حملات تنصيرهم القسري، خرجت السفن بهم، فتعرضوا للنهب والسّلب من قبَل أصحاب السفن الذين قاموا باكترائها، فنهبوهم، وكان المفترض أن يحافظوا على سلامتهم حتى يصلوا بسلام إلى شواطئ المغرب، وكان هؤلاء اللصوص من بلاد الفرنجة، فأمر السلطانُ زيدان ابن السلطان أحمد الحسني سلطان المغرب بإرسال وفدٍ إلى فرنسا وهولندا، كان على رأسه الكاتب أحمد الحجري، الذي سبق أنْ حكينا قصة هروبه من الأندلس وهجرته للمغرب، وقدومه على السلطان وتوظيفه في بلاطه كاتبًا له، ومترجمًا، فأرسله السلطان على رأس وفدٍ، لمخاطبة ملوكِ الفرنجة، والمطالبة باسترداد تلك الأموال المنهوبة، ومحاكمة أولئك الأوغاد السفلة، ومعهم رسائل مختومة بختم السلطان.

فأبحر الوفدُ من ميناء مدينة آسفي المغربية على المحيط الأطلسي، إلى أن وصل بلاد الفرنجة.

ورغم أنّ الوفد لم يفلح في استرداد حقوق أولئك المنهوبين، إلّا أن الرحلة كانت لها ثمارها، حيث نقل لنا الحجري مشاهدَ من رحلته، وسجّل صورًا وذكريات، وعقد مجالس ومناظرات أقام فيها الحجّةَ على علماء النّصارى وعوامّهم، وكانت تلك الحكاية المؤثّرة، نتركه يحكيها رحمه الله.

قال: عندما زرتُ فرنسا، وجدت بباريس امرأتين تركيّتين؛ إحداهما عجوزة، والأخرى تناهز الأربعين، تعملان في قصرِ السلطان، في التّطريز والخياطة، وكانت نساء القصر وحاشيته جميعًا يتعجّبن من مهارتهما ودقّتهما، وإبداعهما في الرّسم على الثياب، والفُرُش، وأكسية الوسائد، مع السرعة الفائقة.

فلا عجبَ أن كانت أجرتهما كلّ يومٍ ريالًا كبيرًا من السلطانة، بل العجب من وجودهما في بلد الكفر!

قال الحجري: سألتُهما عن السبب الذي تركا بلادَ المسلمين من أجله، وكيف وصلا بلاد الفرنج؟ فقالت المرأةُ الأربعينية: كنّا في البحر قاصدين الحج، فأخَذَنَا القراصنةُ النصارى، وأتَوا إلى البندقية، فمكثنا فيها، واشتغلنا في مهنتنا، حتى ذاع صيتُنا، وعلم الناسُ بمهارتنا في التطريز، فكتب سفيرُ فرنسا إلى السلطانة، وأعلمها بشغلنا؛ فبعثتْ له كي يرسلنا إليها.

وماذا عن دينكم؟ ولماذا لم ترجعا إلى بلادكم؟

قالت الأربعينية: لما أعجبتِ السلطانة بعملنا، عرضتنا على نساء الأكابر، فدعوننا إلى دينهم، فلم نجد مفرًّا من الدخول فيه، سيَّما وقد انقطعت بنا السبل، ورأينا عطفًا وكرمًا من السلطانة.

فقلت لها: ما ألهمني اللهُ في أمور الأديان، وأنه لا ينجو الآن أحد إلّا في دين الإسلام. وأتيت لها ببراهين على ذلك، وساعدني أنها كانت تقرأ بالعربية وكذلك العجوز، التي بدأت تستجيب لي، وقالت: إنها كانت من الدار الكريمة للسلاطين بإسطنبول.

وذات يومٍ دعتني العجوز إلى الطعام، فأعدَّت مائدةً فاخرة، وأكلتُ هنيئًا مريئًا، وبعد تناول الطعام الشهيِّ الذي لم يسبقْ لي أن تذوّقت طعامًا مثله. قالت لي: أطلب منك حاجة لوجه الله تعالى، قلت لها: اذكري حاجتك، قالت لي: نريد أن نعودَ إلى أوطاننا بلاد المسلمين، فإننا نبكي كلّ يوم حنينًا للوطن، ويهيّجُنا الشوق للقاءِ الأهل والأبناء الذين تركناهم!

قلت لهما: وهل تسمحُ لكما السلطانة في الانتقال؟

قالت العجوز، ودموعها تنثالُ على خدّها: ما تسمح لنا أبدًا.

قلت لها: لا تيئسي يا سيدتي، يجعل الله لكمَا مخرجًا، وترجعَا إلى بلاد الإسلام، وتلتقوا بالأهل والأبناء، فابتسمت العجوز، أمّا الأربعينية فيبدو أنّ روحها هناك، تحلّقُ حيث الأهل والأبناء، وحيث المآذن والقباب، والأجواء الإيمانية، ودفء العائلة، فانسابت دموعُها على خدّيها.

ثمّ نهضتُ وشكرتهما على هذه المأدبة، وودّعتُهما.

فغادرنا باريس إلى مدينة روان،([105]) ثمّ إلى مرسى البركة Havre de grace ، وركبنا سفينة لتقلَّنا إلى فلنضس "هولاندا"، فأصبحت فرنسا عن اليمين، وبلاد الإنجليز عن يسارنا. والنرويج في أقصى الشّمال، والسفينة تجري بنا في بحر الشمال، حتى نزلنا مدينة أمستردام، مدينة فائقة الجمال، فبيوتها مزخرفةٌ بأجمل الألوان، كلّ بيتٍ يختلف عن الآخر في زخرفته، وشوارعها وأزقتها مرصوفة بالآجر، ومراسيها تعجُّ بآلاف السفن التي تصطفُّ بنظامٍ، وحدائقها شديدة الخضرة، والأنهار التي تشقُّها، وأزهارها الرائعة، زهورَ التوليب بشتى ألوانه، والورد بحمرته القانية والباهتة، وغيره من أنواع الزهور الجميلة.

ثمّ دخلنا مدينة ليدا «ليدن» Leiden. ورأيت فيها مَن يتكلم العربية ويقتني كتبًا عربية، ويترجم للغته، ودارت بيني وبين بعضهم مناظراتٌ حول الإسلام

والنصرانية، وتحدثت باستفاضة عن دعوة الإسلام، ثمّ سافرنا من مدينة ليدن إلى مدينة لاهاي « La Haye»، والتي بها دار أميرهم، والديوان الملكي.

وهناك التقيتُ برسول الأمير، كنتُ عرفته بمراكش، وكان ممتنًّا لي على مساندتي له في سجنه حتى خلصتُه منه، وكان سبب قدومه إلى مراكش أنّ سلطان بلاد الأندلس قام بتغريب بعض المسلمين إلى جزرٍ نائية عن بلاد الأندلس، فخرج إليهم أهل الجزر، وأخذوهم، ورموا مَن كان فيها من النصارى في البحر- كما حكي- وفكّوا كلّ مَن كان فيها من المسلمين، وكانوا أكثر من ثلاثمائة، وجعلوهم في سفينة عظيمة، وبعثهم أهل هولندا هدية إلى سلطان مراكش، سنة 1014م ، فاضطر هذا الرسول للانتظار حتى تنتهي الفتنة والاقتتال، فلمّا ثبت في المملكة السلطان مولاي زيدان، سجن هذا الرسول لأنه كان قد أبطأ في المثول بين يديه، وتقديم الهدية له، وبعد أن مرّ زمن على الرسول في سجنه، بلغني الخبر، فتذكرت الخيرَ الذي عملوه للمسلمين الأندلسيين، حين بعثوهم هدية إلى بلاد الإسلام، وكلّمت مفتي البلاد فتشفّع عند السلطان؛ فأمرَ بإطلاق سراحه من السجن، فلمّا أن علم بزيارتي «لاهاي» دعاني وأكرمني، وحملني إلى الأمير «مورسيه»، فأحسن استقبالي، حيث قام لي وخلع قبعته إكرامًا، وأخذ بيدي وأجلسني بجواره، وزرته أربع مرات. ودارت بيني وبينه حوارات، سألني لماذا أمر ملك أسبانيا بطرد المسلمين منها؟ فقلت له بسبب خوفه من زيادة أعدادهم، مع تناقص أعداد النصارى، سيّما والرهبان والراهبات لا يتزوجون، والأندلسيون مازالوا متمسكين بدينهم، فلهذا طردهم، ثمّ اقترح عليّ أن يرسل سفنًا تحمل المسلمين الذين هاجروا لبلاد المغرب ويحاربوا النصارى الأسبان، أو يتحالف مع ملك المغرب على حرب الإسبان ونصرة المسلمين وإعادتهم لديارهم، فقلت له: هذا أمرٌ ليس باليسير، كما أنّ سلاطين المغرب لن يسمحوا بخروج المهاجرين الأندلسيين من بلادهم.

وعندما أزمعتُ على الرحيل قال لي: تمنَّ علي ([106]) فقلت في نفسي: النصارى يقولون عن المسلمين إنهم يطمعون في متاع الناس، وهذا لم يرَ من المسلمين إلّا قليلًا منهم- وأنا أحدهم- فليعلم وليتحقق أن الذي يقولونه فيهم ليس بصحيح، وأن فيهم مَن لا يطمع في مال، فلا أطلب منه مالًا.

قلت له: أطلبُ من فضلك مسألة، قال: ما تطلب؟ قلت: أن توصي بنا قائد السفينة التي نمضي فيها، قال: هذا فقط؟ قلت: نعم. قال فابحث حتى تتحقق من السفينة التي ستركبها، واعرف اسمه، واسم التاجر راعي السفينة، وأتني، فأخبرته باسمهما، وأمر كاتبه أن يكتب لي ولمن معي توصية، وأعطى كلّ واحد خطابًا مختومًا بخاتمه، ففرح مَن معي وتناول كلّ واحد كتابه، فأغدق

علينا التاجر مما لديه من السّكر وأصناف الأطعمة، حتى التمر أعطانا منه معَ ندرته في بلادهم، لأنه يُجْلَب من بلاد المسلمين.

ولما أردتُ أن أودِّع هذا الذي كان ممتنًّا لي لإحساني له وسعيي في إطلاق سراحه، أخبرته عن المرأتين التركيتين، المغتربتين في باريس، وطلبت منه أن يدبِّر أمر رجوعهما إلى بلاد المسلمين، فقال: اكتب لهما تأتيان إلى داري، وأنا أتولى أمرهما حتى رجوعهما إلى بلادهما.

وكتبت لهما بذلك، وبعثت ذلك إلى رجل أندلسي، وبلّغها لهما، وسترهما الله تعالى في الطريق من الفرنج حتى وصولهما إلى هولندا، فأكرمهما الأمير، وبعثهما في سفينة تجارية إلى إسطنبول، حتى وصلتا إلى أهليهما سالمتين غانمتين.

حدث ذلك بعد سفري من تلك البلاد، والخير يأتي بخير. وأمّا ربان السفينة فكان يفرح بنا في سفينته، ويكرمنا، حتى وصلنا لشواطئ المغرب، ورجعنا لبلادنا وأهلينا سالمين([107]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# مناظرةٌ حول إعجاز القرآن

حدث في بلنسية بعد سقوطها أن توافد عليها القساوسة والرهبان بإذن طاغية الروم، فأقاموا بالأديرة والكنائس، عاكفين على دراسة اللغة العربية والعقيدة والشريعة، وقاموا بجمع الكتب التي نهبوها وسلبوها من المساجد والمكتبات، وعكفوا على دراستها، لا لطلب الهداية وإنما لإثارة الشبهات، وتشكيك المسلمين في دينهم، على حدّ قول راوي الحكاية: «ولهم حرصٌ على مناظرة المسلمين؛ لقصد ذميم في استمالة الضعفاء».

وكان أبو علي بن رشيق التغلبي يعمل مع أبيه في بلنسية كاتبًا للعقود وغيرها، وذات يوم خرج مع نصراني ليشهد حلفَه على يمين بتلك الكنيسة كعادةِ النصارى آنذاك تعظيمًا لدينهم، إذ كانوا يذهبون لموضع في الكنيسة، ويحلفون على الإنجيل بمشهد القس.

قال: «فلمّا فرغنا من قصدنا استدعاني قسيسٌ منهم فصيحُ اللسان، وأخذ معي في الكلام والمحاورة.

بدأ القسيس يتكلم حول إعجاز القرآن، وأن العرب- وهم الفصحاء والبلغاء- عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، وأنّ هذا التحدي باقٍ إلى آخر الدهر. فوافقتُه وفرحتُ بكلامه، لكن المراوغَ أفصحَ عما يريدُ الوصول إليه، فذكر كتاب المقامات للحريري، وأنشدَ بيتين للحريري في المقامات، المقامة الحلبية، وهما:

سِمْ سِمَةً تحْسُنُ آثارُها

واشكُرْ لمنْ أعطى ولوْ سِمسِمَهْ

والمكْرُ مهْما اسطَعْتَ لا تأتِهِ

لتَقْتَني السّؤدَدَ والمَكرُمَهْ

يبدأ البيتُ بما ينتهي به، وهذا من بديع النظم وروائعه.

وتساءل: أليس هذا أيضًا من الإعجاز؛ حيث لم يعززا ببيت ثالث!

ألم يتحدَّ الحريري أن يعززهما أحدٌ بثالث، ألم تنصرم السنون وما أتى أحد بثالث لهما، رغم دَرْس الناس لتلك المقامات وتداولها بينهم؟

وانتهى إلى القول على ضوء ما سبق: إنّ ما أتى به الحريري كلامٌ فصيحٌ، يصح أن يكون معجزة وليس هو بنبي، فإذا حصل ذلك: فإنّ نبوة الرسول-صلى الله

عليه وسلم- لا تثبت بمسألة التحدي المنصوص عليه بالقرآن.

فلمّا أخذ ابن رشيق يردُّ عليه بالأدلة والبراهين العلمية، أخذ القسيسُ يجيبهُ ببرودٍ واستخفافٍ قائلًا: قد سمعتَ ما قلتُ، فناظرني فيه!

قال ابن رشيق: فأخذتُ أفكرُ في جوابٍ، واستعنتُ بالله تعالى أن يلهمني الصواب، وسرعان ما انقدحَ في ذهني بيتٌ ثالثٌ على شاكلة بيتي الحريري، فذكرتُه للقس، فكأنما ألقمتُه حجرًا، ورأيت فيه من الانكسار لذلك ما لم أره عند سماع الحجج العقلية والمآخذ الأصولية([108]).

وراح يفهِّمه لمن معه، وقد انقطعت حجةُ القسيس، وأربدَ وجهُه، وعبس جبينُه، وبَسَرَ لونه، واكفهرّت وجوه من معه من القساوسة، وانصرفتُ عنهم مرفوع الرأس، مؤيَّدًا بمددٍ من الله، بينما تركتُهم وهم حائرون، مذعنون، مستسلمون ([109]).

تابع حكايات أندلسية، المجموعة الثانية،

وبعده كتابي البقية في اللطائف الأندلسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## (تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

**<u>لينك الانضمام الى الجروب – Group Link</u>**

**<u>لينك القنـــاة – Link</u>**

# فهرس المحتويات..


عن الكتاب..

ملخص..

مقدّمة

-1-
الوصيةُ المباركة
-2-
الفارسُ الصغير
سرُّ القوة ومكمنُ الداء
-3-
الرحلةُ الأندلسية إلى مكة المكرمة
-4-
ليلةٌ من ليالي قرطبة
-5-
تصبُو إلى مَيّ
-6-
خلوة
وسلوى العاشقين
-7-
الفاتنة
-8-
عودة الروح
-9-
بحرفٍ واحدٍ يُزيلُ مُنْكَرًا
-10-
جزاءُ المبتدِع
-11-
العشقُ الممنوع
سوءُ الخاتمة
-12-
أغربُ الأماني
-13-
عاقبة الظُّلم

بعدَ أربعين سنة..
-14-
-15-
علمٌ وإكرامٌ
ودفءٌ وطعامٌ
-16-
يُعطي الجوزَ مَن لا أسنان له!
-17-
سوق الكتب بقرطبة
-18-
إنقاذ موقف
-19-
مواعظُ الملوك
بين القاضي والملك
-20-
يحكم على الطير
-21-
أندلسيّ في بلاد فارس
مثلُك يقرأ في المصحف؟
جلاءُ العينين ببركة القرآن
-22-
موعظةٌ بليغةٌ لفقيه
-23-
أندلسي في بلاد الهند
الطبيب الهندي
لو كان بخيلًا على صحته
-24-
زامرٌ يختبر أهل اللغة
-25-
موكبُ الأُدباء
لِكُلِّ عالمٍ زَلَّة
-26-
زِرياب، وقصة المجدِ الزائف
-27-
يهوديٌّ وفيّ
-28-

انظر لمن هو أسوءُ حالَا
-92-
حجلة
كرامة عالم مجاهد
-30-
همساتٌ في أذن طالب العلم
-31-
خيبة أمل
-32-
قصرُ التأديب
الوَحْشَةُ
-33-
بابُ الفرج
-34-
عدالةُ القضاء الأندلسي
-35-
حِلْمٌ أَمْ عِلْم
-36-
حكاية ابن غطّوس
-37-
مُنْيَةُ الصّمادحية
-38-
الأنفاسُ الأخيرة
-39-
نِعْم المعلِّم
-40-
ليلةُ أنسٍ في قصر طليطلة
-41-
كيف سقطت طليطلة؟
انفراط العقد
-42-
اللقاءُ الأخير
-43-
كلمة السر - رحلة البحث عن الكنز
-44-
حكاية أندلسية مُبكية

-45-
حكاية روز الأسبانية
-46-
تلك الساعة
دعوةُ الفقيه
-47-
والثالثة الشهادة
-48-
جزيرة القراصنة ومائةُ ختمة للنجاة
-49-
عودٌ إلى الله
-50-
يومُ الطِّين!
-51-
الفارسُ الأخير
موسى بن أبي الغسّان
وخريفُ غرناطة الأخير
-52-
محاكمُ التفتيش
-53-
التّفتيش على دواوين التفتيش
-54-
أغربُ جائزة أدبية
-55-
عليكَ أحالني الذكرُ الجميل
-56-
بل على السُّنَّة أموت
-57-
أندلسي في الفيوم
القرطبي والبيت المهجور
-58-
إرادةُ الله
-59-
جريمة الاستحمام
-60-
من الظلمات إلى النور

سرّ الغرفة المغلقة
-1-
-2-
-3-
-61-
الهجرةُ إلى الجنوب
رحلة أحمد الحجري، الشهير بـ «أفوقاي»
-62-
أسيرتان في باريس
-63-
مناظرةٌ حول إعجاز القرآن

# Notes

[←1]

(1)مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي (ص: 273)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ) (3/ 565). والرَّشَا مِنْ أَولاد الظِّباء الَّذِي قَدْ تحرَّك وتمشَّى. لسان العرب (14/ 322).

[2←]

(2)خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (1/ 151). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (4/ 288)، أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم علي بن أحمد بن محمد الحسني الحسيني، ت1119 (ص: 69).

[3←]

(3)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542هـ) (1/ 135). تنفق: تصبح رائجة.

[4←]

(4)معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (1/ 464) لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ) المحقق: إحسان عباس.. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ). والصاحب هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد، فإنه كان غزير الفضل، متفننًا في العلوم، أخذ عن أبي الحسين بن فارس، وأبي الفضل بن العميد. وزير مُؤَيَّد الدولة بُوَيْه ابن ركن الدولة. أصله من الطّالقان، ببلاد فارس وكان نادرةَ دهره، وأُعجوبة عصره في الفضائل والمكارم. أخذ الْأدب عَنِ الوزير أَبِي الفضل بْن العميد، وأَبِي الْحُسَيْن أَحْمَد بْن فارس. وسمع الحديث من أبيه، ومن غيره واحد، وأملى مجالس، وتوفي سنة 385هـ. نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص: 238) تاريخ الإسلام للذهبي (8/ 569).

[5→]
(5)أفاويه، جمع لأفواه، والمعنى ما يوضع على الطعام أو الشراب من الطيب والتوابل. وأبازيرُ: توابل يُطيَّب بها الطّعام كالفُلْفُل والكمُّون.

[6←]

(6)الهزار: هَزار: عندليب؛ طائر صغير الحجم، سريع الحركة، حَسَن الصَّوت، ريشه بُنيّ مائل إلى الحمرة، يألف الأشجار، ويظهر أيّام الرَّبيع. ونزار قباني: شاعر معروف زار الأندلس.

[7←]

(7)الأبيات لأبي محمد تقي الدين عبد الله بن أحمد بن تمام الصالحي. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي (4/ 428).

[8←]

(8)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ) (7 / 277)، تاريخ الإسلام للذهبي (13/ 263) ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، شهاب الدين أبو العباس الناصري الدرعي الجعفري السلاوي (ت 1315هـ) (2/ 261).

[9←]

(9) صحيح البخاري كتاب المغازي حديث 3791.

[←10]
(10)صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (4 / 2098) ح 99 - 2742. ويراجع نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (1/ 275).

[11←]

(11)معجم السفر للسلفي: صدر الدين، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (ت576هـ). (1 / 132).

[←12]

(12)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (1/ 465).

[←13]

(13)نفح الطيب (3 / 42).

[←14]

(14)نفح الطيب (4 / 115).

[15←]

(15)ينظر: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي أبو عبد الله بن أبي نصر (ت 488هـ) ص: 370.

[16→]

(16)إذا كَانَتْ عَظِيمَةَ اَلخَلْقِ مَعَ الجَمالِ فَهِيَ عَبْهَرَة. فقه اللغة وسر العربية (ص: 115). وجاريةٌ عَبْهَرَةٌ: رقيقةُ البَشَرَة ناصعةُ البَياض، والعبهر الناعم من كلّ شيء. العين للخليل بن أحمد (2/ 281).

[←17]

(17)قَوْلُهُ: تَدْمَعُ فِي بَيَاضٍ وَتَنْظُرُ فِي سَوَادٍ، يُرِيدُ أَن دُمُوعَهَا تَسِيلُ عَلَى خدٍّ أبيض وَنَظَرَهَا مِنْ حَدَقَةٍ سَوْدَاءَ.، وهذا من جمال المرأة. ينظر: لسان العرب (3/ 231).

[←18]

(18)طوق الحمامة في الألفة والألاف، للفقيه الأديب ابن حزم الظاهري (1 / 249) بتصرف. ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (4/339). والطوامير واحدها طومار، وطامور، وهو الصحيفة. المجاسد: جمع مجسد- بضم الميم- وهو المصبوغ المشبع بالجسد وهو الزّعفران والعصفر. والجسد والجساد: الزعفران أو نحوه من الصّبغ، وثوب مجسد ومجسّد: مصبوغ بالزعفران وقيل: هو الأحمر والمجسّد: ما أشبع صبغه من الثياب والجمع مجاسد. اللسان 1/ 622.

[←19]

(19)طوق الحمامة، لابن حزم (ص: 265).

[←20]

(20)المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين (المتوفى: 647هـ) ص (4)، والإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي (ت 776هـ) (3/ 153) وابن قطرال: محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن يوسف الأنصاري (ت 709هـ) نفح الطيب (5 / 257).

[←21]

(21)ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت 544هـ) (1 / 429) وأبو بكر الأبهريّ المالكيّ [289 - 375]

[←22]

(22)جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (1 / 53)، معجم الأدباء للحموي (1 / 160). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (ت 599هـ) (ص: 207)، حكاها الأديب النحوي أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجي رحمه الله، وأسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز بن هاشم أبو الحسن؛ له أدب وشعر، من أهل بيت علم وجلالة، وله كتاب معروف في أغاني زرياب. مصارع العشاق، أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، (ت 500هـ) (1/ 300).

[23←]

(23)الصلة، لابن بشكوال، ترجمة رقم 698.

[24←] (24)اللجام ما يلجم به الفرس، والجام: إناء للشراب من فضَّةٍ أو نحوها.

[←25]

(25)المعجب في تلخيص أخبار المغرب (1 / 7).

[←26]

(26)جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (1 / 67).

[←27]

(27)ينظر: نفح الطيب (1 / 48)، و البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو 695هـ) (1 / 260).

[←28]

(28)البداية والنهاية لابن كثير، ت 774هـ (10 / 222)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (ت 463هـ) (14 / 131).

[29←]

(29)حكاها الأديب أبو نصرٍ هارونُ بنُ موسى المجريطي. نسبة لمجريط مدينة بناه المسلمون، وهي الآن مدريد، عاصمة أسبانيا، ت 401هـ، ترجمته في إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي (2/394) ، والادّلاج بالتشديد: السيرُ آخرُ الليلِّ.

[30←]

(30)الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت 578 هـ) (1 / 213) ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (2 / 394).

[←31]

(31)نفح الطيب (2 / 73).

[32←]

(32)انظر الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: 41).

[←33]

(33)وكان مع هذا شديدَ الاعتناء بكتبه، يبالغُ في حفظها، ويحرصُ دائمًا على قراءتها، ومراجعتها لتصحيح ما يراه من أخطاء النُّساخ، محبًّا لمطالعتها، وصيد فوائدها، وقلّما تجد كتابًا كان في خزانته في أي فنٍّ من فنون العلم إلّا وله فيه قراءة ونظرٌ، كان: يقرؤه ويكتب فيه بخطه- إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه- نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقًا به، مأمونًا عليه، صار كلّ ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلونه من خطه ويحاضرون به. الحلة السيراء (1 / 53). وكان عدد الفهارس في خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس التي كانت فيها تسمية الكتب أربعًا وأربعين فهرسة، في كلّ فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلّا ذكر أسماء الكتب فقط.كما كانت له عناية فائقة بأناقة الكتاب من حيث جودة الورق، وحسن التجليد والتذهيبات والنقوشات بماء الذهب والفضة والأصباغ الملونة. وكان للأندلسيين حرص بالغ على التجليد، ويسمى عندهم تسفير الكتب، ومنهم من ألف في هذا الفن البديع كالفقيه الأديب بكر بن إبراهيم ابن المجاهد، أبو عمرو الإشبيلي (628 هـ)، الذي كان يحترف تسفير الكتب وله في ذلك (التيسير في صناعة التسفير) رسالة في صناعة تجليد الكتب.

[←34]

(34)نفح الطيب (1 / 463).

[←35]

(35)مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (7/ 218)، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، أخذ عنه النحو والأدب خلقٌ كثيرٌ ، توفي سنة 521 هـ، من تصانيفه: الاقتضاب شرح أدب الكتاب. يراجع: معجم البلدان (1/ 447).

[←36]

(36)ولما توفي الناصر وولي ابنُه الحكم على بلاد الأندلس أقرّه على القضاء، واستعفى غير مرة فما أعفاه. وكان وقورًا صليبًا في الحكم مقدمًا على إقامة العدل والحق وإزهاق الجور والباطل، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، له كتب في السنة والورع والردّ على أهل الأهواء والبدع. نفح الطيب (1 / 372). والخطبة بتمامها في معجم الأدباء (6/ 2719). جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (3/ 173) ، أحمد زكي صفوت.

[←37]

(37)ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (1/ 436).

[←38]

(38)نفح الطيب (1 / 401).

[39←]

(39)ينظر: الصلة لابن بشكوال (1 / 101)، التكملة لكتاب الصلة (3 / 211) ، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، لسان الدين الخطيب ص 51.

[40←]

(40)ينظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي (ص: 205).

[41←]

(41)ينظر: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (1 / 33).

[42←]

(42)رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، لابن حزم الأندلسي ت 456ه (2 / 225)، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: 398)

وبغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: 525)، والكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (المتوفى: 776هـ) (1 / 47).

[←43]

(43)يرى أن الصواب: أعرافهنَّ.

[44←]

(44)نفح الطيب - (3 / 70).

[←45]

(45)ربيع الأبرار للزمخشري (1 / 250)، والأغاني للأصفهاني (10 / 32) والعقد الفريد (1 / 45) و الكامل في اللغة والأدب للمبرِّد (3 / 75).وقوله: أَعْرَافُهُنَّ لأَيْدِينا منَاديلُ:يريد أنهم يمسحون أيديهم من وضر الطعام بأعراف الخيل

[←46]

(46)والمثلث الوتر الثالث في العود وهو أقوى وأغلظ من الوتر الأول والثاني، البُمُّ: الوتر الغليظ من أوتار العُود، زاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وترًا خامسًا اختراعًا منه، أكسبه تنوعًا. وقوادم النسر، ريش طويل في مقدمة جناحه.

[←47]

(47)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (3/ 124)، والمغرب في حلى المغرب (2/ 96)، وتاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس (ص: 426).

[48←]

(48)راجع: الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي (1 / 76). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (2 / 639)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك (1 / 186)، التكملة 4 ترجمة 274، سير أعلام النبلاء للذهبي (8/260)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (1 / 6).

[49←]

(49)الأبيات للصِّمَّة القُشَيْرِيّ، الحماسة المغربية (2/ 936).

[←50]

(50)ينظر: المغرب في حلى المغرب (1/ 41) ، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (2 / 214). وعبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو المطرف القنازعي: فقيه، مالكي، من رجال الحديث والتفسير. من أهل قرطبة. رحل إلى المشرق سنة 367 هـ، وعاد سنة 371 والقنازعي نسبة إلى عمل «القنازع» وكان يصنعها، ويرجح أنها صناعة القلانس، له «شرح الموطأ» توفى سنة 413 هـ.

[51←]

(51)الأبيات لِابْنِ الْعَمِيدِ كما في أدب الدنيا والدين للماوردي (1 / 82).

[52←]

(52)ينظر: نفح الطيب (4 /20- 25)، والسفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة - (1 / 222).من جِلَّةِ المقرئين: أي من كبارِهم وسادتِهم. نَشِبَ: إذا علق فيه زِنَاد: ما تُقدحُ به النار.)

[53←]

(53)محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد بن الحسين بن كميل اللخمي الأشبيلي المعروف بابن المرخي، ت 508. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (4/ 533).

[←54]

(54)أصله من سَرَقُسطة، وانتقل إلى (مُرسية) وقام برحلة إلى المشرق في أول محرم سنة 481هـ أدى خلالها فريضة الحج، وانصرف إلى البصرة، ودخل بغداد يوم الأحد 16 جمادى الآخرة 482 ، ولبث فيها خمس سنين، ثمّ تحول إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وعاد إلى مُرسية في صفر 490هـ، بلغ عدد من أخذ عنهم (160) شيخًا.

[55←]

(55)معجم القاضي أبي على الصدفي (ت514). ص 142.

[56←]

(56)أحمدُ بن عبد الملِك بن عَمِيرةَ بن يحيى الضَّبِّي، اللُورَقيُّ. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (1/ 443).

[57←]

(57)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (3 / 577).

[58←]

(58)انظر: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، لأبي بكر بن خميس المالقي 639 هـ (ص: 74).

[←59]

(59)صحيح مسلم (3/ 1302) 25 - (1676) باب ما يباح به دم المسلم.

[60←]

(60)انظر: سراج الملوك، للإمام أبي بكر الطرطوشي (ت520هـ) (ص: 167). ومعنى الدعائم على لسان الفقيه هم الشهود الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم بهما ولا يقبلا فيه، فإذا كثروا قوّى بعضهم بعضًا فلا يثبت الحكم ببعضهم، بل بمجموعهم.

[61←]

(61)- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (2 / 201). ونفح الطيب (2 / 249).

[←62]

(62)قال ابن سعيد، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت: 685هـ): أما أصول الخط المشرقي وما تجد له في القلب واللحظ من القبول فمسلم له، لكن خط الأندلس الذي رأيته في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسنٌ فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، انتهى. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (3/ 151).

[63←]

(63)انظر: التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي (658هـ)، (2/ 105)، الوافي بالوفيات، الصفدي (ت 764هـ) (3/280).

[64←]

(64)انظر: المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد (ت 685هـ) (2/ 193).

[65←]

(65)انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (3 / 367). ومملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح، الدكتورة مريم قاسم طويل 443 ـ 484/ 1051 ـ 1091 م، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص. 144.

[←66]

(66)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - (3 / 368)، والتكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت 658هـ) (4/ 252) قال ابن بسام عن الملك الذي وافه الأجل: ولم يكن من فحول الملوك، بل أخلد إلى الدعة، واكتفى بالضيق عن السعة، واقتصر على قصر يبنيه، وعلق يقتنيه، وميدان من اللذة يجرى عليه، ويبرز فيه، غير أنه كان رحب الفناء، جزل العطاء، حليمًا عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال ، وآل أمره مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى أن حصره جيشه، وهو ينازع حشاشة نفسه، فمات على فراشه، وفر أولاده بمالهم في البحر إلى سلطان بجاية ، وملك الملثَّمون البلد.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (2/ 732).

[67←]

(67)أبو محمد بنُ عاتٍ هارون بْن أَحْمَد. أَبُو مُحَمَّد النَّفْزِيّ، الشاطبيّ، الْمُقْرِئ. ت 582 هـ تاريخ الإسلام للذهبي (12/ 755). مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن مُحَمَّد، أَبُو جعفر بن أبي جعفر الخُشْنيّ، المُرْسِيّ. ت 540 هـ شَرَح المُدَوَّنة. تاريخ الإسلام (11/ 733).

[←68]

(68)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (4 / 353).

[69←]

(69)نهاية الأرب في فنون الأدب شهاب الدين النويري (ت 733هـ) (23 / 259).

[←70]

(70)نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (23 / 259).

[←71]

(71)المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 196).

[←72]

(72)وكان عبد الله قد طلب من النبي- صلى الله عليه وسلم- قبل أن يُشهر إسلامه أن يعرف الجميع مكانته، وأن يستدعي اليهود لأنهم قومٌ بُهتٌ متى علموا بإسلامه بهتوه وانتقصوا منه، فاستدعى النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- أكابر اليهود، وعرض عليهم الإسلام فأبوا، ثمّ سألهم عن مكانة عبد الله بن سلام فيهم؟ فأثنوا عليه خيرًا، قالوا: سيدنا وابنُ سيدنا وحبرُنا وابنُ حبرنا، فال لهم: أرأيتم لو أسلم؟ قالوا: معاذ الله! ما كان له أن يسلم أبدًا. وهنا خرج عليهم عبدُ الله ونطق بالشهادتين، فبُهتوا وقالوا: أنت شرّنا وابن شرِّنا، وجاهلُنا وابنُ جاهلنا!. السيرة النبوية لابن هشام (213هـ) (1/ 516).

[←73]

(73)راجع: مقدمة تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، لأبي عبد الله الترجمان الميورقي، (ت 1423هـ) ط3 دار المعارف، (ص11) واتفق لي في أيامه بالديوان وأنا قائد البحر والترجمة أن مركبًا قدم مليئًا بسلع للمسلمين، فلما أرسى دخل عليه مركبان من صقلية، فأخذاه لحينه بعد أن هرب المسلمون منه برقابهم واستولى النصارى على أموالهم. فأمر مولانا أبو فارس صاحب ولاية الديوان وشهوده أن يخرجوا إلى خلف الوادي ويتحدثوا مع النصارى في فداء أموال المسلمين فوصلوا وطلبوا الأمان للترجمان الذي كان معهم فأمنوه فصعد إليهم لمراكبهم وتحدث معهم في الفداء فتغالوا في ذلك ولم يحصل منه شيء. وكان قد ورد في هذا المركب قسيس كبير القدر من صقلية وكانت بيني وبينه صداقة قديمة، كأننا إخوة، أيام كنا نطلب العلم جميعًا، وسمع بإسلامي فثقل عليه الأمرُ، فقدم في المركب ليستدعيني إلى الرجوع لدين النصارى ويأخذني متوسِّلًا بالصداقة التي كانت بيني وبينه. فلما اجتمع بالترجمان الذي صعد إليهم للمركب قال له: ما اسمك؟ قال له: علي. قال: يا علي خذ هذا الكتاب وبلغه للقائد عبد الله قائد البحر عندكم بالديوان، وهذا دينار، وإذا أرجعت لي جوابه أعطيتك دينارًا آخر. فقبض منه الدينار والكتاب وجاء خلف الوادي. فأخبر صاحب الديوان بكل ما قالوا له ثمّ أخبره بمقال القسيس وبالكتاب الذي أعطاه وبالدينار الذي استأجره به. فأخذ صاحب الديوان الكتاب وترجمه له بعض تجار الجنوبيين. فبعث الأصل والنسخة المترجمة لمولانا أبي فارس فقرأه ثمّ بعث إليَّ فوصلتُ بين يديه فقال لي: يا عبد الله هذا الكتاب وصل من البحر، فاقرأه وأخبرنا بما فيه. فقرأتُه وضحكتُ. فقال: ما الذي أضحكك؟ فقت: أعزكم الله هذا الكتاب مبعوث إلي من عند قسيس كان من أصدقائي وأنا أترجمه لكم الآن. فجلست ناحية وترجمته بالعربية ثمّ ناولته الترجمة فقرأها ثمّ قال لأخيه المولى إسماعيل: والله ما ترك منه حرفًا. فقلت: يا مولانا بأيّ شيء عرفت ذلك؟ فقال: نسخة أخرى ترجمها لنا الجنوبيون. ثمّ قال له: يا عبد الله وماذا عندك أيضًا في جواب هذا القسيس؟

فقلت له: الذي عندي ما علمتُموه فيّ من كوني أسلمتُ باختياري رغبةً في دين الحق. ولستُ أجيبه إلى شيء مما أشار إليه.

فقال لي: قد علمت صحة إسلامك ولا عندنا فيك شك، ولكن الحرب خدعة فاكتب له جوابك أن يأمر صاحب المركب أن يفدي سلع المسلمين ويرخِّص عليهم، وقل له إذا اتفقتم مع المسلمين على سعر معلوم، فسأخرج مع الوزان بقصد وزن السلع، ثمّ أهرب إليكم بالليل.

ففعلتُ ما أمرني به وأجبتُ القسيس لهذا الجواب ففرح وأرخص على المسلمين في فداء متاجرهم وخرج الوزان فلم أخرج معه، وانتظرني القسيس حتى أيس مني، فأقلع مركبه، وانصرف، وكان نص كتابه إليَّ بعد السلام عليك: من أخيك قرانصو القسيس. نعرفك أني وصلت هذا البلد من أجلك لأحملك معي إلى صقلية. وأنا اليوم عند حاكم صقلية بمنزلة، حتى أني أولي وأعزل وأعطي وأمنع وأدبّر جميع مملكته بيدي، واسمع مني وأقبل إلى بركة الله، ولا تخف ضياع مال ولا جاه ولا غير ذلك، فإن عندي من المال والجاه ما يغنيك، وأعمل لك ما تريد، ولا تتحيل بشيء من أمور الدنيا فإنها فانية، والعمر قصير، والقبر بالمرصاد، فخفِ الله تعالى، واخرج من ظلمة الإسلام إلى نور النصرانية، واعلم أنّ الله ثالث ثلاثة في ملكه، ولا سبيل أن تفرد ما جمعه لنفسه. وأنا أعلم أنك تعلم من هذا كله ما لا أعلم، ولكن ذكّرتك لأنّ الذكرى تنفع المؤمنين، فانتبه من نوم الغفلة، واجعل جوابَ هذا ورودك عليَّ، ومثلك لا يحتاج إلى معلم. والسلام.

[←74]

(74)من مقال للأستاذ سليم بن عمارة، بعنوان تراثنا المسجّى.. في مكتبة مدريد الوطنية. سردها د. محمد شبيلي القرني 1435/2/14

[←75]

(75)المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (رحمه الله) (2/ 777).

[←76]

(76)أشرقه: من شرق أي غُصَّ.

[77←]

(77)المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها للأستاذ عبد الله عفيفي الباجوري 2/ 8-11 بتصرف

[←78]

(78)قال الذهبي مستهلًّا ترجمته له في كتابه «سير أعلام النبلاء».. بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ: الإِمَامُ، القُدْوَةُ، شَيْخُ الإِسْلاَمِ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْدَلُسِيُّ، القُرْطُبِيُّ، الحَافِظُ، صَاحِبُ (التَّفْسِيْرِ) وَ (المُسْنَدِ) اللَّذَيْنِ لاَ نَظِيْرَ لَهُمَا. وقال عنه ياقوت الحموي:» وكانت له رحلتان: أقام في إحداهما نحو العشرين عامًا، وفي الثانية نحو الأربعة عشر عامًا، فكان يطوف في الأمصار على أهل الحديث، فإذا أتى وقت الحج أتى إلى مكة فحج، هذا كان فعله كلّ عام في رحلتيه جميعًا. وكان يلتزم صيام الدهر، فإذا أتى يوم جمعة أفطر، وكانت له عبادات كثيرة من قراءة القرآن وغيرها من الصلوات ونشر العلم. معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (2/ 747).

[79←]
(79)الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لابن بشكوال (1 / 39). مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (1 / 696).

[←80]

(80)الصلة ، لابن بشكوال (1 / 65).

[←81]

(81)ومصداق هذه القصة العجيبة ما ورد في السنة عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إلّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ألا نَتَعَلَّمُهَا؟، فَقَالَ: « بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا) رواه الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح.

[←82]

(82)الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (3/ 416).

[83←] (83)التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للإمام القرطبي (ص: 206).

[←84]

(84)انظر: الحلة السيراء (2/ 61)

[←85]

(85)نفح الطيب (1 / 440).

[←86]

(86)انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (1 / 140). إنها طبيعةُ كثيرٍ من النساءِ- إلّا من رحم الله- ينسين الوُدّ وينكرن الجميلَ ويكفُرن العشيرَ، قال علقمة بن عبدة: فإن تسألُوني بالنساءِ فإنّني

بصيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه

فليس له في وُدِّهِنّ نصيبُ

بهجة المجالس وأنس الجالس - (1 / 184).

ولقد حذَّرهنّ نبيُّنا -صلى الله عليه وسلم-من مغبَّةِ هذه الخصلةِ الذميمةِ وعاقبتها الوخيمة، روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أضحى، أو فطرٍ، إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ)، فقلن: وَبِمَ يا رسولَ الله ؟ قال: (تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أذهبَ للبِّ الرجلِ الحازمِ من إِحْدَاكُنَّ)، قلن: وَمَا نُقْصَانُ ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادةُ المرأةِ مثلَ نصفِ شهادةِ الرجلِ)؟ قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصانِ عقلِها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ)، قلن: بلى، قال: (فذلكَ من نقصانِ دِينِها) رواه البخاري ومسلم.

[←87]

(87)الحلة السيراء، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت 658هـ) ص (2/63).

[←88]

(88)نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، لمؤلف غير معروف، عاصر تلك الأحداث، المحقق: د. محمد رضوان الداية (ص: 41- 45)

[←89]

(89)نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر (ص: 94).

[←90]

(90)نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر (ص: 121).

[←91]

(91)انظر: (محاكم التفتيش والموريسكيون: محاضر محكمة كوينكا)، مرثيديس غارثيا ــ أرينال، ترجمة خالد عباس، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن) نشر: المجلس الأعلى للثقافة، المركز القومي للترجمة. الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ترجمة مصطفى قاسم، أبوظبي، مشروع كلمة،2009م ، تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، أنطونيو دومينغوث أورتيث،وبيرنارد فانسون، ترجمة محمد بنياية، ط1، 2013 أبوظبي» مشروع كلمة» مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، محمد علي قطب(ت 2010م) ط دار الاعتصام بمصر.

[←92]

(92)انظر: محاكم التفتيش في الأندلس محمد علي قطب 105، والبيت الأندلسي، واسيني الأعرج 65، و"محاكم التفتيش والموريسكيون: محاضر محكمة كوينكا"، لمرثيديس غارثيا ــ أرينال. والدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار.

[93←]

(93)الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (3/ 433).

[94←]

(94)انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: 157).

[95→]
(95)انظر: نفح الطيب (4 / 123)، والمغرب في حلى المغرب (1 / 113).

[←96]

(96)الصلة (1 / 132). وَالمِشْجَب: ما يعلق عليه الثوب ونحوه.

[97←]

97)ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت 764هـ). (2/ 87)

[←98]

(98)رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها (2 / 227).

[←99]

(99)الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ومحاكم التفتيش والموريسكيون: محاضر محكمة كوينكا، مرثيديس غارثيا ــ أرينال، وتاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، أنطونيو دومينغوث أورتيث،وبيرنارد فانسون.

[←100]

(100)خاتمة كتاب «الأنوار النبوية في آباء خير البرية» في ذكر نسب سيد أهل الأرض والسماوات، مع تعريفات ببعض رجال هذا النسب الشريف. للإمام الفقيه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي المرسي الشريف الحسني، نزيل تونس سنة 1013هـ، (ت1052هـ).

[←101]

(101)قال الإمام أبو حامد الغزالي: «قَدْ نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ: إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ مَنْدُوحَةً عَنِ الكذب، قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟ ... وإنما أرادوا بذلك إِذَا اضْطَرَّ الْإِنْسَانُ إِلَى الْكَذِبِ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَاجَةٌ وَضَرُورَةٌ فَلَا يَجُوزُ التَّعْرِيضُ وَلَا التَّصْرِيحُ جَمِيعًا، وَمِثَالُ التَّعْرِيضِ: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب، فقل إن الله تعالى ليعلم ما قلتُ من ذلك من شيء، فيكون قوله «ما» حرف نفي عند المستمع وعند المتكلم الموصول. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي الطوسي (ت 505هـ) (3/ 139) بتصرف.

[←102]

(102)3 فراسخ = 14.48 كيلًا.

أُمُّ الرَّبِيع أحد أكبر أنهار المغرب، ينبع من سلسلة جبال الأطلس المتوسط ويتجه غربا ليصب في المحيط الأطلسي عند مدينة أزمور الماثلة على ضفته اليسرى. يبلغ طوله 555 كم

[←103]

(103)يقول المستشرق كامبل في كتابه (الطب العربي): «كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يُمنحون لقب طبيب جرّاح، أما في أوروبا فكان لقبهم حلاّق جرّاح، وظلَّ هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري».

[←104]

(104)انظر مقدمة المؤلف، كتاب: ناصر الدين على القوم الكافرين، رحلة أفوقاي الأندلسي، أحمد بن قاسم الحجري.

[←105]

(105)مسيرة 83 ميلًا= 135كم.

[←106]

(106)اطلب مني ما تحبُّ- وهي عادة عند الملوك لمن رضوا عنه كلّ الرضا.

[←107]

(107)ناصر الدين على القوم الكافرين، رحلة أفوقاي الأندلسي، أحمد بن قاسم الحجري107

[←108]

(108)المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس (11/157).

والحريري هو الإِمام المشهور أبو محمَّد قاسم بن علي الحريري: المتوفى سنة 516 هـ

[←109]

(109) تعقيب على القصة: هناك بالفعل من زاد على البيتين فعززهما بثالث بل ورابع وخامس من هؤلاء: الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المدرس الرحبي المعروف بابن المتقّنة برحبة مالك لنفسه: ما الأَمَةُ الوَكْعاءُ بين الورى

أَخَسَّ مِن حُـرٍّ أخي مَلأَمَهْ

فَمَهْ؛ إذا استُجديتَ عن قَوْلِ لا

فالحُـــرُّ لا يَمْــلأُ منها فَمَهْ

قال: قال لي: كان سبب عملها أنّ بعض المتأدّبين كان يقرأ علي مقامات الحريري فمرّ بالبيتين اللذين له وهما: سِــمْ سِمَةً يَحْسُـــنُ آثــارها

واشكُرْ لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ

والمَكْــرُ مَهْمَا اسْطَعْتَ لا تَأْتِهِ

لتَقْتَني السُّـــؤْدُدَ والمَكْــرُمَهْ

وقال ابن الحريري عقِبُهما: وأمِنّا أن يُعَزّزا بثالث، فعملت هذين البيتين.

وللأستاذ المحدث الفقيه النحوي الأصولي: أبو القاسم السهيلي ت581هـ زيادة على البيتين، منها: والمَهرَ مَهْرَ العُرس لا تُغْله

فإنّه مهـــما غَـــلا مَهْرمَهْ

مَن دَمَــه صان لحِرْزِ التُّقي

لم يَخْش من لَوْم ولا مَنْدمه

مَنْ عَمَهُ القَلْب له شِيمةٌ

لم يَدْر ما بُؤسَي ولا مَنْعمه

وتَلاهُ أبو زَيْد التُّميليُّ بالزّيادةُ على البيتَيْن: مَنْ دَمَهُ صانَ بحِرْزِ التُّقى

لم يخشَ مِن لوْمٍ ولا مَنْدَمهْ

مَنْ عَمَهُ القلبِ له شِيمةٌ

لم يَدْرِ ما بُؤسٌ ولا مَنْعَمَهْ

وأروع من هذا كله قول ابن العفيف أيضًا: إنّ الـــذي منـــــزله

من سحب دمعي أمرعا
لم أدر مـــن بعدي هل
ضيّع عهدي أم رعى؟

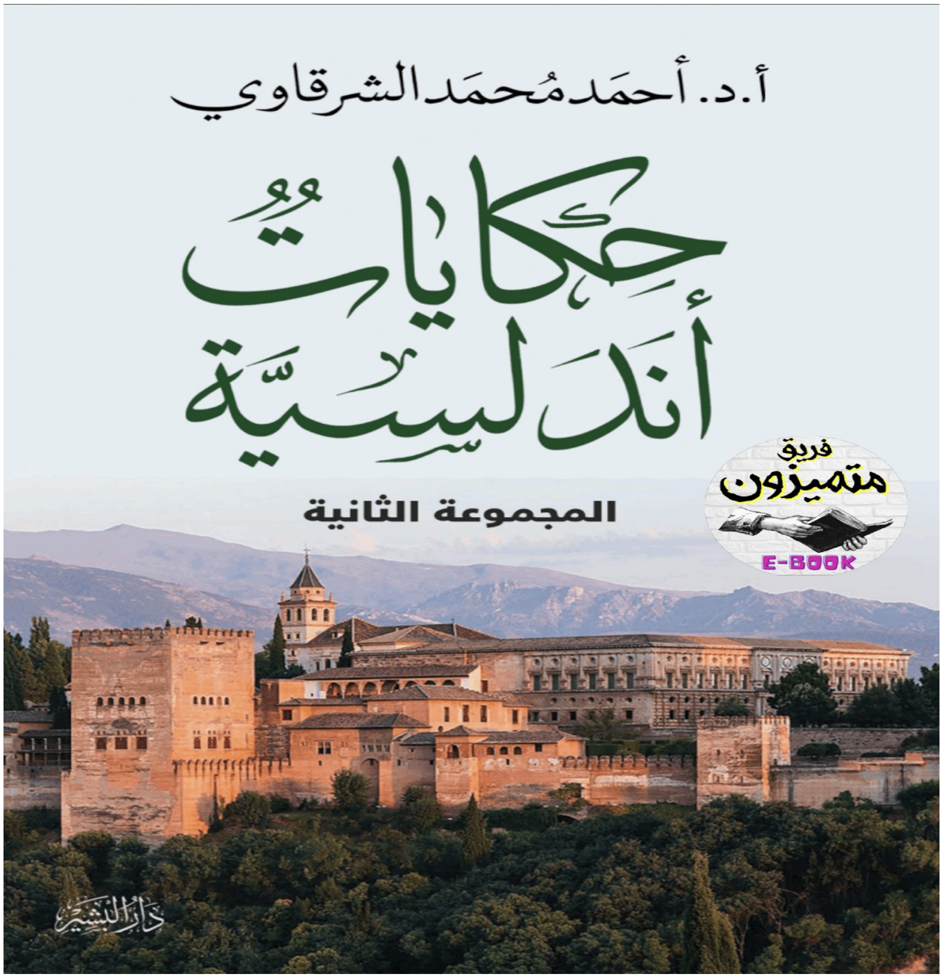
أ.د. أحمَد مُحمَد الشرقاوي
حِكاياتُ
أندَلسِيَّة
المجموعة الثانية
دار البشير
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

**كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**

**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**


**مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# حكايات أندلسية

(المجموعة الثانية)

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرَّحيم

# عن الكتاب..

يطيب لي أن أقدم لعشاق الأندلس، المجموعة الثانية من الحكايات الأندلسية، والتي جمعتُها وانتخبتُها من عشرات المراجع، راجيا أن يلمسَ القارئُ فيها المتعة والفائدة، ويتعرف من خلالها على تاريخ الأندلس ورجالها، ويطوفُ بحواضرها، ويقف على حضارتها، وطبيعتها الخلابة، ويتعرّف على أحوال الأندلسيين وعاداتهم، ومحاسنهم وفضائلهم، كما سيشهد فيها عوامل ازدهار الأندلس، وأسباب ارتقائها، ومعاول الهدم والتفرقة التي أدت إلى السقوطِ وما صاحبه وتلاهُ من مآسٍ ومحن. وسيرى كيف جاب طلاب العلم الأندلسيون حواضر العالم الإسلامي من المغرب حتى بلاد فارس والهند، طلبا للعلم، حتى صارت الأندلس، حاضرة الدنيا.

لقد بذلتُ وسعي في جمع هذه الحكايات وصياغتها بأسلوب سهل مشوّق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مقدّمة

هذه حكايات! وللحكاية وقعها في النفوس، وإثارتُها للعقول، وتأثيرها في الوجدان.

فوق أنها أندلسية؛ وما الأندلس!

اسم له عذوبتُه وجرسُه، ورونقُه وعبقُه، وجلالُه وسحرُه.

اسمٌ تحنُّ إليه الأفئدة، وتهفو إليه النفوس.

الأندلس: عشقٌ قديمٌ نتوارثُهُ جيلا بعد جيل.

الأندلسُ: زمانُ الوصل الجميل، وعهودُ مجدٍ أثيل.

الأندلس: أرضٌ مباركة، وتربةٌ خصبةٌ، كم تفتَّقتْ عن ثمارٍ وكم تضوّعَت برياحين! وكم أنبتت من علماء وأدباء، وأخرجت مجاهدين ومصلحين!

الأندلس: أنهارٌ مطَّردةٌ، وعيونٌ جاريةٌ، وظلالٌ وارفةٌ.

يا أهلَ أندلسٍ لله درُّكُمُ

ماءٌ وظِلٌّ وأشجارٌ وأنهارٌ

الأندلس: حضارة زاهرة، وطبيعةٌ ساحرة، وجنان مُثمرة، ومروجٌ مزهرة، ومدائنُ وقرى حاضرة، ومساجدُ عامرة، ودورٌ فسيحةٌ باهرة، وأسواقٌ بالخيرات وافرة، ومكتباتٌ بالعلوم زاخرة.

الأندلس: مدينة الزهراء والزاهرة، وقصور الحمراء، وجنات غرناطة، وجسر قرطبة، ومنارة أشبيلية، وجبال البشرات، وبيت الحكمة، ونواعيرُ طليطلة.

إن للجَنَّـــةِ بالأندَلُـــسِ

مُجْتَلَى عَينٍ وريَّا نَفَسِ

فإذا ما هبَّت الريحُ صَبا

صِحْتُ واشوقِي إِلى الأندلسِ

حكاياتٌ أندلسية سنلمَسُ فيها كيف يولدُ الأمل من رحم اليأس، كيف تنقلبُ المحنُ إلى مِنَح، كيف يصبح الغريبُ ملكًا، والملكُ غريبًا، كيف تكون عاقبة الصبر والمثابرة؟ كيف يحصد الإنسان مما غرس!

ونرى كيف سطّر العلماء صفحات من الصبر والتضحية والمثابرة والمجاهدة حتى بلغوا ذُرى المجد!

ونشاهدُ في هذه الحكايات الجمال الأندلسي، الذي يتمثّلُ في كل مشهدٍ وكلّ صورة وكلّ حكاية، جمال المدائن والريف، جمال الأنهار والعيون، جمالِ الجبالِ حين تكسو قممَها الثلوج ، وينسابُ الماء في جداول رقراقا، جمالُ الربيع في خضرته وأزهاره، وأصوات أطياره، وموسم الحصاد في الحقول ، وجمال الصيف في ظلاله الوارفة، ونسائمه العليلة، وثماره الناضجة، وجمال الخريف في ألوانه المتوهّجة فوق الأشجار، وحين تتساقط الأوراق فتنسج بساطا ملونا تتداخل فيه الخضرة والصفرة والحمرة، تمتزجُ في تناسقٍ عجيب، وجمال الينابيع وجمال يوم الحصاد، وجنى الثمر في البساتين، {انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

ثم جمال الشتاء حين ينهمرُ المطرُ ويغسلُ الأشجارَ والطرقاتِ، ويروي الحقول والمراعي، ويبعث البهجةَ والفرحَ، وحين تتساقطُ الثلوج فتكسو الطبيعة باللون الأبيض الناصع، جمال البيوت الأندلسية من الخارج والداخل، جمال القصور والدُّور وما بداخلها من حدائقَ غنَّاء وغُرفٍ وزخارفَ وأبهاء ، جمال الخطِّ وجمال الأدبِ الأندلسيِّ، بعبقه ورونقه، ثم جمال النفوس والطباع والذي يفوق كلَّ جمال.

وسنجتلي في هذه الحكايات صورا من حياة العلماء وأخلاقهم ومآثرهم.

ونقلّبُ صفحات ناصعة من تاريخ حكام الأندلس، نلمس فيها النجدة والنخوة، والسخاء وطيب النفس، والعزة والإباء، والرحمة والبر والإنصاف، والعدل والتسامح والإغضاء. ونتأمل في تدبير الملوك وسياستهم، ونغشى مجالسهم العلمية والأدبية، لندرك مكانة الأدباء والشعراء في مملكة الشعر والأدب؟

ثم نتابع من خلال حكاياتنا، كيف صارت الأندلس حاضرة الدنيا، ودرة الممالك!

كيف كانت واحةً للأمن، وملاذًا لكلِّ من يبتغي العيشَ الرغيدَ، كيف ازدهرتْ وفاقت غيرَها من البلاد حتى كان يؤمُّها طلابُ العلمِ ويقصدُها التجار، ويخطبُ ودَّها الملوك! ثم كيف تناثرَ العقد، وتفرَّق الجمع وغربت شمس الحضارة؟

كما ستجيب تلك الحكايات عن السؤال المعهودِ، لماذا سقطت الأندلس؟ هل بسبب تقصير أهلها وتفريطهم أم أنها المؤامراتُ والمكائدُ؟ أم هما معًا؟

وستمرُّ بنا مشاهدُ داميةٌ مفعمةٌ بالغدر والكيد، من أجل الذَّود عن مُلْكٍ، أو توطيده، ومجابهة من ينازعه.

كما ستكون لنا أمام محاكم التفتيش وقفاتٌ أسيفةٌ، نرقُبُ مشاهدَها من داخل تلك الأقبية المخيفة.

وتُقِلّنَا هذه الحكايات إلى القصور الملكية، الزهراء والزاهرة والمبارك والشراجيب، ندلُفُ إلى الأبهاء والمقاصير، ونجلس الأصائل والضَّحوات في الشُّرفات، لنمتِّع ناظِرَينا بجنَّات قرطبة وقنطرتها، وروابي أشبيلية وسوقها، وسهول طليطلة وجسرها، وبساتين غرناطة وفحوصها، وتمضي بنا الحكاية في دروب أشبيلية وأزقَّتها لنطرق الباب مع ابن عباد وابن عمار على شيخ ظريف، ونسير في أحياء قرطبة، وننعطف في شوارعها الضيقة وندخل بيوتا متواضعة سكنها عظماء، نعيش معهم مواقف عصيبة وأزمات مرت بهم ونبقى حتى نشهدَ لحظات الفرج، ونرى الفرحةَ في الوجوه.

وكم سنقف مبهورين أمام كرامات الأولياء الدالَّةِ على صلاحهم واستقامتهم، ومقامهم عند ملك الملوك، كيف تُقضَى بدعواتهم الحاجات، وتنفرج الهموم، وتنكشف الكربات.

وسنذرفُ الدمعَ ثخينًا في قصور الحمراء، ونقفُ على أطلال الزاهرة والزهراء، ونبكي في محراب مسجد قرطبة، ونرقبُ مآذنه التي لم يرفع فيها الأذان منذ ثمانية قرون، ونردِّد مع إقبالٍ رحمه الله، حين زار قرطبة، ورفع بصره إلى مئذنةٍ، وقال:

إن أرضا أنت فيـها لسمـاءٌ للعيـونْ

كيف لم يَسْمَعْ أَذَانًا أهلُها مـنذ قرونْ؟

ثم نُصّغي إليه وهو ينشد:

صوتُ المنائرِ في نسيمِك يرقــدُ

وصداهُ في أرواحـنـا يـتردَّدُ

يا توأمَ الحرمِ الشريفِ تطوَّفــتْ

بك ركَّعٌ من عاكفين وسجَّـدُ

سيماك من أثرِ السجود على

الثَّرى طَرَبٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجـدَّدُ

ومن خلال الحكايات سنمضي إلى السوق القريب، ونستمع إلى أصوات الباعة ينادون على بضاعتهم! بعدها نذهب إلى «بيت الحكمة»، مكتبة الحكم المستنصر، لنرى كيف بذل في جمعِها وترتيبِها والعنايةِ بها من وقته وماله ما جعلها أعجوبةَ الزمان، ونادرة الدهر، وحين نطَّلع على سجلاتها سنعرف نفاسة ما تضمَّنته من ذخائر، ثم نسير على جسر قرطبة، فنجدد عهودا وذكريات.

وستنتقل بنا الحكايات من أعظم حفلِ عرسٍ أندلسيٍّ في قصور الزهراء بقرطبة حيث تُزَفُّ أسماء بنت غالب إلى محمد بن أبي عامر، وبمباركة الحكم المستنصر وزوجته صبح، ثم تنتقل لقصر طليطلة حيث أكبر وليمة أندلسية، لنرى ماذا أعدَّ الأميرُ لأضيافِه من ألوانِ الطعامِ والشراب، وسبلِ الرَّاحة والمتعة، وصنوف السرور والبهجة؟

وسنرحل مع طلاب العلم إلى أرجاء العالم الإسلامي، وننظر كيف تسلَّحوا بالصبر والتُّقى، وتحصَّنوا بالتوكل واليقين! وتذرَّعوا بالتعفُّف وعزَّة النفس. ونتابع على مدار يومٍ كاملٍ فقيهَ الأندلس بقيَّ بنَ مخلَد، كيف يمضِي يومَه؟

وبعد: فهذه المجموعة الثانية من الحكايات الأندلسية، أقدِّمها للقرَّاء الكرام، بعد نشر مجموعتي الأولى، وقد لمستُ حفاوة القراء الكرام بها، حتى ألحّ بعضهم أن أسارع إلى إخراج المجموعة الثانية، فنهضتُ أجمع هذه الحكايات من بطون الكتب واطلعت على مئات المراجع الأندلسية وغيرها مما يمتُّ للأندلس بصلة، ثم قدّمتُها بأسلوبٍ أرجو أن يكون رصينًا ومشوّقًا، حافلا ثريًّا.

وأنوّه على ما ذكرتُه آنفًا أن أغلبَ الحكاياتِ وقعت على أرض الأندلس، وبعضَها وقع لأندلسيين خارج الديار الأندلسية، وبعضها شاهدها رحالةٌ أندلسيٌّ أو سمعها، فالمراجعِ الأندلسيةِ بحارٌ زاخرةٌ لا تزالُ تنتظر المزيدَ من الغواصين والباحثين عن هذا التراث الخالد والكنز التالد، والفردوس المفقود.

أُهدي هذا العملَ لوالديَّ الكريمينِ رحمهُما الله، ولزوجتي أم محمد التي كانت أول من قرأ هذه الحكايات، وشدَّ من أزري، كما أُهديها لكلِّ من ساعدني بكلمة أو بدعوة أو توجيه، جزى الله الجميع خير الجزاء.

وأُهدي هذا العمل لكل من يبحث عن الأدب الهادف، ويشاطرني الشغَفَ بالأندلس.

وأسأل الله المغفرة والقبول.

كتبها أ.د/ أحمد محمد الشرقاوي سالم.

كان الفراغ منها في مصر المحروسة

يوم السبت الموافق ٤ /٤/ ١٤٤٤هـ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# صقر قريش

في قرية من القرى الحاضرة على نهر الفرات، كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مختبئا عند أخوالٍ له، ومعه أخوه الأصغر، بعيدا عن سطوة العباسيين وانتقامهم من كلِ أمويٍّ، لكن هؤلاء المتغلبين قاموا بحيلة ماكرة، أعلنوا العفو العام عن كلِّ أموي، وتظاهروا بالأسف على ما سلف من سفك الدماء، فلما خرج المختبئون من مكامنهم، أعملوا فيهم السيوف، في موقفٍ ينمُّ عن لؤم وغدر.

جلس عبد الرحمن يفكر في حاله، وقد أصاب الرمدُ عينيه، إلى أين أذهب؟ وعيون أبي العباس السفاح في كل مكان، وجنوده الذين يحملون الرايات السود، وكأنهم جانٌّ خُضر... وبينما هو غارق في تفكيره إذ أتى من يخبره أنهم قادمون على خيلهم، فعلم أنه المقصود، فانطلق واستطاع أن يأخذ صرَّةً من الذهب يتزود بها للمجهول الذي ينتظره إن نجى، قال:«فَأَخَذْتُ دَنَانِيرَ مَعِي وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي وَأَخِي، وَأَعْلَمْتُ أَخَوَاتِي بِمُتَوَجَّهِي، فَأَمَرْتُهُنَّ أَنْ يُلْحِقْنَنِي مَوْلَايَ بَدْرًا».

كان معه أخوه الأصغر، فلم يجد مهربًا سوى عبور الفرات إلى الشاطئ الآخر، فألقى بنفسه في النهر، وخلفه أخوه، ونجح في الوصول إلى الشاطئ الآخر والنجاة من جنود السفاح، لكن التعب أدرك أخاه، فسمع قائد العسكر يناديه ويمنّيه بالعفو، فأخذ يصرخُ محذِّرًا له من غدرهم، فتحيَّر الصغيرُ، أيواصل عبور النهر، وهذا أمرٌ أعياهُ وأعجَزَه، أم يرجع وله الأمان!

فاختار الرجوع والاستسلام، وعاد للشاطئ وليته ما عاد؛ إذ ما إن وصل حتى ذبحوه كالخراف، وأخوه على الضفة الأخرى يرى الفاجعة، ويتقطّع كمدًا وحُزنًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا للحقد الأسود! لم يرحموا طفولته البريئة!

ومن هنا بدأت رحلة عبد الرحمن بن معاوية باتجاه الغرب متخفِّيًا ومتنكِّرًا؛ فالعيون ترصدُه في كل مكان، وخبر هربه يسبقه، مما اضطرَّه لسلوكِ طرقٍ غيرِ مأهولة، ودروبٍ وعرة، حذرًا من ملاحقيه في كل مكان. نجح في الفرار من فلسطين إلى مصر، ومنها غربا، حيث لجأ إلى أخواله من قبيلة نفزة، جهة طرابلس الغرب، وعندهم وجد الأمان، حيث الصحراء الشاسعة، والحياة البدوية القاسية، ثم من بني نفزة قبيلة أخواله إلى قبيلة مغيلة، حيث آواه أبو قرّة المغيلي، وحماه من متعقّبيه، ثم منها إلى قوم من زناتة، قرب البحر في سبتة، أقرب نقطةٍ إلى بلاد الأندلس.

ومن هناك أرسل غلامه بدرًا يستطلع له الأمر، بينما وصله مددٌ من المال عن طريق أختٍ له بالشام، فكان عونًا له وبلاغًا، ثم جاءته رسالة بدر تطمعُه في دخول الأندلس، فحلفاء بني أمية هناك سيبايعونه، وكذلك بعض القبائل اليمينة التي تحالفت معه، نكاية في خصومها، ومن ثمّ فالطريق ممهدٌ له للانقضاض كالصقر على حكمها، وإن احتاج الأمر لمناوشات ليست باليسيرة، ولكن الحسابات تبشِّر بتمكُّنه، فهو من نسل بني أمية، سليل الخلفاء، ولا أحق منه بالإمارة!

وذات يوم وهو يستعدُّ للعبور إلى شواطئ الأندلس، يأتيه من يخبره بوصول جنود تابعين للعباسيين للقبض عليه، فلا يجد مهربا، إلا أن يختبئ داخل ثياب امرأة كبيرة السن، ضخمة الجثة، فلم يشعر به طالبوه.

أخيرًا نجح في دخول الأندلس، فوجدها ممزقة بين جند الشام واليمن والبربر، واستطاع هذا المغترب الطريد - بدهائه وحنكته- أن يجمع الناس من حوله ويجهز الجند، ويخوض معارك عنيفة ضد مناوئيه فيحقق انتصارا تلو انتصار، حتى ملك زمام الأندلس.

حكاية أغرب من الخيال! بطولة عجيبة خارقة، وشجاعة نادرة، وإقدام ومضاء، وأمل يولد من رحم اليأسِ، وعزم يفلّ الحديد، ومبادرة تصنع التاريخ من جديد!

يسير آلاف الأميال من الشام إلى الأندلس، يتجاوز الأخطار يتحدى الصعاب، يعقد الآمال، يحقق الطموحات، ليُتوَّج في النهاية حاكمًا لبلاد الأندلس.

ذات يوم يتساءل الخليفة العباسي: أتدرون من صقر قريش؟

«أخبروني: من صقر قريش من الملوك؟» قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك، وسكّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء!

قال: ما قلتم شيئا! قالوا: فمعاوية؟

قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان؟

قال: ما قلتم شيئا!

قالوا: يا أمير المؤمنين! فمن هو؟

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدا أعجميا، منفردا بنفسه؛ فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته...

منفردا بنفسه، مؤيَّدا برأيه، مستصحبًا لعزمه، وطّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين!

فقال الجميع: صدقت يا أمير المؤمنين!

نعم، عبد الرحمن بن معاوية صاحب أعجب قصة في التاريخ، تحوَّل من هارب مطارد مغترب إلى خليفة يستقلُّ بحكم الأندلس، ويرثُ أبناؤه الحكم من بعده على مدار ثلاثة قرون، ويعيش أهل الأندلس في ظل مملكة آمنة، غنيّة فتيّة، في رغد وهناء، وخصب ونماء، وقد دانت لها ممالك الغرب، وأصبحت منارة للعلم والحضارة، وواحة للأمن، ورياضًا للأدب. ([1])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الوليمة الأخيرة

كان احتفالا يفوق الوصف ويتجاوز الخيال، أقامهُ المأمون ابن ذي النون ملك طليطلة لعقيقة حفيده يحيى، فدعا أمراء البلاد، وطبقة الوزراء، والقواد، فأقبلوا إليها يتهادون أرسالا، كأنهم في يوم الزحف، وقد رصد الملكُ لنفقات ولائمه، وإرغاد موائده، وتجهيز مطابخه، وتكميل أغراضه، رسومًا لم ينتهِ فيها إلى حدٍّ، فأخرج من الخزائن أكياسًا مثقلةً بالذهب، وأمر بالاستكثار من الطهاة والقدور، وإتراعِ الجفان، وتسجير الأفران، وإعداد أنواع الخبز والفطائر الأندلسية، وطَبخ أصناف الإدام المغربية والمشرقية، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، مع ألوان الشراب على اختلاف طعومها، الحلو والحامض، والحار والبارد، قد خُتِمَت أباريقها بالطيوب الزكية، فضلا عن الاستكثار من أنواع الحلوى الأندلسية، إلى حدٍّ مراعاة الحِمْيَة، لمجانبة كلّ ما يؤدي إلى داء التخمة.

هُرع صاحبُ الطعام، «رئيس الطهاة»، ومعه المساعدون للأسواق والمتاجر والمزارع لشراء أصناف الخضر والفواكه، وتأمين الحبوب والطحين، والسكر والعسل، والتوابل، وشراء ما يحتاجه الطبخُ من قدور وصحاف وأطباق وآلات، وجاء الجزارون يجرُّون قطيعا من البقر وسرايا من الغنم، مع مئات الأقفاص التي تصيح من داخلها الطيور، البط والإوز والدجاج والحمام، والسمّان والدُّراج.

صنع الطهاةُ ألوانا مختلفة من الأطعمة والأشربة الأندلسية، ثرائد متنوعة يتميز بها المطبخ الأندلسي ([2]) وأطباق المصوص وهو لحم يُنقع في الخل ثم يُطبخ، والطباهج، لحمٌ يقلى في الزيت، وكذلك السكباج، عدَّ العالم الأندلسي علي ابن رزيني التجيبي ت نحو ٦٩٥ ه، صاحب كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ٢٧ صنفا من أصناف الثريد وذكر مكوناتها ومقاديرها وطرق إعدادها وطهيها، كما ذكر المؤلف رحمه الله أكثر من ٦٠ طريقة لطبخ اللحم.

أُنفقت على المفارش الجلدية، والأواني الفضية والنحاسية والخزفية، من قدورٍ وأطباقٍ وجفانٍ، وأكوابٍ وأباريق وكؤوسٍ، فضلا عن المجامر، والمعاطر.

في بادئ الأمر قام الأمير بختان حفيده يحيى، ثم شهد ذبح الأبقار والغنم، ثم انطلق إلى المطبخ ليشرُف بنفسه، حتى إذا نضجَ الطعام أمر بفتح أبواب القصر الذي تألَّق لهذه المناسبة وازدان، وجلِّيت المقاصير والأبهاء والأروقة والأركان، وسُهِّلَ الحجاب.

ّ

ووكَل بكل جناحٍ وصيفٌ من قهارمة القصر، وكبار الخَدَمَة، ضُمَّ إليهم فريقٌ من الأعوانِ، يتصرَّفُوَن بإذن الأمير، ويصدرُون عن أمره، ويقفون عند حدِّه، قد أخذوا بخفض الأصوات، مع سرعة الحركات وخفَّة الأقدام، ولينِ الكلام، فصار من بديع ذلك الصنيع الفخم أن لم يرتفع فيه صوت، إلا صوتُ غَرْف الطعام في الجفان والقصاع، وحمل الأطباق، وإعدادِ الموائد، وأوامر ونداءات القهارمة، فطال العجبُ من استوائه، وانتظامه، في مثل ذلك المشهد البهيج، دون صخب وضجيج.

أقبل عليةُ القوم وسراةُ الناس في مواكب فخمة، بعضهم جاء على مراكب فاخرةٍ تجرّها الخيول، ومعهم النساء والأطفال في أبهى الحلل، وأروع الثياب وأنفس الحلي، وقد فتحت لهم أبواب القصر، فنزلوا بساحته الرحبة، وأحاط بهم الخدم من الفتيان الصقالبة، حيث أحسنوا استقبالهم، ونظّموا دخولهم إلى النُّزُل والأبهاء، وأجلسوهم على الأرائك، وطافوا عليهم بالماء المثلّج، وقدَّموا أطباق الفاكهة، مع مناديل الحرير والكتان، وحين اكتملوا وأُتحفوا، «أُدخلوا إلى المجلس الكبير، فلما استقرّ فيه جمعُهم أَذِنَ الأميرُ المأمون بإدخال الوزراء والقضاة والفقهاء والأعيان، ثم من يليهم من كبار الناس، فقاموا والسكينة عليهم، يتقدمهم قاضي القضاة، فأُدْخِلوا بتكريم على تؤَدَةٍ ورفق، وجيء بهم إلى الدار الكبرى الثانية ذات الساحة الواسعة، وساروا في ممرٍّ حتى وصلوا إلى مجلس مفروش بالديباج التَّسْتُري المرقوم بالذهب، قد أُسدِلَت من فوق حناياه ستورٌ متجانسةٌ في النقشِ والألوان، تكادُ تخطف الأبصار بنصاعة ألوانها وبديع وشْيِها، وقد جلس لهم الأمير المأمون، وحفيده قريبٌ منه، فأكبّ الناس عليه يهنئونه، ويلثمون أطراف ثوبه، ويتهامسون في بديع ما قد رأوا، وهو يشملهم بإقبال طرفه، ويعمُّهم بإجمال ردِّه، فيهنئونه بحفيده ويدعون له، ثم عدل بهم إلى قاعة الطعام في المجلس الأول - على ذات اليسار من تلك الدار - الواسع القطر الرحب الأبواب، وقد فُرِشَ بأفخم الفُرُش، وعلقت على أبوابه وحناياه ستور بديعة النقوش ورسومٌ تخلب العيون، وقد مدت فيه صنوف الطعام». فأقبل الضيوف بنهم يأكلون ويشربون، في لذةٍ وحبور، وبهجة وسرور.

والأمير يقبل عليهم متبخترًا في حلّة خضراء، وحوله أبناؤه، يتبعهم الخدم والحشم، يبشُّ لضيفه المكرمين، ويشرف بنفسه على إطعامهم، ويبالغ في الاحتفاء بهم وتكريمهم، ووصفاء الموائد الحافُّون من حولهم قائمين على خدمتهم، ومخوّلين بملء الأجفان قبل أن تفرغ، وإفراغُ الماء والشراب من الأباريق المترعة إلى الكؤوس والأقداح.

فلما قبض كبار الضيوف أيديهم عن الطعام بعد أن شبعوا وارتووا، أذن لهم المأمون بالانتقال إلى بهوٍ آخر، أُجلسوا فيه، وجيء بالأشنان والأعواد المطيبة

بالعطور في أطباق فضية، لتخليل آسنانهم، وطاف عليهم الوصفاءُ بمناديل الكتان الأندلسي مبللة بعطر الليمون، كادت تغنيهم بطيبها عن الغسل، ثم أدنى إليهم إثر ذلك الماء المعطر، في أباريق الفضة الرصينة، يصبون على أيديهم في طسوت، فغسلوا أيديهم ووجوههم، وأدنيت لهم المناديل، ثم نقلوا إلى مجلس الطّيب وهو أفخم تلك المجالس، له إطلالة على نهر التاجو الكبير، يحارُ الجالسُ فيه بين جماله وبهائه، فشرع الخدمُ في تطييبهم بمجامر الفضة البديعة حيث تفوح رائحة خشب العود والصندل، فتتخلل لحاهم وتعطّرُ ثيابهم بعد أن نُدِّيت برذاذ ماء الورد الجوري، وصُبَّ من فوق رؤوسهم عطرٌ هو مزيجٌ من زهور ربيع روابي طليطلة، ثم أدني إليهم قوارير من مسك الغزال المحكمة الصنعة، الرائقة الهيئة، قد أترعت بالغوالي الذكية، المنتخبة من خالص المسك، وصفوة العنبر المغربي، لاءم بينها رشح البان البرمكي، فتناولوا من ذلك على وجوههم ولحاهم، حتى كادت أن تعيد شيبهم شبابا.

فلما استوفوا حقَّ الحفاوة والتكريم، من طعامهم وطيبهم، أقيموا للدخول على مجلس المأمون، فسلَّموا عليه، ودعوا له، فأقبل عليهم أحسن قبول، وردّ أجمل رد، وأمر بإدخالهم إلى سيد مجالسه المسمى المكرّم، الذي أبدع في إعداده، وبالغ في أثاثه وفراشه، وغالى في ثرياته وزخرفته، وزيِّن بصور الغزلان والأطيار والأشجار والثِّمار حواشيَه وأستاره، وطنافسه، وأركانه، وجدرانه، حتى سار خبرُه وطار ذكرُه، فأمعنوا فيه النظر، ومتّعوا بمرآه البصر، وحدَّقوا فيه للاحتفاظ بصورته في المخيِّلة، ولم يكن أكثرهم رآه إلى يومهم ذلك مع تعلُّقِ وصفه بخواطرهم، فلما رأوه صغر عندهم ما كانوا يستعظمونه من وصفه، ورجعوا أبصارهم فيه، ونبّه بعضهم بعضًا على دقائق معانيه.

وكان مما يلفت النظر نافورتان عجيبتان، عليهما أسودٌ مصوغة من الذهب الإبريز، فاغرة الأفواه، ينساب منها الماء فيصبُّ في البحيرتين، وقد وضع في قعر كلِّ بحيرة منهما حوض رخام غريب الشكل، بديع النقش؛ قد رسمت في جنباته صور متناسقة لحيوانات وأطيار وأشجار، ومن قاع النافورة، يرتفع الماء إلى شجرتين فضيتين، بديعة الشكل، محكمة الصنعة، يصعد منهما الماء ثم ينصب من أغصانهما كرذاذ المطر، أو أنداء الطلّ، فتحدث لمخرجه نغمات، يصبو لها القلب.

وتوالى إطعام أفواج الناس في ذلك، فوجا بعد آخر، أياماً متوالية، حتى استُدعي له سائر أهل طليطلة، فسيقوا إلى نعيمٍ لا عهد لهم به، فأكل الجميعُ وشربوا، وغسَّلوا وتطيَّبوا، ورجعوا لبيوتهم مسرورين.

تلك هي أشهرُ وليمة أندلسية، دُعي لها القاصي والداني، والغني والفقير، والكبير والصغير. ([3])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

## نزهة وحكاية (١)

# مُنْيَة الرَّصافة

في ضحوات الربيع، وأصائل الصيف، يخرج أهل قرطبة إلى البساتين المُزهرة، والحقول المُخضرّة الناضرة، يرتعون ويلعبون، حيث تزخرُ عروس الأندلس بالمنتزهات، التي تزدان بشتى أنواع الأزهار والورود والريحان، وتختالُ بشدو البلابل فوق الأغصان، وخرير الماء الرقراق.

عُرفت قرطبة أيام ازدهارها بالمنتزهات والمُنيَّات، منها منتزهُ قصر السرادق، ومنتزه السد، ومنتزه قصر الرصافة، والمنية المصحفية، نسبة للوزير جعفر المصحفي، ومنية الناعورة، ومنية السرور، ومنية العامرية، فضلا عن ضفاف الوادي الكبير، نهر قرطبة الأعظم الذي يصل لإشبيلية.

وكان من أشهر منتزهات قرطبة: منية الرصافة التي غرس أشجارها وشيّد بناءها صقر قريش عبد الرحمن الداخل، ونقل إليها من غراس الشام، ما لا يزال نباتُه موجودا، وعطاؤه ممدودًا، وأُكُله طيِّبًا، كالرمان السفري نسبة إلى من غرسه واستنبته في الأندلس.

يحكى أنه أرسل إِلَى أُخْتَيْهِ بِالشَّامِ، وَعَمَّتِهِ رَمْلَةَ بِنْتِ هِشَامٍ، يدعوهنّ إلى الأندلس، فيجتمع شمله وتتم فرحتُه، ويهنأ بالُه. وَأَنْشَدَ عِنْدَ ذَلِكَ:

أَيُّهَا الرَّكْبُ المُيَمِّمُ أَرْضِي

أَقْرِ مِنْ بَعْضِي السَّلاَمَ لِبَعْضِي

إِنَّ جِسْمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضٍ

وَفُؤَادِي وَمَالِكِيْهِ بِأَرْضِ

قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا

فَطَوَى البَيْنُ عَنْ جُفُوْنِي غَمْضِي

وَقَضَى اللهُ بِالفِرَاقِ عَلَيْنَا

فَعَسَى بِاجْتِمَاعِنَا سَوْفَ يَقْضِي

فَلَمَّا وَصلَ إِلَيْهِنَّ المبعوثُ، قُلْنَ: السَّفَرُ! لاَ نَأْمَنُ غوَائِلَهُ عَلَى القُربِ، فَكَيْفَ وَقَدْ حَالَتْ بَيْنَنَا بِحَارٌ وَمَفَاوِزُ، وَنَحْنُ حُرَمٌ! وَقَدْ آمَنَنَا هؤلاء القوم على معرفتهم بِمَكَانِنَا مِنْهُ، فَحَسْبُنَا أَنْ نَتَمَلَّى المَسَرَّةَ بِعِزَّةٍ وَعَافِيَةٍ. وَبَعَثَا إِلَيْهِ بِهدايا نَفِيْسَةٍ مِنْ ذَخَائِرِ الشرق، ومعها أشجار نخيلٍ وثمارُ رُمَّان مِنْ رصَافَةِ جَدِّهِم هِشَامٍ،

فَسُرَّ بِهِ الدَّاخِلُ، وَكَانَ بِحَضْرتِهِ سَفَرُ بنُ عُبَيْدٍ الكَلاعِي مِنْ أَهْلِ الأرْدُنِّ، فَأَخَذَ مِنَ الرُّمَّانِ، وَزَرَعَ مِنْ عَجَمه، بِقَرْيَتِهِ حَتَّى صَارَ شَجَراً، وَزَادَ حُسْناً، وَجَاءَ بِثَمَرِهِ إِلَى الأَمِيْرِ، وَكَثُرَ هُنَاكَ، حتى عُرِفَ بالسَّفَري، نسبةً إلى سفر، وَغُرِسَ مِنْهُ بِمُنْيَةِ الرُّصافة.

ومرت السنوات وبسقت نخلة، وارتفعت في منية الرصافة شامخةً، ورآها عبد الرحمن الداخل عاليةً منفردة، فهيَّجت شَجَنَهُ، وَتذَكَّرَ وَطَنَهُ، فَقَالَ:

تَبَدَّتْ لَنَا وَسْطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ

تَنَاءتْ بِأَرْضِ الغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ

فَقُلْتُ شَبِيْهِي فِي التَّغَرُّبِ وَالنَّوَى

وَطُوْلِ انْتِنَائِي عَنْ بَنِيّ وَعَنْ أَهْلِي

نَشَأْتِ بِأَرْضٍ أَنْتِ فِيْهَا غَرِيْبَةٌ

فَمِثْلُكَ فِي الإِقْصَاءِ وَالمُنْتَأَى مِثْلِي

سَقَتْكِ عَوَادِي المُزْنِ مِنْ صَوْبِهَا الَّذِي

يسحُّ وتستمري السِّماكين بالوبل

تلك الأبيات الخالدة التي تذكرنا بما نظمه أمير الشعراء حين كانت الأندلس منفاه، فكتب تلك القصيدة التي تجاوب فيها مع صقر قريش، ومع المعتمد بن عباد الذي نُفي من أشبيلية إلى أغمات، وفيها يقول:

يا نائحَ الطَّلحِ أشباهٌ عوادينا

نشْجى لواديكَ أم نأسى لوادينا

ماذا تَقُصُّ علينا غير أنَّ يداً

قصَّت جناحيك جالت في حواشينا

والتي جارى فيها نونية ابن زيدون الرائعة الذائعة، والتي يقول فيها:

أضحى التنائي بَديلاً من تَدانينا

وناب عن طِيب لُقْيانا تَجافينَا

بِنْمُ وبِنَّا فما ابتلَّت جوانحُنا

شَوْقًا إليكم ولا جَفَّت مآقينا

تكاد حين تُناجيكم ضمائُرنا

يَقْضي علينا الأسَى لولا تأسِّينا

حالتْ لفقدكُمُ أيّامُنا فغَدتْ

سُوداً وكانتْ بكُم بيضاً لَيالينا

ولا يمرُّ أحد بمنية الرصافة إلا ويتذكر تلك الأبيات الخالدات، التي عبّر بها صقر قريش عن حنينه إلى بلاد الشام موطنه الذي أُجبر على مفارقته، ومهد طفولته وملاعب صباه التي لا تغيب عن خاطرِه، وقصور أجداده في دمشق الفيحاء، وحلب الشهباء، وحمص العدية الشامية. ([4])

# نزهة وحكاية (٢)

منية نصر

هذه مُنية النصر، جارة الوادي الكبير، يؤمُّها أهل قرطبة وما حولها يفيئون إلى ظلالها الوارقة، ويقطفون أزاهيرها وثمارها اليانعة، حديقة غناء وروضة مونقة فيحاء، ملتفة الأغصان، انظر إلى رباها الخضراء حيث نقش فيها البهار والسوسن والنرجس وشقائق النعمان أبدع الألوان، وفوق تلك الرُّبى دورٌ للأمير والحاشية، بينما تطلُّ علينا القصور الملكية، بقبابها المذهَّبة وأبراجها العالية.

نسبت هذه المنية إلى الفتى نصر، فمن هو؟ وكيف بلغ هذه المنزلة السامقة؟

إنه غلامٌ من أصل أسباني، أسلم أبوه وعُرِف بأبي الشمول من أهل قرمونة، وهي بلدة تابعة لأشبيلية لها حصنٌ منيع لا يزال قائما حتى يومنا هذا.

أسلم الأبُ وتبعه الولد، فضمّه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، حاكم الأندلس، إلى حاشيته، ونال الحظوة والمكانة في البلاط الأندلسي، وسرعان ما صعد نجمُ سعده، واشتد نفوذُه في القصر حتى صارت له الكلمة المسموعة، وغلب في بعض الأوقات على الوزير والحاجب.

دخل الفتى القصرَ الكبير غِرًّا صغيرًا، كان أمرد الوجه، وسيمَ الملامح، بهيَّ الطلعة، جميلَ المنظر، أشقرَ اللون، وقد جرت العادة قديما في إخصاء الذكور سيَّما الحسان منهم، حتى يختلطوا - دون تحفُّظٍ - بحريم القصر من الحرائر والجواري، فيُؤمنُ جانبُهم، لا تُفتنُ بهم النساء، ولا يطمِعوا فيهنَّ.

كانت عادةً قاسيةً تُعربُ عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وإفسادِه وتغييره لخلق الله، وكان الغرض منها إخراج إنسانٍ مخنَّث، لا ينتمي إلى جنسِ الرجال، ولا إلى النساء، فلا يمنع من الدخول على ربّات الحجال وذوات الخدور، إذ لا يشتهي النساء، ولا تشتهيه المرأة، لتأنُّثه وتخنُّثه.

مرت الأيام وصار نصر مقدَّما على غيره من غلمان القصر الذين يُعَدُّون بالآلاف، منهم الحُرّاس، ومنهم الخدم والحشم، نال من أثرة مولاه عبد الرحمن بن الحكم واصطفائه وإشراكه له في الرأي مع جُلَّة وزرائه، بل وانسياقه لرأيه ومشورته - وإن خالف رأي كبار مستشاريه وبطانته- ما لم ينلهُ خادم خاص مع أمير عاقلٍ سُمِعَ عنه.

حتى أنه استغلّ مرض الأمير وتسامحه فاتخذ قرارات من تلقاء نفسه، قام بعزل الحاجب، وجعل مكانه أحد الموالين له، فلما بَلّ من مرضه ([5]) وجمع

حاشيته واستقر بهم المجلس، سأل الحاجبَ المعزول: عيسى بن شهيد: ما شأن الأمر الفلاني؟ لأمرٍ سأله عنه، فقال له: يا مولاي، لستُ بحاجب، وهذا هو الحاجب! وأشار إلى ابن رستم. فَعَلَت الأميرَ عبدَ الرحمن كدرةٌ، وعَرف من أين أُتِيَ، فَكَظَمَ غيظَه واصطبر، فلما انفضّ المجلسُ واجهه بما فعل فتنصّل من الأمر، وكذب على الأمير، وراوغه، فسبّه وغلّظ عليه، وانتهى الأمر، ومرّت الأيام، ونسي الأمير ما أبرمه فتاهُ الأثيرُ الذي تمادى في غيّه، سانده في ذلك منزلته عند الأميرة طروب أم عبد الله، حيث كان ملازما لبابها، قائما على خدمتها، وكان الأمير يحبُّها ويؤثرها على غيرها من نسائه وجواريه، مع كثرتهن، وتميُّز بعضهن إلى جانب الملاحة والحسن بجودة الخط، وروعة البيان، وجمال الأدب والظرف، مثل جاريته قلم، والشفاء أم ولده المطرِّف، وفخر وَهِي أم ابْنه بشر أبي الْوَلِيد الأديب الشَّاعِر، ومتعة التي أهداها له زرياب، وفضل، وغيرهن، لكن بقيت طروب هي الأثيرة عنده، فكان شغوفا بها أيّما شغف، وهو القائل فيها:

إذا ما بدت لي شمسُ النها

ر طالعة ذكَّرتني طروبا

«كلف بها كلفاً شديداً، ... وأعطاها حليًّا قيمته مائة ألف دينار. فقيل له: إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إن لابسه أنفسُ منه خطراً، وأرفعُ قدراً، وأكرمُ جوهَرًا، وأشرف عنصرًا».

أغضبها يوما فهجرته، وصدّت عنه، وتمنعّت، ولزمت مقصورتها، فاشتد قلقُه لهجرها، وضاق صدرُه من جفائها، وجَهِدَ أن يترضَّاها بكل وجه فأعياه ذلك، فأرسل من خصيانه من يكرهها على الوصول إليه، فأغلقت باب مجلسها في وجوههم، وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة، ولو انتهى الأمر إلى أن تقتل نفسها، فانصرفوا إليه، وأعلموه بقولها، واستأذنوه في كسر الباب عليها، فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببِدَرِ الدراهم، ففعلوا، وبنوا عليها بالبِدَر، وأقبل حتى وقف بالباب وكلَّمها مسترضيًا راغبًا في المراجعة على أن لها جميعَ ما سُدَّ به الباب، فقبلتْ ولانت، والدراهم والدنانير خير شفيع.

أمرتْ بعدِّها فوجدتْها نحوا من عشرين ألفا؛ وأهداها الأمير عقدا ثمينا قيمته عشرة آلاف دينار؛ فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظِّم الأمرَ عليه؛ فقال له «إن لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا! ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ورصف في النفس جوهرَها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يغشى الأبصار، ويُذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقرُّ لعين، وأجمعُ لزين، من وجه أكملَ الله فيه الحسنَ ونضرَتَه، وألقى عليه الجمالُ بهجته»! ([6])

وخرج ذات مرة في بعض أسفاره، فطرقه خيالها، فانتبه وهو يقول معبّرا عن شدة كلفه وهيامه:

شاقك من قرطبة الساري

في الليل لم يدر به الداري

ثم طلب من شاعرٍ مقرّب منه، نديمٌ له، يدعى عبد الله بن الشمر، كمال البيت، فقال:

زار فحيا في ظلام الدجى

أحبب به من زائرٍ سار. ([7])

ومما علا بنجم نصر الخصي حتى أصبح يدير كثيرا من شؤون القصر: إحرازُه انتصارا ساحقا على النورمانديين مجوسُ الشمال الغزاة الذين شنُّوا هجمةً همجيّةً مباغتةً على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ ولم تكن لها آنئذٍ أسوار، فقتلوا وسلبوا وسَبَوا ونهبوا النساء والصبيان، حتى قاد نصرٌ الخصيُّ الجيوش وانتصر على الغزاة الهمجيين، وقتّل منهم الكثير وأسر الكثير.

فأغدق الأمير ثناءه وصِلاتِه وجوائزَه على القائد المنتصر، نصر الخصي فتاهُ الأثير، فَتَاهَ عُجْبًا واختيالًا.

وحمل الطموحُ الفتى المغرورَ على أن أطلق العنان لهواه، فأخذ يخطِّط لقادم الأيام، واتفق مع طروب على تمكين ولدها عبد الله ذاك الفتى الذي لا يصلح لتولي مقاليد الحكم، إذ كان «مستهتراً منهمكاً فِي اللَّذَّات»، بينما كان محمد الابن البكر للأمير - من زوجة أخرى- عاقلا حكيما، ثقة، مطيعا لأبيه، موفَّقا في كل ما تولاه، فكان جديرا بحمل تلك المسؤولية. «وكَانَ – كما وُصف- محبًّا للعلوم مؤثِراً لأهل الحَدِيث عَارِفًا حسن السِّيرَة».

حاول نصر الخصي أن يثني سيده الأمير عبد الرحمن عن قراره بتعيين ولده محمد وليًّا للعهد، واستمات من أجل استمالة القلوب نحو ابن طروب، لكنه لم يفلح رغم أنه ركب كل وسيلة واستخدم كل حيلة، فلما باء بالإخفاق، لجأ إلي الغدر والخيانة، فسوّلت له نفسُه الأمارة قتل سيده ومولاه الأمير، ليستبدّ بالأمر والتدبير، ويخلع ولي العهد وهو الجدير، ويولي ابن سيدته طروب الذي لا يصلح لذلك، بقليل ولا كثير.

فأوعز بذلك لصديقه الحراني الطبيب، وكان له فضلٌ عليه، ورغَّبه وأطمعه، فخلا به، وذكَّره أياديه لديه، وقال له: ما ترى رأيك في شيء تحوزُ به حسنَ رأيي، وتعجيل العطاء الرغيب مني، وتعتقد المنة علي؟

فقال له الطبيب: هذه هي المُنيَةُ التي ليس وراءها طِلّبة! فمن لي بنيلها؟ - هذه أمنيتي التي لا أحلم بغيرها، فكيف السبيل لذلك!

قال الطبيب يا سيدي. بعض هذا غاية أملي! فكيف لي ببلوغه؟!

فضحك الخصي وقال له: هذه ألف دينار معجَّلة، واعمل لي سؤرَ الملوك الذي يُدني الأجل، ويقلِب الدول، ودعني لمكافأتك إن انقضت حاجتي، فوالله لأتجاوزنّ بها ظنَّك! ستنال من المكافأة ما لم يخطر لك ببال!

فأظهر له القبول لما بذله، والقيام بما كلفه.

وخرج عنه، والبدرتان تحت جناحيه، فعمل ذلك الخلط باسم الدواء المسهل كما رسمه له، وأجهد رأيه في تقويته.

كان الحراني ممن وفد إلى الأندلس من بلاد المشرق، وذاع صيتُه في العلاج، وصناعة الدواء، جمع مالا كثيرا من دواء كان يصنعه بنفسه، بمساعدة فتيانه وجواريه، كان يبيع الجرعة منه بخمسين دينارا، وسمى دواءه بالمغيث الكبير، ثم أتاح وصفتَه للأطباء يصنعونه.

شرع الطبيب الحرَّاني في صناعة هذا السم البطيء، لكنه احتال في أن دسَّ في خفية إلى «فجر» حظيّة الأمير عبد الرحمن وكانت منافسةً لطروب مع قهرمانة لها كان يعالجها، يخبرها بما حيك للأمير من مؤامرة، ويأمرها أن تحذّره من شرب ما يأتيه به نصر الخصي أو يرسله.

وقد كان الأمير شكا إلى نصر من علة، فاهتبل نصر الفرصة لتقديم السُّمّ للأمير. وبكَّر بذلك الخلط المسموم إليه الأمير وناوله إياه، فتعلّل بوعكةٍ أصابته طوال ليلته، وأنه يخشى من تأثير الدواء، وأشار عليه بشربه، فأخذ يعتذر، فزجره، وقال: سبحان الله! شيءٌ اجتهدتَ لي فيه، وكلفتَه مئات الدراهم، وألطفتَ تركيبَه تخاف غائلته؟ عزمتُ عليك لتشربنَّه! فلم يجد الخائنُ مفرًّا، فشربه بين يدي الأمير، واستأذنه في الحال للخروج إلى منزله، فأذن له، فانطلق يركض، وركضُه يزيد السمَّ انتشارا وشرًّا، واستغاث بالحراني، فعرَّفه بما جرى عليه، والسُّم يسري في دمه، فقال له: عليك بلبن المعز، فإن شربه يفتِّرُ عنك! ففرق غلمانه في طلبه، فعاجلته المنيةُ قبل أن يؤتى به، ولفظ الشقيُّ أنفاسه الأخيرة.

فسُرَّ الناس بحتفه، واستراحوا، وأطبقوا على ذمِّه، وقال يحيى الغزال شامتا فيه عند موته:

أغنى أبا الفتح ما قد كان يأمله

من التصانع والتشريف للدور

وكل عَرض وقَرض كان يجمعه

حفيرةٌ حفرت بين المقابير

فصار فيها كأشقى العالمين وإن

لفُّوه بالنفح في مسك وكافور

وكان أزمع شيئاً لم تكن سبقت

به من الله أحكام المقادير

إذا أراد الإله الشيء كوّنه

فلن يضرك فيه سوء تدبير (8)

وكان يحيى الغزال قد تنبأ لنصر بسوء العاقبة، فقال:

أيا لاهياً في القصر قرب المقابر

يرى كل يوم وارداً غير صادر

كأنك قد أيقنتَ أن لستَ صائراً

غدًا بينهم في بعض تلك الحفائر

تراهم فتلهو بالشراب وبعضِ ما

تلذُّ به من نقر تلك المزاهر

سترحل عن هذا وإنك قادم

وما أنت في شك على غير عاذر (9)

كان -كما ألمح الشاعر- يسكنُ إلى جانب مقابر الربض، لكنه لم يرعوِ، ولم ينزجر من حال جيرانه، يسهرُ الليل يعاقر الخمر ويلهو ويمرح مع ندمائه.

وهكذا نهاية كل غادر محتال، نهاية الطمع. نهاية كل من بنى جاهَه على الدسائس والحيل، والتزلّف والتآمُر..

وما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

## رحلة طالب علم أندلسي

قرر الفقيه عبدُ الملك بن حبيب رحمه الله السفر إلى المشرق بنية الحج وطلب العلم، رغم كونه في العقد الثالث من عمره، وقد بلغ مكانة سامية في العلم، حتى قال بعض الفقهاء، حين أزمع الرحيل متعجِّبًا: إنه لأفقه ممن يريدُ

آن يأخذ عنه العلم! لكنه كان عالي الهمة، توَّاقًا، ذا نهمٍ في طلب العلم، حريصًا على المزيد.

قال يوسف المغامي أحدُ طلابه: رأيتُه يخرجُ من الجامع وخلفه نحو ثلاثمائة بين طالب حديث وفرائض وفقه وإعراب.

كان مع ما بلغه من مكانةٍ مولعًا بطلب العلم مشغولا به، قال المغامي: طرقتُ باب عبد الملك بن حبيب يوماً قبيل طلوع النهار حرصاً على الاقتباس منه، واستأذنتُ عليه، فأذن لي، ودخلت. فإذا به جالس في مجلسه، عاكفاً على الكتب، قد أحاطت به من كل جانب. ينظر فيها والشمعة بين يديه موقدة، فسلمت فردَّ علي، وقال لي: يا يوسف أوَقد انسلخ الصبح؟ قلت: نعم، وقد صلينا. فقام إلى صلاة الصبح، فصلاها، ثم رجع الى مقعده. وقال: يا يوسف ما صليتُ هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة، ثم مد يده إلى قارورة، مزج فيها اللبانَ بالعسل، فشرب منها ليقوى على الحفظ.

وحين أزمع على الرحيل وكان ذلك سنة ٢٠٧ ه، ودّع أباه الذي كان يعمل في تقطير الورد، فكان هذا المشهد المؤثِّر:

- عزمتَ يا بنيَّ على الرحلة في طلب العلم؟

- نعم يا أبي.

- إذا أكملتَ حوائجَك فعرّفني.

قال فلما تمت حوائجي أعلمتُه، فأخرج لي ألف دينار، وقال: خذها واستعن بها على طلب العلم، ولا تنفق منها شيئا إلا في سبيل العلم، إلا إن احتجت إلى شراء جارية تتعفَّف بها، فإن أنفقت هذه الألف، واحتجت إلى زيادة فاستدن علي، بألفٍ أخرى.

قال عبد الملك فمضيتُ وجمعتُ ما أحببتُ من الأسفار، لتكون صاحبي وزادي في الأسفار.

وغادر صاحبُنا في سفينة إلى الإسكندرية، وقد خلّف وراءه أبويه وزوجته وبنتًا صغيرةً، كان شديد التعلق بها، كان يبكي على الفراق، لكن غلبته الأشواق لأرض الحجاز.

نزلت السفينةُ بسلام إلى ثغر الإسكندرية، وهبط الشيخ لأول مرة على أرض تلك المدينة العتيقة التي كانت تزخرُ آنئذٍ بأهل العلم، فكان الطلاب والمعلّمون يتحيّنون وصول علماء الأندلس وهم في طريقهم للحجِّ فيلتفّون حولهم ويتعلَّمون منهم.

وذات يوم خرجوا لتلقِّي الركب من المسافرين القادمين، يتوسّمون العلماء، ويتبصّرونهم بفطنتهم، ويعرفونهم من سمتهم وهيبتهم، بل ويخمّنون من هيئتهم وحالهم ما هو فنُّهم الذي يحسنونه؟

فكلما أطلَّ عليهم رجلٌ ذو هيبة قضوا بفراستهم عليه، ونسبوه إلى فنِّه وعلمه، هذا محدثٌ، وهذا فقيهٌ، وهذا أديبٌ، وهذا نحويّ. وهكذا.

حتى رأوا صاحبَنا، وكان ذا منظرٍ جميل، يلبسُ الثياب الأنيقة إكراما للعلم وإجلالا، فقال قوم: هذا فقيه. وقال آخرون: شاعر أديب، وقال فريق ثالث: طبيب، وقال بعضهم: بل خطيب. فلما كثر اختلافهم تقدموا نحوه، وسلّموا عليه، وأخبروه باختلافهم فيه، وسألوه عن ما هو؟ أفقيه أم طبيب أم أديب أم خطيب؟

فقال لهم مبتسمًا: كلكم قد أصاب، وجميعُ ما قررتم أحسنُه، والخبرة تكشفُ الحيرة، والامتحان يجلّي عن الإنسان. فلما حطّ رحله ولقي الناس شاع خبره، فقصد إليه كلُّ ذي علم يسأله عن فنّه، وهو يجيبه جواب متحقق. فعجبوا من ثبوت علمه، وقصدتْهُ طائفة من المتفقِّهة، وقد أعدوا له مسائل من الحجج، لا يزالون يتصيدون بها متفقهةَ الأندلس، ففطن لمرادِهم، وكان عهدُه بعيداً بمطالعة كتب الحجج. فلما فاتحوه بها أخّر مجلسهم واعتذر بقيامه فيما لابد للغريب منه، ووعدهم لغدٍ، وأتى نُزُلَه وسهر ليلته، على مطالعة مسائل الحجج حتى أحكم النظر فيها، فلما كان من الغد تهافتوا عليه، وألقوا عليه صعابها، فأجابهم عنها جواب عالم. فأقبلوا عليه يطلبون علمه، وعطّلوا حلق علمائهم.

لعل هذا الموقف يذكرنا بإمامِ عصرِه، الإمام محمد بن جرير الطبري، وهو المحدث الفقيه المؤرِّخ المفسِّر الضليع بعلوم اللغة المتبحّر فيها، عندما سئل عن مسألة في علم العروض والقافية، ولم يكن مهتما بهذا العلم، فجاء بكتاب لهذا الفنِّ، وبات ليلته يذاكره حتى أصبح يتقنُه! إنها همة العلماء!!

ومكث عبد الملك رحمه الله في رحلته، ثلاث سنين، زار مصر والحجاز وفلسطين، وكتب حين برّح به الحنين، وهيّجه الشوق إلى أهله وموطنه:

أُحِبُّ بلادَ الغربِ والغربُ موطني

ألا كلُّ غربيٍّ إلي حبيبٌ

فيا جسدا أضناهُ شوقٌ كأنه

إذا نَضِيَتْ عنه الثيابُ قضيب

بَلِيتَ وأبلاني اغترابي ونأيُه

وطولُ مقامي بالحجاز أجوبُ

وأهلي بأقصى مغربِ الشمس دارُهم

ومِن دونِهم بحرٌ أجشُّ مهيبُ

وهولٌ كريهٌ ليلُه كنهاره

وسيرٌ حثيثٌ للركاب تنوبُ

فما الداءُ إلا أن تكون بغربةٍ

وحسبُك داءٌ أن يقالَ غريبُ

فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً

بأكناف نهر الثلجِ حين يصوبُ

وحولي صحابي وبنتي وأمُّها

ومعشرُ أهلي والرؤوف مجيب ([10])

ولما قضى حاجتَه وأشبع نهمته، وملأ جعبتَه من العلم، قرر العودة إلى وطنه وأهله، بتلك الدرر واليواقيت، وغادر على سفينة إلى بلاد الأندلس، وعندما صارت في لُجج البحر حدثت محنة عظيمة، رياحٌ عاصفة هبَّت، وأمواج عاتية كالجبال تضرب الصواري، وينهمر الماء إلى السفينة، حتى امتلأ سطحُها، واشتد الكربُ وضجّتْ الأصواتُ بالدعاء.

فأين عبد الملك في قلب هذا الهرج والصَّخب، أين ابنُ حبيب من هذا الموقف العصيب، الذي تُمتحنُ فيه القلوب: لنسمع أحدَ رفقائه في هذه الرحلة يجيب، فيقول: ركبتُ البحر إلى الأندلس، مع ابن حبيب، فهاج علينا حتى خشينا العطب والغرق، فرأيت ابنَ حبيب متعلقاً بحبل السفينة، وهو يقول: اللهم إن كنت تعلم أني إنما أردتُ بما أفتيتُه لوجهِك وما عندك؛ فخلِّصني برحمتك وانفع بما آتيتَنا به عبادك. فلم يلبث إلا يسيراً حتى سكن البحر، ومضت السفينة بأمان.

إنها لحظاتُ الصدق، لحظاتُ التجرّد، حين يشتدُّ الخطب، ولا يبقى للإنسان من أملٍ في النجاة إلا بالله، هنالك لا يملك العبد إلا الدعاء، فلا يُسكن البحرَ إلى خالقُه ومسخرُه، ولا يجيبُ المضطرّ ويكشفُ السوء إلا الله. هذه اللحظة الفاصلة وهذا الدعاء الذي يستمطر الرحمات يحتاج إلى أن يُشفّع بوسيلة مُرضِيَة، أن يتوسّل العبدُ إلى الله بعملٍ صالحٍ قام على نيّةٍ صادقةٍ، كما فعل ابن حبيب، فاستجاب الله له وكشف الضر عنه وعن أصحاب السفينة.

{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ. أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: ٦٢ -٦٣]

حجَّ بيت الله الحرام وجاور في مكة، ثم سافر إلى المدينة المنورة، وكانت أمنيتُه أن يتعلَّم على إمام دار الهجرة، وينهل منه، ومن توفيق الله له أن أقبل عليه الإمام مالك، وقدّمه.

حكى الإمام ابن بطال الأندلسي في شرحه لصحيح البخاري كتاب العلم هذه الحكاية العجيبة، التي تفرد بروايتها مسندةً إلى الإمام يحيى بن يحيى الأندلسي، قال: أول ما حدثني مالك بن أنس حين أتيته طالبًا في أول يوم جلستُ إليه، قال لي: ما اسمك يافتى؟ قلت له: أكرمك الله يحيى، وكنتُ أحدثَ أصحابي سنًّا، فقال لي: يا يحيى، اللهَ اللهَ! عليك بالجدِّ في هذا الأمر، وسأحدثُك في ذلك بحديث يرغِّبُك فيه، ويزهِّدُك في غيره، قال: قدم المدينةَ غلامٌ من أهل الشام، بحداثة سنِّك، فكان معنا يجتهدُ ويطلبُ العلم، حتى نزل به الموتُ بغتةً، فلقد رأيت على جنازته شيئًا لم أر مثله على أحد من أهل بلدنا، لا طالب ولا عالم، فرأيتُ جميع العلماء يزدحمون على نعشه، فلما رأى ذلك الأميرُ أمسك عن الصلاة عليه، وقال: قدِّموا منكم من أحببتُم، فقدَّم أهلُ العلمِ ربيعة الرأي، ثم نهضَ به إلى قبره، قال مالك: فألحده في قبره ربيعة، وزيد بن أسلم، ويحيى بن سعيد، وابن شهاب،... وأبو حازم وأشباههم، وبنى اللَّبِن على لحده ربيعة، وهؤلاء كلهم يناولونه اللَّبِن، قال مالك: فلما كان اليوم الثالث من يوم دفنِه رآه رجلٌ من خيار أهل بلدنا في أحسن صورة، غلامٌ أمردٌ، وعليه بياضٌ، متعمِّمٌ بعُمامةٍ خضراء، وتحته فرسٌ أشهبُ، نازلٌ من السماء، فكأنه كان يأتيه قاصدًا ويسلِّم عليه، ويقول: هذا بَلَّغني إليه العلم، فقال له الرجل: وما الذى بلَّغك إليه؟ فقال: أعطاني اللهُ بكل بابٍ تعلمتُه من العلم درجةً في الجنة، فلم تبلغ بي الدرجات إلى درجة أهل العلم، فقال اللهُ تعالى: زيدوا ورثةَ أنبيائي، فقد ضمنتُ على نفسى أنه من مات وهو عالمٌ سنتي، أو سنة أنبيائي، أو طالبٌ لذلك أن أجمعهم في درجة واحدة.

فأعطاني ربى حتى بلغتُ إلى درجة أهل العلم، وليس بيني وبين رسول الله إلا درجتان، درجة هو فيها جالسٌ وحوله النبيّون كلّهم، ودرجة فيها جميعُ أصحابه، وجميع أصحاب النبيين الذين اتبعوهم، ودرجة من بعدهم فيها جميع أهل العلم وطلبتُه، فسيَّرنى حتى توسطتُهم فقالوا لي: مرحبًا، مرحبًا! سوى ما لي عند الله من المزيد، فقال له الرجل: ومالك عند الله من المزيد؟

فقال: وعدني أن يحشر العلماء كلَّهم كما رأيتُهم في زمرة واحدة، فيقول: يا معشر العلماء، هذه جنتي قد أبحتُها لكم، وهذا رضواني قد رضيتُ عنكم، فلا

تدخلوا الجنة حتى تتمنوا وتشفعوا، فأعطيكم ما شئتم، وأشفِّعكم فيمن استشفعتم له، ليرى عبادي كرامتكم عليَّ، ومنزلتكم عندي.

فلما أصبح الرجل حدث أهل العلم، وانتشر خبرُه بالمدينة المنورة، قال مالك: كان بالمدينة أقوام بدئوا معنا في طلب هذا الأمر ثم انصرفوا عنه حتى سمعوا هذا الحديث، فلقد رجعوا إليه، وأخذوا بالحزم، وهم اليوم من علماء بلدنا، ثم التفت الإمام إلى تلميذه الأثير وقال له: الله الله يا يحيى جد في هذا الأمر. فالله تعالى يقول {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة: ١١]

ويقول {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} [العلق:٣]

غير أن فضل العلم إنما هو لمن عمل به، ونوى بطلبه وجه الله تعالى. ([11])

## يومٌ في حياة عالم

كيف يقضي العالمُ يومَه وليلَته؟ متى يبدأ يومه؟ ومتى ينتهي ويفرغ؟ وكيف يقضي وقت فراغه! وما عددُ ساعات الراحة والنوم؟

كيف يوفق العالم بين الواجبات والحقوق المنوطة به، حقوق طلابه، وحقوق أهل بيته، وأهمّ من ذلك كله حق ربه جل وعلا، الذي خلقنا لعبادته؟

أعداء الإسلام وأدعياؤه يصوّرون فقهاء الأمة وكأنهم عالة على المجتمع، لا شغل لهم، سوى البحث عن مجدٍ برّاق، وجاهٍ عريض، أو يسعون إلى ملء البطون والجيوب، ويتعصبون لرأيهم ويجبرون الناس عليه حتى السلاطين يرضخون لهم خوفا منهم وتصنُّعا لهم. ([12])هذه صورة الفقهاء في نظر أعداء الدين ومن سار خلفهم!

سنجيب عن هذه التساؤلات بالمثال من خلال يوميات عالمٍ من علماء الأندلس، نذر حياته لله، ووهبها للعلم والعبادة والدعوة والنصيحة والإصلاح بين الناس والبر والصلة، والدروس والتأليف والمشورة، وغير ذلك من الفضائل.

عالمنا الإمام بقي بن مخلد محدث الأندلس وفقيهها، هو من الرعيل الأول الذين رحلوا في طلب العلم وطافوا بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام والعراق واليمن.

عاد إلى وطنه بعد رحلة مضنيةٍ واستقرّ به المقام في قرطبة معلِّما ومحدِّثا وفقيها وإماما، وعاش زاهداً متقشفًا، وكان مستجاب الدعوة، وكيف لا وهو

يتحرّى الحلال الطيب، ويتورع عن كل ما فيه شبهة، ويمضي وقته بين الواجبات والسنن والمندوبات.

ها نحن الآن نصحبه يوماً من أيامه، يبدأ قبل طلوع الفجر بساعتين، وينتهي بعد العشاء بساعة، ثم يخلد إلى النوم حتى السحر، قبل أن يقوم ليومٍ جديد.

يحكي عَبْدُ الرَّحْمَنِ حفيدَه رحمه اللهِ قَالَ: كَانَ جَدِّي قَدْ قَسَّمَ أَيَّامَهُ عَلَى أَعْمَالِ البِرِّ: فَكَانَ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرْآنِ فِي المُصْحَفِ، سُدْسَ القُرْآنِ، وَكَانَ يَخْرُجُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الأَخِيْرِ إِلَى مَسْجِدِهِ، فَيَخْتِمُ قُرْبَ انصِدَاعِ الفَجْر، وَكَانَ يُصَلِّي بَعْدَ حِزْبِهِ مِنَ المُصْحَفِ صَلاَةً طَوِيْلَةً جِدّاً، ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى دَارِهِ - وَقَدِ اجتَمَع فِي مَسْجِدِهِ الطَّلَبَةُ - فَيُجَدِّدُ الوُضُوْءَ، وَيَخْرُجُ إِلَيْهِم، فَإِذَا انقَضَتِ الدُّرُوس، صَعدَ إِلَى صَوْمَعَةِ المَسْجَدِ، فَيُصَلِّي إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ يَكُوْنُ هُوَ المُبْتَدِئ بِالأَذَانِ، ثُمَّ يَهْبِطُ ثُمَّ يُسمِعُ إِلَى العَصْرِ، وَيُصَلِّي وَيُسمِعُ، وَرُبَّمَا خَرَجَ فِي بَقِيَّةِ النَّهَارِ، فَيَقْعُدُ بَيْنَ القُبُوْرِ يَبْكِي وَيَعْتَبِرُ، ويدعو لأهلها، ويفكّرُ ويتّعظُ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ أَتَى مَسْجِدَهُ، ثُمَّ يُصَلِّي، وَيَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ فيُفْطِرُ، وَكَانَ يَسْرُدُ الصَّوْمَ- يصومُ كلَّ يومٍ- إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ، ويُفطرُ ثم يَخْرُجُ إِلَى المَسْجَدِ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ جِيْرَانُهُ، فَيَتَكَلَّمُ مَعَهُم فِي دِيْنِهم وَدُنيَاهُم، يتفقد أحوالهم وينصحهم ويرشدهم، ثُمَّ يُصَلِّي العِشَاءَ، وَيَدْخُلُ بَيْتَهُ، فيُحَدِّثُ أَهلَهُ، ثُمَّ يَنَامُ نَوْمَةً قَدْ أَخَذَتْهَا نَفْسُهُ، ثُمَّ يَقُومُ. هَذَا دَأْبُهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ يرحمه الله.

وَكَانَ جَلداً، قَوِيّاً عَلَى المَشْيِ، قَدْ مَشَى مَعَ ضَعِيْفٍ فِي مَظْلَمَةٍ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ، قرابة ٩٠ ميلا، ١٥٠ كم، وَمَشَى مَعَ آخَرَ إِلَى إِلْبِيْرَةَ، ٩٠ ميلا وَمَعَ امْرَأَةٍ ضَعِيْفَةٍ إِلَى جَيَّانَ وهي على مسافة ستين ميلا، ١٠٣كم من قرطبة. إلى جانب ذلك كان يناصحُ الأمراء ويشاورونه، فيلقى قبولا لديهم، وكان يخرج للجهاد معهم لا يمنعه إلا عذر.

مع هذا كله ترك لنا كثيرا من المؤلفات، منها مسنده، الذي جمع فيه أحاديث النبي  يرويها بسنده، وله تفسيرٌ كبيرٌ، فُقِدَ معظمه، لكن قدرا منه موجود في تفاسير من جاء بعده.

رحم الله الإمام بقي، وجعل هذا السعي في موازين حسناته، ونفعنا بسيرته الطيبة.

لا عجب أن فتح الله عليه أبواب العلم فهو الفقيه المحدث المفسر، وهو المجاب الدعوة صاحب الكرامات، وهو المتبصّر صاحب الفراسات. ([13])هكذا ينبغي أن يكون العالم! اللهم ارحم ضعفي وتقصيري.

## عنقود العنب

كان محمدٌ عالما ورعًا متعفِّفًا، منقبضا عن الدنيا وزينتها، عُرِفَ أبوه أحمد بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن موسى الأنصاري بالمجاهد، لأنه كان لا يسمع بغزوة ولا سريّة إلا تجهَّز لها وسارع إليها وبادر نحوها.

طلب الابنُ العلم بإشبيلية وأنحائها، وبلغ من شدةِ ورعِه أن ترك مجلس الفقيه أبي بكر بن العربي بعد أن لازمه ثلاثة أشهر، فقيل له في ذلك؟ فقال: كان يدرِّسُ وبغلتُه عند الباب، ينتظر الركوب إلى السلطان.

« وكان واحد وقته زهدًا في الدنيا واجتهاداً في العبادة، وتمكُّنَ الورع الصحيح وتوقِّيَ الشهرة والرغبةَ في الخمول والإيثار بما عنده، معدودًا في الأولياء ذوي الكرامات، وإجابة الدعوات ممن بَعُدَ العهدُ بمثله، ولم يكن يسمحُ لأحد في التعرُّض إليه بهدية أو تحفة، قلَّت أو كثرت لا من الملوك ولا من غيرهم، على اختلاف طبقات الناس إلا من آحادٍ من بعض خلصائِه، ممن قد تحقق طيب مكسبِهم، وذلك في النزر اليسير والنادر من الأوقات».

كتب الكثيرَ من العلم بخطِّه، وكان مثابراً على طلبه مرغِّباً فيه كلَّ من يغشاه من أصحابه، وافر الحظ من علم القراءات والفقه، وقد عُرِضَ عليه أوان طلبه ولاية القضاء بشريش، وهي مدينة عامرة زاخرة قريبة من إشبيلية، « مشهورة بصناعة المجبنات، بسبب استقرار بعض النورمانديين» الفايكنج» القادمين من شمال أوروبا، فيها بعد هزيمتهم في إشبيلية، فأسلم بعضهم وساهموا في نشر صناعة المجبنات حتى قيل من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم. عرضوا عليه القضاء «فنفر من ذلك وامتنع حتى أعفي؛ وكان مقتصدًا في أحواله: اقتصر في إجراء معيشته على نسخ المصاحف بعد طول تردده في التماس حرفة ليسلم من تبعاتها لكنه لم يجد.

واستدعاه أبو يعقوب بن عبد المؤمن أمير دولة الموحدين، فأجابه واعتذر عن تولي المناصب، وقبل أعذاره، وعرض عليه مالاً فأبى قبوله، فتركه لرأيه موافقة له، وحرصًا على مرضاته.

وكان تلميذه الأخص به أبو عمران المارتلي إذا جرى ذكره بين أصحابه يقول: لو رأيتموه رأيتم فردًا من أفراد الزمان ... لا يقدّر ولا يمثّل إلا بالصدر الأول والسلف الصالح. وكان رحمه الله مستجاب الدعوة، وكيف لا وهو يتحرى الحلال الطيب ويتورّع عن كل ما فيه شبهة.

ومما يؤثر عنه من كراماته، وحماية الله إياه أن صديقه أبا العباس الشهير بأبي رقيقة كان يهدي إليه أول موسم العنب شيئًا من باكورة عنبه الذي يجنيه من ضيعته، فكان عادة أبي عبد الله قبول هديته لتحقُّقه طيبَ أصلها، ولما كان في بعض الأعوام أرسل له أبو العباس كعادته مِكتلا مليئًا بعناقيد العنب، فردَّها عليه وأبى قبولها، فراب ذلك أبا العباس وشقَّ عليه وغاب عنه السببُ

فيه! فعمد إلى أبي عبد الله وسأله عن موجبِ ردِّ هديته ومخالفةِ ما عوّده من قبولها؟ فقال له: إنما صرفتُها عليك لأنها ليست من مالك، فابحث عنها.

فرجع أبو العباس إلى منزله، وسأل أهله، فأُخبر أن ذلك العنب من بستان أحد جيرانهم.

فسألهم: لماذا جاءوا به من عنب جارهم؟

فقالوا: إنا رأينا لديه عنبًا ناضجًا طيِّبًا ليس لنا مثله، فرأينا أن نهديه إلى الشيخ أبي عبد الله ونؤثره به.

فَسُرِّي عن أبي العباس ما كان قد وجد في نفسه من ذلك، وعلم أن الله سبحانه قد وقى وليَّه من تناول شيء فيه شبهة.

وهكذا تكون بصيرة الأتقياء وفراستهم التي تنجلي لها الحقائقُ. ([14])

## ودَّعتُهُ بسلامٍ

كان قاضي مالقة الفقيه أبو محمد عبد الله الوحيدي، مجتهدا في إقامة ميزان العدل، وتحرّي الحق، والتسوية بين الخصوم، بيد أنه كان مبتلى بفتنة النساء، يديم النظر للغيدِ الحسان، ويُولَعُ بالجمال، فيقلِّب بصرَه في محاسنهنّ، بلا احتشامٍ، لا يتورَّع عن ذلك، بل يجاهر ويتغزَّل، إلا أن جاءه نذير الشيب فخلع عليه ثوبَ الوقار وألبسه بُردةَ العفاف.

وقال بعض أصحابه: كنتُ أماشيه زمنَ الشبابِ، فكلما مررنا على امرأةٍ بارعة الحسن أمالَ إليها طرفَه، ولم يُنَحِّ عنها حتى يتملّى من جمالها، ويتأمّل ما ظهر من زينتها ومحاسنها، ويثني على ما بدا من مفاتنها.

فكنا نلومُه على ذلك، ونحذِّره من مغبَّة النظر، وآفاته، فالنظرة سهم من سهامِ إبليس، تشوِّش الفكر وتشتِّت العقل، كما أنه يورث الهمَّ ويجلبُ الغمَّ، ويعطِّلُ الفهم، ويضعفُ الحافظة، ويشغلُ البال، ويُكدِّر الحال.

ومن ثَمّ أمر الله تعالى بغض البصر، فإنه بريد القلب، ومهيّج الغرائز، قال تعالى في سورة النور {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا

يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣٠، ٣١].

وقال الشاعر الحكيم:

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفَك رائداً

لقلبِك يوماً أتعبتْكَ المناظرُ

رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ

عليه، ولا عن بعضِه أنت صابرُ

وقال آخر:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنْ النَّظَرِ

وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا

فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا

فِي أَعْيُنِ الْغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى خَطَرِ

يَسُرُّ نَاظِرَهُ مَا ضَرَّ خَاطِرَهُ

لا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

ومن الحكم الأندلسية من غضّ بصرُه عما لا يحلُّ، تفتحت بصيرتُه على ما يحلّ.

فكنا نعظُهُ ونذكِّره، ونقرأ عليه الأشعار، فربما ارْعَوَى، وربما دافع عن ميله، وكان من شعره في صباه:

لا ترتجوا رجعتي باللّوم عن غرضي

ولتتركوني وصيدي فرصةَ الخَلَس

طلبتمُ ردّ قلبي عن صبابته

ومن يردُّ عنانَ الجامِحِ الشَّرِسِ

ثم سايرتُه بعدُ لما رجع عن ذلك، واقتصر، فرأيتُهُ يغضُّ البصرَ ويخلِّي الطريقَ، مُعْرِضًا إلى ناحيةٍ؛ متى زاحمتهُ امرأةٌ، ولو حَكَتِ الشمسَ الساطعة، أو

ضارعت البدر السافر، أو فاقت الغزال النافر، فقلتُ له في ذلك، أيها القاضي: ما الذي غيَّر حالَك؟

فقال:

(ذاك وقتٌ قضيتُ فيه غرامِي

من شبابِي في سترةِ الإظلامِ)

(ثم لما بدا الصباحُ لعينِي

من مشيبِي ودَّعتُه بسلام) ([15])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## أعجِبْ لهمَّةِ هذا العالم!

على الساحل الشرقي للأندلس، كانت مدينة مُرسِيَة، بلدةٌ طيبةٌ، يتوسطها النهر الكبير المنحدر من جبال شقورية، متجها نحو الشرق في رحلة طويلة تنتهي في مصبه بالبحر الأبيض، ويسمى أيضا بالنهر الأبيض، تيمُّنًا به، يمضي فيسقي حقول مرسية وبساتينها ويرتوي منه أهلُها، ولمرسية جامع جليل وحمّامات كثيرة أنيقة، ورياضٌ ممتدةٌ وأسواق عامرة، وهي بلدةُ خصب ورخاء، رخيصةُ الفواكه كثيرةُ الشجر والأعناب وأصناف الثمر، مشهورةٌ بالتين، وبها معادن كالفضة، تصنع منها الحلي وغيرها، كما كانت البسط الغالية تصنع بها، ولأهلها حذقٌ بصنعتها وزخرفتها، لا يبلغه غيرهم.

في هذه البلدة الطيبة عاش أبو غالب تمام بن غالب ابن التياني عالم اللغة العربية، «كان من خيرة أهلها، معروفاً بالدّيانة والورع، ثقة صدوقا عفيفا، حسن الضبط، متحريًّا ومدقِّقًا، مع صحة المذهب وسلامة الظاهر». ([16])

«وكان أبو غالب هذا مقدما في علم اللسان أجمعه، مسلّمة له اللغة ... وكان بقيةَ مشيخة أهل اللغة الضابطين لحروفها الحاذقين لمقاييسها». ([17])

وعندما صنف هذا الكتاب العظيم وقف عَلَيْهِ الأمير القائد أبو الجيش مُجَاهِد العامري ملك دانية ومرسية والجزر البحرية وسردينية «جنوب إيطاليا»، والذي كان محبًّا للعلم مقرِّبًا لأهله من الكرماء على العلماء، يبذل لهم بسخاء، حفزا لهم وشحذا لهممهم، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء، بل كان أديبًا واسع الاطلاع، وقد ألف في العروض كتاباً يدلُّ على قوّته فيه. كما كان حريصا على جمع نفائس الكتب حتى اجتمعت لديه خزائن كثيرة زاخرة في شتى الفنون.

لما علم الأميرُ بكتاب ابن التياني، أمرَ به فأحضروا نسخةً له، واطلع عليه فأعجبه، فَبعث إِلَيْهِ بِأَلف دِينَار وَكِسْوَة على أَن يزِيد فِيهِ أنه صنّفه مطرّزاً باسم مُجَاهِد، فيزيد في ترجمة الكتاب المذكور عبارة: [مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد].

فهل قَبِلَ الشيخُ هذه الجائزة الكبرى؟ مقابلَ أن يكتب سطرا يضيفُ به مجدًا للقائد المظفّر؟ إلى جانب أمجاده العظام؟

ويربحُ ألف دينار! ثروة هائلة فهل يرفضها!

حتما سيرفضها، معتذرا للأمير، لأن نفسه لن تطاوعه على المجاملة، ولو ببضع كلماتٍ.

فردَّ الدنانير وتأبَّى، ولم يفتح في هذا بابًا البتة.

معلنا أن كنوز الدنيا لو بُذِلَتْ له لما غيَّرت من مبادئِهِ وحادت به عن قِيَمه.

فالقيم والمُثل أغلى من كنوز الدنيا، والصدق وراحةُ الضمير والسلام مع النفس أعظم من أي كنزٍ، وكيف يخدع نفسَه ويخدع الآخرين بأن ينسب الفضلَ لغير أهله؟

كتابٌ صنفتُهُ لله، ولطلبة الْعلم أصرفه إِلَى اسْم ملِكٍ أو أميرٍ! هَذَا وَالله مَا لَا يكون أبدا!

وَصرف إلى مُجَاهِد الْألف الدِّينَار وَالْكِسْوَة، فَزَاد فِي عين مُجَاهِد وَعظم فِي صُدُور النَّاس.

والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلتُ، ولا استجزتُ الكذب؛ لأني لم أجمعْه له خاصةً، بل لكلِّ طالبِ علمٍ عامَّة.

هكذا أجاب! إذ كيف يغيِّر من نيته، ويتراجع عن مقصده؛ ويدسُّ كلاما في ديباجة كتابه لا أساس له!

كيف يستجيز الكذب وبأي منطقٍ يبرره؟

فأعجِب لهمّة هذا الرئيس وعلوِّها!

وأعجب لنفسِ هذا العالم! وصدقه! ([18])وأضف هذا إلى سجلات مآثر العلماء!

وهكذا ينبغي أن تكون همة الملوك، يعظِّمون أهل العلم ويكرِّمونهم ويقربونهم، وهكذا العلماء، يخلصون لله، ويتسامون بهمَّتهم. فالإخلاص كنزٌ عظيم، هنيئا لمن جرّد قلبه لله، وأناره بمحبته.

وهكذا كان للعلم شرفُه وذكرُه لدرجة أن السلطان يطمح في انتسابٍ لهذا الشرف ويبذلُ ماله حبًّا للعلم وتبرّكًا به وتزلُّفا لأهله، أين هذا الآن من بخل السلاطين على الفقهاء والأدباء، وبذلهم للمخنثين والغانيات والمهرجين! والحواة والمشعوذين ولاعبي الكرة والصولجان!

أين هذا من منتسبين للعلم، رضوا بأعراض الدنيا الزائلة، وتملّقوا للسلاطين، وباعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، فكانوا بحقٍّ كما قال رب العالمين { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩].

عندما نتأمل في واقعنا المعاصر نجد كيف غابت تلك القيم عن كثير من طلاب العلم، بل وعن كثير من المعلّمين والباحثين، التجرّد، الإخلاص، ابتغاء مرضاة

الله وحده، أين هذه النيات الصادقة؟ بل ترى الآن بين طلاب العلم أو لنقل طلاب الشهادات من يتسلقون ويتملقون، من أجل نيل الدرجات، بالشفاعات والوساطات، والتنازلات وليس بالجد والاجتهاد.

## رسالة من بنت السلطان!

كان ابن وضاح رحمه الله من علماء الحديث، بدأ في طلبه على علماء الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، فحج وجاب الأقطار، حتى تلقّى عن أكثر من مئة وخمسين شيخًا، ثم عاد لموطنه بكنوز من السنة.

عُرف في الأسفار كما وصفه من صاحبه بالفضل والأمانة، وكان زاهدًا عابدًا، متعفِّفا متقشِّفًا. ([19])

«وكانت له رحمه الله كراماتٌ كثيرةٌ، تدلُّ على صدق نيتِه وحُسنِ سريرتِه، منها ما رواه الثقات أنه لما انصرف من آخر حجَّة حجَّها عَقِلَ لسانُهُ عن الكلام سبعةَ أيام، فدعا الله عز وجل وقال: اللهم إن كنت تعلمُ أن في إطلاق لساني خيرًا فأطلقْه، فأطلق الله لسانَه ونشَر بالأندلس علمًا كثيرًا، فكانوا يرون أن ذلك من إحدى كراماته». ([20])

ذات يوم جاءه رسولٌ من القصر ومعه رسالة، ففضَّ خاتمها وقرأها.

كان الأمر مفاجئا له، لم يخطر بباله! لذا جلس حائرًا، لا يدري ماذا يصنع؟ وبماذا يجيب على تلك الرسالة؟

وبينما هو في حيرةٍ من أمره، إذ دخل عليه أبو عمر ابنُ الجبَّابِ، وهو من أخصِّ تلاميذه، وأحبِّهم إلى قلبه، كان يُسْمَعُ عليه الحديث قبل أن يرحل في طلب المزيد من العلم، نحو المشرق، حيث مرَّ ببلاد المغرب ومصر والحجاز حتى وصل صنعاء، ثم بلاد الشام، ثم قدِمَ الأندَلُس، فكان إمام وقْته - غيرَ مدافَعٍ -: في الفِقه، والحديثِ، والعِبادةِ. ([21])

رحَّب الشيخ بتلميذه، الذي جاء يتفقَّد حاله.

وهنا نتركُ ابن الجبّاب، ليكمل لنا الحكاية.

قال رحمه الله: دخلت على ابن وضاح يومًا، وبيده كتابٌ، فدفعه إليَّ، وقال: اقرأ لي هذا الكتاب. فقرأته فإذا به لفتاةٍ من بنات الملوك، كتبت إليه على استحياء، تخطِبه إلى نفسها، وتسأله نكاحها! لرغبتها في صلاحه وعلمه وتقواه.

قرأ التلميذ الرسالة، وأطرق يفكِّر: بابٌ من أبواب الدنيا يُفتحُ على مصراعيه!

الناس يسعون إلى أبواب الملوك، ويتوسلون لذلك بمالهم أو علمهم أو أدبهم، أو أي بضاعةٍ يبذلونها، للوصول إلى هذا الجناب، وواحدةٌ من بنات الملوك تسعى إليه، وتخطبُه لنفسها!

ألا يكفيه أنه سيُنتشلُ من وهدة الفقر الذي لازمه وآخاه، لينتقل إلى حياة القصور! وليالي الهناء والسرور؟

يتزوج من أميرة، ينتقل للقصر، تكفيه همَّ العيش، ليتفرّغ للعلم، فلا يبيتُ الليل طاويا من الجوع، بل سيجلسُ على موائد الملوك، ويأكل من الصحافِ الفاخرة، ألوان الأطعمة، ويشرب من الكؤوس، وهو الذي يكابد شظف العيش.

سيركب البغال المطهّمة، ويرفلُ في ثوب النعمة! إن أجاب بالموافقة.

رزقٌ ساقه الله إليه، دون سعيٍ منه، بل جاءه وطرق بابه! ما عليه إلا أن يقبل.

سيكون صهرا للأمراء، فإذا أنجب من الأميرة أبناءً، سيفخرون بأخوالهم الأمراء الأنجاد، ويقتدون بهم في الفروسية والأمجاد.

ظلّ التلميذ شارد الذهن يسبح في تلك الخواطر! وابن وضاح ينتظر جوابه، ويتفحّص في وجهه ردّ فعله.

وبعد طول انتظار، قال ابن وضاح: ما ترى يا أحمد؟

قال أحمد: ما أرى شيئاً من ذلك، وطوى الرسالة بيديه.

فقال ابن وضاح: وكأنه يبرر لنفسه القبول، ويستجدي من تلميذه الموافقة: إذا شبعتَ أنت فما تبالي من جاع؛ والله لولا أيوب ابن أختي الذي يتعهدني كل ليلة بإدام ما ذقتُ إدَاماً ولا وجدتُه!

قال تلميذه- الذي لا يختلفُ حالُه كثيرًا عن حال شيخه-: إني والله أبالي بك وأغتمُّ بغمِّك، ولكن يكون مثلُك إمامُ زمانه صبرتَ إلى آخر عمرِك على الفقر ورضيتَ به، في آخرِ عمرِك تتزوجُ من بنات الملوك! وأنت تعرف أباها ومسكنها؛ فيقول الناس: لم يكن ذلك الفعل احتسابًا؛ لمّا أمكنته الفرصة انتهزها!

أهذا جَنَى العلمِ الذي قد غرستَهُ

وهذا الذي قد كنتَ ترجو وتفهمُ

وهذا هو الحظُّ الذي قد رضيتَهُ

لِنفسكَ في الدارَيْنِ جاهٌ ودِرهمُ

وهذا هو الرِّبحُ الذي قد كسبتَهُ

لَعمرُكَ لا رِبحٌ ولا الأصلُ يَسْلَمُ

فأطرق رأسه هنيهةً ثم رفعها وقال: صدقتَ، واللهِ نصحتَ، وأنا آخذُ بقولِك.

وعزف عن هذا الأمر، حتى لا يُفتَن، أو يفتتن الناسُ به.

آثر البقاء على الفقر والعَوز على أن يفتح بابا من أبواب الفتن الموصدة.

أبى تلبية هذا العرض السخيِّ إيثارًا لدينه ومروءته.

أليس قد روى عن النبي قوله (ما ذِئبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غنَمٍ، بأفسدَ لَها من حِرصِ المَرءِ علَى المالِ والشَّرَفِ لدينِهِ). فلا يجتمع حب العلم مع حب الدنيا.

وعاش الفقيه المحدّثُ حياته زاهدا عابدا، حتى توفي رحمه الله، سنة ٢٨٧ عن ثمان وثمانين سنة. ([22])

## قرطبة حاضرة الدنيا

إلى كمْ تتْبَعُني!

لماذا بات أعلم النحاة في مِذْوَد الغنم!

خرج الفتى عبد الله بن حمود الزبيديُّ من بلاد الأندلس في رحلة طويلة إلى المشرق، لتلقي العلم والتبحُّر في اللغة والأدب، بلغ به نهمُه في تحصيل العلوم، أن فارقَ الأهل والخلان.

هجر أول طلبِه إشبيلية بروابيها وربوعها، ومروجها الخضراء ودورها البيضاء، وحدائقها ذات البهجة، وملاعب الطفولة، وسكن قرطبة يتلقى عن علمائها، فلازم أبا علي القالي صاحب كتاب الأمالي، ثم سافر إلى المشرق، حاجًّا وزائرا ومجاورًا، وطالب علم، حتى استقر أمره في بغداد مدينة العلوم.

كانت همته في طلب العلم عالية، فلم يزل ينتقل كالنحلة، يرتشف من كل بساتين العلوم، لازم ببغداد العلامة اللغوي أبا سعيدٍ السيرافِيَّ إلى أن توفي، ولازم بعده صاحبَهُ أبا علي الفارسي، وتبعه حين رحل إلى بلاد فارس.

ذات صباح حدث له موقف غريب، وذلك أن شيخه أبا علي الفارسي كان يخرج في الغلس وهو ظلام آخر الليل ([23]) إلى المسجِدِ، فما إن فتح مِصْرَاع بابه حتى سمع جَلَبَةً وحركة في مِذْوَدِ الدّوابِّ أما الباب، فنظر في هلعٍ جهة

الصوت، فإذ بشخص ينتفضُ من المذود انتفاضة المارد، يزيلُ عن نفسه القشَّ والعشبَ الجاف الذي تطاير منه، ففزع الشيخُ، وطار قلبُه شُعاعًا، وارتاعَ فؤادهُ، واستعاذ بالله تعالى من هولِ ما يرى، فلما تمالك نفسَه واستجمع قواه نظر مليًّا إلى هذا الشبح الذي خرج من مذود الدواب، وقال وقد استعاد قوتَه واستنهض شجاعته: ويحَكَ مَنْ تَكُونُ؟ وما الذي جاء بك؟

قال ذلك المخلوق: رويدك يا سيدي! أنا... أنا تل... تلميذُك عبدُ اللهِ... عبدُ اللهِ الأندلُسي.

- عبد الله! ما الذي حملك على هذا؟ تروّعني في الظلام يا فتى!

- لم أقصد ذلك يا شيخي! ولكني رقدتُ في هذا المذود منتظرا خروجك من بيتك، لأكونَ أوَّلَ واردٍ عليك، وأول من يصطبحُ بعلمك ويغتبقُ منه.

- فتبيتَ في مذود البهائم! أيها الأندلسي، وتروّعني هكذا!

- يا شيخي! عذرا، فوالله ما حملني على ترقُّب خروجك إلا تعطُّشي لعلمك، وحرصي على البكور.

فضحك الشيخُ، وربت على كتف الشابّ، وقال: إلى كم تتبَعُنِي يا رجل؟ كفاك! فوالله ما على وجهِ الأرضِ أعلم منكَ بالنحو؟

لقد نضجت الثمرة وطابت، وآن للناس أن ينتفعوا بها.

حان يا بني القطاف وحل وقت الحصاد، ارجع إلى بلدك وعلم الناس ما تعلمت.

عُرف الفتى الأندلسي بأنه صاحب أبي علي الفارسي، في حلِّه وترحاله، كان أبو علي رحمه الله يذكره في كتبه فيقول: «سألنى الأندلسيّ»، و «قال الأندلسيّ».

اذهب يا بني فاجلسْ وعلم الناس ما تعلمتَه، بلاد الأندلس تنتظرُك لنشر العلم بين ربوعها! فقد آن للطير أن يعود لموطنه!

لكن صاحبنا أبا محمد الزبيدي الأشبيلي يؤثرُ البقاء في بغداد مدينة العلم ، يشرح كتاب سيبويه لطلاب العلم، حتى أضحى من كبار النحاة، وأهل المعرفة التامة بالشعر والنثر، وظل يعلم الناس، حتى توفاه الله بعيدا عن وطنه سنة ٣٧٢هـ رحمه الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# متسوِّلٌ أندلسي في بغداد!

جاء من بلاد الأندلس، إلى المشرق العربي، جال في بعض الأقطار، حجّ البيت الحرام، ثم رحل للشام ومنها لبغداد، حيث نزل في بيت متواضع، كان إذا جنَّ الليل، يخرج بثياب رثة، ويمضي في أزقة بغداد، يمشي بخطوات متثاقلة، يقصد إلى بيتٍ لا يقف على بيت سواه، ثم ينادي أهل البيت، طالبا صدقة أو طعاما، فيؤذن له بالدخول، ثم يُصْرَفُ بعد وقتٍ مجبورَ الخاطر، بعد أن أخذ زاده الذي جاء له من هذا البيت الصالح المبارك.

فما قصة هذا الأندلسي؟ ومن صاحب الدار؟ ولماذا لا يقف إلا عند هذا الباب؟ وما هو الزاد الذي يتزوده؟

خرج بَقي بن مَخْلَد على قدميْه ماشياً من بلاد الأندلس في رحلة علمية إلى المشرق فذهب إلى الحجاز وأخذ عن علماء الحرمين، ثم إلى بغداد حيث كان جُلُّ بغيته ملاقاة الإمام أحمد والأخذ عنه.

يقول: فلما قربتُ من بغداد وصلني خبر المحنة التي دارت على الإمام أحمد، وعلمت أن الاجتماع إليه والسماع عنه محظورٌ. فاغتممت لذلك غمّاً شديداً ثم أنزلتُ متاعي في بيتٍ اكتريته، وأتيتُ الجامع الكبير، وحضرتُ بعض الحِلَق، قال: ثم خرجت أستدلُّ على منزل الإمام أحمد، حتى دُللت عليه، فقرعت بابه برفقٍ، فخرج إليَّ، وفتح الباب، فنظر إلى رجلٍ لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله رجلٌ غريبُ الدار، وهذا أول دخولي البلد، وأنا طالب حديث وجامع سنة.

فقال: ادخل الممر، ولا تقع عليك عين، فدخلت الممر، وجاء لي، فقال: من أين؟ قلت: من المغرب الأقصى من الأندلس، فقال: إن موضعك لبعيد، وما كان من شيء أحب إلي من أن أُحْسِنَ عَونَ مثلك على مطلبه، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك.

فقلتُ له: بلى قد بلغني، وأنا قريب من بغداد بعد أن قطعت ما قطعت مقبلاً نحوك، لكن يا أبا عبد الله! هذا أول دخولي البلد، وأنا مجهول عندكم؛ فإذا أذنت لي أن آتيك في زِيِّ سائل، فأقول ما يقول السائلون المتسولون: الأجر رحمكم الله، فتخرج إلى هذا الممر؛ فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث لكان لي فيه خير عظيم.

نعم على شرط ألا تظهر في الحِلَق عند أصحاب الحديث، حتى لا ينكشف أمرُك.

فكنت أخفي ورقتي ودواتي في كُمِّي، ثم آتي بابه، فأصيح: الأجر رحمكم الله، الأجر رحمكم الله.

فيخرج إليَّ الإمام أحمد في الممر ويغلق باب الدار، ثم يحدثني بالحديثين والثلاثة حتى اجتمع لي نحو ثلاثمائة حديث.

والْتزمتُ تلك الطريقة حتى زالت المحنة عن الإمام أحمد؛ يوم قُمِعَت البدعةُ وظهرت السنة.

فظهر الإمام، وسما ذكره، وعظم في عيون الناس، فكنت أحضر له، فيعرف لي حق صبري، ويقدّر جَلَدِي في طلب العلم؛ فكلما رآني هشَّ وبشَّ، وأفسح لي في مجلسه، وأدناني من نفسه، ثم يقول لطلبة الحديث: هذا هو طالب العلم حقا، ثم يقص عليهم قصتي. ([24])

زيتٌ ودقيقٌ، وصديق وقت الضيق

هذه الحكاية يرويها العالم الأندلسي ابنُ وضاح:

كان عالما بالحديث خبيرا بطرقه، محرِّرًا ومدقِّقًا، إلى جانبِ براعته في سرد حكايات العباد والزّهاد، مع ما كان عليه من ورع وزهد، وتعففٍ وصبر، ودأبٍ على نشر العلم، حتى نفع الله به أهل الأندلس. ([25])

قال رحمه الله: بقينا يومًا وليلة ليس عندنا شيء نتقوَّتُ به، أو يطعمُهُ العيال.

وأصبحتُ طاويًا من الجوع، ليس في بيتنا كسرةُ خبز. فقعدتُ لا حيلة لي.

فقالت زوجتي: لزومُك بيت ليس فيه سفَّة من دقيق لا فائدة فيه! فاخرج، إلى السكك والطرقات والأسواق، فالتمس لنا طعامًا، فقد جاع العيال! ولا ترجع إلى البيت خاويًا، ولو اضطررت إلى استجداء الناس، وسؤالهم!

فخرجتُ، وقد ضاقت بي الدنيا.

فقصدتُ الجامع، فمكثتُ فيه أذكر الله إلى أن صليتُ الظهر ثم بقيتُ في ذكرٍ ودعاء حتى صلاة العصر، وأنا أدعو الله تعالى، وأسأله بيقين أن يرزقني.

ثم خرجتُ من المسجد أتضوّرُ من الجوع، لكن الذي شغلني وآلمني حالُ صغاري الذين تركتهم وأمهم، وليس في البيت حفنةُ قمحِ، أو سفّة دقيق، فرقّ قلبي وهممتُ أن أعود لأطمئن عليهم، لكني تذكرتُ زوجتي التي ستُشبعني لومًا.

قلت: في الوقت فسحة، فإن قصدتُ الدار عكَّرتْ عليَّ زوجتي؛ وضيّقتْ علي، فخرجتُ إلى جسر قرطبة، وعبرتُ إلى العدوة الأخرى، وزرتُ قومًا من إخواني هناك؛ تقرُّبًا إلى الله، وبقيتُ حتى آذنت الشمسُ بالغروب، وأنا لا أكفُّ عن الدعاء.

ثم قررتُ العودة إلى داري، وقبل أن أصلها سمعتُ أذان المغرب، وأنا على بعد خُطواتٍ من مسجدِ الحي، فدخلتُ وصليتُ، ثم خرجتُ متوجِّهًا إلى بيتي، وفي الطريق زادت دقات قلبي، وتثاقلت الخُطى كلما اقتربتُ... ، وأخيرا وقفتُ على العتبة، ومددتُ يدي لأطرق المقرعة النحاسية، فتذكرتُ أن المفتاح في جيبي، فأخرجتُه، ووضعتُه في ثقب الباب الخشبي العتيق، وفتحتُ برفقٍ، وأنا لا أشك أني على موعدٍ مع عراكٍ وتقريعٍ وتأنيب، وماذا يُتوقع غيرُ ذلك؟ بيتٌ بلا كسرة خبزٍ، وقد عدتُ كما خرجتُ خاوي البطن والجيب.

الحمد لله البيت مظلمٌ، لا بد أن النوم غلبهم، تسللتُ على أطراف أصابعي من صحن الدار نحو غرفتي التي أستعملها لخلوتي، فإذ بزوجتي في مواجهتي، ففزعتُ، ثم تماسكتُ فألقيت عليها السلام، فأجابت بنبرة هادئة، ثم أضاءت مصباحا، ونظرتُ لوجهها في ضوئه، فإذ بها تبتسِمُ، فارتبتُ من الأمر! ماذا تخفي الابتسامةُ وراءها؟

لابد أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، وأيُّ عاصفة أتوقعها! لكن ما الحيلة! ليكن ما يكون!

زوجتي تتلقاني ببشر وتبسُّم، أمرٌ مريب!

وبينما أستغرق في الأفكار، قالت لي بصوتٍ ينمُّ عن رضا وسرور: يا أبا عبد الله: لقد جاءنا اليوم حملُ دقيق بعثتَ به في وقتٍ كنا نبكي من الجوع.

حقًّا يا أم عبد الله! الحمد لله، هذا من فضل الله وكرمه.

حقًّا يا زوجي لقد أكلنا حتى شبعنا. الحمد لله.

اطمأن قلبي، وزال همّي وقلقي، وعلمتُ لاحقا أن الذي بعث به صديقٌ لي، جزاه الله عني خيرًا.

بعث هذا المحسن بحمل دقيق ومعه جرةٌ مملوءةٌ زيتًا، ألقى الله عز وجل في قلبه رحمةً وإحسانا، فكان منه هذا الموقف النبيل، والله لطيف بعباده يرزق من يشاء.

ولم يكن جرت له عادة بمثل هذا، ولكن الله بفضله ورحمته حرَّكه لذلك في وقت ضرورتي إليه.

فحمدت الله عز وجل، وسُرَّ أهلي بما وردهم من ذلك، والحمد لله كثيرا، لا إله إلا هو.

وبعد قليلٍ قدمت لي زوجتي خبزا حارًّا وإداما، فأكلتُ حتى شبعتُ، وكانت ليلةً من ليالي السعد والهنا. ([26])

# الفقيه النبيل

في سنة ٢٨٠ من الهجرة حلّت ببلاد الأندلس مجاعةً شديدة، زامنت قحطا وجدبا، رغم تكرار صلاة الاستسقاء، إلى أن جاء الفرج، فُتِحَتْ أبواب السماء بماء منهمر استمر ليالي وأياما، حتى فاضت منه الوديان، وامتلأت السككُ بالماء والوحل، فانقطعت الطرق، وتعطّلت الأسواق، وزاد الأمر صعوبة، واشتدّ الكربُ على الفقراء والضعفاء، وبات بعضهم يطوي من الجوع، وعمّ البلاء.

وكان في قرطبة بيت متواضعٌ، يسكنهُ شيخٌ قرشيٌّ، يكنى أبا الأصبغ، معه زوجته وبناته الثلاث، كان غريبا لا أهل له يتفقدون أحواله، وطوى أهلُ بيته من الجوع، ثلاثة أيام، لم يشعر بهم أحد! حتى خرج في اليوم الثالث إلى مجلس الفقيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى، ليسمع منه الحديث، والفقه، رغم هطول المطر، وبعد الدرس همس إلى الفقيه على استحياء، قال: يا شيخي! أنا وأهلي منذ ثلاثة أيام لم نأكل شيئا.

ثم انصرف إلى بيته، فوجد زوجته ساكنة لا تقدر على الحركة أو الكلام، وبناته ضعيفات باكيات من شدة الجوع، وباتوا ليلتهم ينتظرون الموت، يقول هذا الشيخ: فلما كان في صبيحة اليوم الرابع قال لي أهلي: ما جلوسُك في هذا البيت ونحن هكذا؟! وبناتك قد تضوّرن جوعًا، اخرج واسع واستجدِ؛ لا نموت كلنا جملة!

قال القرشي: فخرجت إلى أسطواني، وأغلقت الباب، وفكرتُ إلى من أقصد، وإلى من أمضي، وقد يئستِ النفسُ من كل أحد، وأسكبت السماءُ مطرا وابلا، دام أياما وليالي كثيرة، حتى امتلأت السكك بالبرك والوحل، كيف أمضي؟ وإلى من أسير؟ فبينا أنا قائمٌ أدعو الله تعالى أن يكشف الضر، وأتأمل في حالي، وأتألم لأمر بنيَّاتي الضعيفات، إذ دخل عليّ مارٌّ عليه ممطر ([27])، ، فسلَّم علي وأقبل نحوي، فإذا به شيخي أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحي، فقيه قرطبة، ومسند الأندلس.

فقمتُ إليه، وقبّلتُ رأسه، وقلتُ له يا سيدي أنت في مثل هذا اليوم...؟! وكان جليلًا نبيلًا كبير الشأن ذا حرمة عظيمة وجلالة ([28]).

فقال: إياك قصدي، غمَّني فقرُك، وهذه عشرة دنانير تنفقها فيما تحتاج إليه، وقد أمرتُ طريفًا فتايَ بأن يقبل إليك بحِمل دقيق وربعين من الزيت حتى يفتح الله، قال القرشي: فحمدت الله تعالى، وشكرتُه ودعوتُ له، ثم خرج عني، فلم يكن إلا أن بلغ داره وأتاني حملُ الدقيق مع غلامه ستة أقفزة، قرابة ١٤٤ كيلا، قد غطاها من المطر، وغلام ثان على حمارٍ بجرتين ربعين من

الزيت وأنزل ذلك كله في آسطواني، ثم انصرف الأعوان عني، فوقفت عند الباب، وأنا عاجزٌ عن إدخال الدقيق داخل بيتي، فيسّر الله لي رجلا من جيراني، وأعانني، فقلت له: تلطّف لي في ابتياع حمل حطب وأغثني به، فقال لي: وأين يوجد الحطب في مثل هذا اليوم؟! والأسواق معطلة والسكك خالية موحلة؟

فقلت: لعل الله ييسره، ثم أخرجت أربعة دراهم من كمي وأعطيته فلم يهبط إلا يسيرا حتى صادف حمل حطب، فابتاعه وأتاني به، فأنزلته في الأسطوان [29]، ثم أقفلتُ باب الدار، ودخلت إلى زوجتي وبناتي فما قدرن على القيام إلا بحيلة، من شدة الجوع والإعياء، فلما أقبلتْ بناتي قلتُ لهن: هذا رزقٌ ساقه الله إلينا، فنهضتْ واحدةٌ توقدُ النار، وأخرى تعجنُ في الأسطوان، والثالثة تجعل المقلى على النار، حتى صنعن خبزا، فاستغثنا به، ثم صنعوا فطائر وإداما، فأكلنا حتى شبعنا، وحمدنا الله كثيرا على ما منَّ به علينا، وباتت بنيَّاتي ليلتهن في فرح وسرورٍ، وحبورٍ، وذكرٍ لله، وتذكّرنا جيرانا لنا فواسيناهم بما أفاض الله علينا. [30]

وقرتْ عيونُنا بعطاء الله، فسبحان مُجري الأرزاق، وإن عجزت الحيلُ وانقطعت السُّبل، ووهنت الأسباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# الرحّالةُ الأندلسي والصيادُ النبيل

حكايتنا من غرب الأندلس، مدينة لَشبونة، وهي الآن عاصمة البرتغال، فيما مضى كانت إحدى عرائس الأندلس القديمة، «قريبة من البحر، في جبالها التبرُ الخالص، ولعسلها فضلٌ يربو على كل عسل بالأندلس، وهي مبنية على ضفاف نهر تاجه، تشرب وترتوي من مائه العذب، ويوجد بساحلها العنبر الفائق، يستخرج من الحيتان التي يطرحها البحر المحيط». ([31])

وحكايتنا يرويها أبو عمرو ابن الإمام المتوفى سنة (٥٥٠هـ)، قبل استيلاء العدو على إشبونة بزمن يسير، وأبو عمرو، شاعرٌ أديب، له كتاب سمط الجمان وسقط اللآلئ وسفط المرجان، جمعه من واحات الأدب، وبطون الكتب، وأفواه الشعراء، وأودع فيه من نفائس المعرفة وفصوص الحكمة.

عُرِف بترحاله في أرجاء الأندلس، يلقى الشعراء، ويناشدهم الشعر، ويتفقّد أحوالهم، ويجمع أخبارهم، توجّه إلى أشبونه وبحث عن شاعرٍ مغمور، مضى في شوارعِها وأزقّتها، يسأل كل من يقابله عن بيته، لكنّ أحدا لًا يعرفه.

صياد فقير، يحمل شبكته كل صباح ويقصد البحر، فيصيد اليسير من السمك، ويمضي به السوق فيبيعه، ويكتسب القليل من المال، وتعينه زوجته وابنته بمغزلهما.

مكث أبو عمرو يسألُ كلَّ من يقابله، سأل أصحاب الحوانيت في سوق البلدة، سأل جماعة من الصيادين، سأل عجوزا تجلس على عتبة دارها، وأخيرا وجد من يدلُّه عليه، ويصحبه إلى كوخٍ صغير، غير بعيد عن شاطئ نهر التاجو، الذي يلتقي بالمحيط الأطلسي، فيصبُّ به ما تبقى من مياهه، بعد سفره الطويل في الربوع الأندلسية يروي الحقول ويسقي الظمأى، وقف الأديبُ على باب ذلك الفقير المغمور متعجّبا أن يكون هذا الكوخ الصغيرُ منزلَه! كيف والقابعُ هنا سليلُ الملوك والخلفاء، سبحان من له الملك والأمر، خلف هذا الباب يسكن من كان أجدادُه وجداتُه يرفلن في الحرير، ويخطرن بتيهٍ في المقاصير! وعلى رؤوسهن التيجان المرصعة بالماس والياقوت!

حقًّا! هذا الصياد الفقير، الذي لا يعرفه أحد، سليل الملوك والأمراء، من بني أمية!

وقف الأديب الرحالة هنيهةً يلتقطُ أنفاسه.

تُرى لماذا يتجشمُ الصعاب ويجاوز السهول والهضاب؟ ثم في النهاية يقف على باب هذا الأموي الفقير؟ ما الذي يريده منه؟ هل سيمتدحه بقصيدة ويرجو نواله وجائزته؟ وماذا يملك هذا المسكين من كنوز الدنيا بل من

حطامها! وقد زال ملك آبائه وأجداده، في الشرق والغرب، في الشرق على أيدي العباسيين الذين انتزعوا الملك وأبادوا كل من أمسكوا به من ذكور البيت الأموي رجالا وأطفالا، حتى لاذ بالفرار عبد الرحمن بن معاوية، الذي نجا وظفِرَ وعُرِفَ لاحقا بصقر قريش، وعبد الرحمن الداخل، لأن دخوله الأندلس فاتحا وحاكما كان أمرًا مُذهلا! ففي زمنٍ يسيرٍ استطاع أن يزيح كل منافسيه ومناوئيه، وينفرد بالحكم، ويؤسس مملكةً أمويةً جديدة في الأندلس، كان آخر ملوكها هشام المؤيد بالله آخر من حكم الأندلس، وكان طفلا صغيرا خلف أباه الخليفة الحكم المستنصر بالله عام ٣٦٦ هـ، وهو في سن الثانية عشر، فحجبه المنصور بن أبي عامر، وتولى الأمر مستبدًّا به، فكان المنصور الحاكم الفعلي للأندلس، بينما كان هشام صاحب اللقب فحسب.

وانفرط عقد الأمويين، وانقطع ملكهم، وتشتت جمعهم، فانتقل صاحبنا من شنترة مسقط رأسه، وهي بلدة واقعة في غرب الأندلس ([32]) إلى إشبونة.

ما زال الرحالة واقفا بالباب ينتظرُ من يجيب، ترى هل في الدار من أحدٍ! أم أن أصحابها غادروها!

يا طارق الباب رفقاً حين تطرقهُ

فإنه لم يعد في الدار أصحابُ.

تفرّقوا في دروبِ الأرض وانتشروا

كأنه لم يكن أنسٌ وأحبـــــــابُ.

ارحم يديك فما في الدار من أحد

لا ترجُ ردًّا فأهلُ الوُدِّ قد راحوا.

ولترحمِ الدار..لا توقظ مواجعَها

للدُّور روحٌ.. كما للناس أرواحُ

يحكي شاعرُنا فيقول: أعدتُ طرق الباب فسمعت هذه المرة من يجيب: من الطارق؟

فقلت: رجل ممّن يتوسل لرؤيتك بقرابة.

فقال: لا قرابة إلاّ بالتُّقى، فإن كنت من أهلها فادخل.

فقلت: أرجو في الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى!

فقال: ادخل. قلتُ له: كيف والباب موصدٌ؟

قال ادفع الباب، فدفعته برفق، حتى وجدتني داخل الدار، غرفةً خاليةً من الأثاث، إلا حصيرا ممدودا، وفي أحد الأركان جرةُ ماءٍ وكوز، وفي ركن آخر موقدٌ حجريٌّ « كانون» لطهي الطعام، عليه قدرٌ يغلي، وبصيصٌ من الضوء عبر طاقةٍ في سقف المنزل صغيرة، وعلى الجدارِ شبكة معلقة لصيد السمك، كما وقعت عيني على مغزل خشبي لنسج الصوف والحرير أو القطن والكتان، وفي أحد الأركان بابٌ عليه ستارةٌ مُرخاة.

والشيخُ في زاويةٍ قد اتخذها مصلى وأمامه سبحةٌ، ألقيتُ السلام، فأجاب، وأظهر البشر والترحاب، وقال لي: ارفق عليّ يا ولدي حتّى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح، ثم أقضي حقَّك، فمكثتُ إلى أن فرغ.

فلمّا قضى تسبيحَه عَطَفَ عليَّ، ونظر في وجهي، وقال: ما القرابة التي بيني وبينك؟ فانتسبتُ له، فعرف أبي وترحّم عليه، وقال لي: لقد كان صاحب أدب ومعرفة، فهل لديك أنت ممّا كان لديه شيءٌ؟

فقلت له: ياعمِّ إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلّم الأدب، وقد تعلقتُ من ذلك بما أتميّز به.

فقال لي: هل تنظم شيئًا؟ قلت: نعم، وقد ألجأني الدّهرُ إلى أن أرتزق به.

فقال: يا ولدي إنه بئسَما يُرْتَزَق به، ونعم ما يُتحلّى به؛ إذا كان على غير هذا الوجه، وقد قال رسول الله، : (إنّ من الشّعر لحكمةً) ولكن تحلُّ الميتة عند الضرورة، فأنشدني أصلحك الله تعالى ممّا يحضرك من شعرك!

فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به ممّا يوافق حاله، فما وقع لي إلاّ فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبه ذلك، فأطرقتُ قليلاً، فقال: لعلك تنظم، فقلت: لا ولكن أفكر فيما أقابلك به، فقولي أكثره فيما حملتني عليه الصّبابة والسخف، وهو لائق بغير مجلسك، فقال لي مُهوِّنا؛ ليرفع عني الحرج: يا بني، ولا هذا كله، إنّا لا نبلغ من تقوى الله إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح، ولقد كانوا ينشدون الأشعار، حتى شعر الغزل، فمن نحن حتّى نأبى أن نسمع مثل هذا؟ والله لا نشذُّ عن السلف الصالح، فأنشدني ما وقع لك غير متكلف، فلم يمدَّني خاطري إلى غير قولي من شعر مطلعُه:

أبطـــأت عنّـــي، وإني

لفي اشتياقٍ شديد.....

وهي أبياتٌ تشتمل على تهتُّكٍ وتماجن.

فتبسَّم الشيخ، وقال معاتبًا: أما كان في نظمك أطهرُ من هذا!

فقلت له: ما وفقّتُ لغيره، فقال: لا بأس عليك، فأنشدني غيره، ففكرتُ إلى أن أنشدتُه قولي:

ولمّا وقفتُ على رَبعهم

تجرعتُ وجدي بالأجرُع

وأرسَلَ دَمعي شَرارَ الدموع

لنارٍ تأجّج في الأضلُع

فقال عذولي، لمّا رأى

بكائِيَ: رفقاً على الأدمُع

فقلت له: هذه سنّةٌ

لمن حفظ العهدَ في الأربُع

فرأيتُ الشيخ قد أخذته حالةٌ من الوجد والطّرب، فصار يذهب ويجيء، ثمّ أفاق، وقال: أعد بحقِّ آبائك الكرام، فأعدتُ، فأعاد ما كان فيه وجعل يردِّدُهُ، فقلت له: لو علمتُ أن هذا يحركُك ما أنشدتُك إيّاه، فقال: وهل حرك مني إلاّ خيراً وعظة! يا بُني إن هذه القلوب المتجردة لله كالأوراق التي جفَّت، وهي مستعدةٌ لهبوب الرياح، فإن هبّ عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء، وصادف منها طَوْعَه، فأعجبني منزعَه، وتأنّستُ به، ولم أر عنده ما يُعتادُ من هؤلاء المتدينين من الجمود والانقباض والانكماش، بل ما زال يباسطني ويحدثني بأخبار فيها هَزْل، ويذكرُ لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له، ولا أعلم أكثره، فلمّا كثر تأنُّسي به، أهويتُ إلى يده كي أقبّلها، فضمَّها بسرعة، وقال: ما شأنُك! فقلتُ: راغباً لك في أن تنشدني شيئاً من نظمك!

فقال: أما نظمي في زمان الصبا: فكان له وقتٌ ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأمّا نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله، وهو يثقلُ عليك.

فقلت له: إن أنصف سيدي الشيخ -نفعنا اللهُ تعالى به- أنشدني من نظم صباه، ومن نظم شيخوخته، فيأخذ كلانا بحظه، فضحك وقال: ما أعصيك وأنت ضيف وقريب ولك حرمة أدب ووسيلة قصد، ثمّ أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخنقته العبرة:

ثق بالذي سوّاك من

عدمٍ فإنّك من عدم

وانظر لنفسك قبل قر

ع السنِّ من فرط الندم

واحذر وُقِيتَ من الورى

واصحبْهمُ أعمى أصم

قد كنتُ في تيهٍ إلى

أن لاح لي أهدى علم

فاقتدتُ نحو ضيائه

حتّى خرجتُ من الظّلم

لكنْ قناديلُ الهوى

في نور رشدي كالحُمم

فوالله لقد أدركني فوق ما أدركَه، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات، وفعلت بي من الموعظة غاية الأثر، فنظر إليَّ الشيخ وقال لي: إن هذه يقظة يرجى معها خيرُك، والله مرشدك ومنقذك، ثمّ قال لي: يا بني هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمع فيما مضى والله وليّ المغفرة، وإنّا لنرجوا منه غفران الفعل، فكيف القول، وأنشد:

أطلّ عذارٌ على خدّه

فظنُّوا سُلُوِّي عن مذهبي

وقالوا غرابٌ لوشكِ النوى

فقلت اكتسى البدرُ بالغيهب

وناديتُ قلبي أين المسيرُ

وبدرُ الدجى حلّ في العقرب

فقال ولو رمتُ عن حبّه

رحيلاً عصيتُ ولم أذهب

فسمعتُ ما يقصُرُ عنه صدور الشعراء، وشهدت له بالتقدم، وقلت له: لم أر أحسن من نظمك في جدٍّ ولا هزل، ثمّ قلت له: أأرويه عنك؟ فقال: نعم، ما أرى به بأسًا بعد اطلاع من يعلم السرائر، على ما في الضمائر، فما قدر هذه الفكاهة في إغضاء من يغفر الكبائر، ويغضي عن العظائم! قال: فقلت له: فإن أسبغتَ عليّ النعمة بزيادة شيء من هذا الفن فعلتَ ما تملك به قلبي آخر الدّهر!

فقال: يا بني لا مَلَكَ قلبَك غيرُ حبِّ الله تعالى، ثمّ قال: ولا أجمعُ عليك ردّ قول ومنعاً، وأنشد أبياتا مطلعها:

أيها الشادنُ الذي

حسنُه في الورى غريب

قال: فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجزُ عن التعبير عنه، فقلتُ له: زدني زادك الله تعالى خيراً، فأنشدني أبياتا، منها:

ما كان قلبي يدري قدرَ حُبِّكُمُ

حتّى بعدتُم فلم يقدِر على الجَلَد

وكنتُ أحسبُ أنّي لا أضيقُ به

ذرعاً فما حان حتَّى فتَّ في عضُدي

ثمّ قال: حسبك، وإن كلفتني زيادة فالله حسبك، فقلت له: قد وكلتني إلى كريم غفور رحيم، فبالله إلاّ ما زدتني، وأكببتُ لأقبِّل رجليه، فضمَّهما وأنشد قصيدة مطلعها:

لله مـــن قـــال لمّـــا

شــــكوتُ فيه نحولي

أمَّـــا السبيلُ لوصلٍ

فــما له من وصول

فملأ سمعي عجائب، وبسط أنسي، وكتبتُ كل ما أنشدني، ثمّ قلت له: لولا خوفي من التثقيل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتّى لا تجد ما تنشدُ، فقال: إن عدتَ إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكرتُ، وأنشدتُك، فما عندي ممّا أضيفُك غير ما سمعت، وما تراه، ثمّ قام وجاء من الغرفة الأخرى في داره بصحفةٍ فيها حساء من دقيق وكسور باردة، فجعل يفتُّ فيها، ثمّ أشار إليّ أن أشرب فشربتُ ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثمّ قال لي: هذا غذاء عمِّك نهاره، وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصالها، قال: فقلت له: يا عمِّ، ومن أين عيشُك؟ فقال: يا بنيّ، عيشي بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل البحر ما أقتاتُ به، وأشار إلى الحائط، ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما نجد فيه معونة، ثم اعتدل في جلسته وقال وهو ينظر متبسّمًا عبر نافذة صغيرة: وهذا مع العافية والاستغناء عن النّاس خيرٌ كثير. ثم رفع كفيه ونظر إلى السماء، وقال: جعلنا الله تعالى ممّن يلقاه على حالة يرضاها، وختم لنا بخاتمة لا يُخاف معها فضيحة.

فتركتُه وقمتُ وفي نيّتي أن أعود إلى زيارته، ونويت أن يكون ذلك بعد أيّام خوف التثقيل، فعدتُ إليه بعد ثلاثة أيّام، وأنا في لهفةٍ وشغفٍ للقائه، فنقرتُ البابَ برفق، فكلمتني امرأةٌ بنبرة عليها أثر حزن، وقالت: إن الشيخ خرج إلى الغزو، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم، ناله الوجدُ والشوقُ فصار كالمجنون، لم يطق صبرًا على البقاء في البلدة، فقلتُ لها: وأين مضى؟ قالت لما رابني أمرُه قلتُ له: ما شأنُك؟ فقال: أريد أن أموت شهيداً في الغزو، وهؤلاء جيرانٌ لي قد عزموا على الغزو، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم، ثمّ استلَّ سيفا وحمل درعًا وتوجَّه معهم، وقال: نفسي هي التي قتلَتني بهواها، أفلا أقتصُّ منها فأقتُلُها؟

فقلتُ لها مشفقًا: ومن خلّف للنظر في شأنكم؟

فقالت بحزمٍ وصرامة: ليس ذلك لك! فالذي خلقنا لا نحتاج معه إلى غيره.

فأدركني من جوابها روعة، وعلمت أنها مثلُه زهداً وصلاحاً وتعفُّفًا وأدبًا، فقلت لها: إني قريبه، ويجب عليّ أن أنظر في حالكم بعده، فقالت: يا هذا إنك لست بذي محرم، ولنا من العجائز من ينظرُ شأننا ويبيع غزلنا ويتفقد أحوالنا، فجزاك الله تعالى عنّا خيراً، انصرف عنّا مشكوراً، فقلت لها - وأخرجت كيس نقودي- هذه دراهم خذوها تستعينوا بها، فقالت: ما اعتدنا أن نأخذ شيئاً من غير الله تعالى، وما كان لنا أن نخلّ بالعادة.

فانصرفتُ نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرُّك بدعائه، ثمّ عدتُ بعد ذلك لدياره سائلاً عنه، وطرقتُ الباب، فخرجت زوجته وقد اتشحت بالسواد فسلمتُ ثم قلتُ بلهفة: أين الشيخ؟ فبكيتُ بحرقة، ثمَّ انصرفتُ معتبراً من حاله، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وجمعنا به في الفردوس. ([33])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# اتقِ دعوةَ المظلوم

# أربع حكايات

## ١ - شيبان وحسان!

قصة رجل من أهل قرطبة، ينتسب إلى العلم، اغتر بحاله، وجاهه، فاجترأ على الظلم، واستباحه.

إبراهيم بن عيسى بن حيويه الفقيه، رغم أنه على فقهٍ إلا أنه كان ظالما، تمادى في الظلم وتجرّأ على حقوق الجار، واستخفَّ بدعاء المظلوم، لم ينفعه علمه ولم يردعْه ضميرُه، فوق أنه جمع ثروة من حرامٍ.

كان له جار يعرف بابن الصيقل، يسكن في دار فسيحة أنيقة، ورثها عن أبيه وجده، وكان الفقيهُ المذكور مبهورا بها، فسأل صاحبَها بيعَها، فأبى عليه، وقال له: إن مالك غيرُ طيب، وهذه دويرة حلالٌ، ورثتها عن أبي وجدي!

فألح الفقيه في طلبها، فأبى ابنُ الصيقل.

فوضع أمامه صرةً من الدنانير يغريه ببيعها، فلم يلتفت لها.

فصرخ في وجهه مهددا: والله لئن لم تأخذ الثمن فيها لأضيقنَّ عليك فيها حتى تفرّ منها.

قال له: أرجو أن الله يرفع عني ضرَّك بدعاء إخواني.

قال له هازئا ومتهكّما: إخوانُك! هه! نعم إذا أردتَ أن تدعو الله، فاجتمع بشيبان وحسان، وادعوا الله في تلك الصومعة، فإنها أقرب إلى الله تعالى، وأشار لصومعة بالمسجد، مستخفًّا بالدعاء، وهو يقهقه سخريةً.

فقال صاحبُ الدار: كذلك نفعل إن شاء الله تعالى، ونهض الرجل من وقته إلى شيبان وحسان رحمهما الله، فأعلمهما بمقالة ابن حيويه، فقالا: نعم كذلك نفعل إن شاء الله تعالى، فلقد كثر وبالُه وشرُّه، وضاق الناسُ به ذرعًا.

فلما جنَّ الليل، باتوا في الصومعة وصلُّوا ودعوا وتضرّعوا، فلما كان في السحر سمعوا صراخا وبكاء، فإذا بابن حيويه قد مات في ذلك السحر، فأجاب الله دعاءهم فيه، وكفى الله الرجل والمسلمين ضُرّه.

قال الراوي: وانتشر هذا الخبرُ بمدينة قرطبة حديثًا يذكرُ على الألسنة إلى وقتنا هذا. ([34])

ولله درُّ من قال:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرا

فالظلمُ ترجعُ عقباه إلى النَّدمِ

تنامُ عيناكَ والمظلومُ مُنتبهٌ

يدعُو عليك، وعينُ الله لم تنم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## ٢ - سهام الليل!.. يكفيك الله!

كان ابن وثّاب يختلف الناس إليه لدراسة العلم، وكان رجلا فاضلا مجاب الدعوة، وكان ذلك الوقت رجل سلطاني يضرُّ الناس ويكثرون الشكاية عنده، فيدعو في كل مجلس عليه، فبلغ ذلك السلطاني فأتى إليه بحشمه، فقال له: بلغني أنك تدعو علي، وما علي من دعائك، فإنه لا يضرني ولا يهمُّني؛ فادع بما شئت.

فنظر إليه فقال: يكفيك الله.

فما كان إلا أيام يسيرة حتى أتى طالب من طلبته، وهو في مجلسه فقال له: ما عندك خبر؟ فقال: وما هو؟ فقال: فلان السلطاني مذبوح مطروح في مربد بني فلان. ([35])

فقال لأصحابه: قوموا بنا إليه حتى نقف عليه.

قال: فنهض، فلما وصل إليه وجد الناس قد التفوا حول الحفرة التي طُرح بها، فنظر إليه وتأسَّف لحاله، وقال شعرا يعنيه في الحال:

أتهزأُ بالدعاء وتزدريه

تأمّل فيك ما صنع الدعاءُ

سهامُ الليل لا تخطئ ولكن

لها أمدٌ وللأمدِ انقضاءُ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## ٣ - صريع الدعاء

قصة أخرى فيمن استخف الدعاء، واستمر على طغيانه، فأهلكه الله سريعا بقدرته:

ينقلها ابن بشكوال الأندلسي، عن أبي علي الفسوي النحوي، عن أبيه قال: وَلِيَنَا بفسا وهي بلدةٌ من بلاد فارس، عامل، فجار وظلم، فأقمنا ثلاثة أيام بلياليهن ندعو عليه، فلما كان اليوم الرابع اشتدّ علينا الأمرُ، واستدعانا فقال: بلغني دعاؤكم، ولعلكم تظنون أني أفكر في ذلك، أو أكترث به. ثم أمر ببعضِنا إلى المحبس، فقام رجل منهم أديبٌ فوعظه، وقال: الجوابُ على من اجترأتَ عليه! فلم يتعظْ ولم ينزجرْ. وركب بغلَهُ، ومشى، فاستقبله ثورٌ عليه حِمْلٌ، فهيّج البغلَ، فَنفرَ منه، ورمَى به، ثم دار فوقه وشقَّ بطنه، ومات شرّ ميتة، فاجتاز به الأديبُ وهو على تلك الحال فأنشد:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه

وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تُخْطِئ ولكن

لها أمد وللأمد انقضاء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## ٤- اللهمَّ اكْفِنِيه، اللَّهُمَّ اكفنيه

وكان الإمام المقرئ أبو محمد مكّيّ بن أبي طالب القَيْسيّ القُرْطُبيّ حَسَن الفَهْم والخُلُق، جيّد الدِّين والعقل، خيِّرًا، فاضلًا، متديِّنًا، متواضعًا، مشهورًا بالصّلاح وإجابة الدّعوة، وكان رحِمه الله من أهل التَّبَحُّر في علوم القرآن والعربيّة، مجوِّدًا للقراءات السَّبْع، عالمًا بمعانيها.

كان الشيخ يخطب الجمعة بجامع قرطبة، وقد ابتُلي برجلٍ فيه حِدَّة، مع ذرابة لسان، كان يجلس قريبًا من المنبر إذا خطب فيغمزه ويُحْصِي عليه سَقَطاتِه، وكان الشّيخ كثيرا ما يتلعثم ويتوقَّف، فجاء ذلك الرّجل في بعض الْجُمَع، وجعل يحدُّ النَّظرَ إليه ويغمزُه، فلمّا خرج ونزل معنا في موضعه، قال: أمِّنوا على دعائي، ثمّ رفع يديه وقال: اللهمَّ اكْفِنِيه، اللهمَّ اكْفِنِيه، اللَّهُمَّ اكفنيه، فأمَّنّا. قال: فأُقْعِد ذلك الرّجل، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم. (36)

ولله درُّ من قال:

توقَّ دعا المظلومِ إن دعاءَه

ليرفعُ فوق السحبِ ثم يجابُ

توقَّ دعا من ليس بين دعائِهِ

وبين إلهِ العالمين حجابُ

## سلامة المعتقد!

كان من محاسن الأندلس قلةُ المبتدعين وأصحاب الأهواء، إذ كان العلماءُ غيورين أشد الغيرة، يتصدّون للمبتدعة، ويقيمون الحجة عليهم، وينشرون السنة والهدي النبوي.

دخل طلاب العلم الأندلسيون بكتب السنة، بعد أن جابوا أقطار العالم الإسلامي من المغرب الأقصى إلى فارس والهند، في طلب العلم، ورواية الأحاديث، والحصول على الإجازات والسّماعات من المحدثين، فنشروا في ربوع الأندلس سنةَ سيدِ المرسلين، بيد أنّ بعض العائدين إلى الأندلس من طلبة العلم، جلبوا معهم بعض كتب علم الكلام والفلسفة، بعد أن تأثروا بها وجالسوا أصحابها في العراق خصوصا، أو في بلاد فارس، ومنهم من جاهد لنشر تلك المذاهب بين الأندلسيين، لكنّ تأثيرهم كان ضعيفًا؛ حيث لم يلقوا أذنا صاغيةً.

حكي أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق الحِمْصِي، نسبة لحِمْصِ الأندلُس: إشبيلية- كما أن غرناطة دمشق الأندلس - وكان رحمه الله من أهلِ المعرفةِ بالحديثِ، والمستمسكين بالحق، الغيورين على دين الله، رحل في طلب الحديث، فكان له أنسٌ بأهله، ورجع إلى الأندلس وانتفع الناس بعلمه.

يقولُ: جَرَىَ بيني وبين صاحِبٍ لنا أندلسيٍّ من المولعين بعلم الكلام المكبِّين على كتبه: مناظرةٌ علمية في مسائل العقيدة، وكان صاحبُنا مجادلا عنيدا، ينتصر لأهل البدع وينافحُ بطريقة المتفلسفين، وكنا نحاجُّه بالكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح والأئمة الأربعة، بينما يجادلُنا بمنطق أرسطو، وفلسفة سقراط، ويراوغُ بالألفاظ، حتى طال السهر واستمرَّ الجدال، دون أن يذعن للحق، وانفضَّ المجلسُ، فحزنتُ لذلك حزنا شديدا، وعدتُ لبيتي مهمومًا، ونمتُ على طهارةٍ وذكرٍ ودعاء، فرأيتُ تلك الليلةَ فيما يرى النائمُ: كأنَّ رجُلاً من أهلِ الحديثِ أعرِفُهُ باسمِهِ، قاعدٌ على سريرٍ فخمٍ أنيقٍ، بهيئةٍ حسنةٍ، وثيابٍ بيضاء فاخرةٍ، يعتمرُ قلنسوةً جميلةً، وبين يديهِ رَجُلٌ من المتكلمينَ جاثيًا على ركبتيه، منكَّس الرأس، يرنُو بعينٍ واحدة، وعالم الحديث يتكلمُ معهُ بالكتاب والسنة وأقوال السلف، والأئمة الأعلام، ويغْلِبُهُ ويُفحِمهُ، والمبتدع يطأطئُ رأسه مستسلما، وعينه في الأرض، لا يجد جوابا.

فانشرح صدري، وقرّت عيني، وانتبهتُ وحمدتُ اللهَ تعالى. وعلمتُ أن الحقَّ مع أصحابِ الحديثِ. ([37]).

فكان من فضائل الأندلس، ومحاسنها آن أهل البدع والأهواء لم يجدوا فيها تربةً خصبةً لبثِّ أفكارهم وترويج مذاهبهم، فلطالما آلت عاقبةُ محاولات بعض المتأثرين بالفرق الضالة كالمعتزلة أو الرافضة وغيرها إلى الإخفاق والخذلان، والهزيمة في ميادين المناظرة والمواجهة أمام فرسان أهل السنة، وجنود الحق، من علماء الأندلس الأشاوس.

وأسوق في هذا المقام تلك الرؤيا التي رآها أحد الشيوخ للقاضي محمد بن بشير الذي كان مثالا للعدل والنزاهة، والفقه والذكاء بقرطبة في عصورها الذهبية، كان لا يخشى في الحق لومة لائم، فكان يقيم الحق ولو على الأمير أو الوزير، رآه تلميذه الإمام المحدث مُحَمَّدِ بن عَتَّابِ بنِ محسن القُرْطُبِيّ، وقد حكاها لولده العلامة الفقيه عبد الرحمن قال: كنت أرى القاضي ابن بشر في المنام بعد موته في هيئته التي كنت أعهدُه فيها وهو مقبلٌ من داره بالربض الشرقية، فكنت أسلِّم عليه وكنت أدري أنه ميِّت، وأسأله عن حاله وعما صار إليه، فكان يقول لي: إلى خير، ويشير بيده بعد شدة، فكنت أقول له: وما يذكر من فضل العلم؟ فكان يقول لي: ليس هذا العلمُ يشير إلى علم الرأي، ويذهب إلى أن الذي انتفع به من ذلك ما كان عنده من علم كتاب الله جل ثناؤه، وحديث رسول الله . ([38])

يا من تقرأ هذه الكلمات! إذا هبَّت رياحُ الفتنِ، وتلبَّدَتِ السَّمَاءُ بِغُيُومِ الشُّبه، إذا اختلطت المفاهيم وانقلبت الموازينُ، وزُخرِفتِ الأباطيل، وألبسَتْ ثوبَ الحقِّ: فلا منجى لنا ولا مخرج إلا بالتمسُّك بالحبل المتين والنبراسِ المبين: كتابِ ربِّ العالمينَ، وسُنَّةِ رسولِه الأمين: فهما العصمةُ والنجاةُ، دليل القلوب، وبصائرُ الحقِّ ومهما تحذلق المبطلون بالعبارات وجادلوا، أو تشدّق المبتدعون بالمصطلحات وراوغوا، فإن الحق لا بد أن يتجلّى ويظهر وينتصر.

عليكَ بأصحابِ الحديثِ فإنَّهم

على منهجٍ للدينِ ما زالَ مَعْلَمًا

وما النورُ إلا في الحديثِ وأهلِهِ

إذا دَجَى الليلُ البهيمُ وأظلمَا

ومن يتركِ الآثارَ ضلَّ سعيُهُ

وهلْ يتركُ الآثارُ من كان مسلمًا! ([39])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

## وأنا أشهد أن رسول الله

# ما كتب قط حرفا!

نشأ الإمام ابن حفّاظ في جزيرة شقر، هذه الجزيرة التي تعدُّ من أنزهِ بلاد الله وأجملها، لطيب تربتها وجمال طبيعتها، وكثرة الأشجار والثمار، ونقاء الهواء وقلة الأدواء، ونضرةِ العيش وخصوبة المراعي، قد احتضنها النهر برافديه وحواها بذراعيه، وأحاطها إحاطة الأسورة بالمعصم، في رحلته الطويلة وجولته السخية، مسافرا، ومعرّجا على قرى ومدائن أندلسية، يطوف بالبلدان، ويحبِّرُ الحقول ويروي الوديان، ويجتازُ الهضاب ويتجاوز الصعاب، في رحلة تمتد لأكثر من خمسمائة كيلاً (٥٠٩) قبل أن يصل إلى مصبِّه، ملقيا بنفسه في أحضانه كالعائد من سفر طويل شاقٍّ، وشوق عارمٍ لحضن أمه، ويمتزج ماؤه العذب بملحه الأجاج في انسجام واستسلام.

لكن ابن حفاظ كان ممن لزم الفقيه أبا الوليد الباجي، ومال إلى رأيه أن النبي لم يظل أميًّا، فقد كتب بيده يوم الحديبية، ودافع عن هذا الرأي، وتشبّث به، رغم أنه رأيٌ شاذٌّ مخالفٌ لما أجمع عليه أهل العلم أن رسول الله لم يكن يقرأ ويكتب وهذا من دلائل النبوة، وكمال الحجة، قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت: ٤٨]

أما ما ورد أن النبي في صلح الحديبية تناول الممحاة ومسح ما كتبه عليٌّ رضي الله عنه: من محمد رسول الله وكتب من محمد بن عبد الله، فالأميُّ إذا استطاع كتابة اسمه، أو التوقيع، لا يعني ذلك إجادته للكتابة.

قال أبو الحسن بن مفوز: وكنت أنكر ذلك عليه لكنه لا يستجيب لقولي، ولا يذعن بحجتي، فلما كان بعد برهة من الزمان أتاني زائرا على عادته، وأعلمني أن رجلا من إخوانه كان يرى في النوم أنه بالمدينة وأنه يدخل المسجد، فيرى قبرَ النبي أمامه فيحسُّ بقشعريرة وهيبة عظيمة، ثم يراه ينشقُّ ويهتزُّ فلا يستقرُّ، فيرتاعُ قلبُه، وسألني عن تعبير رؤياه، فقلتُ أخشى على صاحب هذا المنام أنه يصف رسول الله بغير صفته أو ينحله ما ليس له أهل، أو لعله يفتري عليه.

فسألني: من أين قلت هذا؟

فقلت له:من قول الله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا.لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا.تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا.أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: ٨٨ - ٩٢].

فقال لي لله درُّك يا سيدي! وأقبل يقبِّل رأسي وبين عينيّ ويبكي مرة ويمسح دموعه وهو يضحك، ثم قال أنا صاحب الرؤيا، واسمع تمامَها يشهدُ لك بصحة تأويلك، لما رأيتني في ذلك الفزع العظيم كنتُ أقول: والله ما هذا إلا لأني أقول وأعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بيده الشريفة، فكنت أبكي وأقول أنا تائب تائب يا رسول الله! وأكرر ذلك مرارا، فأرى القبر قد عاد إلى هيئته أولا وسكن، فاستيقظتُ، ثم قال لي: وأنا أشهدُ أمامك أن رسول الله ما كان أميًّا، وعلى ذلك ألقى الله تعالى.

فقلت: الحمد لله الذي أراك البرهان؛ فاشكره شكرًا كثيرا.

عبرة: ولو تُرِكَ الناس لأهوائهم وآرائهم لتباينت الآراء وتضاربت الأهواء، وضل الناسُ ضلالاً بعيدا، لذا كان المرجعُ والميزان عندما نختلف كتابَ الله وسنة رسوله ، لا العقل والهوى والاستحسان.

فعلى العاقل أن يتجرّد للحق، ويتبصّر ويستنير بما آتاه الله من علمٍ، ولا يسلّم لهواه، ولا يتعصب لرأي شاذ، وليلزم ما اجتمع عليه أهل العلم ففيه الهدى والنجاة.

والناس يستهينون بهذا الأمر فترى بعض المنتسبين للعلم يميل لرأي ويتشبثُ به، ولا يبالي لو كان مخطئا، ظنًّا منه أنه يجتهد! وينسى أن العقل أمانة وأن العلم الذي أودعه الله في صدره بصيرة، وأن للاجتهاد قواعده وحدوده، وأن الله سيحاسبه على خلجات أفكاره وجموحها، ونزغات آرائه وجنوحها.

ولله در الشاعر الأندلسي:

مَنْ كَانَ يَرغبُ فِي النَّجَاةِ فَمَا لَهُ

غَيْرُ اتِّبَاعِ المُصْطَفَى فِيمَا أَتَى

ذَاكَ السبيلُ المُسْتقيمُ وَغَيْرُهُ

سُبُلُ الضَّلاَلَةِ وَالغِوَايَة وَالرَّدَى

فَاتْبَعْ كِتَابَ اللهِ وَالسُّنَنَ الَّتِي

صَحَّتْ؛ فَذَاكَ إِنِ اتَّبَعتَ هُوَ الهُدَى

وَدعِ السُّؤَال بِلم وَكَيْفَ؛ فَإِنَّهُ

بَابٌ يَجُرُّ ذَوِي البصِيْرَةِ لِلْعَمَى

الدِّيْنُ: مَا قَالَ الرَّسُولُ وَصحْبُهُ

وَالتَّابِعُوْنَ وَمَنْ مَنَاهِجَهُم قَفَا ([40])

# عقد اللؤلؤ

# حكاية في العدل والجود

في شرفةِ قصرِه، ذاتُ الإطلالة الرائعة على نهر قرطبة، أو الوادي الكبير، كان الأميرُ الشابُّ متكئًا على أريكته وبقربه جاريةٌ من أحبِّ جواريه إلى قلبه، تارةً يصغي إلى حديثها العذب، وهو يتأمّل في محاسنها، وتارةً يجيلُ النظر في الأشجار الظليلة، والحقول الخضراء البعيدة المترامية، على الضفة الأخرى من النهر، والذي يبدو كوشاح فضِّي على بساطٍ من الزبرجد، يزيد من أَلَقِه الأشرعةُ البيضاء التي تدفعها الرياح، وإلى المدى البعيد لن ترى إلا اللون الأخضر بتدرُّجاتٍ رائعة، حتى يصل طرفُك إلى الجبال البعيدة بخضرتها الباهتة، وقد انتشرت غاباتٌ من أشجار الزيتون.

ثم يرتدُّ بصرُ الأمير إلى منظر أحياء قرطبة العتيقة، وبيوتها الأنيقة، وجامعها الذي لا مثيل له في فخامته واتساعه، هكذا أينما نظر، لا تقع عيناه إلا على ما يبهجُها ويسرُّها من الجمال والرَّواء والبهاء والرونق.

نسمات عليلة تلطِّف من حرارة الصيف، بينما الأمير مستغرقٌ في تأملاته، ينظر بإعجاب إلى حي الربض المتاخم للقصر، حيث البيوت المتراصّة، تكسوها القراميد، وتزيّن طلاءها الأبيض أصصُ الزهور الحمراء والبنفسج، وتتدلّى على أسوارها أغصانُ الياسمين، بزهورها البيضاء، كأنها الأوسمة على حلّة خضراء أو النجوم على قبة خضراء.

رمق بعينيه الطريق الرئيس، وقد خلا من المارة تماما، فهذه ساعة القيلولة، يفيء الناس فيها للبيوت والظلال، لكنه لمح قادمًا من بعيد، يمتطي صهوة حصانٍ قد أقبل جهة القصر، في البداية لم يتبين من هو، حتى اقترب كثيرا منه، فعلم أنه صديقٌ قديمٌ من بادية جيان، فما الذي جاء به من هناك؟ وفي هذه الساعة؟

كلما اقترب الرجل من القصر، زاد قلقه: تُرى هل سيسمح الأميرُ بدخول القصر، هل ما زال محافظا على ودِّه القديم؟ أم سيتجاهلني وينكر معرفتي! وقد جئت له من مسافة يوم وليلة! ([41])

وصل القادمُ إلى البوابة الرئيسة المتصلة بسور الحديقة المحيطة بالقصر، وعلى استحياءٍ طلب من الحراس الإذنَ للدخول على الأمير! وبينما هو يسير في الممر المفضي إلى القصر سأل نفسه ربما للمرة العاشرة: هل يا تُرى سيعيرني الأميرُ اهتماما ويسمع لي؟ وإذا استمع لي واقتنع بشكواي فهل

سينصفني من أخيه؟ هذا ما أرجوه وآمله، لكن الإنصاف عزيزٌ عزيزٌ! لا سيّما إذا تعلق الحقُّ بالأخ أو الأب!

أين الناسُ من حديث نبينا : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ.»

ربَّاهُ! لقد أخذتُ بالأسباب، مع توكلي عليك، فاقض حاجتي، وارحم ضعفي.

ومن شرفة القصر حدّق هشامٌ في صديقه القديم، وحين صار قريبا استطاع أن يتفحص ملامح وجهه، ويقرأ ما ينمُّ عنه من غمٍّ، فتذكر أخاه سليمان حاكم جيان، وتذكر قسوتَه، لابدّ أنه اضطهد صديقه، أو مسّه بظلمٍ.

«أرى الكناني صديقَنا مقبلاً في هذه الظهيرة، وما أحسب ذلك إلا لخطب أقلقه من أبي أيوب أخي. فإذا وصلك، فأدخله علي كما هو». هكذا قال الأمير لأحد فتيانه المقربين منه.

ذهب الفتى مسرعًا، وأدخل الضيفَ من الباب الرئيسي، وصعد به إلى حيث يجلس الأمير. ووقف ينتظر الإذن بالدخول.

أرخى الأميرُ سترا على الجارية التي كانت تجالسُه.

وبعد ترحيبٍ باشٍّ، وعناقٍ حارّ، سأل صديقه:

ما جاء بك في هذه الساعة يا صديقي؟ ما أحسبك إلا منزعجا لأمر أصابك!

صمت الكناني، لكن الحزنَ الذي بدا على وجهه قد تكفّل بالجواب، فلم يعد الأمير بحاجة إلى إعادة السؤال: ما خبرك يا كناني، فلا أحسبك إلا قد أهمَّك أمر!

قال الجياني: نعم يا سيدي، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلا خطأً، فألزمني أخوك الأميرُ بالدِّية خاصةً دون سائر قومي، وما أرى ذلك إلا نكايةً بي؛ لعلمه بمكانتي منك! فجئتُ إليك لترفع عني هذا الظلمَ!

- حاش لله من انقلابك خائبا! يا أخي؛ فاقعد مجابا مشفَّعا!

- جزاك الله خيرا أيها الأمير، هذا ظني بك!

ربت الأمير على كتف الكناني وقال له: أيها يا الصديق: لا تخف! ولا تحزن، سيفرّج الله روعك، فليسكن جأشُك، قد تحمَّل هشامٌ عنك، وعن قومك جميع الدية!

لم يكن هذا بمستغرب على الأمير هشام بن عبد الرحمن، الذي عُرف بالإحسان والإنصاف، وكان كما وُصف» كريما، عادلا، فاضلا، متواضعا، عاقلا، من أحسن الناس وجها، وأشرفهم نفْسا، لم تُعْرَف منه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه».

وقد بلغ من كرمه أنه كان يُصِرُّ النقود، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقَّد المسجد؛ فإذا وجد واحدا يصلي في مسجد أو جالسًا يذكر الله، وضع بين يديه صُرةً، حتى كثرتْ عمارةُ المساجد في زمانه. وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه واحدٌ من أهل الميت، إكراما لهم، وتواضعا.

مدّ الأميرُ ذو الهمة يده خلف الستر، فالتمس عقدًا من اللؤلؤ على صدر جاريته الأثيرة، فأخذهُ برفق دون أن تتحرك أو تنطق ببنت شفة، وأعطاهُ لصاحبه، فقال له: «خُذ هذا العقد، فأدِّ بثمنِه ما عليك، وما بقي من ثمنه فهو لك، توسِّعُ به على أهلك، ولا تمكّن أخي من النيل منك، وإياك أن تقبل في هذا العقد أقلّ من ٣ آلاف دينارٍ، حين تبيعه، فهو عقدٌ نفيس.

فاطمأن قلب الجيانيِّ وأشرق محيّاه، وقال: يا سيدي، لم آتك مستجديًا ولا ضاق مالي عن تحمُّل الدية التي ألزمني بها أخوك، ولكنّي لما تعرضتُ لظلمٍ بيِّن أشمتَ بي الحاسدون، وأطمع فيّ الحاقدون، جئتُ لأستنصرك لتردّ أخاكَ عني، وتظهر للناس مكانتي عندك، فأتشرَّف بذلك، سيّما عند من يحسدني على محبتك لي.

كما أرجو منك أن تكتب إلى أبي أيوب، أن يكفَّ عن مؤاخذتي بما لم يجب علي، وأن لا يحملني وحدي ما يجب أن يحمله عامة أهلي!

فقال له هشام: «خذ العقد لأهلك ونفسك، إلى أن ييسر الله فيما ذهبت إليه من أمرك!

وركب من حينه إلى والده عبد الرحمن الداخل، صقر قريش، بل صقر الأندلس، واستأذن عليه في وقتٍ أنكره، وقت الهجير، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ أمر مقلق، ائذنوا له.

فلمّا دخل سلّم عليه، ومثل بين يديه، فقال له: اجلس يا بني، فقال: أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوسي بهمٍّ وذُلٍّ مزعِج، وحقَّ لمن قام مقامي أن لا يجلس إلا مطمئنّاً، ولن يقعدني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عقبي، فقال له: حاش لك من انقلابك خائباً، فاقعد مجاباً مشفَّعاً.

فلما جلس، قال له أبوه: وما الخطبُ الذي جاء بك في وقت الهجير!

فأعلمه بما كان من أخيه، من إجحافٍ وحيفٍ على صاحبه، فأمر في الحال كاتبه بتحمُّل الدية عن صاحبه الكناني وعشيرته من بيت المال، فسُرَّ هشامٌ

وشكر أباهُ، وكتب رسالةً إلى ولده سليمان أن لا يتعرض لهذا الكناني بأذى.

ولما دخل الكناني لوداع هشام، وقد قرّت عينه وقُضِيتْ حاجتُه، وزال همُّه، قال له: يا سيدي قد تجاوزتَ بي ما كنتُ أرجوه وأتمناه من عدلك وإنصافك وبرك وإحسانك ولطفك وكرمك، وبلغتَ غاية ما أتمنى، وقد أغنى الله عن العقد الذي بذلتَه لي، فها هو يا سيدي، وأرجو أن تعيده إلى صاحبته، فقد كفاني الله وأغناني.

فقال له: «يا كناني، إني لا سبيل إلى ردِّ شيء قد خرج عنا، وخذه مباركاً لك فيه.

فرجع الكناني إلى جيان مرفوع الهامة مكرّما، وقد تحمَّل الأميرُ عنه وعن قومه الدية، وأعطاه كتابا إلى ولده سليمان أن يحسن معاملته، ومعه فوق ذلك هذا العقد الثمين. ([42])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# إحسان عفان

خرج أبو حامد الغرناطي ([43]) من بلاد الأندلس، وطوّف ببلاد الدنيا، وأطال الترحال، حتى وصل خراسان، وبحر قزوين، ومصب نهر الفولجا، وجبال القوقاز، وراق له المقام في هنغاريا «المجر» وأقام فيها واشترى بيتًا، لكنه عاد في نهاية المطاف إلى بلاد الأندلس، وعندما ألقى عصا الترحال ألف كتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، أودع فيه كثيرا من العجائب والغرائب والنوادر، وعنه نقل كثيرٌ ممن كتب في عجائب البلدان وعجائب المخلوقات كالقزويني صاحب كتاب عجائب المخلوقات، وغيرِه.

وكان من حكاياته النادرة: وهو يتحدث عن رحلته ومقامه في مصر التي زارها عام٥١١هـ عندما كان عمره ٣٧سنة: قال: وفي وسط مصر قريب من سوق الغنم، مسجد فيه قبر لرجل يقال له عفان، وهو بين طريقين، في ركن، وله شِبَّاك من حديد، كلُّ من مر به من الناس، يقف ويقول: رحمك الله، يا عفان.

فعجبتُ من ذلك وسألتُ علماء مصر عنه؟

فقالوا: كان عفان خياطا طيب القلب، جاء من بغداد، واستقر بالقاهرة، واشترى غلاما زنجيًّا ليخدمه، وذات يومٍ أمر عفان أن يسجَّر التنور ليخبز فيه، فسجَّر الغلامُ التنُّور وأوقده، فارتفعتً ألسنة اللهب، ففرح وطرب لمنظر النار، ومضى إلى ثياب عفان، التي كان يتجمّل بها، وألقاها في التنور المسجور، وألقى عمامته، وكل ما كان له، فرأى عفانُ ما صنع العبد، وحزن، وكاد يبطشُ به، لكن الله رزقه صبرا وحلما، وعمل بمقتضى قوله تعالى {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤].

فأعتق العبدَ وأشهد على عتقه وزوَّده بالمال، فقرَّر الغلامُ الرحيلَ من مصر، وخرج عفَّانُ لوداعه، ورجع إلى البيت راضيا بما صنع، وقد سمع الناس بما فعل الزنجيُّ، وما فعل عفّانُ في حقِّه، فوقع لعفان في قلوب الناس محبةٌ؛ لما يريده الله تعالى به من الخير.

ولم يكن عفّان مقتصرا على عمل الخياطة، تلك المهنة التي تحتاج لدأب وكدٍّ وعناء، لا يعرف الخياط طعم الراحة، فهو يواصل الليل بالنهار، منكفئا، وإبرته في يده، لا ينتهي من ثوب إلا إلى ثوب.

كدودٌ كدودِ القزِّ ينسُجُ دائما

ويهلَكُ غمًّا في الذي هو ناسجُه

مع ذلك كان عفان حريصًا على حضور دروس العلم، في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، أو جامع ابن طولون في القطايع، حتى تفقَّه في الدين، وعُرِفَ بالشيخ الفقيه الصالح عفان بن سليمان البغدادي.

وذات صباحٍ جاء إليه رجل من كبار التجار، وقال له: يا ولدي: لقد سمعتُ عنك ما رغَّبني في لقائك ومعاملتك، وإن لي بضاعةً تصلُحُ للهند، وقد اخترتُ أن تذهب بها، فما ربحتَ، فلك كذا وكذا، فوافق وجهّزه ذلك التاجر، وخرج عفان ومعه أموالٌ كثيرة لذلك التاجر، وركب سفينةً تجاريةً في البحر الأحمر» بحر القلزم»، حتى وصل إلى عدن، وأقام بها ما شاء الله تعالى، يبيع ويشتري، ثم واصل المسير إلى الهند وباع بضاعته في أسواق مومباي وغيرها، وربح كثيرًا، ثم اشترى بما معه من مالٍ التوابل والعطور والبخور والثياب والجلود، وغيرها مما هو منتشرٌ في الهند بأثمان زهيدة، ثم انصرف، وأبحرت السفينةُ، ومضت أيام بسلام، حتى عصفت الريحُ، فألقت بسفينتهم إلى بلاد الزنج، فجنحتْ على أحد شواطئ غرب أفريقيا، فأصاب ربان السفينة ومن معه هلع شديد من هذا المصير المجهول الذي يرتقبهم، ونزلوا بالمراكب تاركين سفينتهم في عرض البحر، بعد أن ألقوا مراسيَها، وانحدروا إلى الشاطئ بقواربهم.

فلما وصلوا إلى البر استقبلهم رجالٌ شدادٌ، وجعلوا يأخذونهم فرادى إلى الملك، فيتفحصهم ولا يكلمهم بشيء، حتى جاء دورُ عفان، فأُدخل على الملك.

فلما رآه انتفض من مكانه وقام إليه، وقبّل يديه ورجليه، واحتضنه، وهو يبكي ويضحك، ويتفحّص وجه عفان، حتى طال الأمر، وعثمان في ذهولٍ!

فقال الملك: قل له، ألستَ عثمانَ الخياط؟

فقال عفان: نعم أيها الملك، فقال الملك: أنا غلامُك الذي عفوتَ عني وأعتقتني وأعطاني الله هذه النعمة ببركة إحسانك إلي، وجميع هذه المملكة لي؛ فاجلس عندي وأنا ملكُ هؤلاء وأنت ملكٌ علي. فحمد الله تعالى عفان، وقال: أيها الملك! أنت لي كالولد، وبلادكم لا تصلح لي لكثرة الحرِّ وعدم التجانس، كما أنني أمينٌ على البضاعة التي جلبتُها حتى تصل لصاحبها. فألحّ عليه الملك، وهو يعتذر له، حتى يئس الملكُ من بقائه معه، فأمر له بسفينة وحمل معه من الأموال والطُّرف والنفائس، ما لا نهاية له، ووهب الجميع له، وبعث معه من سفنه ورجاله من يصحبه في طريق عودته إلى بلاده، حتى عاد سالمًا غانمًا، وكانت رحلة مباركة، حققتْ مكاسب هائلة، كان له نصيبٌ منها، حتى صار من الأثرياء.

وكان عفان رحمه الله لا يرد سائلا، وعمل من الدور والخانات والدكاكين والحمامات كثيرا، وأوقف الكل على الفقراء المسلمين، وهذه دارُه جعل فيها

هذا المسجد، وحفر فيها قبره، وكان يصلي في قبره كل ليلة، حتى مات رحمه الله، بعد أن أوقف جميع أمواله على الفقراء.

في كل يوم اثنين وخميس وجمعة يحضر الوكلاء ومعهم الثياب للرجال والصبيان والبنات والدراهم، ويدخلون المسجد، ويأتي الفقراء فيقفون على الشبابيك الحديدية، ويأخذ كلُّ فقير نصيبه.

فكان كلُّ من عبر عليه يقول: رحمك الله يا عفان، كل يوم وكل ليلة يمرُّ المئات من النساء والرجال والصبيان، قال الرحالة الأندلسي: وكنت أقف عند قبره وأرى كثيرا ممن يدعو له بالرحمة، حتى الصبيان الصغار، أبناء سنتين وخمس سنين، فكنت أتعجب مما سهَّل الله له من الخير، حيًّا وميِّتا. ([44])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الجود عفّان

ومن حكايات جود عفان كما قال الرحالة أبو حامد الأندلسي:وسمعتُ أن رجلا من أهل المغرب وصل إلى مصر وأراد الحج، وأن يجاور بمكة، وكان لديه بضعة آلاف من الدنانير، فجاء إلى إمام جامع عمرو بن العاص، وكان رجلا صالحا من العلماء، فقال له ذلك التاجر: يا سيدي، جئت إليك في حاجة لك فيها ثواب ولي فيها معونة، فأسألك أن تقضي حاجتي ولا تردّني.

فقال: أفعل إن شاء الله.

فقال:إني أريد الذهاب إلى الحج ومجاورة بيت الله تعالى، وعندي شيء من المال أودِعُهُ عندك حتى أرجع من الحج، فإني أخاف عليه إن بقي معي.

فأخذه الفقيه ووضعه في خزانةٍ مكينةٍ، وذهب صاحب المال إلى الحج مطمئنا على ماله.

وكان للفقيه الإمام بناتٌ أيامى، لم يكن له مال يجهِّزهم به للأكفاء؛ حتى تأخّر زواجهنَّ، فقالت له زوجته يوما: إن هذا المال وديعة عندك؛ فلماذا لا نشتري به حليًّا لبناتنا ونجهزهنّ به، ويدخلن عند أكفائهن وتستريح من همِّهن، فإذا جاء صاحب المال، جمعنا ذلك الحلي وبعناه، وأعدنا للرجل دنانيره الذهبية! وبقيت بناتُك عند أزواجهن، فرفض الشيخُ هذا الاحتيال، ونصح زوجته بأن تكفّ عن هذا الكلام.

فما زالت به حتى رضخ لها، وزوّج جميع بناته، وأخرج مع كل واحدة حليًّا.

ومضت ثلاثُ سنوات، وبينما الشيخ في المسجد إذ دخل عليه صاحبُ المال وسلّم عليه، فعرفه، وَأَسْقِطَ فِي يَدِهِ، فَقَالَ: له: وديعتُك غداً تأخذُها، فاطمأنّ المغربيُّ: وقال للشيخ: متى شئت.

فرجع الإمام إلى داره مهمومًا، وقال لأهله: لقد جاء صاحبُ الوديعة، الويل لي! لقد حذرتُك! ماذا سنصنع الآن، فوضعت المرأةُ يدها على خدّها وظلت واجمةً، فقال الشيخ: أما أنا فإني في السحر، سأخرج من مصر وأذهب إلى البادية بحيث لا يُسمعُ لي خبر، فإن صاحب المال قد جاء وأنا أستحيي من الفضيحة، فلما كان بالليل خرج الفقيه وهام على وجهه هارباً فمرّ في طريقه على درب عفان، وهو مغلق، ورأى مسجد عفان مفتوحًا فدخل المسجد، وتوضّأ وصلى ركعتين، وتضرع إلى الله أن يكشف الكرب، فخرج عفّان من داره متنكرًا، فدخل المسجد فجلس إليه وسلَّم عليه، وكل واحد منهم لا يعرف صاحبه، فسأله عفان، من هو وما حاله؟ فقال له الإمام، ومن أنت؟ فقال عفان: رجل غريب.

فاطمأن الإمام وقال له، أنا إمام جامع عمرو بن العاص، وقد أصابتني مصيبة، ووصف له حاله، وقال: قد عزمتُ أن أفرّ من هذه البلدة ولا أعود إليها؛ خوفاً من العار.

فقال عفان، أو يسهِّل الله تعالى لي ولك، خير من هذه؟

نظر الفقيه إليه مندهشًا:وقال له كيف يا أخي!

فقام عفان، وخرج من المسجد وأغلق بابه من الخارج حتى لا يخرج الإمام، ودخل داره وأخرج أكياسا فيها من الذهب مثل ما كان عند الإمام وديعة، وقال للإمام: خذ هذا قرضًا من عندي تؤدّيه إلى صاحب المال إلى أن تبيع أنت حليَّ بناتك بحيث لا يشعر أحد.

ففرح الإمام ورجع إلى داره، وهو يحمد الله تعالى، ويدعو لعفان، وكادت الزوجة أن تموت من الفرح.

فلما كان بالغداة جاء الحاج المغربي، صاحب المال، فأعطاه إياه، فقال:

- أيها الإمام هذا ليس عينَ وديعتي، وإن كان الوزن والعدد واحدا! ولكنني لا آخذه حتى تخبرني كيف غيرتَ مالي؟ وماذا ألجأك إلى هذا؟

فأخبره بالقصة على وجهها، فقال المودِّع: أيُّها الشيخ: أما الوديعة فحقُّ الله تعالى، كنت أطلب له مستحقًّا وقد وجدتُك، فالمال حقُّك، ولا شكر إلا لله تعالى.

ففرح الرجل وأهل بيته، وحمدوا الله تعالى، فخرج الإمام، وحمل المال إلى عفان وأخبره بالخبر. فقال له عفان، الحمد لله الذي أراح سرّك ووسَّع عليك، إن هذا المال لم أخرجه إليك ليرجع إليَّ، وإنما أخرجتُه هبةً لك، لأجل الله تعالى.

فصار الإمام من الأغنياء ببركة عفان، وكم لعفان مثل هذا، وأكثر سرًّا وعلانية!

وكان من بره وإحسانه ينتظر الحجاج بالطعام عند وصولهم للعقبة، وذات يوم اشترى ألف جمل محمّلة بالبُرِّ، ثم جلس أمام باب داره وأمر غلمانَه أن يُحضروا التجار للبيع، فجاءوا وساوموه حتى وصلوا بسعرها إلى ثلاث أضعافها، لكنه نظر إليهم، وقال: لا والله ما أتركها لكم تستغلون المسكين والفقير، ولكني أبيعها لله، وأمر بتوزيعها، بينما رجع التجار بحسرتهم، حتى لم يترك أهل بيت فقير إلا وأخذ نصيبه من القمح.

وكان عفان رحمه الله يخرج إلى الجامع وقت صلاة الصبح، وفى كمِّه صررٌ من العشرة دنانير إلى الخمسين دينارا، ويفرِّقها على الفقراء وغيرهم، فلما كان في بعض الأيام رأى رجلا صلى واستند إلى حائط القبلة وكان الرجل

مهمومًا قد انكسر عليه لعفان مائة دينار، قد ألح عليه وكيله في الطلب، فأسقط عفان في حجره صرة فيها خمسون دينارا، فانتبه الرجل فوجد في حجره صرة فيها خمسون دينارا فأخذها، وفتح دكانَه فجاء إليه الوكيل فدفعها إليه بجملتها، فأخذها الوكيل وجاء بها إلى عفان مع جملة الصرر، فأخذها فعرفها فقال للوكيل أتعرف صاحب هذه الصرة؟ فقال نعم فقال ائتني به فمضى إليه وجاء به فقال له عفان من أين لك هذه الصرة؟

فقال له يا سيدى انكسر لوكيلك علي مائة دينار، فصليتُ الصبح ثم دعوتُ اللّه سبحانه وتعالى وأسندتُ ظهري إلى حائط المحراب، فلم أشعر حتى وجدتُ هذه الصرة في حجري ففرج الله عنى بها، فقال لوكيله لا تطالب بالمائة، وامحها عنه ودفع له الصرة، وقال له خذ هذه صرِّف بها حالك.

وكان عفان إلى جانب جوده عَفَّ اللسان، وكان مصاحبا لقاضي القضاة، يخلو به يحدثه ويسأله عن الناس، فيقول له لا تسألني إلا نفسي وتقصيرَها وعجزَها عن فرائض اللّه عليها.

واتفق أن رجلا فقيرا كان يعمل في صنعته كل يوم بأجر زهيد، بدرهم وربع درهم، وله أولاد صغار، فاشتهوا عليه شيئا من الحلوى، فاشترى لهم بما عمل به في ذلك اليوم «نيدة»- حلوى تُصْنَع من القمح والعسل والسمن- وانصرف إلى أهله مسرورا، يحمل الحلوى التي اشتهاها أولادُه، فلما جاز على طريق دار عفان عثر في الأعدال، «الزكائب التي توضع على الجمال وبها البضاعة»فوقعت حلوى النيدة من يده، وتناثرت، فحزن الرجل أشد الحزن، وتذكر أطفاله الذين ينتظرونه، فزاد تحسُّره وألمُه، وعفان ينظر إليه، وهو واقفٌ باهتٌ، فاستحضره عفان واستخبره عن قصته، فأخبره بها، فقال له عفان: ارجع إلى الأعدال فما كانت عليه حلواك متناثرة فخذه، فوجد الحلوى قد وقعت على عدل واحد، فأخذه، وعليه الحلوى، ومضى لبيته فرحًا مسرورا، ودخل على أبنائه بالحلوى ومعها هذا الغُنْمُ.

هكذا عاش عفان، فارسَ الجود وأميرَ الإحسان، حتى توفاه الله في سنة ٣٢٦هـ. وأمرُ عفان مشهور بمصر وفي جميع بلاد المغرب على ألسن المسافرين، فهو ميتٌ خيرٌ من الملوك الأحياء الذين يبخلون بالدنيا على أنفسهم، حكم الله لنا ولجميع المسلمين بالخير في الدنيا والآخرة. ([45])

{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠].

وصدق من قال: الناس صنفان موتى في حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء

رحمك الله يا عفان.

## أسد في المسجد

جلب عبد الرحمن الناصر أسودا من أفريقيا، أهداها له ملك المغرب في زمانه، تم صيدُها من المفاوز والأجمات، ولم تكن في بلاد الأندلس أسود، لذا كانت مثارًا للتندُّر والتسلّي.

واتخذ لها دارا، خلف قصره بقرطبة، وجعلها في أقفاص حديدية، وأغلق عليها أبوابا، موظِّفًا لها من يقوم بحراستها وخدمتها، ويقدّم لها الطعام من لحم الأبقار وغيرها، فعل كل هذا تلهِّيًا وتسليةً، وإدخال السرور على حاشيته ورعيته، وحدث ذات مرة أن أسدا من هذه الأسود أفلت من قفصه على حين غفلة من صاحبه، وانطلق هائما، في جُنح الظلام، ومن لطف الله أن جميع الأبواب التي قابلها كانت موصدة، والشوارع التي سار فيها كانت خالية، إلا باب المسجد الذي كان مفتوحًا، فدخل الأسدُ الجائعُ المسجد، ليجد رجلا قائما يصلي، أخذ ملك الغابة يزمجر ويزأر، لكن ماذا فعل؟ هل انقضّ على ذلك المصلي، أم انتظره ليتمَّ صلاته؟ حيث يقف بين يدي ملك الملوك؟

أقعى الأسدُ على ذَنَبه، وعينُه على ذلك المصلي حتى فرغ من صلاته، وسلّم، والتفت إلى ذلك الزائر المخيف، ومدَّ يده نحوه، وعرك أذنَه كأنه هرٌّ صغير، وقال له اذهب لشأنك؛ فليس هذا من أوطانك.

فانصرف الأسدُ بسلام، وخرج ليجد صاحبه في طلبه ومعه القيد، ليربطه ويعيده إلى قفصه. ([46])

وهنا نذكر كرامة حدثت لأبي عبد الرحمن سفينة مولى رسول الله «أَنَّهُ رَكِبَ البَحْرَ، فَانْكَسَرَ بِهِمُ المَرْكَبُ، فَأَلْقَاهُ البَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ، فَصَادَفَ الأَسَدَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الأَسَدُ! أَنَا سَفِيْنَةُ مَوْلَى رَسُوْلِ اللهِ فَدَلَّهُ الأَسَدُ عَلَى الطَّرِيْقِ. قَالَ: ثُمَّ هَمْهَمَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي السَّلاَمَ» ([47])

وعندما أمر الصحابي الفاتحُ المظفّر عقبة بن نافع رضي الله عنه أصحابه ببناء مدينة القيروان قالوا: هذه غياض كثيرة السباع والهوام، فنخاف على أنفسنا هنا! وكان عقبة مستجاب الدعوة، فجمع من كان في عسكره من الصحابة (رضوان الله عليهم) جميعًا وكانوا ثمانية عشر، ونادى: أيتها الحشرات والسباع، نحن أصحابُ رسول الله ، فارحلوا عنا فإنا نازلون، فمن وجدناه بعدُ قتلناه، فنظر الناسُ يومئذ إلى أمرٍ هائلٍ، كان السبعُ يحملُ أشبالَه والذئبُ يحمل جروه، والحية تحمل أولادها، وهم خارجون أسرابًا أسرابًا، فكانت كرامة عظيمة، حملت كثيرًا من البربر وغيرهم على الدخول في الإسلام. ([48])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# لماذا فارق حظيَّتَه الحسناءَ وفراشَه الوثيرَ!

انتبهت حظيةُ الأمير الحكم وهي على فراشها الدافئ الوثير، فلم تجد الأمير بجوارها، فأخذتها الغيرة الشديدة، كيف يفارق غرفتها وهو في ليلتها! أتراه تاق لغيرها من محظيّاته وزوجاته!

هاجت غيرتُها، فلبست رداءها ووضعت خمارها على رأسها، وقامت تقفو أثره، وتتحسّس خبره.

انطلقت تبحث عن أميرها، هنا وهناك، مرَّت على كل الأجنحة الملكية وغرف النوم الموصدة فلم تجد له أثراً، خرجت إلى البستان وعلى ضوء القمر، نظرت هنا وهناك، حتى وجدته وهو قائم يصلي، اقتربت منه، أصغت إليه، فإذ به يدعو ويجتهد، اطمأنّت وعادت إليها سكينتُها، ثم انسلّت بهدوء إلى غرفتها، وظلت تفكر ما الذي أقلق الأمير، حتى جفاهُ مرقدُه، وأقضى الهمُّ مضجَعه؟ لا بدَّ أن أمراً طرقه.

انتظرت عودة الأمير، وهي بلهفة لمعرفة هذا الخطب الجلل الذي أسهره وأضناه.

فلما عاد إلى فراشه ألّحت عليه في السؤال، ما الذي يشغلُ باله؟

فقال: «ما ذاك إلا أن القاضي محمد بن بشير، لَمَا بِهِ المرضُ، فأشفقتُ عليه، وتوجّستُ خيفةً من فقده، من الذي سيقوم مقامه، فرأيتني سأعجز عن الاعتياض منه؛ فقد كنتُ جعلتُه فيما بيني وبين الله في أحكام الناس، فأسندتُ منه إلى ثقة؛ إذ كانت نفسي مستريحةً إلى عدله، فناجيتُ الله تعالى ودعوته دعوة مضطرٍ إلى إجابته، في أن يُحسن عزائي عنه، ويجعل عوضي منه».

فيا للعجب الأمير يصلي من أجل القاضي، يسهرُ يتضرّعُ لربه أن يحفظه، هل كان محقًّا في ذلك؟

نعم والله كان محقًّا، فإن القضاء العادل حصنُ أمان للعباد والبلاد، والعدلُ أساس الملك، ولا قيمة للقلاع والحصون والأسوار التي تحيط بالبلاد إن لم تحصَّن بالعدل.

أمير الأندلس يصلي بالليل ويتضرع إلى الله أن يشفي قاضي قرطبة!

هذا القاضي الذي يدعو له الأمير كان لا يأخذه في الحق لومة لائم، فكم انتزع الحق من أعوان الأمير، وحكم بالحقّ على الوزير، بل أسقط شهادة الأمير، ولم يوغر ذلك صدرَه يوماً بل زاده انشراحاً وارتياحاً واطمئناناً، فالعدلُ حصنُ

الأوطان وسياجها. أما الظلمُ فإنه شؤم على البلاد والعباد، ووبالٌ وحسرةٌ على صاحبه في الدنيا وفي الآخرة.

قضى ابن بشير بالحق غيرَ مرة على الأمير، وكان الأميرُ يذعن بذلك بل يتلقى الأمر بطيب نفس، وإذا اختصم أحدُ أعوانِ الأميرِ مع واحدٍ من العوام كان ابنُ بشير يتحرّى الحق، لا يخشى فيه لومة لائم، لا يبالي بمكانته وحظوته عند الأمير.

قال ابن وضّاح: حكم ابنُ بشير على ابن فطيس الوزير في حقٍّ ثبت عنده، دون أن يعرِّفه بالشهود عليه، فشكا الوزير ذلك إلى الأمير، وتظلّم منه. وأومأ الأمير إلى ابن بشير بذلك، وذكر شكوى ابن فطيس من إمضائه الحُكْم عليه، دون أعذار، وهو حقٌّ له بإجماع أهل العلم، فكتب إليه ابن بشير: ليس ابن فطيس ممن يعرَّف بمن شهد عليه، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم لن يتحرّج عن أذاهم، فيرهبهم، وربما ينكِّل بهم، فيضيعُ أمرُ الناس.

وهذا ما يأخذ به القانونُ حاليا من حماية الشهود.

يرفض شهادة الأمير

وكان سعيد الخير عمُّ الأمير الحكم قد وكلّ وكيلاً يخاصم له عند محمد بن بشير في مطلب، وكانت في يده وثيقة فيها شهادات جماعة من العدول، أتى الموت عليهم ما عدا شاهد واحد، من أهل القبول، مع شهادة الأمير الحكم ابن أخيه، فاضطُر عمُّه إليها في خصومته لما قبل القاضي شهادة الأخير، وضرب الآجال لوكيله في شاهد ثان. فدخل سعيد على الأمير وعرّفه حاجته إلى شهادته، وكان الحكم معظِّمًا لعمّه، فقال له: يا عم، اعفني من هذه الكلفة، فقد تعلم أنا لسنا من أهل الشهادة عند قضاتنا، إذ التبسنا من فتن هذه الدنيا بما لا نرضى به عن أنفسنا، ونخشى أن توقفنا مع هذا القاضي موقف خزي نفديه بملكنا، فصر في خصامك حيث ظهر الحق وعلينا تعويض ما ينقصك وأضعافه من مالي، لكنه اضطر إلى طلب شهادة الأمير، فرفضها القاضي كما توقع الأمير، وقال: هذه شهادة لا تعمل عندي، فجئني بغيرها. فركب سعيد من فوره إلى الحكم، وأخذ يؤلّبه ويحرّضه على القاضي، فقال: ذهب سلطاننا وأهينت عزتنا بتجرؤ قاضيك الحروري ([49]) على ردّ شهادتك! هذا ما لا يجب أن نتحمَّله عليه. وأكثرَ من هذا وأغرى بابن بشير، والأمير مطرق. فلما فرغ من كلامه، قال له: يا عمّ هذا ما قد ظننتُه، وقد آن لك أن تقصُر عنه بالحق، فالحق أولى بك. والقاضي قد أخلص يقينه لله، وفعل ما يجب عليه ويلزمه. ولو لم يفعل ما فعله، لأجال الله بصيرتنا فيه، فأحسن الله جزاءه عنا، وعن نفسه، ولستُ أعترضُ للقاضي بعدُ فيما احتاط لنفسه.

يرفض استقبال سائس الأمير

وذكر بعضهم أن ابن سماعة سائس الخيل، شكا إلى الأمير، أن ابن بشير يحيف عليه. فقال: أنا أمتحن قولك الساعة، اخرج من فورك فاقصده، واستأذن عليه؛ فإن إذن لك صدّقتُ قولَك وعزلتُه على الفور. وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددت بصيرة فيه، وثقةً به، ولم ألتفت لكلامك.

فخرج إليه، فلما استأذن عليه خرج الإذن له: إن كانت لك حاجة فاقصد لذكرها مجلس القضاء. إذا جلس القاضي فيه، فلا سبيل إلى لقائه. وأعلِم الأمير بذلك. فكان كما ظنّ به الأمير، ولا شك أن الأمير سرّه ذلك وأقرّ عينه.

موقف آخر في تجربة العدل وقال الفقيه قاسم بن هلال: شهد عند ابن بشير رجل من أهل البادية في معارفه، فاحتاج إلى تعديله، فدخلت أنا و الفقيه ابن مرتيل وثالث معنا، فقال: ما جاء بكم؟ قلت لأعدِّل هذا الرجل. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وبها كان يستفتح حكومته. قال قاسم: فلما سمعته قهقرتُ، فحوّل وجهه نحونا. وقال لنا: الله الذي لا إله إلا هو إنه عندكم رضي؟

فقلنا له: بيمين أصلحك الله.

قال والله لا أكتب له اسماً إلا أن تحلفوا بها، أنه كذلك. فتورّعنا وانصرفنا.

يرفض شهادة رفيقٍ له في رحلة الحج والطلب!

ومن غرائب العدل والتحوّط له: أنه شهد عنده رجل، رافقه من الحج، له منه مكانة، فلم يقبل شهادته. فقال الخصم: عرفني بمن لم تقبل، لأنظر في تعديله. فقال له محمد: فلان صاحبي. ولن ينفعك تعديله عندي. فبلغ ذلك الرجل، فجاءه في مجلسه على رؤوس الناس وسأله عن سبب ذلك، وقال له: جمعنا وإياك المنشأ ، وطلب العلم وطريق الحج، وعلمتَ من باطني ما علمتُ من باطنك فعرفني بالسبب أمام الناس، لأعرفه. فقال ابن بشير: صدقت. وما عثرتُ لك في كل ذلك على جرحة في دينك، ولكن انصرفنا من الحج فنزلنا مصر، وأخذنا في السماع من شيوخنا، والمقام بها، وشكوتَ لي الغربة ونظرتَ في شراء خادم، فقلتَ لي: وجدتُ خادمةً تساوي كذا وكذا، وبيدها صنعة. فقلت لك: لا حاجة لك بصناعتها. وإنما تشتريها للمتعة. فدعها فلا معنى للزيادة فيها. فعصيتني واشتريتها. فلما رأيت الشهوة قد غلبتك في إتلاف ذلك في المغالاة فيها، خشيتُ أن تكون هذه مثلَها، قادتْك إلى مثل هذه الشهادة، أي أن الشهادة التي تشهدها لن تقبّل.

فانظر إلى شدة تدقيقه وتحرّيه للحق يرحمه الله!

يرفض شهادة صديقه: وشهد عنده صديق له يكنى بأبي اليسع، فرد شهادته، فعتبه في ذلك، وقال: أترد شهادتي وأنا صديقك؟ ما الذي حملك على هذا،

على محبتي فيك وخاصتي بك؟ فقال له: الورع: يا أبا اليسع الورع يا أبا اليسع. فلم يزده على ذلك.

وهكذا لبث رحمه الله ثابتاً على الحق، لا يحيد عنه حتى توفاه الله.

قال القاضي أسلم عبد العزيز بن بقي بن مخلد؛ قال: كانت لمحمد بن بشير في قضائه مسالك رقاق، ومذاهب لطاف، لم تكن لقاضٍ قبله في الأندلس. ولا يقارن إلا بمن تقدم في صدر هذه الأمة. ([50])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# أسألكم عن قاضٍ فتدلوني على زامر

كان ابن بشير، قبل توليه القضاء يفرّق شعره إلى شحمة أذنيه، ويلبسُ رداءً معصفراً، (51) وكان حسن الزي جميل الخلق، وبعد توليّ القضاء لم يرجع عن هذه الثياب المبهرة، بل تمادى على زيه في قضائه. قال ابن وضاح: أخبرني من كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلاً على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، وعليه رداء معصفر، في رجليه حذاء صرَّار. وعليه جمة مفروقة (52)ثم يقوم يخطب ويصلي في زيه، وكذا كان يجلس للقضاء بين الناس، وإن العيون - مع مظهره هذا- لتغضي عنه مهابة، فإن رام واحد نيل شيء من دينه، وجده أبعد منالاً من الثريا.

ولقد طرأ رجل غريب على مجلسه لحاجة عنَّت له، فسأل عنه بعض من جلس إلى قربه، فأرشده إليه، فلما رآه في زيه ذلك، وآثار الزينة في أطرافه من الخضاب والكحل والسواك، رابه أمرُه، واتهم من أرشده، وقال يا هؤلاء: رجلٌ غريبٌ سألكم عن قاضيكم فسخرتم بي، أسألُكم عن قاضٍ فتدلُّوني على زامر! فأسكتوه. وزُجِرَ من كل ناحية. فقال له ابن بشير: تقدَّم واذكر حاجتك. ففعل الرجل. فوجد عنده من العدل ما لم يخطر له ببالٍ!

قال زونان (53): عاتبت محمد بن بشير في إرساله اللمة ولبسه الخز (54) والمعصفر، فقال إني على بينة من ربي؛ حدّثني مالك، أن محمد بن المنكدر كان سيد القراء، وكانت له لمة على رأسه، وأن هشام بن عروة كان فقيه هذا البلد، يعني المدينة، وكان يلبس المعصفر، وأن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، كان يلبس الخز فماذا تعيب من هؤلاء؟ ألا إنهم أسوة.

لكن ورد أن ابن بشير تراجع عن لبس المعصفرات من الثياب لما كثر لوَّامه، كما قال الفقيه يحيى بن يحيى: لا تجد من يعقل، يلزم ما يعاب عليه، ولقد رأيت محمد بن بشير لبس ما لا يعرف ببلده، يعني الخزّ فما لبسه إلا أربعين يوماً، ثم ترك ذلك لاستبشاعه، لا لغير ذلك. (55)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

# الزاهرة قصة مدينة

على بعد ثلاثة أميال من قرطبة كانت قصور الزهراء، التي بناها عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك الأندلس.

قام القصر الكبير على ألف ومائتي عمود من الرخام، وكان جناح الحريم يتسع لستة آلاف امرأة، من الأميرات والوصيفات والجواري والمعلمات، يتوسَّطه بهوٌ كبيرٌ لمجلس الخليفة، جعل سقفه وجدرانه من الرخام والذهب، وأبوابه الثمانية من الأبنوس محلاة بالعاج والنحاس والأصداف والأحجار الكريمة، وتحيط مدينة الزهراء منزّهات ومنيَّات، وتجاورها قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بطرازها الفخم.

وفي الجهة المقابلة لمدينة الزهراء أقام الحاجب المنصور قصوره التي ضارعت بل فاقت قصور الزهراء، وسمى مدينته بالزاهرة، وسرعان ما أحاطت بها في زمن يسير ضاحية من قصور العظماء، وبيوت الحاشية، والأغنياء، والشعراء. ([56])

لم يكن ابن أبي عامر من الأسرة الأموية الحاكمة، لكنه استطاع بدهائه ومثابرته وجَلَده وكيده أن يتربع على عرش بني أمية، بل ويخلع على نفسه لقبًا، تشبُّها بالخلفاء.

استقر الأمر للحاجب المنصور، وتغلب على كل مناوئيه ومنافسيه، وعلى رأس من أطاح به صهره القائد غالب، انتهى صراعُه معه بمقتله، وجاء به يشحطُ في دمه لتراه ابنته أسماء، التي استقبلت الأمر بصبرٍ عجيب وثباتٍ غريب، كما تخلّص من كبار خصومه الوزير الأديب الألمعي جعفر المصحفي، زج به في ظلمات السجون، ونكّل به وبأبنائه، حتى لقي حتفه، ووري في التراب وحيدا مهينا فقيرًا.

فلما استبدّ المنصور بالأمر، أوصد الأبواب على الخليفة الصغير هشام المؤيد، وأدار البلاد، بصفته حاجب الخليفة، حتى عُرف بمنصور الحاجب، حجب هشاما، وفصله عن الملك، وعزله عن السياسة، ونحّاه عن الإدارة، فحبسه في قصره بالزهراء، ووكل به من الحرس من ولاؤهم وطاعتهم له، وكذلك أسكت صوت أمه الأميرة صبح التي كان لها فضلٌ كبيرٌ عليه، فقد مهّدت له حتى وصل لهذا التمكين.

«وعندما استفحل أمره، واتقد جمره، وظهر استبداده، وكثُر حسَّادُه، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحلّه بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتمم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه... فارتاد موضع مدينته المعروفة

بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسَّق فيها كل اقتدار معجز منظَّم، وحشد إليها الصناع والعمال، وجلب إليها الآلات الجليلة، وتوسّع في اختطاطها، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها. فاتسعت هذه المدينة في المدَّة القريبة، وصارت حديث الناس، يتناقلون أنباء بنائها الغريبة. وبنى معظمها في عامين».

«وفي سنة ٣٧٠، انتقل المنصور بن أبي عامر إليها، «ونزلها بخاصته وعامته؛ وجنوده وبطانته، وحاشيته وخدمه، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته، وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه، وقوّاده وحجّابه؛ فابتنوا بأكنافها كبار الدور، والقصور، واتخذوا خلالها المنتزهات، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها المرافق؛ وتنافس الناس في النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنوِّ من صاحب الدولة، وتناهى الغلو في البناء حولها، حتى اتصلت أرباضُها بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت في بحبوحتها الإمارة، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورؤوس أمرائه، وندب إليها كلَّ ذي خطة بخطته، ونصب على أبوابها نخبة شرطتِه، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تُحْمل إلى مدينته الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج»، واستبد ملك ابن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام في تشييد أبنيتها، حتى كملت أحسن كمال، وجاءت في نهاية الجمال، «نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء، رق أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان».

وفيها يقول صاعد اللغوي في قصيدة مطلعها:

يَا أيُّها المَلِكُ المَنصُورُ من يَمَنٍ

والمُبتَنِي نَسَباً غَيرَ الذي انتَسَبَا

أما تَرَى العَينَ تَجرِي فَوقَ مَرمَرِها

زَهوًا فَتُجرِي على أحسائها الطَّرَبَا

أجرَيتَها فَطَمَا الزاهِي بجِريتَها

كَمَا طَمَوتَ فَسُدتَ العُجمَ والعَرَبَا

تَحُفُّها من فُنُونِ الأيكِ زَاهِرةٌ

قد أورقت فِضَّةً إذ أثَمَرَت ذَهَبَا

بَديِعةُ المُلكِ ما يَنفَكُّ ناظِرُها

يَتلَو على السَّمْعِ مِنها آيةً عَجَبَا

لا يُحسِنُ الدَّهرُ أن يُنشِي لَهَا مَثَلاً

وَلوْ تَعَنَّتَ فيها نَفسَهُ طَلَبَا

ودخل عليه عمرو بن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت بجاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا؛ فقال:

لا يَومَ كاليومِ في أيَّامِك الأوَلِ

بالعامِريَّةِ ذَاتِ الماء والطّلَل

هَوَاؤُها في جميعِ الدّهْرِ مُعتدِلٌ

طِيباً وإن حَلَّ فَصْلٌ غَيرُ مُعتَدِلِ

«وما زالت هذه المدينة رائقة، والسعود بلَبَّتها متناسقة، تراوحها الفتوح وتغاديها، وتجلب إليها منكسرة أعاديها، ولا تزحف منها راية إلا إلى فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلاَّ إلى نُجح، إلى أن حان يومها العصيب، وقبض لها من المكروه أوفر نصيب. فتولت فقيدة، وخلت من بهجتها كلُّ عقيدة». ([57])

فكيف كان ذلك؟

قال ابن حزم: كنا مع المنصور، ذات يوم عليل، في زورق يشقُّ بنا النهر الكبير قريبا من مدينة الزاهرة، في نزهةٍ أدبية ربيعية، نستمتع بالمناظر والأجواء، وننشد الأشعار، والمنصور مبتهج مسرور، يستبدع ذلك النشيد، ويستعذب ذلك القصيد، ويضحك لتلك الطُّرفة، ويطرب لذلك الصوت الجميل، ويصغي لتغريد الأطيار، ويتطلع تارة من النهر الجاري نحو الزهراء، فيجيل بصره فيها، ويستملح منها المزخرف والمشيد، ويصوِّب نظره ويصعّده في قصوره المشرقة، وقبابه السامقة، وأبراجه الشاهقة، ومصانعه المونقة، وقد قيّدت الألحاظُ جمالا، وجدَّدت في الحياة آمالا.

وبينما المنصور في نشوته وسكرته، إذ تغيّر حالُه، وانحدرت دموعه وتجهّم وجهه، وقال بحرقة: واها لك! يا زاهرة الحسن! لقد حسن مرآك، وعبق ثراك، وراق منظرك، وفاق مخبرك، وطاب تربُك، وعذب شربُك!

فليت شعري من الذي يوهن ركنك ويهدمك، ويخلّي ميدانك، ويُضوِّي قصبَك وأفنانَك!

من الخائن الذي يكون خرابُك على يديه عن قريب؟ فبؤسًا له إذ لا يروقه حسنُك، فيكفّ عن تغييرك! ألا تسبيه بهجةُ منظرك، فيكفُّ عن محوِ أثرك!

قال ابن حزم: فاستعظمنا ذلك منه، وأنكرنا ما صدر عنه، وظننا أن الرَّاح « الخمر» غلبت عليه، وخيَّلت ذلك إليه؛ فأفرط الكلُّ منا في استنكار ما جاء به! حتى قال له بعض خاصته ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شَغلُ البال به؟

فقال: والله! كأنكم لا تعلمون ذلك! نعم! سيظهر عليها عدوُّنا في أقرب مدة، فيهدم هذا كله ويعدمه.

وكأني بحجارتها في هذا النهر!

وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت، وبرسومها قد غُيِّرت، وبمبانيها قد هدمت ونُحِّيت، وبخزائنها قد نُهِبَت، وبساحاتها قد أُضرمتْ بنار الفتنة وألهبت!

فأخذنا به طريق التسكين والتهوين، وعجبنا لما ذكره من ذلك النبأ المبين. ([58])

قال الحاكي: فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى ولدُه الملقّبُ بالمظفَّر ولم تطل مدته، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول، فقام عليه المهدي والعامة، ودارت الدائرة، واشتعلت الفتنة الثائرة، وانقرضت دولة آل عامر ولم يبق منهم آمر.

(كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيسٌ ولم يسمُر بمكة سامرُ)

(بلى نحن كنا أهلَها فأبادَنا

صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ)

وخَرِبَت الزاهرة! وذهبتْ كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدّة والسلاح والذخائر، وتلاشى أمرُها فلم يُرْجَ لفسادِها صلاح، وصارت قاعاً صفصفا، وأُديلت بأيام التَّرح عن أيام الفرح والصّفا.

وكما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: أمّلوا بعيداً وبنوا مشيداً فأصبح أملُهم غروراً. وأصبح جمعُهم بوراً. وأصبحت بيوتهم قبوراً.

يروى أن بعض وعاظِ ذلك الزّمان مر بها، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة، ومبانيها العالية الرائقة، فقال: يا دار فيك من كل دار، فجعل الله منك في كل دار.

قال الحاكي: فلم تكن بعد ذلك دعوة الرجل الصالح إلا أياما يسيرة حتى نُهبت ذخائرِها، وهُدِم بنيانُها ونُقِضَتْ أحجارُها، وعمّ بالخراب سائرُها، فلم تبق دارٌ

في الأندلس إلا ودخلها من فيئها حصةٌ كثيرة أو قليلة، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي همَّته مع ربّه جليلة. حتى حجارتها نُقضت ونُهبت.

وقد حُكِي أن بعض ما نُهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضي ملكه لا إله إلا هو.

عبرة: من أسباب ضياع الأندلس تلك النفقات الطائلة التي ذهبت في بناء مدينة الزهراء في عهد عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك الأندلس وولده الحكم، ٤٠ سنة بناء! وثلث إيرادات الأندلس الضخمة عندما كانت أعظم ممالك الدنيا. ثم بناء الزاهرة في عهد المنصور الذي انفرط عقد الأندلس بعد وفاته بسنوات. قصور ودور. ومنتزهات. تلك المدينتان الآن أطلال وأنقاض تحت التراب، بعدما كانتا ضربًا من الأبهة والفخامة ومثالا للخيال والإبداع، ومقاصيرا للحكم، صارت إلى تباب.

تُرى لو أنفقت هذه الأموال في سبيل الله، على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وغير ذلك من وجوه الإنفاق، في حفظ الثغور، وفي الدعوة إلى الله!

أطلال مدينة الزاهرة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مواعظ الملوك (١)

أراد القاضي منذر بن سعيد أن يعظَ ملكَ الأندلس عبد الرحمن الناصر موعظة بليغة، فقد اشتغل بالبناء والتشييد وأسرف في العمارة والزخرفة، فأنفق الأموال الطائلة من خزائن المسلمين، على بناء مدينة الزهراء.

أسِفَ بذلك العقلاء، كيف يتصرّفُ ملك الأندلس في الأموال والذخائر التي هو أمين عليها حافظ لها، فيبدِّدها على بناء مدينته وتشييد قصوره ودور حاشيته وبطانته بهذا البذخ، لقد استغرق سنوات طوالا في التشييد والتخطيط والبناء، وأسرف في العمارة والزخرفة، فأنفق الأموال الطائلة من خزائن بيت المال!

ولك أن تتخيل القصر الملكي حين بناه كان يعمل به ألف صانع، مع كل صانع اثنا عشر أجيراً، بُدِّدَ عليهم من الأموال ما لا يعلمه إلا الله!

وكان مقدار الإنفاق في بنائها كلَّ يوم ما يفوق الوصف، يجلبُ إليها كل يوم من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة، ويورّدُ إليها الرخامُ من أقطار المغرب، تَمَّ شراءُ أربعة آلاف وثلاثمائة سارية، منها ثلاث وعشرون سارية ملونة. فضلا عما أهداه له ملوك الإفرنج من السواري. إضافةً إلى الرخام الوردي والأخضر الذي كان يُجلبُ من إفريقية، وتلك التحفة النادرة حوضٌ مذهَّبٌ جُلِبَ من القسطنطينية، عليه صورة أسد، وصورة غزال، وصورة عقاب، وصورة ثعبان، من الذهب المرصع بالجوهر، وغير ذلك. واستمر عبد الرحمن الناصر في بنائها سنوات عديدة، فأنفق عليها ثلث دخل الأندلس، وكان دخلها يومئذٍ خمسة ملايين وأربعمائة وثمانون ألف درهم. ([59])

وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنّه قدّر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار، لمدة خمسة وعشرين عامًا.

لم يكن هذا غريبا على ملك ملوك الأندلس الذي كان يعيش في بذخ لا نظير له، وكذلك كان حريمه وحاشيته، يرفلون في إسرافٍ لا حدّ له.

لكن من يجرؤ على مخاطبة الملك في ذلك؟ من الذي يجسُرُ على إنكار هذا المنكر!

أعطى ذاتَ يوم لإحدى نسائه ثلاثين ألف دينارٍ جائزةً، لأنها قدّمت له طائرا يغني، ينشد أبياتا، فأدخلت عليه السرور، عطاياً وهبات دون رقيب ولا حسيب!

أدرك القاضي منذر بن سعيد خطورة هذا البذخ والإسراف، استشعر مسؤوليته أمام الله، سيّما وهو قريبٌ من ملك الأندلس وولده ولي العهد. تساءل الفقيه: أما كان الأولى بذلك المال فقراء المسلمين، وطلبة العلم،

والمرضى، وبناء المستشفيات والإنفاق في الدعوة إلى الله، وحفظ الثغور وتجهيز الجيوش؟

رأى من واجبه أن ينصحَ وينتقد هذا الإسراف الباذخ، فتحيَّن الفرصة لذلك.

وكان الناصر لا يكفُّ عن التفاخر والمباهاة، ذات يوم دخل المنذر عليه وهو مكبٌّ على الاشتغال ببناء قصوره في الزهراء، يُنشِد متفاخرًا ومتباهيًا:

(همُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرَها

من بعدِهم فبألسنِ البنيانِ)

(أو ما ترى الهرمينِ قد بقيا وكم

مَلِكٌ محاه حوادثُ الأزمانِ)

(إن البناءَ إذا تعاظم شأنُه

أضحى يدلُّ على عظيمِ الشانِ)

فعزم منذر بن سعيد قاضي الأندلس على إنكار هذا السرف وذم هذا البذخ؛ إبراءً للذمة، وكان شديدا في دينه لا يأخذه في الحق لوم لائم، وكانت له مقامات بين يدي الخليفة الناصر يتناوله فيها بالعظات والزواجر لا يهابه. انبرى لهذا الأمر، وقرّر أن يعظَ الخليفةَ الناصرَ، ويزجرَه عن هذا المسلك.

«فقد كان ملك الأندلس كلِفًا بتخليد الآثار الدالَّة على قوّة الملك وعزّة السلطان وعلوّ الهمة، فأفضى به الإفراط في ذلك إلى أن ابتنى الزهراء البناء الشائع ذكره، واستفرغ جهده في إتقان قصورها وزخرفة دورها، حتى ترك شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات، فأراد القاضي منذرٌ تنبيهه بالموعظة، وتذكيره بالإنابة والرجوع».

فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر، وابتدأ أولَ خُطْبَتِهِ بعد المقدمة بقوله تعالى {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ.وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ.وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ .فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ .وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٥].

ووصل ذلك بكلام جَزْلٍ وقولٍ فصلٍ، وأفضى إلى ذمِّ المشِيد والاستغراق في الزخرفةِ، والإسرافِ في الإنفاقِ، ولان له الكلام، وتلا بصوته الأجشَّ، قوله تعالى {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩]. ثم وصله بقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ

كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء: ٧٧]، وأتى بما ناسب المعنَى مَن التخويفِ بالموتِ والتحذيرِ منه، والإخلاصِ لله عز وجل والزهدِ في هذه الدنيا الفانية، والحضِّ على اعتزالها وتلافيها، والترغيبِ في الآخرة ومغانِيها ،والتقصير عن طلب اللذات، ونهي النفس عن اتباع الشهوات، وتلا من القرآن العظيم ما يوافقُه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكلُه ويطابقُه، حتى بكى الناسُ وخشعُوا وضجُّوا بالدعاءَ والتوبة، فعلم الخليفةُ أنه هو المقصودُ بالكلام، فاستخذَى وبكى وندِم على ما سلف منه، واستعاذ بالله من سخطِه، إلا أنه وَجَدَ على منذر بن سعيد؛ لِغلَظِ ما قرَعَه به؛ وضاق صدرُه منه، فشكا ذلك إلى ولدِه الحكم بعد انصرافِه، وقال: واللهِ لقد تعمَّدَنِي منذرٌ بخطبتِهِ وأسرفَ في ترويعِي وأفرطَ في تقريعِي، ولم يُحسِنِ السياسةَ في وعظِي! واستشاط غيظًا عليه، وأقسمَ أن لَا يصليَ خلفَهُ الجمعةَ أبدا، فقال له ولدُه الحكمُ: وما الذي يمنعُك من عزلِ منذرِ بنِ سعيدٍ واستبدالِه بغيره! فَزَجَرَهُ وانتهَرَهُ، فقال له: أمِثلُ منذرِ بنِ سعيدٍ في فضلِهِ وورعِهِ وعِلْمِهِ وحِلْمِهِ - لا أَمَّ لك - يعزلُ في إرضاءِ نفسٍ ناكبةٍ عن الرُّشدِ سالكةٍ غيرَ القصدِ! هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله تعالى أن أجعل بيني وبينه شفيعا في صلاة الجمعة، سوى منذر بن سعيد، ولكنه وَقَذَ نفسِي وكاد أن يُذْهِبَها، والله لوددتُ أني أجد سبيلا إلى كفارة يميني، بل يصلي المنذرُ بالناس حياتَه وحياتَنا، فما أظننا نعتاضُ منه أبدا. ([60])

وإن تعجب لشجاعة الإمام وثباته على الحق وحسن بيانه، وصدق لهجته، وقوة حجته التي قرعت أبوابَ القلوب، فالعجبُ أشدُّ لأعظم ملوك الأندلس كيف يقبل النصحَ ويتجرع مرارة الحقيقة، دون أن ينكِّل بناصحه أو يُقصيه، أو يَغُضَّ من شأنه، أو يتربّص به، بل عرف له فضله ومكانته، وهو موقنٌ بصدقه في نصحه، متقبِّلٌ لما قال رغم أن الحق مرٌّ في حلوق من هم ناكبون عنه.

فما الذي يحمله على الإذعان لتلك النصيحة؟ إنه الخوف من الله، إنه القلب الذي لان للموعظة واستجاب لها، وأدرك مدى حاجته إلى النُّصح والتذكير. ([61])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# مواعظ الملوك (٢)

إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرض فقد رحم جبَّارُ السماء!

أصاب الأندلسَ قحطٌ شديدٌ في آواخِرِ عهد الملك الناصِرِ، فأجدبت الحقول، واحترقت أوراق الأشجار، وماتت البهائمُ والوحوشُ عطشًا، وجفَّت الوديانُ، وتلاشت ألوانُ البهجة والحياة، فلم تعد ترى في قرطبة وأرجائها وأرباضها إلا صفرةَ اليبسِ والجفاف وارتفعت الأسعار، وشحّت الأقوات، وتعطّلت الأسواق؛ وجَهِدَ الملكُ في إغاثة الناس، وأَمَرَ منذرَ بنَ سعيدٍ قاضي القضاة وإمام الصلاة بالخروج لصلاة الاستسقاءِ بالناسِ، فتأهَّبَ لذلك وصامَ بين يدي ذلك اليوم الموعود ثلاثةَ أيامٍ تنفُّلا وإنابةً واستجداءً ورهبةً، واجتمعَ الناسُ له في مُصَلَّى الرَّبَض بقرطبة بارِزِين إلى اللهِ تعالى في جمعٍ عظيمٍ، وصَعَدَ الخليفةُ الناصرُ في أعلى منازلِ القَصْرِ المشرفةِ على تلك الساحة، ليشاركَ الناسَ في الدعاء إلى الله تعالى والضَّراعة، فلما سرَّح طرفَه في ملأِ الناس وقد شَخَصُوا إليه بأبصَارِهم، قال الخطيبُ بصوته الجهوري، ونبرته المؤثرة: يا أيها الناسُ وكررها مشيرا بيده، ثم قال {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٥ - ١٧].

فضجَّ الناسُ بالدعاءِ وارتفعت الأصواتُ بالاستغفارِ والتضرُّعِ إلى اللهِ تعالى، فوصَلَ الخطيب لسان الحالِ بالمقال، ومضى على تمام خطبتِه، فهزَّ القلوبَ بوعظِهِ وانبعثَ الإخلاصُ بتذكيرِهِ، وفاضت الأعين بترغيبه وترهيبه، وضجّ المكان بأصوات البكاء والنحيب، فما أتمَّ خُطْبَتَهُ حتى بلَّلَهُمُ الغيثُ، وارتفعت الأصوات بالتسبيح والحمد والتكبير والتهليل.

ذكَروا أن رسولَ الخليفةِ الناصِرِ لدينِ اللهِ جاءه غداةَ ذلك اليومِ، فحرَّكَهُ للخُرُوجِ، وذَكَرَ عَزْمَهُ عليه، والسابقون يُهرعون إلى المصلَّى، فقال للرسولِ وكان من خواصِّ الملك: ما الذي يصنعُهُ الخليفةُ الآن؟ فقال له الرسولُ: ما رأينا قطُّ أخشعَ منه في يومِنا هذا! إنه لمنتبذٌ حائرٌ منفردٌ بنفسِهِ لابسٌ أخشنَ الثيابِ، مفترشٌ الترابَ، قد رمى به على رأسِه ولحيتِه، وبَكَى واعترَفَ بذُنُوبِهِ، وهو يقولُ هذهِ ناصيتِي بيدِك؛ أتُراك تعذِّبُ الرعيَّةَ، وأنت أحكمُ الحاكمين! لن يفوتك شيءٌ مِني، وأنت أرحم الراحمين!

فتهلَّلَ وجهُ القاضي منذرُ بنُ سعيد لما سمع من حال الخليفة، وطابت نفسُه، واستبشر بالقبول، وقال لخادمه موقنًا بالفرج: يا غلامُ احملِ الممطِرَ معك

([62])فقد أذنَ اللهُ تعالى بالسُّقيا: إذا خَشَعَ جبارُ الأرضِ: فقد رَحِمَ جبَّارُ السَّماءِ.

وكان كما قال، فلم ينصرِفِ الناسُ إلا عن السُّقْيَا.

فنزل المطر مدرارا، وجرى الوادي الكبير، وارتوت الحقول والبساتين، وعادت الحياة من جديد، ودارت رحى الخير والنماء، وعمت الأرجاء.

ورجع الناسُ إلى بيوتهم فرحين كأنهم يوم عيد.

وفي سكك قرطبة ودروبها صوتُ الصغار يرددون أهازيج الطفولة، يترنمون بها فرحا بنزول المطر.

والكبار يدعون في غبطةٍ وسرور: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ صَيِّبًا نَافِعًا). ([63])

هذا الموقف الرائع من الناصر: موقف ذُلٍّ وانكسارٍ، وتوبةٍ واستغفار، واسترحامٍ واستمطارٍ، يذكّرنا بما وقع للقائد المظفّر مُوْسَى بن نُصير، لَمَّا دَخَلَ إِفْرِيْقِيَةَ فوَجَدَ القَحْط، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ وَالصَّلاَحِ، وَبَرَزَ بِهِم إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَمَعَهُم البهائمُ، فَوَقَعَ البُكَاءُ وَالضَّجِيْجُ، وَبَقِيَ الناس إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ قام موسى وصَلَّى بالناس، وَخَطَبَ، فَمَا ذَكَرَ الخليفةَ الأمويَّ الوَلِيْدَ، فَقِيْلَ لَهُ: أَلاَ تَدْعُو لأَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ؟! ([64])

فَقَالَ: هَذَا مَقَامٌ لاَ يُدْعَى فِيْهِ إِلاَّ للهِ، فَسُقُوا، وَأُغِيْثُوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# مواعظ الملوك (٣)

# نسائم الحنين

# نعي مدينة الزهراء

لما عظُم مُلك الناصر واستقرّ أركانه صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني، سائرا على سنن أبيه وجدوده الذين بنوا قصورهم على أبدع الإتقان، فبنى إلى جانب قصر الزاهر قصرا فخما، سمّاه دار الروضة، وجلب الماء إلى القصور من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، أعظم حواضر الدنيا، ثم أخذ في بناء المنتزهات، فاتخذ مُنية الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل في خندق طويل، جعل فيه أنابيب الرصاص وكانت المنية المفضلة عند الخليفة عبد الرحمن الناصر، إذ كان يخرج إليها كثيراً للنزهة، كما كانت محطة لنزوله ذهاباً وإياباً خلال تنقُّله خارج عاصمة الخلافة في اتجاه الجنوب، ثم اختطّ مدينة الزهراء، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفى على مبانيها الأولى، واتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، محكمة الرتاج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك، واتخذ فيها دوراً لصناعة السلاح للحرب، والحلي للزينة وغير ذلك من المهن.

وحضر معه يوما في الزهراء الأدباء والوجهاء والحاشية في ساعة بهجة وصفاء، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس وأنشد قصيدة منها:

(سيشهد ما أبقيتَ أنك لم تكن

مضيِّعا وقد مكَّنتَ للدين والدنيا)

(فبالجامع المعمورِ للعلمِ والتُّقى

وبالزهرةِ الزهراءِ للمُلكِ والعُليا)

فاهتز الناصر طرَبًا، وابتهج.

بينما أطرق الإمام منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشدا:

(يا بانيَ الزهراءِ مستغرقا

أوقاتَه فيها أمَا تمهلُ)

(لله ما أحسنَها رونقا

لو لم تكن زهرتُها تذبلُ)

فقال الناصر في تحدٍّ وتصميم: إذا هبَّ عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى.

فقال منذر في ثباتٍ: اللهم اشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحا.

ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال؛ فإنها ذبلت بعد ذلك، ثم مُحيت آثارها وخربت في الفتنة، قبل مضي قرنٍ من الزمان.

بنى الحاجب المنصور مدينته الزاهرة، فصرفت الأنظار عن الزهراء، ثم تعرضت للخراب والنهب من الغوغاء والدهماء عندما تنازع الناس على الحكم، بعد موت المنصور الحاجب، وتولي أبناؤه الحجابة من بعده، ثم لما حاول ابنه شنجول سنة ٣٩٨ أن يلقب نفسه الخليفة وينزع اللقب من بني أمية، وثار عليه الناس كانت فتنة دهماء، أحرقت اليابس والأخضر، لم تنته بمقتل شنجول فحسب، بل استمرت نار الفتنة، تدمر كل مشيد، حتى خربت الزهراء في يوم وليلة، ونُهبت قصورها، فأصبحت خرابا خاوية كأن لم تغن بالأمس، كما امتد الخراب إلى مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر. ([65])

طُمستْ أعلام قصور الزهراء، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص الأقنية، وغير ذلك من الآلات، فطُوِيَ بخرابها بساط الدنيا، وتلاشى حسنُها، وذهب رونقُها، بعد أن كانت جنة الأرض، والله يسلِّطُ جنوده على من يشاء، له العزةُ والجبروتُ. ([66])

أطلال مدينة الزهراء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# مواعظ الملوك (٤)

أيامُ السُّرُورِ التي صَفَتْ لي!

هل قال هذه العبارة صعلوكٌ فقيرٌ؟ أو مريضٌ محروم؟ أو شقيٌّ مكدودٌ؟ أو مبتلى لم يذق من السعادة إلا قَطَرات؟ لأيامٍ معدودات، ثم عاش باقي العمرِ بين أنكادٍ ومنغِّصات؟ كلا، إنما قالها أعظم ملوكِ الأندَلس، بل أعظم ملوك الدنيا؟

فتّشوا أوراقه بعد موته فوجدوا مكتوبا بخط يدِه: أيامُ السُّرُورِ التي صفَتْ لِي دونَ تكديرٍ يومُ كذا مِن شهرِ كذا من سنةِ كذا. فَعُدَّتْ تلك الأيامُ؛ أربعةَ عَشَرَ يومًا.

عبد الرحمن الناصر ملك الأندلس، في أزهى عصورها، دانت له الممالك من حوله، فعاش يرفل في نعيم الملك، لا ينغِّص عليه عدوٌّ من قريب أو بعيد.

أمضى حياته في أبهى القصور، وسكن أجمل مدينةٍ ليس في زمانها فحسب، بل إنها مدينةٌ قلّما تضارعها مدينة على مر التاريخ، مدينة الزهراء، المجاورة لقرطبة العتيقة، عاصمة الخلافة الأندلسية.

ملكٌ عظيمٌ وسؤدد، مدينة قرطبة، وما أدراك ما قرطبة! عروس البلدان، أمُّ الزهراء، وما أدراك ما الزهراء! أعظم المدائن وأبهاها، وأطيبها وأسناها، مما قيل في آثارها وعِظمها حين تكامل أمرُها: « إن عدةَ الدور التي بداخلِها للرعيَّة دون الوزراء ولأهل الخِدمة مائةُ ألفِ دارٍ وثلاثةُ عشرَ ألفٍ؛ ومساجدُها ثلاثةُ آلاف؛ وعدةُ الدور التي بقصرِ الزهراء أربعُمائة دارٍ، وذلك لسُكنى السلطان وحاشيتِه وأهلِ بيتِه، وكان عدد الفتيان المملوكين، بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتىً وسبعمائة وخمسين فتىً، من الحرس والحشم والخدم والصُّناع، حصّتهم من اللحم في كل يوم - حاشا أنواع الطير والأسماك - ثلاثة عشر ألف رطل، وعدَّة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار، الجواري والوصيفات والخادمات ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة.

كان بقرطبة ثلاثة آلاف مقلَّس «شيخ معمَّم» وكان لا يعتمرُ القلنسوة عندهم في ذلك الزمان إلا من صلُح وتأهّل للفتيا.

كان بالربض الشرقي من قرطبة «حي واحد من أحيائها» مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها؛ فكيف بجميع جهاتها؟ إذ بلغ عددُ أرباضِ قرطبة - أعادها الله للإسلام - في ذلك الوقت ثمانية وعشرين ربضا.

وكان المسافر يستضيء بأنوار قرطبة أميالا، لا ينقطع عنه الضوء، إذ كانت المصابيح تضيء الطرقات والميادين، وواجهات البيوت. ([67])

فضلا عن خمسين مشفى وألف مسجد جامع، أهمها مسجد قرطبة، وهو من أعظم مسجد الدنيا بعد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى. وبلغ عدد سكانها حوالي المليون نسمة بينما كانت أكبر مدينة في أوروبا لا يزيد سكانها عن ربع مليون نسمة. ([68])

هكذا بلغ ملك عبد الرحمن الناصر سليل بيت الخلافة الأموية التي حكمت العالم بأسره، أضف إلى ذلك الهدايا الثمينة والتحف النادرة التي كان الملوك يُهدونها، يتوددون بها، من ذلك: تلك الدرّة اليتيمة التي كانت في المجلس البديع، فإنها كانت من تحف قيصر صاحب القسطنطينية، بعث بها للناصر مع نوادر ونفائس كثيرة سنية.

في يوم من أيام السرور انتقل الملك إلى قصر الزهراء الملكي، على بعد ثلاثة أميال من جنوب غرب قرطبة، هذا القصر الذي كان نادرة الزمان، قال عنه المؤرخ ول ديورانت: «وقد زُيِّنَ أبهى زينة وأُثِّث بأفخم أثاث، كان القصر قائما على ألف ومائتي عمود من الرخام، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة، وكان يحتوي على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة. واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طَبَقَت العالمَ شهرتها، واتسمت بالظرف والرقة، وحسن الذوق، وتعدد متعها العقلية». ([69])

وهذا يوم من أيام السرور يشهد صورة من صور النعيم في داخل قصره، ذات صباحٍ أراد الفصد فقعد في البهو بالمجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب المبضع وجسَّ عضد الناصر، فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيها الفاصدُ رفقا

بأميـــــر المؤمنينـــا

إنما تفْصِدُ عِرْقًا

فيه محيَا العالمينا

## طائر الزرزور

وجعل يكرّر ذلك بصوت جميل المرة بعد المرة، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف، وسُرَّ به غاية السرور وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلَّم الزرزور ينشد البيتين من تلقاء نفسه؟ فذكروا له أنَّ السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولي عهده الحَكَم صاحبةُ ذلك، حيث عُوّد الطائر إذا رأى آلة الفصد أن ينشد هذين البيتين، فوهب لها ثلاثين ألف دينار. وكان هذا اليومُ من أيام السرور التي صفت له. ([70])

وبعد عمر مديد، وعيشٍ رغيد، سنة (٣٥٠) تُوفِّي الناصرُ، وَوُري في أكفانه تحت أطباق الثرى، مخلِّفًا وراءه خمسة مليارات من الدنانير الذهبية، ناهيك عن القصور والضِّياعِ، وتلك الورقة التي وجدت في دفتر له، مكتوب فيها:

أيامُ السُّرُورِ التي صفَتْ لِي دونَ تكديرٍ في مُدَّةِ سُلْطَانِي يومُ كذا مِن شهرِ كذا من سنةِ كذا. فَعُدَّتْ تلك الأيامُ؛ فَوَجَدَ فيها أربعةَ عَشَرَ يومًا.

من ذا يتمُّ له سرور

ما نحنُ فيه هو الغرور

كم من حبيبٍ قد خلتْ

منه المنازلُ والقصور

فواعجبا لهذهِ الدنيا، وتكدُّر صفوِها، وشدةِ بخلِها على طلابها والساعِين لها!

هذا الملك وتلك الأبهةُ، وذلك النفوذُ والاستقرار، لم يمنحْه إلا سعادة أيام قلائل!

«فاعجب أيها العاقلُ لهذه الدنيا وعدم صفائِها! وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها! هذا الخليفة الناصر، حلْفُ السعود، المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستّة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلاّ أربعة عشر يوما، فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة تبارك اسمه تعالى لا إله إلاّ هو». ([71])

مَلَكَ خمسينَ سنةً وسبعةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيامٍ، نال فيها من الثراء الباذخ والنعيم المُترِف ما لا يضارعه شيء، ودانت له الممالك، وخطب ودّه الملوك، وملك الجواري، وبنى القصور، ومع ذلك كله لم يصفُ له من الدنيا إلا أربعةَ عَشَرَ يَومًا! فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقطع عزه! سبحانَ ذي العزةِ العاليةِ، والمملكةِ الباقيةِ!

عِش ما بدالك سالماً

في ظل شاهقة القصور

يُسعى عليك بما اشتهيتَ

لدى الصباح أو البُكور

فإذا النفوس تقعقعتْ

في ضيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقناً

ما كنت إلا في غرور

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ([72])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مواعظ الملوك (٥)

# زائرٌ لا يُردّ

قبل أن يزحف الموتُ ويهجم، فإنه يرسل من يُؤذنُ بقدومِه، نذيرًا من الشيب، وسفيرًا من الوهن، ورسولا من المرض العضال الذي لا حيلة للأطباء فيه.

ثم يهجمُ الموتُ بغتة ويضرب ضربتَه الأخيرة، التي ينهزمُ أمامَها الجسدُ الواهنُ، مهما أُوتي من قوّةٍ وبأسٍ، ثم تستسلمُ الروحُ لباريها.

اللحظات الأخيرة، ما أشدَّها وأصعبَها! لحظاتُ الاحتضار! حين يُعتقَل اللسان، ثم تتسمَّر العينان، فقد رأت ما لا يراه العيان.

تمكّن المرض من جسدِه العليلِ، فانهزمت جيوشُ المقاومة، فلا دواءٌ ينفعُ، ولا رقيةٌ تدفع، ولا حِميةٌ تنجع ، ولم يعد يستلذُّ بعيش، أو يستسيغ ماء، أو يهنأُ بطعامٍ، أو ينعم برقاد.

هو الآن في قصره الكبير بقرطبة، وفي عامه الثاني والسبعين. يعاني تباريحَ الآلام، لا يَغمض له جفن.

حكم الأندلس في أزهى عصورها، عُرفت أيامُه بأيام العَروس؛ لما شهدتْه من أمنٍ ورخاء.

هو عبد الرحمن الأوسط صاحب الأيادي البيضاء، والسياسة الراشدة.

قال الفقيه محمد بن وضاح: احتجب الأميرُ عبد الرحمن عن الناس قبل موته بثلاثة أعوام، من أجل علة أصابته طالت به واشتدّت عليه، فمنعته الحركة، وهدّت قواه، وأحدثت عليه رقة في نفسه، ووحشة في خاطره، وشدة أسف على ما نُغِّص عليه من غَضَارة ملكه. ([73])

ذات يوم وهو يحاول جاهدا التغلُّب على مرضه، وحوله خاصَّتُه من الحشمِ والخُدّام، قد حفُّوه، وفيهم سعدون زعيمُهم الذي اختصَّه بعد مهلك فتاهُ نصرٍ الخصيِّ، قال الأمير بصوتٍ واهن: يا بَنِيّ! - وبذلك كان يخاطبهم مستلطفاً لهم ومترفقاً بهم - لقد اشتقتُ أن أعاين ضوء الدنيا وفسحة الأرض، إذ قد حُرِمْتُ من الخروج إليها، فلعلني أعلو مرقبَةً فيسافر بصري، وأتسلّى بالنظر إلى الأرجاء، فهل من سبيل إلى ذلك؟

فقالوا له: نعم يا مولانا.

وابتدر أكابرهم إلى إنفاذ أمره، فأخذوا سريرا من خيزران من أسرَّة الخلافة، ووضعوا فوقه فراشاً ليِّناً حشوه الريش، أجلسوه فوقه، وشدُّوه من جهاته، واستوثقوا من ثباته، واحتملوه على أعناقهم، فصعدوا به هويناً تعاريج درجات السلم، حتى تمَّ لهم ذلك كما أرادوه، وبلغوا به أعلى تلك العلِّية، فأجلسوه في صدرها، وأدنوه إلى الباب الأوسط منها، فأشرف على صحراء الربض القريبة من باب القصر، وقد اكتست بالخضرة، سرَّح فيها بصره، حتى وصل إلى ربوةٍ صخريّة، تفصل بين تلك المراعي وبين حقولٍ ممتدَّة، ونظر إلى النهر أمامه، والسفن تجري فيه غادية ورائحة.

فاستروحت نفسه، وانشرح صدره، وشكر لخدمه ما تجشَّموه من أجل مسرّته، وقال لهم متبسِّطاً: يا أولادي اجلسوا الآن حولي، وآنسوني بكلامكم، ومتِّعوني بأحاديثكم، ولا تنقبضوا عني بشيء مما تتحدثون به بينكم إذا انفردتم، كيما أشتغل بذلك عما أقاسيه من علتي.

ففعلوا وأنس هو بذلك وانبسط، وقطع أكثر نهاره في تلك العلية، حتى دنا المساء، فاستأذنوه للنزول، فبينا هو يتهيأ لذلك، إذ وقعت عيناه في المراعي البعيدة على قطيع من الخراف، ترعى في منحدرها، ولم ير معها راع يسوقها، فقال لهم.

يا أولادي؟ ما بال هذه الغنم مهملةً ولا راعيَ لها؟

فتأمَّلُوا فقالوا: يا مولانا هاكَ راعيها مستريحٌ تحت ظلِّ شجرة في جنانِ طروبٍ، يراقب غنمه.

فقال: لعًّا لعًّا؟!. ([74])

ثم أثبت بصره في تلك الغنم، فتنفّس الصُّعداء، وأرسل عينه يبكي حتى ابتلت لحيتُه، وقال: وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعي، ولا أنشب فيما نشبت من الدنيا، ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدت! ثم استغفر الله كثيراً ودعاه.

إنه يذكرنا بهذا الموقف بجدّه عبد الملك بن مروان وهو في مرض موته وآخر ساعاته، أمر بإخراجه لشرفة قصره بدمشق، ليشمّ الهواء الطلق، ويسلّي نفسه بالنظر إلى البساتين المحدِقة بالقصر، فوقعت عينه على « قصَّار» غسَّالٍ يغسل الثياب بالأجرة على نهر بردى، وهو يدقُّها دقًّا على صخرةٍ سوداء، ويغمسُها في الماء ثم يعيد الكرة، فغَبَطه على ذلك، وتحسَّر على نفسه وأبدى الندم، فقال: ليتني كنت غسَّالا؛ أكسبُ قوت يومٍ بيومٍ، ولم أتولّ من أمر المسلمين شيئا.

عاش الأميرُ عبد الرحمن الأوسط لحظاتٍ تغمرها السعادة حتى آذنت شمسُ الأصيل بالغروب، بعد هذه البهجة التي روَّحت عنه وأنسَته آلامَه.

ولما كان قبل وفاته بأربعة أيام أو نحوها هادنهُ مرضُه، فوجد في نفسه قوة، وهِم أنها العافية وظنّ أنه أبلّ من سقمه، وهو لا يدري أنها صحوةُ الموت، الذي لا مفرَّ منه.

ذات مرة يسأل جدُّه الخليفة سليمان بن عبد الملك الفقيهَ الواعظَ أبا حازم: ما لنا نكرهُ الموت؟

فيقول: لأنكم عمرتم دنياكم وخرّبتم آخرتكم؛ فأنتم تكرهون الانتقالَ من العمران إلى الخراب.

أمر الأمير خادما بأن يجهّز له الحمَّام، ودعا الحلاق فخضب شعر رأسه ولحيته بالحنَّاء، واغتسل، ونظر لنفسه في المرآة فأعجبته صورتُه، وكان أشمَّ الأنف أقناها، أسود العينين، طويلَ القامة، عظيمَ اللحية، تكسوه هيبةٌ وفخامة.

وحدثته نفسُه بالركوب مع عياله للنزهة، يأملُ الإنظار، والموتُ أسرع إليه من السهم، وأدنى إليه من حبل الوريد.

وكيف يَلَذُّ العيشَ من كان موقناً

بأن المنايا بغتةً ستعاجلُه

فتسلبُه مُلْكاً عظيماً وسَطْوَةً

وتُسْكِنُه البيت الذي هو آهلُه

ألا يذكرنا هذا بجده سليمان، لبس يوما أفخر الثياب، واعتمّ بعمامةٍ كبيرةٍ ناصعة، وتعطّر بأطيب الطيب، ثم نظر بزهوٍ لنفسه في المرآة فأعجبته صورته، وكان جميلا وسيما، وكانت عنده جارية حجازية، فقال لها: كيف ترين هيئتي؟ فقال: أنت أجمل العرب لولا ... قال: لولا ماذا؟

قالت:

أَنْتَ نِعْمَ الْمَتَاعُ لَوْ كُنْت تَبْقَى

غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْك عَيْبٌ

كَانَ فِي النَّاسِ غَيْرُ أَنَّك فَانِ!

قال: فتنغَّص عليه ما كان فيه، فما لبث بعدَها إلا أياما حتى مات! ([75])

لكن يبقى الأمل في صراع مع الأجل! وها هو الأميرُ قد عَزَمَ على إتيان ما منَّى به نفسه، فدعا حاجبه عيسى بن شهيد، وكان مقرَّباً إلى قلبه، فبشّره الحاجب

وأدخل السرور على قلبه، ومنآه وأمّله في العافية، حتى انشرح صدره وتهلَّلت أساريره، فقال له: كيف ترى خضابَنا يا عيسى؟ فقال له: أصلح الله الأمير سيدي! أحسن خضاب رأيت قط، وأدله على انتعاش سيدي- أطال الله عمره- وخلاص القمر من انكسافه، بفضل الله عليه وعلى رعيته.

فسّره قوله وأبهجه، وشجّعه، فقال: إن بعض كرائمِنا سألننا تجديدَ العهد لديهنّ بالركوب معهنّ للنزهة كما كنا نفعلُ أيام العافية، فاخرج من فورك، فانظر في تجهيز وإعداد ما نحتاج إليه لنزهتنا على أتمِّ رسومِها، وأعجِل بذلك، فإنا متحركون صبيحة غد بحول الله.

سبيلُ الخلقِ كلِّهم الفناءُ

فما أحدٌ يدومُ له بقاءُ

يقرّبنا الصباحُ إلى المنايا

ويدنينا إليهنّ المساءُ

مضى عيسى لشأنه، وقال الأمير للراشدة ([76]): ادخلي إلى خازنة الكسوة، فمريها أن تتخيّر لنا مما عندنا من الوشْيِ رداء يوسفيًّا من أفخر نوعه، فأتينا به.

فمضت وجاءته برداء جميل فخم، فأمر بعض أكابر الخدم أن تخرجه إلى عرِّيف الخيَّاطين بالقصر، ليقطعه ثوباً له، ويتخذ منه قلنسوة لحاجبه عيسى كيما يلبساه جميعاً لركوبهما صبيحة غدهما، ويجمع الصنَّاع على إتمامهما قبل طلوع الصباح، فعاد إليه الخادم بجواب عرِّيف الخياطين، فذكر أنه لا يمكنهم الخياطة في مثل الوقت الذي حدده، لدقة صنعة الثوب والأناة لنقشه، وتعذُّر جمع الأيدي عليه في وقت واحد، فضلاً عن عمل القلنسوة من فضلة الثوب، ولا بد من التمهُّل في ذلك.

فشقَّ ذلك على الأمير واستاء، حتى جاءه حاجبُه عيسى فسرَّى عنه بلطفِه، وهوَّن عليه الخطب، وقال له: في الذي تحويه خزانةُ الأمير ما فيه مندوحة عن استعجال هذا الثوب الذي لا يؤمَن الخطأ في حياكته على عَجَلٍ، فعندنا يا مولاي من جليل الخُلَعِ ورفيع القلانِس ما نختارُ منه لنزهتنا. فلتضعْ عن نفسك العزيزة كلفةَ هذا في مثل هذا الوقت الضيق، ولينفَذ عزمُك في تفريج نفسك وأهل بيتك بالنزهة.

ثم وضع ذلك الرداء على كرسيٍّ في المجلس.... وشغل عيسى النظر في الإعداد للنزهة، والتجهيز لها، من أطعمة وأشربة وأحصنة وعربات وخيام وفرُش وغير ذلك من الأغراض والآلات والمرتفقات، حتى انقضت سحابةُ

النهار، فما إن غربت الشمس، وأدرك الأمير صلاة المغرب، حتى انتكست حالتُه، وهاجت عليه علّتُه، وطلب الحمَّام، ودعا بالطست، فتقيأ دمًا عبيطًا، ([77]) وعاود ذلك مراراً، فلم يقلع عنه وجعه، حتى خارت قواه، واستسلم جسده العليل، وحشرجت روحُه، ثم لفظَ آخرَ أنفاسه، وقضى نحبَه.

أين الجنود والحراس، كيف تسللت كتائبُ الموت وأنشبت أظفارها في الجسد الخائر الذي استسلم، بلا مقاومة، وانفصلت الروح عنه صاعدةً إلى عالمها، ليبقى جثة هامدة!

وقعد ولدُه الأمير محمد من ليلته مكانه، وأدار مراسم دفنه، فكان من أول بوادره أن نظر إلى ذلك الثوب الموشَّى الذي كان يأمل الأمير أن يلبسه، ويخرج به للصباح متنزِّها مع نسائه وجواريه وبناته، وكان لا يزال موضوعًا على منضدة، فعرف شأنَه مع والده آخر ليلته، فعجب وقال:

ليصبحنَّ كفنَ الأمير نضَّر الله وجهه! وأصبح حديث هذا الثوب موعظة لمن سمع به.

فسبحان من له الدوام! الثوب الموشّى بخيوط الحرير الذي منَّى نفسه أن يتجمَّل به في الصبح، وهو بين أحبَّته، ها هو يتدثَّر به كفنًا ويشيَّع به إلى المقبرة، حيث خطفه الموت من قصره ومن بين أحبابه!

ومُعجبٌ بثياب الوشي يقطعُهُ

حتى غدا في غـــدٍ ثوبَ أكفانٍ

وبدلاً من الركوب للنزهة والتريُّض مع الأهل والأحباب، والجلوس فوق العشب الأخضر، وشم الورود والرياحين والأنس بين أهله وأبنائه، يركب على ظهر خشبة مسطّحة، مشيَّعًا إلى قبره، ليفترش التراب، ويلتحف التراب! ويودِّعه الأحباب، ويفارقه الأصحاب. ([78])

إِنَّ الْحَبِيبَ مِن الأَحْبَابِ مُخْتَلِسُ

لا يَمْنَعُ الْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلا حَرَسُ

فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا

يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالنَّفْسُ

أَصْبَحْتَ يَا غَافِلاً فِي النَّقْصِ مُنْغَمِسًا

وَأَنْتَ دَهْرَكَ فِي اللَّذَاتِ مُنْغَمِسُ

قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفُ

وَقَبْرُكَ اليومَ فِي الأجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

«المقتبس من أنباء الأندلس» (ص١٥٨). غَضَارَةُ العَيْشِ: النِّعْمَةُ، طِيبُ العَيْشِ، وغَضَارَةُ النَّبَاتِ: خُصُوبَتُهَا، نُعُومَتُهَا.

# البستنة والظُّلامة

## درسٌ لذي الوزارتين

من أعلى قمم جبل شلير، تتراءى الآكام الشاهقة، تكسوها ثلوجٌ ناصعةُ البياض، تذوب رويدا رويدا، فتنبثق عن شلالات تنحدر بشدة، مع حرارة شمس الربيع، ثم ينسكب الماء في جداول مُترعة، تصب في نهر شلير، وبدوره يطوف على بساتين غرناطة وحقولها ليفيض عليها بالرّي، فضلا عن دفع تياره لطواحين الماء، تلك الآلات الهندسية التي ابتكرها الأندلسيون، لطحن القمح والذرة.

يحيط بالمدينة سور عظيم، بينما تحدِّق بها الجنان من جهاتها الأربع، فتبدو المدينة كعروسٍ حسناء، بثوبها الأبيض، تحمل بيدها باقة من الورود الحمراء، بينما تخطُرُ تتبخترُ على بساط سندسي أخضر، وتجرُّ خلفها أذيالها الطويلة، في رقّةٍ وحياء، تزفُّها ثلَّةٌ من الوصيفات.

مدينة رائعة الجمال، وحقول يانعة الثمار، وارفة الظلال، وغابات شاسعة من أشجار التين والزيتون، ومروج وبساتين من العنب والرمان والبرتقال، وفي المشهد الخلفي تشرف هضاب البشرات بحُلّتها الخضراء، وقد احتضنت في حناياها وجنباتها، وطياتها كثيرا من القرى العامرة، والتي وجد أهلُها فيها ملاذا آمنا، وعيشًا طيبًا حميدًا، وخصبًا رغيدًا، يصبُّ في مدينة غرناطة يمدُّها بالمؤن والأقوات والفواكه والخيرات، فضلا عن الحرير والأصواف.

غرناطة يا عروس الأندلس، يا دمشق الأندلس! أراك تزدهين على غوطة دمشق بجمالك الآسِر، جمالٌ يُزري بكل جمال، قرونٌ مضت وعهودٌ قضت، وأنت لا تزالين تزخرين بالجنّات والمروج، والماء العذب الذي يجري في جداوِلك، عروسٌ تزفها حورُ الجنان، أنت يا غرناطة، وما حولك من مروجٍ ووديان، مرج الفحص، الذي لا تفارقه نضرة النعيم، وجنة ابن عمران، وغيرُ ذلك من الحدائق والمنتزهات.

وقد ذكر الأديب المؤرخ ابن الخطيب أن هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ في عصره زهاء المائة، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة. فكانوا يشبهونها بغوطة دمشق في أنهارها ومروجها وبساتينها العامرة بأطايب الثمار، وأزاهيرها.

وقال ابن الخطيب – رحمه الله – في وصفها:

بلد تحفُّ به الرياضُ كأنه

وجهٌ جميلٌ والرياضُ عذارُه

وكأنما واديه مِعْصَمُ غادةٍ

ومن الجسورِ المحكماتِ سوارُه

شرع ابن الخطيب الملقَّب بذي الوزارتين في بناء جنَّته المعروفة بالبستنة، خارج أسوار غرناطة، في ربوة مستويةٍ ذات انحدارٍ، وغرس فيها كرائم الأشجار، وأحواض الورود والأزهار، وبنى دارا تتوسّطها، تشرفُ على البستان، وتطلُّ على الوادي، لكن جزءا منها، ينكشفُ على فناء جارٍ له، ولم يعبأ ابنُ الخطيب بذلك، ولم يهتمّ؛ إذ كان ذاهلاً بجمالِ بستانِه، وروعةِ داره عن قُبح كشفه لعورات بيت جارِه المسكين، الذي لا ناصر له ولا معين. وربَّما اطمأنّ الوزيرُ إلى أنه ضعيفٌ لن يشتكي، وكيف يشتكي هذا الضعيف وصاحب البستنة المشرفة على داره الكاشفة لها هو الوزير، الذي يستقبل الشكاوى، ويقضي فيها!

تألَّم الجارُ، واغتمَّ لهذا الجوار، لكنه تردَّد في رفع ظلامته، وتوانى في رفع الشكوى للسلطان، لمحل ابن الخطيب منه، مما زاد ابن الخطيب تهاونًا بحقِّ جاره.

ذات صباح يتشجّع الرجلُ ويذهب للديوان، ليتقدَّم بشكوى للأمير، فلم يلق جوابا، ثم تقدّم بثانية، ثم بثالثة، دون أن يجد من ينصفُه، حتى يئس من هذا الطريق، ولجأ إلى باب مولاه، ورفع له شكواه، وتضرّع إليه، أن ينصفه من وزير حافَ عليه، ولا حيلة له ولا قوة على مواجهته.

وظنَّ ذو الوزارتين أن الأمر قد انتهى، إلى أن كان ذات يوم حيث لقي ذلك الرجل، عقب آخر رفع تظلّم فيه للسلطان منه، لم يصدر عليه جواب، وهو عائدٌ إلى موضعه ذلك المنكشفُ عليه فيه، والوزير في طريقه على فرسِه أو بغلته إلى البستنة - كما يسميها - فقال له: ابن الخطيب مستخفًّا به، وناقما عليه: هل رفعت فيَّ؟

قال: نعم. قال: وهل صدر لك جوابٌ؟ فقال له: نعم. فقال: وما قيل لك في الجواب؟

قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ .

فصرخ الشيخ ابن الخطيب صرخةً عظيمة، دوّت في الأرجاء، وقال: حسبي الله حسبي الله. وثنا عنان دابَّته وانطلق راجعاً إلى بستنته، فلم يبرح منها

حتى هدم -في الحال - ما كان قد بناهُ، مما يكشف بيت جاره، حتى عجب البنَّاء ومن حضر معه.

قال راوي الحكاية: «فتأمّل هذا الجار المضطهد بالجاهِ كيف اجتنى ثمرة صبره سريعة، وحمل عاقبة ثقته بالله عاجلة، وأذعن له من كان قد استقوى عليه بجاهه، واستضعفه بقوته، وإنها للوزير رحمه الله لمنقبة تدل على أوبته للحق، واستمساكه منه».

هزت الآية وجدانه، وزجرته عن غيِّه وتماديه، فسارع لرفع الظلم عن جاره، وهدم ما بناه، لا يهمُّه ما أدّى إليه ذلك من تشويه وعيبٍ، حين أدرك أن المظلومَ في حفظ الله ورعايته، إن صبر وسلّم بحكم الله، وإن تخلّى عنه أهل الأرض، وفقد الناصر والمعين. ([79])

ولا بد أن الوزير الأديب قد اعتذر لجاره، وأحسن إليهِ وأكرم جوارَه، وأدخل على بيته المسرّة.

## عزة العلماء

## درسٌ بليغٌ لوزيرٍ أساء الأدب

قال أبو عمر أحمد بن عفيف: احتاج الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى شراء مرجٍ بقرطبة، يقع في الجهة الأخرى من نهر الوادي الكبير، كان وقفًا على المرضى متَّصلا بالمشفى المخصَّص لهم، منتجعًا لهم ومتنزّها، فاشتكى إلى القاضي أحمد بن بقي بن مخلد حاجته الضرورية إليه، لمقابلته متنزَّهه، وتأذِّيه برؤية المرضى عندما ينظر من علالي قصره، فقال له ابن بقيّ: لا حيلة لي في ذلك، وأنتم أوْلى بحفظ حرمة الحُبُس (الأوقاف). ([80])

فقال عبد الرحمن الناصر له، حين لم يجبه لرغبته: تكلّم مع الفقهاء المشاورين في شأنِه، وعرّفهم رغبتي، وسوف أبذل أضعاف قيمته، فلعلهم يجدون لي في ذلك رخصة!

فتكلم ابنُ بقيّ معهم فلم يجعلوا إليه سبيلاً، فغضب الناصرُ عليهم، وأمر الفقهاءَ المشاورين بأن يتوجَّهوا جميعا إلى القصر، وأوعز إلى بعض وزرائه أن يوبِّخهم، فلما وصلوا إلى بيت الوزارة بالقصر، انبرى لهم رجلٌ حادُّ اللسان، حديثُ عهدٍ بالوزارة، فأفحشَ في خطابهم، وقال لهم: « يقول لكم أمير المؤمنين: يا مشيخة السوء! يا آخذي الرِشى! وملقّني الخصوم! وملقِّحي الشرور! ومُلْبِسي الأمور! يا شهداء الزور، يا مستحلي أموال الناس، يا آكلي أموال اليتامى ظلماً، ومتلمِّسي الروايات لدى أتباع الشهوات! تبًّا لكم ولآرائكم. فالسلطانُ – أعزَّه الله- واقفٌ على فسوقكم قديمًا، وخداعِكم

حديثاَ، وخيانتكم الأمانة، ومغضٍ عنه، صابرٌ عليه، ثم احتاج إلى دقة نظركم في حاجةٍ مَرَّةً في دهره، فلم يتَّسع نظرُكم للتحيُّل له؟! ولم تشفعوا إرادته، ما كان هذا ظنُّه فيكم.

ثم قال بحدَّة أشدّ: والله ليعارضنَّكم من يومه، وليكشفنَّ ستوركم، وليناصحنَّ الإسلام فيكم» وكلاماً في مثل هذا. من التهديد والوعيد والتوبيخ والتقريع، والإهانة والتحقير، والزجر والنهر مستعملا كلتا يديه ولسانه وشفتيه وحِقويه وعينيه، بينما الفقهاء ساكنون، واجمون، لا ينطقون.

فَبَدَر شيخ منهم ضعيفٌ إلى الاعتراف بالتقصير، واللياذ بالعفو، والاعتذار والانكسار، وقال:» نتوب إلى الله مما قال مولانا أمير المؤمنين ونسأله الإقالة من العثرة والتقصير»!

فردَّ عليه كبيرُهم الفقيه المحدّث محمد بن ابراهيم بن حيّونه- وكان ذا مِنَّة وطَولٍ، وقد عُرِفَ بصدق اللهجة وقوة الشكيمة ([81])– نظر أولا مقطِّبا جبينه لهذا الشيخ الذي استكان، وقال له: «مِم تتوبُ يا شيخَ السوء؟! نحن برآء الى الله من متابك»!

ثم تقدم خطوات نحو الوزير الذي تطاول عليهم، وقال له يا وزير: بئس المبلِّغ أنت! وكلُّ ما ذكرتَه عن الأميرُ مما نسبتَه إلينا فهي صفتُكم معاشرَ خَدَمِه، أنتم الذين تأكلون أموالَ الناس بالباطل، وتستحلُّون ظلمَهم بالإخافة والترويع، وتتحيَّفون معاشَهم بالرِّشى والمصانعة وضروب الحِيَل، وتبغون في الأرض بغير الحق! وأما نحن فليست هذه صفتَنا –ولا كرامة- لا يقوله لنا إلا متَّهمٌ في دينه، ولا يتطاولُ على العلماء الأكابر إلا صغار النفوس، مرضى القلوب، ولا يسيئ الظنَّ فيهم إلا من ساء فعلُه وقوله، وقبُحت سريرتُه، فنحن أعلامُ الهدى، وسُرُجُ الظُّلَم، بنا يتحققُ الإسلام، ويفرّق بين الحلال والحرام، وتنفّذ الأحكام، وبنا تقام الفرائض، وتثبت الحقوق، وتحقن الدماء، وتستحَلُّ الفروج، فهلا إذ أعتب علينا الأميرُ بشيء لا ذنب فيه لنا وقال –بالغيظ- بعض ما قاله، تأنيتَ بإبلاغنا رسالتَه بأهون من إفحاشك وتطاولك؟! وعرّضتَ لنا بإنكاره، بأناة ولين، ففهمنا منك وأجبناك عنه؟! فكنت تزيِّن على السلطان ولا تفشي سرَّه، وتستحيينا قليلاً فلا تستقبلنا بما استقبلتنا به، فنحن نعلم أن الأمير- أيَّده الله- لا يبقى على هذا الرأي فينا، وأنه سيراجع بصيرتَه في تعزيزنا، فلو كنا عنده على الحال التي وصفتَها عنه- ونعوذُ بالله من ذلك – لبطل عليه كلُّ ما صَنَعَه وعَقَدَه من أول خلافته إلى هذا الوقت؛ فما بُتَّ له عقدُ بيع ولا شراء، ولا وقف ولا ملك يمين، ولا صدقةٍ ولا هبةٍ ولا عِتْقٍ، ولا غير ذلك إلا بشهادتنا، هذا ما عندنا والسلام.

ثم قام مرفوعَ الجبين، وتبعه أصحابُه منصرفين، فلم يبلغوا بوابة القصر الأولى، إلا والرُسل في إثرهم تصرِفهُم إلى موضعهم من بيت الوزراء، ويتلقّونهم بالإعظام والاعتذار مما كان من صاحبهم المخاطِب لهم، وقالوا لهم: «الخليفة يعتذر إليكم من مَوْجَدَتِهِ، ويستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم ونزعته التي حملته على الجفاء عليكم، ويعلِمُكُم بندمِه على ما فَرَطَ، وهو مستبصرٌ في إعزازكمْ، ماضٍ في إكرامِكم، وقد أمر لكلِّ واحدٍ منكم بصِلةٍ وكسوةٍ، علامةً لرضاه عنكم، ويسألُكم قبولَ صِلته». فقبلوا اعتذاره وصلته، ودعوا له وأثنوا عليه وانصرفوا أعزة أكابر. ([82])

خرجوا من القصر مرفوعي الجبين، مكرّمين.

هكذا شأن أهل العلم:

كانوا أجلَّ من الملوك جلالةً

وأعزَّ سلطانا وأعظم مفخرا

لا تَخضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعِ

فَإِنَّ ذَلِكَ نقصٌ مِنكَ في الدينِ

وَاِسترزق اللَه مِمّا في خَزائِنِه

فَإِنَّ ذاكَ بَينَ الكافِ وَالنونِ

أَرى أُناساً بِأَدنى الدينِ قَد قَنِعوا

وَلا أَراهُمُ رَضوا في العَيشِ بِالدونِ

فَاِستَغنِ بِالدينِ عَن دُنيا المُلوكِ كَما

اِستَغنى المُلوكُ بِدُنياهُم عَن الدينِ

أَلا تَرى كُلَّ مَن تَرجو وَتَأملُه

مِنَ البَرِيَّةِ مسكينَ ابنَ مِسكينِ

## الزم السرادق!

كان محمد بن سعيد الزجّالي من أدباء الأندلس، لُقِّب بالأصمعي، لسعةِ محفوظاته، وحضور ذاكرته، نشأ ببيت أدب، وكان له حظ وافر من البلاغة، ونصيب حسن من صوغ القريض، ولم يكن لهذا البيت حظٌّ من الجاه، ليس لهم مع باعهم في الأدب قدمُ رياسة، ولا سالف صحبة السلطان، ورغم أنه التحق جنديًّا بركب الأمير عبد الرحمن بن الحكم، لكنه ظلّ خاملَ الذكر، لا

يعرفه أحدٌ من الحاشية، ولا يأبهُ له أحد، حتى كان ذات يوم مع الأمير في سفر، فعثرت بالأمير دابته فكاد ينكفئ على وجهه، فلحقه جزع، واغتمّ لذلك، وتكدَّر، فتكدّر الجميع، ثم بدا له أن يتجاوز هذا الموقف، فلجأ للشعر، وتمثَّل بشطر بيت جرى على لسانه:

وما لا يرى مما يقي الله أكثر

استدعت ذاكرته شطر بيت، ثم عجز عن إكماله، حاول مرارا دون جدوى فسأل رفاقَه، من الوزراء والكتّاب والأدباء المقربين المصاحبين، فلم يجد لديهم جوابا، فألح ثانيةً في استدعاء الشطر الثاني، ولم تسعفه ذاكرته، ولا ذاكرة غيره.

وأمر بسؤال كل من له معرفة في عسكره، فلم يقف عليه غير محمد بن سعيد الزجالي، لما أراده الله تعالى من رفع قدره، لكنه كان فطنًا، خاف أن يجيب لمن حوله فيبتدرون الجواب للأمير، وينسونه فيضيِّعون عليه الفرصة التي سنحت له، كي يُظهر مواهبه، هكذا دار في خَلَدِه، فحبُّ الظهور والثناء، هدف كثير من الشعراء ومطمح كثير من الأدباء، إلا من رحم الله ممن قصد بشعره وجهَ الله، وتحرى الصدق والإخلاص في كل ما يقرضه، قال تعالى {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

قال الجنديّ لعرِّيفه؛ حاجة الأمير عندي، فليُدنني أتمَّها له، فأدناه حتى وصل للأمير.

فقال له أصلح الله الأمير، أولُ هذا البيت:

لعمرك مَا يدْرِي الْفَتى كَيفَ يتّقي

نَوَائِب هَذَا الدَّهْر أم كَيفَ يحذرُ

ترى الشيء مما يُتقى فتهابُه

وما لا نرى مما يقي الله أكثرُ

نوائب الدهر أكثر من نبات الأرض، وليس يدري إنسان كيف يتصوّن عنها، ويأخذ حذره منها، وقد يرى ما يخشاه ويتوقّاه، وما لا يراه مما يقِيه الله إياه أعمُّ وأكثر، وبالشكر أجدر.

فأَعجَب الأمير ما كان منه، وراقَه بيانُه، وأعجبه هندامَه، فقال له: الزم السرادق.

فلما جالسه وحدَّثه زاد إعجابًا به ورغبة فيه، فجعله كاتبا في ديوان الوزارة، ثم اصطفاه لكتابته، فكان من أشدِّ المقرّبين منه.

## مزحةٌ أدبية

كان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ، يضرب بحفظه المثل، كان يحفظ القصيدة لأول مرة يسمعُها.

حكى عنه ابنه الوزيرُ الأديب حامد قال: جاءه يومًا مستجدٍ توسَّل إليه بشعرٍ امتدحهُ به، سأله أن يأذن له في إنشاده، ففعل، وجعل الشاعرُ يُنشِدُه له «مسحنفراً» في نشيده: مسترسلا، متحمِّسا مندفعًا بلا تلعثُم أو توقف، والزجالي مطرق، فلما فرغ من شعره تظاهر بالغضب، وقال للشاعر: يا هذا، ما الذي دعاك أن تنتحل شعراً لغيرك، فتقلِّبُه فينا؟ وكنتَ في غنى عن ذلك، فقد كان في قصدك لنا، وماتة أدبك إلينا ما نقضي به ذمامَك، ونعينُك على شأنك! ([83])

فقال له: سبحان الله يا سيدي! تقول ذلك في شعر كددتُ فيه خاطري، وأتعبتُ فيه ذهني؟ فلا والله ما أخذتُه من أحد، ولا سوّيتُه إلا من نظمي!

فصرخ الزجّالي في وجه الشاعر المسكين، وانفجر كالرعدِ قائلاً له: باطل! باطل!

إنه شعرٌ قد رويتُه قديماً وحفظتُه، فإن شئتَ فاستمعْ إليه أنشدكهُ، وبدأ فأعاد الشعرَ عليه أو أكثرَه، فبقى الشاعر حائراً لما فجأه به، وشكَّ في نفسه، وزال طمعه، وانقطعت حجتُه، واشتدت فجعتُه، وضاقت عليه الأرضُ بما رحُبت.

حتى ساوره الشكُّ في نفسه، أيكون هذا الشعرُ لغيري وأنا نحلتُه دون أن أدري؟ أم تواردت الأفكارُ والخواطرُ؟ ووقع الحافرُ موضع الحافرِ!

فلما رأى محمدٌ حيرتَه واغتمامه، وحزنَه وسوءِ مقامه؛ تبسَّم ضاحكا، وقال له: خفِّض عليك، وهوِّن على نفسك؛ فإني مزحتُ معك، وإنك الصادقُ فيما قلت، الحقيقُ بالثواب على ما قرضت، وإنما أعانني عليك قوةُ حافظتي التي ذهبتُ إلى اختبارها معك.

ولا والله ما سمعتُ بهذا الشعر قبل يومي؛ إنه شعرُك يا رجل! شعرُك أنت من بنات أفكارك، نعم من بنات أفكارك، فتهلل وجه الشاعر، وفرح، وسرَّيٍ عن همَّه، وأجزل صلتَه، وأحسنَ مكافأتَه، حتى خرج من عنده ضاحكًا مسرورًا. ([84])

## أَمن المخدَّراتِ أَنا؟

حضر الأديبُ أنس الجياني مجلسَ قاضي القضاة في قرطبة، أبي العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان، وكان من خير القضاة نزاهةً، وعلماً ومعرفة، ورزانةً، وعدلاً، وحزما. يقول أحدُ من عاصره وشهد مجلس قضائه: كان ابن ذكوان ضابطاً للحق، صليباً فيه، موقّر المجلس، مهيب الحضرة؛ ما رأيت مجلسَ قاضٍ قط أوقرَ من مجلسه، وكان إذا قعد للحكم في المجلس، وهو غاصٌّ بأهله، لم يتكلم أحد منهم بكلمة يلتزمون في مجلسه الوقار وغضّ الصوت، ولا يؤذنُ لأحدٍ أن يلفظَ بكلمةٍ، سوى الخصمينِ بين يديه، وإنما كان كلامُ الناس بينهم إيماءً ورمزاً، إلى أن يقوم القاضي؛ فصار حديثه في ذلك عجباً.

وذات يوم قدم لمجلسه الأديب أبو بحر أنس بن أحمد الجياني، وكان مقرّبًا من الأمير الحكم المستنصر، وله شعرٌ رائقٌ، ومؤلفات في الأدب والتاريخ، منها كتابه الحدائق، الذي حشد فيه من الأشعار، ما فاق غيرَه، ومن روائع أشعاره قصيدةً يصف رمانة أهديت له:

ولابسةٌ صدفًا أحمرا

أتتْك وقد مُلِئتْ جوهرا

كأنّك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ

تضمَّن مُرجانَه الأحمرا

حبوبًا كمثل لَثاتِ الحبيب

رِضابًا إذا شئتَ أو منظرا

ومع هذا الظرف كان الأديبُ جهوريَّ الصوت، كلّم بين يدي القاضي خصماً له كلاماً استطال فيه عليه، مُدليًا بفضل أدبه، وذرابةِ لسانه؛ وطلاقتِه، مُغفِلا عادة المجلس في التوقير وخفض الصوت، لم يكتفِ برفع صوته، بل هزّ عِطفَه، وحَسَرَ عن ساعديهِ، وأشار بيديهِ، مادًّا بها إلى وجه خَصمه، خارجًا عن حدِّ المجلس ورسمِه، فهمَّ أعوانُ القاضي بتقويمه وتثقيفِه، فمنعهم رهبةٌ منه وخشية، فهو الشاعرُ المقرب للأمير، فتناوله القاضي بنفسه، وأنكر عليه إكثاره، وقال: مهلاً عافاك الله اخفض صوتك واقبض يدك، ولا تفارق مركزك، ولا تتجاوزْ حقَّك، وأقصر عن إدلالك بمنزلتك!

فقال له الأديب مغتاظا: ومهلاً يا قاضي؛ أمن المخدَّرات أنا؟ فأخفض صوتي، وأستر يديَّ، وأغطي معصمي لديك؟ أم من الأنبياء أنت؟ فلا أجهر بالقول عندك! وذلك شيء لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله .

ولستَ به؛ ولا كرامة، وقد ذكر الله تعالى أن النفوس تجادل عنده يوم القيامة في الموقف الذي لا تعدله مقاماتُ الدنيا في الجلالة والهيبة.

لقد تعديتَ، يا قاضي طورَك، وعلوتَ في منزلتك، وإنما البيانُ بعبارة اللسان، وبالمنطق يستبين الباطلُ من الحق؛ ولا بد في الخصام من إفصاح الكلام، فبُهِتَ القاضي بقوله، وَلم يحِر جَوَابا، وسكت عن توبيخه وتقريعه، وجعل يقول: الرفق أولى من الخرق.

وجلس الشاعر الفصيح، والناس يعجبون من صبر القاضي عليه، وإغضائه عنه.

بيد أنه لم يكتف بهذه الخطبة العصماء التي بَهَت بها القاضي وأسكته، بل كتب شعرًا في الحال في قُصاصةٍ، وناوله للقاضي الذي قرأه على الحاضرين:

قال فيه معاتبا:

ولستُ من الصنف الذي قيل فيهمُ

ولم تكُ إن أنصفتني بصفاتي

يخبِّئن أطرافَ البَنَان من التُّقَى

ويخرجن شطرَ الليل مُعْتَجِرات

فلما قرأها القاضي ابن ذكوان ضحك، وضجت القاعة بالضحك، والتفت لشاعرنا الجياني، وقال له أيها الأديب: تكلم بكلتا يديك ورجليك؛ فلا حرج عليك. ([85])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# اللطيمة! أو قصة الحجرين.

كان أبو القاسم القشطيلي، من أهل العلم بفنون كثيرة، من الفقه والحديث والعربية، واللغة.

رحل إلى المشرق وسمع وحجَّ، وأكثر من الرواية، وأدخل الأندلس علمًا جمًّا، واستعمله الأمير الحكم المستنصر في مكتبته «بيت الحكمة» في مراجعة الكتب وتدقيقها، ثم صيّره إلى تأديب ولده هشام المؤيّد، وتعليمه القرآن، فاختُصّ به، فلما تولى هشام الخلافة بعد أبيه، قدّمه رئيسا للشرطة. فلم يزل على ذلك إلى أن مات سنة ٣٧٢.

حدّث عن نفسه فقال: لما انصرفتُ من الحج قافلا إلى قرطبة، صيَّرني وليُّ العهد الحكم لمقابلة كتبه في مكتبته، قُدِّر عدد الكتب بحوالي أربعمائة ألف كتاب، كانت وظيفتي أن أشارك في مراجعة الكتب التي يكتبها النسّاخون، ممن يعملون بالمكتبة، أو يستأجرهم الحكم من أنحاء الأندلس أو من بغداد وغيرها من عواصم العلم، وأجرى الأميرُ لي راتبًا كبيرًا.

ففرحتُ لذلك فرحًا عظيمًا لأنني سأتمكّن من الاطلاع على هذه المكتبة التي تضمُّ من الذخائر والنوادر والنفائس ما لا تضمُّه مكتبةٌ على وجه الأرض، ففاقت جميعَ المكتبات المرموقة في بغداد ودمشق ومكة والمدينة وسمرقند وأصفهان والقاهرة وعدن وسائر حواضر الإسلام.

دخلتُ المكتبة في الصباح الباكر، كليِّ شوق وتحفُّز للمسِ تلك الكنوز، رفوف وخزانات خشبية أنيقة، وقاعات واسعة ومقاعد وثيرة، وفي الجدران نوافذ ملونة، تضيءُ المكان فضلًا عن ثريات وقناديل تجعل القارئ كأنه في عالمٍ مسحورٍ.

استقبلني أمين المكتبة ببشر وترحاب، أجلسني على طاولةٍ، وُضِعَتْ عليها سجلات، مجلدة بعناية وإتقان.

شرح المطلوبَ مني في يومي الأول، بدأتُ وقلبي يطير فرحًا بهذا العمل الشيِّق، ثم انهمكتُ في مقابلة نسخةٍ من كتابٍ قيّم. أمكنني عملي الجديد من الاطلاع على كتبٍ نادرة كنت أتوقُ لقراءتهاً، هذا فهرستٌ عام لما تحويه المكتبة! على منضدة قريبة مني، نهضتُ إليه بشغفٍ، أربعة وأربعون دفترا، كل دفتر تتراوح أوراقه ما بين العشرين إلى الخمسين، ليس بها إلا أسماء الكتب فقط التي حوتها المكتبة، قدِّر عددها زهاء أربعمائة ألف كتاب، أقبلتُ بنهمٍ على الاطلاع، كان الخليفة الحكم يتردد كثيرًا على مكتبته، يجلس بالساعات، مستغرقا في القراءة وأحيانا يكتب على طُرّة الكتاب، كان حريصًا على معرفة كل جديد، وإرسال النُّساخ هنا وهناك وشراء الكتب من سائر

الحواضر، حتى كان الكتاب يصل للأندلس، قبل أن يصل للقراء في بلد تآليفه، وكان يُغدِق الجوائز السنية للأدباء وسائر الكُتاب؛ مما يحفزهم على إتحافه بباكورة نتاجهم.

عجبتُ كيف يجد الأمير وقتًا للاطلاع على هذه الكتب، زاد عجبي من كثرة تعليقاته على كثير منها، يكتب اسم المؤلف وتاريخ مولده ووفاته إن كان ميتا، وما ينسب له من الفوائد، كانت تعليقاته نفيسة.

اشتملت المكتبة على مؤلفات في سائر فنون العلم، حتى الطب والفلك والفلاحة والبستنة، والرياضيات والفيزياء وعلم الحيوان.

حقًّا عالم الكتب أجمل العوالم وأمتعها، وأكثرها إبهاجًا وإسعادًا، نعيمٌ لا يدانيه نعيمٌ دنيويٌّ، وهذا الأمير أصدق دليل، كيف يخلو في هذا المكان بالساعات، ويترك قصوره الزاخرة بالغيد الحسان، وألوان البهجة والسرور، وأصناف اللذة والحبور، وصدق من قال:

سَهَري لِتَنقيحِ العُلومِ أَلَذُّ لي

مِن وَصلِ غانِيَةٍ وَطيبِ عِناقِ

وَأَلَذُّ مِن نَقرِ الفَتاةِ لِدَفِّها

نَقري لِأُلقي الرَملَ عَن أَوراقي

أحببتُ عملي حبًّا جمًّا، لم يكدِّر عليَّ إلا زيارة من صديق عمري ورفيق رحلة طلبي للعلم، ابن سليم سامحه الله.

طرق ابن السليم باب داري ودخل إلى الردهة وجلس واجمًا، كان آنئذٍ منعزلًا عن الناس منقبضًا، مجتنبًا للسلطان، مُفْرِطًا في التقشُّف، أخذ يعذلني ويؤنِّبني ويقول لائمًا:

يا أبا القاسم بعد طلب العلم، وتقييد الحديث، والرحلة فيه، ركنت الى هؤلاء القوم، واستهوتك دنياهم!

فقلت له: وما الذي وليتُ لهم، إنما هي كتب علم، لمثلها كان سعيي، أجلسُ في المكتبة وأصححُها لهم بأجرة، وأطّلِع على ما أشاء!

فقال لي وقد استشاط غضبًا: لا تقل هذا؛ فقد أَعلَقتكَ حبالُهم، ووقعت يا صديقي في شراكِهم، فمن هنا يزفُّونك إلى غيرها، يستدرجونك، حتى تركن إليهم، ولا يمكنك مخالفتَهم في شيء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على عِظَمِ المصاب بك.

ثم مدّ يده إلى كَمِّهِ، وأخرج منه حجرينِ، وقال لي: خذهُما واضرب بهما صدرَك، ونُح علي نفسك يا مسكين، سلام عليك.

وخرج عني، وتركني أبكي على نفسي.

فما مضت الأيام، حتى صار إلى منزلتي، أصبح يعمل معي في تصحيح الكتب ومقابلتها، ثم ارتقى إلى الشورى، ثم إلى ديوان المظالم، ثم إلى قضاء الجماعة.

والحقُّ يقال إنه استُدرج لهذا، حيث عرفه الحكمِ المستنصر، وهو إذ ذاك ولي عهد أبيه الناصر، حين طلب رجلاً عالماً زاهداً يحجُّ عن والدته، بعد موتها بخمسمائة دينار كانت أعدتها لذلك، من طيب مالها - فذُكر له ابن السليم هذا، فأمر بإحضاره. وقام الحكمُ خلف ستر، وأمر أن يُكلَّم في القصة، ويرغّب إليه في ذلك، فأبى وأقسم أن لا يفعل ذلك أبداً، فتعلق بقلب الحكم، ولم يزل يجتذبه بكل حيلة، حتى استعمله بعدما تولى الخلافة من طريق محبته للعلم، فاستخدمه لمقابلة الدواوين ببيت الحكمة، فداخله من حينئذ وصاحبه، ثم نوَّه الحكمُ باسمه، وقدَّمه إلى الشورى، ثم صار قاضيًا.

قال القشطيلي: فأردتُ أن أذكِّره بصنيعه، وقد أصبح قاضيًا، فأمرتُ جاراً بحمل حجرينِ ضخمينِ، وبعثتُ معه غلاماً بعد صلاة العتمة « العشاء»، حتى أنْزلَهما عتبةَ دارِ القاضي ابنِ السُّليم، وأسندهما إلى مصراعيه، فلما قام لصلاةِ الفجر، وفتح بابه سَحَراً، لقي الحجرينِ مسندينِ إليه، فبقي حائرًا مفكِّراً، ومضى إلى المسجد، مشغولَ البال، إلى أن دخلتُ عليه غُدْوَةً، فما هو إلا أن رآني حتى اهتدى إلى وجه القصة، فدنا مني وقال لي: أنت صاحبُ الحجرين؟ أنت من فعل هذا؟

فقلت: نعم أنا من فعل هذا! وهما الحجران اللذان دفعتَ إليّ، ووضعتَهما عندي، حفظتُهما حتى كبُرا وصرفتُهما إليك أذكرك حالك. فبكى، وقال: هو حقك، والبادئ أظلم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون على عِظَمِ مصابنا، وخسران صفقتنا! فأبكاني ([86]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# آغلى وداع

رحلة طويلة في طلب العلم، طاف فيها أبو الفتح السمرقندي شتى الأقطار، وسمع من المحدثين والفقهاء، في خراسان والعراق والشام والحجاز ومصر والمغرب والأندلس، يسمعُ ويجمعُ ويروي، رَوَى «الصَّحِيح» بِالأَنْدَلُسِ، وَكَانَ دَيِّناً وَقُوْراً رَئِيْساً متصدِّقًا، بهيًّا متجمِّلا، متأنقًا يزيّن رأسه بالطيلسان، ينمُّ عليه من الطِّيب ما يعرفُه مَن يألفهُ، وإنْ لم يُبْصر شخْصَهُ، وما يبقى على ما يسلكُ من الطّريق رائحتُه بُرْهة، فيَعرفُ به من يسلك ذلك الطّريق إثره أنّه مشى عليه.

وبعد أن طال مكثه في الربوع الأندلسية قرر العودة إلى الديار، فقد حنَّ إلى وطنه وبناته وأمهِنّ.

لولا بُنَيَّاتٌ كزُغْبِ القَطَا

رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلى بعضِ

لَكانَ لي مُضْطَرَبٌ واسِعٌ

في الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرضِ

وإنّما أوْلادُنا بَيْنَنا

أَكْبادُنا تَمْشي على الأرْضِ

لو هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ

لامْتنعت عَيْني من الغُمْضِ

حانت ساعة الرحيل، وآن للطير المهاجر أن يعود أدراجه إلى موطنه، ويغادر بلاد الأندلس، إلى بلاد فارس، وهل أحبُّ إلى الإنسان من وطنه؟ كما قال ابن الرومي:

وحبَّبَ أوطانَ الرِجالِ إليهمُ

مَآربُ قضَّاها الشبابُ هنالِكا

إذا ذَكروا أَوطانَهم ذكَّرَتْهُمُ

عُهودَ الصِبا فيها فحنّوا لِذَلِكَا

قرر قبل رحيله أن يذهب إلى بيتِ شيخه العالم المحدّث أبي العباس أحمد بن عمر العذري الدلائي العالم المحدث ([87]).

وكان للشيخ ابنة صغيرة، فقال أبو الفتح لشيخه: كنتُ أريدُ أن أودعَ الصبيةَ ابنتَك، فنادى عليها الشيخ، فخرجتْ إليه، فأخذها أبو الفتح في حجره ودموعه تجري؛ إذ كان قد ترك في بلده البعيدة صبيّةً في سنِّها، فتذكَّرها وحنَّ إليها، وأخرج من جيبه سلكًا ذهبيا فقلَّده في عنق الصغيرة، ففرحتْ به، وقال لها: إنما أعطيتُه لك لا لأبيك؛ فاذهبي به فهو لك. كانت قيمة هذا السلك مائةً وخمسين دينارا من الذهب.

وأخيرا عاد الطائرُ إلى بلده سالما غانما، ومعه أحمالٌ من الأجزاء والكُتُب، وانقلب إلى أهله مسرورا، فقد حان التلاق بعد أن طال الفراق ([88]). واستقر به المقام في نَيْسابور، ينشر فيها سنة النبي .

# ورع العالم ودقَّته

من أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس، وارتقائها وتقدُّمها على كثيرٍ من الأقطار، ما اتسم به أهلها من دقة وإتقان، ينمُّ عن التقوى والورع، خصوصا العلماء والتجار وغيرهم.

في ليلةٍ مقمرةٍ جلسنا أمام حديقة منزل صديقي نتنسم شذى الياسمين، مع عبق الماضي الجميل، كنا نتذاكر ما كان عليه العلماء بالأندلس من ورعٍ ومراقبةٍ لله تعالى ودقة في معاملاتهم.

قال صديقي: كم كان ورع العلماء ودقتهم واحتياطهم!

فهذا الفقيهُ يحيى بنُ عمرَ الكِنَانِيُّ يضرب المثل في غاية الورع، حين رجع - رحمهُ اللهُ تعالى - من القَيْرَوَانِ إلى قرطبةَ، بسببِ دانِقٍ ([89])كان عليهِ لبقَّالٍ، فخُوطِبَ في ذلك: كيف تتجشَّم عناء السفر وأنت في السبعين من عمرك من أجل ردِّ دانقٍ واحدٍ! وما قيمة دانق!! حتى تتحمل هذا العناء!! سنة تضيِّعها في سداد دانقٍ!!

فقال: ردُّ دانقٍ على أهلِهِ أفضلُ من عبادةِ سبعينَ سنةٍ، فمضَينا ورَجَعْنَا في سنةٍ، وبقيتْ مَعَنَا تسعةٌ وستون. ([90])

وأضاف قائلا: وهذا أبو محمد بن ذنين عالمٌ خيِّرٌ فاضلٌ، مشهور بالزهد والعبادة، ألقى عصا الترحالِ بطليطلة، تلك المدينة العتيقة التي تتوسط الأندلس، فاستقرَّ به المقامُ بعد رحلةٍ طويلة في طلب العلم، وكان ورِعًا صلبًا في الدين، ذكروا أنه كان يحصي ما كان يسوقُه من كَرْمِهِ، ولو كان عنقودًا واحدًا لإخراج الزكاة، وكان كثيرَ الصدقة، سمحا متورِّعا أشد الورع، إذا ابتاع أعطى دراهمَ طيبةً لا تدليس فيها ولا زيف، وإذا بايع اشترط مثل ذلك، وإذا خُدِعَ فيما وردتْ عليه صَرَّها في خِرقة، ثم وقف في وسط القنطرة، وألقاها

في النهر الكبير، وكان يقول: إلقاؤها أفضل من الصدقة بمثلها لو أنها طيبة، لقَطْعِ الرَّدَى والغِشِّ من أيدِي المسلمين. ([91])

قلت لصاحبي: وأعجب من ذلك دقّة ابن شاطر وأمانته ([92])! كان رحمه الله يكتُبُ بخطِّه البديعِ المصحفَ، وقد اعتاد أن لا يُغْلِقَ حرفا مجوَّفًا، فإذا غُلِبَ على ذلك أصلحَه، حتى حُكِي أنه سافَرَ لإصلاحِ حرفٍ مُجَوَّفٍ أغلقَهُ سهوًا من نسخةٍ كان باعَها، ولم يتذكرْ ذلك حتى سافرَ مشترِيها، فما رجَعَ حتى أصلحه. ([93])

قلتُ: حقا إن الأمانة والدقة من عوامل النجاح ودواعي التوفيق، ومن مقومات النهوض والحضارة، ولقد رغَّب الإسلام في إتقان العمل وإبداعه، فالإتقان من صفات الله تعالى الدالة على كماله وجلاله وعظمته قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِيَ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[النمل ٨٨]

وقد روي عن النبي أنه قال (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه). ([94])

ونحن قد تعودنا أن نضرب المثل بدقة الإنجليز والألمان، ونغفل آباءنا وأجدادنا الذين كانوا أعظم مثلا في الدقة والضبط، وكانوا يفعلون ذلك مراقبةً لله تعالى، وقد ذكرنا من قبل حكاية ابن غطوس أشهر من نسخ المصاحف، وأبدعهم خطًّا وألوانا وزخرفة، كيف سافر سفرا طويلا ليصلح حرفًا في نسخة باعها، وعاد بها صاحبُها لبلده، فضبط الحرف ثم عاد أدراجه، لكم كان أمينًا متقنا مدققا! وإن كان في حياته ومعاشه، قد ابتلي بغفلةٍ، لكنها آية عظيمة يسهو في كل شيء إلا في كتابة المصاحف.

وهل سمعت قصة هذا المحدث الأندلسي الذي توقف عن الدرس مع كثرة طلابه الذين جاءوا له من شتى الأقطار!

قال أبو عمر بن عياد: سمعتُ الفقيهَ ابنَ مكِّي الشاطبي يقول: كنا بمرسيَّة نسمع الحديث على القاضي أبي علي الصدفي، فقرأ يومًا أبو يحيى بن جعفر المرسي بها كتاب « الوُحْدانِ » لمسلم عليه، ونحن نسمعُ، فمرَّ باسمٍ مُشْكلٍ، فسأله عنه فقال له اقرأ، ثم مرَّ باسمٍ آخرَ مشكلٍ، فسأله عنه فلَم يعرفْه فأخذَ الكتابَ من يدِ القارىءِ، فغلَقَهُ، وقال لنا: لا يَحِلُّ أنْ أروِيَه حتى أنظرَ حقيقةَ هذهِ الأسماءِ المشْكَلَةِ، ونحنُ في جَمَاعَةٍ مِنْ أقطارِ البلادِ، قد رَحَلْنَا إليهِ. ([95])

## لا تنم فالعدو لا ينام!

هبّت الرياح عاصفةً وتساقط المطر منهمرًا على قرطبة ونواحيها، بينما المنصور ابن أبي عامر ساهرا يرعى شؤون الأندلس، في غرفةٍ دافئةٍ بالقصر وعلى ضوء سراجٍ زيتيٍّ، أخذ يراقب النافذة التي تساقط عليها المطر حينًا، وينظرُ حينا في رسائل بين يديه، وحينًا يذرع الغرفة الواسعة جيئةً وذهابًا، كمن يرتقبُ شيئًا، حتى أشفق عليه أحدُ حاشيته فقال له:

- قد أفرط مولانا في السهر، وبدنُه يحتاج إلى النوم والراحة!

فقال يا بنيَّ: ما أحلى الفراش الوثير الدافئ في ليالي الشتاء الباردة! لكن الحاكم لا ينامُ إذا نامت الرعيةُ، ولو استوفيتُ نومي لما كان في دُور هذا البلد العظيم عينٌ نائمةٌ!

ثم دعا المنصور أحد الفرسان النجباء، وقال له انهض في الحال إلى الممرِّ أسفل الجبل، وابق هناك؛ فأوَّل مارٍّ يمرُّ عليك، ائتني به.

قال: فنهض الفارس مسرعًا بحصانه، وبقى كامنًا في ذلك المكان القريب من بستان تشابكت فيه أشجارُ الزيتون حتى بدت في الظلام الدامس غابةً مخيفة، مع شدة البرد وهياج الريح، وهزيم الرعد، وهتان المطر، وحلكة الليل، وهو على فرسه ينتظر، متحفِّزًا، يرتجفُ من شدة البرد، لبث في مكمنه، يرتعد من البرد، حتى برقت خيوطُ الفجر، لتؤذِن بانسحاب جحافلِ الظلام أمام طلائع النور، جال ببصره في كل اتجاه، فسمع حركةً بين الأشجار، شيءٌ يتحرك، نظر بحدةٍ جهةَ الممر الضيق، بدا له شبحٌ أسودٌ يقترب رويدًا رويدًا على ظهر مركوب، فانتظر حتى اقترب منه، إنه شيخٌ هَرِم على حمار، يبدو من ثيابه المرقّعة أنه فقير.

قال له الفارس: إلى أين تذهب، أيها الشيخ؟

فقال بصوت واهنٍ: كما ترى يا بني ذاهبٌ لأجمع الحطب من أشجار تلك الغابة بأعلى الجبل، فأنا حطّابٌ فقيرٌ كما ترى، أعولُ أسرةً كبيرةً من النساء والصبيان، وهذه فأسي وهذا حبلٌ!

أشفق الفارس على العجوز ورثى لحاله، وقال في نفسه: هذا شيخٌ مسكينٌ نهض إلى الجبل مبكِّرًا يقطع الحطب؛ فما عسى أن يريد المنصورُ من أمثاله؟ ولماذا أوقفني هنا أراقب الطريق!

قال الفارس: فتركته بسلام، فسار عنّي، وبدأ يبتعدُ رويدًا رويدًا، حتى بدا من بعيد كالشبحِ.

ثم فكرتُ في قول المنصور، وخفتُ بطشَه وسطوتَه؛ فركضتُ بفرسي إلى الشيخ، وقلت له: قف! هيا بنا إلى مولانا المنصور.

فقال وهو يرتجفُ: اتركني يا ولدي لا وقت لديَّ! المنصورُ من هذا، أنا لا أعرفه؟

المنصور بن أبي عامر.

ما شأن المنصور بي! أريد أن أفرغ مبكرا من قطع بعض الأشجار، وجمع الحطب لأبيعه في سوق قرطبة، قبل أن يستيقظ أطفالي فهم جياعٌ.

قلت: لا حيلة ولا خيار لي يا عمِّ، لا بد من لقاء الحاكم.

فقال: وما عسى أن يريد المنصورُ من شيخٍ مثلي؟ سألتُك بالله أن تتركني لطلب معيشتي! فقال له الفارس: لا أفعل.

ثم قدم به على المنصور، ومثّلَه بين يديه، وهو جالس، لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور لغلمانه: فتِّشوه! ففتَّشوه؛ فلم يوجد عنده شيء؛ فقال: فتِّشوا برذعةَ حماره! فوجدوا داخلها كتابًا من نصارى أرسلوه إلى أصحابهم من النصارى في قرطبة لتنفيذ مؤامرةٍ تُخِلُّ بالأمنِ، وتمكِّنُ للعدوِّ، فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك الخائنين إلى باب الزاهرة؛ فعاملهم بما يستحقون، ونال العجوزُ الخائن جزاءَه العادل. ([96])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# برأسِ أبيها يمتحنُهَا!

أشرقت الشمسُ على مدينة قرطبة، وتسلَّلت عبر نوافذ القصر أشعتُها الذهبيةُ تسري إلى البهو الكبير، لتبعث الدفء والنشاط، حيث تجلسُ أميرة الأندلس أسماءُ بنتُ غالبٍ على أريكتِها في حُلّةٍ أنيقةٍ، تُشَاكلُ أجواء الصباح الربيعية، وحولها وصيفاتها، بدت بينهن دُرَّةً بهيَّةً تتوسَّطُ عقدًا منظومًا من لؤلؤ.

ومن نافذةٍ غربيةٍ مفتوحةٍ هبت نسماتٌ عليلةٌ تحملُ من حديقة القصر تحيةً معطَّرة بأريج زهرة النارنج، بينما يغرِّد حَسُونٌ على غصنٍ قريبٍ من النافذة، وقد أصغت له الأميرةُ بإعجابٍ، إلى أن شوّش عليه نعيقُ غرابٍ مزعج، فتأففت من ذلك، وانصرفت ترقُّب الوصيفات القادمات من المطبخ يحملن الصحاف والقدور والأباريق، فيها ما لذ وطاب من الفطائر والمجبِّنات المحشوة بالزيتون والزعتر البري، وسلال الخبز الحار، وأكواب الحليب وكاسات العصائر المنعشة، بينما يقف صاحب الطعام»كبير الطهاة» على رأس المائدة الخشبية الأنيقة، يشرفُ بنفسه على صفِّ الصحافِ والأطباق والأكواب والكؤوس والمناديل، بعنايةٍ وذوقٍ.

كانت الأميرة أريبةً أديبةً من صوالح النساء.

زوجها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، الذي وصل لسدّة الحكم، بعد أن انقلب على الخليفة الصغير، هشام المؤيّد، وقام مكانه بعد أن حجبه.

أما أبوها فقائدٌ محنّكٌ، وفارسٌ مغوارٌ، قاد جيوشا، وحقق انتصارات وأمجادا، في الجنوب، وأقصى الشمال، من بطولاته سَحْقُ النورمانديين الذين هجموا على الشواطئ الغربية للأندلس، كما كانت له غزواته في الجنوب؛ حيث عبر البحر للمغرب، لمواجهة الأدارسة الذين خرجوا عن طاعة حاكم الأندلس، ومن ثَم قلّده الحكم سيفين مذهبين وسمّاه «ذو السيفين».

بدأ زوجُها محمد ابن أبي عامر طريقه مغمورًا، لكنه كان يتوق للسلطة، فسعى إليها بذكائه ودهائه، من دكانه الصغير المواجه لبوابة القصر، لكتابة الشكاوى والمطالب أخذ يتوسل للوصول إلى داخل القصر، حتى سمعت به صبح زوجة الأمير الحكم، وأم هشام المؤيد، فأخذ يتودد إليها حتى فتحت له باب القصر، وصعد سريعا سُلّم المناصب، وبدا مسالمًا وادعا، ثم تودد لغالب قائد الجيش، وطمح في مصاهرته، ليتقوَّى به، ويكتسِب عطفه، ويستعين به على منافسيه، وقد تم له الأمر حين صاحبه في غزوته الشمالية اتجاه مجريط»مدريد». فكان ابن أبي عامر يخدم غالبًا في سفره خدمةَ العبيد، حتى ملك أقطار قلبه، فمال إليه غالبٌ بكلّيته ووثق فيه، وأمن جانبه، بل تحالف

معه ضد مناوئيه، حتى نجح محمد بن أبي عامر في إزاحة كلِّ من نافسه على السلطان، كما فاز بقلب أسماء وتزوج منها، ليتقدم خطواتٍ نحو هدفه، ويتقوّى بصهره برهةً من الزمن، ثم سرعان ما انقلب على كل من أخذ بيده، حين تمكَّن، ودالت له الأندلس، فتخلَّص من كل من كان له منافسًا، وتنكَّر لكل من مهّد له الطريق، حتى استبدَّ بالأمر بلا منازع.

أيًّا كان مسلك الحاجب في الوصول لسُدَّة الحكم، فها هي زوجتُه الأثيرة ترفلُ في قصرها الفخم بنعمةٍ وحبور.

مرّت أربع سنوات على زواجها الميمون، كما يمرُّ الطيف، وقد رزقها الله بالولد؛ لتكتمل السعادةُ وتقرّ العيون.

هبت عليها نسائمُ تلك الذكرى العطرة، عندما حل الربيعُ، وما أدراك ما الربيع في الربوع الأندلسي، حيث تتفتحُ أكمامُ الزهور، ويفوح شذى الورود، وعبق الياسمين، وأريج الأقحوان، وريح الخُزامى، وتتزين الحقول والبراري في هذا العرس بسنابل القمح وشقائق النعمان، فيزهو السوسن، ويحدِّقُ النرجس، ويتبخترُ البهار، وتتمايلُ الأغصان، على صوت خرير جداول الماء المنحدر من قمم جبل العروس.

منذ أربع سنوات كانت أسماء على موعد مع دقات الدفوف، كان حفلا باذخا، حيث أهداها أبوها القائد المظفّر، لزوجها الطموح، المنصور محمد بن أبي عامر، «كان عرسُها أعظم حفلة عرس جرت في الأندلس». «ووقع زفاف أسماء في مشهد بَعُدَ العهدُ بمثله شهرةً وجلالةً؛ وزُفَّت إليه ليلة النيروز» ليلة الحادي والعشرين من شهر آزار» مارس» عام ٩٧٧ من الميلاد، وذلك في سنة ٣٦٧ من الهجرة النبوية.

بدأ الحفل البهيج من قصر الخليفة الحكم الذي تولى بنفسه مع الأميرة الأثيرة صبحٍ أمرها، واستقدم السلطان قائده غالبًا لاستهداء أسماء إلى زوجها محمد، وحظِيت أسماء بنت غالب عند ابن أبي عامر؛ إذ كانت ذات جمال بارع، وأدبٍ وظُرفٍ، وصلاحٍ وعفاف.

أحست بخدرٍ لذيذٍ وهي تحلّقُ في هذه العوالم الوردية، التي هبت عليها كالنسيم، وتخطُرُ أمامها تلك الأطياف الأرجوانيّة، لم يقطع عليها شريطُ تلك الذكريات المبهجة ولم يوقظها من أحلامها إلا صوت صخبٍ وضجيج اقترب بسرعةٍ نحو البهو، وإذ بالخدم يدخلون حاملين صندوقًا خشبيًّا، ويضعونه بين يديها، ويتراجعون خطواتٍ إلى الخلف، دون أن ينطقوا بكلمة.

ما هذا الصندوق؟

أرسله الحاجب المنصور.

وما الذي فيه؟

صمتٌ وسكون... بينما ترتسم على الوجوه علامات حزن.

ماذا أرسل لها زوجُها؟ منظرُ الصندوق ومنظرُ الوجوه المتجهمة لا يبشر بخيرٍ!

أيُّ قارعةٍ أصابت قصر الأميرة هذا الصباح!

تُرى ماذا أرسل لها زوجُها الذي صار حاكما فعليًّا للبلاد؛ بعد أن تخطّى كل منافسيه؟

أيُّ امتحانٍ هذا الذي اصطبحت به؟

نظرت إلى الصندوق الخشبي الذي استقرّ بين يديها بذهولٍ، تُرى ما الذي يحويه هذا الصندوقُ الكئيب، حدَّقت في الوجوهِ الشاحبة التي تحيطُ بها، أخذت تفحصُها بعنايةٍ؛ عساها تستشفُّ الجواب، فانقلب إليها بصرُها حسيرًا، دون جدوى من وراء تلك الوجوهِ الكاسفةِ الواجمة، يا للحيرة!

لا مفرَّ إذًا من فتح هذا الصندوق المشؤوم، استجمعت قواها، ورفعت الغطاء، لترى رأس أبيها ، وكأنه ينظر إليها يستصرخُها، يشكو إليها غدرَ زوجِها وظلمه، لم يكتف بقتله، بل حمل رأسه إليها لتزداد فجيعتُها؟ ويتضاعف حزنُها ووجيعتُها! صرخت صرخة مدويَّة وغابت عن وعيها للحظات!

إنها النهاية الحزينة لمنافسةٍ على سلطان زائل، ودنيا فانية! وها هي النتيجة.

يا للفاجعة! يسوق لها رأسَ أبيها؟ وكأنه يختبر ولاءها له، وينتظر جوابها وموقفها! استردَّت قليلًا من ثباتها ورباطة جأشها.

نظرت إلى أبيها بعيون تهملُ بالدمع، قالت وهي تنتحب: غفر الله لك يا أبي! ليتك كنت بائعا أو فلاحا أو نجارا أو أي عملٍ تمتهنه، وعشت سالما معافى.

قالت وهي تنتحبُ: سامحك الله يا زوجى! تأتيني برأس أبي يا لقلبك القاسي! تفعلُ هذا بصهرك، الذي أدناك منه، ومنحك كريمتَه!

ألم تجتمعا يوما على غاية واحدة! ألم تخرجا سويًّا إلى الغزو وترجعا بالنصر والغنائم؟

ألم تكن له خادمًا مخلصًا؟ أم كنت تتزلّفه للوصول إلى مآربك!!

إذا لم يكن صفوُ الوداد طبيعةً

فلا خيرَ في وُدٍّ يجيء تكلُّفا

ولا خير في خِلٍّ يخونُ خليلَه

ويلقاهُ من بعد المودةِ بالجفا

وينكرُ عيشًا قد تقادم عهدُه

ويُظهر سرًّا كان بالأمس في خفا

كان ابن أبي عامر قبل أن تقوى شوكتُه، ويستغلظُ عودُه، ويتسع نفوذُه، يتوددُ للقائد المظفر غالب، ويبدي زهدا وورعا، أعجب صهرَه غالبًا وأكسبه ثقته؟

كان يُظهِر طوال رحلات الغزو أدبًا جمًّا وتواضعًا للقائدِ غالب، ويتفانى في خدمته حتى ملك قلبَه؟ ونال محبَّته؟ ثم في النهاية يجزُّ رأسَه!

أهكذا تتحول المصاهرةُ إلى عداوةٍ ونكبَة!

ماذا تفعل أسماء بنت غالب؟

هل تكتم أحزانها على أبيها لتُرضي زوجها؟ أم تغادر قصر هذا الغادر بلا رجعة!

حقًّا يا له من اختبارٍ عسيرٍ، وخيارٍ مريرٍ، هل تبدي ولاءها لزوجها الحاكم أم تغلبُها عاطفتُها نحو أبيها المغدور غالبٍ؟

دخل المنصور بخطواتٍ متثاقلة، منكّس الرأس، اقترب من زوجته المكلومة، نظر إليها نظرة إشفاقٍ.

حاول تبرير تلك الجريمة، فقال لزوجته التي تفيضُ أسى: لقد تربَّص بي أبوك وحاول قتلي، لكنني نجوتُ، وهذا جزاءُ غدرِه بي! كما أنه خرج عن طاعة الإمام الخليفة هشام المؤيد، فوجب قتالُه! وما فعلتُه عن أمري!! وإنما أحل الخليفة دمَه للخروج عن طاعته.

نظرت إليه أسماء وهي واجمةٌ شاردة الفكر موزّعة القلب، وهي تعلم أن الخليفة طفلٌ لا يملك إصدار أمرٍ، ومقاليد الحكم كلها بيد زوجها.

ها هو الآن ينتظر أن يسمع منها كلمة! ليطمئن قلبُه ويسكن خاطره بولائها، فقالت معقِّبة على ذلك الخطب الجلل، بفصاحتها وحصافتها المعهودة:

«الحمد لله الذي أراحك وحَكَمَ لمولاك، أما لولا طاعةُ الإمامِ المولَى، وحقُّ الزّوج المُطاع لقَضَيْتُ للحُزنِ عليك أوطارًا، وإنّي بالحُزن لكَ لأَوْلى منِّي بالحُزنِ عليك، عليَّ بماءَ الورد والطِّيب، فهذا آخرُ العهدِ ببرِّ الأب». فغَسَلت وجهَه ورَجَّلت شعرَه، ونثَرَت عليه مِسكًا كثيرًا، وأسلمتْه لمن يتولى أمرَه، ودفنت أوجاعها في صدرها. ([97]). فأبدت تلك العقيلةُ الحسيبةُ رباطةَ جأش، وأظهرت تجلُّدًا.

## ما أجمل الوفاء!

كان الفقيهُ الوزير أبو بكر بن صفوان، رحمه الله مشهورَ الحسب، جليلَ المقدار، فاق أهل زمانه سياسةً ونباهةً، وكان من أحسن الناس خُلُقًا وأنداهم يدًا، وأشدَّهم حرصًا على قضاء الحوائج وأسرعهم إلى فعل الخير، حتى كان يوزِّع المال على الخُدَّام، وكان معظَّما عند الملوك والسادات، سنيَّ الهمة، كثيرَ الفضائل.

وكان بعض الصيادين يتعهدُه في مالقة كل جمعة بحوت نفيس - سمكة كبيرة جيدة - رغبة في وجاهته، ومحبة له، كانت سواحل مالقة تجوُد بأشهى أطايب البحر، حتى اشْتُهِرَت بذلك، وتفوقتْ في تمليح الأسماك وتصديرها.

ظل الرجل يوافيه بحوتٍ كل أسبوع إلى أن انقطع عنه مدة، وبحث عنه فلم يجده، فاحتفظ بحقه ريثما يعود إليه، فيوفيه أجره.

مرت الأيام والشهور والأعوام، ولم يسمع عن صاحبه خبرًا، ولم يجد له أثرًا! فحزن لذلك أشد الحزن.

وبينما هو جالس في بعض الأيام، إذ أقبلت امرأةٌ تشكو له حالها، وزعمت أن عندها بنتا تحتاج إلى الزواج، وليس لها من المال ما تستعين به على جهازها، فسألها من زوجها؟ فعرف أنها زوجة ذلك الصياد، الذي كان يأتيه كلَّ جمعة بالحوت، فيحمله لأهله ويصنعون منه غداءهم.

فقال لها: اقعدي حتى أخرج إليك، فمكث ساعة ثم خرج إليها بصرّة بين يديه، فيها ثيابٌ فاخرةٌ، وكيسٌ به ثلاثون دينارا، فقال لها: خذي هذه الثياب وتلك الدراهم، وأصلحي بها حالك وحال عيالك، فتفاجأت المرأة بهذا العطاء الذي لم تتوقعه.

فشكرته، وانكبَّت تقبِّل يده.

فقال لها: يا أختاه، لا تشكريني على هذا، فإن تلك الدراهم من مال زوجك. حقٌّ له، لا منّةَ لي فيها.

فقالت له: يا سيدي، وكيف، وهو لم يخبرني؟

فأخبرها أنه عندما كان زوجها يأتيه كل جمعة بحوتٍ كان يعرضه على من يقدِّره له، ويقيّد ثمنه، فوفّاها حقَّ زوجها، وأكرمها، وقال لها: إذا اقترب موعد زواج الفتاة، فجهازها عندي، فكان الأمر كذلك، قام بجهازها كله على أتمِّ وجهٍ وأحسنِه، وهذا غاية في الفضيلةِ والكرم. ([98])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# عالمٌ ربانيٌّ يربي تلاميذه

## وَرَعٌ شديدٌ

حكى الفقيه محمد بن عمر بن لبابة قال: كان شيخي أبو وهب عبد الأعلى فقيها ورعا زاهدا، وكانت مدارُ الفتيا في الأندلس على ثلاثة، هو واحد منهم، وكان يدخل على الأمير في قرطبة فيناصحه، وربما ينكر عليه بعض المظالم، فيجلُّه الأمير، ويفسح صدرَه لنصحِه، وهو مع ذلك يقضي وقتا في بستانه بقرب مقبرة قريش، يتعهده بنفسه، فيحرث ويغرس ويروي.

ذات ضُحَى اجتمعنا مع نفر من الطلبة نقرأ عليه، فلما حضر وقتُ الغداء لم يقدَّم إلينا هذا اليوم سوى خبزٍ حارٍّ، فجلسنا جميعا على الطعام، نغتنم الفرصة في سؤال الشيخ عن دقائق العلم، وليس أمامنا إلا خبز وشيء من بقل الحقلِ، وبينما نحن كذلك إذ استأذن عليه الوزير هاشم بن عبد العزيز صاحب الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم -أميرِ الأندلس- ووزيرُه الأثير، فأذن له على تكرُّهٍ، ودخل ونحن نأكل الخبز الذي قدّمه الشيخ وجعلنا إدامه من البقلِ، فجلس وجعل يداعب الشيخ بلطفٍ وظرف، والشيخُ على حاله لا يلتفتُ له ولا يجاريه، ثم قال الوزير ممازحًا: أبا وهب! أما تدعونا إلى طعامك تخاف أن نلتهمه!

فقال له: إنه ليس من الأطعمة التي توافقك، فقال: بلى، وإن لم يكن فإنا نتبرَّك بما نصيبُ منه، ومد هاشم يده إلى لقمة من الخبز ً- مجاملةً- غمسَها في البقل، فجعل يلوكها ولا يسيغها، إذ لم يألف مثل هذا الطعام، لقد تعوَّد الأطايب من المطاعمِ والمشارب ممَّا يقوم عليه مهرة الطباخين، فكيف يستسيغ خبزًا جافًّا وبقلًا حارًّا!

فلما فرغنا سأل الشيخ عن مسألة جاء لها، فأفتاه بما عنده، فأظهر هاشم قناعته بجوابه، وقام لينصرف فتحركتُ لأقوم معه، فضرب الشيخ على يدي وأجلسني، حتى خرج، فلما مضى قال لي ما أردتَ بهذا؟ قلتُ أردتُ إكرامَه في مجلسِك، فقال لي: بئس ما صنعتَ! إن كنت تطلبُ العلمَ لله تعالى فأعِزَّه يعزَّك اللهُ تعالى، وإن كنت تطلبهُ لدنيا فَجِدْ عنَّا ([99])، وكن خادما لهؤلاء متقلِّبا بين أيديهم، فهو أنفقُ لك عندهم وأكسدُ لك عند خالقِك. فأخجلني بشدة، وحافظت بعد على وصيته. ([100])

وانتهت إلى ابن لبابة رئاسة الفتيا وتولى إمامة الصلاة، كما تولى القضاء. وكان من أهل الحفظ للفقه والفهم به، أفقه الناس وأعرفهم باختلاف الفقهاء، مع نزاهة نفس وتصاون ومروءة كاملة وتواضع وديانة وتلاوة للقرآن، وحفظ للشعر وفصاحة وأخلاق حسنة، وتقشف في ملبسه.

## دروسٌ في الحقل
## يزرعُ ويعلِّم ويناصحُ الأمراء

حكى محمد بن عبد الله بن بلال القرطبي قال: كنا نختلفُ إلى المنيَةِ للأخذ عن شيخنا ابن القزاز القرطبي، ([101]) العالم الزاهد الورع، فنقرأُ عليهِ، بينما يزرعُ في حقلِه، والقُفَيفَةُ في ذراعِهِ، يحمل فيها البذور والفسائل ([102])، وهو يمضي بين سطور حقله التي خطَّها بالمحراث، يغرسُ ونحنُ نسير من خلفِه نقرأُ عليهِ.

فَأَعْجِبْ لهمة هذا الرجل لا يشغله غرسٌ عن غرسٍ!

يغرس النبات في الحقول، ويغرس العلم في العقول.

يتعهّد تلاميذه ويربيهم، كما يتعهد نباتَه ويرويه.

يمضي بهمةٍ في حقله، وخلفه الطيور تلتقط ما تناثر من الحَبِّ، ونحن من ورائه نلتقط ما ينثرُه من الفوائد والدُّرَر في شغفٍ وحُبٍّ، لا يُضَيِّعُ لحظة في غير نفعٍ، فحياتُه بين غرسٍ ودرس، بل بين غرسٍ وغرسٍ، وشيخنا كالنهر يتدفَّقُ بالخير والعطاء.

قد سطّر الحقول

بالحَبِّ والبُقول

وزيَّن العقول

بالفقه والأصول

وحكمة التنزيل

وسنة الرسول

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يدورُ في الحقل

ليغرسَ الفسائل

وحوله طُلّابُه

يجيبُ كُلَّ سائل

بالجود والبشرِ

يُعلّمُ الفضائل

ويُقرئُ القرآنَ

ويشرحُ المسائل

ما أجمل الحقول

في ساعة الأصائل

أحبّه تلاميذه، وانتفعوا بعلمه واستفادوا من سمته، قال عنه أحدهم، وهو تلميذه أحمد بن خالد ([103]): ما رأيت أزهدَ منه ولا أوقر مجلسا، كان لا يُذكر في مجلسه شيء من أمر الدنيا إلّا القرآن والعلم. وكان مقرئًا للقرآن، رأسًا فيه، مهيبًا، لا يقدرُ أحدٌ أن يتحدَّث بين يديه. وكان الناس في مجلسه سواء، يقعد الأمراءُ وغيرهم حيث انتهى بهم المجلس.

خيرُ الخيرِ

وذات ضحوة بينمَا نحنُ كذلك، نرتوي من علمه بينما يروي زرعه، إذ جاءه رسولٌ من عند السلطانِ يحمل بريدَه، فناولَهُ كتابَهُ، ففضَّ خاتَمَهَ برفقٍ وَقَرَأهُ، ثم استمدَّهُ مدةً وكَتَبَ، ثم طوَى الكتابَ وناولَه لرسول السلطان، وعاد إلى زَرعه، ومتابعة قراءتنا عليه.

فسألناهُ وقلنا لهُ: شيخَنا: رأيناك لم تستغرق إلا مدةً قليلةً مع رسول السلطان؟ فما الخطب؟

فقال لنا: كتب إليَّ يقول: ما خيرُ الخيرِ، وما شَرُّ الشرِّ؟

فكتبتُ إليهِ: خيرُ الخيرِ الصبرُ، وشرُّ الشرِّ شربُ الخمرِ.

فالصبر مفتاح كل خير.

والخمر مبعث كل شرّ.

فالصبر يا أبنائي زادٌ ونبراسٌ، والخمر أم الخبائث.

فتأمّل ذلك السؤال الذي أهمّ الأمير، فأرسل للعالم يسأله، وانظر كيف لم يتكلف العالم في الجواب، ولم يكثر في الكلام. هكذا علت الهمم وتسامت النفوس. ([104])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# بركة العلم وعزة العلماء

كان أَبو الْحَسَنِ الزَّيَّات رَحِمَهُ اللَّهُ من فقهاء الأندلس وصلحائها، ولد في إشبيلية عامَ ٥٩٣هـ وعاش فيها زمنا قبل أن ينتقل منها إلى تونس التي لبِث فيها حتى توفي عام ٦٧٣ هـ، كانت أشبيلية قد سقطت في أيدي الصليبيين عام ٦٤٦ بعد حصار دام سبعة عشر عاما.

«وكان أبو الحسن فقيهًا حافظًا لمذهبِ مالك متصدّرًا لتدريسِه، صابرًا على نَشْر العلم، وَرِعًا فاضلًا، يَعيشُ من عَمل يدِه، عُرِضَت عليه الدُّنيا ومناصبها فزَهِدَ فيها وأعرَضَ عنها.» وكانت له دروسٌ عامّةٌ يؤمُّها طلابُ العلم وغيرُهم من التجار والصُّنَّاع، يفقّه الناس في دينهم، وله دروسٌ خاصةٌ بطلاب العلم.

خَرَجَ ذات يومٍ إلَى بُسْتَانِهِ في الصباح لِيَعْمَلَ فِيهِ؛ كما جرت عادتُه في البكور إلى البستان، وقد اعتاد البساطة في زيّه، فلم يكن الفقيه يتزيّا بزيِّ العلماء إذا خرج للمسجد أو للدرس، ([105]) بل كان يلبسُ كما جرت عادة العوام، وكان يحرص على أن يمشي وحيدا، يتحاشى أن يتبعه أحدٌ، ويكرهُ أن يتبعه طالب علم أو مستفتٍ إذا خرج من المسجد، فلا يترك أحدا يمشي في عقبه، تواضعا منه واتباعا للسنة النبوية.

ومن بساطته وتواضعه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يعمل في حقله بيديه، وكَانَ يَتَّجِرُ فِي الزَّيْتِ، وَكَانَ يساعد أهله في شؤون البيتِ يَخْرُجُ بالجرةِ لِيَمْلَأَ الْمَاءَ مِنْ النهر، ثُمَّ يحمله إلَى دارهِ، فَإِنْ لَقِيَهُ أَحَدٌ وَسَأَلَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهُ أَبَى ذَلِكَ عَلَيْهِ إلَّا أَنْ يَحْلِفَ فَيَبَرّ قَسَمَهُ، وبلغ به الورع أن كان يطحن القمح في بيته بنفسه، لا يذهب به إلى الطاحونة، خشية أن يبدِّله الطَّحانُ بطحينِ غيرِه، فيخلطَ الجيدَ بالرديء، فيأخذ ما ليس له، وكان يستغلُّ وقت الطحن في قراءة القرآن.

ذات يوم بينما هو في الطريق إلى بستانه، إذ بِبَعْضِ الظَّلَمَةِ من أعوان السلطان، يستوقفونه، ويجبرونه على المضي معهم للعمل فِي بُستَانِ السُّلْطَانِ فَمَضَى مَعَهُمْ، دون أن يعترض، وَمكث يَعْمَلُ مَعَهُمْ إلَى أَنْ جَاءَ الْوَزِيرُ بعد أن انتصف النهارُ ليتفقدَ العمل، ودَخَلَ لَلِبْسَتَانِ، فوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى الشَّيْخِ، وَهُوَ يَعْمَلُ، فَانحنى وأكَبَّ عَلَى قَدَمَي الشيخ يُقَبِّلُهُمَا، وَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي مَا جَاءَ بِك هُنَا؟

فَقَالَ الشيخ بغضب: أَعْوَانُكُمْ الظَّلَمَةُ، جاءوا بنا.

فَقَالَ الوزيرُ: يَا سَيِّدِي عَسَى أَنَّك تُقِيلُنَا عن هذا الخطأ، وَتَخْرُج مكرَّمًا!

فَأَبَى الشيخ الخروج.

فَقَالَ لَهُ متعجبا: وَلِمَ لا تمضي يا سيدي إلى بستانك؟

قَالَ الشيخ: وهَؤُلَاءِ! وأشار إلى من استخدموهم سُخْرةً، أليسوا إِخْوَانِي وإخوانك مِنْ الْمُسْلِمِينَ؟ كَيْفَ أَخْرُجُ وَهُمْ فِي ظُلْمِكُمْ؟ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ أبدًا، فَسَأَلَهُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِمْ فَأَبَى الشيخُ، فَقَالَ لَهُ الوزير متعجبا: وَلِمَ لا تخرج بهم الآن؟

فَقَالَ لَهُ: غَدًا تَأْخُذُونَهُمْ وتُجبرونهم، إنْ كَانَتْ لَكُمْ بِهِمْ حَاجَةٌ؛ فما الفائدة إذن؟

فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ هُنَاكَ، حَتَّى تَابُوا إلَى اللَّهِ تَعَالَى، وعاهدوا الشيخ أَنْ لَا يَسْتَعْمِلُوا أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ بغير حقٍّ. ([106])

## القرطبي في ثياب زوجته أمام القاضي

عرفنا الإمام القرطبي من خلال كتابه الذائع التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة كما عرفناه من تفسيره القيم الجامع لأحكام القرآن، وكتابه الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، قال عنه الإمام الذهبي رحمه الله في تاريخ الإسلام:» العلاّمة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، إمام متفنِّنٌ، متبحِّرٌ في العلم، له تصانيفُ مفيدة، تدلُّ على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله، ... وقد سارت بتفسيره الركبان، وله الأسنى والتذكرة، وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه.»

هذا هو الإمام الحبرُ البحرُ المفسر الواعظ!

فماذا عن حياته الخاصة؟ ماذا عن القرطبي في بيته؟ ومع أهله؟

كيف يقضي وقتَه في بيته؟ هيا بنا نقضي صباحا في صحبة الشيخ رحمه الله، وهو في بيته مع زوجته وطفل له.

ها هو الآن في صالة بيته إلى جانب النافذة، يطالع في كتاب، لكن ما هذا الثوب المنقوش الذي يرتديه؟

إنه ثوب زوجته!

ثوب زوجته لماذا؟

لأن ثوبه الوحيد تغسلُه زوجته الآن، فاضطر لارتداء ثوبها، ريثما يجفُّ، وبجانبه طفله الصغير، يشغله ويلاعبه، بينما يتصفَّح كتابَه شعر بالجوع، فأشارت عليه زوجتُه أن يذهب بالعجين الذي أعدَّته إلى الفرن ليخبزه، فأخذ الطبقَ على يده، لم يستنكف من ذلك، كيف وقد كان يأخذ الجرة إلى النهر، فيملأها ويحملها إلى بيته، فإن قابله أحد وعرض عليه المساعدة، وسأله أن يحمل عنه أبى ذلك عليه إلا أن يحلف فيبرَّ بقسمه، وربما يستوقفُه البعضُ وهو حاملٌ

لجرةِ الماء فيستفتيه، أو يسألَه عن شيء عَرَضَ له في معاني القرآن، فيجيبُ بصدرٍ رحب، ويمضي وجرّته على كتفه، أو بين ذراعيه.

خرج الشيخُ إلى الفرن، وطبق العجين في يده، والطفلُ بذراعه الأخرى يضمُّه إلى صدره، بينما يرتدي ثوب زوجته، فلقيته امرأة عجوزٌ وطلبت منه أداء شهادة عند الحاكم، لواقعة كان قد شهدها، فقال لها: أمهليني حتى أخبز العجين، وأعيده للبيت، وألبس ثوبي بعد أن يجفَّ، لكنها استعجلته وألحّت عليه بل وتشبثت به، فذهب معها في الحال، وهو على تلك الحالة، ثوب امرأته على جسده، والعجين على يده، وولده على كتفه، وسار بجانبها، ولسانه يردد من القرآن آيات حتى جاء إلى القاضي وجماعة الشهود عنده، فذُهل الجميع لمنظره، لكنه لم يبال بذلك، وأدّى الشهادة.

فقال له القاضي: أيها الفقيه: ما حملك على أن تأتي على هذه الحالة؟

فقال له: غسلتُ ثوبي ولم أجد شيئا ألبسه، فلبست ثوب الزوجة وكنت أشغل طفلي عن أمه، ثم احتجنا إلى الخبز، فخرجتُ للخباز، فلقيتني هذه المرأة، وطلبت مني أداء الشهادة، وهي واجبة علي فخفت أنه لا يطول العمر فبادرت إلى خلاص الذمة، فقلت أؤدي الشهادة، وبعدها أدرك قضاء حاجتي.

فرد القاضي رأسه إلى من حوله، فقال لهم أفيكم من يقدرُ أن يفعل مثل هذا؟

فقالوا: لا.

فقال: وأين العدالة إذن؟ ([107])

هكذا كان رحمه الله متواضعا بسيطا في لبسه، لا يتكلَّف في ذلك، بل يلبس الثياب الرخيصة، فلا يميِّز نفسه بزيٍّ، ولا يحرص على شهرةٍ أو ظهورٍ، مع إمامته في التفسير والفقه والملل والنحل والوعظ.

## خبزة القاضي

وما أكثر تلك الحكايات التي نتعلم منها البساطة والتواضع، من ذلك، ما حكاه محمد بن عمر بن لبابة عن محمد بن أحمد العتبي قال: صلى بنا يوماً سعيد بن سليمان القاضي صلاة الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة، ثم خرجنا معه نمشي نحو داره، فلما انتهى إلى باب الفرن الذي كان يطبخ فيه قال لصاحب الفرن: أطبختَ خبزتي؟ فقال له: نعم. قال: فهاتها. فناوله إياها، فحملها، وأخذ طريقه إلى داره، ونحن نمشي معه، ونحن قد أخّرنا دوابَّنا إجلالاً له، حتى ودَّعناه إلى منزله، فسلَّم علينا ودخل وانصرفنا عنه.

القاضي مسرور

وحكى محمد بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزرّاد، قال: كان عندنا بقرطبة قاضٍ يعرف بمسرور، وكان من الزهاد؛ استأذن من حضره من الخصوم يوماً في أن يقوم لحاجة يقضيها فأذنوا له، فقام عنهم نحو منزله، ولم يلبث أن خرج وفي يده خبزةٌ نية، فذهب بها إلى الفرن، فقال له بعضُ من رآه: أنا أكفيك أيها القاضي!

فقال له: فإذا أنا عُزِلْتُ عن القضاء - قرَّبه الله تعالى مني - تراني أجدُك كلَّ يوم تكفيني حملَها؟

ما أراك تنشطُ لذلك! بل الذي حملَها قبل القضاء يحملُها بعد القضاء. ([108])

هكذا يتواضع العظماء، ويتعاملون ببساطة مع الآخرين، لا يتّكلون على غيرهم ولا يثقلون على من حولهم، ولا يستنكفون من القيام بأعمال المنزل، وحمل الخبز وشراء الطعام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حريق طليطلة والحرزُ

طليطلة مدينة عتيقة ساحرة تتوسَّط بلاد الأندلس، وتستقرُّ على سفح جبل عالٍ، تحت قدميه يمرُّ نهر التاجُه، من فوقه جسر عظيم، بني من قوس واحد، على أروع ما يكون، ليربط بين ضفتي النهر، ومن خلف هذا المشهد جبل الشارة، بسفحه الثلجي أشبه ما يكون برأس نسر، حيث يذوب الماء رويدا رويدا وينحدر عبر أخاديد خُطّت في الجبل إلى النهر، ثم يرتفع مرةً أخرى عبرَ ناعورة كبيرة، ليصبَّ في قناة تجري متشعّبة في سكك المدينة، فتسقي بيوتها وحدائقها.

ومن أبراج قصر طليطلة لو نظرتَ سيتراءى لك النهرُ في صورة وشاح أزرق، وفوقه الجسرُ كإسورة من فضة تحيط بمعصم حسناء.

في هذه المدينة الساحرة عاش الفقيه المحدث ابن ميمون ([109]) الذي اشتهر بحدَّة الذكاء وقوة الحافظة، والدقة والإتقان، «وكان من أهل الخير والطهارة، والحشمة، مقبلاً على طريقة الآخرة، وحيداً بلا أهلٍ ولا ولد».

له رحلة طويلة في طلب العلم، سمع بالحجاز ومصر وبلاد الشام وبلاد المغرب، ثم انصرف إلى طليطلة واستوطنها ورحل الناسُ إليه، يتعلمون منه.

كان مولعًا باقتناء الكتب ونسخِها، حتى جال الحواضرَ والأمصارَ، يشتري الكتب، ويبذلُ في ذلك النفيس من ماله، أو يستعيرها وينسخها بنفسه.

شيّد ابنُ ميمون مكتبةً نفيسةً زاخرة في بيته الملاصق للسوق التي كانت تعجُّ كل صباحٍ بالحركة وتموج بالناس وتضجُّ بأصوات الباعة وأهازيجهم البديعة وهم يروِّجون للبضائع.

وذات يوم اشتعلت النار في السوق، وارتفعت ألسنةُ اللهب والدخان في نواحيها، فالتهمت اليابس والأخضر، واحترقت كثيرٌ من الدكاكين، وامتدت النيران للدور الملاصقة، وكانت دار ابن ميمون هدفًا لها، فاحترقت بطوابقها الثلاث، ومن لطف الله أنه كان غائبا ذاك الوقت لم يشهد الحريق الذي التهم منزله بطوابقه الثلاثة، إذ كان قد خرج للثغور مرابطا في سبيل الله.

لكن ماذا عن مكتبته الزاخرة؟ ما مصيرها؟ وفيها من النفائس والنوادر والذخائر ما فيها؟

هل ستقدِّرُ النار أن هذه المكتبة أفنى ابن ميمون عمره وماله، وقضى أسفاره وترحاله في جمعها؟!

لقد جمع من أمهات الكتب كثيراً في كل فنٍّ، وكانت جلُّها منسوخةً بخط يده، بدقة متناهية، قلّما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم، وكان لا يزال يتتبّع ما يجدُه

في كتبه من السَّقطِ والخلل، بزيادة في اللفظ أو نقصان منه؛ فيصلحه حيث ما وجده، ويعيده إلى الصواب.

فماذا عن مكتبته؟ حصاد عمره؟ هل ستحترق؟

كلا والله بل حفظها الله بحفظه، احترقت الدار بطوابقها الثلاث، إلا الموضع الذي كانت فيه كتبه.

وعجب الناسُ من ذلك، وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه.

كانت كتبه أصح كتب بطليطلة، فكان حفظُها آية من آيات الله. ([110])

وكم لله من لطفٍ كريم! وتدبير حكيم! فسبحان من كفَّ النارَ عن المكتبة، كما جعلها بردا وسلاما على إبراهيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حكايات من صقلية (١)

# سلطانُ العلم

على مرسى مدينة سوسة في تونس الخضراء اصطفت مجموعة من السفن تتجهّز للإبحار، وعلى الرصيف حشدٌ كبيرٌ من الجنود، وجموعٌ غفيرة من المودعين.

كانت الكلمة العليا في البحر الأبيض للمسلمين، الذين تفوَّقوا عسكريًّا على غيرهم، ([111]) وطوّروا صناعة السفن، وبرعوا في قيادتها، واخترعوا الآلات، كالإسطرلاب وغيره، وتركوا بصمات واضحةً لا تزال آثارها باقية في قاموس المصطلحات البحرية. ([112])

أمر أمير القيروان أن يخرج الجميع ليشيِّعوا أسطول المجاهدين وقائده أسد بن الفرات. فخرج وجوهُ أهل العلم وأشرافُ البلاد، والعامة مشيِّعين ومودِّعين.

منظرٌ مهيبٌ ومشهدٌ حافلٌ، أثَّر في الشيخِ تأثيرًا عظيما، وأعاد لذاكرته ماضيَه ورحلة كفاحه في طلب العلم، حيث سافر من بلاد المغرب إلى مصر والحجاز والعراق، حتى رفعه اللهُ بالعلم فتبوَّأ هذه المكانة.

تذكَّر القائد خروجه راحلا في طلب العلم يسافر بين الأقطار، ويتحمّل الصعاب ويواجه التحديات، وها هو اليوم يسطّر ملحمةً أخرى، وهو على رأس أسطولٍ عظيم.

تذكر الأميرال أسد بن الفرات في هذه اللحظات وصية الإمام مالك له حين ودّعه، وكان قد لازمه زمنا ينهلُ من علمه وأدبه، ويقتبس من بهائه ووقاره، فلما أراد الخروج إلى العراق أتى مع رفيقين له مودِّعين شيخَهم إمام دار الهجرة، فقالوا له أوصنا.

فالتفت إلى صاحبيه وقال لهما: أوصيكما بالقرآن خيراً.

والتفت إلى أسد بن الفرات، وقال: أوصيك بهذه الأمة خيراً.

فأقبل صاحباه على العبادة والقرآن، وولي أسدٌ القضاء، ثم قيادة الأسطول البحري الفاتح.

إنها فراسة العالم ونور المؤمن! ([113])

وكان للإمام مالك هيبةٌ عظيمة في قلوب تلاميذه، كانوا يتهيبون سؤاله، وربما أوعزوا إلى صاحبهم أسد بن الفرات أن يسأله، نظرا لجُرأته، وكان الإمام

مالك يحبّه ويقدّمه، وقد قيل عن الإمام:

يأبى الجواب فلا يُراجعُ هيبةً

والسائلون نواكسُ الأذقان

أدبُ الوقار وعزُّ سلطان التقى

فهو المطاعُ وليس ذا سلطان

قال ابن الفرات: وكان ابن القاسم وغيره يحملني أن أسأل مالكًا، فإذا أجابني، قالوا لي: قل له: فإن كان كذا وكذا؟ فضاق عليه يومًا، وقال هذه سلسلة بنت سلسلة. إن كان كذا كان كذا. إن أردتَ فعليك بالعراق.

فأزمعتُ الرحيل إلى العراق، فلما ودعتُه حين خروجي إلى العراق، دخلتُ عليه وصاحبان لي، وهما حارث التميمي وغالب صهر أسد. فقلنا له: أوصنا. فقال لي أوصيك بتقوى الله العظيم والقرآن ومناصحة هذه الأمة خيراً. وقال لصاحبي: أوصيكما بتقوى الله والقرآن ونشر هذا العلم. يا لها من فراسة! رحم الله الإمام مالكا! ما زالت هذه الوصية محفورة في ذاكرة أسد بن الفرات، وها هو الآن يستدعيها، وقد دقّت الطبول وخفقت البنود، واصطف الجنود استعدادا لركوب السفن التي ستقلع بهم شمالا إلى شواطئ صقلية، وقد ودّعوا أهليهم، واستودعوا عند الله أبناءهم، وهم يمُنُّون أنفسهم بإحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة.

نظر القائد لذلك الجمع الغفير من الأمراء والوزراء والوجهاء والفقهاء والتجار وغيرهم، ممن تعلَّقت آمالُهم وقلوبُهم بهؤلاء المجاهدين الذين سيخوضون لُجَّةَ هذا البحر لمواجهة القراصنة وأساطيل الروم، كان الهدف من هذه الغزوة تأمين البر والبحر، وكف الاعتداء الآثم، إذ كان القراصنة والروم يغيرون على حواضر الإسلام، ويقطعون السبيل على مراكب الحجيج والتجار، لكن الغاية الأسمى من هذا الأسطول البحري: رفع راية التوحيد في تلك البلاد.

وحين نظر أسدٌ إلى الجنود على المرفأ، وهم في وداع ذويهم، وأصوات بكاء النساء والأطفال، عاد شريط الذكريات، عندما رحل من المدينة إلى العراق بعد سماع الموطأ وأخذ الكثير من المسائل عن الإمام مالك.

قال: فلما دخلتُ الكوفة، أتيت أبا يوسف، فوجدته جالساً ومعه شابٌّ وهو يملي عليه مسألة، فلما فرغ منها قال ليت شعري ما يقول فيها مالك؟ قلت كذا وكذا، فنظر إليّ، فلما كان في اليوم الثاني كان مثل ذلك، وفي الثالث مثله، فلما افترق الناس دعاني، وقال، من أين أنت؟ ومن أين أقبلت؟ فأخبرتُه. قال وما تطلب؟ قلت ما ينفعني الله به، فعطف عليّ الشاب

الجالس، فقال ضمّه إليك، لعل الله ينفعك في الدنيا والآخرة. فخرجت معه إلى داره، فإذا هو محمد بن الحسن، فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه.

قال أسد: قلت لمحمد بن الحسن أنا غريب والسماعُ منك قليل! قال اسمع العراقيين بالنهار، وجئني بالليل وحدك تبيتُ معي، فأسمعك.

فكان إذا رآني نعستُ نَضَحَ بالماء وجهي، وكان أسد بن الفرات متقشِّفًا متعفِّفًا، لا يطلب من أحدٍ، قال: ورآني محمد بن الحسن يومًا أشرب ماء السبيل، فقال لي، تشربه؟ فقلت له أنا ابن سبيل، فلما كان الليل بعث إليّ بثمانين ديناراً، وقال ما عرفتُ أنك ابنُ سبيل إلا الآن، فلما أراد الانصراف إلى إفريقية لم يكن عنده ما يستعين به على رحلة عودته، فذكر ذلك لمحمد بن الحسن، فقال له، أَذكرُ شأنك لولي العهد، فلقيه ابن الحسن وذاكره أمره، ثم قال لأسد، قف بالحاجب يوم كذا يدخلك عليه، واعلم أنك حيث تُنْزِلُ نفسَك أنزلوك.

فمضى أسد واستأذن، فأُذِنَ له فدخل حتى انتهى إلى موضع أُمِرَ بالجلوس فيه، ومضى الخادمُ الذي أدخله، فجاء بمائدة مغطَّاةٍ، فجعلها بين يديه، قال أسدٌ ففكرتُ، وقلتُ ما أرى هذا إلا منقصةً.

وقلت للخادم، هذا الذي جئتني به منك أو من مولاك؟ قال مولاي أمرني به.

قلت: مولاك لا يرضى بهذا، يأكل ضيفُه دونه.

يا غلام هذا برٌّ منك، وجبتْ مكافأتُك عليه، وكان في جيبي أربعون درهمًا لم يبق معي سواها فدفعتُها إلى الخادم، وقلت له ارفع مائدتك، ففعل وعرّف مولاه، فبلغني أنه قال: رجلٌ حُرٌّ والذي لا إله إلا هو، ثم قال للخادم أدخله، فدخلتُ عليه، وهو على سريرٍ ومعلّمُه على آخر، وسريرٌ ثالثٌ، فأمرني بالجلوس عليه، فجلستُ، وجعل يسائلني وأجيبه، فلما قرب انصرافي كتب رقعة وختمها ودفعها إليّ، وقال قف بهذا إلى صاحب الديوان وعُدْ إليَّ. فأخذت الرقعة. ولقيت محمداً من الغد فسألني، فأعلمته، فقال لي أوصل الرقعةَ الساعةَ، ففعلتُ، فدفع إليّ صاحب الديوان عشرة آلاف درهم، فأعلمت محمد بن الحسن فقال لي: لا تعد إليه كما أمر.

قلت لم؟ قال إن عدتَ إلى القوم صرتَ لهم خادماً، وفيما أخذتَ عونٌ لك على رحلة عودتك.

دارت كلُّ هذه الذكريات في نفس الفارس الأبيّ أسد بن الفرات، رحيلٌ وصبرٌ وسهرٌ وتعفُّف، وشجاعة في الحق، طريق طويل، أفضى به إلى هذه المنزلة، يقود الآن جيش المسلمين الذي سيفتح صقلية.

طالب علم فقير، يتجول في بلدان العالم الإسلامي، كان يشرب من ماء السبيل، ويتعفف عن السؤال، ودارت الأيام، وها هو الآن يقود هذا الأسطول في طريقه لمعركة سيخلِّدُها التاريخ، وفتح سيكونُ له أثر عظيم، حتى يومنا هذا! وها هو يشيعه الوزراء والأمراء والوجهاء، ويحفّونه بمظاهر التكريم والتبجيل؟

تُرى هل ناله الغرورُ والعجبُ، هل أصابه التعالي والكبر؟ هل ثنى عطفَه خُيلاء؟ والأنظار كلها مصوّبة عليه، والآمالُ معقودةٌ على قيادته الحازمة وسياسته الراشدة!

كلا والله! بل حين نظر للناس حوله محتشدين من كل جهة، وقد صهلت الخيل وضربت الطبول وخفقت البنود، قال بصوته القويّ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر المسلمين ما ولي لي أبٌ، ولا جدٌّ، ولا رأى أحدُ الناس من سلفي، مثل هذا التكريم والاحتفاء، ولا بلغتُ ما ترونه إلا بالأقلام، فاجتهدوا يا رعاكم الله، واحملوا أنفسكم على ذلك، وثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة.

درسٌ عظيمٌ في هذا المشهد المهيب في فضل العلم، الذي يرفع الله به من يشاء.

وبعد أن انتهى مشهدُ الوداع وتزايل المودِّعون والمودَّعون، وافترق الأحباب، وعاد الأهل والأصحاب إلى بيوتهم، اصطف الجنود على حافة المرفأ لركوب السفن، ركب الفرسان بأحصنتهم، وعددهم تسعمائة، ثم ركب الجنود المترجلون وقد بلغوا عشرة آلاف راجل ونوتية.

وعلى رأسهم أسدٌ هصورٌ سيثبتُ ذلك في ميدان الوغى، كما أثبته من قبل في ميدان العلم، إذ «كان رحمه الله قويًّا في الحق حازما سديد الرأي، وكان يقول عن نفسه: أنا أسد وهو خير الوحش وأبي الفرات وهو خير المياه وجدي سنان وهو خير السلاح».

وسارت السفن باسم الله وعلى بركة الله، منحدرةً صوب الجنوب، كالصقر الذي ينقضُّ على فريسته، وفي غضون ساعاتٍ وصلت لجزيرة صقلية، وكانت أولى المعارك، حيث لقي أسطولُنا ملكَها في جيشه الذي بلغ مائة وخمسين ألفًا، فحمل أسدٌ اللواء في يده، وأقبل على قراءة سورة يس؛ ثم حرّض الناس، وحمل وحملوا معه، فهزموا جموع النصارى.

وفتح الله الجزيرة على يد هذا القائد وانتشر فيها العدلُ والتسامح، وبقيت قرنين من الزمان تحت راية الإسلام في ارتقاء وازدهار، حتى سقطت في يد

الصليبيين سنة خمس وخمسين وأربعمائة، بعد أن سطّر المسلمون صفحات مضيئةٍ من البطولات والمآثر في تلك الأرجاء. ([114])

ولا تزال آثارُهم وبصماتُهم باقيةً على هذه الجزيرة إلى الآن، فقد تعلَّم أهلُها منهم الكثير والكثير.

ففي باليرما (Palerme) التي اتخذها المسلمون عاصمة لهم أنشأوا مدرسة للطب لا مثيل لها في أوروبا النصرانية آنذاك، وعلى غرار هذه المدرسة، أنشئت مدارس للطب في بلاد إيطاليا. وعلى يد طبيب قدم إلى جنوب إيطاليا من بغداد. وهناك أدلة أخرى ملموسة لمساهمة العرب في تأسيس جامعة سالرنو. ([115])

كما عرفت الجزيرة زراعة القطن وقصب السكر والفستق على أيدي الفلاحين العرب. ([116])

وانتقلت صناعة الورق لأوروبا عن طريق صقلية والأندلس.

وترجمت عبر صقلية كثيرٌ من كتب الطب والأغذية، وعُرِفت هندسة الريِ، التي برع فيها المسلمون، وما زالت هندسة الري وقوانينه هي السائدة في تلك الجزيرة، كما انتقلت كثير من العادات العربية والأكلات والملابس إلى تلك الجزيرة، ومنها لسائر إيطاليا، وكذلك الحال انتقل الطراز العربي في المعمار والزخرفات إلى صقلية ومنها لإيطاليا.

ورحل العرب وبقيت العربية هناك ممثلة في العديد من الكلمات التي لا تزال متداولة هناك.

لقد كان المسلمون حاملي مشاعل التنوير ورايات الرقي والتحضر، فكانت فتوحاتهم بركة ورحمة، لم تكن قائمة على أطماع أو أحقاد كما الحروب الصليبية وغيرها، لكن الفتوحات الإسلامية، حملت الخير للإنسانية.

تقول الألمانية سيغريد هونكه:» لكن هذه الفتوحات العربية كانت غريبة في نوعها حقًا، كانت فتوحات لم يقصد المنتصرون من ورائها القيام بأعمال النهب والسلب أو العنف والتخريب، وكل ما يذكر عن تعصبهم الأعمى أو قسوة قلوبهم وخشونة طباعهم وبربرية أعمالهم كذب وافتراء وهو يدخل في باب الأساطير التي تؤلف لإلقاء الرعب في نفوس الناس، وأنها دعاية من صنع أعداء العرب وخصومهم. ([117])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

# حكايات من صقلية (٢)

# قلبي قلبي

حدثت هذه القصة العجيبة في جزيرة إقريطش «كريت»، التي تقع في جنوب اليونان، وقد حكاها الحسن بن محمد الإقريطشي، وكان رجلا معمّرًا، بلغ المائة، وهو صحيحُ التمييز، سليم الحواس.

عمّر هذه الجزيرة الأندلسيون الذين حلوا بها، وهم في الأصل من سكان حي الربض المتاخم لقصر الإمارة بقرطبة، كانوا قد خرجوا على الأمير الحكم، وخلعوا بيعته، فتمكَّن منهم ونكّل بهم وطردهم من ديارهم، فخرجوا بالآلاف، وركبوا البحر واستقروا بالإسكندرية، وغلبوا عليها فحكموها، ثم انتقلوا بالبحر إلى جزيرة كريت ففتحوها، سنة ٢١٢هـ، بعد فتح صقلية بثماني سنوات، وحكموها أكثر من قرن، هددوا من خلال موقعها سفن الروم وسواحلهم، فذاق الروم منهم الأمرّين. ([118])

قال الراوي: حمل المجاهدون بإقريطيش « جزيرة كريت» على الروم، وأصابوهم بخسائر فادحة، وألحقوا بهم ما يكرهونه، فاغتاظ ملكُ الروم من هذا، واستشاط غضبه، ونذر أن يحارب إقريطش، وينكّل بأهلها ولو أنفق ذخائرَ مملكته في حربها، وعمد إلى راهب من أبناء الملوك، منقطعٌ عن الدنيا، عزفت نفسه عن شهواتها، حتى شاع بين الناس أمر زهادته وتنسّكه، وتناقلوا أخباره، وعلم الملكُ حقده الدفين على الإسلام والمسلمين، فأنزلَه من الدير، وضمَّ إليه أكثر جيوشه، فوافى بسفنه وجنده وعتاده إقريطش مباغتا أهلها، وأحاط بجموعه الحاشدة سواحل الجزيرة، يقول الراوي: ففزعنا إلى غلق أبواب المدينة، وشرع العدو في نصب خيامهم، وخرجوا من المراكب، وأحكموا الحصار فقطعوا البلدة عن الحقول والبساتين والعيون، واستولوا على المحاصيل، واشتد بنا الحصار، وارتفعت الأسعار، وشحّ المخزون، وعم الجَهد وطمّ البلاء.

ولما طال الحصار زادت المكاره، حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعا واضطرارا، وأجمعوا على أن يفتحوا الباب للروم، ويستريحوا من هذا العناء، وهم يعلمون قسوة العدو الذي جاء بحقد أسود، وأنهم لا عهد لهم ولا أمان، لكن ما الحيلة فلا قوة تدحرهم ولا ناصر يدفعهم.

فقال لهم شيخ من المسلمين: إني أراكم قد حُرِمتُم التوفيق، فالصواب: أن تقبلوا مني ما أشير به عليكم.

توبوا إلى الله عز وجل من قبيح ما حملكم عليه تظاهرُ النعم وطولُ السلامة، وأخلصوا له إخلاص من لا يجد فرجة إلا عنده، وافصلوا صبيانكم من رجالكم، ورجالكم من نسائكم.

فلما ميّزهم هذا التمييز صاح بهم: عُجُّوا بنا إلى الله. اجأروا إليه تضرّعوا له، استغيثوا به!

فعَجّوا عَجّة واحدة، وبكى الشيخ واشتدّ بكاءُ المسلمين وعلا صراخُهم وارتجت الجزيرة بالدعاء يا الله يا الله يا الله.

ثم قال الشيخ: عُجُّوا أخرى، ولا تشغلوا قلوبكم بغير الله.

فعَجوا عَجة أعظم من الأولى وكثُر بكاؤهم. ثم عجَّ الثالثة، وعج الناس معه يا الله يا الله يا الله يا لطيف يا ودود يا جبار يا قهار.

ثم قال باطمئنان ويقين: الآن تشرفون من الحصن وتنظرون، فإني أرجو الله أن يكون قد فرج عنا.

قال ابن الداية أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم البغدادي، والذي سمع الحكاية من راويها وشاهدها: فحلف لي الحسن بن محمد فقال: والله لقد أشرفت مع جماعة، فرأينا الروم قد انفضُّوا، وركبوا مراكبهم، ولجُّوا في البحر، وفتحنا الحصن، فوجدنا قوما من بقاياهم، فسألناهم عن خبرهم، فقالوا: كان الراهب عميد الجيوش بأفضل حال اليوم، يروح ويغدو، يأمر وينهى، ويُرعد ويزمجر كالأسد في عرينه، حتى سمع ضجَّتكم بالمدينة، فوضع يديه على أذنيه، ثم على قلبه، وصاح: «قلبي، قلبي».

وكأن عجيجكم قذائفُ مصوبةٌ لقلبه!

ثم أخذ يرتجف، وأشار لجيشه أن ينصرف، بأسرعَ ما يكون، ويدُه على قلبه، فانصرف من كان معه من الجيوش إلى بلاد الروم.

أي سلاح هذا؟ الذي ردع هذا الكافر وزلزل قلبه! إنه سلاح العجّ، سلاح اللجوء إلى الله ...التضرع اليه ... التعلق به.. البكاء بين يديه.. الاعتصام به. قذف الله الرعب في قلوب الأعداء وهزمهم، وردهم على أعقابهم، فسبحان من قلوب العباد بين أصابعه.

وبعد هذا النصر المجيد، بقي أن الناس في كرب شديد بسبب الجوع، قال الحسن: فوجدنا في الخيام والأبنية التي خلّفها العدو من القمح والشعير ما وسع أهلَ المدينة وعاد إليها معه خصبُها، بعد أن عاد الناس لحقولهم وبساتينهم، وكفى الله جماعتهم بأس الروم من غير قتال، والحمد لله.{وَرَدَّ

للّهُ لّذِينَ كَفَرُواْ بِغَ ظِهِۭ لَ يَنَالُواْ خَ ۡرٗ وَكَفَى للّهُ
ۡمُ مِنِينَ قِتَا وَكَانَ للَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا} [الأحزاب: ٢٥] . ([119])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

## حكايات من صقلية (٣)

# عندما غارت الحوراء!

حكى ابن المبارك بسنده عن شيخ من المرابطين يدعى أبا إدريس المدني:قَالَ: «قَدِمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ زِيَادٌ فَغَزَوْنَا صِقِلِّيَّةَ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ، فَحَاصَرْنَا مَدِينَةً، وَكُنَّا ثَلَاثَةً مُتَرَافِقِينَ: أَنَا، وَزِيَادٌ، وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

فَإِنَّا لَمُحَاصِرُونَ يَوْمًا، وَقَدْ وَجَّهْنَا أَحَدَنَا؛ لِيَأْتِيَنَا بِطَعَامٍ، إِذْ أَقْبَلَتْ قذيفة لهب من مَنْجَنِيق، فَوَقَعَتْ قَرِيبًا مِنْ زِيَادٍ، فَشَظِيَتْ مِنْهَا شَظِيَّةٌ، فَأَصَابَتْ رُكْبَةَ زِيَادٍ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، فقمت بجرِّه إلى المعسكر، وَأَقْبَلَ صَاحِبِي، فَنَادَيْتُهُ، فَجَاءَنِي فَبَرَزْنَا بِهِ حَيْثُ لَا يَنَالُهُ الْقَتْلُ وَالْمَنْجَنِيقُ، فَمَكَثْنَا طَوِيلًا مِنْ صَدْرِ نِهَارِنَا لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ افترَّ ضَاحِكًا حَتَّى بانت نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ سكن، ثُمَّ بَكَى حَتَّى سَالَتْ دُمُوعُهُ، ثُمَّ سكن، ثُمَّ ضَحِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فعجبنا من حاله، ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً، فَأَفَاقَ، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ:

مَا لِي هَاهُنَا؟

فَقُلْنَا: أَمَا عَلِمْتَ مَا أَمْرُكَ؟

قَالَ: لَا. قَالَ: أَمَا تَذْكُرُ الْمَنْجَنِيقَ حِينَ وَقَعَت شظيةٌ منه إِلَى جَنْبِكَ؟

قَالَ: بَلَى. فَقُلْنَا: فَإِنَّهُ أَصَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ، فَأُغْمِيَ عَلَيْكَ، وَرَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: نَعَمْ، أُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ أُفْضِيَ بِي إِلَى غُرْفَةٍ واسعة مِنْ يَاقُوتَةٍ أَوْ زَبَرْجَدَةٍ، وَأُفْضِيَ بِي إِلَى فُرُشٍ مَوْضُونَةٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ سِمَاطَانِ مِنْ نَمَارِقَ، فَلَمَّا اسْتَوَيْتُ قَاعِدًا عَلَى الْفِرَاشِ، سَمِعْتُ صَلْصَلَةَ حُلِيٍّ عَنْ يَمِينِي، فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ، فَلَا أَدْرِي أَهِيَ أَحْسَنُ، أَوْ ثِيَابُهَا، أَوْ حُلِيُّهَا؟ فَأُخِذْتُ إِلَى طَرَفِ السِّمَاطِ، فَلَمَّا اسْتَقْبَلَتْنِي، رَحَّبَتْ، وَسَهَّلَتْ، وَقَالَتْ: مَرْحَبًا بِالْجَافِي، الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَسْنَا كَفُلَانَةَ امْرَأَتِهِ!

فَلَمَّا ذَكَرَتْهَا بِمَا ذَكَرَتْهَا بِهِ ضَحِكْتُ، وَأَقْبَلَتْ حَتَّى جَلَسَتْ عَنْ يَمِينِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا خُودُ زَوْجَتُكَ. فَلَمَّا مَدَدْتُ يَدَيَّ، قَالَتْ: عَلَى رِسْلِكَ، إِنَّكَ سَتَأْتِينَا عِنْدَ الظُّهْرِ، فَبَكَيْتُ، فَحِينَ فَرَغَتْ مِنْ كَلَامِهَا، سَمِعْتُ صَلْصَلَةً عَنْ يَسَارِي، فَإِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ مِثْلِهَا في الحسن والجمال، فَصَنَعَتْ كَمَا صَنَعَتْ صَاحِبَتُهَا، فَضَحِكْتُ حِينَ ذَكَرَتْ زوجتي أمَّ عيالي، وَقَعَدَتْ عَنْ يَسَارِي، فَمَدَدْتُ يَدَيَّ، فَقَالَتْ: عَلَى رِسْلِكَ، إِنَّكَ تَأْتِينَا عِنْدَ الظُّهْرِ فَبَكَيْتُ.

قَالَ: فَكَانَ قَاعِدًا مَعَنَا يُحَدِّثُنَا، فَلَمَّا أذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مَالَ على جنبه الأيمن، فَمَاتَ رحمه الله، وجمعنا به في الجنات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# حكايات من صقيلة (٤)

من صقلية لإشبيلية

طارقُ السَّعد

في سرقوسة بجزيرة صقلية عام ٤٤٧ه ولد عبد الجبار بن حمديس الصقلِّي، إبَّان حكم العرب لها، ونشأ فيها، وتعلم الأدب، حتى صار شاعرًا بارعًا، واضطُر إلى الخروج من جزيرة صقلية بعدما ضعُف الحكم الإسلامي لها، وأصابت المسلمين نيرانُ الفرقة، وبدأ الصليبيون يتمكنون رويدا رويدا، فآذنت شمس الإسلام بالمغيب عن هذه الجزيرة، وشَرَعَ بدر الحضارة في الأفول، وبدأت مدائن صقلية تتساقط تباعًا أمام العدو، كما تتساقط أوراق الخريف، حتى كان السقوط الأخير سنة ٤٨٤هـ.

لم ينتظر صاحبُنا شهودَ هذه اللحظات العصيبة، بل بادر بالخروج من صقلية، فأبحر إلى تونس، ثم عبر إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ،، وذهب لإشبيلية تلك المملكة الفتية الغنيّة التي يحكمها الأديب المعتمد بن عباد.

خرج وليس معه مالٌ ولا صنعة، لا يجيد سوى نسج الشعر وسبكه ونظمه.

كان من أبرع من وصف الطبيعة في شعره، مع ما تميَّز به من سرعة البديهة وجودة القريحة.

قال يصف يومًا رائقا، ويتغزّل:

يــــومٌ كــأنَّ نســـيمَه

نفحاتُ كافورٍ ومسكِ

وكـــــأن قطــــرَ سمائِه

درٌّ هوى من نظمِ سلكِ

متغيِّرٌ غيـــــمًا وصحـــوًا،

مثلما حُدِّثتُ عنكِ

كالطفلِ يمنح ثـــم يمنع

ثم يضحك ثم يبكِي

فكان كما وُصِفَ:«شاعرا ماهرا يقرطس أغراض المعاني البديعة، ويعبِّر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف في التشبيه، ويغوص في بحر الكلام على درر المعنى الغريب».

فهل حقّق رجاءه في إشبيلية؟ وهل استقرّ مقامه في مملكة الشعراء؟

يقول الشاعر الأديبُ: دخلتُ إشبيلية وحاولت أن يصل صيتي إلى ملكها الشاعر المعتمد، فأرسلتُ قصائدي، وجهِدتُ في أن يقرأ شعري، وكان شاعرا له تذوقُه الأدبي وحسُّه النقدي، حتى طال مقامي بإشبيلية لما قدِمتُها على المعتمد بن عباد، لا يلتفتُ إليَّ ولا يعبأ بي، فكم في إشبيلية من الشعراء! حتى قنطتُ لخيبتي مع فرطِ تعبِي، وهممتُ بالنكوصِ على عقْبِي، والزهد في شعري وأدبي، والرجوع من حيث أتيت.

فإني لكذلك ليلةً من الليالي الشاتية في منزلي المتواضع، وقد بلغ مني اليأسُ والإحباطُ شرَّ مبلغٍ، أعاني البرد وأكابد الجوع، إذ بطارقٍ يطرقُ، فقمتُ في الظلام أتلمَّسُ البابَ، حتى فتحتُه، فإذ بغلامٍ وضيء، معه شمعةٌ، ممسكٌ بزمام بغلةٍ مسرَّجة مطهّمة، فعلمتُ أن الخطبَ جللٌ! وسرى في فؤادي روح الأمل، فقال لي هذا الغلام: أجبِ السلطانَ، فركبتُ معه من فورِي، وأنا بين رغبةٍ ورهبة، وحيرةٍ وتساؤل: كيف عرف السلطانُ باب داري؟ أتُراني في حلمٍ؟ حتى وصلنا القصر، فأفسح لنا الحراس، وفتحوا بابًا ودخلتُ القصر، ومشينا في حديقةٍ فيحاء، ثم دلفنا إلى بهو فسيح، ومنه إلى مقصورة الأمير، وسلّمتُ عليه، ووقفتُ في مكاني، فأدناني، وأجلسني على فراشٍ ليّنٍ، ورحَّب بي، ثم قال لي افتحِ الطاقَ التي تليك، ففتحتُها، فإذ بشيء عجيبٍ، آلةٌ عجيبة، أشبه بالفانوس!!!

كورُ زُجاجٍ على بعدٍ، والنارُ تلوحُ من بابَيهِ، وواقدةٌ تفتحهما تارةً، وتسدُّهما أخرى، ثم دام سدُّ أحدِهما وفتحُ الآخرِ، فحين تأملتُهما، قال لي أجِزْ:

وبدأ، فقال: انظرهما في الظلام قد نجما

فدقَّ قلبي من هذا الاختبار الذي باغتني به، فقلت بديهةً دون تفكيرٍ:

ما رنا في الدُّجُنَّةِ الأسد

فقال الأمير: يفتح عينيه ثم يطبقُها

فقلت في الحال:

فعل امريء في جفونِهِ رمدُ

فقال: فابتزَّهُ الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت مكملا:

وهل نجا من صروفِهِ أحدُ

فطرب بذلك، وصفّقَ واستحسنه، وأمر لي بجائزةٍ سنيةٍ، وألزمني خدمته.

فكانت ليلةُ الهناء، فتحت لي فيها طاقة الخير، وأبواب السعد والهنا، وأوقدت لي شموعُ المجدِ والسؤدد، وطاب لي العيش في إشبيلية وربوعها. (120)

وأصبحتُ في طبقة الشعراء، صاحبة الحظوة والجاه، وكانت لنا أوقات ممتعة ونزهات رائعة. (121)

فلمّا أُسِر المعتمد وسُجِن بأغمات، ثم مات، قدِمتُ إلى قبره مُعزّيًا باكيًا. (122)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# فتاة من عكا

# درسٌ عظيم من فتاة صغيرة

هذه الحكاية وإن حدثت بمدينة عكا، إلا أنها أندلسية من جهة رواتها، فقد رواها ابن بشكوال الأندلسي، عن ثلاثة من علماء الأندلس الفقيه الأندلسي أبو محمد بن عتاب، عن أبيه عن الفقيه المقرئ المحدث يونس بن عبد الله القاضي، خطيب مسجد قرطبة، عن رجل صالح كان مجاوراً لبيت الله الحرام، ثم دخل الشام وأقام ببيت المقدس زمانا، عن صاحبٍ له من أهل حلب كان مجاوراً لسنوات، يقول هذا الحلبي:

كنت في بعض السنين بمدينة عكا، وهي من بلاد فلسطين، وثغرٌ من ثغور الشام، على ساحل البحر المتوسط، نازلها الروم وأحاطوا بها، في جمع لهم عظيم، حتى أيقن المسلمون بمدينة عكا بغلبة الروم عليهم، ولا يشكّون في القتل والأسر، فكان الناس يموجون في المدينة يمشي بعضهم إلى بعض، يبكون ويصرخون، ويتودَّع بعضهم من بعض، فإني لماش في بعض أزقّتها في ذلك اليوم، وأنا حزينٌ باك، إذ مررتُ بطاقٍ خارجٍ من دار، ويسمُّون الجناحَ المعلَّقَ من الغرفة الطاق، فسمعت فيه صبية تنادي صبية أخرى، - جارة لها في طاق يقابل الطاق الذي هي فيه- قالت: يا أخية! هل هيأتم أسبابكم وتأهبتم لما قد نزل بنا؟

فقالت لها: -وكأنها لا تدري- يا أختي، وما الذي نزل بنا؟

قالت: كأنك لا تعيشين هنا! الذي نحن فيه من إحاطة الروم بمدينتنا، وتغلُّبهم على أرباضها؟ ([123])

فقالت لها: يا أختي، فأين الله؟ لم تزد على ذلك، فأين الله!

مسّت هذه الكلمة صميمَ قلب الشيخ الحلبيِّ فقال: فوالله لقد سُرِّيَ عني ما كنتُ فيه من المخافة والجزع لما سمعت قولها: «فأين الله؟» ورجوتُ النصر، فلما أصبحنا من الغد، وأشرفنا على سور المدينة على معسكر الروم ومنازلهم، رأيناها خاليةً، كأنها سوقٌ انتصب ثم انفضّ، وإذا هم قد رفعوا خيامهم ومتاعهم في تلك الليلة، ودخلوا مراكبهم وولّوا في البحر، وها هي المراكب تبدو من بعيدٍ وقد قطعت أميالا، وكأنهم فارون من معركة ساحقة، وقد أُشرعت مراكبهم تدفعها الريح بقوة، لم يهزمهم جيشٌ ولا مقاومة، لم تهزمهم سيوف ولا رماح ولا أحصنة، بل هزمهم إيمانٌ في القلوب، ودعاء وتضرّع على الألسنة، ولّوا مدبرين، يسابقون الريح، والناس جميعا فوق

الشّرفات العالية والأبراج يراقبون ذلك الفرار المفاجئ في فرحٍ وذهولٍ، وحمدٍ وتكبيرٍ. والحمد لله رب العالمين. ([124])

وسلَّم الله المدينة ومن فيها من المسلمين والمسلمات، من هذا العدوِّ الغاشم، فله الحمد كثيرا كما هو أهله.

صورة مكررة مما حدث للمسلمين في يوم الأحزاب، الذين أحدقوا بالمدينة، فردهم الله مدحورين، مرعوبين، منتكسين، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا .

ما أحوج أبناءنا وبناتنا إلى التأسي بهذه الفتاة المؤمنة التي دفعها يقينُها وثقتها بربها إلى هذا الثبات في هذه الشدة التي زلزلت قلوب الرجال، فاستسلموا للعدو، وانتظروا حتى يأتي الجزار بالسكين، وودَّع بعضُهم بعضا، وطلبوا السماح والتصافي، ثم يأتي هذا اليقين، من قلب تلك الصغيرة المؤمنة، ولنقارن بينها وبين صاحبتها التي تعامل أهلها مع هذه المحنة تعاملا قائمًا على المصلحة الشخصية، والمنفعة الخاصة! تعاملا يدل على الأثرة، فسألت جارتها ماذا أعددتم إذا أحكم العدو الحصار من مؤون ومخزون؟

فلم تعبأ الفتاة المؤمنة بهذا الأمر لأن قلبها معلّقٌ بالله، وكلها ثقةٌ بنصر الرحمن، وقد كان.

إنها ثمرةُ تربية مباركة في بيت تقى وصلاح، ويقين وتوكل، بيت ترفرف عليه أعلام الإيمان، وتظلله السكينة، وتغشاه الرحمات، بيتٌ لا يعرفُ أهله الخوف إلا من الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# عاقل الأندلس

كان أَبُو مُحَمَّد يحيى بن يحيى اللَّيْثِيّ من أكَابِر أَصْحَاب مَالك إمام دار الهجرة رحل إلى المشرق، فأخذ عن علماء مصر والحجاز، وفي مقدمتهم الإمام مالك، كَانَ يُسَمِّيه عَاقل الأندلس، سَبَبُ ذَلِك فِيمَا يُحكى أنه كَانَ فِي مجْلِس مَالك مَعَ جمَاعَة من أَصْحَابه فَقَالَ قَائِل: قد خطر الْفِيل! حضر الفيل! فَخَرجُوا وَلم يخرج، فَقَالَ لَهُ مَالك: مَا لَك لم تخرج لتنظر إلى الْفِيل؛ وَهُوَ لَا يكون فِي بِلَادكُمْ؟

فَقَالَ لَهُ لم أرحل لأنظر الْفِيل، وَإِنَّمَا رحلت لأشاهدك، وأتعلم من علمك وسمتك.

فأعجَبَه ذَلِك مِنْهُ، وَسَمَّاهُ عَاقل الأندلس.

وذكر يحيى ابن يحيى حديثاً يرويه عن يحيى بن أبي كثير، قال: لا يستطاع العلم براحة الجسم، قال وإن رجلاً ممن بلغه هذا الحديث من طلبة العلم، ذكره وهو مع زوجته، قبل أن يُفْضِي إليها، فأخذ دفتراً من العلم ينظر فيه ... قال: ولقد تقتُ إلى النساء في أيام طلبي العلم وحضوري مجالس الفقيه ابن القاسم بمصر، فاشتريت جاريةً بها، فوالله ما رأيتُ لها وجهاً نهاراً، طول ما قامت عندي، حتى بعتُها اشتغالاً بابن القاسم وعلمه. ([125])

وَإِلَى يحيى انْتَهَت الرياسة فِي الْفِقْه بالأندلس، وتفقه بِهِ جمَاعَة لَا يُحصونَ عددا، وَكَانَ مَعَ إِمَامَته وَدينه أمينا مكيناً عِنْد أُمَرَاء الأندلس مُعظَّما متعفِّفًا عَن الولايات منزَّهاً جلَّت دَرَجَته عَن الْقَضَاء، فَكَانَ أعلَى قدرا من الْقُضَاة عِنْد وُلَاة الْأَمر؛ لزهده فِي الْقَضَاء وامتناعه مِنْهُ.

وبسببه انتشر مذهب مَالك بن أنس بالأندلس؛ قال ابن حزم:» مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى بلاد إفريقية، فكان لا يولي إلاّ أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كَانَ مكيناً عِنْد السُّلْطَان مَقْبُولَ القَوْل فِي الْقُضَاة، فَكَانَ لَا يَلِي قَاض فِي أقطار الأندلس إِلَّا بمشورته واختياره، وَلَا يُشِيرُ إِلَّا بمن كَانَ على مذْهبه، على أن يحيى بن يحيى لم يل قَضَاءً قطّ وَلَا أجَاب إِلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِك زَائِدا فِي جلالته عِنْدهم، وداعياً إِلَى قبُول رَأيه لديهم.

فهل يعني هذا أنه كان متعصبا للمذهب المالكي مذهب شيخه، أو مستبدًّا برأيه؟

كلا، بل كان معتدلا منصفًا، متجرّدًا للحق، حكى أحمد بن عبد البر «أن قاضيا من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى، لا يعدلُ عن رأيه إذا اختلف عليه الفقهاء، فوقعت قضيةٌ تفرَّد فيها يحيى وخالفَ جميعَ أهلِ الشورى؛ فأرجأ القاضي القضاءَ فيها حياءً من جماعتهم، وتبعتها قضيةٌ أخرى كتب بها إلى يحيى، فصرف يحيى رسوله، وقال له: لا أشير عليه بشيء؛ إذ توقف على القضاء لفلان بما أشرتُ عليه، فلما انصرف إليه رسولُه وعرَّفه بقوله قَلِقَ منه، وركب من فوره إلى يحيى، وقال له: لم أظنَّ أن الأمر وقعَ منك هذا الموقع، وسوف أقضِي له غدا إن شاء الله برأيك أنت.

فقال له يحيى: وتفعلُ ذلك صدقًا؟ قال: نعم. قال له: فالآن هيَّجت غيظي؛ فإني ظننتُ إذ خالفني أصحابي أنك توقفتَ مستخيرًا لله، متخيِّرًا في الأقوال، فأما إذ صرتَ تتبع الهوى وتقضي برضا مخلوق ضعيف؛ فتجاملني على حسب الحقِّ؛ فلا خير فيما تجيء به، ولا فيَّ إن رضيتُه منك، فاستعفِ من ذلك، فإنه أسترُ لك، وإلا رفعتُ في عزلك». فطلب الإعفاء، وعُزِل. ([126])

وكان الإمام يحيى عاقل الأندلس مع قربه من الحكام الأندلس لا يجامل، ولا يحابي، بل يتشدد في الأحكام، وربما يغلّظُ في الفتوى؛ زجرًا وتأديبًا، وربما ترك مذهب مالك في مسألة واختار غيره.

ومن المواقف الشاهدة بذلك: ما حُكي أن الأمير عبد الرحمنِ بن الحكمِ جَمَعَ الفقهاءَ في قصرِهِ، وكان قد وَقَعَ عَلَى جَاريةٍ يُحِبُّها في نهار رمضان، ثم نَدِمَ أشدَّ نَدَمٍ، فسألهم عن التوبة والكفارة؟

فقال يحيى: تُكَفِّرُ بصوم شهرينِ متتابعينِ، فلما بَادَرَ يحيَى بهذهِ الفُتْيَا، سَكَتَ الفُقَهَاءُ حتى خَرَجُوا، فَقَالَ بعضُهُم له: لِمَ لَمْ تُفْتِ بمذهبِ مالكٍ بالتخييرِ؟

فقال: لو فَتَحْنَا له هذا البابَ سَهُلَ عَلَيهِ أَنْ يَطَأَ كُلَّ يومٍ ويعتِقَ رَقَبَةً، ولكِن حَمَلْتُهُ على أصعَبِ الأُمور لِئَلا يعودُ. ([127])

بهذا صدق وصف الامام مالك له، وصدقت فراسته فيه، فهو بحق عاقل الأندلس، والعقل نعمة عظيمة من الله تعالى. قد يحصِّل الإنسان علماً وذكاءً لكنه لا يحظى بعقل راجح وفهم قويم، قال الله تعالى (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا...).

ومن أقوال عاقل الأندلس: لا تجد من يعقل، يلزم ما يعاب عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# ذكاء القاضي

بكم بالله اشتريته؟ وجَّه بعض الحكام إلى ابن المكْوِيّ ([128]) كبير المفتين في بلاد الأندلس، امرأةً معها طفلةٌ تطلبُ نفقتَها من أبيها، والرجل ينكرُ أن تكون ابنتَه، والأمُّ ليس معها من يشهدُ لها!

وجد القاضي نفسه أمام لغزٍ محيِّرٍ! أبٌ ينكر أبوّتَه! وأمٌّ لا تملكُ دليلا، وبنتٌ ضعيفةٌ تحتاجُ من يرعاها ويحدبُ عليها!

فلم يزل به الفقيهُ يعظُه، ويخوِّفُهُ، ويستلطفُه، وهو مُصرٌّ على إنكارها، وكانت عادتُه الصبرَ في مثل هذا، فأخذ الطفلةَ بين ذراعيهِ، وكانت حسنةَ الصورة، تلبسُ ثوبًا جميلا، عليه فروة جديدة رائعة، فأجلسها في حجره، وجعل يمسحُ عليها، ويُثني على حسنِها، ويلاطفُها، ويترصَّدُ غفلةَ الرجل، إلى أن رآه مطرِقاً غافلا فقال: حتى فروُها يضاهي ثوبها الأنيق، أحسنَ أبوها في شرائه أخلف الله له، ثم قال له: – على بغتة- بكم بالله اشتريته؟

فقال - من غير تفكير -: بعشرة دراهم.

فقال: أحسنتَ، قم، يا رجل! فافرضْ لابنتك حقَّها في النفقة، بقدرِ ما يكفيها، فقد أتعبتنا!

فخجِل الرجلُ ، وأذعن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# يا رزق!

وفي مجلسٍ آخر دخل عليه رجلان غريبان، أحدُهما يدَّعي رقَّ الآخر، وأنه ابنُ أمتِهِ، هرب منذ زمانٍ بعيدٍ، حتى عرفه الآن بعد غياب طويلٍ يتخفَّى في زيِّ التجار، وينكرُ معرفته به، فأخذ ابن المكوي في إلطافهما ووعظهما، فما لقي منهما إلا إصرارا، كلٌّ على رأيه، فتفرَّس في المُدَّعِى قوةً أَدَّتْهُ إلى طولِ مراوضتِهما، لعله يظفُرُ ببغيتِهِ، فجعل يكلِّمُهُما معاً، ومنفردين في الرجوع إلى الحق فلا يصل إلى شيء، حتى حار في أمرهما، واستعان الله أن يكشف له الحقيقة.

فأسرَّ إلى المدّعي وسأله: كيف كان اسمه عندك؟

فقال: اسمه رزق، قال فاكتم هذا، وكان قد تسمى بأحمد، وعاد إلى شأنه من مراوضتِهما ومحاورتهما ليصل إلى شيء، إلى أن أظهرَ الضَّجَرَ واليأس.

وقال للحاجب غاضبًا: اصْرِفْهُما الآن يا غلام، وعرِّفِ الأميرَ أنِّي ما أجدُ علَى المُدَّعى عليه حُجَّةً، ولا شبهةً تُوجِبُ شيئاً، إلى أن يظهرَ غيرُ هذا، فانطلَقَا عنهُ، وقد عَلَتِ المُدَّعي قَتَرةٌ تنمُّ عن خيبةِ أمله، بينما العبدُ مزهوًّا سعيدا بنجاته، فلما سار خطوات قليلة، وبدأ يتنفس الصُّعداء، لقد نجح في خداع الجميع، وآن له أن يفعل ما يشاء، نادَى الفقيه بغتةً: يا رزق! فالتفتَ ساهيًا وقال: لبَّيك! يا سيدي، فابتسم القاضي، وقال: لطالما أعييتَنا يا رجل، أطِع مولاك أيها المخادع.

وقال لمولاه: خذ بيد غلامِك، وارفق به، وأحسن إليه.

فبُهِتَ العبدُ، وأُسقط في يده، وانقاد لسيدِه، ومضى معه يجرُّ أذيال الحسرة.

هكذا يعطينا القاضي درسا في سرعة البديهة وحدّة الذكاء، حيث لا يستغني أيُّ قاضٍ عن ذلك، كما لا يستغني عن التفقُّه في الدين، والإلمام بأمور الحياة. ([129])

# الفرج بعد الشدة (١)

دارةٌ في قرطبة

كان رجل من أهل طليطلة ذا محل شريف، ومكان عالٍ منيف؛ فنبا به الوطن، وخانه على معهوده الزمن؛ فخرج ومعه زوجتُه وعيالُه، حتى أتى إلى قرطبة رثَّ الحال، مقطوعَ الوصال؛ مُنبتَّ الحبال، لا يملك نقيرًا ولا فتيلا، ولا يدرك كثيرا ولا قليلا، فأنزل عيالَه في أحد الفنادق المتواضعة، وخرج يلتمسُ حُرًّا يستجديه، أو فاضلا يستهديه، فأُرْشِد إلى الوزير الأديب أبي عامر ابن شُهَيد، ([130]) وكان أرسخَ أهل الأندلس قاطبة بالأدب، ينسلُّ إليه من كل حَدَب؛ لم ير لنفسه في البلاغة أحداً يجاريه، ويساجله في جميع العلوم ويباريه، وأما الكرمُ فلا يقاربه فيه أحدٌ من أهل بلده ولا يدانيه.

فكتب الغريبُ إليه كتابا يُعرِبُ عن فضلِ أدب، وكريم مَحْتِد ([131])، أودع فيه من روائع الكلم، وبدائع الحِكَم، ولطائف المعاني، فضلا عن جمال خطِّه الذي ينمُّ عن فنٍّ وذوقٍ، وبراعةٍ ومهارة! والخطُّ الحسنُ سلطانٌ، يرفعُ صاحبَه ويشفعُ له.

ورُفع الكتابُ فقرأه الوزير، وأُعجِب به، فسأل في شغفٍ: ما زيُّ هذا الرجل ولبسُه؟ وكيف همتُه ونفسُه؟ فأعلموه بما بدا من حاله؛ وظهر من اختلاله، فأمر بدخوله في الحال، فلما أدناه أبو عامر وقربه، ورتّب له من البر والإكرام ما رتَّبه؛ ثم إنه أسرَّ إلى وكيله بكلام لم يسمعْهُ الرجل، إذ كان حائرا قد اكتنفه الخجل، ثم أمر أن يدخُل إلى الحمَّام، ويُحْتَفَى في البر به والإكرام، فلما خرج منه وجد ثيابًا جديدةً فاخرةً أُعِدَّت له فلبسها، وأُعيد إلى دار ابن شهيد، ووافق ذلك اليوم دعوةً له لبعض القوم، فمكث الرجل وهو معلّقُ البال، موزّعُ الفكر، بمن تركه هنالك في النُّزُل القفرِ، من العيال؛ فلما انتظم الأصحاب، وقُدِّمَ الطعام والشراب، دخل الرجل مدخلَهم في ذلك المحفل والمأنس، وأخذ مكانه من المجلس؛ وأبو عامر بن شهيد يؤثر مكانه، ويدعو إلى برِّه إخوانَه، فمكث الرجلُ بين فرحٍ وترحٍ، طورًا منبسطَ الأنس، وتارة مكدَّرَ البال منقبضَ النفس، يفكِّر في عيالِه كيف باتوا ليلتهم! ويعيشُ اللذة الحاضرة فيسكن فؤادُه وتبتهجُ روحُه، حتى انتهى الاحتفالُ، وعاد مُسرعًا للزوجة والعيال، فوجدهم كما تركهم، قد باتوا يطوون من الجوع.

فلما كان عشيَّ اليوم الثاني خرج الرجلُ لمجلس الوزير، ونال من التكريم والتقدير، وهو شاردُ الذِّهن، مشتتُ الفكر، ثم أُذِن له بالانصراف، وقلبُه يتلهف على صبيانه الضِّعاف، وكلُّ أمله أن يخرج من القصر بصرّةِ دراهم، يشتري منها خبزًا وإدامًا للمساكينِ الذين تركهم، للجوع يعضُّهم.

فلما خرج من باب القصر قُدِّم له مركبٌ ليّنٌ فارهٌ، وغلام يسيرُ بشمعةٍ بين يديه؛ إلى أن أدَّى به إلى دارةٍ حسنةٍ ، فقال: انزل يا مولاي.

قال الرجل: ليست هذه داري، وإنما نزلتُ في الفندق الفلاني، وتركتُ أولادي هناك!

فقال الغلام: بل هي دارُك، مَنَحَها لك سيدي، وأنا خادمُك، والدابّةُ ملكٌ لك.

فكاد الرجلُ يُغشى عليه من الفرح!

لم يصدّق عيناه! أفي حلمٍ هو أم يقظة، فرَك بيديه عينيه، ليتأكّد أنه في عالم الحقيقة، ثم لهج لسانُه: الحمد لله، ربَّاه ما أرحمك!

ما أجمل الوصل بعد الهجر، واللقاء بعد فراق، والعطاء بعد حرمان، والراحة بعد عناء، والمنحة بعد المحنة، أو كما قيل:

والحادثاتُ وإن أصابك بؤسُها

فهي التي تُنبيكَ كيف نعيمُها!

سُرَّ الرجلُ ودخل الدار، فوجدها مُلئت نِعمًا كثيرة، بُستانًا مورقا، وبهارا وريحانا عابقًا، ونرجسا مُحدِقًا، وأثاثًا مُونِقًا، وفُرُشًا وثيرة؛ لكن فرحته لم تتم، حين تذكر عيالَه، ثم كانت المفاجأةُ، حين دخل بهوًا فأبصر في صدر مجلسٍ كبير عيالَه في انتظاره، بثيابٍ جديدة، تتوسَّطُهم أمُّهم، عليها أفخر الثيابِ والحليِّ، وقد ملئتْ خزائنُ البيت بما يملأ العيونَ قُرة، والقلوبَ مسرَّة. ([132])

فما عساي أقول في تلك الليلة إلا كما قال أبو فراس الحمداني:

يا ليلةً لستُ أنسى طيبَها أبداً

كأنَّ كلَّ سرور حاضرٌ فيها ([133])

أو أتمثَّل قول ابن سناء الملك:

لَيْلَةَ الوَصْلِ لا تَنْجلي وأسْبِلي

سِتْرَكِ؛ فالمْحُبوبُ في مَنْزِلي

أو أردد قول ابن عمار:

يا ليلةً بتناها في ظلِّ أكنافِ النعيم

من فوق أكمامِ الرياض وتحت أذيال النسيمِ

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بنُ حَزْم: وَلنَا مِنَ البُلَغَاء أَبُو عَامِرٍ، لَهُ مِنَ التَّصرُّف فِي وُجُوه البَلاغَة وَشِعَابِهَا مِقدَارٌ يَنْطِقُ فِيْهِ بلسَانٍ مُرَكَّبٍ مِنْ عَمْرو - يَعْنِي الجَاحظ وَسهلٍ - يَعْنِي ابْن هَارُوْنَ - وَمن نظمه:

فَكَأَنَّ النُّجُوْمَ فِي اللَّيْلِ جَيْشٌ

دَخَلُوا لِلْكُمُوْنَ فِي جَوْفِ غَابِ

وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ قَانِصُ طَيْرٍ

قَبَضَتْ كَفُّه بِرِجْلِ غُرَاب.

وكَانَ حَاملَ لوَاء الشِّعرِ وَالبلاغَةِ، مَا خلّف لَهُ نظيراً، وَكَانَ سَمْحاً جَوَاداً. تُوُفِّيَ سَنَة سِتٍّ وَعِشْرِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ. سير أعلام النبلاء (٣٣/ ٤٩٧)

# الفرج بعد الشدة (٢)

يا سيدي، هذه قصتي فانظر فيها!

هي حكايةٌ أندلسية باعتبار راويها ابن بشكوال القرطبيّ ، وقد رواها عن أبيه عن عالم أندلسي هو القنازعي، بسنده عن إسماعيل بن جعفر الجوهري، قال: كان عندنا رجل ببغداد، يقال له: محمد بن عُبَيدٍ، وكان يقاسُ من الزهد والعبادة إلى الإمام أحمد بن حنبل، وكانت عنده جاريةٌ بارعةُ الحسن، رائعةُ الجمال، فباعها فاتّبعتْها نفسُه، فسار إلى مولاها فقال: أقلني بيع الجارية.

قال: ما أفعل. رفض الرجل الرجوع في البيعة؛ فقد تعلَّق قلبُه هو أيضًا بالجارية، فساومه البائعُ أن يردّ إليه الثمنَ وزيادة.

قال: سأزيدك عشرة دنانير.

قال: ما أفعل. وأبى بشدة. فقال البائع: اذهب بارك الله لك فيها.

فانصرف، فلما كان في الليل أراد فطرَه، فقدَّمه أمامه، فلم يستسغ شرابًا ولا طعامًا، وبقي كما هو، وأراد وردَه من الليل، فلم يقدر عليه، وأجهدَ نفسه، وغلبَه هواه فكتب اسمَها في كفِّه، فكلَّما طرقه من أمرها طارق، رفع كفَّه إلى السماء، وقال: يا سيدي، هذه قصتي فانظر فيها.

فلما كان وقت السحر، إذ بالرجل يسمع قرعًا بالباب.

قال: من هذا؟ قال: أنا صاحب الجارية.

فانتفض من مكانه، وخطف كيس نقوده من الخزانة ووثب إلى الباب، وكلُّه أملٌ وثقةٌ بالدعاء، أن يتحقق له الرجاء... فقال الرجلُ: هذه جاريتُك، خُذها، بارك الله لك فيها.

فتهلَّل وجهه سرورا، وأشرق بهجةً وحُبورا، وقال: وهذا المال لك يا سيدي، وزيادة، بارك الله لك فيه.

قال: والله لا أخذت منك من ثمنها دينارا ولا درهما.

قال: ولم؟ يرحمك الله! قال: لأنه أتاني آت في منامي الليلة فقال: «رد الجارية على ابن عبيد ولك على الله الجنة». ([134])

والحمد لله رب العالمين.

فجمع الله شمل الحبيبين، وكأنهما لم يفترقا.

وهذا من لطف الله بعباده، ولله في خلقه شؤون.

(كَأن لم يَك بَينٌ وَلم تَكَ فرقةٌ
إِذا كَانَ من بعد الْفِرَاق تلاقٍ)
(كَأَن لم تؤرِّق بالعراقين مقلتِي
ولم تَمْرِ كفُّ الشَّوْقِ ماَءَ مَآقِ)
أتاني زماني بما أرتضِي
فبالله يا دهرُ لا تنقضِي
و يا ليلةَ الأُنسِ دومي لنا
لأن الحبيبَ علينا رضي
سقانا بكأس الهَناً شربة
فلاحَ من الكأسِ نورٌ يُضي
وبتنا على العهد نرعى الودادَ
وعيشُ المحبينَ لا ينقضي

# الفرج بعد الشدة (٣)

المسكي

شابٌّ جميلُ الصورة بهيُّ الطلعة من طلاب العلم، تفوحُ منه رائحةُ المسكِ أينما حلَّ، فتملأُ الأرجاء.

فما سرُّ هذا العطرِ الذي لم يُسكبُ من قارورة، ولا يفوحُ من جُونة عطارٍ، أو غالية حسناء! ([135])

عطرٌ لم يخرج من دم غزال، ولا من شجرةِ عود، ولا من شذى الورود أو عبير الأزهار، ولا من عنبر حوت، تقذفه البحار!

عطرٌ يرشحُ من هذا الشاب الجميل، كما يرشحُ الطيب من أهل الجنة في دار النعيم.

حكى الأستاذ الفقيه الطبيب الأندلسي ابن خلصون رحمه الله ([136]): قال: أخبرني من أثق به عن بعض الفضلاء قريبي العهد من زماننا – وكان أستاذا يُقرئ الطلبة- فكان إذا جلس للإقراء تُشَمُّ منه رائحة المسك! فقيل له في ذلك؟ فقال: إني كنت في شبابي أقرأ على شيخي، وكنتُ إذا مضيتُ إليه ألقى في طريقي امرأة سوداء، تجلس على عتبة دار، تسلِّم عليّ كلما مررتُ، إلى أن قالت لي يوماً: أيها الفتى النبيل: إن سيدتي أتاها كتابٌ جليلٌ من بعض قرابتها، وهي لا تحسنُ القراءة، فعسى أن تدخل معي الى داخل الدارة، تقرؤه عليها، وتكون وراء ستر تسمعُك؛ فإنها من أهل العفاف والصيانة.

فقلتُ لها: نعم. ودخلتُ من الباب إلى دهليز يُفضي إلى صحنٍ تتوسطهُ نافورةُ ماء، ثم إلى بهو رحيب، ومنه إلى غرفٍ مغلقة، بادرت العجوزُ إلى فتحها، ودعتني للدخول، فترددتُ قليلا، فطلبت مني ثانيةً، فدخلتُ فإذ بالغرفة واسعة، بها أثاثٌ فخمٌ أرائكُ مصفوفة، وسريرٌ قد فُرِشَ بأبدع الفُرُش، وفي السقف ثُريّات متدلية ينبعثُ منها ضوءٌ خافتٌ، ومنضدةٌ خشبيةٌ عليها دفترُ وقلم ودواةٌ، ثم أقبلت فتاةٌ ترفل في ثياب من الحرير، تبسمت لي وقالت: مرحبا بك أيها الفتى! فتراجعتُ للوراء فنهضتْ نحوي، واقتربت مني، فخجلت ورجعتُ إلى الباب، فسبقتني وأغلَقته، ورمت يدَها في أثوابي، وقالت لي: كم لك تعذبني! والله لا زلتَ من يدي حتى تفعل معي ما يفعل الرجل بأهله. فقلت لها: اتقِ الله أيّتُها المرأة! وحانت مني التفاتةٌ إليها فإذ بوجهها كفلقة القمر، فقلتُ معاذ الله! وأخذتُ في تخويفِها من غضب الله وزجرها عما تبغيه.

فقالت: دع عنك هذا وقم؛ فلقد شغفتَ قلبي حبًّا، وأنا منذ زمن أرقبُ طلعتَك كلما أقبلتَ من هذه النافذة التي تطلُّ على الطريق، ولن أتركك تمضي.

فتظاهرتُ باستسلامي لها، وقلتُ: إني أريد الدخول إلى بيت الخلاء. فقالت نعم. وأرشدتني إلى المرحاض، فدخلتُ وأغلقتُ الباب، وفكرتُ ماذا أصنع في هذه البلوى، فخطرت ببالي حيلةٌ غريبة، طليتُ رأسي وثيابِي بالعذرة، وخرجتُ إليها، بينما تنتظرني في لهفةٍ واشتياقٍ، فلما أقبلتُ نحوها قامت نحوي تستقبلني، فلما رأت ما رأت وشمت ما تكره، انجفلت عني، وارتدت إلى الوراء، وهي تحدجني بطرف عينِها، بينما تسدُّ بأصابعها أنفَها في تقززٍ ونفورٍ، ونادت خادمتَها باشمئزاز، وهي مغمضةُ العينين، وصرخت: أخرجوا عني هذا المجنونَ الأخرق. فَفُتحت لي الأبوابُ، حتى بلغتُ آخرها، وخرجتُ، فحمدتُ الله تعالى، وتنفستُ الصُّعداء، ومضيتُ لتوِّي إلى النهرِ، فألقيتُ بنفسي فيه، فاغتسلتُ وغسَلْتُ ثيابي، وانتظرتُ حتى جفَّت، ثم نهضتُ وأنا أشكرُ الله تعالى على العافية.

ومضيتُ في طريقي، وقد تطهرتُ وزالت عني الرائحةُ الكريهةُ، وبدأتُ أشمُّ رائحة مسك، فتلفتُّ يمينا ويسارا أبحثُ عن مصدرها، فلم أعثرْ لها على مصدرٍ، فأدركتُ أنها كرامةٌ من الله، فكان كل من يقابلني يشُمُّ مني رائحةَ مسكٍ.

فمن ذلك اليوم عوَّضني الله بهذه الرائحة التي تُشم منيّ.

«وجديرٍ أن يُعوّضَ من تلطَّخ بالعذَرة التي هي من أقبحِ الأشياء رائحةً تحاميًا أن يتلطَّخ بمعصية الله، فيطلي رأسَه وثيابَه من تلك الرائحة الخبيثة، فيجازيه الله برائحة المسك، تنبعثُ منها، أينما كان، جزاء وفاقا. وما مثل ذلك على الله بعزيز لمن حصلت منه في اجتناب محارم الله النية، وصدقت منه في الوفاء بذلك الوجهة». ([137])

وهذا دليلٌ باهر على قاعدةٍ إلهية: أن الجزاء من جنس العمل.

لعلنا نذكر تلك الحكاية الأندلسية التي تقابل هذه الحكاية! كيف لازمت الرائحة الخبيثة ذلك المبتدع الذي كان يسبُّ الصحابة، ويزعمُ حب آل البيت، فعوقب برائحة خبيثة لازمته من وقت رؤيا رآها، حتى تاب إلى الله وصار يتوسَّل بدعاء الصالحين، أن يكشف الله عنه ما هو فيه.

- كما أن هذه الكرامة تؤكد لنا ما جاء عن نعيم الجنة، حيث أخبرنا به الصادق المصدوق (يَأْكُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ فيها وِيَشْرَبُونَ، ولا يَتَغَوَّطُونَ ولا يَمْتَخِطُونَ ولا يَبُولونَ، ولَكِنْ طَعامُهُمْ ذلكَ جُشاءٌ كَرَشْحِ المِسْكِ).

وفي رواية (تكون حاجةُ أحدِهم رشحًا، يفيضُ من جلودِهم، كرشح المسك؛ فيضمر بطنه).

كما أن هذه الكرامة امتداد لمعجزة نبينا الذي كان يشمُّ منه رائحة الطيب وإن لم يتطيّب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟» قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ ([138]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفرج بعد الشدة (٤)

# صاحب الهميان

حكى الإمام الأندلسي أبو بكر الطُّرطُوشِي في كتابه سراج الملوك قال: أخبرني شيخي أبو الوليد الباجيّ الأندلسي عن شيخه أبي ذرٍّ الهرويّ قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءا من الحديث، في حانوت صديقٍ له عطّارٌ، فبينما أنا جالس معه في الحانوت، إذ جاء رجل من الباعة الطوافين، يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه شيخي عشرة دراهم، وقال له: أعطني بها أصنافا سماها له من العطر، فأخذها البائع في طبقه، ليناولها شيخي فسقط الطبق من يده، فانكبَّ جميعُ ما فيه، فبكى البائعُ بكاءً شديدًا، وجزعِ أشدَّ الجزع، حتى رحمناه وأشفقنا عليه.

فقال شيخنا أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينُه على بعض هذه الأشياء، فقال سمعا وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعِه منها، ودفعَ له ما فَقَدَ منها، وأقبل الشيخُ على البائع يصبّره ويربت على كتفيه، ويقول له مبتسما لا تجزع يا أخي؛ فأمر الدنيا أيسرُ من ذلك، فقال البائعُ الطوَّاف: أيها الشيخ ليس جزعي لضياع ما ضاع، لقد علم الله تعالى أني كنت في القافلة الفلانية فضاع لي هميان، كان مربوطا على وسطي تحت ردائي، أحفظ فيه أربعة آلاف دينار، ومعها فصوصٌ من الجوهر، زمردٌ أخضر وياقوتٌ أحمر، قيمتها أربعة آلاف دينار كذلك، فما جزعتُ لضياعها؛ حيث كان لي غيرُها من المال، ولكن وُلِدَ لي في هذه الليلة مولود، فاحتاجت أمُّه ما تحتاج النُّفَساءُ، ولم يكن عندي غير هذه الدراهم العشرة، فخشيتُ أن أشتري بها حاجةَ زوجتي، فأبقى بلا رأس مال، وقد صرتُ شيخا كبيرا لا أقدر على التكسُّب، فقلتُ في نفسي أشتري بها شيئًا من العطر، فأطوف به أول النهار، لعلي أستبقي شيئا أسدُّ به رمق أهلي وأشتري ما يلزمهم، ويبقى لي رأس المال أتكسَّب به، واشتريتُ هذا العطر، من متجر شيخ العطارين، وتجوَّلتُ به حتى دخلتُ هذا الحانوت، فحين انكبَّ الطبقُ، علمتُ أنه لم يبق لي إلا الفرارَ منهم، لكن ما الحيلة؟ فإني إن تركتُهم، ماذا يصنعون من بعدي وليس لهم غيري، فنحنُ غرباء. هذا الذي أوجب جزعي، وأطار عقلي.

قال أبو حفص وكان رجل من شيوخ الجند جالسٌ على باب دار يُصْغِي إلى الحديث، فقال للشيخ أبي حفص:

يا سيدي! أريدك أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي، فظننَّا أنه سيعطيه شيئا، فدخلنا إلى منزله، فأقبل على الطَّواف، وقال له: عجبتُ من جزعك، أعدْ عليَّ

قصتَك؟ فأعاد عليه القصة، فقال له الجندي: وكنتَ في تلك القافلة؟ قال: نعم، وكان فيها فلان وفلان، فعلم الجندي صحة قوله، فقال: وما علامة الهميان وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندي إذا رأيتَه تعرفه، قال: نعم. فأخرج الجندي له هميانًا، ووضعه بين يديه، فحين رآه صاح وقال: هذا همياني والله، وعلامة صحة قولي أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت، ففتح الهميان فوجده كما ذكر، ورأينا تلك الفصوص، ينبعثُ منها شعاعٌ مبهر، فقال الجندي خذ مالك بارك الله لك فيه.

فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر، فخذها وأنت في حلٍّ منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي ما كنتُ لآخذُ على أمانتي مالا، وأبى أن يأخذ شيئا، ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها، ودموعُ الفرح تنساب من عينيه ومضى مبتهجًا وانقلب إلى أهله مسرورًا.

وكأن موسى قد أُعيد لأمِّه

أو ثوبَ يوسفَ قد أتى يعقوبَ

أثنى جميع الحضور على موقف هذا الجندي الأمين، صاحب الحانوت، والتلميذ أبو ذر الهروي، وشيخه أبو حفص عمر بن شاهين، الذي قال له بارك الله في أمانتك أيها الشيخ!

فقال الشيخ: الحمد لله الحمد لله الذي وفقني لأداء الأمانة إلى أهلها، ثم بكى بكاء شديداً وانتحب، فتعجبنا، وقال له أبو حفص: علام تبكي، وقد أدى الله تعالى أمانتك، وقد بُذِلَ لك مالٌ كثيرٌ فأبيتَ أن تأخذه، وإن شئتَ عرضنا عليه أن يعيدَه عليك؟ فقال ما أبكي لذلك، وإنما أبكي لأني أعلم أنه قد حان أجلي، وأنه ما بقي لي أملٌ أؤمِّله ولا أمنيةٌ أتمنَّاها إلا أن يأتيني الله بصاحب هذا الهميان، فيأخذ ماله، فلما قضى الله عز وجل ذلك بفضله، ولم يبق لي أمل علمتُ أنه قد حان أجلي. قال الشيخ أبو ذر: فما انقضى شهر حتى توفي الرجلُ الأمينُ، وصلينا عليه. ([139])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفرج بعد الشدة (٥)

# خذْ هميانَك أيُّها الفقيهُ

قال الطُّرطوشي: لما هممتُ بالرحيل من بلدي في الأندلس إلى المشرق في طلب العلم، وكنت لا أعرف التجارة ولا لي حرفة أرجعُ إليها، فجزِعْتُ من الخروج، وكنت أقول: إن ذهبت نفقتي فماذا أفعل؟ وكان أقوى الآمال في نفسي أن أحرس البساتين بالأجرة، وأدرُسُ العلمَ بالليل، ثم استخرتُ الله تعالى فرحلتُ، وكانت معي نفقةٌ وافرةٌ شددتُها في همياني على وسطي، وكنت أسمع المسافرين يقولون: من نام بالليل في الصحراء، ومعه نفقته على وسطه فليحلّها، فإن اللصوص إذا هجمُوا على القافلة، يتحسَّسون أوساطَ المسافرين بحثًا عن أموالِهم. فخرجتُ من بلد السويداء بالشام إلى أنطاكية، فسرينا ليلتنا وأصبحنا على باب أنطاكية، فأخذتني عيني، فحللتُ الهميان ونمتُ، ولم أستيقظ من التّعب إلى ضحوة نهار، فنهضتُ ومددتُ يدي إلى الهميان فلم أجده.

فجعلت أتلفّتُ إلى القافلة وأنظر إلى وجوه الناس، وقد أُسقط في يدي ولم تبق لي حيلة، فاسترجعتُ ورفعتُ أمري إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا برجلٍ من أهل القافلة يلتفتُ إليَّ، فوقع وجهي في وجهه، فإذا هو يضحكُ لما رأى ما بي! فقال: ما لك أيُّها الفقيهُ؟ فقلت: خيراً.

فراجعني، فقلت خيراً، فقام إليّ وقال: خذ هميانك عافاك الله تعالى، فتناولتُه، وحمدتُ الله تعالى، وشكرتُ الرجلَ الأمين، ثم سألته: كيف ظفِرتَ به؟ فقال: رأيتُك قد تدحرجتَ ذراعينِ أو ثلاثة، فالتفتُّ فرأيتُ سواداً في الموضع الذي كنتَ فيه نائماً فسرتُ إليه وأخذتُه، فإذا هو الهميانُ، فرحمة الله عليه ورضوانه. ([140])

تأمل في جهاد طالب العلم، وتحمُّله، ونومه في العراء! وكيف جاب طُلاب العلم الأندلسيون حواضر العالم العربي والإسلامي من المغرب إلى بلاد فارس والهند طلبًا للعلم!

وللطرطُوشي حكاية عجيبة، نحكيها في السطور التالية:

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

فريق
متميزون
E-BOOK

# الفرج بعد الشدة (٦)

تاجر الحرير واللص المحتال..

حكى أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطُرطوشة، قال حدثني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت هاهنا في هذه الدار، وهذا الحانوت قصةٌ عجيبةٌ، وأشار إليهما. كان يسكن هذه الدار رجلٌ من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخزّ، سافر ذات يوم ضمن قافلة متَّجهة إلى الكوفة، وبضاعتُه من الخزِّ يحملها على حماره، وفي الخُرجِ جميع ماله.

حلّ المساءُ ونزلت القافلة في وادٍ مُعشبٍ، وأراد التاجرُ إنزال بضاعته عن الحمار، فثقُل عليه، فالتفت حوله عساهُ يجدُ من يعينُه، فإذ برجل ينظرُ إليه وكأنه يراقبهُ فناداه وطلب المساعدة منه، فأعانه على إنزال الخُرجين، ثم جلس ليأكل، واستدعى ذلك الرجل ليأكل معه، فأجابه، وبسط سفرة طعامه، من خبزٍ وإدامٍ، فأكلا معا، ثم سأله عن حاله، فأخبره أنه خرج من الكوفة لأمرٍ أزعجه دون زادٍ، فقال له الرجل: كن رفيقي تعينني على سفري، ويكونُ طعامُك عندي، فوافق الرجل، فخدمه على أحسن حال حتى وصلا تكريت، فنزلت القافلة خارج المدينة، ودخل الناس لقضاء حوائجهم.

فقال الرجل للخادم: احفظ رحلنا حتى أدخل فأقضي حاجتي، ثم دخل وقضى حوائجه فأبطأ هناك، ثم خرج فلم يجد الرفقة ولم يجد صاحبه، فظن أنها رحلت فرحل وراءهم، فلم يزل يسعى حتى وصل الرفقة بعد جُهد، فسألهم عن حماره ومتاعه وصاحبه؟ فقالوا: ما جاء معنا ولا رأيناه، ولكنه وضع الأغراض على الحمار ودخل المدينة على إثرك، وظنناك أمرتَه بذلك.

فكرَّ الرجل راجعاً إلى تكريت، وفتّش عنه في كل مكان، فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر، فيئس منه وسار إلى بلدِه الموصل مسلوب المال، فوافاها جائعًا مجهودًا، فاستحيا أن يدخل البلدة نهاراً فيشمت العدوُّ ويحزن الصديق، فبقي حتى عمَّ المساء ثم دخل البلدة، ووصل داره ودقّ الباب...

وإذ بأصوات مختلطة، وضجيج، داخل الدار، وصوتٌ مألوفٌ يقول: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة، فإنك حملت جميع مالك معك وطال سفرك واحتاج أهلك وهي نُفَسَاء قد ولدت لك في هذا اليوم ولدًا، والله ما وجدنا ما نشتري به شيئاً للنفساء، ولقد باتت هذه الليلةَ طاويةً من الجُوع على حالها، فاشترِ لنا دقيقا وسمنًا وزيتًا، وإدامًا، فلا يوجد عندنا زيتٌ نضعُهُ في السراج، وها نحن في الظلمة كما ترى، فزاده ذلك غمًّا على غمٍّ، وكره أن يخبرهم بما حدث له فيُحزنهم، وأخذ وعاء

للسمن وجرّةً للزيت وجراباً للدقيق وخرج إلى بقّال في أول الحي، حيث يُباعُ الدقيق والزيت والعسل ونحوه، وقد أغلق البائعُ دكّانه وأطفأ مصباحه، ودخل بيته، فناداهُ فأجابه وعرفه، وشكر الله على سلامته.

فقال التاجر لصاحب الحانوت: أين الميزان لتقوم بوزن الدراهم؛ فإنني بحاجة لشراء دقيق وزيت وعسل الآن، وأوهمه أنه سيدفع له الثمن حتى لا يمتنع منه، فأوقد فتيل السراج، بعد أن ملأه بالزيت، وسأل التاجر عن حاجته فقال له: أريد من الدقيق مقدار كذا ومن الزيت كذا، ومن العسل كذا، ومن السمن كذا، ومن الملح والحطب كذا، حدد مقادير قليلة، تكفي فقط لتلك الليلة.

وبينما البائع مشغولٌ أخذ صاحبُنا يتفكَّر ماذا سيصنع بعد أن يجهز له البائع ما يريده، كيف سيقبل عذره بعد أن أخرجه من بيته، وفتح دكانه وأوقد سراجه؟ حتى خرجت منه زفرةً.

نظر للبائع وقد أضاء المصباحُ وجهه، وهو يضعُ السمن في إناء، ونظر إلى البضاعة التي على الأرفف، ثم حانت منه التفاتة إلى ركن من أركان الحانوت، فرأى فيه خُرْجا يشبه خرجَه الذي هرب به صاحبُه، حدَّق النظرَ فيه على ضوء ذلك المصباح، وتحسّسه، فوجده خرجه الذي سرقه رفيقُه الخائن، فلم يملك أن وثب إليه، وحمله بين يديه وضمَّه لصدره، والتزمه بحنين، كأن قميص يوسف قد أتى يعقوب عليهما السلام، ثم نظر بغضب إلى البقَّال وأمسك بتلابيبه، وجذبه جذبة شديدة، وقال له: يا عدو الله أين مالي؟ فقال له صاحب الحانوت: يا أبا فلان ما هذا؟ ما دهاك؟ فوالله ما علمتُك متعدِّيًا على أحد، وما جنيتُ عليك أبدا، ولا على سواك؛ فماذا تعني؟

قال التاجر: خُرجي! ماذا يصنعُ هنا من الذي أتى به! أخبرني يا رجل!!

إنه ليس خرجَك، بل خُرْجُ رجلٍ غريبٍ جاء به، وأودعَه عندي للصباح.

لقد فرَّ به اللصُّ، وفيه جميع مالي!

فقال الرجل وهو يرتعد من هول الموقف: ما لي علم بذلك، غير أن غريبا ورد عليَّ بعد صلاة العِشاء، واشترى مني عَشاءه، وأعطاني هذا الخرج أحفظه له حتى الصباح، فجعلته في حانوتي وديعة، وترك الحمار في دار جارنا فلان، أما الرجل فقد ذهب لينام ليلته بالمسجد، فاذهب إليه وأيقظه.

فقال له: احمل معي الخرج وامضِ معي إلى الرجل، فرفع الخرج معه وألقاه على عاتقه ومشى معه إلى المسجد، وإذ باللصِّ نائمٌ في المسجد، فوكزه تاجر الحرير برجله، فقام فزعًا وأخذ يفرك عينيه، ويرتجف، وهو لا يصدِّق ما يرى، فقال: أين مالي؟ فقال: ها ها هو ذذا: هو ذا في خرجك على عاتقك، والله ما نقص منه ذرة! فأمسك بالخرج، وفتشه فوجد صرة المال، فحمد لله

تعالى وتنفّس الصَّعَداء، ثم نظر للصِّ نظرة لوم وعتاب، وقال له: فأين حماري؟ قال اللصّ، وهو منكّس الرأس: هو عند صاحب هذه الدار وأشار إليها، فنهض إلى داره وتأكد من وجود بضاعته من الحرير، وأخرج الحمار من الموضع الذي كان فيه، وفرح به كثيرًا، وحمد الله تعالى على أن ردّ له ماله، وعفا عن اللص وخلّى سبيله، وأحسن إليه، وعاد لأهله ومعه ماله وحماره وخرجه، ودخل عليهم بما اشتراه لهم، ووسَّع على أهله، وأخبرهم بقصته، فازدادوا فرحاً وسروراً وبشرًا بذلك المولود المبارك، وكانت ليلةً سعيدة هانئة من أجمل الليالي. فسبحان من لا يخيبُ من قصده، ولا ينسى من ذكره. [141]

ليالي وصالٍ لو تُباع شريتُها

بروحي و لكن لاتباع و لا تُشرى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# كرامة ١

# أظننتَ أنني ليس لي من ينصرني!

بمدينة مالقة كانت حكايتنا، ومالقة من أشهر مدن الساحل الأندلسي، محاطة بسورين، أحدهما من الحجر، والآخر من الحلوى، حيث تتوسطُ غابات التين، وتينها مشهور بحلاوته وروعة طعمه، يُحمل إلى شتى الأقطار حتى الهند والصين يصلها التين المالقي مجفَّفًا، فما أحلاه طازجًا وما أحلاه يابسًا!

قيل في وصفه:» وهو أحسن التين لوناً وأكبره جرماً وأنعمه شحماً وأحلاه طعماً، حتى إنه يقال ليس في الدنيا مدينة عظيمة محيط بها سور من حلاوة!

لما ولي القاضي المحدث الشهير أبو محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصارى قضاء مالقة، وقدم عليها، خرج طلبتها إلى لقائه، فأنشدهم:

مالقةٌ حُيِّيتَ يا تينَها

الفلكُ من أجلك ياتينَها

نهى طبيبي عنك في علتي

ما لطبيبي عن حياتي نها ([142])

فجاءت «تينَها» متكررة ثلاث مرت بمعان مختلفة.

ومن آبارها العذبة الحلوة يرتوي أهلها، ولها وادٍ يجري في الشتاء.

ولمالقة خمسة أبواب، بابان منها إلى البحر، وباب شرقي يعرف بباب الوادي، وباب جوفي يعرف بباب الخوخة، وبها مبانٍ فخمة، وحمامات حسنة، وأسواق جامعة كثيرة؛ ولها ربضان عامران: ربض عامٍ للناس وربض للبساتين.

في أحضان هذه المدينة الرائعة عاش المحدث الفقيه الزاهد الورع أبو الحجاج ابن الشيخ، وكان رحمه الله يؤم الناس بجامع مالقة.

وله كرامات مشهورة وفضائل جمة، منها: الرؤيا التي كان رآها المؤذن أبو جعفر المرسي في حقه، وذلك أن أبا الحجاج كان يؤم في الجامع الكبير، ويؤذِّن في أحد أبوابه، وكان بالجامع إمام راتب غيره، فكان الشيخ رضي الله عنه يبكِّرُ ويؤذِّنُ في الباب، ويدخل للصلاة، فلما كان في بعض الأيام ربما طرأ عليه عذر، أو غلبه النوم، فتأخّر عن وقته، فانتظر حتى جاء، ثم جرى له ذلك في يوم آخر، كذلك نحوًا من ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الثالث أبطأ، فأقام المرسي الصلاة ولم ينتظره، فأتى وقد فاته بعض الصلاة، فاغتمَّ لذلك، وأسرّها في نفسه، ولم يقل للمرسي شيئا، فلما كان الليل نام المرسيُّ فرأى

النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام، فعاتبه، وقال له: تأدَّب مع الشيخِ وانتظِرْهُ، فلما كان في صبح اليوم الثاني جاء الشيخ على عادته، فلما صلى أقبل عليه المرسيُّ ليخبره بما رآه في منامه، فقال له الشيخ مبادرًا – أي قبل أن يحكي له-: أظننت أنني ليس لي من ينصرُني، ووصّاه ألا يخبر بالرؤيا حتى يموت. ([143])

وكان رحمه الله متواضعا، قال عن نفسه، حين قُدِّمَ للصلاة بالمسجد الجامع بمالقة:

قدَّموني لظنِّهم بي أنِّي

فيَّ خيرٌ كما يقولون عني

ولو استثبتوا لكشفِ حالي

كان من ودّني ينفرُ مني

وبحقٍّ فإنني عبدُ سوء

كلُّ سوء فإنه من لدنّي

يا إلهي يا عالما بذنوبي فاعفُ

عني فإن ذلك ظنّي

وأَقِل عثرتي وحقِّق رجائِي

إنك اللهُ ذو حنان ومنّ ([144])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# كرامة ٢

# من الأندلس إلى القاهرة

# من جاء أولا فليقرأ أولا!

هكذا كان الإمام الشاطبي يستفتحُ يومه وهو في مجلس إقرائه بالقاهرة. بمدرسة القاضي الفاضل» وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي « في درب الملوخية.

لكن ما الذي حمل الشاطبي، أن يترك بلاد الأندلس، ويتخذ من القاهرة موطنًا؟

لماذا رحل الشيخ من بلاد الأندلس لمصر؟ لماذا يتركُ الأندلسَ الخصيبَ، ليعاني في مصر من شظف العيش؟ سيَّما وقد عُرضت عليه الخطابةُ في بلده الغنيَّة، ولاحت له الفرصة ليعيش حياة رغيدة هنية، في الربوع الأندلسية؟

ولد في شاطبة، ونشأ فيها وترعرع، تلك المدينة العظيمة الحصينة، التي يضرب بحسنها ورونقها المثل، فقد وُصِفَت بأنها» كريمة البقعة كثيرة الثمرة طيبة الهواء»، كيف لا وهي تقبع تحت سفح جبل فيرنيسا، الذي تنهمر منه جداول الماء فتجتمع في واديها، وتروي حقولها الخصيبة.

فلماذا إذن ترك الشيخُ الضريرُ بلاد الأندلس، بينما كانت تستقطبُ علماء المشرق كأبي علي القالي، وأبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي، الشاعر المحتال، حتى المغنين، وجدوا فيها السعد كزرياب وغيره! فلماذا لم يبق ببلده، ويتخذ لنفسه مجلسا في شاطبة أو قرطبة.

«كانَ سَبَبُ انتِقَالِه مِنْ بَلدِه بالأندلس إِلَى مِصْرَ: أَنَّهُ أُرِيْدَ عَلَى الخَطَابَةِ، فَاحتجَّ بِالحَجِّ، وَترِكَ بَلَدَهُ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ؛ تَوَرُّعاً مِمَّا كَانُوا يُلْزِمُوْنَ الخُطَبَاءَ، مِنْ ذِكرِهِمُ الأُمَرَاءَ بِأَوْصَافٍ لَمْ يَرَهَا سَائِغَةً»، وهذا الموقفُ يدلُّ على صدقِه وورعِهِ، ونُبلِه وترفُّعِهِ، إذ لم يرضَ لنفسِهِ أن يجاريَ ما درج عليه طائفةٌ من أهلِ عَصْرِه، وأن يَتَمَلَّقَ على حسابِ دينِهِ ومُروءتِهِ؛ فيقولُ ما لا يعتقدُ، ويكيلُ للأمراءِ من المدحِ والثناءِ ما ليسوا له أهلا، فتزلَّ قدمُه بعد ثبوتِها.

يتزاحمُ عليه مئات الطلاب في كل صباحٍ، وقد جلسوا ينتظرُ كل واحدٍ دوره، فمن جاء أولا قرأ أولا.

ومع مسيس حاجته حين صار إلى مصر، غريبًا مهاجرًا، إلا أنه كان متعفِّفا متورّعا، زاهدا، أرسل له الأمير عز الدين موسك ابن خال السلطان صلاح الدين الأيوبي، يدعوه إلى الحضور عنده لإكرامه، فأمر الشيخُ بعضَ أصحابه أن يكتبَ إليه:

قـــل للأمـــير مقالةً

من ناصحٍ فَطِنٍ نبيه

إنّ الفقيـــهَ إذا أتـــى

أبوابَكم لا خيرَ فيه.

من جاء أولا فليقرأ أولا، فكل الطلاب أمامه سواسية.

يواظب الشيخ على مجلسه، فكان رحمه الله يعتلّ العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوَّه، وإذا سئل عن حاله قال: العافية، لا يزيد على ذلك.

وكان إماماً حافظاً للحديث بصيراً بالعربية واسعَ العلم، وقد سارت الركبان بقصيدته «حرز الأماني» و»عقيلة أتراب الفضائل» في القراءات والرسم، وحفظهما خلق لا يحصون، وقد روي عنه أنّه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلاّ وينفعه الله عزّ وجلّ، لأني نظمتُها لله تعالى مخلصاً.

تصدَّر للإقراء بمصر أمّ الدنيا، فعظُم شأنُه، وبعُد صِيتُه، وانتهتْ إليه الرئاسةُ في الإقراء.

وكان لا يجلس للقراءة إلاّ على طهارة في هيئة حسنة وتخشُّع واستكانة، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله من جاء أولاً فليقرأ، ثم يستمع للأسبق فالأسبق، فاتفق في بعض الأيام أن أحد طلابه سبق إليه، فلما استوى الشيخُ قاعداً، قال – على غير عادته- من جاء ثانياً فليقرأ، فشرع الثاني في القراءة، وبقي الأول حائرا مدهوشًا، وأخذ يتفكّر ما وقع منه بعد مفارقة الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له! ففطن أنه أجنب تلك الليلة، ولشدةِ حرصه على السبق نسي أن يغتسل، فلما انتبه بادر إلى حمَّام بالمدرسة فاغتسل به، ثم رجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد لا يبصر، فلما فرغ الثاني قال الشيخ: من جاء أولاً فليقرأ، فقرأ، قال الراوي: وهذا من أحسن ما نعلمُه وقع لشيوخ هذه الطائفة بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا. ([145])

كم كان للقراء من كرامات! أحدهم يستطيع أن يتابع أكثر من قارئ في ذات الوقت، وآخر أصم يرد الله له سمعَه عند سماع القرآن، فلا يسمع غير كلام الله، وآخر يُقرئُ الجانّ، وكرامات لا تحصى. وهذا خطاطٌ أندلسيٌّ لا يخط غير

المصاحف، عُرف بالغفلة والسهو في أمور دنياه، لكنه كان يقظًا واعيا في نسخ المصاحف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

# يفرُّ من القضاء إلى الموت!

يعرضُ عليه القضاء من قبل الخليفة فيرفض رفضا قاطعًا مع كونه أهلا لذلك؛ علمًا وفقها وورعا ونزاهةً! هل يُتصوّرُ هذا في زماننا الذي تكالب الناس فيه على المناصب، سيّما القضاء، حتى ربّما يورّثُ فترى القاضي يسعى جاهدا بحق أو بغير حقٍّ أن ينظِمَ ولده في سلك القضاء، وكأنه بهذا يضمن له السعادة الأبدية.

يفر من القضاء إلى الموت!

لقد كان لمنصب القضاء بريقه على مرّ الأزمان؛ حتى اعتبر من يرفضُ هذا المنصب من النوادر التي تستحق أن تذكرَ، حُكي أن الوالي بسرقسطة أراد تقديم قاسم بن ثابت للقضاء بها، فأمر أباه ثابتا أن يعلمه بذلك، فمضى الأبُ الفقيهُ إلى البيت مسرورا ليزفَّ هذه البشرى. وقبل أن يصل للبيت، نتساءل: كيف تأهّل لهذا المنصب؟

نبدأ برحلته العلمية فقد رحل قاسم مع أبيه ثابت إلى المشرق، فسمعا بمصر من أحمد بن شعيب النسائي وأحمد بن عمرو البزار وسمعا بمكة من عبد الله بن علي الجارود ومحمد بن علي الجوهري وغيرهما، وعُنِيَا بجمع الحديث واللغة هو وأبوه، فأدخلا الأندلس علما كثيرا، ويقال إنهما أول من أدخل كتاب العين للخليل بن أحمد، وألف قاسم كتابا في شرح الحديث سماه كتاب «الدلائل» بلغ فيه الغاية من الإتقان، مات قبل إكماله فأكمله بعده أبوه ثابت.

وكان قاسم عالما بالحديث والفقه، متقدما في معرفة الغريب والنحو والشعر، وكان ورعا ناسكا، ومما قيل عنه: «الإمام الجليل العالم المتفنن، آية الله في الذكاء والحفظ والإتقان».

كانت فرحةُ أبيه بالغة، ولده سيصبح قاضيا على سرقسطة، هُرع الأبُ والسعادة تغمرُه إلى البيت ليزفَّ هذا الخبر، فلما استقبله ولدُه قاسم في دهليز البيت احتضنه الأبُ وبشّره بتولي القضاء، وترقّب أثر هذه البشارة على وجه ولده الجدير بهذا المنصب، نظر ليرى الفرحة في عينيه.

لكن الولد لم تتهلل أساريره -كما توقع أبوه-، بل امتقع وجهُه، وغشيته سحابةٌ من الحزن، وأصابه الذهول.

بُنيَّ هنيئا لك منصب القضاء في المدينة البيضاء!

يا أهل البيت، هلُمُّوا شاركونا الفرحة! يا أم قاسم! ولدُك قاسم أصبح قاضيًا، تعالي باركي لولدنا!

يا أم محمد زوجك أصبح قاضيا! وأنت يا محمد حفيدي العزيز! هنيئا لأبيك! لقد تولى القضاء.

أقبل الجميع مهنئين ومباركين، حتى الخدم جاءوا يهللون سرورا وغبطةً.

لكن شخصا واحدا لم يفرح لهذا الخبر، ولم يشارك تلك الفرحة، بل ظل واجما شارد الفكر، ينظر إلى الجدار، في ذهولٍ.

مالك يا ولدي! ماذا دهاك؟

أجبني يا ولدي! ها أنت تتوج بعد رحلة طويلة وتتقلد القضاء، وإني أشهد أنك جديرٌ بهذا! والكلُّ يشهدُ لك.

فلماذا هذا الوجوم الذي يقلقني؟

ثم إني أحسبك والله حسيبك من الأكفاء الصلحاء، القوامين بالعدل، الشهداء لله!

لا يا أبتِ، لن يكون! لا أحتمل ذلك! واللهِ لن يكون!

صُدِم الجميع، وعمَّت الحيرة والسكون، أركان البيت. وانطفأت شموع الفرح، وانصرف الخدم واجمين، يهمسُ بعضهم لبعض: يُعْرَضُ عليه القضاءُ، فيأبى!

يُرشَّحُ لعيش رغيد ومنزلٍ هانيء، ومركبٍ فخمٍ، وجاهٍ، فيزهد!

ومن الذي تواتيه مثل هذه الفرصة، فلا يهش لها ويبش؟

من الذي تسنح له فلا يقتنصها اقتناصا؟

أبى الفقيه الشاب وامتنع من ذلك، خاف على نفسه أن لا يقوم بها.

سبحان الله أُرِيد على القضاء بسرقسطة وما أدراك ما سرقسطة؟ إنها المدينة البيضاء، لا ترى في بناياتها الأنيقة سوى اللون الأبيض.

همس أحدهم: لعله لا يحب سرقسطة، ربما يريد القضاء في مدينة أخرى!

أجابه صاحبه مندهشا: سرقسطة! التي قيل في حسنها وجمالها:» ناهيك من مَدِينَة بَيْضَاء أحدقَتْ بهَا من بساتينها زمردةٌ خضراء والتفَّت عَلَيْهَا أنهارها الْأَرْبَعَة، فأضحت بهَا رياضها مرصَّعة مجزَّعة، وَلَا نعلم فِي الأندلس مَدِينَة يُحْدِقُ بهَا أَرْبَعَةُ أَنهَار سواهَا، وَكَأن كل جِهَةٍ تغايرتْ على إتحافها، فَأَهْدَتْ إِلَيْهَا نَهْراً يَلْثُمُ من أعطافها، وأشهرها نهر جِلَّق، شَرب مُوسَى بن نُصير فاتح الأندلس منه، فاستعذبه، وَحكم أَنه لم يشرب بالأندلس مَاء أعذب مِنْهُ، وشبَّه مَا عَلَيْهِ من الْبَسَاتِين بغُوطة دمشق».

حاول أبوه إقناعه فلم يقتنع، حاول إرغامه فلم يستطع، حتى انقطع رجاؤُه.

فأخبر الوالي بذلك، وتأسَّف له واعتذر.

لكن الوالي اغتاظ، وقال حانقا: إن لم يفعل ابنُك ما أمرتُه به، أخرجتُكما عن بلدي.

فرجع الأبُ لولده حزينًا مهمومًا، وقال له متوسِّلا ومستعطفًا: يا بني تكلفني في آخر عمري الخروج عن بلدي، والتطواف بالبلدان!

وأراد أبوه إجباره عليه، فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثة أيام يستخير الله فيها.

فلما مضى يومان، ذكّره أبوه: ها هل قبلت! فقال له: يا أبت: أمهلني إلى غد.

بقيت ليلةٌ واحدةٌ؟

لقد حسم الأمرَ الأجلُ، فمات رحمه الله قبل انقضاء المهلة، وعصمه الله من هذا البلاء.

مات، يا إلهي! كيف حدث ذلك؟

لمَّا كانت الليلة الثالثة، صار قاسمٌ في محرابه، فصلَّى طول ليلته، حتى فارق الحياة، وأصبح ميِّتا في محرابه رحمة الله عليه.

مات رحمه الله حتى لا يتولّى القضاء تذرَّع بالموت لاذ به، هل سمعنا من يلوذُ بالموت فرارا من المنصب المرموق؟

علم الوالي بما حدث؛ فندم على ذلك أشدّ الندم، وقال: ليتني لم آمرْه بما يكره. ([146])

فتأمل كيف مات حتى لا يتولى منصب القضاء، فر إلى الموت من القضاء، حُمَّ القضاءُ، بينما نسمع عمن يبيع آخرته، من أجل أن يتقلد هذه المنصب أو أن يحافظ عليه، أو أن يورثه لأبنائه، وتلك كرامة من الله تعالى لهذا العالم أن يقبضه الله إليه، دون أن يتحمل هذه الأمانة الثقيلة.

هناك من يموت من أجل هذا المنصب، وهذا الرجل الصالح يموت هربا منه!

وقبل هذه الحادثة بقرابة خمسين عاما حدثت حكاية مشابهة في المشرق، في سنة ٢٥٠ه، كما حكى أبو القاسم ابن بَشْكُوَال في فوائده بسند إلى منصور بن محمد البصري، قال: أرسل الخليفة العباسي مِنْ قصره إلى نصر بن علي الجهضمي، وكان زاهدا، يأمره بتقلُّد القضاء فأبى، فروجع في ذلك ثلاث مرات فأبى، فأمر إن هو لم يُجِب قُيِّد وأُوتيَ به.

فأعلم بذلك نصر، فقال: أنْظِرُوني اليَوم، فدخل الحمَّامَ، واغْتَسَل وتَنَظّف، وخرج إلى دَارِه فأعدَّ أكْفَانَه وحُنُوطَه، وبَعَثَ إلى رَجُلٍ كان يغسِّلُ المَوْتَى، فأوصى أن يغَسِّله مراعيًا السنة في الغُسل، ثم اسْتَقْبَل القِبْلَة فَصلَّى ركعتين، ودَعَا بما دَعا، وتمدَّدَ فمات، وغُسِّل وكُفِّن.

قال منصور: وكنتُ فيمَنْ صَلَّى عليه، فلما عَلِمَ السُّلْطَانُ بِخَبَره، نَدِمَ على مَا كَانَ مِنْه إِلَيه. ([147])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# رفضوا منصب القضاء!

# سبع حكايات

١ - اذْهَبْ؛ عَلَيْك العفا!

ممن عُرِضَ عَلَيْهِ الْقَضَاء، فَأبى قبُوله المصعب بن عمرَان:

حِين اِسْتَشَارَ الْأَمِير عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَة، أول الْخُلَفَاء بالأندلس من بني أُميَّة أَصْحَابه، فِي قَاض يوليه على قرطبة. فَأَشَارَ عَلَيْهِ وَلَده هِشَام، وحاجبه ابْن مغيث، في المصعب بن عمرَان؛ ووقع الِاخْتِيَار عَلَيْهِ. فَوَقع بِنَفس الْأَمِير، وَأمر بِالْإِرْسَال إِلَيْهِ؛ فَلَمَّا قدم مُصعب، أدخلهُ على نَفسه، بِحَضْرَة وَلَده هِشَام، وحاجبه، وخاصة أَصْحَابه؛ فَعرض عَلَيْهِ الْقَضَاء.

فَأبى من قبُوله، وَذكر أعذاراً تعوقُه عَنهُ؛ فَردَّهَا الْأَمِيرُ وَحمله على الْعَزِيمَة، وأصر مُصعب على الإباية الْبَتَّةَ؛ فاغضب الْأَمِير، وهاج غَضَبه، وَأطَال الإطراق؛ ثمَّ رفع رَأسه إِلَى مُصعب، وَقَالَ: «اذْهَبْ عَلَيْك العفا وعَلى الَّذين أشاروا بك». ([148]) فخرج من عنده ولم يعد.

٢ - لأسطونَّ بك سطوة تزيلُ اسْم الْحلم عني!

وَقد تقدم الْكَلَام فِي امتناع المصعب بن عمرَان عَن الْقَضَاء، أَيَّام خلَافَة الْأَمِير عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَة. فَلَمَّا ولي ابْنه هِشَام الْملك، اخْتَار المصعب للْقَضَاء، واستحضره، وَقَالَ لَهُ: قد علمتُ أنه إِنَّمَا مَنعك عَن الْقبُول من أبي رَحمَه الله الْأَخْلَاق الَّتِي كَانَت فِيهِ. وَقد عرفتَ أخلاقي وبلوتَها: فاحمل عني همَّ الْقَضَاء فأباه واستعفاه؛ فَغَضب هِشَام عَلَيْهِ وعزم عزماً شَدِيدا، وتهدده، وأوعده. وَذكر بَعضهم أَنه قَالَ: لَئِن لم تعْمل على الْقَضَاء، لأسطونَّ بك سطوة تزيل اسْم الْحلم عني!

فَلَمَّا رأى ذَلِك، وَخَافَ على نَفسه، تولى لَهُ الْعَمَل كرها؛ وَاشْترط على هِشَام أَن يَأْذَن لَهُ فِي التفرُّغ لضيعته يَوْمَيْنِ فِي الأسبوع: السبت والأحد، وَيحكمُ لسَائِر الْأَيَّام. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِك. وَلم يزل على قَضَاء الْأَمِير هِشَام إِلَى أَن توفّي؛ فأقره ابْنه الحكم؛ وَكَانَ قد عرف صلابته وتنفيذه الْأَحْكَام؛ فَاشْتَدَّ مَعَه، وَصَارَ يُؤَيّدهُ، وَلَا يسمع فِيهِ مقَالَة طَاعن، ويجيز أَفعاله، وَينفذ أَحْكَامه، وَإِن وَقعت على غَيْر ما يهوى.

٣ – يشترط عليهم فيعفونه!

وَلما أَرَادَ الأمير هِشَامٌ للْقَضَاء بقرطبة زِيَادَ بن عبد الرَّحْمَن، وعزم عَلَيْهِ، خرج مِنْهَا فَارًّا بِنَفسِهِ، على مَا حَكَاهُ ابْن حَارِث. فَقَالَ هِشَام عِنْد ذَلِك: لَيْت النَّاسُ

كلّهم كزياد، حَتَّى أكْفَى أهلَ الرَّغْبَة فِي الدَّنْيَا.

كان زياد ناسكاً ورعاً إذا بعث شيخه الفقيه معاوية بن صالح القاضي شيئا إلى داره، وكان أبا زوجته ، لم يأكل منه تورُّعًا. وحين أراده الأمير هشام على القضاء فأبى عليه وخرج هارباً بنفسه. فقال هشام: ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا. ثم أمَّنه فرجع إلى قرطبة، وكان هشام يقول: بلوتُ الناس فما رأيت رجلاً يكتمُ من الزهد أكثرَ مما يظهر إلا زياداً. وذكر يحيى بن إسحاق أن هشاماً لما ولي قيل له: لا يعتدل ما تريد، إلا بتولية زياد على القضاء. فبعث إليه فتمنّع، فألح هشام عليه، فقال للوزراء: أما إذا عزمتم فأخبركم بما أبتدأ به، عليَّ المشي إلى مكة إن وليتموني وجاءني أحد متظلماً منكم إلا أخرجت من أيديكم ما يدّعيه، ورددتُه عليه وكلفتُكم البينة، لما أعرف من ظلمكم. فتركوه وأشاروا بإعفائه فعوفي.

٤ - لَيْسَ من صَيْده

وَمِمَّنْ عُرِضَ عَلَيْهِ الْقَضَاء من الْفُقَهَاء بالأندلس فَأبى من قبُوله، الفقيه إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد ابْن باز، دَعَاهُ إِلَيْهِ الْأَمِير مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن لقصةٍ رفعت من قدره عِنْده؛ فأباه فَأرْسل إِلَيْهِ بذلك هَاشم بن عبد الْعَزِيز صَاحبه؛ فَامْتنعَ عَلَيْهِ وَلم يجد فِيهِ حِيلَة؛ فَأَعَادَ إِلَيْهِ الْأَمِير هاشماً بِوَصِيَّة يَقُول: إِذا لم تقبل قضاءنا، فَاحْضُرْ مَجْلِسنَا، وَكن أحد الداخلين علينا، الَّذين نشاورهم فِي أمورنا، ونسمع مِنْهُم فِي رعيتنا. فَلَمَّا اسْتمع رسَالَته، قَالَ: يَا أَبَا خَالِد، إِن أَلحَّ عَليّ الْأَمِير فِي هَذَا وَمثله، هربتُ وَالله بنفسي من بَلَده! فَأَعْرض عَنهُ الْأَمِير عِنْد ذَلِك، وَعلم أَنه لَيْسَ من صَيْده.

٥ - أعوذُ بِاللَّه من ذَلِك!

وَمِمَّنْ عُرِضَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ، فأباه وَامْتنع من قبُوله، الْفَقِيه أَبُو عِيسَى أَحْمد بن عبد الْملك الإشبيلي، عرضه عَلَيْهِ الْمَنْصُور مُحَمَّد بن أبي عَامر، فَلم يجد فِيهِ حِيلَة.

كان ذلك حين توفِّي قَاضِي قرطبة مُحَمَّد بن يبْقى بن زرب، سنة ٣٨١؛ فأحضروهُ وخاطبوه: إِن الخليفة هشام الْمُؤَيد بِاللَّه اختارك للْقَضَاء، وَرَأى تقديمك مُبَارَكًا لَك فِيهِ، فَقَالَ: أعوذ بِاللَّه من ذَلِك «لستُ وَالله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ» أجرُّ إِلَى هَذَا وَلَا أقبله الْبَتَّةَ، فَإِنِّي لَا أَسْتَطِيع وَلَا أصلح، وَمَا أُفتي النَّاسَ إِلَّا وَأنا مُضْطَجع أَكثر أوقاتي لكبرى وضعفي. ثم قال لمن بلغه: وَوَاللَّه لقد صدقتك، فَانْظُر للْمُسلمين، وانصح لإمامك وَفقه الله. فَتَركه.

٦ - أَبيتُ كَمَا أَبَت السَّمَوَات وَالْأَرْض، إبايةَ إشفاق، لَا إبايةَ نفاق!

وَمِمَّنْ جاهر بالإصرار على الامتناع من الْقَضَاء، الفقيه الأديب المحدث مُحَمَّد بن عبد السَّلَام الْخُشَنِي، كَانَ فصيح اللِّسَان جزيل الْبَيَان، وَكَانَ أنوفا منقبضا عَن السُّلْطَان لم يتشبّث بدنيا، أَرَادَهُ الْأَمِير مُحَمَّد بن عبد الرحمن ليتقلَّد الْقَضَاء بجيان؛ وَأمر الوزراء أَن يُجلسوه ويُلزموه ذَلِك؛ فَفَعَلُوا وأدّوا إِلَيْهِ رِسَالَة الْأَمِير، فَأبى عَلَيْهِم وَنَفر نفوراً شَدِيدا؛ فلاطفوه وخوَّفوه بادرةَ السُّلْطَان وسطوتَه؛ فَلم يزدْ إِلَّا إباء ونفوراً. فَكَتَبُوا إِلَى الْأَمِير مُحَمَّد بلجاجه وإعياء الْحِيلَة عَلَيْهِم فِي إجَابَته. فَوَقع الْأَمِير توقيعاً غليظاً، مَعْنَاهُ: إِن من عصانا، فقد أحل بِنَفسِهِ وَدَمه. فَلَمَّا قرأوه على الْخُشَنِي، نزع قلنسوته من رَأسه وَمدّ عُنُقه، كمن يقدّمُها للسياف، أَو للمقصلة، وَجعل يَقُول: أَبيتُ كَمَا أَبَت السَّمَوَات وَالْأَرْض، إباية إشفاق، لَا إباية نفاق!

فَكَتَبُوا إِلَى الْأَمِير بِفعلهِ؛ فَكتب إِلَيْهِم أَن سلمُوا أمره وأخرجوه عَن أَنفسكُم، فَقَالُوا لَهُ: انْصَرف، فَانْطَلق عَنْهُم وَلم يهيِّجوه بعد. ([149])

٧ - يهرب فوق السطوح

وممن فرَّ من القضاء: أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار، الفقيه الزاهد الورِع، والذي خرج من بيت علمٍ وصلاح، فأبوه فقيهٌ معروف من كبار فقهاء الأندلس، ورحل إلى المشرق، ودرس على فقهاء المدينة المنورة، عُرِض عليه ولاء قضاء طليطلة فاعتذر، وقال لا أحسن القضاء، وعُرِض عليه قضاء جيان، فأبى واستعفى، فأمر الأمير أن يوكل به الحرس، حتى يبلغ به جيان، ويُكرَه على ذلك. ففعلوا ذلك، حتى أجلسوه مُرغمًا، وحكم بين الناس يوماً واحداً. وشددوا عليه الحراسة حتى لا يهرب، فلما جاء الليل صعد على السطح وأراد الهرب في ظلام الليل، وأخذ يقفز من سطحٍ لآخر، لكنه رحمه الله سقط وانكسرت فخذه، فأصبح الناس يقولون: هربَ القاضي. فانتهى الخبر الى الأمير، وقال: هذا رجل صالح. وأمر أن يبسط له الأمان، وأن يخرج مُكرَّمًا، فلما خرج ولاه الصلاة بقرطبة. وقال: نحن أحق به من غيرنا. ([150])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# إنصاف تاجر يهودي

من جليقية أقصى شمال غرب الأندلس ورد إلى ماردة تاجرٌ يهودي، ومعه جوارٍ حسان، كان من بينهن جارية بلغت الغاية في الحسن، نما أمرُها إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن، أمير ماردة آنذاك، فأرسل من يشتريها من التاجر اليهودي، الذي بالغ في ثمنها، سيَّما وقد ولع بها الأمير الشابُّ، وتمسّكَ اليهوديُّ، وأصر الأميرُ على الثمن الذي رآه، فهمس أحد بطانة السوء أن يأخذها من التاجر رغم أنفه، ثم يُرضيه بعد ذلك، ثم أوعز إليه أن يرسل من يخطفها، ويحبسها في مكانٍ خفيٍّ إلى أن يرضخ اليهودي ويرضى بالثمن الذي يراه الأمير.

واختفت الجاريةُ، وبحث اليهوديُّ عنها في كل مكان، وحامت شكوكُه حول الأمير، لكن كيف يشتكيه ولمن؟ وهو حاكمُ ماردة ووليُّ العهد!

وقف التاجرُ حائرا حزينا، على تلك الجوهرة النفيسة التي خُطفت منه، فدلَّه بعض التجار على قاضي البلدة، وأكد له أن القاضي سينصفه من الأمير.

كان القاضي سليمان بن الأسود رجلاً صالحاً متقشِّفاً، صليباً في حكمه، مهيباً، لا يخشى في الحق لومة لائم.

فزع إليه اليهودي، ورفع مظلمته، استمع له القاضي وطلب من يشهد له، فاستشهد بمن حول دار الإمارة ممن عرف خبرها، فأرسل القاضي في الحال إلى الأمير محمد من يستدعيه لمجلس القضاء، ويعرِّفه بما ذكره اليهودي، وما أثبته الشهود، جاء الأمير فكلمه القاضي، ونصحه، وأخذ يقبِّح سوء صنيعه، وما قد يترتب عليه من فساد وظلم، ويسأله دفع الجارية في الحال إلى صاحبها، فأنكر الأمير محمد ما زعمه اليهودي، وزعم أن المدّعي يفتري عليه الكذب، فأعاد القاضي على مسمعه الكلام، وقال له مشدِّدًا: إن هذا اليهودي الضعيف؛ لا يقدر أن يدعى على الأمير بباطل، وقد شهد عندي قوم من التجار فليعجِّل الأميرُ بإنصافه من نفسه، فلجَّ الأمير، وتمادى في الإنكار وأصرّ القاضي، وانصرف الأمير.

فأرسل إليه مرةً ثانية، يقسمُ بالله العظيم لئن لم يصرف على التاجر جاريتَه، ليركبن دابته من فوره، ويأخذُ طريقه إلى الأمير والده بقرطبة، يعلمه الخبر، ويستعفيه من قضائه. فلم يلتفت الأمير محمد إلى تهديده، وظن أنه لن يجرؤ على ذلك.

فشدَّ القاضي سليمان رحاله، وركب دابته سائراً إلى قرطبة؛ وكانت دار الإمارة على الطريق فرآه الحراس وهو ماضٍ في طريقه وعرفوه، فأسرعوا لإخبار حاشية الأمير، وكانت طريقه على باب دار الإمارة؛ وكانت المسافة بين

ماردة وقرطبة تربو على عشرين ميلا= ٢٤٥كم، فدخل الفتيان إلى محمد؛ فعرّفوه بسيره؛ فأشفق من ذلك، وأرسل خلفه فتى من ثقاته، يقول له: إن الجارية قد وجدوها عند بعض فتيانه، وقد كان أخفاها بغير أمره، وها هي حاضرة، تردّ إلى صاحبها التاجر اليهودي، فلحقه الرسول على ميل أو نحوه من ماردة، وأعلمه.

فقال: والله لا أنصرف من موضعي راجعاً، أو أوتى بالجارية إلى هذا المكان، ويقبضها اليهودي هاهنا، وإلا مضيتُ لوجهي فأرسل محمد الجارية إليه. فلما صارت بين يديه، أرسل في طلب اليهودي مولاها، وإحضار ثقات من ثقات أهل البلد، ودفعها إليه بمحضرهم. وأقر الأمير بخطئه، وأكبَرَ القاضي، وعَرف له قدره.

ومرت الأيام، وتولى الأمير محمد الخلافة بعد أبيه عبد الرحمن.

ترى ماذا سيفعل بهذا القاضي الذي أرغم أنفَه، وحطّم غروره، وأفسد عليه خطته! وحال بينه وبين مشتهاه!

ها هي الفرصة قد سنحت له بعد أن خلا له الجو، فهل سينتقم من هذا القاضي وينكِّل به؟ أم ينفيه بعيدًا عن مملكته حتى لا يؤرق يوما مضجعه!

كلا والله، بل أكرمه وقدَّمه وولاه قضاء قرطبة، وأعزّه وكان نعم العون له على إمضاء أحكامه. ([151])

فالعدل أساس الملك، وبهذا القاضي وأمثاله ممن لا يخشى في الحق لومة لائم نعِمَت الشعوبُ والرعايا في بلاد الإسلام، بظلال العدل، وساد الأمن وعم الرخاء.

(مَلَكْنا فَكَانَ العَفْوُ مِنّا سَجيّةُ

ولّما ملكتم سَالَ بالدّم أبطَحُ)

(وحَسبُكُمُ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْننَا

فكلُّ إِنَاء بِالَّذِي فِيهِ ينضحُ)

-هذه هي عدالة الإسلام وهذا هو القضاءُ الراشدُ لا يستثني ولا يجامل ولا يحابي، ولا يميّز بين الناس..

فمن يعذرني؟

قال الإمام الطُّرطوشي رحمه الله: أخبرني شيخ ممن كان يصحب العلماء بالقيروان، يقال له جرير قال: نزلت عندنا بالقيروان قصة لم يسمع بمثلها في السالفين، وذلك أن بعض الجزارين أضجع كبشا ليذبحه، فتخبّط بين يديه

وأفلت منه وذهب، فقام الجزار يطلبه وجعل يمشي إلى أن دخل إلى خربة، فوجد رجلا مذبوحا يتشحَّط في دمه ففزع وولى هاربا، وإذ بخبر القتيل عند صاحب الشرطة، فخرج مع الجنود يبحثون عن القاتل، فصادفوا الجزار وبيده السكِّين ملطَّخٌ بالدماء، فربطوا بين ذلك وبين الرجل المقتول في الخربة، فقبضوا على الجزار وحملوه إلى السلطان.

فقال له السلطان: أنت قتلت الرجل؟ قال: نعم!

فما زالوا يستنطقونه وهو يعترف اعترافا لا إشكال فيه، فأمر به السلطان ليُقْتَلَ فأُخرج أمام الحشود الغفيرة، الذين اجتمعوا ليشاهدوا القصاص، فلما وضعوه على النطع" بساط مفروش" وجاء السياف، وسلّ السيف من غمده، ولوّح به في الهواء، واستسلم الرجل للقضاء، وحبس الناسُ الأنفاس، أمام هذه اللحظة الدامية، اندفع رجل من المتحلّقين حول المشهد، وقال بصوتٍ مرتفعٍ: يا قوم لا تقتلوه! فأنا القاتل! فارتخى السيف في يدي السيَّاف، وأقبل الجنودُ على القاتل وقبضوا عليه، وتفرق الجمع في دهشةٍ واستغراب، وارتفعت أصواتهم باللغط، وانفضَّ الجمع، وحُمِلَ القاتلُ إلى السلطان، فاعترف مُجدّدًا، مكررا: أنا قتلته!

فقال السلطان قد كنتَ معافى من هذا، فما حملك على الاعتراف؟ فقال: رأيتُ هذا الرجل يُقتل ظلما فكرهت أن ألقى الله بدمِ رجلين. فأتيتُ لأطهر نفسي بالقصاص، وألقى الله تائبا.

فأمر به السلطان فقُتِلَ، ثم قال للرجل الأول: يا أيها الجزار! ما دعاك إلى الاعتراف بالقتل وأنت بريء؟

فقال: وما حيلتي يا مولاي! رجل مقتول في الخربة، وأخذوني وأنا خارج من الخربة، وبيدي سكين ملطخة بالدم، فإن أنكرتُ فمن يصدقني؟ وإن اعتذرتُ فمن يعذرني؟

فخلّى السلطانُ سبيلَه، وانصرف مكرّمًا. ([152])

موقف لا يخلو من صدق ونبل، قاتلٌ معتدٍ لكنه عاد إلى رشده، وثاب إلى صوابه، وسلم رقبته للسياف!

أما الجزار المتهم، والذي اعترف بما لم يقترف، فهو مقصِّر في حقِّ نفسه، إذ الدفاع عن النفس والسعي إلى تبرئتها مما رميت به حق للإنسان، بل واجب عليه. الحقيقة لابد من ظهورها ولو بعد حين، فلا يستسلم الإنسان إذا ما اتهم بغير حق- بل يدفع عن نفسه التُّهم الباطلة، وإن لم يصدقه أحد، فالحق لا يضيع، والبريء سوف تظهر براءته، ولو بعد حين، أما المجرم الجاني فجريمته تطارده وتلاحقه، حتى تفضحه وتمحقه، وإن طال الزمان.

# من دهاء المعتضد ١

حطب أغلى من الذهب!

كان المعتضد داهيةً في السياسة والتدبير، يكيد لأعدائه وهو رابض في وكره، فنهاره في الكيد والتدبير، وليله في السهر والسّمر، له حكايات شنيعة تدل على فرط القسوة وفظاعة السطوة، يدبر وهو على أريكته ويمكر بأعدائه وخصومه فيلحق بهم الدواهي، كما قيل عنه: «جرّد نَهَاره لإبرام التَّدْبِير وأخلص لَيْله لتملّي السرُور «. وَكَانَ هذا السفاح قد «أُوتِي من جمال الصُّورَة وَتَمام الْخلقَة وفخامة الهيئة وسباطة الْبُنيان وثقوب الذِّهْن وَحُضُور الخاطر وَصدق الْحس مَا فاق أَيْضا على نظرائه». كان عاشقا للنساء، خلف بعد موته سبعين جارية من الحسان، فكان مع يقظته وإحكام تدبيره ذا كلف بالنساء، مولعا بجلبهن من سائر النواحي. ([153])

كان أكبر من يناوئه من المتغلبين المجاورين له وأشدُّهم عليه بأسًا البربرَ بقرمونة وأعمالها من نواحي إشبيلية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ففرّق كلمتهم وشتّت أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد حتى صفت له أموره.

كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر، بلغ من لطف حيلة المعتضد العبادي وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عينا له بقرمونة كتابًا في بعض أمره، ولكن كيف يصله هذا الكتاب، دون أن يشعرَ به أحدٌ؟

فكان أن استدعى رجلاً من بادية إشبيلية شديد البَلَه كثيرَ الغفلة، وقال: له اخلع ثيابَك وألبَسَهُ جبةً جعل في جيبها كتابًا وخاط عليه، ففرح الرجل بها فرحا عظيما، ثم قال له الأمير: اخرج إلى قرمونة، فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب، وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحابُ الحطب ولا تبعها، إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي بقرمونة.

فلما قرب البدوي من قرمونة جمع حزمة من الحطب، ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع حزمة صغيرة، ودخل بها البلد ووقف في موقف الحطّابين، فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته، فإذا قال: لا أبيعها إلا بخمسة دراهم، ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه، فلم يزل كذلك إلى أن أجنّه الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول هازئا: هذا آبنوس! ويقول الآخر: ساخرا: لا بل هو عود هندي، وآخر يقول إنه عاج! وما أشبه، حتى مر به صاحب المعتضد فقال: له بكم تبيع حزمتك هذه؟ فقال: بخمسة دراهم!

فقال: قد اشتريتُها فاحملها إلى البيت فقام يحملها - والرجل بين يديه - حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهمَّ بالانصراف

قال: له أين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق؟ بل تبيت الليلة عندي فإذا أصبحتَ رجعتَ إلى منزلك فأجابه فأدخله إلى بيت وقدم له طعاماً وسأله كأنه لا يعرفه من أين أتى؟ فقال: أنا من بادية إشبيلية.

قال: يا أخي ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمتَ نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم؟ فقال: حملتني على هذا الحاجة! ولم يظهر له أن المعتضد أرسله فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم فلما رأى غلبة النوم عليه قال: له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسمك! فتجرد الرجل ونام، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة، وخاط عليه كما كان، فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى إشبيلية وقصد باب دار الإمارة واستأذن، فأدخل على المعتضد، فقال: له اخلع تلك الجبة، وكساه ثوباً حسناً فرح بها البدوي وخرج من عنده مزهوًّا يرى أنه قد خلع عليه، ولم يعلم فيم ذهب ولا بم جاء! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه، وأبرم ما رآه من أمره. ([154])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

## من دهاء المعتضد ٢

# أغرب جريمة قتل!

كان المعتضد العبادي أمير أشبيلية مستبدًّا ظالما مسرفا، بلغت به القسوةُ أن قتل ولده إسماعيل؛ لأنه خالفه الرأي، ولم يكن يتورع أن يتخلّص من أي خِصْم ينافسه على ملكه، أو يهدد مملكته، فكان وحشًا ضاريًا، سيلا جارفا، لمن يقف في طريقه، مرهف الحس في أمسياته ومسامراته، رقيق الحاشية، عاشقا متيَّما، مولعاً بالجواري والغناء والشراب والقصف، أديبًا شاعرا متذوِّقًا للشعر، أُنِشدَت بين يديه أعذب القصائد، وهو القائل:

قسمتُ زماني بين كدٍّ وراحة

فللرأي أسحارٌ وللطيبِ آصالُ

فأُمسي على اللذات واللهو عاكفاً

وأُضحِي بساحات الرياسة أختالُ.

وكانت له جارية بارعة الحسن تلقب بالعبادية، أهداها إليه مجاهد العامري، أديبة مغنية ظريفة كاتبة، فصيحة العبارة، لطيفة الإشارة، حاضرة الرواية قريبة النادرة، فوق أنها تحسن الغناء، وكان المعتضد يميل إليها ميلا شديدا، ويشغف بها شغفا مُفرِطًا، حتى أنها ألهته عن بعض أموره، وكانت من توقُّد قريحتها وحضور بديهتها ترتجل الشعر، ومن ذلك أنها كانت نائمة ذات ليلة وكان المعتضد سهران فدخل عليها وهي نائمة فقال:

تنامُ ومُدنفُها يَسهَرُ ... وتُبصرُ عنه ولا يُبصرُ

فانتبهت، ونظرت إليه بطرف عينها، وأجابته بديهة بقولها:

لئن دام هذا وهذا بهِ

سيهلِكُ وَجْدًا ولا يَشعُرُ

هكذا عاش المعتضد العبادي بين عالمين متناقضين عالم السحر والجمال والأدب والغناء والقصف والشراب، وليالي الأنس مع الجواري الحسان وعالم المكر والدهاء والغدر والقتل.

كان مع هذه الرقة والظُّرف وحشا ضاريًا في تعامله مع خصومه ومناوئيه.

بلغه أن رجلا أعمى في بلد الله الأمين، لا يفتأ يذكره بالسوء من القول، فعزم على أن يخرس لسانه، واحتال في ذلك بأعجب الحيل، دون أن يبرح مكانه

بإشبيلية، كان هذا الرجل من بادية إشبيلية، وضع المعتضدُ يده على مالٍ له، حتى ساء حالُه وافتقر، وأصابه العمى، ورحل إلى مكة، وعاش كمدًا، فلم يزل يدعو على المعتضد بالبلد الحرام، إلى أن نما خبره للمعتضد، بلَّغه بعض الحجيج الأندلسيين أن هناك من يدعو عليه، ويشتكيه للحاضر والبادي، والقاصي والداني، فاستدعى بعضَ من يريدُ الحج، وناوله حُقًّا فيه دنانير ذهبية، وقال: لا تفتحْ هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة، وسلِّم عليه عنا، فلما وصل مكة لقي الرجلَ الأعمى، فوجده في حالةٍ يُرثى لها، فدفع إليه الحُقَّ الممتلئ بالدنانير الذهبية، وقال: هذا من عند المعتضد، تُصْلِحُ بها شأنك، وهو يقرئك السلام، ويطلب منك السماح.

فأنكر ذلك الأعمى، وأوجس في نفسه خيفة، وارتاب في الأمر، وقال: كيف يظلمني بإشبيلية، وينهب أموالي، ويسلبني ضيعتي وعقاري، ثم يرسل مالا يتصدق به عليّ بالحجاز!

وانفجر في بكاء مرير، وقد تذكَّر ما وقع به من ظلمٍ شنيعٍ، وجورٍ بيِّنٍ.

فلم يزل الرجل يخفِّضه، ويخففُ عنه، إلى أن سكن، وأخذ الحُقَّ، فكان أولَ شيء فعله أن فتح الحُق، فظنَّ أن المعتضدَ ندم على ما فعل، وأرسل إليه المال؛ تكفيرا عن جرمه في حقِّه، ففرح بالمال، وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه، كعادتهم، يضعون الدينار تحت ضروسهم ويعضُّون عليه، وجعل يقلب سائر الدنانير بيده فرحًا بها، ويضعُها في فمه.

والمسكين لا يدري ما وراءها!

أخذ يلوكُ بفمه الدنانير، وهو لا يعرف أنها منقوعةٌ في سُمٍّ زُعاف، ذاق طعم الذهب وسرى السمُّ في حلقه، ودخل جوفه، فما برح أن تمكّن منه، ليقضى نحبه، بعد سويعاتٍ، وهو في حرم الله الآمن.

فيا للعجب! رجل بالمغرب الأقصى يقتل رجلا بالحجاز! بهذه الحيلة التي لا تخطر ببال، هكذا كان يتخلّص المعتضد الملك الشاعر المرهف الحس، بهذه الوحشية من خصومه.

لم يرع للبيت حرمة، وماذا يضيره من رجل أعمى، ينفِّس عن نفسه، بشكوى ظالمه الذي يبعد عنه زهاء ثلاثة آلاف من الأميال،[٤,٧٣٦كم]، كما تفصله عنه بحار وقفار، وجبالٍ ووديان؛ ولكنه الظالم يسعى إلى محو آثار ظلمه، فيسعى للإجهاز على المظلوم، وإخراسه بكتم أنفاسه، حتى يتخلَّص من كلِّ ما يذكرُه بماضيه الأثيم.

وعند الله تجتمع الخصوم.

هذا الجبار الذي يرتكب جرمه الأثيم في بلد الله الحرام ألم يقرأ قول الحق {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ مَ جِدِ حَرَامِ ٱلَّذِي جَعَ نَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً عَٰكِفُ فِيهِ وَ بَا وَمَن يُرِ فِيهِ بِإِ حَا بِظُ نُّذِ هُ مِ عَذَابٍ أَلِي }[الحج:٢٥]. ([155])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# راعي الخنازير!

أعوذ بالله من رعاة الخنازير!

قوي أمر أذفونش ملك الإفرنج بالأندلس حتى كانت ملوك الطوائف يصالحونه، ويؤدون إليه ضريبةً باهظةً، ثم استفحل أمرُه لما أخذ طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بعد حصار شديد، وكانت مملكة للقادر بالله بن ذي النون، وكان أخذُها نذير شؤمٍ حتى قال ابنُ العسال الطليطلي:

حثُّوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الغلط

السلك يُنثرُ من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منثورًا من الوسط

من جاور الشر لم يأمَن عواقبَه

كيف الحياةُ مع الحيات في سَفَطِ

ورغم أن المعتمد بن عباد من أكبر ملوك الطوائف وأوسعهم ملكاً، بيد أنه كان يؤدي الضريبة لأذفونش، فلما ملك الطاغية طليطلة وما حولها من حصون، لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده، وأرسل إليه يهدِّده ويقول له: تنزلُ عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهلُ، وأساء سفيرهُ الأدب، فضربه المعتمد، وقتل من كان معه، فبلغ الخبر أذفونش وهو متوجِّهٌ لحصار قرطبة.

فنزل الطاغية النصراني الأذفونش على أطراف إشبيلية يتراءى له قصر ابن عبّاد، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عبّاد هازئا به مزريًا عليه: كَثُرَ بطول مقامي في مجلسي الذبّان، واشتدّ عليّ الحرّ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها عن نفسي وأطردُ بها الذباب عني، فوقّع له ابن عبّاد بخط يده في ظهر الرقعة: قرأتُ كتابك وفهمتُ خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود في أيدي الجيوش المرابطية تريح منك لا تروّح عليك إن شاء الله.

فلما ترجم لابن فرذلند توقيع ابن عبّاد في الجواب أطرق إطراق من لم يخطر به ذلك، وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عبّاد وما أظهر من العزيمة على إجازة جيش المرابطين والاستظهار بهم على طاغية النصارى، فاستبشر الناس، وفتحت لهم أبواب الآمال.

وانفرد ابن عبّاد بتدبير ما عزم عليه من دعوة يوسف بن تاشفين، ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه من ذلك، فمنهم من كتب إليه ومنهم من

شافهه، كلهم يحذّره مغبّة ذلك، وقالوا له: الملكَ عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد! فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلا: رعي الجمال خير من رعي الخنازير. أي أن كونه مأكولا لابن تاشفين أسيرا يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزّقا لابن فرذلند أسيرا يرعى خنازيره في قشتالة.

وقال لعذَّاله ولُوَّامُهُ ياقوم: إني من أمري على حالتينِ: حالةُ يقينٍ، وحالةُ شكٍّ، ولابد لي من إحداهما، أما حالةُ الشكِّ: فإني إن استندتُ إلى ابنِ تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكنِ أن يفيَ لي ويبقى على وفائِه، ويمكنُ أن لا يفعلَ فهذه حالةُ شكٍّ، وأمَّا حالةُ اليقينِ فإنِّي إن استندتُ إلى ابنِ تاشفين فأنا أُرضي اللهَ، وإن استندتُ إلى الأذفونش أسخطتُ اللهَ تعالى، فإذا كانت حالةُ الشكِّ فيها عارضةً، فلأيِّ شيءٍ أدعُ ما يُرضِي اللهَ وآتِي ما يُسْخِطُهُ، فحينئذٍ قَصُرَ أصحابُه عن لومِهِ.

وكان الفقهاءُ قد نصحوه بذلك، وكذلك قاضي القضاة أوصاه أن يستنجد بأمير المرابطين.

ثمّ إنّ ابن تاشَفين نزل سَبْتَة، وأمر جيشه، فعبروا إلى الجزيرة الخضراء، ولمّا تكامل له جُنْدُه عبرَ هو في السّاقة، ثمّ اجتمع بالمعتمد. وقد عرض المعتمد عساكره. وأقبل المسلمون من كلّ النّواحي طَلَبًا للجهاد. وبلغ الأذفونشَ الخبرُ فخرج في أربعين ألف فارس، وكتبَ إلى ابن تاشَفين يتهدّده، فكتب ابن تاشَفين جوابه في ظهر كتابه: «الّذي يكون سَتَراه». فلمّا وقف عليه ارتاع لذلك، وقال: هذا رجل عازم.

ثمّ سارَ الفريقان والتقى الْجَمْعَان بالزّلّاقة من بلد بَطَلْيُوس، فكانت مَلْحمةً كبرى، هزم الله فيها الأذفونش، بعد استئصال عسكره، ولم يَسْلَم معه سوى نفرٍ يسير. وذلك في يوم الجمعة من رمضان سنة تسعٍ وسبعين. وأصاب المعتمدَ جراحاتٌ في وجهه وبدنه، وشهدوا له بالشّجاعة، وغنم المسلمون شيئًا كثيرًا.

ثم عاد ابن تاشفين إلى الأندلس في العام الثاني وخرج إليه المعتمد، وحاصرا بعض حصون الفرنج، فلم يقدرا عليه، فرحلا عنه ومر يوسف على غرناطة، ودخل قصر أميرها فوجد فيه من الأموال والذخائر ما لا يحصى. ثم رجع إلى مراكش فأعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمطاعم والأسواق والمرافق والحمامات، والمنتزهات، وسائر المباهج التي لا توجد في مراكش، وجعل خواص الأمير يوسف يعظِّمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذها، ويوغرون صدره على المعتمد بأشياء نقلوها عنه حتى تغيَّر عليه، فلما انتهى إلى سبتة جهز إليه العساكر، وعبروا البحر، فلما وصلوا إلى إشبيلية وبها المعتمد حاصروه أشد محاصرة، وظهر من مصابرة المعتمد

وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يُسمع بمثله، والناس بالبلد قد استولى عليهم الفزع وخامرهم الجزع، يقفزون إلى النهر، أو يرمون بأنفسهم من فوق الأسوار العالية طلبا للنجاة.

فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة ٤٨٤ هجم عسكر الأمير يوسف على البلدة وشنَّوا عليها الغارات، ولم يتركوا لأحد شيئاً، وخرج الناس من منازلهم فزعين، وقُبِضَ على المعتمد وأهله، وكان قد قتل له ولدان قبل ذلك، أحدهما: المأمون، وكان ينوب عن والده في قرطبة فحصروه بها إلى أن أخذوه وقتلوه، والثاني الراضي، كان أيضاً نائباً عن أبيه في رندة وهي من الحصون المنيعة فنازلوه وأخذوها وقتلوا الراضي، فكانت فاجعة لأبيهما أيّما فاجعة. وذهبوا بالمعتمد وآلِه بعد استئصال جميع أحواله، وعبروا بِهِ إلى طنجة، فبقي بها أيامًا، ثُمَّ نقلوه إلى مِكْناسَة، فتُرِك بها أشهرًا، ثمّ نقّلوه إلى مدينة أغْمات، فبقي بها أكثر من سنتين محبوسًا، حتى مات. ([156])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# لو ملأتَها بُرًّا لملأناها تِبرا!

مدينة الشعر والشعراء مدينةٌ قلَّ أن يُرى من أهلها من لا يقول شعراً، ولو مررتَ بالحرَّاث خلف محراثه، وسألته الشعر لقرض في ساعته، ما تقترحُه عليه من المعاني، يصوغه ببراعة فائقة، دون تكلُّف! وكذلك البائعُ الجوالُ يشدو مروِّجًا لبضاعته في السوق أو الزّقاق، والأطفال في الطرقات ينشدون أعذبَ الأهازيج، والنساء في البيوت يتخاطبن بالشعر، فكانت شِلْبٌ تموج ببحور الشعر، تتنفس شعرا، وتبيع وتشتري به، فأينما غدوتَ في هذه المدينة ستطربك الأشعار، حتى إن امرأة شِلْبية عزلتْ بأبياتٍ والي شِلب وقاضيها وصاحب الخراج! حيث تظلّمت من ثلاثتهم فكتبت هذه الأبيات إلى المنصور أبي يوسف أمير الموحدين:

(قد آن أن تبكي العيونُ الأبية

ولقد أرى أن الحجارة باكية)

(يا قاصدَ المصرِ الذي يُرجى به

إن قدَّر الرحمن رفعُ كراهية)

(نادِ الأمير إذا وقفتَ ببابه

يا راعيًا إن الرعيةَ فانية)

(أرسلتَها هملا ولا مرعَى لها

وتركتَها نهبَ السباعِ العافيةِ)

(شِلْبٌ كلا شِلْبٍ وكانت جنةً

فأعادها الطاغوتُ نارا حامية)

(خافوا وما خافوا عقوبةَ ربِّهم

واللهُ لا تخفى عليه خافية)

يقال إنها ألقيت يوم جمعة على مصلى المنصور أمير الموحدين، فلما قضى الصلاة وتصفَّحها، عزل الوالي والقاضي وصاحب الخراج بعد بحثه عن القصة ووقوفه على حقيقتها، وأمر للشاعرة الشلبية بصِلة سنية. ([157])

تبدأ الحكاية من قرية جميلة من قرى شلب، حيث ولد ابنُ عمار خاملَ البيت، ليس له ولا لأسلافه في الرئاسة من قديم الدهر ولا حديثه حظ، نما وترعرع في طفولته المبكرة في قريته الصغيرة شنبوس ومنها انتقل إلى مدينة

شلب، ليتعلم على جماعة من أدبائها، فيمتهن الشعر، ويكتسب به معاشَه، حيث كان دأب المرتزقة من الشعراء، وقد صقل موهبته تلك البيئة الخصبة وتلك الحياة الزاخرة بالشعراء. ([158])

ورد ابن عمار مدينة شلب طفلًا فقيرا فنشأ بها، وتعلّم الأدب علي جماعة، ثم رحل إلى قرطبة فتأدّب بها، ومهر في صناعة الشعر، فأجاد، وأصبح شاعرا مطبوعا، جزل العبارة، سريع الخاطر، متفننا.

قُصَارَى أملِهِ أن يتكسب بشعره قوتَه؛ فلما جادت قريحتُه، وصُقلتْ موهبتُه، طفق يجول في ربوع الأندلس مسترفدًا ومستجديًا، يجود بشعره على من يطمع في نواله، ويرجو رِفدَه، لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي من يمدحُ ومن يستعطف من ملك أو سُوقة، وله في ذلك خبر ظريف:

عندما أزمع الرحيلَ إلى قرطبة، حين لم تتسع شلب لطموحه وآماله، وقد نال حظّه منها، فتأدّب بها، ومهر في صناعة الشعر، وامتلك زمام حرفته، وانطلق يدورُ بها في البلدان، يتكسّبُ ويقتاتُ الكفافَ، ممتدحًا كل من يلقاه من ملوك وأمراء ووجهاء وأغنياء، يتحفهم بما يروق لهم سماعه، فيكيل المديح، ويبالغ فيه، يرجو نوالهم، مستجديا تارةً ومستعطفًا أخرى، حتى أصبح يستعذب الكذب، وصار يتملّق بشعره الذي رخّصه، وامتهنه وبذله لكل من طلبه، لا يمانع أن يشبِّه القرد بالغزال، ولا يبالي أن يصف الظالم بالعدل، ويمدح الشحيح بالكرم والجود، ويصف الجبان الرعديد بالشجاعة والإقدام، ويلبس العيي رداء البلاغة والبيان، ويتوّج الأحمق الأخرق تاج الحكمة، فلم يزل يجول بسلعته في الأندلس مسترفدًا لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو صعلوك، يكيل من الشعر، يستجدي به.

رحل من شلب يطوف في بلاد الأندلس، لكنه عاد في نهاية المطاف صفر اليدين يجرُّ أذيال الخيبة، ويطوي من الجوع حتى حماره المسكين الذي كان يسافر عليه قد أصابه الهزال، فما عساه يصنع وليس يملك مطيَّةً سواه، ولا يقدر على إطعامه، وقف الحمارُ في سوق الغلال، وانطلق في النهيق، وكأنه يلقي قصيدة، يبثُّ فيها همومه، ويستجدي من يجود عليه بوجبة من الذرة والشعير، أليس هو حمار الشاعر؟ ألم يتعلم المهنة من صاحبه، وماذا عليه لو نهّق حتى يستدرَّ العطف، ويستجدي الحبَّ والعصف، فهو حمار الشاعرِ ورفيقه في حلِّه وترحالِه، سيخلّد التاريخُ الأدبيُّ ذكرَه، ويسجِّل عليه تلك النهقة أو العلفةَ التي كانت جائزةً حازَها صاحبه بقصيدة من النُّهاقِ عصماء.

نهق الحمار بلحن رتيبٍ، فهل يرثى له أحد، أو يقدر تفننه، فيكافئه على نهيقه المنظوم، ونبرته المؤثرة، الذي سار على وتيرة واحدة، فاعلن فاعلن

مستفعلن. هاقٍ هاقٍ هاق

لم يطرب أحدٌ من نهقة الحمار التي نظمها، بل لم يرث أحدٌ لنشيجه، ولم يذرف له دمعٌ، أو يرقَّ له قلبٌ، إلا قلب صاحبه الذي أرثى لحاله وحار ماذا يصنع لمطيته التي علّق عليها آماله؛ فهي وسيلة ترحاله.

وقف شاعرنا يجيل ببصره في السوق حائرا يتضوَّرُ جوعًا، ويرتجفُ من شدة البرد، لا تسعفه الأسمال البالية التي يلبسها مع كثرتها.

أخيرًا هداه التفكير أن يكتب شعرا إلى رجل من وجوه أهل السوق، من كبار التجار، يمتدحه بقصيدة، فائقة بعباراته الجزلة، وسبكه النضيد، فأعجب الرجل بقصيدته وطرب لها وملأت قلبه زهوًا إقحام اسمه فيها، وكافأ ابن عمار بمكافأة رآها مجزيةً ومناسبةً لقريضه، فكان قدره عند ذلك التاجر أن ملأ له المخلاة شعيراً، فأصيب ابن عمار بخيبة الأمل، لقد توقع دراهم يشتري بها ما يقتات به، ويستعين على رحلته التي لا تتوقف إلا على أبواب الملوك والسّراة، ويا ليته ملأها بُرًّا ينتفع به، فيخبز رغيفه، ولكنه بروحه المشرقة ونفسه المتفائلة رآها من أجلّ الصلات وأسنى الجوائز، وفرح به أيما فرح، واغتبط بها أعظم اغتباط، فقد ضمن – على أية حال- علف حماره الهزيل، الذي هو وسيلته للتطواف في بلاد الله، يبذلُ شعره لمن يدفع له ثمنه.

وأسعد حظاً منه وأعظم سروراً حماره الجائع الذي أقبل بنهم على مكتل الشعير، يطحنه تحت ضروسه طحنا، وهو ينظر لصاحبه نظرة رضا.

ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلُّب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف، إلى أن ورد على المعتضِدِ بالله حاكمِ إشبيلية، وكان محبًّا للشعر – كما أسلفنا- بل كان شاعرًا، فامتدحه بقصيدته الرائعة المشهورة التي أولها:

أدِرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى

والنجمُ قد صرف العنانَ عن السَّرى

والصبحُ قد أهدى لنا كافُورَه

لما استردَّ الليلُ منا العنبرَ

وفيها قال مادحا مبالغًا:

قداحُ زندِ المجد لا ينفكُّ عن

نارِ الوغى إلا إلى نارِ القِرى

وقال متملَقًا يصف وقعةً أوقعها المعتضدُ بأعدائه من البربر الذين نكّل به أشدّ تنكيلا:

شَقِيتْ بسيفك أمةٌ لم تعتقد

إلا اليهودَ وإن تسمُّوا بربرا

أثمرت رمحَك من رؤوسِ كُماتهم

لما رأيتَ الغصن يُعْشَقُ مُثْمِرا

وخضبتَ سيفَك من دماء نُحورِهم

لما عَهِدْتَ الحُسن يُلبسُ أحمرا

وفيها يقول مؤمِّلا:

أيقنتُ أني من ذُراه بجنّة

لما سقاني من نداه الكوثرا

فلئن وجدتَ نسيم حمدي عاطرًا

فلقد وجدتُ نسيمَ برّك أعطرا

كان المعتضدُ سفاكا للدماء، لا يتورع عن أي صنيعٍ يحفظ به مملكته أو يقوي دعائمها، فقد ورث هذا الملك عن أبيه أبي القاسم محمد بن إسماعيل الذي جاء إشبيلية قاضيا، واستطاع بدهائه التربعَ على عرش إشبيلية وما حولها، ليصبح بنو عباد أقوى ملوك الطوائف، حيث كانت الأندلس ممالك متفرقة، بعد انفراط عقدها.

وقعت هذه القصيدة الخالدة موقعا حسنا في نفس المعتضد، وقرر أن يكافئه فأمر له بملبس فاخر ومركب فخم، أليس من العجيب اجتماع النقيضين في المعتضد قسوته وتخضب يده بدماء من ينازعه، حد سيفه المصقول، وحسه المرهف، وتذوقه للأدب، وتقريبه للشعراء واحتفاؤه بهم!

دخل ابنُ عمار الحمامَ الملكيَّ، وخلع إلى غير رجعة تلك الأسمالَ الباليةَ التي كانت تسترُ جسدَه، وقبلها أطلق سراحَ حمارِه المسكين، ليرعى ما تبقَى له من حياةٍ في أرض الله الواسعة.

ذلك الصنيعُ الذي رآه الشاعر قد نظنه من باب الرحمة والإحسان والرفق بالحيوان، لكنه في الواقع تخلُّصٌ من كل ما يربطُه بماضيه المقفر، إنها أسوءُ مكافأة قدَّمها لرفيق دربه الذي استغنى عنه بعد خدمة طويلة حمله خلالها إلى أبواب الملوك مُطِيفا به ربوع الأندلس.

كَتِبَ ابن عمار في ديوان الشعراء، مما قرّبه من المعتمد بن عباد، وهو إذ ذاك شاب فلم يزل يحتال في كسب مودته، ويتصنّع، ويرمي الشباك إلى أن صار ابن عمار ألصقَ بالمعتمد وأدنى إليه من حبلِ وريدِه، فكان لا يستغني عنه ساعةً من ليل ولا نهار، إذ كان عذبَ الحديث، فصيحَ الكلام، دائمَ السخرية حتى من نفسه، يحمل في جعبته من الحكايات والأمثال والمواقف والتجارب والطّرف حصادَ سنينٍ من الترحالِ في الأرض، والاختلاط بشتى طبقات الناس، وساعد على سرعة الألفة وإسقاط الكلفة بين ابن عمار والمعتمد ولعُ المعتمد بالشعر، بل ونظمه البديع له، مع بساطة لهجة ابن عمار، ابنِ القَرية، وثرثرته المسلِّية بلا تكلُّف ولا تنميق، بخلاف من حوله ممن يزيّنون أقوالهم ويتكلفون ويتصنّعون أمام الأمير الشاب.

تلك كانت بداية عهد جديد لابن عمار ذهب البؤس وانطوى الحرمان، وحلّت طيور السعد تغرّد فوق الأفنان، وذاق صاحبُنا حلاوةَ الأيام وطراوتها، وسكن الغرف وجلس على موائد الملوك يأكل الأطايب، وحضر في الآصال والأماسي مشاهد الشراب والقصف، وذهب للنزهة والصيد، ولبس الخز والمعصفر، والديباج والمُطرز، وعرف رائحة العود والمسك والعنبر، وشمّ الورود والرياحين، وركب الخيول المطهمة، وسافر بالعربات الفخمة، وأقبلت عليه الدنيا وتفتَّحت.

تمرُّ الأيام سراعًا ويصعد نجمُ ابن عمار ويسعد جدُّه ويمتطي صهوة المجد بمصاحبة المعتمد ابن عباد ومنادمته، لا يفارقه في حلٍّ ولا ترحال، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد حاكما لمدينة شِلْب وما حولها، ليدخلَها ابنُ عمَّار دخول الفاتحين في موكب هائلٍ، وحوله الخدم والحشم، وخرج الناسُ في استقبال حاكمهم الجديد، على ضرب الدفوف وقرع الطبول ورقص الخيول ونفخ المزامير.

وهنا تذكَّر أيامُ البؤس والحرمان، يوم دخل تلك البلدةَ بهيئةٍ مُزريةٍ وحمارٍ هزيلٍ، غاب عن هذا المشهد، لأنه تخلَّص منه، بعد أن كان مطيّته لأبوابِ الأمراء، وأعتاب الوجهاء، وحين مرَّ موكبُه الفخمُ بالسوق تذكر التاجر الذي كافأه بأن ملأ كيسه بالشعير علفا لحماره، وها هو اليوم يدخل على فرسٍ أشهبٍ وحوله الوجوه والأعيان، يتأنَّقُ بثيابه الفاخرة، فامتلأ عطفُه زهواً وانتفخت أوداجُه عُجبًا، وتظاهر بالشهامة والنخوة، فكان أول شيء سأل عنه التاجرُ صاحبُ الشعير!

فقال: لمن خرج لاستقباله من أعيان البلدة: ما صنع فلانٌ؟ أهو حي؟

قالوا: نعم.

فأرسل إليه بمخلاته بعينها ،بعد أن ملأها دراهم!

وقال لرسوله: قل له: لو ملأتها بُرًّا لملأناها تبراَ!

وكأنه يظهر تفضّله، حين يثيب من أحسن لحماره الهزيل! ([159])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

# مصفوعٌ ألفَ صفعة!

في ليلة صافية من ليالي ربيع إشبيلية، جاد فيها القمر بسناه، خرج المعتمدُ بنُ عبَّاد مع وزيره وصديقه الشاعر ابنِ عمارٍ من القصر، بعد أن شبِعوا من سماع الغناء، وتبادل الأشعار والملح.

أخذوا يتجولون في أرجاء البلدة، من غير وجهةٍ يقصدونها، لكنهما خرجا للتسلية، وطلب الفُكاهة أو طمعًا في نادرة، واجتازا الجامع الكبيرَ الذي بناه الأميرُ عبد الرحمن الأوسط، ثم مرا بالسوق المضاء بمصابيح الزيت، حيثُ كان خاليًا إلا من بعض الحراس، ثم انحرفا يسارا إلى زقاق مرصوفٍ بالحجارة، على جنبتِيه بيوتٌ أنيقةٌ، عُلِّقَتْ على أبوابها المصابيحُ المسرَّجة بالزيت، بينما تدلَّت أغصانُ الياسمين على جدرانها البيضاء، تنفحُ المارة بعبقها، أما النوافذُ الملونة والشرفاتُ البارزة فقد ازدانت بأصص الزهور، وسمع من ورائها أصوات السُّمار يترنَّمون بالإنشاد والغناء ويدندون، وربما صوت قارئ يقرأ القرآن بصوت عذب، أو بكاء طفلٍ رضيع، وصوت أمٍّ سهرت تهدهده،... أسرعا في السير حتى وصلا إلى منعطفٍ، يتجهُ يمنةً نحو زقاق ليس ممهدا، وعلى جنبتيه بيوت بسيطة متلاصقة، حتى مرّا ببابِ شيخٍ ضريرٍ معروف بكثرة التهكُّم والتندُّر، يمزجُ ذلك بإسفافٍ وانحرافٍ، وحرْدٍ يُضْحِكُ الثَّكلى.

قال ابنُ عبَّاد لصاحبه ابن عمار: تعالَ نضربْ على هذا الشيخِ الساقطِ بابَه؛ حتى نضحكَ منه، فضربا عليه البابَ بشدة وصخب، فردَّ بطريقة تنمُّ عن حنقٍ، وضجرٍ وتهكُّم وبرود في ذات الوقت: من بالباب؟

فقال ابنُ عبادٍ: إنسانٌ يرغب أن توقدَ له هذه الفتيلةَ، فقال ويحك! اذهب من هنا، فواللهِ لو ضَرَبَ ابنُ عبَّاد بابِي في هذا الوقتِ ما فتحتُهُ له! ظننت نفسك قيس ليلى! جئت تطلب نارا أم جئت تملأ البيت نارا، وأخذ يقهقه...

فقال الأميرُ: فإني ابنُ عباد! فقال ساخرا متهكّما، وقد غيّر من نبرة صوته الذي يجلجل في بيته الصغير: هاه! ابن عباد! حقًّا! قلتُ لك اذهب يا هذا من هنا، انصرف مصفوعا ألفَ صفعةٍ، قبل أن أفتح البابَ!

فضحك ابنُ عبَّاد حتى سقطَ إلى الأرضِ، وقال لوزيره: امضِ بنا قبل أن يتعدَّى الصفعُ من القولِ إلى الفعلِ، فهذا شيخٌ ركيكٌ صفيقٌ، وفي الصباح وجَّه له ابن عباد ألفَ درهم، وقال لِمُوصلِها: قُلْ له: هذه حقُّ الألفِ صفعةٍ التي كانت البارحةَ.

فأُسقط في يد هذا الشيخ الساخر.

وصارت تلك الواقعة أحدوثةٌ يضحك لها الناسُ في مجالسهم ويتندَّرون. ([160])

موقفٌ مضحكٌ بلا شكّ! لكنّه مؤسفٌ؛ يخرج أمير أشبيلية ليلا ليس بغرض تفقد أحوال الرعية، وتحسُّسِ أحوال الفقراء والمساكين، وإنما لمجرد التسلية والتلهِّي، وصناعة الطُّرف، وحياكة النوادر، هكذا وصل الأمرُ أن يشتغل المنوطُ بحفظ الحدود وحماية الثغور والسهر، في خدمة الرعية ومصالحها، يبيت همُّه صيد نادرة أو نسجَ أحدوثة، يتلهّى بها العوامُّ والخواصُّ! يا للأسى!

أين هذا من المواقف المبكية حين كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يخرج بالليل يتفقد أحوال الرعية، فيغيث الملهوف ويطعم الجائع، ويثيبُ المحسن، ويرعى حق الصغير، ويحسن للأيتام.

أشبيلية من ١٢٠ عاما

رؤيا ابن عمار

أرسل المعتضدُ أميرُ إشبيلية ولدَه المعتمد أميرًا على شِلْب تلك المدينة الكبيرة، الحسنة الهيئة، البديعة البناء، المرتبة الأسواق، الطيبة الغراس، الشهيرة بالمراعي الخضراء والبساتين في الجبال والسهول والبطاح.

أرسله أبوه ليتمرّس على الحكم ويتأهل لولاية العهد، فاصطحب معه قرينُ روحه وصديقه الأثير ابن عمار، كان مرافقا له مشاركا له نهارا في العمل، وبالليل نديمه ومسامره يتحفه بأشعاره ويُطرفه بمُلحه ونوادره وحكاياته.

وفي ليلة من الليالي القمرية، كان قصر الإمارة المسمّى بقصر الشراجيب، والذي بناه المعتمد، وسماه بهذا الاسم لشرفاته العالية التي بلغت الغاية في الفخامة والروعة، وهو الآن من الآثار الباقية في مدينة شلب، مع حصنها الذي لا يزال قائما، لم يغيّره الزمان وإن تغيّر أهله.

أما الديارُ فإنها كديارهم

وأرى رجالَ الحَيِّ غيرَ رجالهم

تأهَّب الصاحبانِ لأمسيةٍ شعريةٍ أعدَّ لها المعتمد، فهيَّأ لذيذ الطعام والشراب واستدعى نديمه ابن عمار إلى مجلس الأنس والغناء، وفي تلك الليلة بالغ المعتمد في التحفِّي به، فكان يسقيه بنفسه، ويتحفه بأطايب الفاكهة والنّقل، فلما جاء وقت النوم، أراد ابن عمار أن ينصرف لمنزله، وقد لعبت برأسه الخمر، فأبى المعتمد أن ينصرف وأقسم عليه: لتضعنَّ رأسك معي على وساد واحد، فكان ذلك.

قال ابن عمار: كنتُ قد أنشدتُ في تلك الليلة وأمثالها من ليالي الأنس:

يا ليلة بتناها في ظل أكناف النعيم من

فوق أكمام الرياض وتحت أذيال النسيم

ثم هتف بي هاتف في النوم يقول: لا تغترَّ أيها المسكين إنه سيقتلك، سيقتلك، ولو بعد حين. قال: فانتبهتُ من نومي فزِعًا، وتعوَّذتُ ثم عدتُ للنوم، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى! فانتبهت ثم عدتُ، فسمعته ثالثة، فانتبهتُ فتجردتُ من أثوابي والتففتُ في بعض الحُصُر – بساط مصنوع من نبات السّمر وغيره- وقصدت دهليز القصر مختبئا، وقد عزمتُ على أني إذا أصبحتُ خرجتُ مستخفيًا حتى آتي البحر فأركبه، وأقصد بلاد المغرب، فأكون في بعض جبال البربر، حتى أموت لا يعرفني أحد.

زاد من هلعي ما ارتكبه أبوه ولا يزالُ، من فظائع ومجازر بحجة حماية مملكته، والتخلُّص من خصومه.

فلما انتبه المعتمد افتقدني، فأمر بطلبي في نواحي القصر وخرج هو بنفسه، يتوكَّأ على سيفه، والشمعة تُحْمَلُ بين يديه تضيء أمامه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح؟ فوقف إزاء الحصير الذي كنتُ فيه، فحانت مني حركةٌ، فأحسَّ بي، وقال: ما هذا! الحصير يتحرك؟ ثم أمر به فنفِّض فخرجتُ ليس عليَّ إلا السراويل! فلما رآني فاضتْ عيناه دموعًا، وقال: يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا؟ فلم أر بدًّا من مصارحته، فقصصتُ عليه قصتي من أولها إلى آخِرها، فضحك، وقال: يا أبا بكر أضغاثُ أحلام، هذه آثارُ الخمر.

ثم احتضنني، وقال لي: وكيف أقتلك يا روح الفؤاد؟ أرأيت أحداً يقتل نفسَه! وهل أنت عندي إلا كنفسي! فتشكَّرت ودعوت له بطول البقاء، وتناسيت الأمر، ومرَّت الأيام.

فهل تتحقق رؤيا ابن عمار؟ هل يعقل أن يقتل المعتمد نفسَه؟

ثم ما لبث أن اتخذ المعتمدُ صديقه ابن عمار وزيرا له في تلك الولاية، وسلَّم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابنُ عمار غلبةً شديدةً، وبلغ الأمرُ لوالد المعتمد، وكان حَذِرًا متيقظًا فقرر نفي ابنَ عمار عن مملكته، فلم يزل ابنُ عمار مغتربًا في أقاصي بلاد الأندلس، إلى أن مات المعتضد، فاستدعاه المعتمد، وقرّبه مجدَّدًا أشد تقريب، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجلُ أخاه ولا أباه.

لما أفضى الأمر إلى المعتمد، سأله ابن عمار ولاية شلب بلده، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية، جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها، فاستمرت ولايةُ ابن عمار عليها إلى أن اشتدَّ شوقُ المعتمد إليه، وضعُف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة

بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد! التي انتهت بنكبة فاجعة لجعفر وآله من البرامكة في بغداد.

ولم يزل المعتمد يعدُّه لكل أمر جليل ويؤهِّله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر إلا قام عليه خير قيام، واشتُهِرَ أمره ببلاد الأندلس، حتى كان ملك الروم الأدفونش إذا ذُكِرَ عنده ابن عمار قال: هو رجل الجزيرة، وكان ابن عمار هو الذي ردّه بدهائه وحيلته عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما، وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها، فخافه الناس وامتلأت صدورُ أهل تلك الجهات رعبًا منه وتيقّنوا ضعفَهم عن دفعِه، فتولَّى ابنُ عمار ردَّه بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام رقعة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع، لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب ورسم أرضَها في غاية الإتقان، فخرج من عند المعتمِدِ رسولاً إلى الأذفونش، فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الأذفونش قدومَه وبالغَ في إكرامِهِ وأمر وجوهَ دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه، فأظهر ابن عمار- وكان خفيف الظل، مرِحًا- تلكَ الرقعة، فرآها بعضُ خواص الأدفنش فنقل خبرها إليه وكان الأدفونش مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار من أمهر الناس فيه، فأخبره بمكانه منه، فقال: له بلغني أن عندك سفرة في غاية الإتقان! قال: ابن عمار نعم، فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال: ابن عمار لترجمانه: قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي، فقال: له الأذفونش هاتها لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يديه، فغر فاه واتسعت حدقتاه، وقال منبهرا: ما ظننت أن إتقان علبة الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد!

ثم قال: لابن عمار كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول، فقال: له الأذفنش لا ألعب معك على حكم مجهول، لا أدري ما هو، ولعله شيء لا يمكنني!

فقال: ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه، وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا فتعلّقت نفس الطاغية بالسفرة، وشاور خاصَّته فيما رسمه ابن عمار فهوّنوا عليه، وقالوا له إن غلبتَه كانت عندك سفرة، ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبّحوا عنده إظهار الملك العجزَ عن شيء يُطلب منه، وقالوا له إنْ طلب ابن عمار مالاً، فنحن لك برده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب وأرسل إلى ابن عمار، فجاء ومعه السفرة، فقال: له قد قبلتُ.

فقال له ابنُ عمار: فاجعل بيني وبينك شهوداَ سمَّاهم له، فأمر الأذفنش بهم فحضروا وافتتحا العلبة يلعبان.

وكان الأذفونش مولعًا بلعبة الشطرنج، حاذقًا لها، لكنَّ ابنَ عمَّار طبقة في هذه اللعبة بالأندلس لا يقوم له أحدٌ فيها. (161)

فغلب الأذفونش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين، لم يكن للعلج فيها مطعنٌ، فلما حقّت الغلبة قال: له ابن عمّار هل صحَّ أن لي حكمي؟ قال: نعم فما هو؟ قال: أن ترجع من ههنا إلى بلادك!

فاسودَّ وجه الطاغية وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنتُ أخاف من هذا حتى هونتموه علي، وهمَّ بالنكث والتمادي لوجهه، فقبَّحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يجملُ بك الغدرُ وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك! فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة! فقال: ابن عمار هذا كله لك! وجاءه بما أراد، فرجع وكفّ اللهُ بأسه ودفعه بحوله عن المسلمين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأ عِطْفاه زهوا وغرورًا، فاستقبله المعتمد استقبال الفاتحين.

ثم إن المعتمد حدث له أملٌ في التغلب على مُرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير، وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبِّر لأمرها، وكان محبًّا للأدب والعلم، لا يهتم بتجهيز جيشٍ قويٍّ يحمي به بلده مع ثرائه العريض، وغِنى مملكته الصغيرة، فجهز المعتمد جيوشا عظيمة وتكفّل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فولاه ما تولى من ذلك، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية فأخذها، وأخرج ابن طاهر عنها، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية فكان بها إلى أن مات رحمه الله.

ولما تغلّب ابن عمار على مُرسية حدَّثته نفسُه وسوَّل له سوءُ طالعه أن يستبدَّ بأمرها وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرف الحيلة في ذلك إلى أن تم له بعضُه ودانت له مُرسيةُ وأعمالها، وتصرّف كأنه ملك، وعصى أوامر المعتمد، وخالفه، وطمع أيضًا في ملك بلنسيَّة إلى أن قام عليه رجل من أهل مُرسية، يقال له ابن رشيق، كان أبوه من عرفاء الجند بها، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره، فدعا ابن رشيق إلى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند، فسمع ابن عمار بذلك فجاء يركض حتى أتى المدينة، ولكن هيهات فقد غلِّقت أبوابُها دونه، فحاصرها بمن معه أيامًا فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها، فبقي حائراً لا يدري ما يصنع؟ ولا أين يتوجه؟

وقد كان بلغ المعتمدَ قيامُه عليه وخلعُ يده من طاعته، فلم ير إلا الهروبَ ملجأ، فهرب حتى لحِق ببني هود بسرقُسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم

وخافوا غائلته، وبغَّضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه ووليِّ نعمته، فأخرجوه عن بلادهم.

صورة من قصر الجعفرية - سرقسطة

وكان مما أوغر صدرَ المعتمد عليه كذلك، وصدر زوجته الأثيرة اعتماد، ما نسب إليه:

مما يزهِّدُني في ذِكْرِ أندلسٍ

أسماءُ مقتدِرٍ فيها ومعتمِدُ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعِها

كالهرِّ يحكِي انتفاخًا صولةَ الأسد.

كما أنه نظم قصيدة، وكتبها بخطِّ يده فتمكَّن يهوديٌّ خبيثٌ أن يسرقها ذات ليلة ويرسلها لابن عباد الذي أيقن بغدر صاحبه، وامتلأ قلبُه حنقًا وغيظًا، وقرر الانتقام.

ولم تزل البلاد تتقاذفه، وملوكُها تقصيه، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة، كان المتغلب عليه رجلٌ يقال له ابن مبارك، فأكرم وفادته وأحسن نزله ثم بدا له بعد أيام فقبضَ عليه وقيَّده وجعله في سجنه، فلما رأى ابنُ عمار ذلك منه قال: له لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم، فما منهم إلا من يرغب فيَّ، فمن كان أشدهم رغبةً جعل لك مالاً ووجهتَ بي إليه. وهو يطمعُ من ذلك في النجاة.

ففعل ابنُ مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغِب فيه وكتب فيمن كتب إلى المعتمد: وفي ذلك يقول ابن عمار، يروّج لنفسه، كأنه سلعة، مستعجلا نهايته، على عادته من مزج الجد بالهزل:

أصبحتُ في السوق ينادى على

رأسي بأنواع من المال

واللهِ ما جارَ على مالِه

من ضمَّني بالثمن الغالي ([162])

هكذا لا يكفُّ هذا الشاعرُ عن التندُّر والهزل، فينظم الأبيات التي سرعان ما تطير مع الرياح إلى كل مكان، كأنه يجلس أمام بوق الإذاعة فيسمعه الناس عبر الأثير في كل الأرجاء. فلما قرعت الأسماع تلك الأشعار، ونسبت لابن

عمار، اشتد حنق المعتمد عليه، ونفوذ المقدور يتسبب لموته على يديه، فلم يزل المعتمد يترصد فيه الغوائل، وينصب له الحبائل، فأمر بإحضاره مع تشديدِ قيدِه لأمن مكره واحتياله، حتى دخلوا به قرطبة وهو في الحديد، وشتَّان بين دخوله بثوب الذل والعار وقيد الجناية، وبين مواكبه عندما كان يدخل قرطبة، دخول الملوك المظفرين، كان إذا دخل قرطبة اهتزّت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فكان الكبار قبل الصغار يتزاحمون عليه الكل يمشي بين يديه أو خلفه، وصاحب الحظوة والشرف من التفت إليه ابن عمار أو ردَّ عليه السلام، والعوام يتزاحمون عليه لتقبيل ركابه ولثم طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه عن بعد لا يستطيع الوصول إليه فسبحان مغير الأحوال.

فأين هو الآن؟ وقد أُجبر على خلع عمامته؛ فدخل حاسر الرأس مطأطأ العنق.

دخلها أشنع دخول على بغل بين حِملَي تبن، وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعوامّهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال المزرية، فدخل ابن عمار قرطبة - كما ذكرنا - بعد الملك الشامخ والرئاسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنعه ما كان به أمتعه، أُدخِل على المعتمد، يرسُفُ في قيوده، ويجر أذيالِ الخيبة والندامة، فجعل المعتمد يعدِّد عليه أياديَه ونعمَه وابنُ عمار في ذلك كلِّه مطرقًا لا ينبِسُ ببنت شَفَة، إلى أن انقضى كلامُ المعتمد، فكان من جواب ابن عمار أن قال: ما أنكرُ شيئًا مما يذكره مولانا - أبقاه الله - ولو أنكرتُه لشهدتْ عليَّ به الجمادات فضلاً عمن ينطقُ، ولكني عثرتُ فأقِلْ وزللتُ فاصفحْ! فقال: المعتمد مزمجرًا: هيهات إنها عَثَرَةٌ لا تقال!

وأمر به، فأُحدِر في النهر إلى إشبيلية، فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة، وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد - المعروف بالقصر المبارك، فطال سجنه هناك.

ونظم في هذا السجن قصائد لو توسّل بها إلى حجر لحنّ ولان، لكنها كانت رُقى لم تنجَع، ودعوات لم تسمع، وتمائم لم تدفع، فمنها قوله:

سجاياك إن عافيتَ أندى وأسجحُ

وعذرُك إن عاقبتَ أجلى وأوضحُ

وإن كان بين الخطتينِ مزيةٌ

فأنت إلى الأدنى من الله تجنح

حنانيك في أخذي برأيك لا تطع

عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا

وهبني وقد أعقبتُ أعمال مفسد

أما تفسدُ الأعمال ثمَّت تصلحُ

أقلني بما بيني وبينك من رضى

له نحو روح الله بابٌ مفتح

ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم

فكل إناء بالذي فيه ينضحُ

نعم لي ذنب غير أنَّ لحلمه

صفاة يزل الذنب عنها فيسفح ([163])

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجلٌ من البغداديين فجعل يُزري على بعض أبياتِها فكان من جواب المعتمد - رحمه الله – وهو الأديبُ المنصف أن قال: أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء، لَما أعدمهُ الفطنة والذكاء، إنما نظر إلى بيت الهُذَليّ من طرف خفي وهو:

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارَها

ألفيتُ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ!

ولما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم إنشادها، فأدركت المعتمد بعضُ الرقة فوجّه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه، فأُتِي به يرسُف في قيوده، فجعل المعتمد يعدِّد مننَه عليه وأياديَه قِبَلَهُ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر، غير أنه أخذ في البكاء، وجعل يترقّق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كلّ ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد، فتمّ له بعضُ ما أراد من ذلك، وعطفت المعتمد عليه سابقتُه وقديمُ حرمته، فقال: له قولاً يتضمَّن العفو عنه تعريضاً لا تصريحًا وأمر بردِّه إلى محبسه، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضي بالله، فوافاه الكتابُ وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة، فلما قرأ الراضي الكتابَ، قال: لهم ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص، فقالوا له: ومن أين علم مولانا ذلك؟ فقال: هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص، فأظهر القومُ الفرح، وهم يضمرون غيره، فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر وزادوا فيه زياداتٍ قبيحة مستهجنة، فبلغ المعتمد ذلك، فأرسل إلى ابن عمار وقال: له هل أخبرتَ أحدًا بما كان بيني وبينك البارحة؟

فأنكر ابنُ عمار كلّ الإنكار. فقال: المعتمدُ للرسول: قل له الورقتان اللتان استدعيتَهما كتبتَ في إحداهما القصيدة، فما فعلتَ بالأخرى؟

فادعى أنه بيَّض فيها القصيدة، فقال: المعتمد هلم المسودة!! فلم يجد جوابًا، فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين، تشبه الفأس، حتى صعد الغرفة التي حُبِسَ فيها ابن عمار، فلما رآه أدرك أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف - وقيوده تثقله - حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلُهما، والمعتمدُ قد انقلب إلى وحشٍ دَمَويٍّ، لا يُثنيه شيء، فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربه به، لاَ يجرؤ أحدٌ على منعه، أو الاقتراب منه، حتى بَرد.

قتل صديق عُمره، ونديم سمَره، ورفيق دربه، وشبيه روحه، بل قتل نفسَه، كما كان يقول عن صاحبه، أنه كنفسِه.

ورجع المعتمد إلى مكانه، فأمر بغسله وتكفينه، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك.

وبهذا أُسْدِلَت الستار على حياة هذا الشاعر العصامي، الذي أودى به طموحُه، وسوء تقديره، وفلتات لسانه، وكثرة حساده، قُتِل ضحية الوشاية والنميمة والطمع.

رحم الله القتيل وعفا عن القاتل وعند الله تجتمع الخصومُ. ([164])

أما وَالله إِن الظُّلم شُومُ

وَمَا زَالَ الْمُسِيء هُوَ الْمَظْلُوم

ستعلم يَا ظلُوم إِذا الْتَقَيْنَا

غَدا عِنْد المليك من الملوم

# جور الزمان

لما مات المعتصم بن صُمَادِح ملكِ المريَّة تولى بعده وليُّ عهده الواثق عِزُّ الدولة، ومكث ستة أشهر في ترقُّبٍ، واضطرابٍ، حتى قرّر مفارقة الحكم، والتخلّي عن المُلْكَ؛ كما أوصاهُ والدُه المعتصم، أن يترقّب استيلاء يوسف بن تاشفين على مُلك المعتمد بن عباد، فإذا حدث فليسارع إلى الفرار ومعه ما يقدر على حمله من المال، فلما بلغه سقوطُ المعتمد، ونهب خزائن مُلكه، وأسرُ جواريه، ونقلُه أسيرا إلى المغرب، ركب البحر في أفضل سفنِه وحرّق الباقي؛ حتى لا يتعقَّبه أحد، وخرج بكل ما يستطيع حمله، واستقر به الأمرُ في الجزائر، تحت ظلِّ بني حماد سلاطين الغرب الأوسط. وهناك صفا عيشُه.

قال ابن اللبانة الشاعر: ما علمتُ حقيقة جور الزمان حتى اجتمعتُ ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح؛ فإني رأيتُ منه خيرَ من يُجتمَع به، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة وإحياء الفضائل، ونظرتُ إلى همتِه تنمُّ من تحت خمولِه، كما ينمُّ فرندُ السيفِ وكرمُه من تحت الصدأ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه، ورقة طباعه ولطافة ذهنه، ولقد ذكرتُه لأحد من صحبتُه من الأدباء في ذلك المكان ووصفتُه بهذه الصفات، فتشوّق إلى الاجتماع به، ورغب إليَّ في أن أستأذنه في ذلك، فلما أعلمتُ عزَّ الدولة قال:

يا أبا بكر: إنك لتعلم أني اليوم في خمول وضيق لا يتسع لنا معهما ولا يجمل بنا الاجتماع مع أحد، لاسيما مع ذي أدب ونباهة، يلقانا بعين الرحمة، ويزورنا بمنة التفضُّل في زيارتنا، ونكابدُ من ألفاظِ توجُّعه وألحاظ تفجُّعه ما يجدِّد لنا همًّا قد بَلِي، ويُحيي كمداً قد فَني، وما لنا قدرةٌ على أن نجودَ عليه بما يرضى به عن همَّتنا، فدعنا كأننا في قبر، نتدرع لسهام الدهر، بدرع الصبر، وأما أنت فقد اختلطتَ بنا اختلاط اللحم بالدم، وامتزجتَ امتزاج الماء بالخمر، فكأنا لم نكشف حالنا لسوانا، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا، فلا تحمل غيرك محملك.

ثم أنشد:

(لَك الْحَمد بعد الْملك أصبح خاملاً

بِأَرْض اغترابٍ لَا أَمرَّ وَلَا أحلي)

(وَقد أصدأتْ فِيهَا الهوادةُ منصلي

كَمَا نسيتْ ركضَ الْجِيَاد بهَا رجْلي)

(وَلَا مسمعي يُصغي لنَغَمةِ شاعرٍ

وكفِّي لَا تمتدُّ يَوْمًا إِلى بذل ([165])

وقال معبِّرا عما في نفسه التي استولى عليها اليأس:

ليبأس الناسُ من همٍّ ومن كمدٍ

فإنني قد جمعتُ الهمَّ والكمَدا

لم أُبْقِ منه لغيري ما يحاذرُه

فليس يَقْصِدُ دوني في الورى أحدا

قال ابن اللبانة: فملأ والله سمعي بلاغة لا تصدر إلا عن سداد، ونفسٍ أبيّة متمكِّنةٍ من أعِنَّةِ البيان. ([166])

وعاش الأمير حياته مستورا، ومات خامل الذكر مغموراً، رحمه الله وغفر له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# ذكرياتٌ حلوة في الزمن العصيب

من داخل سجنه نظر المعتمد بن عباد ذات يوم إلى السماء، عبر نافذة صغيرة، عليها قضبان حديدية، فرأى سربًا من طائر القَطَا، يطير بحريّة في الأجواء، فغبطها على حريتها وانطلاقها في الآفاق، «لم يعلَق لها جناحٌ ولا تعلَّق بها من الأيامِ جُناحٌ، ولا عاقها عن أفراخِها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا الأراك، وهى تمرحُ في الجوِّ، فتنكّد بما هو فيه من الوَثَاقِ، وما دونَ أَحِبَّتِه من الرُّقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجدِه وخبلِهِ». ([167])

أين هذا من أيام عزه وأمجاده؟ أين هذا من ليالي الأنس والطرب، واللهو اللعب، والصيد والقنص، والشُّرب والقصفِ، والمسابقات والتباري في الأشعار، والولع بالتُّحف والنساء، والبراعة في وصف المعاني؟

خطرَ بباله يومًا من أيام السُّرور والهنا، في صيف إشبيلية المعتدل حين خرج للصيد والتنزه في الغابات والبراري، ومعه الأصحاب والشعراء والمهرّجون، فقرر أن يسابق الجمعَ بحُصانه الأصيل فسبق الجميع، ودخل بستانًا به أشجار التين قد أينعت وحان قطافُها، فسدد لها عصا كانت بيده، فأصابت ثمرة ناضجة وتعلقت بها على الغصن، وسال العسل منها، فطرب لذلك أيَّما طرب، والتفت ليزهو بدقة تسديده، فرأى خلفه الشاعر ابن جاخ الصباغ، ([168]) قد لحق به فقال له: أجز:

كأنها فوق العصا

فتفكر الصباغ هنيهة ثم قال: هامة زنجي عصا

فضحك وطرب، وأمر للشاعر بمكافأة.

تذكر أيضا وهو في ثوب المحنة وقيد البلاء، أشعار المجون والظرف والوصف.

يا لحلاوة الذكرى المشوبة بمراراتها! ثم أين جواريه، لقد تفرّقن، وحيل بينه وبين ما يشتهي!

وضاعف آلامُه وبرّح به دخولُ «ولده أبي هاشم والقيود قد عضَّت بساقيه عضّ الأسود لفريستها، والتوت عليه التواء الأساور السود، وهو لا يطيق تحريك قدم، ولا يريق دمعا إلّا ممتزجا بدم، بعد ما عهد نفسَه فوق منبر وسرير، ووسط جنّة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، فلما رآه بكى وأنشد، كأنه يسترحم القيد» ويستدر عطفه:

قيدي أما تعلمُني مسلما

أبيتَ أن تشفق أو ترحما

دمي شرابٌ لك واللّحمُ قد

أكلتَه، لا تهشّم الأعظما

وذات مرة وزوجته اعتماد الصابرة الوفية تبكي له من هوان أمرهما وسوء عاقبتهما، ونفيهما في هذا المكان القفر، بعد عزٍّ وجاهٍ وسلطان ونعيم، في ربوع الأندلس الخضراء:

فقال مستسلما لقضاء الله:

قالت لقد هُنَّا هُنا

مــــولاي أين جاهُنا

قلتُ لها إلى هنا

صـــيّرنـــــا إلهُنـــــا

ثم زاد من ألمه أن فكّر في بناتِهِ وافتقارِهِنَّ إلى نعيمٍ عَهِدْنَهُ، وحُبُورٍ حضرنَه وشهدنه، فقال:

(بكيتُ إلى سربِ القطا إذ مررن بي

سوارحَ لا سجنٌ يعوقُ ولا كبلُ)

(ولم تكُ واللهُ المعيذُ حسادةً

ولكن حنينًا أن شكلي لها شكلُ) (169)

ما أسعد تلك الطيور تتحرك بلا قيود، وتعلو فوق الحواجز والسدود، وتتجاوز الأسوار، وترفرف حيث تشاء وتهبط حيث تلقى الأمان، تتمتع بالحرية، لا تحمل همَّ العيش ولا تدَّخر القوت، تروح وتغدو متوكلةً على الحي الذي لا يموت، أفئدتُها رقيقةٌ، وقلوبها رطبةٌ، لا تحمل حقداً ولا حسداً ولا تعرف طمعاً ولا حرصاً ولا شرًّا ولا شرهًا.

عاش المعتمد بن عباد ملكا من أعظم ملوك الأندلس، متنعِّماً يرفلُ في النعيم، وحولَهُ الخدمُ والحشمُ، والشعراءُ والمغنون، وسرعان ما انقلب عليه الزمانُ وتغلب عليه يوسف بن تاشفين، وألقى به في غياهب السجون، وحال بينه وبين المتع والملذات، والبنين والبنات، وزجَّ به في سجن مدينة أغمات، حتى لجأن بنيّاتُهُ إلى العملِ في غزل الثياب مقابل دراهم معدودات.

ودخلن على أبيهن في يوم عيد، وهن في أطمارٍ باليةٍ وحالةٍ مزريةٍ وهيئة محزِنَةٍ مُضنيةٍ، فأشفق عليهن السجّانُ، ورقَّ قلبُه عند لقائهن بأبيهن وحزنه على ما صرن إليه، فبكى علــى حالهن.

يقول: صاحب كتاب نفح الطيب « ... أول عيد له بأغمات، دخل إليه من بنيه من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار، كأنه كسوفٌ وهن أقمارٌ، ويبكينَ عند التساؤلِ ويبدين الخشوعَ بعد التخايل، والضياع قد غيَّرَ صورهُنَّ، وحيّر نظرهن، وأقدامهن حافية وآثار نعيمهن عافية، فأنشد يخاطبُ نفسه وينفِّسُ عن كربه:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً

فساءك العيدُ في أغماتِ مأسوراً

ترى بناتِكَ في الأطمارِ ([170]) جائعـةً

يغزلنَ للناسِ ما يملكنَ قِطْمِيراً

بَرَزْنَ نحوَك للتسليمِ خاشـعـةً

أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرَ

يَطَأْنَ في الطينِ والأقدامُ حافيـةٌ

كأنها لم تطأْ قبلُ مِسْكاً وكافورًا

أفطرتَ في العيدِ لا عادتْ مساوئُهُ

فكان فطرُكَ للأكبادِ تفطيراً

قد كان دهرُكَ إن تأمرْهُ ممتثِـلا

فَرَدَّك الدهرُ منهيًّا ومأموراً

من بات بعدك في ملكٍ يُسَرُّ بـه

فإنما باتَ بالأحلامِ مغروراً ([171])

# ولكلٍّ محنة نهاية

طال أَسْر المعتمد وسجنه فبلغ نحو أربع سنوات حتى أنقذه الموت من محنة السجن وقهر السجان؛ فلقي ربه بعد عيد الفطر سنة ٤٨٨ هـ، ودُفن إلى جانب زوجته الصابرة الوفية، والتي سبقته إلى القبر بأيام، فلم ترقأ له عليها عبرة ولا فارقته حسرة، حتى قضى نحبَه أسفا وحزنا.

قال الإمام الذهبي: «في (سنة ٤٨٤) استولى يوسف بن تاشفين على بلاد الأندلس قرطبة، وإشبيلية، وسَجَنَ ابنَ عباد، وفعل في حقه ما لا ينبغي لملك، فإن الملوك إما أن يُقتلوا، وإما أن يسجنوا، ويقرّر لذلك المحبوس راتبٌ يليق به، وهذا لم يفعل ذلك، بل استولى على جميع ممالكه وذخائره، وسجنه بأغمات، ولم يُجْرِ على أولاده ما يكفيهم، فكان بنات المعتمد بن عباد يغزلن بأيديهن، وينفقن على أنفسهن، فأبان بهذا ابنُ تاشفين الذي لقَّب نفسه بأمير المسلمين عن صغر نفس، ولؤم طبع». ([172])

«أخذ كل شيء يملكه، وترك أولاده فقراء». ([173])

ترك آل المعتمد فقراء، يكدُّون في طلب العيش، بعد أن كانوا منعَّمين، فكيف رضي لهم الضيم والهوان!

بنات الأمير الأسير يغزلن للناس بالأجر، وحفيده فخر الدولة يعمل أجيرًا وهو الفتى الوسيم في دكان صايغ، حتى قال أبو بكر ابن اللبانة الداني حين نظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ، وقد اغبرّ ثوبه الأبيض، واسود وجهه ويداه، بعد أن كان يرفل في النعيم ويلبس الديباج، ويشم الطيب والرياحين:

وعاد كونك في دكّانِ قارعةٍ

من بعد ما كنتَ في قصرٍ حكى إرما

صرفتَ في آلة الصياَّغ أنملةً

لم تدرِ إلا النَّدى والسيفَ والقلما

يا صايغًا كانت العليا تصاغُ له

حلياً وكان عليه الحلي منتظما

للنفخ في الصور هولٌ ما حكاه سوى

هولٌ رأيتُك فيه تنفخُ الفحما

وددتُ إذ نظرتْ عيني إليك به

لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى

وذات يومٍ والمعتمد في ظلمة السجن، في أقبيته الموحشة، يحنُّ إلى أيام المجد والسؤدد، وليالي الأنس والطرب يرعى الثُّريا ويُسامي الفرقد، ويتوق إلى ساعات الصفا، ويهفو قلبه إلى أماسيه في أبهاء القصر الكبير، والجلوس ساعة الصباح والأصائل في شرفاته المزهرة، والسهر ليالي الشتاء مع زوجته الرميكية في غرفتهما الدافئة، فتخيّل استيحاش أوطانه، وحنين قصره إلى قطّانه، وإظلام جوِّه من أقماره، وخلوِّه من سماره. فقال مشتاقا وهو في سجن أغمات:

وعسى الليالي أن تمنَّ بنظمِنا

عِقدًا كما كنا عليه وأجملا

ولربما نُثِرَ الجُمَانُ تعمُّداً

ليعود أحسنَ في النظام وأكملا

ومن شعره وقد تألّم يوماً من القيد وضيقه، وتذكّر كيف كان الحديد سنانه ودرعه، ينشد به الأمجاد ويحقق الانتصارات، وهو شاكي السلاح:

تبدَّلت من ظل عزِّ البنود

بذُلِّ الحديد وثُقْلِ القيود

وكان حديدي سناناً زليقاً

وعَضْباً رقيقاً صقيل الحديد

وقد صار ذاك وذا أدهماً

يعضُّ بساقيَّ عضَّ الأسود

من كان يظن أن الأميرات الجميلات سيعملن في غزل الأثواب بعد أن كن يلبسن الحرير والديباج! ومن كان يظن أن الأمير الصغير سينفخ الكير في دكان حداد، بعد أن كان يُهيء للرئاسة والسلطان، ويتدرب على ركوب الخيل وفنون القتال!

إنه تقلب الزمان، وصروف الدهر، وتلك سنةٌ من سنن الله، وآية من الآيات، فليحذر المرءُ من تقلب الزمان، وليحسن التصرف في نعم الله، وليحفظ الله في أيام الرخاء.

وكان من دعاء النبي :

(اللهم إني أعوذ بك من زوالِ نعمتِك، وتحوُّلِ عافيتِك، وفُجاءةِ نقمتِك، وجميع سخطك).

# الصلاة على الغريب!

على أطراف مدينة أغمات وعند باب المقبرة اصطف المشيِّعون للصلاة على غريب، غريب في قلب الصحراء! نادى المنادي بصوتٍ يجلجل في تلك البيداء، الصلاة على الغريب، الصلاة على الغريب. قُدِّمَت الجنازة، واصطفَّ الناس وهم لا يدرون من هو هذا الغريب وكيف حلّ ببلادهم المقفرة، ماذا كان يرجو ذلك المسكين من صحراء جدباء، لكنه الأجل المسمَّى في علم الله زمانا ومكانا.

أمرٌ يدعو للرثاء، والإشفاق، ميّتٌ وغريبٌ! ما أصعب الموت في بلد الغربة حيث لا أهلَ ولا صاحبٍ! يا لها من وحشةٍ! ولكن:

ليسَ الغَريبُ غَريبَ الشَّأمِ واليَمَنِ

إِنَّ الغَريبَ غَريبُ اللَّحدِ والكَفَنِ

إِنَّ الغَريبَ لَهُ حَقٌ لِغُربَتـِهِ

على المُقيمينَ في الأَوطــانِ والسَّكَنِ

سَفَري بَعيدٌ وَزادي لَن يُبَلِّغَنـي

وَقُوَّتي ضَعُفَت والمـوتُ يَطلُبُنـي

لا يزالُ رجعُ الصوتِ يهتف: الصلاة على غريب.

ها هو مُدرجٌ في كفنه المتواضع، يصلّى عليه في أعماق الصحراء، بعد أن عاش بين قصر الشراجيب والورقاء، والمبارك، في أشبيلية الشهباء وقرطبة الزهراء، وشلب مدينة الشعراء، ولكن:

مشيناها خُطًى كُتِبتْ علينا

ومن كُتِبَتْ عليه خُطًى مشاها

ومن كانت منيَّتُه بأرض

فليس يموتُ في أرض سواها

وقف الناس خلف الإمام الذي كبّر أربع تكبيرات وسلّم تسليمةً، وكان من الدعاء: اللهم ارحم غربته وآنس وحشته... لكن أي غربة؟ أهي التي كان فيها؟ أم ما هو مقبلٌ عليه، من عالمٍ جديد، وحياة أخرى، لقد انطوت صفحات حياة هذا الغريب بحلوها ومرّها، بشهدها وحنظلها، ولم يبق منها إلا ما جناه من حسنات أو سيئات.

على أية حالٍ فإن همَّ استقبال الآخرة أهمُّ من وداع الدنيا، فالوداعُ ساعات وينقضي، أما ما ينتظر الإنسان، فهو الهمُّ الحقيقيّ، الذي يقلقُه، وما فائدة أن يموت المرء بين أهله وخلانه، وقد كُتب من المعذبين!

تمضي الحياة ببؤسها ونعيمها، ويبقى مصير الإنسان وحياته الخالدة، رهينًا لما قدّم {وَمَا هَٰذِهِ حَيَوٰةُ لدُّ يَآ إِلَّا لَ وَلَعِ وَإِنَّ لدَّارَ أٰخِرَةَ لَهِيَ حَيَوَا لَ كَانُواْ يَ لَمُونَ} [العنكبوت: ٦٤]

بقي أن نعرف من هو هذا الغريب؟ الذي صلى عليه الناس، وسار بعضهم خلف جنازته يودّعونه إلى الثرى؛ مبتغين الأجر والمثوبة، ليس وراءه قريبٌ، أو صديقٌ، سوى بنات يلبسن أطمارا بالية، كأنهن الأقمار، أو النجوم الزاهرات؟

الصلاة على الغريب!

الغريب بعد أن كان ملءَ الأسماع والأبصار!

الغريب بعد أن كان لا يشقُّ له غبار!

الغريبُ الذي وُصِفَ بأنه: «أندى الملوك راحةً، وأرحبُهُم ساحةً»؟

الغريبُ الذي «كان بابُه محطَّ الرِّحال، وكعبةَ الآمال».

الصلاة على الغريب.

غريبٌ كَانَ إِذَا احْتَفَلَ رَكَبَ فِي خَمْسَةِ آلافِ فارِسٍ.

غريب كَانَ عنده ثَمَانِ مائة امْرَأة أمَّهَات أوْلادِ وَجَوارِي مُتْعَةٍ وَإِمَاءٍ.

غريب كان لَهُ مِائَةٌ وَثَلَاثة وَسَبْعُونَ وَلَدًا.

هذا المسكينُ كَانَ اللَّحْمُ المُخْتَصُّ بِقَصْرِهِ دُونَ قُصُورِ البَنِيْنَ وَالسَّيِّدَاتِ الخَارِجَاتِ فِي اليَومِ ثَمان مِائَةِ رَطْلٍ.

مسكينٌ وغريبٌ! بعد أن اتسع ملكه وانتظم سلكه!

الغريب! بعد أن مَلَكَ قرطبةَ وزهراءَهَا وحَكَمَ إشبيلية وأنحاءَهَا والجزيرة الخضراء ومرسية وأرجاءها! مُلكًا مُضاهِيًا لِلدَّوْلَةِ العبَّاسِيَّةِ فِي الجَّلالَةِ وَالبَهَاءِ.

فتبارك من له العزة والبقاء والدوام.

وسبحان من يرثُ الأرضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نقصـانُ

فلا يُغَرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتها دُوَلُ

مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءَتْهُ أزمانُ

ويدفنُ الغريب الأديب في الصحراء، ويصبحُ قبره مزارةً للشعراء، يقفون على قبره، وينشدون فيه المراثي، وفاءً وحُزنا؛ فكم كان يقربهم ويحتفي بهم.

يقف الشاعرُ أبو بحر عبد الصمد: فينشد مرثية طويلة يستهلها بقوله:

(ملكَ الملوكِ: أسامعٌ فأنادِي ... أم قد عدَتْك عن السماعِ عَوادِي)

ومنها:

(لما خلتْ منك القصورُ ولم تكنْ

فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ)

(قبَّلتُ من هذا الثَّرَى لك خاضعًا

وجعلتُ قبرَك موضعَ الإنشادِ)

ويظلّ قبر هذا الغريب مزاراً للأدباء وملهماً للشعراء، فهذا ابن الخطيب يزوره بعد وفاته بمائتين وثلاث وسبعين عاماً، يصف لنا قبره أنه في نَشْزٍ من الأرض وقد عطفتْ سدرةٌ مورقة ظليلة، وإلى جانبِه قبرُ اعتماد حظيَّتِه وعليهما هيئةُ التغرُّب ومعاناةُ الخمولِ من بعد المُلكِ، فيذرف الدموع، ويفيض قلبه بتلك الأبيات:

(قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأَغَمَاتٍ

رأيتُ ذلك من أَولَى المهمَّاتِ)

(لم لا أزورُك يا أندَى الملوكِ يدًا

ويا سراجَ الليالي المدلهمّاتِ)

(كرُمتَ حيًّا وميْتًا واشتهرتْ عُلا

فأنتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتٍ) ([174])

ومن أروع وأشهر ما قيل في رثائه: قصيدة طويلة لأبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة:

ومن جملتها:

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادِي

على البهاليل من أبناء عباد ([175])

وما أكثر مراثي الشعراء والكتاب في المعتمد بنِ عباد؛ ولا غروَ فقد كان كريمَ الشمائل، كثيرَ الأيادي، فامتدحه الشعراءُ وبَكَوه، وأثنى عليه المؤرِّخون، ورَثوه:

قال ابنُ كثير: «وقد كان المعتمدُ هذا موصوفا بالكرم والأدب والحلم، حسنَ السيرة والعشرة والإحسان إلى الرعِيَّة، والرفقِ بهم، فحزِنَ الناسُ عليه، وقال في مصابه الشعراء فأكثروا. « ([176]).

وقال ابن الأثير:» وكان من محاسن الدنيا كرماً، وعلماً، وشجاعة، ورئاسة تامة، وأخباره مشهورة، وآثاره مدوّنة». ([177])

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام: « (أحداث ٤٨٨) وفيها توفي المعتمد بن عباد مسجوناً بأغمات، وكان من محاسن الدنيا جوداً، وشجاعة، وسؤدداً، وفصاحة، وأدباً. ([178])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# مجالسُ الملوك

# سفير الأندلس في بلاط ملك المغرب

للبطانة الصالحة الناصحة دورُها وأثرُها الطيِّبُ في صلاح الراعي واستقامةِ أمورِ الرعية، والكلمةُ أمانةٌ ومسئوليةٌ، فمجالسُ الحكمِ تحتاجُ إلى الأمناءِ الصادقينَ.

جلس السلطان أبو عنانٍ المريني ملكُ المغربِ في قصره بمدينة فاس، حوله حاشيته مع نخبة من الفقهاء والأدباء، إذ كان مقرِّبا للفقهاء مولَعا بالأدب، ونوادر الحكايات، ([179])و معه ضيفٌ عزيزٌ وفد إليه من بلاد الأندلس سفيرا إنه الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب، ونتركه بأسلوبه الرصين يحكي لنا هذا المجلس، قال: حضرتُ يومًا بين يدي السلطانِ أبي عَنانٍ المريني ملكِ المغربِ في بعضِ وِفَادَاتِي عليهِ لِغَرَضِ الرسالةِ، وجرى ذكرٌ بعضِ أعدائِهِ، فقلتُ ما أعتقدُهُ في حقِّ ذلك العدوِّ، وما عرفتُهُ من فضلِهِ، فأنكرَ عليَّ بعضُ الحاضرين ممن لا يحطِبُ إلا في حبلِ السُّلطانِ، وقال متملِّقا للسلطان حانقا عليَّ: كيف تمدحُ عدوّ السلطان وأنت في مجلسه؟ أما تستحي منه؟ وأخذ يدورُ بعينيه بيني وبين السلطان، يترقَّب غضبتَه، فصرفتُ وجهِي عنه إلى السلطان، وقلتُ له: أيَّدكم اللهُ: تحقيرُ عدوِّ السلطانِ بين يديهِ ليس من السياسةِ في شيءٍ، بل غيرُ ذلك أحقُّ وأولى؛ فإنْ كان السلطانُ غَالَبَ عدُوَّهُ كان قد غلَبَ غيرَ حقيرٍ، وهو الأولى بفخرِهِ وجلالةِ قدرِه، وإن غلبَهُ العَدُوُّ لم يغلبْهُ حقيرٌ، فيكونُ أشدَّ للحسرةِ وآكدَ للفضيحةِ، فوافَقَ رحمه اللهُ تعالى على ذلك، واستحسنه، وشكرَ عليهِ، وخَجِلَ المُعترِضُ.

ورويتُ في ذلك ما أنشده أبو منصور الثعالبي:

لا يستخفنَّ الفتى بعدوه

أبدًا وإن كان العدو ضئيلا

إن القذى يؤذي العيونَ قليلُه

ولربما جرح البعوضُ الفيلا

فليتق الله كلُّ مسئولٌ، وليعلم أنه غدا أمام الله مسئولٌ. ([180]). ونعوذ بالله من بطانة السوء!

وقديما قالوا اعرف عدوك، وقالوا من لم يعرف الطير المر أكل لحمه، وقال أبو فراس الحمداني:

عَرَفتُ الشَرَّ لا لِلشَر

رِ لَكِن لِتَوَقّيهِ

وَمَن لَم يَعرِفِ الشَرَّ

مِنَ الخَيرِ يَقَع فيهِ

وقال ابن عبد القدوس:

«وَلأنْ يُعَادِي عَاقِلًا خَيْر لَهُ

مِنْ أَنْ يُصَادِقَهُ صدِيْقٌ أَحْمَقُ»

وفي الحديث يقول نبينا الكريم (المستشارُ مؤتمَن)، ويقول (الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ.).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# التعصُّب القاتل

مدينة الإسكندرية مدينة عريقة، من أقدم المدن على مر التاريخ، إن لم تكن أقدمها، وهي عروس البحر، وحاضرته، قامت على ساحله، وعاشت على خيراته، وتشبّعت من نسيمه، كان من أهم معالمها الفنارة الشهيرة، يهتدي البحارة بضوئها. وحولها القرى العامرة، ترفدها بخيرات البساتين ومحاصيل الحقول، وبها الصنَّاع المهرة، والأسواق العامرة. ([181])

ومن فضائل الإسكندرية، ترحابها واحتضانها لطلاب العلم ومشايخه، سيما القادمين من بلاد المغرب والأندلس، فكان فيها ما يسمى بالمحرس، «لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعليمه، وله طعامه، يصرف له الخبز كل يوم، بل خصص السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله لهم حماما يستحمون فيها ومارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم». ([182])

وكان القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله قد نزل الإسكندرية وأقام بأحد المحارس، وهو مُحْرِس ابْن الشَّوَّاءِ، وحدثت له واقعةٌ غريبةٌ، حكاها رحمه الله، فقال: كَانَ شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ الطَّرطوشيُّ الأندلسيُّ يَرْفَعُ يَدَيْهِ عِنْدَ الرُّكُوعِ، وَعِنْدَ رَفْعِ الرَّأْسِ مِنْهُ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ، فَحَضَرَ عِنْدِي يَوْمًا بِمُحْرِسِ ابْنُ الشَّوَّاءِ بِالثَّغْرِ، مَوْضِعُ تَدْرِيسِي عِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ مِنْ الْمُحْرِسِ الْمَذْكُورِ، فَتَقَدَّمَ إلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَأَنَا فِي مُؤَخَّرِهِ قَاعِدٌ عَلَى طَاقَاتِ الْبَحْرِ، أَتَنَسَّمُ الرِّيحَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَعَهُ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ أَبُو ثَمْنَةَ رَئِيسُ الْبَحْرِ وَقَائِدُهُ، مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، وَيَتَطَلَّعُ عَلَى مَرَاكِبَ تَحْتَ الْمِينَاءِ، فَلَمَّا رَفَعَ الشَّيْخُ يَدَيْهِ فِي الرُّكُوعِ وَفِي رَفْعِ الرَّأْسِ مِنْهُ، قَالَ أَبُو ثَمْنَةَ وَأَصْحَابُهُ: أَلَا تَرَوْنَ إلَى هَذَا الْمَشْرِقِيِّ! كَيْفَ دَخَلَ مَسْجِدَنَا؟

فَقُومُوا إلَيْهِ، فَاقْتُلُوهُ، وَارْمُوا بِهِ فِي الْبَحْرِ، فَلَا يَرَاكُمْ أَحَدٌ.

فَطَارَ قَلْبِي مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِي، وَقُلْت: سُبْحَانَ اللَّهِ، هَذَا الطُّرْطُوشِيُّ فَقِيهُ الْوَقْتِ!

فَقَالُوا لِي هازئين: فقيه! وَلِمَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ؟

فَقُلْت: كَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ فِي رِوَايَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنْهُ.

وَجَعَلْت أُسَكِّنُهُمْ وَأُسْكِتُهُمْ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقُمْت مَعَهُ إلَى الْمَسْكَنِ مِنْ الْمُحْرِسِ، وَرَأَى تَغَيُّرَ وَجْهِي، فَأَنْكَرَهُ، وَسَأَلَنِي فَأَعْلَمْته فَضَحِكَ، وَقَالَ: وَمِنْ

أيْنَ لِي أنْ أقْتَلَ عَلَى سُنَّةٍ!

فَقُلْت لَهُ: وَلَا يَحِلُّ لَك هَذَا، فَإِنَّك بَيْنَ قَوْمٍ إنْ قُمْتَ بِهَا قَامُوا عَلَيْك، وَرُبَّمَا ذَهَبَ دَمُك.

فَقَالَ: دَعْ هَذَا الْكَلَامَ وَخُذْ فِي غَيْرِهِ. ([183])

سبحان الله! الشيخ يُهدَرُ دمه، وهو لا يبالي! بل يتمنَّى لو مات في هذا الموقف شهيداً في سبيل إحياء سنَّةٍ قد اندرَسَت! فهل نحن ممن يُحيون سنة النبي ؟ ويحرصُون على نشرها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# لقاءُ الأَحِبَّةِ

الحبُّ في الله أسمى المعاني وأرقى الأحوال، وأرقُّ المشاعر، الحبُّ في الله لقاء بين روحين، فتعارفٌ، فتآلفٌ، فاتحادٌ، الحبُّ في الله عروة لا تنفصم، وعقدةٌ لا تُحلُّ، الحبُّ في الله حلاوةٌ إيمانيةٌ يتذوقُها المتحابّون، ونفحةٌ ربانيةٌ عاطرة يتنسمُ عبقها المتآلفون، وذخيرةٌ وعُدّةٌ للآخرة، ويكفي المتحابين أنهم تحت ظلِّ عرش رب العالمين، لقاؤهم يجلي الهموم، ويجلب السرور.

رجلان تحابَّا في الله، الأول: أبو عمرو معوذ التاكرني الأندلسي من بقية الزهّاد العلماء العبّاد في وقته، فقيهاً عالماً، بليغاً أديبًا، متبتِّلاً سمحًا، حسن العشرة، صحب الفقهاء والعلماء، وعلا ذكرُه في العلم والخير، والزهد، وإليه كانت الفتوى تأتيه من جميع الجهات، وكان ممن لا يقبل هدية إلا مع تعجيل المكافآت عليها، حصوراً لم يتخذ قطُّ لنفسه فراشًا، يصرفُ فضلَ ضيعتِه إلى من ينتابُه من أهل السبيل وطلبةِ العلم، كَلِفًا بجمع الكتبِ، نهِمًا في مطالعتِها، له رسائل في الزهد والمواعظ، مستحسنة. ([184])

والثاني: أبو حفص عمر بن عَبادل، الرُّعيني الأندلسي، كان من الزهاد المتبتلين، والعلماء الراسخين، بصيراً بالفقه، وعقد الوثائق والحفظ للمسائل.

له كرامات كثيرة، وكان كثير التواضع، يحرث أرضَه بيده، ويحتطب على ظهره.

قال أبو عمرو معوذ: اشتقتُ إلى رؤية صديقي الشيخ أبي حفص، فخرجتُ أريدُه من موضعي، وبين موضعينا نحوا من أربعين ميلاً فمشيتُ نحوه بقيةَ يومي، وبعضَ ليلتي، فلما أصبحتُ وصلتُ لبلده، منينانة من قرى كورة رية فسألت عن منزله، فأرشدتُ إليه فاستأذنتُ، فخرج لي ولده الأكبر مرحِّبا، وقال لي: وكان - على سمته في الصلاح - أقول من؟

قلتُ: مُحبٌّ في الله تعالى، جاء ليلقاه، فأذِن، فدخلتُ إليه، فقام مبتهجًا وصافحني وعانقني، وقال: مرحبًا بك أبا عمرو، حللتَ أهلا ونزلتَ سهلا.

وكنتُ لم أره قبل ذلك، فتعجبتُ كيف عرفني!

فقلتُ: أصلحك الله بأي شيء عرفتني؟

فقال: أُخْبِرْتُ البارحةَ في النوم أنك تصافحُني اليوم، وكنت أهوى لقاك، وما زلتُ منتظرًا لك منذ صليتُ الصبح.

الله الله! إنه لقاء الأرواح، وتآلفها وتعانقها، قبل أن تتلاقى الأجساد، يقول النبي الأكرم (الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وما تَناكَرَ منها

اختلف).

فقلت له: وأنا ما حملني على قصدك وتجشُّم السفر إليك إلا أني كنت في منامي، وقائلاً يقول أقصد منينانة، فإن فيها وليًّا من أولياء الله تعالى، يرغب رؤيتك فقال: نعم يا أبا عمرو، علُق ذكرك بقلبي، واشتهيتُ رؤيتَك، فدعوتُ الله أن يوجهك للقائي، وقد أنعم عليَّ بك، فمكِّنّي الأنسَ بك أيامًا، فأقمتُ عنده، وأكرم ضيافتي، وقرأتُ عليه القرآن، وتدارسنا الفقهَ، فنفعني الله تعالى بعلمه ومصاحبته، فانصرفتُ وحبلي به موصولٌ، وعقدتُ العزم أن أزورَه في كلِّ عام.

ولما بلغني مرضُه الذي قُبِضَ فيه، سافرتُ إليه.

فلما دخلتُ عليه استبشر بي، وقال: مرحباً بك قد سألتُ الله عز وجلّ أن يريني إياك قبل الموت، فقد فعل وأحسبُ أني مقبوض، فأنشدُك الله أن تقيم عليّ تشهِّدُني وتقومُ بشأني، فإذا مِتُّ فاغسلني ونقِّني وجهِّزني وحنِّطني وطيِّبني وكفِّنِّي في ثلاثة أثواب، قد أعددتُها، وضعني فوق نعشي، وتقدَّم بالصلاة عليَّ، واجتهد في الدعاء إلى الحي الذي لا يموت، واسأله أن يجمعني وإياك في جواره برحمته ورضوانه، ثم اتركني لولدي وأهلي وجيراني يتولَّون دفني، وانهض أنت إلى موضعك مصحوبًا بالخير مشيَّعًا بالسلامة، واستودعتُك الله تعالى خيرَ مستودع.

فلقنتُه الشهادةَ، فأخذ يكرِّرُها، حتى فارقتْ روحُه جسدَه الطاهر، فقمتُ بأمرِه كما أوصاني، وعدتُ لبلدي. ([185])

ورأيته في منامي بعد موته، فقلتُ له: ما فعل الله بك؟ فقال: لو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير، فتأولتُ ذلك على أنه خيرٌ، ولكنه ودَّ أن يكون ذلك الخير أكثر. ([186])

وهكذا شأنُ كلِّ مؤمن، يتمنّى حين يرى كرامتَه عند ربه، لو كان قد ازداد من الخير.

# بركة دعاء الصالحين

عودة الأسير.

حكى ابن بشكوال عن إسماعيل بن بدر، قال: أخبرني صاحب لي كان يطلب معنا العلم، قال: كنا نسمع يوما على الفقيه إبراهيم بن محمد بن باز المعروف بابن القزاز، ([187]) في غرفة له بقرطبة، والقارئ يقرأ عليه في كتابه، إذ صعدت عجوزٌ إلينا، فوقفت في آخر الدَّرج مما يلي باب الغرفة، فسألتْهُ أن يعينها في فداء ابنٍ لها أسيرٌ في بلاد الحرب، فأمر لها الشيخ بكسرة خبز، وكان الضعف والمسبغة باديًا عليها.

ثم قال لها: انصرفي! فسيطلَقُ ابنُك إن شاء الله، بعد أن سألها عن اسمه فأخبرته.

ثم قصد إبراهيم بن باز، بعد تمام المجلس، إلى رجل فاضل، كان يسكن بناحية الرصافة، فأعلمه خبر المرأة وأفطر عنده، وباتا متهجِّدين، ودعا أحدُهما وأمَّن الآخر، واجتهدا في الدعاء في ظلمة الليل.

قال: فلما كان إلى مدة شهر أو نحوه، كنا قعودا عنده في تلك الغرفة نسمِّع عليه، فلم نبرح أن صعدتْ تلك المرأةُ في الدرج، ومعها فتى، فقالت له: هذا ابني عتيقك أيها الفقيه الصالح، الذي كنتَ وعدتني بإطلاقِه انطلق والحمد لله.

فسأله الشيخُ ونحنُ نسمعُ، كيف كان أمره؟

قال: كنتُ أرعى غنما بالنهار للروميِّ الذي أسرني، حتى إذا كان الليل حبسني في مطمورةٍ أبيتُ فيها حتى الصباح، وأنا مكبَّلٌ، لا أستطيعُ الهرب! فبينا أنا في تلك المطمورة ليلة كذا، فذكر الليلة التي كان مبيت الشيخ عند صاحبه بربض الرصافة، إذ انفتح القيدُ الذي كان علي، فأخذني الخوف من العلج الرومي، وخشيتُ أن يظن أني تحيَّلت فيه، فيضربني بسوطه، إذ كان غليظًا جافيًا، فلما أصبح عرّفته فأوثق الكبلَ وزادني ثانيا، فلما كانت الليلةُ الثانية ونمتُ انتبهتُ إلى انفتاح الكبلين جميعا، فضربتُ حائط المطمورة حتى سمعني وأتى، فأعلمتُه فأوثق الكبلين وزادني ثالثا، ومضى إلى قوم كانوا يسامرونه في بيته من عشيرته، فأعلمهم فعجبوا من ذلك، فلما عدتُ إلى النوم انفتحت القيودُ كلُّها، فأعلمته بالأمر، فعجب هو ومن كان معه، وقصد إلى رجلٍ كبير كان لهم، فأعلمه بذلك، فقال له: «أطلقه فإن هذا من الله؛ وأخشى إن حبستَه أن يدور عليك أمرٌ كبير». فأصابه الهلع والجزع، وصار يرتجفُ! وأطلقني في الحال رغم أنفه، وخرجتُ من بلدهم بسلام، ووصلتُ بلاد الإسلام، بحمد الله، وها أنا كما ترى، والحمد لله فتبارك الله اللطيف الخبير. ([188])

# عودة أخرى لمحاكم التفتيش

جلسة محاكمة

أوصت الملكة إيزابيلا بمواصلة الحرب ضد من سمَّتهم أعداء الإيمان المسيحي، كما أوصى زوجها وشريكها فرديناند قبل موته أبناءه قائلا:»عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية».

ومنذ السنوات الأولى لسقوط غرناطة تكونت جماعات تنصيرية، وانطلقت تبشر بالمسيحية، لكنها لم تجد صدى بين المسلمين، ولم تنجح بينهم، لذا كان اللجوء للتنصير القسري، فقاموا بإجبار الفتيات المسلمات بالزواج من نصارى، وتزويج المسلمين من نصرانيات، كما فرضوا تعميد أطفال المسلمين عقب ولادتهم، وحضور القس عند احتضار المسلم، والويل لمن مات له قريبٌ، ولم يستدع الراهب عند الاحتضار، فكان المسلمون يُضْطرُّون لدفن الموتى سرًّا في الليل.

وكانوا يؤدون شعائر دينهم في سرِّية، يغلقُ أحدهم داره على أهله يوم الأحد، حتى يظن النصارى أنهم ذهبوا لإحدى الكنائس، وإذا علم القسيس بمولود جديد ذهب لبيت أبويه، وعمَّده، لا حيلة لأهل البيت في ذلك، يدخلُ عليهم بيوتهم وهم له كارهون، فإذا خرج البغيضُ طهروا بالماء المولود، وكانوا يعقدون النكاح في الكنيسة ثم يعقدونه سرًّا وفق شريعة الإسلام، وكانوا يصلُّون في الأقبية حتى لا يشعر بهم أحد، وبعضهم أخفى سرَّه عن صغاره حتى لا يَنُمُّوا عليه، إذ كانت الكنيسة تنزعهم نزعًا، وتلحقهم بمدارسها لتربيتهم على طقوسها، وتحرّضهم على آبائهم، وتسعى جاهدةً ليكون الولاء لها.

وثيقة تسرَّبت من محاكم التفتيش:

في سنة ١٥٢٨م وفي شهر كانون الأول، نما إلى علم محاكم التفتيش أن أحد المدجَّنين - أي الباقين في بلاد الأندلس من المسلمين، للعمل في الزراعة، والغزل والنسيج، وغيرها من المهن، ثم أجبروا على التنصير- ويدعى خوان مدونيا قد عاد للإسلام، بلّغت عنه امرأة كانت تسكن معهم في طابق بنفس المنزل، فألقت الشرطة السرية القبض عليه ليلا من منزله الذي يعيش فيه مع زوجته وولدين له، وابنته المتزوجة وزوجها، واقتيد إلى ديوان محاكم التفتيش، ثم كانت وقائع تلك المحكمة الغريبة.

جلس الكاردينال بلباسه الأرجواني وقلنسوته الحمراء داخل المحكمة، ومن خلفه سبعة رجال يلبسون السواد، وبأيديهم مناجل ذات أذرعة طويلة، وعلى رؤوسهم قبعات طويلة مخروطية الشكل، لا يظهر منهم شيء، إلا ثقبين صغيرين، تبدو منهما الحدقتان، تبرقان، كعيون الأفاعي، منظرٌ مخيفٌ مرعب.

وعلى يسار المنصة تبدو فتحة قبوٍ مظلم، يدخلُ منها ضحايا التعذيب ومن خلفهم الجلادون، أما الجدران فإنها ذاتُ طلاء قديم، بلون كئيب متّسخ، والمكان يغلّفُه ظلام دامس، باستثناء شمعة وحيدة في طبقٍ صدِئ أمام الكردينال، وأصوات صرخات المعذّبين تصدر أنينًا وآهاتٍ من الغرف المجاورة.

بدأت المحاكمة السرية، وهذه وقائعها، من السجلات.

يقفُ المتهمُ والحديدُ يربطُ يديه برجليه، قد انحنى ظهره، وظهرَ في وجهه بعض آثار تعذيب من جروح وندبات وكدمات زرقاء؛ لم يرحم الزبانية شيخوخته:

- ما اسمك؟

- خوان مدنيا؟

- قبل أن تؤمن بالمسيح المخلّص؟ ماذا كان اسمك؟

- عبد الله.

- كم عمرك؟

- سبعون سنة.

- أين تسكن؟

- في شقوبية.

- متى اعتنقت الكاثوليكية؟

- في عام ١٥٠٢ م

- ولماذا تمتنع عن الأكل من لحم الخنزير وترفض شرب الخمر؟ ألست مسيحيا حقيقيًّا؟

- بلى! ولكني لا أستسيغُ لحمَ الخنزير، أشعر بالتقزُّز، كما أنني أفضِّل البقر والضأن، ولحم الدجاج، ولا أشرب الخمر، لأنها تصيبُ بالدوار والهذيان! أليس كذلك أيها الكاردينال؟

- أممم، ربما، هكذا! نظر الكاردينال بارتباكٍ لشركائه، ثم انجفل إلى المتهم، وصرخ في وجهه: وأنت أيضًا متهم أيضا بالاستحمام مرتين في الأسبوع؟

- هذا صحيح! لأنني أعمل في تبييض النحاس، ولا بد لي من النظافة اليومية.

- النظافة! أم لأنك ما زلت مسلما! وتخفي إسلامَك أيها المراوغ! لدينا معلومات موثقة!

- كذب وتلفيق أيها الكاردينال.

- وهذا القميص الأبيض الذي وجدناه في خزانتك!

- كنت سأرسله للمصبغة يا سيدي، لأغيِّر لونَه! ولكني... ولكني شُغلتُ!!!

- كما أن جارتك سمعت صوتك وأنت تتكلم بالعربية مع زوجتك!

- صرخ المتهم: إنها تكذب، إنها تتهمني ظلما لأنني على خلاف معها! والجيران يشهدون! فأحضرهم واسألهم، أيها القاضي.

- الويلُ لك! كيف تتهمها بالكذب! إنها مسيحية مخلصة!

- لدينا أدلة أخرى تدينك!

- ما هي بحق السماء!

- عندما اقتحم جنودنا بيتك عرفوا بأنك مسلم!

- كيف يا سيدي؟

- تتظاهر بأنك لا تدري! يا للهول! لا يوجد ببيتك خوان للطعام، ولا تعلق صلبانا ولا صورا للعذراء، وهي تحمل الرب، ولا تمثالا للمسيح على الصليب، ولا للقديسين!

- يا إلهي! ولكن، ولكن يا سيدي...

- رفعت الجلسة. خذوه! عذِّبوه، حتى يعترف بأنه مسلم.

وداخل غرفة التعذيب وبعد عرضه على أكثر من وسيلة تعذيبية وآلة جهنمية، خارت قوى العجوز، واضطُر أن يُقرّ، فأخذوه مكبلا وطافوا به في موكب الحريق؛ إرهابا لكل من تسوِّل له نفسه، أن يخفي إسلامه، لكنهم لم يحرقوه مراعاة لشيخوخته، فاكتفوا بجلد ظهره الواهن، وفرضوا عليه غرامة مالية ثقيلة.. ([189])

## جريمة مارية كليمنتي

إلى محكمة التفتيش السرية لنشهد تلك المحاكمة الظالمة، والتي جرت مراسمُها في مدينة في شمال الأندلس تسمى مدينة لوكرونو Logrono وهي مدينة عتيقة ترتفع فوق مستوى سطح البحر ١٢٦٠ قدمًا، وهي على بعد (١٠٧

أميال) من سرقسطة، يمر بها نهر إيبرو، أو نهر طَرطوشة، ثاني أطول الأنهار في الجزيرة الأيبرية بعد نهر التاجو. حيث يصل طوله إلى ٥٧٧ ميل ٩٢٨ كم.

إذ بعد مرور ٩٢ سنة على سقوط آخر دولة للإسلام بالأندلس بيد النصارى الكاثوليك كانت تلك المحاكمة العجيبة داخلَ أشهر محاكم التفتيش وأقدمها. يا لها من وصمة عار في وجه الكاثوليكية! القاعة التي شهدت قديما محاكمات الساحرات الشريرات بتهم السحر والشعوذة والإفساد والخطف والقتل، تجري فيها محاكمة امرأة تخفي إيمانها.

فقد فرض التنصير الإجباري منذ ٨٥ سنة على من بقي من المسلمين، وتحديدًا بعد سبع سنوات من سقوط غرناطة. حمل التعصبُ الكاثوليكَ على إخضاع كلِّ من خالفهم في الدين أو في المذهب أو في الفهم لمحاكم التفتيش.

ينادي القاضي على المتهمة مارية كليمنتي Maria Clemente أرملة لويس دي مدينا Luis De Medina فتظهر امرأة تجاوز سنُّها الخمسين، بوجهٍ شاحب، يفيضُ أسى وحُزنًا، وثوبٍ رثٍّ ممزّق، ملطّخ ببقع حمراء، لكن تكافح أن يسترها، بيديها المعروقتين المكبلتين بالحديد، بينما تجرُّ وراءها سلسلة من الحديد على الأرضية المبطّنة بالخشب، فتصدرُ صوتَ خشخشةٍ في تلك القاعة الساكنة سكون القبور.

تُرى ما تهمتها التي استحقت بها هذا النكال؟

تُهمتها أنها قامت بتربية ذريّتها على الدين، فعلّمت أحفادها سورًا من القرآن، وعوَّدتهم على الصلاة والصيام. يا لها من جريمة نكراء!

وتحت وطأة التعذيب وآلاته الجهنمية اعترفت المسكينة مارية بعملها الذي يعتبرونه جريمةً وهرطقةً، فأثناء استجواب القاضي لم تنكر مارية رحمها الله هذه «التهم» التي أثبتتها سجلات التحقيق، واعترفت مُرغَمةً بمسؤوليتها في تعليم القرآن، واستجابة أفراد أسرتها لدعوتها السرّية.

كان أحد الوشاة قد أوحى لمحكمة التفتيش أنها امرأة خطيرة، لأنه سمعها حين دخول شهر رمضان تذكِّر من حولها بالصيام، فاستجابوا لها عن اقتناعٍ.

تقول السجلات المحفوظة: إنه في ٢٢ يوليو ١٨٥٨م أُحرقت مارية حيّة على مرأى ومسمع من الجماهير التي أجبرت على حضور هذا المشهد الرهيب.

وفي الجموع وقف الراهب يخطب يصرخُ ويولول، وينتحبُ، ويصب اللعنات على تلك المرأة التي شكّلت خطرًا على الإيمان المسيحي، وأغوت من حولها، كما أغوت حواء آدم.

هكذا انضمّت مارية كليمنتي رحمها الله لقائمة طويلة من المسلمات اللاتي ضحّين بأرواحهنَّ فداء للإسلام، في تلك الجزيرة الخضراء. ([190])

{وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَ زَنُواْ وَأَنتُمُ أَ لَ نَ إِن كُنتُم ٌّ مِنِينَ .إِن
يَ سَ كُ قَ فَقَ مَسَّ قَ مَ قَ ٌّ لُهُ
وَتِ لكَ أَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَ نَ لنَّاسِ وَلِيَ لَمَ للَّهُ لَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ
مِنكُ شُهَدَآ وَ للَّهُ لَا يُحِبُّ لظَّلِمِينَ}[آل عمران: ١٣٩ ١٤٠].

# صور ومشاهد لمأساة المسلمين في الأندلس

بدأ انفراط عقد الأندلس منذ بداية القرن الخامس الهجري، كانت الفتن والعداوات معولا من معاول هدم تلك المملكة الفتية، حتى تفرَّقت كلمةُ المسلمين، وتحوَّل الحكمُ في الأندلس إلى ممالك ودويلات، عُرِفَ رؤوسُها بملوك الطوائف لتفرُّقهم، وتناحرهم بددا، كما قال الشاعر:

وتفرّقـوا شِيعًـا فكـلُّ مـدينـة

فيهــا أميرُ المـؤمنين ومنبرُ

وبلغ الانحطاط والدنيَّة أن استعان بعضهم على بعضٍ بعدوهم الصليبي المتربّص، حتى قويت شوكته، فزادوهم رهقا، وانقلبت موازين القوى لصالحه، فبدأ بفرض الجزية على أولئك الملوك الذين كان جُلُّ همِّهم المحافظة على عروشهم لا على رعيتهم، وتراب مملكاتهم، وما زال أمرُ العدو يستفحلُ يوما بعد يوم، وأرضه تتسع على حساب أرض الإسلام، مستغِلا ما يُدْفع له من جزيةٍ في شراء السلاح وإعداده، واستقدام الصعاليك المرتزقة من أوروبا التي كان الفقر والجهل يخيم عليها، ثم كانت الملاحم التي انتهت بهزائم جيوش المسلمين، حتى تغلب النصارى الأسبان في النهاية وضربوا ضربتهم الأخيرة، وسقطت آخر معاقل الإسلام في الأندلس على أيدي الملكين الكاثوليكيين فردنناند وإيزابيلا، ودخلوا غرناطة آخر حصون الأندلسيين، وملاذهم الأخير، وفر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله محمد بن الأحمر الذي وقف يودع غرناطة ويلقي نظرة أخيرة على قصور الحمراء، ويبكي كالصغير، فنهرته أمه عائشة وقالت له: تبكي كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال! ولاذ المطرودُ بالمغرب، وهاجر الكثير ميمِّمين شطر بلاد الإسلام، وصل منهم من وصل، ومات منهم من مات في ظل ظروف قاسية، وطرق وعرة، محفوفة بالقراصنة وقطاع الطرق وتجار العبيد الذين كانوا يتخطَّفون الأطفال والحرائر من النساء المسلمات لبيعهنّ في أسواق النخاسة، ناهيك عن آلاف من المهاجرين الذين قاسوا من الجوع وهم مكدَّسون على المرافئ في انتظار سفينة تقلُّهم للناحية الأخرى، أو جالسون

في سفينة متهالكة تصارعُ الأمواج العاتية بوَهنٍ، بينما واجهت البقية ممن عجز عن الهجرة أو آثر البقاء ذلك الكابوس المزعج، وخفَّف عنهم تلك الوعود البراقة التي قطعها الملكان الكاثوليكيان، والتي سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، لينكشف القناعُ عن حقد صليبي دفين، حيث محاولات التنصير من قبل رهبان الكنيسة، الذين بدأوا بالترغيب والإغراءات والمساومة، فاجترأ أعداء الله على مطالبة المسلمين بترك دينهم، ومن المضحكات المبكيات ما حدث لمحمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوطي، وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة، المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والطب، فكان طبيبا ماهرا آيةَ الله في المعرفةِ بالأندلس، يُقْرِىءُ الأممَ بألسنتِهم فنونَهم التي يرغبونَ فيها وفي تعلُّمها، لما تغلَّب طاغيةُ الروم على مُرسيَّة بَنَى له مدرسةً يُقْرِىءُ فيها المسلمينَ والنصارى واليهودَ العلوم، وكان قويَّ العارضة، مضطِّلعًا بالجدل، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته، ممن يقدُم منتحلا صناعة أو علمًا، فيظهر عليهم، لتمكُّنه.

قال له يوما، وقد أدنى منزلتَه: لو تنصَّرتَ وحصَّلتَ الكمالَ؛ كان لك عندي كذا وكنتَ كذا فأجابه بما أقنعُه، ولما خَرَجَ من عندِهِ، قال لأصحابِهِ هازئا: أنا عُمري كلُّه أعبدُ إلهًا واحدًا، وقد عجزتُ عما يجبُ له، فكيف حالي لو كنتُ أعبدُ ثلاثةً كما طلب الملكُ مني! ([191])

وسرعان ما وصل الأمر إلى الترهيب والإكراه والقسر، حتى تظاهر بعض المسلمين بالتنصُّر خوفًا، وجرى تعميدهم وفق المراسم الكنسية، وتغيرت أسماء فاطمة وعائشة وزينب ومريم وحفصة إلى إيزابيلا ومادونا وأنجيلا وماريا وأدونيا وخوانا، وعمر وعلي والحسن ومعاذ ومحمد تبدل إلى ألفونسو وخوان وخوليو وأنطونيو وأنجيلو وبدرو وفيليب، وفرضت على الجميع تعاليم الكنيسة وطقوسها، وأجبروا على المشاركة في احتفالاتها وصلواتها، وعقد النكاح وفق قوانينها، بل مراسم الدفن، وتعميد المواليد، مع القضاء على كل مظاهر الإسلام فضلا عن شعائره، وتحويل كل المساجد التي كانت تصدح بالآذان وذكر الله وتزخر بدروس العلم وحلقات القرآن، وتحفُّ بها الملائكة، إلى كنائس عُلِّقَتْ على قبابها الصلبان وعلى مآذنها الأجراس، وفي محاريبها التماثيل، وعلى جدرانها التصاوير.

ثار المسلمون على تلك الأوضاع، وضحوا بأرواحهم، لكن لم تنجح تلك الثورات والانتفاضات، بل باءت بالفشل والإخفاق، وتحولت إلى مجازر ومزيد من التسلُّط وتضييق الخناق والقيود على المسلمين، الذين لم يجدوا نصيرا من حكام المسلمين في المغرب أو في المشرق، لم يجدوا سوى الخذلان والهوان، وزاد الاضطهاد حتى بلغ الحال أن أُمروا بترك أبواب البيوت مفتحةً ليتمكَّن العدوُّ من التسلل في أي لحظة، فيطلع على عورات النساء ويتأكد

من حقيقة تنصُّرهم، ويضبط أيَّ ممارسة لشعائر الإسلام في السر، ثم كانت محاكم التفتيش ذلك الجحيم المستعرُ في أقبية الكنائس والأديرة، يديره القساوسة والرهبان، بكل آلات التعذيب الجهنميّ، وبمحاكمات صوريّة هزليّة، محت كل مظاهر الإسلام في الشوارع والأسواق، حتى البيوت أصبحت شعائر الإسلام تمارس في سرية تامة، واللغة العربية يتهامسون بها داخل البيوت؛ فالتحدُّثُ بها محظُورٌ، والتعذيب والإحراق ينتظر كل من يثبت إسلامه، أو ممارسته لأي عمل يمتُّ للإسلام، وكان الرهبان ينبِّهون المتنصرين الجدُد على التخلي عن كل ما ينتمي للإسلام من شعائر ونسك وسنن وأعراف، حتى أجبروهم أن يتناولوا الطعام على الخوان « المائدة الخشبية»، وحرموا على النساء الخضاب بالحناء، ومنعوهن من تغطية الوجه، والتطيُّب بالمسك وماء الورد، كما حرموا الاغتسال، وهدموا مئات الحمامات العامة، وفرضوا على الرجال حلق اللحى، مع تحريم اقتناء أي مخطوط عربي، ومصادرته وإحراق المكتبات العربية، في محرقات تنصب في الميادين العامة، وتحريم اللباس الأندلسي للرجال والنساء، ووصل الأمر إلى التعرض للنساء، ونزع الملحفة الأندلسية بالإكراه، مع سبهن ووصمهن بالهمجية، حتى أفتى بعض الفقهاء للمسلمين بالرخص لهم، كما في الفتوى التي أصدرها الفقيه أحمد بن بو جمعة المغراوي، بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٥٠٤م.

وتحوي سجلات محاكم التفتيش مآثر للمسلمات الصامدات، منها سجل محاكمة إيزابيلا دي مدريد التي حوكمت لأنها قالت أنا أندلسية وأبي وأمي أندلسيّان وسأعيش وأموت أندلسية.

وقالت مسلمةٌ حرة أبية أجبروها على التنصر: إن العالم كله لن يوقفها عن القول بأنها أندلسية، فذلك مصدر عظيم للفخر بالنسبة لها».

لقد امتلأت سجلات محاكم التفتيش بتهم عجيبة:

امرأة أخذت إبريق ماء لبيتها فاتهمت بأنها تغتسل وتلك جريمة عند النصارى الذين يعادون الماء والطهارة. وأخرى وجدوا على يديها خضابا، فحوكمت بتهمة الارتداد، كانوا يعتبرون من يُكشَفَ أمرُ إسلامِه مرتدًّا عن النصرانية.

ورجل اغتسل من جدول ماء بعد عمل شاقٍّ في تقطيع الأخشاب، فاتُّهم بأنه كان يتوضأ، واقتيد لمحاكم التفتيش، فاعترف تحت وطأة التعذيب الرهيب بأنه مسلمٌ.

وقُدِّم آخر من طليطلة لمحاكم التفتيش لأنه لا يأكل على خوان، بل يجلس على الأرض عند الطعام، حتى بلغ الحال أن القساوسة كانوا يزورون المسلمين ساعة الغداء للتأكد من أنهم يأكلون على مائدة خشبية، ومن ضحايا محاكم التفتيش امرأة مسلمة أجبروها على التنصُّر، وسُميت مايور

غرسيه، قتلوها لأنها تساءلت:كيف يمكنُ لامرأةٍ تزوجتْ وأنجبتْ أن تسمّى العذراء، تعني السيدة مريم التي يلقبونها بالعذراء، فأناجيلهم تُصرّحُ بأنها تزوجت من رجل يدعى يوسف النجار، وأنجبت أبناء كانوا إخوة للمسيح من الأم! ([192]) لم يكن يسمح بمجرد التفكير في عقيدة النصارى فضلا عن نقدها.

وأُبلغ عن قرطبيٍّ يُدعى فرانشيسكو لأنه رفض أكثر من مرة دعوة زملائه النصارى على الغداء في رمضان.

هكذا كانوا يتربصون بالمسلمين بعد أن أجبروهم على التنصر وأدخلوهم الكنائس وغيروا أسماءهم، وهم مع ذلك لا يثقون في إخلاصهم للإيمان المسيحي، لأنهم في قرارة أنفسهم يعلمون أن عقيدة التثليث والصلب لا يستسيغها عقل ولا يطمئن بها قلب. ([193])

## وثيقة تكشف عن مأساة الأندلسيين

من كان يظن أن هذه البلاد الساحرة، ذات المناظر الخلابة، الحقول وبساتين العنب والتين الزيتون والرمان، وغابات الصنوبر والسنديان والسرو والبلوط، والأنهار التي تقطع المسافات كأنها القاطرات باتجاه الشرق أو الغرب، فلا توجد بلدة أندلسية إلا وتطوف بها الأنهار وتغمرها بالري والخصب، فضلًا عن النسيم العليل المحمّل بعبق الياسمين، وزهور النارنج والبرتقال، من كان يظنُّ أن هذا الفردوس الذي يسبي القلوب ستغلي من تحته براكين الحقد والتعصب، جهنم بأغلالها وسعيرها وأنكالها وظلامها الحالك، آلات وحشية تطبقُ على الضحايا، رطوبة وعفن، واختناق، إنها محاكم التفتيش التي نصبتها الكنيسة بحجة تثبيت الإيمان المسيحي، وتنقيته من عبث أولئك الدخلاء المنافقين من المدجَّنين، الذين تظاهروا بالمسيحية بينما أضمروا الإسلام، حتى فضحتهم أفعالهم، ونمّ عليهم الغيورون على عقيدة الثالوث والصلب والفداء!

بل كان لمن يخالفهم في مذهبهم الكنسي نصاب، «ذنوبًا من العذاب».

من كان يظن أن قاعات الكنائس التي يترنَّم فيها الرهبان والشمامسة بالتراتيل والترانيم، وأن المجد لله في الأعالي بينما السلطة الكهنوتية هي التي تستبدُّ بالبلاد، وتستبيح الدماء، وعلى الأرض السلام! وأين ذلك السلام وتحت الأقدام لا يفصلهم عن تلك القاعات إلا طبقة حيث تقبع السجون مظلمة عميقة رهيبة خانقة قذرة، تغصُّ بالبق والجُرذان، وفي الجدران حلقات حديدية يقيَّد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لدفع نفقات سجنهم، وفي السراديب أنواع مختلفة من التعذيب، ملء البطن بالماء حتى الاختناق، وتكبيل يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه

ورفعه وخفضه معلقاَ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات صُنعت لذلك، وتمزيق اللحم، وفسخ الأرجل والذراعين، والفكّين والإحراق ... حتى يتخطّفَهُ الموتُ من أيدي الزبانية الذين يزعمون أنهم على دين المسيح، وكان للنساء نصيبٌ كبيرٌ من العذاب الرهيب، فكانت المرأةُ تُعرَّى إلا مما يستُرُ فرجَها، في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، لا يمكنها الحراك، ثم يربطونها إلى قبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيتهدل على جسدها العاري، فتبدو في الظلام الدامس لمن يراها كأنها جِنِّيَّة.

تناقضٌ عجيبٌ! في أيام الآحاد يجلس المصلون على المقاعد الخشبية المصفوفة، يرددون خلف الكاهن ترانيم السلام، المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام، وأحرى بهم لو قالوا وتحت الأرض الرعب والفزع.

فوق رؤسهم الثريّات المذهبة المعلقة، وتحت أقدامهم سقف تتدلى منه أعواد وحبال وكلاليب حيث تعلق النساء، في بشاعة لا يمكن تخيُّلها.

تلك الأرضية المفروشة بالسجاد الفاخر يطؤونها بنعالهم، هي ذاتها سقفٌ كئيبٌ فوق رؤوس البؤساء، قاعة الكنيسة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من تحتها العذاب .... تحت الكنائس عالم آخر من المحطّمين المعذبين، في فناء الكنيسة قبورٌ وأضرحةٌ لمن يعتبرونهم قديسون، وفي الأقبية قبور للأحياء الذين يتهمونهم بالهرطقة من المدجّنين.

عالمان منفصلان، لكن خيطٌ يجمعُهما، فكلاهما تديرُه الكنيسة، الجميع من ضحايا الكنيسة، الذين في القاعة ضحايا الكذب والخداع والاستغلال، والذين في القاع ضحايا الحقد والغل والتعذيب.

هذا القس الذي يبدو حمَلا وديعًا، وراهبًا متبتِّلا خاشعا، ليس بينه وبين أن يتحول إلى وحشٍ كاسرٍ، وغولٍ مُخيفٍ، سوى درجاتٍ يهبطها إلى القبو، حيث يديرُ آلات التعذيب بنفسه، دفاعًا عن الإيمان المسيحي كما يعتقد!

ابتكروا وليتهم ابتكروا ما يعود على الإنسانية بالنفع كما فعل الأندلسيون! لكن ماذا ابتكر هؤلاء الزبانية من آلاتٍ؟ هذا أحد مخترعاتهم، مما لا يظهر على وجه الأرض، ولا يُستعمَل إلا هنا!

«العنكبوت:» اسم لآلة تعذيب، حيث تعلق المرأة على السقف، وتُثَبّت من ثدييها على مخالب تلك الأداة لتبقى معلقة حتى تمزق كلَّ ممزّق، فتسقط أرضا، كما يقتل العنكبوت فريسته المعلقة، بعد أن يوقعها في شباكه، تموت معظم النساء في نهاية المطاف بسبب الصدمة والآلام المبرحة واهتراء اللحم والنزيف، يالبشاعة هؤلاء المتعصبين!.

مشهد مروع لا سيَّما إذا ما أرخى الليل سدولَه، والسجونُ كَلّها لَيلٌ وكل لون من العذاب أفظعُ من الآخر، تُتْرك المسكينة على هذه الحال إلى أن تُجَنَّ أو تموت، وهل سَلم الأموات من أذى حُرَّاس الصليب؟ كلا والله بل كانوا ينبشون قبورهم ويحملونهم إلى ساحات المحاكم ليحاكموهم، ثم يأمروا بحرق تلك الرفات في مشهدٍ ينمُّ عما انطوت عليه صدورُ أولئك المتعصبين من حقدٍ دفينٍ.

كان المسلمون يُجاورون النصارى مُجبرين على الذهاب للكنائس، فإذا عادوا لبيوتهم أصلحوا ما أفسده القساوسة والرهبان، واغتسلوا سرًّا. ([194])

وبين أيدينا وثيقةٌ، هي فتوى أجاب بها أحد فقهاء المغرب ووجهها إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث بيَّن لهم ما يسّر الله لهم من رُخَصٍ، وحثَّهم على إتيانها في ظلّ تلك الظروف القاسية والتسلُّط الغاشم من قِبَل النصارى الذين حكموا بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقلها، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠هـ، ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م.

وهذا نص الفتاوى: «الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما»

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبّروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء -إن شاء الله- من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاقّ، وإن بلغت النفوسُ التراقِ، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقِّه بحسن إيمانٍ وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، بعد السلام عليكم مَن كتابُه إليكم، من عبيد الله أحمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكِّدًا عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شرٍّ عليكم من إعلام عدوكم بطويَّتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإنَّ ذاكرَ الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع، وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله؛ فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عومًا في البحور، وإن منعوكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة

إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يُتَيمَّم به، فاقصدوا بالإيماء، لقوله صلى الله عليه وسلم (فأتوا منه ما استطعتم).

وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأَحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله.

وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم، كصلاة الخوف عند الالتحام... وإن جاءوكم بلحم الخنزير، فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه.

وكذا إن أكرهوكم على محرّم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوةً لغيَّرتموه.

وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام، فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلاّ رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى. وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم الإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك.

وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان أو مُمَد اليهود، وإن قالوا عيسى تُوفي بالصلب فانووا من التوفية: الكمال والتشريف. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرَّةَ للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ... ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم. والسلام عليكم جميعاً. «يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى». ([195])

وبعد أربعة قرون من هذه الفتوى عاد للمسلمين في بلاد الأندلس حريتهم، ونسأل الله أن تعود لهم مساجدهم جميعها ويعم الاسلام من جديد ربوع الأندلس. وكم من أسر حافظت وصمدت وقاومت قرنا بعد قرن، حتى أذن الله بالفرج.

# حكايات من صقلية (٥)

ابن زرعة وابن حجر

حكى الرحالة الأندلسي ابن جبير: قصتين متباينتين، عندما زار صقلية، وبقي في طرابنش ([196])منتظرا مركبا تقلُّه من مرساها إلى الأندلس: قصة لرجل كان فقيهًا فانتكس، ورجلا كان ثابتًا كالصخر، جوادا كالبحر، لم يذل أو يخنع لمحاولات النصارى المستميتة، الأول يعرف بابن زرعة، كان له نصيبٌ من الفقه، لكنه استسلم لمحاولات النصارى وضغوطهم، فتنصَّر، خوفا وحذرا من بطشهم، ونزولا عن رغبتهم وإيثارا للسلامة من شرورهم، «حتى أظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية، بل مهر في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانينهم، فأصبح في عداد القسيسين الذين يُستفتون في الأحكام النصرانية، وربما طرأ حكم إسلامي فيُفتي أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، وكان له مسجد بإزاء داره حوّلوه لكنيسة، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة، لكنه – والحمد لله على كل حال- كما قال ابن جبير: وحين جالسناه أعلمنا أنه يكتم ايمانه. فلعله – بعفو الله وغفرانه- داخلٌ تحت الاستثناء، في قوله: {مَن كَفَرَ بِ للَّهِ مِ بَ دِ إِيمَٰنِهِ إِلَّا مَ أُ رِهَ وَقَ بُهُ مُ مَئِ بِ إِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِ كُ رِ صَ رًا فَعَلَ هِ غَضَ مِّنَ للَّهِ وَلَهُ عَذَابٌ عَظِي } [النحل: ١٠٦]. عفا الله عنه.

من العجيب أن ابن زرعة كان له من اسمه نصيب، زرعة ضعيفة استسلمت لمهبّ الريح، فلانت له وانحنت.

ثم حكى الرحالة قصة الرجل الأبيّ الذي حافظ على دينه، ولم يستسلم للنصارى ومحاولاتهم المستميتة لتنصيره، فقال: ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيمُ أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدُهم القائد أبو القاسم بن حمود، المعروف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة، توارثوا السؤدد والمجد، وبانَ لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح، مريد للخير، محبوب في أهله، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى، وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج، إلى مآثرَ جمة، ومناقبَ كريمة، فارتجَّت هذه المدينةُ لوصوله، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبةٍ توجّهتْ عليه من أعدائه، افتروا عليه فيها أحاديثَ مزوَّرة نسبُوه فيها إلى مخاطبة أمير الموحِّدِين أيَّده الله، فكادت تقضِي عليه، وتوالتْ عليه مصادراتٌ أغرمته ما يربُو على ثلاثين ألف دينار، ولم يزل يتخلّى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال، دون أن يتخلّى عن دينه.

فاتفق في هذه الأيام رضا الطاغية عنه وأمرُه بالنفوذ لبعض المهام السلطانية، فنفَذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله، وصدرت عنه عند وصوله إلى هذه البلدة رغبةٌ في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به، فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يُبكي العيون دمًا، ويذيب القلوب ألما، فمن ذلك أنه قال: «كنت أودُّ لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعلَّ البيع كان يخلِّصنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين»، فتأمَّل حالا يؤدي بهذا الرجل، مع جلالة قدره وعظم منصبه، إلى أن يتمنَّى مثل هذا التمني، مع كونه مُثقلا بالعيال، فسألنا له من الله عز وجل حسن التخلُّص مما هو فيه، ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة.

وواجبٌ على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدي الله عز وجل، وفارقناه باكيا مبكيا، واستمال نفوسنا بشرف منزعه، وفرائد شمائله، ورزانة عقله، وشمول برِّه وعطفه، وكرمه، وحسن خلقه وسماحة وجهه.

وكنا قد أبصرنا له ولإخوته ولأهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة، في اتساعها وشموخها وأناقتها، وشأنهم بالجملة كبير لا سيَّما هذا الرجل منهم.

وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج، أصلحت أحوالهم ويسّرت لهم الراحلة والزاد، والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنِّه.

هكذا كان لابن حجر حظٌّ من اسمه، صخرة لا تلين ولا تهتز أمام معاول الأعداء.

وأضاف ابن جبير قائلا: ومن أعظم ما مُنِي به أهلُ هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه أو تغضبُ المرأة على ابنتها، فتلحق المغضوبَ عليه أنفةٌ تؤدِّيه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصّر ويتعمّد، فلا يجد الأب للابن سبيلا، ولا الأم للبنت سبيلا.

فتأمَّل حالَ من يُمنى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقِّعًا لوقوع هذه الفتنة فيهم! حتى صار همُّ الدهر كله في مداراة الأهل والولد، خوفَ هذه العاقبة.

وأهلُ النظر في العواقب منهم يخافون أن يمضي علبهم ما مضى على أهل جزيرة أقريطش « كريت» من المسلمين، في المدة السالفة، فإنه لم تزل بهم الملكةُ الطاغيةُ من الاستدراجِ الشيءَ بعدَ الشيء، حالا بعد حال، حتى اضطُّروا إلى التنصُّر عن آخرهم، وفَرَّ منهم من قضى الله بنجاته، وحقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين، واللهُ غالبٌ على أمره؛ لا إله سواه.

ومن عظم هذا الرجل المذكور في نفوس النصارى، أنهم يزعمون أنه لو تنصّر لما بقي في الجزيرة مسلم إلا وفعل فعله اتباعا له واقتداء به، فهو على ثغر عظيم من ثغور الإسلام؛ تكفَّل الله بعصمتهم جميعهم ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه، فكان ثباته تثبيتا للكثير وتسلية لهم. ([197])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# حكايات من صقلية (٦)

قصَّةٌ تقطِّعُ الأكباد!

ومما رآه ابنُ جبير في رحلته، وأثار دهشتَه وحزنه، حتى قال أسفًا: ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطِّع النفوس إشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحناناً أن أحد أعيانِ هذه البلدة ([198]) وجّه ابنه لأحد أصحابنا الحجاج راغباً في أن يقبل منه بنتاً بكراً صغيرة السن قد قاربت الإدراك، فإن رضِيَها تزوَّجها وإن لم يرضها زوَّجَها ممن رضي لها من أهل بلده، ويخرجُها مع نفسه راضيةً بفراق أبيها وإخوتها طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة للعيش في بلاد المسلمين، فطاب الأبُ والإخوةُ نفساً لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلُّص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم... طال عجبُنا من حال تؤدي بإنسان السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها يد رجل غريبٍ يرحل بها، ويغرِّبها! واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما أنا استغربنا حال الصبيَّة - صانها الله- ورضاها بفراق أهلها وعشيرتها وديارِها؛ رغبةً في الإسلام واستمساكًا بعروته الوثقى، والله عز وجل يعصمها ويكفُلُها ويؤنسُها بنظمِ شملِها ويديرُ أمرَها بمنِّه، واستشارها الأبُ فيما همَّ به من ذلك، فقالت له: إن أمسكتني فأنت مسؤول عني! وكانت هذه الصبية دون أم ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها. ([199])

الآن تذكّر كيف رضي بعض المسلمين أن يرسلوا أبناءهم الصغار إلى أوروبا وأمريكا، دون تحوّط لدينهم وأخلاقهم! يودِعون فلذات أكبادهم ومهجةَ قلوبهم عند النصارى والملاحدة، يعبثون بعقولهم! من أجل دنيا زائلة، ومعيشةٍ رغيدة! وبضدها تتبين الأشياء!!!

فشتان بين من يريد الدنيا وبين من يريد الآخرة! بين من همه دينه ومن همه دنياه، من شغله الشاغل وهمته في صلاح دنيا أبنائه، وبين من شغله الشاغل صلاح آخرة أبنائه، فارقت الفتاة والديها وأخواتها ووطنها، لكن الله تعالى سيجمع الأحبة في الجنان الوطن الحقيقي، الوطن الأول مهد البشرية، ومسكن أبينا آدم وأمنا حواء! وكما قيل:

وَكَمْ مَنْزِلٍ لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى

وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا

مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى

نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنَسْلَمُ

وهناك من الشباب المسلم من فسدت أخلاقه وضيَّع دينه، وصرنا نسمع عن ضياع أبناء المسلمين وانصهارهم في عادات وتقاليد المجتمعات الغربية المتحرِّرة، وتفكُّك بعض الأسر المسلمة التي هاجرت إلى أوروبا طلبا للأمن والرخاء، بعد الأحداث الراهنة، وذوبان بعضها باسم الاندماج والتحرر.

ولله الأمر من قبل ومن بعد!

أبٌ تقيٌّ يودع ابنتَه كريمتَه لدى عابر سبيل، توسَّم فيه الخيرَ والصلاح، ليرحل بها إلى بلاد الإسلام، لتعيش في كنف زوج مسلم، أو يتزوجها إن شاء ورضيت به، وقد سلّمت لأبيها، كما سلّمت هاجرُ لإبراهيم عليه السلام، وسلّم إسماعيل!

ثم في عصرنا آباءٌ كلُّ همهم أن يقذفوا بأبنائهم في خضمِّ البحر على سفنٍ متهالكة، آملين أن يصلوا إلى سواحل أوروبا، لينعموا بدنياهم، وإن ضيّعوا آخرتهم! لا يعبئون إن صار الابنُ نادلا في مطعم أو ساقيا في حانة! أو حارسًا على عُلَبِ الليل ونواديه! أو عاطلا يعيش على معونة، ولو فطنوا وعقِلوا لآثروا السلامة في الدين، على نعيم الدنيا بأسرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

## حكايات من صقلية (٧)

# فتى يخفي إسلامه

حكى الرحالة ابن جبير، وقد دخل جزيرةَ صقلية: وصادف كثيرا ممن يكتم إسلامه، بعد أن تغلب عليها الصليبيون، قال: لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح، من وجوههم وكبرائهم، بعد تقدمه رغبة منه إلينا في ذلك، فاحتفل في كرامتنا وبرنا وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه مجلسه، وإخراج كل من كان حوله من خدَّامه ممن يتّهمه؛ محافظة على نفسه.

فسألنا عن مكة قدَّسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المنورة ومشاهد الشام، فأخبرناه، وهو يذوب شوقاً وتحرُّقاً، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطُّرَفِ المباركة، من مكة والمدينة قدَّسهما اللهُ، ورغِبَ في أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك.

وقال لنا يغبطنا: أنتم مدلُّون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم. ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرًّا، معتقَلون في ملك كافر، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج، واستهداء أدعيتهم، والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة، لنتخذها عدة للإيمان، وذخيرة للأكفان، فتفطّرت قلوبنا له إشفاقا ودعونا له بحسن الخاتمة، وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغِب فيه. وأبلغ في مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمناه سائر إخوانه من الفتيان. ([200]) وأدركنا النعمة التي أنعم الله بها علينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

# كسر الصنم

لما تغلّب النصارى على الأندلس، واستولَوا على مدائنها وقراها، هاجرَ الكثيرُ من أهلها، ومنهم من بقي حرًّا بعد أن افتدى نفسه، ومنهم من أصبح مملوكا للنصارى الذين استولوا على أرض المسلمين وديارهم، وكان من ضمن هؤلاء مسلم يدعى أحمد، كان غيورا على الإسلام، متمسكًا به، وكان مملوكا لرجل من الأغنياء أصحابِ الأراضي الواسعة، وكان مخلصا له في خدمته.

وكانت هذ الحكاية الطريفة، التي حكاها أحمد الحجري الأندلسي رحمه الله، سمعها بمرّاكش من الفقيه علي بن محمد البَرجي الأندلسي رحمه الله.

حدث بقرب البلد الذي كان الفقيه الأندلسي ساكنا فيها، بَرجة، قريبة من المرية، أن مسلما أسيرا اسمه أحمد، كان سيّده من كبار الأغنياء، ذكر اسم مرتبته مثل مركش أو قند –يعني ماركيز أو كونت، وهي ألقاب تُخلعُ على كبار الإقطاعيين في أوروبا- وله بلدان ملك له، وفي قريةٍ من بلاده اتفق أعيان سكانها على شرائهم تمثالا لمبعودِهم، يقدسونه ويعظّمونه، من دون الله وبعد شرائه في بلد آخر ظهر لهم أن يبعثوا أحمد المسلم ليأتيهم بالصنم، فركب حمارا، ووضع الصنم عليه، وهو يمسكه إلى أن خرج إلى الطريق، فالتفت يمنة ويسرةً فلم ير أحدا، فقال للصنم: والله ما نحملك إلا مربوطا مجرورا، وربطه بحبل في الحمار وجرّه على الأرض، ولما اقترب من القرية، وجد أهلها قد خرجوا لاستقبال الصنم والاحتفال به، فلما رأوه من بعيد راكبا والصنم مجرورٌ على الأرض أسرعوا جميعا، ورفعوا قبعاتهم؛ حاسرين رؤوسهم تعظيما للصنم وطفقوا يمسحونه، ويبكون أسفًا على ما أصابه، وقبضوا على المسلم أحمد، والغيظُ يفترسُهم، وأخذوا يأتمرون بينهم ماذا يصنعون به: هل يقتلونه أو يضربونه؟ واتفق نظرهم أنهم يحملونه إلى سيده وهو مولى بلدهم ليقتله بنفسه. ومشوا على حردٍ لسيدهم، وهم واثقون بأنه سينكّل به، لما فعله بصنمهم؛ فقال لهم سيدهم بعد أن اشتكوا إليه: أنتم تستحقون أشد العقوبة إذ بعثتم مسلما يأتيكم بالصنم، هو عَمِلَ بمقتضى دينه.

وبقي أحمد سالما، ضاحكا عليهم، وهم في خزي، وهمٍّ، وذل، وصنمهم مجرور مكسور مقهور. ([201])

{وَقُ جَآءَ حَقُّ وَزَهَقَ بَٰطِ إِنَّ بَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[الإسراء: ٨١]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

**<u>لينك الانضمام الى الجروب – Group Link</u>**

**<u>لينك القنـــــاة – Link</u>**

# فهرس المحتويات


**عن الكتاب..**

**مقدِّمة**

صقر قريش
الوليمة الأخيرة
نزهة وحكاية (١)
*مُنْيَة الرَّصافة*
نزهة وحكاية (٢)
أعجِبْ لهمَّةِ هذا العالم!
متسوِّلٌ أندلسي في بغداد!
الرحّالةُ الأندلسي والصيادُ النبيل
اتقِ دعوةَ المظلوم
*أربع حكايات*
وأنا أشهد أن رسول الله
*ما كتب قط حرفا!*
إحسان عفان
الجود عفَّان
لماذا فارق حظيَّتَه الحسناءَ وفراشَه الوثيرَ!
أسألكم عن قاضٍ فتدلوني على زامر
الزاهرة قصة مدينة
مواعظ الملوك (١)
مواعظ الملوك (٢)
مواعظ الملوك (٣)
*نسائم الحنين*
*نعي مدينة الزهراء*
مواعظ الملوك (٤)
مواعظ الملوك (٥)
*زائرٌ لا يُردّ*
اللطيمة! أو قصة الحجرين.
أغلى وداع
برأسِ أبيها يمتحنُهَا!
عالِمٌ ربانيٌّ يربي تلاميذه
*وَرَعٌ شديدٌ*

بركة العلم وعزة العلماء
حريق طليطلة والحرزُ
حكايات من صقلية (١)
*سلطانُ العلم*
حكايات من صقلية (٢)
*قلبي قلبي*
حكايات من صقلية (٣)
*عندما غارت الحوراء!*
حكايات من صقيلة (٤)
فتاة من عكا
*درسٌ عظيم من فتاة صغيرة*
عاقل الأندلس
ذكاء القاضي
يا رزق!
الفرج بعد الشدة (١)
الفرج بعد الشدة (٢)
الفرج بعد الشدة (٣)
الفرج بعد الشدة (٤)
*صاحب الهميان*
الفرج بعد الشدة (٥)
*خذْ هميانَك أيُّها الفقيهُ*
الفرج بعد الشدة (٦)
كرامة ١
*أظننتَ أنني ليس لي من ينصرني!*
كرامة ٢
*من الأندلس إلى القاهرة*
من جاء أولا فليقرأ أولا!
يفرُّ من القضاء إلى الموت!
رفضوا منصب القضاء!
*سبع حكايات*
إنصاف تاجر يهودي
من دهاء المعتضد ٢
*أغرب جريمة قتل!*
راعي الخنازير!
لو ملأتَها بُرًّا لملأناها تِبرا!
مصفوعٌ ألفَ صفعة!

[جور الزمان](#)
[ذكرياتٌ حلوة في الزمن العصيب](#)
[ولكلِّ محنة نهاية](#)
[الصلاة على الغريب!](#)
[مجالسُ الملوك](#)
[*سفير الأندلس في بلاط ملك المغرب*](#)
[التعصُّب القاتل](#)
[لقاءُ الأَحِبَّةِ](#)
[بركة دعاء الصالحين](#)
[حكايات من صقلية (٥)](#)
[حكايات من صقلية (٦)](#)
[حكايات من صقلية (٧)](#)
[فتى يخفي إسلامه](#)
[كسر الصنم](#)

**[فهرس المحتويات](#)**

# Notes

[←1]
الكامل في التاريخ، لابن الأثير ت ٦٣٠هـ (٥/ ٧٧)، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، (ت نحو ٦٩٥هـ) (٢/ ٦٠).

[←2]

عدَّ العالم الأندلسي علي ابن رزيني التجيبي ت نحو ٦٩٥ ه، صاحب كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ٢٧ صنفا من أصناف الثريد وذكر مكوناتها ومقاديرها وطرق إعدادها وطهيها، كما ذكر المؤلف رحمه الله أكثر من ٦٠ طريقة لطبخ اللحم.

[←3] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني ت ٥٤٢هـ (٧ / ١٣٥).

[4←] الكامل في التاريخ لابن الأثير (٥/ ٢٧٨) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ت ٧٤٨ هـ. (٧/ ٢٧٦)

[←5]

شُفِي الأميرُ.

[6←] «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» (٢/ ٩٢).

[7←]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني ت ١٠٤١ه. (٣/ ٢٣٤)، والمغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ) ١/ ٤٦، والحلة السيراء، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ). (١/ ١١٤)

[←8] المقتبس من أنباء الأندلس، لابن حيان القرطبي ت ٣٠٠ هـ (ص: ١٥٢).

[9→]

المقتبس من أنباء الأندلس (ص: ١٥٤)

[←10] «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض أبو الفضل السبتي ت ٥٤٤ ه (٤/ ١٣٩). ويراجع أخبار الفقهاء والمحدثين، محمد بن حارث الخُشني، ت ٣٦١ه. ترجمة ٣٢٨.

[11←]

- شرح صحيح البخارى ـ لابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف ابن اللجام القرطبي الأندلسي (ت ٤٤٩هـ). (١/ ١٣٤)

[←12] اقرأ ما كتبه كامل كيلاني في كتابه: نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي، خصوصا ما كتبه عن الفقيه منذر بن سعيد البلوطي والخليفة عبد الرحمن الناصر، وهو مجموعة محاضرات، يردد فيها كلام المستشرقين المُغرضين، مسلِّما بما يقولون، وقد شنّ حربا على الفقهاء وعلى استجابة الأمراء لنصحهم، واتهم العلماء بالجمود والرجعية، واتهم الأمراء بالنفاق والتصنُّع والتملُّق للفقهاء. والهجمة على فقهاء الأمة قديما وحديثا من قبل أعدائها ومن خُدعَ بهم لا تزال مستعرة.

[←13]

انظر سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٣/ ٢٩٥).

[←14] السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (٢/ ٦٦٧).

[←15]

نفح الطيب - (٣ / ٣٩١).

[←16] جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح الميورقي (المتوفى: ٤٨٨هـ) (ص: ١٨٣).

[17←]

له كتابٌ جليلٌ في اللغة لم يؤلف مثله سماه الموعب، ويقال عنه تلقيح العين، أو تنقيح العين، «أتى فيه بما في العين للإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي، من صحيح اللغة، مقتصراً على الشواهد الصحيحة طارحًا ما فيه من الشواهد المختلقة، والأبنية المختتلة، والكلمات المصحّفة، التي وقع فيها النُّسّاخُ، وزاد فيه ما زاده ابن دريد في كتابه جمهرة اللغة، فصار مستوعبًا للكتابين جميعاً».

[←18]
فضائل الأندلس وأهلها - (١ / ٣٢) لابن حزم ت سنة ٤٣٦، الصلة (١ / ٤٢)، والمغرب في حلى المغرب - (١ / ٤٠) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - (١ / ١٢٦).

[←19] قال أهل العلم: «وبمحمد بن وضاح وبقيٍّ بن مخلد صارت الأندلس دار حديث، وكان محمد عالما بالحديث بصيرا بطرقه متكلما على علله، كثير الحكاية عن العباد ورعا زاهدا فقيرا متعففا صابرا على الإسماع محتسبا في نشر علمه، سمع منه الناس كثيرا ونفع الله به أهل الأندلس» «تاريخ دمشق لابن عساكر» (٥٦/ ١٨٢).

[20←]

«تاريخ دمشق لابن عساكر» (٥٦/ ١٨٠).

[←21] أبو عمر ابنُ الجبَّابِ أحمد بن خالد، «جياني الأصل سكن قرطبة، كان حافظاً متقناً وراوية للحديث مكثراً» « كَانَ إِمَاماً فِي الفِقْه لمَالِكٍ. وَكَانَ فِي الحَدِيْثِ لَا يُنَازَع، سمع منه خلق كثير». «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا أخرجتِ الأَنْدَلُس حَافِظاً مثل ابن الجباب، وابن عبد البر» «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» ابن عميرة؛ أحمد بن يحيى، أبو جعفر الضبي ت ٥٩٩ه (ص١٧٥). الجبَّاب نسبة لصناعة الجباب، جمع جُبة. وقال ابن عساكر: «كان أحمد بن خالد لا يقدم على ابن وضاح أحدا ممن أدرك بالأندلس وكان يعظِّمه جدا ويصف فضله وعقله وورعه»«تاريخ دمشق لابن عساكر» (٥٦/ ١٨٢).

[←22] أخبار الفقهاء والمحدثين، محمد بن حارث الخُشني. ص١٢٧.

[←23] الْغَلَسُ فِي اللُّغَةِ: ظَلَامُ آخِرِ اللَّيْل، أَوْ إِذَا اخْتَلَطَ بِضَوْءِ الصَّبَاحِ، أَوْ أَوَّل الصُّبْحِ حِينَ يَنْتَشِرُ فِي الْآفَاقِ، يقال: غَلَّسْنا أي سرنا بِغَلَسٍ، ويقال: غلَّس القومُ تغليساً، إذا ساروا في آخر الليل.. جمهرة اللغة - (١ / ٤٧١). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢ / ٦٤٧). وهو ابن عم أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي المؤدّب المتوفي في الأندلس ٣٧٩. إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/ ٣٦٤). ونفح الطيب (٢/ ٦٤٧). الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (٢/ ٢٠٠).

[←24]

سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٢٩٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٥٢٦)، وضعفها الإمام الذهبي. وهي منقولة عن الصلة لابن بشكوال.

[←25] تاريخ علماء الأندلس عبد الله بن محمد بن يوسف، أبو الوليد، المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ). (٢/ ١٧).

[26←]
المستغيثين بالله تعالى عند المهمّات والحاجات، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي (ت ٥٧٨هـ) (ص: ٧١).

[27←] ثوبٌ خفيفٌ سابغٌ من الصوف، يقي من المطر، والمطر كأفواه القِرَب.

[←28]

وكان رجلًا كريمًا عاقلًا، عظيم الجاه، سمحا، جوادا، كثير الصدقات والإحسان، كامل المروءة، رأى مرة شيخا حطابا ضعيفا، فوهبه مئة دينار، وعم إحسانُهُ اليهودَ والنصارى، حتى حضر منهم الكثير في جنازته وكانوا يبكون عليه.

[←29]

الدهليز الذي يُفضي إلى البيت.

[←30]
جنة الرضا والتسليم، لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي ت٨٥٧ه (١/٢٣١، ٢٣٢)، وانظر ترجمة الفقيه عبيد الله:تاريخ الإسلام للذهبي (٢٢/ ١٢٨)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٣٢). (والدهليز) الممر الذي يكون بين باب الدار ووسطها، وهو الذي تقول له العامة: الإسطوان.

[←31]
سقطت في أيدي الصليبيين سنة ٥٧٣ هـ بعد أن كانت حاضرة من حواضر الأندلس على ساحل البحر، غربي قرطبة، مدينة غنية بالموارد، معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ١٩٥).

[←32]

يصفها “الحميري” في كتابه “الروض المعطار” فيقول:شنترة من مدائن الأشبونة في الأندلس على مقربة من البحر، ويغشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهي صحيحة الهواء، تطول أعمارُ أهلها، ولها حصنان في غاية المنعة، وبينها والبحر قدر ميل، وهناك نهر ماؤه يصب في البحر، ومنه شرب جناتهم؛ وهي أكثر البلاد تفاحًا، ويجلّ عندهم حتى يبلغ حجمُ الواحدة أربعة أشبار، وكذلك الكمثرى، وبجبل شنترة ينبت البنفسج البري، ويخرج من شنترة عنبر جيد. حكى الْفَقِيهَ أبو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَسَدٍ الْإِشْبِيلِيَّ الْأَنْدَلُسِيَّ، بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، يَقُولُ: رَأَيْتُ عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ تُفَّاحًا أَحْمَرَ، دَوْرُ كُلِّ تُفَّاحَةٍ ثَلَاثَةُ أَشْبَارٍ وَثُلُثٍ، جُلِبَ إِلَيْنَا مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا شَنْتَرَةُ مِنْ مُدُنِ الْأَنْدَلُسِ. «الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص٣٤٧).

[←33]
-انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني (٣/ ٣٣٦)، (٣٤٠)

[←34]

المستغيثون بالله تعالى لابن بشكوال ص٧٩ – ٨٠

[←35]

حوشٌ.

[36←]
المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات (ص: ٨٤) و سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٧/ ٥٩٢).

[←37] معجم السفر للسلفي (١ / ٣٥٦).

[38←]
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: ٥٧٨) (١ / ٢٢٤)، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت: ٦٥٨) (٤ / ٢٤٧).

[39→]

الأبيات: للإمام هبة الله بن الحسين الشيرازي.

[←40]
الأبياتِ للمُرْسِيُّ، لشَرَفِ الدِّيْنِ أَبي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدٍ بن عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ أَبِي الفَضْلِ السُّلَمِيِّ، المُرْسِيِّ، الأندلسيِّ، الإِمَامِ، العَلاَّمَةِ، البَارِعِ، القُدْوَةِ، المُفَسِّرِ، المُحَدِّثِ، النَّحْوِيِّ. وابن حفاظ عبد الله بن أحمد بن الحاج الهواري،كان من أهل العلم والذّكاء، عُني بالحديث أتمّ عناية، وشُهِر بحفظه وإتقانه ومعرفته. وكان حَسَن الخطّ، جيّد الضَّبْط، مع الفضل، والصّلَاح، والورع، والانقباض، والوقار. وكان أخوه عبد الله أزهد النّاس بالأندلس. التكملة لكتاب الصلة (٢ / ٣٠٨) والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - (٦ / ٨٩٠) والروض المعطار في خبر الأقطار - (١ / ٣٤٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٣/ ١٢٧).

[←41]

تبعد جيان عن قرطبة ١٠٨كم.

[←42] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/ ٣٣٥).

[←43]

من الرحالة الأندلسيين  أبو حامد عبدالرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي، ولد في أقليش، من أعمال شنت بريّة، وهي على نهرٍ منبعثٍ من عين عاليةٍ على رأس المدينة، وإليها تنسب معركة فاصلة لا تقل عن معركة الزلاقة، معركة أقليش Uclés، وتسمى معركة الكونتات السبع، ٥٠١ هـ، قتل فيها سوانشو ولي عهد الفونسو ملك قشتالة ونجح جيش المرابطين بمساعدة الأندلسيين أن يسحقوا جيش الطاغية ألفونسو، ويقتلوا فرسانه فضلا عن ولده، الأمر الذي جعله يموت كمدًا. صفة جزيرة الأندلس (ص: ٢٨).

[←44] تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، رحلة أبي حامد الغرناطي الأندلسي ص ١٥٨-١٦٠

[←45]
تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، رحلة أبي حامد الغرناطي الأندلسي، ص ١٦١-١٦٣ والنيدة حلوى مصنوعة من عسل القمح معروفة بمصر، ومشهورة بأخميم، تصنع من القمح، تشبه الخبيصة. أعْدالٌ: جمع عِدل، اسم حمل، معدول بحمل، على البعير أو البغال والحمير، والعدلان: الحملان على الدّابّة، من جانبين.

[←46] جاء في كتاب نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس (١/ ٤٠): «كما كانت لديه دار خاصة بالأسود، اتخذها لإرهاب الناس، وهذه الدار تقع «ظهر قصره فوق القنطرة الماثلة على الخندق، وبجوفه المطبق به ينسب إليها اليوم فتدعى قنطرة الأسود». وانظر المقتبس في أنباء الأندلس، ص٣٩.

[←47]

«سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ١٧٣)، والقصة رواها البيهقي في دلائل النبوة، ورواها الطبراني في المعجم الكبير بسند لا بأس به.

[48←]

«الإصابة في تمييز الصحابة» (٥/ ٥١). و«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» (١/ ٢٠).

[49←]

يصمه بأنه من الخوارج، الحرورية نسبة لبلدة حَرُوراءَ بقرب الكوفة بالعراق نُسِبوا إليها.

[←50]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ١٨٥).

[←51]

مصبوغا بلون العصفر كلون الزعفران.

[←52]

حذاء صرَّار: يصدر صوتا حين يسير، وعليه جمة مفروقة: تسريحة شعره كأنه شابٌّ بطَّالٌ في العشرين.

[←53]
حَسَن بن عُبيْدالله بن محمد بن عبد الملك بن الحَسن ... من أهل قُرْطُبَة؛ يُكَنَّى: أبا عَبْد الملك، ويُعْرَف: بآبن زُونَان. «تاريخ علماء الأندلس» (١/ ١٣٠).

[←54]

ثوب منسوج من الصوف والحرير

[←55]

«ترتيب المدارك وتقريب المسالك» (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧).

[←56]

ورغم اهتمام المنصور بمدينة الزهراء إلا أنها لم تدم طويلاً، فقد خربت بعد وفاته بسبع سنين. انظر: البيان المغرب ٢/٢٧٥-٢٧٧، الروض المعطار، ص٢٨٣-٢٨٤، قصة الحضارة، ول ديورانت (١٤ / ١٧٦).

[57←]

انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي (٢/ ٢٧٧)، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ص: ٢٨٤).

[58←]
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢/ ٢٧٥).

[59←]

حكى مسلمة بن عبد الله عرِّيف البنائين، قال: بدأ عبد الرحمن الناصر بنيان الزهراء أوّل سنة خمس وعشرين وثلاث مائة ...وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل، يرتّب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال من الذهب. وكان يورّد إلى الزهراء من الجير والجص في كل ثلاثة أيام ألف ومائة حِمْل. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي بتصرف (٢٤ / ٤٦). أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٢/ ٢٦٩).

[←60]
مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس (١ / ٩٨)، معجم الأدباء (٦/ ٢٧٢٠).

[←61]

ومن العجب العجاب ما ذكره المستشرق الإنجليزي نيكلسون، وتبعه كامل الكيلاني في محاضراته عن الأدب الأندلسي التي ألقاها بجامعة القاهرة، أن الخليفة كان مغلوبا على أمره مجبر على تقبل كلام الفقيه، وأعجب من ذلك اتهامه للفقيه المنذر بالخشونة والجفاء والجمود والرجعية، وأن الناصر كان ينافق الفقهاء، ويسترضيهم خوفا منهم، لا أدري من أين أتوا بهذه الافتراءات؟ كبرت كلمةً خرجت من نفوس لا تقدّر معنى النصح، ولا تفقه طبيعة دين الإسلام، وخصوصية هذه الأمة التي مدحها الله تعالى بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وسنرى في كتاب «البقية في اللطائف الأندلسية» كيف كان الفقيه المنذر مرحا، صاحب دعابة. ليس كما صوره نيكلسون وتبعه كيلاني بأنه فظٌّ غليظٌ متجهّم، ذلك الافتراء الذي أسقطوه على الفقهاء عموما، والذي اسودت به صفحات كتب المستشرقين وأذنابهم من المستغربين والعلمانيين والحداثيين.

[←62] ثوب يلبس للوقاية من المطر.

[63←]
مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان ت ٥٢٨ ه. (١ / ١٠٢).

[64→]

سير أعلام النبلاء للذهبي (٨ / ٥٦).

[65←]
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/ ٥٧٦). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١ / ٤٣٦)

[66→]

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١ / ٤٣٦).

[←67]

المعجب في تلخيص أخبار المغرب (١٠٩).

[68←] أما الآن وبعد مضي أكثر من ثمانية قرون على سقوطها فإن عدد سكانها الحلي فقط قرابة ٣٥٠ ألف نسمة!

[←69]

قصة الحضارة، ول ديورانت (١٤ / ١٧٦).

[←70] أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٢/ ٢٦٥).

[71←]

«أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» (٢/ ٢٨٢). ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/ ٣٧٩). وقصة الحضارة ول ديورانت (١٣/ ٢٨٤).

[←72]

البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب (١ /٢٤٣).

[←73] «المقتبس من أنباء الأندلس» (ص١٥٨). غَضَارَةُ العَيْشِ: النِّعْمَةُ، طِيبُ العَيْشِ، وغَضَارَةُ النَّبَاتِ: خُصُوبَتُهَا، نُعُومَتُهَا.

[←74] لعًّا: كلمة تقال عند العثرة. «إذا عثَر الشَّابُّ قيل له لعًّا لك، دعاءٌ كأنه قال: نَعشكَ اللهُ ورَفعك»

[←75] «العقد الفريد» (٥/ ١٧٣)، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٢٤).

[←76]

الخادمة القائمة على رأسه.

[←77] دما أحمر قانيا متجمدا.

[←78]

المقتبس من أنباء الأندلس (ص: ١٥٩)

[←79] جنة الرضا والتسليم، لابن عاصم الغرناطي (٢/١٣).

[80←]

كان أحمد بن بقي من خيرة القضاة، وأكثرهم رفقاً وإشفاقاً، بحيث يقال إنه لم يقرع أحداً من الناس في طول مدة قضائه بسوط وكانت نحواً من عشرة أعوام إلا رجلاً واحداً مجمعاً على فسقه. وكان شأنه في الحكومة أن ينفذ من الأمور الظاهر البيِّن الذي لا ارتياب فيه، ويتأنى ويشاور. انظر: تاريخ قضاة الأندلس (ص: ٦٤)

[81←]

«محمد بن إبراهيم بن عيسى، أبو بكر الكنانيّ القُرْطُبيّ، المعروف بابن حيُّونه. كان إماما في الحديث حافظا لعلَله بصيرًا بطرقه، لم يكن بالأندلس قبله أبصرُ بالحديث منه، كما كان فقيها وأديبا، طاف المشرق في طلب العلم، وطالت رحلته، فبلغ مقامه هناك نحو خمس عشرة سنة جال في الحجاز وصنعاء وبغداد والشام ومصر والقيروان- قال عنه تلميذه خالد بن سعيد: لو كان الصِّدق إنسانًا لكان ابن حيّون. توفي رحمه الله سنة ٣٢٨ هـ». يراجع «تاريخ الإسلام للذهبي (٧/ ٥٥٥):

[82←]

جنة الرضا والتسليم لابن عاصم الغرناطي ٢ /٤٢، ٤٣، ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/ ٣٩٩). وبدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي، أبو عبد الله، شمس الدين الغرناطي ابن الأزرق (المتوفى: ٨٩٦هـ) (١/ ٢٤٥). والأحباس: الأوقاف، كان أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس، يتنافسون مع الأثرياء من رعاياهم في التحبيس لوجه الله تعالى، طلباً لمرضاته، وطمعاً في ثوابه، ومواساة لضعفاء المسلمين. نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس (١/ ٣٦٣).

[←83] ماتةُ القرابة، أي صلتها، ووشيجتها، كما يقولون: لا يمتُّ له بصلة.

[←84]

«المقتبس من أنباء الأندلس» (ص١٧٣).

[←85]

تاريخ قضاة الأندلس (ص: ٨٤، ٨٥).

[←86]

قال الفقيه ابن الهندي: قال لي ابن السليم: رأيتُ ثلاث مرات رؤيا استدللتُ من اثنتين منها، على أنني ألي القضاء، وبالأخرى على أني ألي الصلاة. قلت له: كم كان بين رؤياك الأولى، وولايتك القضاء؟ قال ثلاثين سنة.

فلما ولي الحكم المستنصر الخلافة - بعد موت أبيه - قدّمه إلى المظالم والشروط. إلى أن توفي قاضيه، منذر بن سعيد، فولاه مكانه قضاء الجماعة، وذلك سنة ست وخمسين ومئتين. وجمع له معها الخطبة والصلاة سنة ثمان وخمسين. فحمد الناس سيرته، إذ كان من سيرته التأنّي في الأحكام، والتريُّث في القضاء؛ يتحرى العدل والإنصاف.

[←87]
نسبة لدلاية، وهي بلدة من أعمال المرية الأندلسية، كان قد رحل مع أبيه وهو صغيرٌ حاجًّا وجاور بمكة ثماني سنوات، وروى الصحيحين وغيرهما، عن الأكابر من علماء الحجاز وممن ورد عليها حاجًّا من العراق والشام وبلاد فارس، وما وراء النهر، ثم عاد للأندلس فالتفَّ حوله طلابُ العلم، ومنهم أبو الفتح السمرقنديُّ الذي جاء اليوم ليودِّعه

[←88]

نصر بن الحسن بن أبي القاسم بن أبي حاتم بن الأشعث، أبو الليث وأبو الفتح الشاشي التنكتي التاجر، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ٤٧٦).

[89←]
الدانِق والدانَق: بمعنى واحد، وهو سُدُسُ الدرهم، وجمعُها: دوانِق، والعامَّةُ تقولُ: دوانِيق، إسفار الفصيح للهروي، ويراجع: لسان العرب (١٠ / ١٠٥).

[←90]

[←91]

الصلة لابن بشكوال ١/ ٨٣.

[←92]

ابن شاطر هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاطر الجمحي المراكشي توفي في شهر بيع الثاني عام خمسة عشر وسبعمائة، والعمدة الذي كان ينسخُه أظنه: العمدة في صناعة الشعر، لابن رشيق أبي علي: الحسن القيرواني ت ٤٥٦.

[←93]

نفح الطيب - (٥ / ٢٨٥).

[←94]
أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة (٤/٣٣٤، رقم ٥٣١٢). والطبراني في الأوسط (١/٢٧٥، رقم ٨٩٧).قال الهيثمي (٤/٩٨): فيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة.

[95←]
معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، لابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) (ص١٢٠).

[←96]

نفح الطيب (١ /٤١٢، ٤١٦).

[←97] التكملة لكتاب الصلة - (ج ٤ / ص ٢٤٩). ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (٣/ ٨٩)، وحَكَمَ لمولاك: المولَى الخليفة الطفل هشام المؤيد، باعتبار غالب من موالي بني أمية.

[←98]

يحيى بن الحسن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صفوان توفي رحمه الله ٦٢١ه بماربلة. مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، لابن خميس المالقي (١ / ٢٢٠).

[←99] أي تجنبنا، وتنحّى عن مجالستنا.

[←100]

التكملة لكتاب الصلة (٢ / ٢٣٤).

[←101]

ابن القزاز القرطبي، إبراهيم بن محمد بن بازٍ. توفي بطليطلة عام ٢٧٤ه. المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥ هـ) (١/ ١٧٩).

[←102] تصغير قُفّة: سلة تصنع من الخوص ونحوه. والفسائل: جمع فسيلة، وهي شتلة من الشجر الذي يغرس أول نموه.

[←103]
أحمد بن خالد بن يزيد يعرف بابن الجباب، جياني الأصل، سكن قرطبة، كان حافظاً متقنا، وراوية للحديث مكثرا. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: ١٢١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص: ١٧٥).

[←104]

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص٣٤).

[←105]

كان الفقهاء يلبسون الجبة من الصوف أو الكتان، والطيلسان على الرأس، وهو منديل كبير يوضع على الرأس ويرسل على الكتفين، وهو ما يعرف بالغترة أو الشال، وارتدى بعض القضاء والفقهاء والأدباء الأندلسيين القلنسوة التي تتخذ غالبا من فضل الثياب، بعد حياكته.

[←106]

المدخل لابن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي (ت ٧٣٧هـ). (٤/ ٩٣).

[←107]

المدخل لابن الحاج (١ / ١٥٠).

[←108]

المقتبس من أنباء الأندلس (ص: ١٨٦-١٩٠).

[←109]

ابن ميمون أبو جعفر أحمد بن عبيدة الأموي، عاش سبعًا وأربعين سنة. توفي بطليطلة عام ٤٠٠هـ.

[←110]

«الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال» (ص٢٧).

[←111]

يقول ابن خلدون:» وكان المسلمون في عهد الدّولة الإسلاميّة قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النّصرانيّة قِبَلٌ بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيّامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السّواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة ...» تاريخ ابن خلدون (١/ ٣١٤).

[←112] مثل: «فلوكه» «الشراع، و «الميزان» و «الحبل» cable و «دار الصناعة» arsenal و «أمير البحر» admiral «. ذكرت ذلك المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه في كتابها الرائع شمس الله تشرق على الغرب، فضل العرب على أوروبا (ص: ٥٦).

[←113]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١ / ١٦٩).

[←114]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ١٧٤)، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا): لأبي الحسن علي بن عبد الله المالقي (ت نحو ٧٩٢هـ (١ / ٥٤)، الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ت ٩٠٠هـ) (١ / ٣١٨)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت ٧٩٩هـ) (١ / ٥٣).

[→115]

[←116]

شمس الله تشرق على الغرب (ص: ٢١٣)

[←117] شمس الله تشرق على الغرب (ص: ٢٦١).

[←118]

ولقد عاشت المدينة ازدهارا ورخاء، حتى استولى عليها الصليبيون عام (٣٥٠هـ)، ولم يعد للمسلمين وجودٌ بها، حتى أعاد العثمانيون فتحها بعد سبعة قرون١٠٨٠هـ. تمتد هذه الجزيرة من الشرق إلى الغرب قرابة ١٦٠ ميلا، ويبلغ عرضها قرابة ثلاثين ميلا، فهي مستطيلة الشكل، تنحدر من جبالها الممتدة بعض الأنهار التي تقطع السهول والوديان، بينما تنتشر على سهولها أشجار الزيتون، وبساتين الأعناب وحقول الذرة.

[←119]

المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات (ص: ١١٩).

[←120]
فح الطيب (٣ / ٦١٦)، وبدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي المصري- (١ / ٤٨).

[←121]

من تلك النزهات الربيعية الأدبية عندما صنع عبد الجليل بن وهبون المرسي الشاعر نزهة بوادي إشبيلية، فأقمنا فيه يومنا، فلما دنت الشمس من الغروب هب نسيم ضعيف غضَّن وجه الماء فقلتُ للجماعة أجيزوا: حاكت الريح من الماء زرد فأجازه كل منهم بما تيسر له… «بدائع البدائه» (ص٣٧).

[←122]

وكان قد قال فيه حين رُحِّل من إشبيلية:

ولما رحلتم بالندى في أكفكم

وقلقل رضوى منكم وثبير

وانتقل الشاعر إلى إفريقية سنة ٥١٦ هـ، ثم عاش آخر أيامه بجزيرة ميورقة شرق الأندلس وتوفي بها سنة ٥٢٧ عن نحو ٨٠ عامًا.

[←123]

أحيائها وساحاتها، وكانوا قد دخلوها فقتلوا وأسروا.

[←124] انظر المستغيثين بالله تعالى عند المهمّات والحاجات، لابن بشكوال الأندلسي (المتوفى: ٥٧٨هـ) (ص: ١١٨).

[←125]

المغرب في حلى المغرب (١/ ١٦٣)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١ / ٢٢٩).

[←126]

نفح الطيب للمقري (٢ / ١١).

[←127]

«سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٢١). ونفح الطيب (٢/ ١١)

[←128]
هو عبد الله بن أحمد بن عبد الملك بن هشام، أبو محمد ابن المكوي، ت ٤٠١ه يكنى: أبا عمر، كبير المفتين بقرطبة، انتهت إليه رياسة العلم بها أيام الجماعة. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص: ٢٨)

[←129]

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٥٦٨).

[←130]

ابن شهيد: أبو عامر أحمد بن السادة الوزراء: أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك الوزير الأديب المؤرخ ابن شهيد ت (٣٩٣). وله رسالة التوابع والزوابع، وجونة العطار، وله شعرٌ رائعٌ (٣٨٢- ٤٢٦ ه). المطرب من أشعار أهل المغرب (ص: ١٥٨).

[←131]

المحتد: الأصل والموضع.

[←132] المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣هـ) (ص١٥٩).

[←133]

المطرب من أشعار أهل المغرب (ص ٤٤).

[←134]

المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات (ص: ٢٧).

[←135]

الغالية، وجمعها الغوالي: أخلاطٌ من الطِّيب.

[←136]
الفقيه أبو عبدالله محمد بن خلصون المالقي الغرناطي رحمه الله، صاحب كتاب الأغذية، وكتاب وصف السلوك، إلى ملك الملوك. توفي في أواخر القرن السابع الهجري.

[←137]

جنة الرضا والتسليم، لابن عاصم الغرناطي ٢/١٧٧

[←138] رواه مسلم. قال عندنا: نام وقت القيلولة.

[←139]

سراج الملوك، للطُرطوشي (ص: ١٦٧). ونقلها عنه شهاب الدين الأبشيهي في كتابه المستطرف في كل فن مستطرف (ص: ٣٢٥).
الهميان: يُقَال للَّذي تُجعل فِيهِ النَّفَقَة، ويشدّ على الوَسَط.

[←140]

سراج الملوك، للطُرطوشي (ص: ١٦٨).

[141←] سراج الملوك للطرطُوشي الأندلسي (ص: ١٧٠).

[←142] عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب لسراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي (ت ١٤٥٧) (١/٢٤).

[←143]

مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار: أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي (المتوفى: بعد ٦٣٩هـ ـ (١ / ٢٢٥).

[←144]

مطلع الأنوار (١ / ٢٢٨).

[←145]
توفي بالقاهرة سنة ٥٩٥هـ. غاية النهاية في طبقات القراء شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) (١ / ٢٨٥).

[←146]

قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيى العرفي أبو محمد السرقسطي وفاته سنة ٣٠٢ه. تاريخ العلماء بالأندلس، لابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) (١ / ٤٠٣). وبغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أبو جعفر الضبي (ت ٥٩٩هـ) (ص: ٤٤٨).

[←147]

كنز الكتاب ومنتخب الأدب، إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أحمد بن علي الفهري الشريشي ت ٦٥١هـ (٢/ ٧١٨).

[←148]
تاريخ قضاة الأندلس المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (ص: ٤٥) ذكر القَاضِي المصعب بن عمرَان.

[149←]
طمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن خاقان ٥٢٨ه (ص: ٢٨٤)، تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن النباهي المالقي (ص: ١٣).

[150←]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ٢٩٨).

[←151] تاريخ قضاة الأندلس (ص: ٥٦).

[←152]

سراج الملوك، للطُرطوشي الأندلسي (ص: ١٦٦).

[153→]

ينظر: الحلة السيراء، لابن الأبار البلنسي (٢/ ٤٢).

[←154]

المعجب في تلخيص أخبار المغرب (١ / ٢٥).

[←155]

«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص٧٤).

[←156]

نفح الطيب (٤ / ٣٥٩).

[←157]

التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار البلنسي (٤ / ٢٦٠).

[158←]
آثار البلاد وأخبار العباد (١ / ٢٢٢). المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص: ٨٨)

[←159]

«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص٨٨). و «تاريخ الإسلام للذهبي (١٠/ ٤١٤).

[←160]

نفح الطيب (٤ / ١٢٧).

[←161]

أي لا يغلبه أحد.

[162←]

المعجب في تلخيص أخبار المغرب (١ / ٣٤).

[←163]

المعجب في تلخيص أخبار المغرب (١ / ٣٥).

[←164]

الطبرزين: آلة تشبه الفأس، تستخدم في المعارك، خريدة القصر وجريدة العصر (٢ / ٤٩٠)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٣ / ٤١٥)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (١ / ٦٠).

[←165]

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٣/ ٣٦٨)، والوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) (١٧/ ٢٨٨) وفِرِنْد السيف: وشيه، أي نقشه.

[←166]

نفح الطيب (٢/ ٢٢٨). والوافي بالوفيات (٥/ ٤٨٥)

[167←]

جمع بَشامَة: شجر طيِّب الرّائحة والطعم يُسْتاك به، لا ثمر له، صغير الورق، والأراك شجرة السواك.

[←168]

كان يعمل في صبغ الثياب، فكشف ابن عمار موهبته، وقدمه لابن عباد، يأتي الحديث عنه في كتاب البقية في اللطائف الأندلسية.

[←169]

نفح الطيب - (٤ / ٢٢١).

[←170]

جمع طمْر وهو الثوب الخلق البالى.

[←171] نفس المرجع ٦ /٥٠.

[←172]

تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (٣٣ / ٤١).

[→173]

العبر في خبر من غبر، للذهبي (٢ / ٣٤٧).

[←174]

نفح الطيب (٤ / ٩٩) والدر الفريد وبيت القصيد محمد المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ) (٦/ ٤٣٧)

[←175]

[←176]

البداية والنهاية (١٢ / ١٦٩).

[←177]

الكامل في التاريخ (٤ / ٣٥٣).

[←178]

سير أعلام النبلاء (٣٧ / ٥٦). وفيات الأعيان (٥ / ٣٠)

[←179]
من مآثره أن ابن بطوطة اتصل به، وأقام في حاشيته يُحَدِّثُ الناس بما رآه من عجائب الأسفار، ولما علم بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التي زارها أمر كاتبه الوزير محمد بن جُزَي الكلبي أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦م، وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). وكان جهوري الصوت، وقورا، كما كان فارسا شجاعاً يتقدم جنوده، فقيها يناظر العلماء، كاتبا بليغا شاعرا، مهتما ببناء المساجد والزوايا وتشييد المدارس، وله حظٌّ من علمي العربية والحساب، وكان حافظا للقرآن عارفا بناسخه ومنسوخه، حافظا للحديث عارفا برجاله، فصيح القلم كاتبا بليغا حسن التوقيع، له أشعار حسنة، من ذلك قوله:

وإذا تصدَّر للرياسة خامل

جرت الأمورُ على الطريق الأعوج

توفي السلطان أبو عنان بفاس سنة تسع وخمسين وسبعمائة. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٣ / ٢٠٥).

[←180]

نفح الطيب (٥ / ٨٠).

[←181]

قال عنها ابن بطوطة:» مدينة الاسكندرية، حرسها الله، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشان، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرُمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة تجلَّى سناها، والخريدة تُجتلى في حلاها، الزاهية بجمالها المُغْرِب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكَلّ بديعة بها اجتلاؤها، وكل طُرفة فإليها انتقاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنّفوا في عجائبها فأغربوا. رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لمحمد بن عبد الله الطنجي، ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ). (١/ ١٧٩).

[←182]

رحلة ابن جبير بتصرف (ص: ١٥).

[←183] أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٣٧٠).

[←184]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك - (٢ / ٥٤).

[→185]

ترتيب المدارك وتقريب المسالك - (٢ / ٢٦).

[←186]

الصلة لابن بشكوال (١ / ١٢٥).

وهو فقيه جليل، عابدٌ ومجاهد ومرابط على الثغور، كان يحفظ المدونة. [187←]

[←188]

المستغيثين بالله تعالى عند المهمات والحاجات (ص: ١٤١- ١٤٢).

[←189]

يراجع: الأمة الأندلسية الشهيدة، تاريخ مائة عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة، عادل سعيد بشتاوي، وكتاب الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، محمد علي قطب.

[←190]

يراجع: الأمة الأندلسية الشهيدة، تاريخ مائة عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة، عادل سعيد بشتاوي، وكتاب الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، انظر: محاكم التفتيش باسبانيا والبرتغال، د على مظهر ص ٤٩، ومذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، محمد علي قطب.

[←191]

نفح الطيب (٤ / ١٣٠).

[←192]
جاء في إنجيل متى: «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم، وإخوته يعقوب ويوسى و يهوذا؟» [متى١٣:٥٥- مرقس٦:٣]

[←193]

يراجع: الأمة الأندلسية الشهيدة، تاريخ مائة عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة، عادل سعيد بشتاوي، وكتاب الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ماثيو كار، ‹›محاكم التفتيش والموريسكيون: محاضر محكمة كوينكا››، مرثيديس غارثيا ـ أرينال، ترجمة خالد عباس، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، تاريخ الموريسكيين حياة ومأساة أقلية، أنطونيو دومينغوث أورتيث،وبيرنارد فانسون، ترجمة محمد بنياية، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، محمد علي قطب (ت ٢٠١٠م) ط دار الاعتصام بمصر.

[194←] محاكم التفتيش ص٩١ وسقوط غرناطة ص١٠٠.

[←195]

هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان بروما. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١/٢٢٥).

[←196] بلدة أطرابنش مدينة إيطالية على الساحل الغربي في صقلية

[←197]

رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت ٦١٤هـ). (ص:٢٧٠- ٢٨٠).

[←198]

بلدة أطرابنش.

[←199]
رحلة ابن جبير (ص: ٢٨١).

[←200]
«رحلة ابن جبير (ص٢٩٩). ومسينة أول جزيرة صقلية. موقعها عند مضيق لونير الذي يفصلها عن قلورية (كلابرية). أطنب ابن جبير في وصف جمالها ورغد عيشها ورواج أسواقها مع إظلامها بالكفر، ومما قال عنها: «وهذه المدينة: مسينة، رأس جزيرة صقلية، وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع»«رحلة ابن جبير ط دار الهلال» (ص٢٦٦).

[←201] ناصر الدين على القوم الكافرين، رحلة أفوقاي، أحمد بن حجر الأندلسي، توفي بعد ١٦٤٠م ص ٨٧